محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

جمعها وحققها وعلق عليها

سيد عبد الماجد الغوري

الجزء الثالث

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

www.abulhasanalinadwi.org

محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

(٢)

www.abulhasanalinadwi.org

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار ابن كثير

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب : ٣١١ - ٢ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ١١٣/٦٣١٨ - تلفاكس ٠١٨١٧٨٥٧ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

www.abulhasanalinadwi.org

محاضرات إسلامية

في الفكر والدعوة

لسماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي

جمعها وحققها وعلق عليها

السيد عبد الماجد الغوري

الجزء الثالث

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

www.abulhasanalinadwi.org

الـنُّبـوَّة والأنـبيـاء فـي ضـوء الـقـرآن

تلقّى العلامة الندوي في شعبان عام ١٣٨٢ هـ برقيةً من نائب رئيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (رحمه الله) ، يدعوه كأستاذٍ زائرٍ لهذه الجامعة ، ويقترح عليه إلقاء محاضرات على طلبتها الّذين قصدوا هذه الجامعة من أنحاء العالم الإسلامي ، وقبل العلامة الندوي هذه الدعوة الكريمة ، ورأى أنَّها فرصةٌ سانحةٌ يجب أن تنتهز للتحدُّث إلى هذه المجموعة الطيبة من الشباب الإسلامي ، التي يتعسَّر وجودها في مكانٍ واحدٍ ، وكان الموضوع الذي آثره لهذه المحاضرات «الـنُّبوَّة والأنبياء في ضوء القرآن» .

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الأولى

النُّبوَّة حاجة الإنسانية إليها وفضلها على المدنيَّة

حديثٌ من وحي المكان:

سادتي! إنَّ أليق حديثٍ بهذا المكان الذي نجتمع فيه، حديثٌ عن النبوة: حاجة الإنسانية إليها، وفضلها على المدنية، وعن السادة الذين أكرمهم الله بها، وعن عظيم منزلتهم عند الله، وكبير فضلهم على الخلق، وعميق أثرهم في الحياة، وعن إمامهم وخاتمهم الذي خصَّه الله بالرسالة الأخيرة، والنُّبوَّة العامة الدائمة، والإمامة الخالدة، والشريعة الباقية، والكتاب المحفوظ، وحصر سعادة الإنسانية على اختلاف طبقاتها وعصورها على الإيمان به وأتباعه، وأثر هذا البلد الطيب بأن يكون مهجره ومثواه الأخير، وهنا حصل آخر اتِّصال السماء بالأرض للوحي والرسالة.

وعلى من يمنح فرصة الحديث في هذا المكان الكريم، وتساق إليه هذه الكرامة أن يتقيَ الله، ويستحي أن يكون له حديثٌ آخر غير هذا الحديث الذي هو من وحي المكان، وفيض الإيمان، واستجابةً لشعور الحسن والإحسان.

ولما نزلنا منزلاً طلَّه النَّدى أنيقاً وبستاناً من النور خاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنه منىً، فتمنينا، فكنت الأمانيا

مهمَّة الجامعة الأساسية:

ومهمَّة كلِّ مدرسةٍ تقوم في الإسلام ـ فضلاً عن أن تقوم في مدينة

www.abulhasanalinadwi.org

الرسول ﷺ ـ أن تعنى قبل كلِّ شيءٍ بفهم نعمة النُّبوَّة التي ما أنزل الله نعمةً أعظم منها ، وتعنى بقدرها وشكرها ، وتجتهد أن تكون من أنصارها ودعاتها ، وأن تنضمَّ إلى معسكرها ولوائها في معترك الحياة الذي انتشرت فيه ألوية الجاهلية ورايات الردَّة والثورة ، وأن تنتصر لها في مجالات الحياة كلها ، من فكريةٍ واعتقاديةٍ ، إلى عمليةٍ وتطبيقيةٍ ، ومن خلقيةٍ واجتماعية ، إلى مدنيَّةٍ وسياسيةٍ ، وأن يكون شعار أبنائها ومتخرجيها الدائم وهدفهم الأسمى إيثار النُّبوَّة ومنهاجها على كلِّ فلسفةٍ ومنهاجٍ ، وعلى كلِّ منحىً وطريقٍ ، وعلى كلِّ أسلوبٍ من التفكير ، وعلى كل لونٍ من الحياة ، وطرازٍ من المدنيَّة ، وقسمٍ من أقسام المجتمعات البشرية .

إنَّ هذه المهمة الأساسية هي أهمُّ وأقدم من دراسة جميع العلوم والمواد التي تعنى المدارس والجامعات الإسلامية بدراستها ، والتوسع فيها ، ومن الشعارات التي تدين بها ، وتهتف ، فإنَّ المعركة الخالدة الحاسمة الحقيقية لم تزل ، ولا تزال بين الجاهلية والنُّبوَّة ـ التي يمثِّلها الإسلام في هذا الزمان ـ وكلُّ معركةٍ غيرها معركةٌ شكليةٌ أو معركةٌ داخليةٌ ، كما قد يتقاتل أفراد أسرةٍ واحدةٍ على شيءٍ تافهٍ ، أو كما قد يتصارع الأطفال لقصر نظرهم ، أما المعركة المبدئية الدائمة فهي معركة الجاهلية والنُّبوَّة .

لذاك أيضاً كان هذا الحديث أولى بأن يكون الحديث الأول في الجامعة الإسلامية ، التي تقوم في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ظئر الإسلام ، ومأزر الإيمان ، ومهبط الوحي ، ونهاية المطاف في رحلة النُّبوَّة الطويلة وتاريخها السامي .

حاجة العصر إلى هذا الحديث :

لقد اشتدَّت الحاجة إلى هذا الحديث في كلِّ مكانٍ ، وفي كل مجتمعٍ علميٍّ ، وفي كل جامعةٍ كبيرةٍ ، اشتدَّت الحاجة إليه في جامعات أوروبا ، وفي ندواتها العلمية ، وفي هيئة الأمم ، وفي منظمة الثقافة العالمية ، فليس شقاء الإنسانية وأزمة المدنية الحاضرة ـ مع تملكها لجميع أسباب السَّعادة ،

www.abulhasanalinadwi.org

والسلام، والرفاهية، والهناء - إلا بثورة قادتها على تعليمات النُّبوَّة والأنبياء، وتخطيطهم للمدنية والحياة على غير الأسس التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، واستغنائهم - وبالأصحِّ استكبارهم - عمَّا أكرم الله به النَّبيَّ العربيَّ الأميَّ، وقولهم بلسان حالٍ أو مقالٍ: أبشرٌ يهدوننا؟! أأمِّيٌّ جاء يعلِّمنا؟! أفقيرٌ يحاول إسعادنا؟! أبدوي يريد أن يمدِّننا؟!

ولكننا إذا عجزنا بسوء الحظ - أيها السادة! - أو لم تسمح الظروف بعد عن أن نتحدث بهذا الحديث في جامعات أوروبا، وأمريكا، وفي جامعات آسيا المدنية، فلا يجوز أن نعجز عنه في الجامعة الإسلامية في المدينة المنوَّرة، وكانت المدينة دائماً حقل النواة الكريمة، والبلد الطيِّب الذي يخرج نباته بإذن ربه، وتقول كلمتها فيردِّد صداها العالم.

النظر إلى النُّبوَّة والأنبياء من خلال القرآن:

لقد نظر علم الكلام أو علم التوحيد - وأرجو عدم المؤاخذة - إلى النُّبوَّة والأنبياء بنظر قاصرٍ محدودٍ، واعتبرها عقيدةً جامدةً محدودةً لا صلة لها بالحياة إلا في دائرةٍ ضيقةٍ محدودةٍ من العقائد، ولعلم التوحيد بعض العذر في وضعه العلميِّ المحدود، ورسالته التعليمية الخاصة، إذاً يجب علينا أن ننظر إلى النُّبوَّة والأنبياء من خلال القرآن، وبمنظار القرآن، ونستعرض كتاب الله الحكيم لنعرف مداها، وآفاقها الواسعة، وأعماقها الغائرة وجذورها العميقة في الحياة الإنسانية، وسيطرتها على العقول والنفوس، والأخلاق والميول، وتأثيرها في تكوين السير، وتشكيل المجتمعات، وقيادتها للمدنيات، بل تأسيسها لحضارةٍ خاصَّةٍ متميِّزة في كلِّ شيءٍ، موازية للجاهلية، مقابلةٍ لها على طول الخط.

حديثٌ أثيرٌ حبيبٌ:

[إنَّنا نقرأ القرآن لهذا الغرض، فتطالعنا قطعٌ ونماذج وصور لم يخلق الله أجمل منها في هذا الكون، وهي أجمل ما في مجموع الصور البشرية بالإطلاق، ونرى أسلوب القرآن في الحديث عنهم أسلوباً يتدفَّق بالحياة، ويفيض بالبشر، وينمُّ عن الحبِّ والإيثار، وكأنَّه حديثٌ أثيرٌ حبيبٍ عن

www.abulhasanalinadwi.org

أثير حبيبٍ ، فليتسع ، وليتشعب ، وليطل ، وليتنوع ، ولا يتوقف ، ولا ينقطع ، وكلٌّ من رُزق الذوق السليم والشعور بالجمال وعاطفة الحب ، استلذَّ بهذا الحديث ، وتذوّق هذا الأسلوب ، اقرؤوا معي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ ـ ١٢٣] .

واقرؤوا معي كذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٣ ـ ٨٩] .

صفوة الخلق والمثل الكامل للإنسانية :

ويذكرهم القرآن تارةً بالاصطفاء ، والاجتباء ، وطوراً بالحبِّ والرِّضا ، وتارةً بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقية والعملية ، كلٌّ يدلُّ على أنَّهم صفوة الخلق ، والمثل الكامل للإنسانية ، ومن ـ أقوى البشر وأجدرهم بحمل رسالات الله ، ودعوة الخلق إلى الله ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] . فيقول عن إبراهيم : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٥١] . ويقول : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] . ويقول : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٨ ـ ١١١] . ويقول : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود : ٧٥] . ويقول عن إسماعيل :

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٥]. ويقول عن موسى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤١]. ويقول: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾ [طه: ٢٩]. ويقول: ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. ويقول عن داود: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧]. ويقول عن ابنه سليمان: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]. وكذلك يقول عن النبي أيوب، ويذكر جماعة من الأنبياء المكرمين، فيتحدث عنهم في اختصاصٍ وإيثارٍ، وحبٍّ، وإكرام، وينعتهم بأفضل النعوت: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

وقد استرسلت في هذا الحديث ـ والحديث لذيذ ـ مع معرفتي أنكم تقرؤون القرآن، وتدرسونه دراسةً علميةً، وليس ما أتلوه عليكم جديداً عليكم أو غريباً عنكم، وإنما فعلت ذلك لأستحضر لأذهانكم منزلة الأنبياء عند الله ومقامهم الرفيع الحبيب، ولهج القرآن بذكرهم، ووصفهم بأفضل الصفات، وأزكى النعوت، وأكرم الأخلاق، وأشرف السجايا، وأغنى المواهب.

تصوير النبوة والمثل الحكيم:

ما مركز النُّبوَّة والأنبياء في هذه الحياة التي تعتمد ـ في استقاء معلوماتها، وقضاء أغراضها ـ غالباً على الحواس الإنسانية، والعقل الموهوب، وتجد فيها الكفاية والغناء والأمانة والوفاء؟ وما هي مِيِّزة الأنبياء بين جماعات العلماء، وطوائف العقلاء؟ ولماذا لهم الحقُّ أن يتحدثوا ـ هم وحدهم ـ عن أشياء، ويتقدَّموا بأنباء لا تتناولها الحواسُّ القويَّة، والعقول النافذة، وهم جميعاً أبناء بيئةٍ واحدةٍ، وواقفون على صعيدٍ واحدٍ؟ لماذا يرون ما لا يراه العماليق من أقرانهم، والنبغاء العبقريون من معاصريهم وجيرانهم، ثم يأتي ذلك مِثل فلق الصبح، وتتحقَّق نبوءاتُهم؟.

هذا سؤال طبيعي ساور النفوس عند كلِّ بعثةِ نبوةٍ جديدةٍ، وكان لا بدَّ

www.abulhasanalinadwi.org

من مواجهته يوم أُكرم رسول الله ﷺ بالنبوة وأُمر بالإنذار ، وتبليغ الرسالة ، وكان الموقف الذي وقفه خاتم الرسل ﷺ من هذه المشكلة معجزةً كبيرةً من معجزاته الخالدة في الحِكمة ، والدعوة ، والحجة ، والبيان.

عاشت الأمَّة العربية ـ وسكان هذا الوادي بصفة خاصَّة ـ مدةً طويلةً بعيدةً عن المفاهيم الدقيقة ، والمصطلحات العلمية ، والبحوث اللاهوتية ، ولكنَّها فاقت وتميَّزت بسلامة فهمها ، وسرعة إدراكها ، وحبِّها وخضوعها للواقع ، وعلى ذلك اعتمد الرسول ﷺ في شرح مركز النُّبوَّة والنَّبيِّ في هذه الحياة ، وتبرير حقِّه في الإنذار والإنباء ، ومخالفة المألوف المعروف المشاهد بالعيان ، والإخبار بما لا يراه الإنسان ، فكان أبلغ من ألف دليل يستند إليه أئمة الكلام وعلماء اللاهوت.

وكانت جميع المراحل التي اجتاز بها الرسول الأعظم ﷺ ، وجميع الوسائل التي اتخذها واستخدمها في هذه المهمَّة المقدَّسة الدَّقيقة مطابقة للطبيعة والبيئة ، وهكذا الأنبياء لا يلتجئون ـ في أداء مهمتهم وتبليغ رسالتهم ـ إلى الصناعة ، والتكلُّف ، والاستعارة ، والاستيراد ، ويكوِّنون من التافه الموجود الشيء العظيم المفقود.

لم يكن ذلك عصر الصحافة والإذاعة ، وعصر آلات نشر الصوت وتضخيمه ، فما هو السبيل إلى «حصر» سكان الوادي إلى مكانٍ مخصوصٍ في زمنٍ مخصوصٍ. وما هو السبيل إلى السيطرة على عقولهم ونفوسهم حتى ينفضوا أيديهم من أشغالهم ، وملذاتهم ، ويخفّوا إلى مكانه فزعين مسرعين؟

كان الرسول عربياً يعرف عادات العرب ، وتقاليدهم وشعاراتهم وتأثيرها في نفوسهم ومجتمعهم ، فاستعان بذلك في سبيل هذه الغاية التي لا غاية أفضل منها.

اعتاد العرب إذا أحسَّ أحدٌ منهم بخطرٍ ، أو بعدوٍّ يريد أن يفاجىء ويأخذ القوم على غرَّتهم ، أو بعدوٍّ كامن قاعدٍ بالمرصاد ، قد غفل عنه أهل البلاد ، أن يرتقي أحدهم قمة جبل ، أو ربوة ، ويصرخ بأعلى صوته:

www.abulhasanalinadwi.org

«يا صباحاه» فيفزع القوم ، ويأخذون عدَّتهم ، ويخرجون على بكرة أبيهم ، لمواجهة الخطر الداهم والعدو المهاجم.

وما هو هذا الخطر الذي كان يقلق مضاجعهم ، ويحول بينهم وبين راحاتهم ، ولذَّاتهم ، وما مدى تأثيره وضرره في حياتهم؟

عدوٌّ يقتل منهم الكثير ، وينهب أموالهم ، ويستاق إبلهم وماشيتهم ، ويلحق بهم الأضرار.

هانت هذه الأخطار والأضرار ـ على ضخامتها وواقعيتها ـ في عيون الأنبياء والرسل ، الذين عرفوا خطر الجهل لصانع هذا الكون ومدبره وصفاته الحقيقية وحقوقه ، وخطر الحياة الجاهلية التي كان يعيشها أهل ذلك العصر وسكان هذا الوادي ، وضرر المعاصي والأخلاق التي اتسم بها هذا المجتمع الجاهلي «يعبدون الأصنام ، ويأكلون الميتة ، ويأتون الفواحش ، ويقطعون الأرحام ، ويسيئون الجوار ، ويأكل القويُّ منهم الضعيف»[١] فرأى هذا العدو ، الذي يعيش في نفوسهم وفي عقائدهم وأخلاقهم ، أضرَّ وأفتك من كلِّ عدوٍّ من الخارج ، وأنَّ هذا الخطر ـ الذي نبع وانبثق من داخلهم ـ أعظم من كلِّ خطرٍ عرفوه في حياتهم الجاهلية الطويلة ، وفي مجتمعهم العربيِّ القبليِّ ، وإنَّ عداوة نفوسهم أشدُّ وأدقُّ من عداوة كلِّ قبيلةٍ منافسة ، ومن كلِّ جيشٍ محاربٍ ، وأنَّ أسلوب حياتهم يثير سخط الله القادر القاهر؛ الذي لا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحبُّ في الأرض الفساد.

فخرج ﷺ ، وصعد على جبل الصفا ـ وهو أقرب الجبال إليهم ـ ونادى بأعلى صوته : «يا صباحاه!» وقد شهد هذا الوادي بأنَّه كان أصدق صوت في أصدق مناسبةٍ ، وأنَّه أليق وضعٍ لهذا الإنذار البليغ ، والصيحة المفزعة.

---

(١) هذا الوصف للمجتمع الجاهلي العربي ، الذي كانت فيه بعثة رسول الله ﷺ ، مأخوذ من حديث جعفر بن أبي طالب في مجلس النجاشي ملك الحبشة (انظر سيرة ابن هشام القسم الأول ص ٣٣٦ طبع الحلبي) وفي الأصل : كنا قوماً أهل جاهليةٍ نعبد الأصنام.. إلخ.

www.abulhasanalinadwi.org

وقد سمع أهل مكة الصيحة المعروفة المألوفة ، تخرج من فم أصدق رجلٍ عرفوه في بلدهم ، وسمَّوه «الصادق الأمين» وفهموا معناها ومطالبها ، وأمامهم سلسلةٌ طويلةٌ من التجارب والحوادث ، فلم يتأخَّروا في تلبية هذا النداء ، «فاجتمع الناس إليه بين رجلٍ يجيء إليه ، وبين رجلٍ يبعث رسوله»[١] .

«فقال رسول الله ﷺ: يا بني عبد المطلب! يا بني فهر! يا بني كعب! أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟»[٢] .

كان القوم الذين خاطبهم الرسول العربيُّ ﷺ ، ووجَّه إليهم هذا السؤال أمِّيِّين غير مثقفين ، لم يدرسوا الفلسفة وعلوم المنطق ، ولم يألفوا التعمق والتدقيق ، ولكنهم ـ كما قلت ـ كانوا واقعيِّين عمليِّين ، رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم وسرعة الإدراك ، فاستعرضوا الواقع ، واستعرضوا المحيط الذي وقف فيه هذا الخطيب النذير ، واستعرضوا وضعه الطبيعي .

رأوا رجلاً جرَّبوا عليه الصِّدق ، والأمانة ، والنصيحة ، وحبَّ الخير ، قد وقف عل جبلٍ يرى ما أمامه وهو الذي اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر إلى ما وراء هذا الجبل ، والسفح المقابل ، فعرفوا من غير شكٍّ وتأملٍ طويلٍ؛ أنَّ له الحق أن يتحدَّث عما في السَّفح المقابل من عدوٍّ رابض وخطرٍ كامنٍ ، وليس لهم حقٌّ ـ وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل ـ أن يكذِّبوه وينفوا رؤيته على أساس أنَّهم لا يشاركونه في هذه المشاهدة ، فقد فرَّق الجبل القائم بين وضعهم ووضع الخطيب النذير ، وأعطاه من فرصة المشاهدة وحقِّ الشَّهادة ما لم يعطهم .

وكانوا عقلاء منصفين ، شجعاناً صادقين ، فقالوا: «نعم»!

وقد نجح رسول الله ﷺ بحكمة النبوة التي خصَّه الله بها ، وبلاغته

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج/ ٣ ص/ ٣٨ .
(٢) المصدر السابق .

www.abulhasanalinadwi.org

العربية التي أكرمه الله بها. وقد صوَّر لهم مركز النُّبوَّة والأنبياء الفريد الدقيق، ووضعهم الشاذَّ الذي يستطيعون به أن يشاهدوا ما لا يشاهده أقرانهم وأبناء جنسهم وعصرهم، ويشهدوا بما لا يشهد به المصلحون والزُّعماء عادةً، فقد وقفوا على قمَّة جبلٍ من النُّبوَّة، يطلُّون منها على الجانبين: الجانب الحسِّي بحكم النُّبوَّة التي يكرمهم الله بها، والاتصال بعالـم الغيب تحت الإرادة الإلهيـة ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠].

وليس لأذكى إنسانٍ، وأعظم عالمٍ، وأكبر عاقلٍ أن يكذِّبهم وينفي مشاهدتهم على أساس أنَّه لا يشاركهم في هذه المشاهدة، ولا يرى ما يرونه، كما لا يجوز لمن وقف في سفح الجبل أن يكذب من قام على قمته، وأخبر بما وراء الجبل، وتحدَّث عما وراء الأكَمة.

فإذا حاجَّهم وخاصمهم أسيرٌ لحسِّه قالوا محتجين مستغربين: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ [الأنعام: ٨٠] وكان العرب الأميُّون أعقل ـ في هذه المرحلة البدائية ـ من الفلاسفة والحكماء الذين كذبوا أخبار الرسل وشكُّوا في الحقائق التي جاؤوا بها على أساس عدم مشاهدتهم واطّلاعهم ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس: ٣٩].

ولمَّا تمت هذه المرحلة الطبعيَّة العقليَّة التي كان لا بدَّ منها؛ تقدَّم الرسول ﷺ خطوةً ثانيةً ودخل في المرحلة الثانية، المرحلة النهائية.

فقال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديدٍ» أنذرهم بالخطر الحقيقي الدائم الذي يهدِّدهم، والذي هو طبيعة هذه الحياة التي يَحيَونها، والعقائدِ التي يدينون بها، والأصنام التي يعكُفُون عليها، والعادات الظالمة، والأخلاق الجاهلية التي يتمسَّكون عليها، وبالاختصار هذه الجاهلية الجهلاء التي يعيشون عليها، لا إيمان، ولا علم، ولا عدل، ولا تقوى.

إنَّ طبيعة هذه الحياة هو الفساد الشامل في المجتمع، والمعيشة الضنك، والقلق النفسيُّ، والعذاب الداخليُّ في هذه الحياة ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

www.abulhasanalinadwi.org

[الروم: ٤١] ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

والعذاب الدائم بعد هذه الحياة الذي يهون ويصغر أمامه كلُّ عذابٍ وألم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧] ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦].

لقد اطَّلع العلماء والفاحصون على خواصِّ الأدوية، وعرفوا كثيراً من طبائع الأشياء، والقوى المودعَة في الموجودات، وكوَّنوا العلوم والمعلومات التي انتفع بها الناس، وشكروا أصحابها، واعترفوا بفضلهم، وتفرَّد الأنبياء بمعرفة ذات الله، وصفاته، وأحكامه، ومرضاته، وبخواص العقائد، والأعمال، والأخلاق، صحيحها، وسقيمها، وصالحها، وفاسدها، وما تجرّ وتستتبع من سعادةٍ، وشقاءٍ في الدنيا، وثوابٍ، وعقابٍ، وجنةٍ، ونارٍ في الآخرة، وخصَّهم الله ـ بقدر ما يريد ـ بعلم ما يكون بعد هذه الحياة، وفي ذلك العالم من حشرٍ، ونشرٍ، وإنعامٍ، وعذابٍ، ونعيمٍ، وجحيمٍ.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

لقد وقفوا عليهم السلام على جبل النُّبوَّة يُشرِفون منها ـ بقدر ما يريد الله ـ على عالم الغيب والشهادة، ويُخبرون بما يهجم على هذه البشريَّة، وعلى هذه المدنيَّة في المستقبل القريب والبعيد، وما يَكمُن لها من خطرٍ وضررٍ في حياتها ثمَّ يُنذرون قومهم شفقةً وإشفاقاً، وحبّاً وإخلاصاً، فإذا نازع منازعٌ هذا الحقَّ الطبيعيَّ العقليَّ، وهذه البداهةَ، وشكَّ، أو شكَّك في مركزهم؛ قالوا في نصيحةٍ، وإخلاصٍ، وتألم، وإشفاقٍ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة:

لذلك يلحُّ القرآن على أنَّ الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته

www.abulhasanalinadwi.org

الحقيقية ، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة؛ التي لا يشوبها جهلٌ ولا ضلالٌ ولا سوء فهمٍ ، ولا سوء تعبيرٍ ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، لا يستقلُّ بها العقل ، ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة ، وحدَّة الذهن ، والإغراق في القياس ، والغنى في التجارب ، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ، وهم أهل الصدق ، وأهل التجربة ، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٢] فدلَّ على أنَّ الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى ، وعلم مرضاته ، وأحكامه ، والعمل بها؛ الذي تمكنوا به من الدخول في الجنة ، والوصول إلى دار النعيم.

وقد ختم الله تعالى سورةً جليلةً من سور القرآن ، وهي سورة الصافات ، وقد نفى فيها ضلال المشركين وسوء اعتقادهم ونسبتهم إلى الله ما هو منه بريء ، فقال في آخر السورة: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات ١٨٠ ـ ١٨٢] والآيات الثلاث حلقاتٌ متصلةٌ بعضها ببعض ، فلمَّا نزَّه الله نفسه العلية ممَّا ينسبونه به المشركون؛ ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين ، والوصف الصحيح البليغ ، وسلَّم وأثنى عليهم لأنَّهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق ، وفي الوصف الصحيح الصَّادق ، وكانت بعثتهم منةً على الخلق، ونعمةً على الإنسانية ، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة، فختم كلَّ ذلك بقوله: ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٢].

ضلال الفلسفة اليونانية وسرُّ شقائها وخيبتها:

إذاً قد ضلَّ؛ وتعب ، وجاهد في غير جهادٍ من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحسنى ، وما بينه وبين هذا العالم من صلةٍ ، وكيفية إحاطته به ، وقدرته عليه ، ونفوذ أحكامه فيه عن غير طريق الأنبياء والمرسلين ، واعتمد في ذلك على عقله ، وعلمه ، وذكائه وإلمامه

www.abulhasanalinadwi.org

ببعض العلوم والصنائع ، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية ، وإنتاجه الضعيف المتواضع أو العظيم الضخم في بعض مجالاتٍ علمية ، وحقَّ عليهم قوله تعالى : ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٦] .

وهذا سرُّ ضلال الفلسفة الإغريقية الإلهية وأقطابها ونوابغها ، فقد غرَّهم ذكاؤهم ، وعلومهم ، وآدابهم وشعرهم الخصب الغني ، وملاحمهم العظيمة التي نظموها ، ونبوغهم في علوم الرياضة ، والهندسة ، والإقليدس ، والفلسفة الطبعية ، والنجوم ، والفلكيات ، فخاضوا في الإلهيات ، وفي موضوع الذات ، والصفات ، والخلق ، والإبداع ، فجاؤوا بالسخيف المرذول ، وبالمتهافت المتساقط ، وبالمتناقض المتضادِّ من الآراء ، والأقوال ، والتحكُّمات ، والتخمينات؛ التي صدق حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في وصفها بقوله :

«ظلمات فوق ظلمات ، لو حكاه الإنسان عن منامٍ رآه؛ لاستُدلّ على سوء مزاجه ، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها تخمينات؛ لقيل : إنها ترَّهات ، لا تفيد غلبات الظنون»(١) .

وقال في موضع آخر : «لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع ، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم في المعقولات؟»(٢) .

وكذلك فإنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ يقول معلقاً على كلام الفلاسفة والحكماء : «ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدَّعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل كيف يتكلمون في غاية حكمتهم ، ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ، ويجعلون الحقَّ المعلوم بالضرورة مردوداً ، والباطل الذي يعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً ، بكلامٍ فيه تلبيسٌ وتدليسٌ»(٣) .

---

(١) تهافت الفلاسفة ص/ ١٠٥ .
(٢) المرجع السابق ص/ ١٢٤ .
(٣) منهاج السنة ج/ ٣ ص/ ٢٧٢ .

www.abulhasanalinadwi.org

وحق عليهم قوله تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] وقوله: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

عثرة الفلسفة التي بدأت في العصر الإسلامي:

وقد تأثرت فلسفتنا الإسلامية ـ مع الأسف ـ التي نشأت لمحاربة الفلسفة اليونانية الملحدة بنفس نزعتها، وهي البحث التفصيلي في قضايا ليس عند الإنسان مبادئها ومقدماتها، وتسربت إليها هذه الروح الفلسفية العاتية التي تتعدَّى حدودها، ولا تعرف قدرها. فباءت بالتدقيق والتقشير في مسائل الذات وتأويل الأسماء والصفات، وتناولوه بالتشريح، والتجزئة، والتحليل، كأنهم في معملٍ كيماويٍّ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

انفراد الأنبياء واختصاصهم بالعلم النافع المنجي:

تكفل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وانفردوا بالعلم النافع، وبالعلم الذي لا سعادة للإنسان ولا نجاة له بغيره، وهو العلم الذي يعرف به الإنسان خالقه، وفاطر هذا الكون، ومدبِّر هذا العالم، وصفاته العالية، والصلة التي بينه وبين عبده، وموقف الإنسان في هذا العالم وموقفه من ربه، ومبدأه ومصيره، وما يرضيه تبارك وتعالى، وما يسخطه، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده، وخواصَّ عقائده، وأعماله، وأخلاقه، وجزاءها، وما يترتَّب على ما يصدر منه من قولٍ، واعتقادٍ، وعملٍ من الثواب والعقاب، والنتائج البعيدة الطويلة المدى، وهذا هو العلم الذي يستحقُّ أن يسمى «علم النجاة» والأنبياء مع سموِّ مداركهم، وصفاء حسِّهم، وكونهم على الجانب الأعلى من الذكاء والنبوغ الفطريين لا يتدخلون في العلوم السائدة في عصرهم، ولا يزعمون لهم فيها كعباً عالياً، ولا اليد الطولى.

إنما ينقطعون، ويتخصَّصون لما بعثوا له، وأمروا به، وتوقفت عليه سعادة البشرية، ويكلون هذه العلوم إلى أصحابها.

www.abulhasanalinadwi.org

مصير الأمم المتمدنة الراقية التي استغنت عن علم الأنبياء:

وقد كانت الأمم المتمدِّنة الراقية التي بلغت أوج المدنية والذكاء والإنتاج العلمي في عصرها في حاجة إلى هذا العلم الذي يحمله الأنبياء، وينفردون به بين الخلق، حاجة الغريق إلى قارب النجاة، وحاجة المريض المشرف على الهلاك إلى الدواء الإكسير، وكان أفرادها بالنسبة إلى هذا العلم ـ مهما علا كعبهم في العلم والمدنيَّة ـ جهالاً أميِّين وفقراء مفلسين، وأطفالاً صغاراً، وكانت الأمم على خطر ـ رغم كلِّ فتوحها العلمية وازدهار المدنية ـ إذا جهلته أو رفضته، وقد وقعت أممٌ متمدِّنةٌ راقيةٌ غنيَّةٌ في العلوم والآداب التي يضرب بها المثل في الذكاء والعبقرية فريسة الإنكار والاستكبار والإعجاب بنفسها والإدلال بعلومها وصنائعها، ونظرت إلى ما جاء به نبيُّ عصرهم بعين الازدراء والاحتقار، وزهدت فيه واستصغرته، فذهبت ضحية هذا الغرور، وهذه السفاهة المصورة بالذكاء، وقصور النظر الملقب حينئذٍ ببعد النظر والنقد العلمي، فذاقت وبال أمرها، وكان عاقبة أمرها خسراً.

مثل العلم الذي يجيء به الأنبياء مع علوم البشر وصناعاتهم:

إنَّ الفرق الواضح الَّذي بين علم الأنبياء وبين علوم العلماء والحكماء. أيها الإخوان! إنَّما يتجلَّى بوضوحٍ في قصةٍ لعلَّكم سمعتموها، ولكن لعلَّكم لم تطبقوها على هذا الفرق، ولم تستخرجوا منها هذه الحكمة الرائعة، وكم ضاعت أمثالٌ حكيمةٌ، وقصصٌ ذات مغزىً عميقٍ! وإليكم معذرتي فإنَّ القصة تتصل بطائفتكم معشر التلاميذ والطلبة.

يحكى أنَّ فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينة للنُّزهة في البحر، أو للوصول إلى البر، وكان في النفس نشاطٌ، وفي الوقت سعةٌ، وكان الملاَّح المجدف الأمِّيُّ خير موضوعٍ للدُّعابة، والتنادر، وخير وسيلةٍ للتلهِّي

www.abulhasanalinadwi.org

وترويح النفس ، وخاطبه تلميذٌ ذكيٌّ جريءٌ ، وقال: يا عم! ماذا درست من العلوم؟ قال: ولا شيء يا عزيزي! قال: أما درست العلوم الطبيعية يا عمي؟! قال: كلا ، ولا سمعت بها! وتكلَّم أحد زملائه ، وقال: ولكنك لا بدَّ درست علم الإقليدس ، والجبر ، والمقابلة! قال: وهذا أغرب ، وتصدقوني إنِّي أول مرَّةٍ أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة. وتكلم ثالث «شاطر» فقال: ولكني متأكد بأنك درست الجغرافية والتاريخ! فقال: وهل هما اسمان لبلدين ، وعلمان لشخصين؟ وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة ، وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا: ما سنُّك يا عم؟! قال: أنا في الأربعين من سنِّي! قالوا: لقد ضيعت نصف عمرك يا عمنا! وسكت الملاح الأمِّيُّ على غصص ومضض ، وبقي ينتظر دوره ، والزمان دوار.

وهاج البحر ، وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب ، والأمواج فاغرةٌ أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب في السفينة ـ وكانت أول تجربتهم في البحر ـ وأشرفت السفينة على الغرق ، وجاء دور الملاَّح الأميِّ فقال في هدوءٍ ووقار: ما هي العلوم التي درستموها يا شباب؟ وبدأ الشباب يتلون قائمةً طويلةً للعلوم والآداب التي درسوها في الكلِّية ، ويتوسعون فيها في الجامعة من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الجاهل الحكيم ، ولما انتهوا من عدِّ العلوم المرعبة أسماؤها؛ قال في وقار تمزجه نشوة الانتصار: لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة فهل درستم علم السباحة؟ وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة ـ لا قدر الله ـ كيف تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام؟ قالوا: لا والله يا عم! هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والإلمام به ، هنالك ضحك الملاح ، وقال: إذا كنت قد ضيعت نصف عمري فقد أتلفتم عمركم كلَّه؛ لأنَّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان. إنَّما كان ينجدكم العلم الوحيد ، هو علم السباحة الذي تجهلونه.

هذه قصَّةُ الأمم المتمدِّنة الرَّاقية التي كانت دائرة معارف ، أو موسوعةً في العلوم والآداب ، وكانت زعيمة العالم كلِّه في كلِّ ما أنتجه البشر ، وتوصلوا إليه في العلوم والحكمة ، واكتشفوا به هذا الكون الواسع والذخائر

www.abulhasanalinadwi.org

المودعة فيه ، ولكنَّها جهلت العلم الوحيد الذي يوصل إلى الخالق ، ويعرِّف به ، والذي تنال به النجاة ، وهو برُّ السلام والساحل المقصود ، هو الذي يضبط الأعمال ، والرغبات ، ويقهر النزوات ، والشهوات ، ويصلح الأخلاق ، ويهذب النفوس ، ويردع عن الشرِّ ، ويدفع إلى الخير ، ويلهم خشية الله التي لا صلاح للمجتمع ، ولا قوام للمدنية بغيرها ، ويحمل الإنسان على التهيُّؤ للمصير ، والاستعداد للآخرة ، ويخفف من غلواء الأنانية ، وحبِّ الذات ، والتكالب على حطام الدُّنيا ، ويلهم الاقتصاد والسَّداد ، ويمنعه من الجهاد في غير جهاد.

وقد حكى الله قصَّة هذه الأمم التي غلب عليها الزهوُّ والتيه ، واستصغرت شأن الأنبياء المبعوثين في عصرها ، الذين لم يشتهروا بامتيازٍ في علوم من العلوم السائدة فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

لا استغنـاء ولا استكبـار بـعـد بعثـة الـرسـول:

وهذه قصَّة كلِّ أمَّةٍ بلغت شأواً بعيداً في العلم والمدنية والصناعة والحكمة بعد بعثة الرسول الأعظم ﷺ ، وقد منعها استكبارها وزهوها واعتمادها الزائد على علومها وحضارتها ، وعلى أساتذتها النوابغ وعباقرتها الكبار من الإفادة من العلم الغزير الذي جاء به محمَّدٌ رسول الله ﷺ والتمسُّك بأهدابه ، والسير في ركابه ، وقصَّة كلِّ أمَّة معاصرةٍ تمكنها الإفادة من هذا الدين الخالد ، ومن هذا النور الوضَّاء ، وستلقى هذه الأمم كلها جزاء الاستكبار ، ونتيجة هذا الإنكار أو الاستغناء في تعفن حضارتها ، وانهيار مدنيتها.

الأقطـار الإسـلاميـة والـعـربيـة فـي خطـرٍ عظيـم:

وشأن الأقطار الإسلامية والعربية في الأعراض عن هذه التعليمات ، وهذا العلم الغزير الموجود ، والزهد في الاستفادة منه ، والتهالك على الحضارة الغربية ، والقيم المادِّيَّة ، والأوضاع الجاهليَّة ، والفلسفات القوميَّة أو الاشتراكية أغرب ، وهي على خطرٍ عظيمٍ لا يدفعه شيء ،

www.abulhasanalinadwi.org

ولا تزال معاقبةً بالفرقة ، والاختلاف ، والفوضى ، والثورات ، والتحاسد ، والتباغض ، وعدم التعاون والاتحاد ، وذهاب الرِّيح والشوكة ، والهوان على العدوِّ .

طوائف العلماء والباحثين في مدينة جديدة :

ومثل الأنبياء ومثل الطوائف الأخرى من أهل العلم والحكمة والبحث والتحقيق كمثل مدينة عامرةٍ ، زاهيةٍ منظَّمةٍ ، يدخل فيها طوائف مختلفةٌ ذات الاختصاصات والاتجاهات المختلفة ، فيدخل فيها طائفة موضوعها التاريخ ، فتبحث في تاريخ هذه المدينة القديمة ، من اختطَّها؟ ومتى قامت وعمرت؟ وما مر بها من أحداث ، وما تعاقب عليها من حكومات؟

وطائفةٌ من علماء الآثار ، فتدرس الألواح ، والحفائر ، والكتابات المستخرجة من الأنقاض وعملية الحفر ، وتعين عصورها وتهدي إلى الحضارات العتيقة المندثرة ، والمدارس الدارسة ، والعادات القديمة .

وطائفةٌ صناعتها الجغرافية ، فهي تدرس حدود هذه المدينة إلى أين تنتهي ، وموقعها الجغرافي ، والجبال المحيطة بها المطلة عليها ، والأنهار التي تخترقها ، ومن أين تنبع؟

وطائفة هوايتها الأدب والشعر ، فيستهويها جمال الطبيعة السَّاحر ، والمناظر الجميلة الفاتنة ، والنسيم العليل البليل الذي يهبُّ فيها صباحاً ، والأزهار والرياحين التي تملأ حدائقها ، فتهيج فيها الشاعرية ، وتفيض قريحتها بالشعر الرقيق الرائق ، والمعاني اللطيفة ، والأخيلة البديعة .

وطائفة من علماء الألسن والفلسفة اللغوية والقواعد تتأمل في اللغة التي يتكلم بها أهل المدينة ، فيبحثون في نشوئها ، وارتقائها ، وتطوُّرها ، وصلتها باللغات الأخرى ، ويبحثون عن الحلقات المفقودة ، ويضعون معاجم ، ويؤلفون كتباً في قواعد اللغة ، ويضبطون كتابتها .

هذه كلُّها طوائف من أهل العلم لا يستهان بقيمتها ، ولا ينقص من شأنها ، ولكلٍّ وجهةٌ هو مولِّيها ، ولكنها كلُّها على خطرٍ لو لم تعرف من الذي يحكم هذه المدينة؟ وما نظام الحكم؟ وما هي القوانين السائدة التي

www.abulhasanalinadwi.org

يجب عليها كلها ـ على اختلاف نزعاتها ـ الرضوخ لها؟ وما هي جباية الرَّعوية ، أو التجنس بجنسية هذا البلد أو المملكة؟ وما هي الضرائب المفروضة على أهل هذه المدينة؟ وما هي قواعد المرور ، وقوانين الإقامة في هذا البلد؟ إلى غير ذلك مما يتصل بالحياة الشريفة الشَّرعية في هذا البلد المنظَّم .

مهمَّة الأنبياء في هذه المدينة :

وتدخل طائفةٌ كاملة المواهب ، صحيحة القوى ، لطيفة الحسِّ ، رقيقة الذَّوق ، لا تفقد شيئاً مما يتجمل به البشر ، ولكن همُّها غير همِّ هذه الطوائف كلِّها ، ودعوتها ، ومنهاجها غير دعوة هذه الطَّوائف ومنهاجها ، هي تهتدي ـ وبالأصح يهديها قيِّم هذا البلد ، ويأخذ بيدها ـ إلى مركز هذه المدينة والمدنية ، وإلى مصدر الحياة والقوة والتنظيم في هذه المملكة المنظمة ، تتَّصل به رأساً ، وتتلقى أحكامه وإشاراته ، وتبلغها إلى جميع الطوائف ، وتتوسط بين إدارة هذه المدينة وبين سكانها في التبليغ والدعوة ، ولا شك أنَّ جميع الطوائف مدينةٌ لهذه الطائفة في حياتها ، واشتغالها بعلومها ومباحثها في هدوءٍ وسلامٍ ، وإن هذه العلوم كلها تنشأ وتزدهر في كنف هذه المعرفة التي تحملها وتنشرها تلك الطائفة المقدسة ، وتعيش في حمايتها وظلِّها ، فلولا هذه المعرفة ، ولولا هذه الطائفة لوقعت الطوائف الأولى كلُّها فريسةَ الجهل ، ونقض القانون ، وألقي القبض عليها ، وزجَّت في السجون ، وتحوَّلت علومها ، وجهودها ، وإنتاجها إلى الأوهام والظنون ، أو على الأقل إلى العبث والمجون ، فإنَّ أساس جميع العلوم والاكتشافات والنظام الذي يربط هذه الوحدات هو معرفة المدبِّر والمنظِّم لهذه المدينة الواسعة ، والقطب الذي تدور حوله رحى الحياة في هذا البلد ، وهي المعرفة التي اختصَّ بها الأنبياء ، واختصت بهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

أهم الواجبات وأقدس المهمات :

وترون الخَطب أعظم إذا عرفتم أنَّ الأمر ليس أمر الحاكم والمنظم

www.abulhasanalinadwi.org

فقط ، إنَّ الحاكم والمنظِّم لهذا البلد ـ في المثال الذي ضربناه ـ هو خالق هذا البلد الذي أخرجه من العدم إلى الوجود ، وأفاض عليه الحياة ، ورزقه كل ما يحتاج إليه ويصلحه ، وهو الرازق ، وهو الجواد ، وهو الغفور الودود ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢ ـ ٢٤] .

إذاً كانت معرفته بكل العقل ، ومحبته بكل القلب ، وطاعته بكلِّ الجوارح وإجهاد النفس ، وبذل الوسع في إرضائه ، والتقرُّب والتودُّد إليه أهم الواجبات ، وأقدس المهمَّات ، ومقتضى الإنسانية والمروءة ، ومطالبة العقل السليم ، والفطرة المستقيمة .

وهذا مركز النُّبوَّة والأنبياء ، ووضع رسالتهم ومهمتهم بين مراكز الطوائف البشرية ورسالاتها ومهماتها ، فهم كالروح بالنسبة إلى الجسد ، وكالعقل بالنسبة إلى العمل ، وكالعين بالنسبة إلى الإنسان ، والدنيا بغيرهم ـ بعلومها وآدابها ومدنياتها وصنائعها ـ ظلامٌ في ظلام في ظلام ﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

العامل الأساسي الأكبر في صلاح البشرية وارتقاء المدنية :

وليس الأنبياء ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ مصدر المعرفة الصحيحة وعلم اليقين فحسب ، بل هم الذين يمنحون الأجيال البشرية ثروةً أخرى كذلك ، يرجع إليها الفضل في صلاح البشرية كلِّها ، وفي ازدهار المدنية كلها ، وهي قوة كراهة الشرِّ ، وحبِّ الخير ، والتمرُّد على قوى الشر ونوازعه ، والاندفاع إلى الخير والجهاد في سبيله ، هذه القوة التي كانت العامل الأساسيَّ الأكبر في كلِّ ما قام به البشر من مآثر وبطولات ، ولم تزل الوسائل ، والموادّ ، والمؤسَّسات خاضعةً دائماً للإرادة الإنسانية ، والعزم

www.abulhasanalinadwi.org

القويِّ . إنَّ الشأن كلَّ الشأن في أن يريد الإنسان ، وإنَّ الخير كلَّ الخير في أن يريد الإنسان الخير ، وكان منبع هذا الخير دائماً تلقين الأنبياء وتعليمهم ، هم الذين كانوا ـ في كلِّ عصرٍ من عصور بعثتهم ـ يبعثون في أمتهم وفي جيلهم طبيعة حبِّ الخير ، وكراهة الشرِّ ، والانتصار للحقِّ ومحاربة الباطل والفساد ، وكانت كلما ضعفت هذه الطبيعة ، وتحوَّلت الطبيعة الإنسانية طبيعةً بهيميَّةً ، أو سبعيةً ـ كما شاهدنا في الأمم التي قصَّ الله علينا قصتها في القرآن ـ عالجوها ، وحوَّلوها إلى طبيعةٍ إنسانية كريمةٍ رقيقة ، ووجد ـ بتعليمهم الفاضل ، وجهادهم المتواصل ، ونسيانهم أنفسهم ولذاتهم ، ومجازفتهم بأرواحهم ، ومهجهم ، وشرفهم ـ في هذه الأنعام السائمة ، والسباع الضارية ، رجال تعطرت بأنفاسهم الدنيا ، وتجمَّل بهم تاريخ الإنسانية ، وفاقوا الملائكة في السموِّ ، وعلو المدارك ، وعاشت بهم الإنسانية ، وقام العدل ، وانتصف الضعيف من القوي ، ورعى الذئاب الغنم ، وانتشرت الرحمة ، وفاضت المحبة ، ونفقت سوق الخير ، وقامت سوق الجنَّة ، وهبت نسائم الإيمان ، وتحرَّرت النفوس من ربقة الهوى والشهوات ، وانجذبت القلوب إلى الخير انجذاب الحديد إلى المغناطيس .

بقايا النُّبوة وآثار دعوتها وجهادها :

إن المدنية لا تدين لأيِّ طائفة من طوائف البشر كما تدين لهذه الطائفة الرَّبانيَّة . إنها تدين لها في حياتها ، وبقائها ، وفي شرفها وكرامتها ، وفي اعتدالها وسدادها ، فلولاهم ـ صلى الله عليهم وسلم ـ لغرقت سفينة الإنسانية بما فيها من علوم ، وتراث حضاريٍّ ، وفلسفةٍ وخدمةٍ ، ولتحولت الأجيال البشرية إلى قطعان من السائمة ، أو الوحوش ، لا تعرف ربّاً ، ولا تعرف ديناً ، ولا خلقاً ، ولا تعرف رحمةً ولا محبَّةً ، ولا تعرف معنىً أسمى وغايةً أعلى من العلف والرتع ، ومن الماء والكلأ . إنَّ كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الإنسانية الكريمة ، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة ، والأخلاق العالية الفاضلة ، والعلوم الصحيحة النافعة ، ومن القوة والعزم

www.abulhasanalinadwi.org

على محاربة الباطل والفساد ، إنما يرجع فضله ، وينتهي تاريخه إلى وحي السماء ، وتعليمات الأنبياء ، وتبليغهم ، ودعوتهم ، وجهادهم ، وإلى أصحابهم ، وتابعيهم بإحسانٍ ، وما زال العالم ولا يزال يأكل من رفدهم ، ويمشي في ضوئهم ، ويعيش في البناء المحكم الذي بنوه.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الثّانية

سِمَاتُ النُّبوَّة وَخصَائِصُ الأنبيَاءِ

إخواني! تحدثت إليكم في المحاضرة السابقة عن النُّبوَّة: حاجة الإنسانية إليها، وفضلها على المدنيَّة، ومهمَّتها، ورسالتها في العالم. وأحبُّ أن أتحدَّث إليكم في هذه الفرصة السَّعيدة عن طبيعة النُّبوَّة، ومزاجها الخاصِّ، وعن خصائص الأنبياء، وعمَّا يمتازون به عن قادة الفكر، وزعماء الإصلاح من طوائف البشر.

جناية الأساليب الصناعية والمصطلحات السياسية على فهم النُّبوَّة والأنبياء:

لقد طغت الأساليب الصِّناعية، والمناهج السياسية، وطرق القيادة والتنظيم الحديثة، ومناحي التربية والتعليم التي قامت، ولا تزال بدورها في تعليم الأمِّيِّين، ورفع مستوى الحياة، ومحاربة الفساد، وتحرير البلاد، وكلٌّ يذكر ويشكر، ولكنَّها استولت على العقول والنفوس، وانطبعت نفسية أصحابها، وسيرتهم، ومنابع قوَّتهم وعزائمهم، ودوافع أعمالهم، وجهادهم، وأساليب تفكيرهم، ومقاييس نجاحهم في نفوس الناس، حتى أصبحوا لا يتصوَّرون النبوة والأنبياء إلا من هذه الزاوية، ولا ينظرون إليهم إلاَّ بهذا المنظار، وقد بدأ بعض الكتاب الإسلاميين في العصر الأخير يخضعون في قليلٍ، أو كثير لهذه المفاهيم والظِّلال، ويفسِّرون دعوة الأنبياء والرسل وأعمالهم بمصطلحاتٍ سياسيَّةٍ، واجتماعيةٍ

www.abulhasanalinadwi.org

حديثةٍ ، ممَّا يحول بين أهل العصر وبين فهم منصب النبوة على حقيقته ، أو طبيعة الأنبياء وطبيعة رسالتهم التي يكلفونها ، ومناهج عملهم ، ويمنع من الاقتداء بهم والتشبع بروحهم ، ويتَّجه بالفكر على دربٍ أقلَّ ما يقال فيه أنه غير درب النُّبوَّة ، وشاكلتها .

الحاجة إلى دراسة القرآن المجردة عن التأثيرات الخارجية :

لذلك اشتدَّت الحاجة إلى دراسة القرآن في هذا الموضوع دراسةً عميقةً حرَّةً ، مجردةً عن التأثيرات الخارجية ، والثقافات الأجنبية ، مجردةً كذلك عمَّا قد تهواه قلوبنا ، وتطمح إليه نفوسنا ، وقد يكون ممَّا يستحسن ، ولا يستهجن ، وقد يكون شيئاً طبيعياً .

ولكن لا يجوز أن يخضع القرآن وتخضع سيرة الأنبياء السابقين لكلِّ ما يُستحسن ، مجرَّدة عن كل تقليدٍ وعن كلِّ تطبيق ، فالعصور تتبدَّل ، ومناهج الفكر تتبدَّل ، وقيم الأشياء ودرجاتها تتغيَّر وتتبدَّل ، وترتفع وتنخفض ، وما حدث في عصرٍ من نظريةٍ أو مصطلحٍ لا يجوز أن يسلط على عصرٍ سابقٍ ، أو جيل سابق ، فضلاً عن القرآن الذي هو كتابٌ سماويٌّ خالدٌ ، فإنه لا يخضع لفلسفةٍ فكريَّةٍ ، أو سياسيَّةٍ ، وعلوم الإنسان ونظرياته كثيبٌ مهيلٌ من رملٍ يتناثر ، وينبسط ، وينضوي ، ويمتدُّ ، لا يصلح عليه البناء ، ولا يجوز أن ينزل عليه القرآن من منزلته العالية السماوية ، ومن أساسه الحكم الأبدي .

الفارق الأساسي بين الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والمصلحين :

إنَّ أوَّل وأهمَّ ما يمتاز به معشر الأنبياء : أنَّ العلم الذي ينشرونه بين الناس ، والعقيدة التي يدعون إليها ، والدَّعوة التي يقومون بها ؛ لا تنبع من ذكائهم ، أو حميَّتهم أو تألُّمهم بالوضع المزري الذي يعيشون فيه ، أو من شعورهم الدقيق الحسَّاس ، وقلبهم الرقيق الفيَّاض ، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة ، لا شيء من ذلك ، إنما مصدره الوحي والرسالة التي يُصطفون لها ، ويُكرمون بها ، فلا يقاسون أبداً على الحكماء ، أو الزعماء ، أو المصلحين ، وجميع أصناف القادة الذين جرَّبتهم البشرية وتاريخ الإصلاح

www.abulhasanalinadwi.org

والكفاح الطويل ، والذين هم نتيجة بيئتهم ، وغرس حكمتهم ، وصدى محيطهم ، وردُّ فعلٍ لما كان يجيش به مجتمعهم من فسادٍ وفوضى ، والقول الفصل في ذلك قول القرآن على لسان سيِّد الرُّسل ﷺ : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : ١٦] وقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] وقال : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [القصص : ٨٦] وقوله بعد ما ذكر من بُعد الرسول عن البيئة التي حدثت فيها هذه الحوادث والوقائع التي يحكيها لقومه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٤٦] ويقول القرآن عن طبيعة الرسالة التي يُختار لها الرسل ، وعن مبدئها ومصدرها ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢].

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسيَّةٍ داخليَّةٍ ، أو حوادث وقتيَّةٍ خارجيَّةٍ ، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع ، وشاء المجتمع ، وقد قال الله تعالى عن رسوله الكريم : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] ولا يستطيع أن يحدث تغييراً ، أو تبديلاً ، أو تحويراً ، أو تعديلاً في رسالته وأحكام الله ، وقد قال الله لرسوله : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس : ١٥] ونفى الله عنه المداهنة ، وعصمه عنها ، فقال : ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : ٩] وقد أنذره بالعقاب الأليم المخزي؛ إذا تجنَّى على الله ، أو قال ما لم يقله ، أو زاد ، أو نقَّص شيئاً من وحيه وكلامه ، فقال : ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٣ ـ ٤٧].

وقد أمره بتبليغ الرسالة بنصِّها وفَصِّها ، وبرمَّتها وجملتها ، فقال :

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

وهذه هي السِّمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء، والذين تكون رسالتهم، وكفاحهم وحي بيئتهم، وثقافتهم، ومشاعرهم، واستجابةً للقلق الذي يساور المجتمع، ويساور النفوس الواعية، والذين يلاحظون دائماً البيئة، والمجتمع، والظروف، والأحوال، ويراعون المصلحة، والسياسة، ويخضعون لها في كثيرٍ من الأحوال، فيتنازلون عن أشياء كثيرةٍ، وقد يتساومون الأحزاب ويتبادلون معها المنافع، ومبدأ كثيرٍ منهم الذي يأخذون به «در مع الدَّهر كيف هو دائر».

الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء وفي التشريع:

وليس معني ذلك أنَّ الأنبياء لا يراعون الحكمة والمصلحة مطلقاً، ولا يراعون طبائع الناس واستعدادهم، ولا يتحرَّون لدعوتهم المكان الصالح، والزمان الصَّالح، ونشاط النفوس، وإقبال القلوب، ولا يراعون التدريج والتيسير، كلاَّ! إنَّ كلَّ ذلك مما تقتضيه طبيعة الدين السمحة، وحكمة الله البليغة، وفطرة الأنبياء الحكيمة، ونطقت به الآثار، وشهدت به الحوادث، وزخر به تاريخ التشريع، وسيرة الرَّسول، وقد قال القرآن: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢] وقد قال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]، وقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير، وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «يسِّرا، ولا تعسِّرا، بشِّرا، ولا تنفرا»(١)، وقال لأصحابه: «إنما بُعثتم ميسِّرين

(١) صحيح البخاري ج/ ٢ ص/ ٦٢٢.

www.abulhasanalinadwi.org

ولم تبعثوا معسِّرين»(١) ، وقد كان يرجىء تطبيق شيءٍ فيه مصلحةٌ جزئيةٌ لأجل مصلحةٍ كلِّيَّة ، هي أعظم ، وأهمُّ منها ، فقال لعائشة رضي الله عنها : «لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ، ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام»(٢) وقال ابن مسعودٍ رضي الله عنه : «كان النبي ﷺ يتخوّلنا بالموعظة في الأيام كراهة السَّآمة علينا»(٣) وعن جابر بن عبد الله : «كان معاذ بن جبل يصلِّي مع النبي ﷺ ثم يرجع فيؤمُّ قومه ، فصلى العشاء فقرأ البقرة ، فانصرف رجلٌ ، فكان معاذ ينال منه ، فبلغ النَّبيّ ﷺ ، فقال : فتانٌ ، فتانٌ ، ثلاث مرار»(٤) وعن ابن مسعود قال : قال رجل : يا رسول الله! إنِّي لأتاخر عن الصَّلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها ، فغضب رسول الله ﷺ ، ما رأيته غضب في موعظةٍ كان أشدَّ غضباً منه يومئذٍ ، ثم قال : «يا أيها الناس إن منكم منفِّرين ، فمن أمّ منكم الناس فليتجوز ، فإن خلفه الضعيف ، والكبير ، وذا الحاجة»(٥) والنصوص في ذلك ، والشواهد أكثر من أن تحصى(٦) ، وهذا كلُّه مستفيضٌ متواترٌ من سيرته ﷺ ، مفروضٌ في سيرة الأنبياء السابقين للحكمة التي وصفهم الله بها : ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص : ٢٠] ، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام : ٨٩].

ولكن كلُّ هذا التيسير والتدريج ، ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس ، إنما هو في التعليم والتربية ، وفي المسائل الجزئية ، وممَّا ليس من العقائد ومبادىء الدين في شيءٍ ، أمَّا ما كان من العقائد ، والمبادىء ، والفرائض ، والنصوص ، وما يفرق بين الإيمان

---

(١) صحيح البخاري ج/ ١ ص/ ٣٥.
(٢) صحيح البخاري ج/ ١ ص/ ٢١٥.
(٣) صحيح البخاري.
(٤) صحيح البخاري.
(٥) صحيح البخاري.
(٦) اقرأ الفصل النفيس «باب التيسير» في «حجة الله البالغة». للإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي.

www.abulhasanalinadwi.org

والكفر ، والتوحيد والشرك ، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله ؛ فالأنبياءُ عليهم السلام ، على اختلاف عصورهم ، أصلبُ فيه من الحديد ، وأثبتُ عليه من الجبال ، لا يعرفون تنازلاً ، ولا يعرفون هوادةً ، ولا يرضون مساومةً .

إخـلاص الـدِّيـن لله ، وإفـرادُ الـعبـادة لـــه :

والسِّمة الثانية : هي أنَّ الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم ، وأكبر هدفهم في كلِّ زمانٍ ، وفي كلِّ بيئةٍ هو تصحيح العقيدة في الله تعالى ، وتصحيح الصِّلة بين العبد وربِّه ، والدعوة إلى إخلاص الدِّين وإفراد العبادة لله وحده ، وأنَّه النافع الضارُّ المستحقُّ للعبادة والدُّعاء والالتجاءِ والنسكِ وحده ، وكانت حملتهم مركزةً موجَّهةً إلى الوثنية القائمة في عصورهم ، الممثلة بصورةٍ واضحةٍ في عبادة الأوثان ، والأصنام ، والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات ؛ الذين كان يعتقد أهل الجاهلية «أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف ، والتألُّه ، وجعلهم متصرفين في بعض الأمور الخاصَّة ، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق ، بمنزلة ملك الملوك يبعث على كلِّ قطرٍ ملكاً ، ويقلِّده تدبير تلك المملكة فيما عدا الأمور العظام»[١] .

وكلُّ من له صلةٌ بالقرآن ـ وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة ـ يعرف اضطراراً وبداهةً أنَّ القضاء على هذه الوثنية ، والإنكار عليها ، ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسي ، ومقصد بعثة الأنبياء ، وأساس دعوتهم ، ومنتهى أعمالهم ، وغاية جهادهم ، وقطب الرحى في حياتهم ودعوتهم ، حولها يدندنون ، ومنها يصدرون ، وإليها يرجعون ، ومنها يبدؤون ، وإليها ينتهون ، والقرآن تارةً يقول بالإجمال : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وتارةً يقول بالتفصيل ، فيسمِّي نبيّاً نبيّاً ، ويذكر أنَّ افتتاح دعوته كان بهذه الدعوة إلى التوحيد فقال : ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ

(١) التعبير منقول من «حجة الله البالغة» .

www.abulhasanalinadwi.org

نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦] ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠] ، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] ، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

وأما إبراهيم فدعوته إلى توحيد الألوهية ، ونبذ الأصنام ، والأوثان أوضح ، وأصرح ، ففي سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٥٤] ، وفي سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٨٢] ، وفي سورة مريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤١ ـ ٤٢] ، وفي سورة العنكبوت: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٧] وفيها ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

www.abulhasanalinadwi.org

وكذلك يوسف فقد جاء في القرآن في موعظته البليغة الحكيمة في السجن: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] [يوسف: ٣٧ ـ ٤٠] وقد كانت هذه دعوة موسى لفرعون الذي كان يدَّعي أنَّه مظهر للشمس «الإله الأكبر» عند قدماء المصريين، فيقول: «أنا ربكم الأعلى» وقد قال حين سمع دعوة موسى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقد سمَّى القرآن عبادة الأوثان الشرك الأكبر، والرجس، وقول الزور، وشنَّع عليه التشنيع الأعظم، فقال في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١].

الجاهلية الخالدة العالمية وجنايتها على البشر:

إنَّ هذه الوثنية والشِّرك بمعنى التألُّه لغير الله، وغاية التذلل له،

(١) كلمة أسماء تدلُّ على أنَّ معبوداتهم كانت أشخاصاً مقدَّسةً موهومة، إمَّا لا وجود لها أصلاً كما يوجد في نظام الشرك وعقائد المشركين كثيراً، وإمَّا كان لها أصلٌ ووجودٌ، ولكن ليس لها من الألوهية والربوبية نصيب، وكذلك قال هود لقومه: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف: ٧١] وذكر «أسماء» دليل صريح على أن المعبودات كانت آلهة خيالية أو أصناماً بأسماء الماضين.

www.abulhasanalinadwi.org

والسجود ، والدعاء ، والاستغاثة ، والنذر ، والذبح له ، هي الجاهلية العالمية؛ التي هي أقدم أدواء البشر ، ومواضع ضعفه ، وسقطته ، وهي باقيةٌ مع البشر في جميع مراحل حياته ، وتطوراتها ، وهي التي تثير غضب الله وغيرته ، وتحول بين العبد وتقدُّمه الرُّوحيِّ ، والخلقيِّ ، والمدنيِّ ، وتُهبطه من أعلى الدرجات إلى أسفل الدركات ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ ـ ٥] ، تهبطه من درجة مسجود للملائكة إلى درجة ساجد ، الضعيف من المخلوقات ، والخسيس من الموجودات. إنها هي الجاهلية التي تخنق القوى ، وتقتل المواهب ، وتقضي على الاعتماد على الله ، والاعتداد بالنفس والثقة بها ، وتصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير ، العليم القدير ، الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التي لا تحدُّ ، وخزائنه التي لا تنفد إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير ، الذي لا يملك شيئاً: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٥].

فهم الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته:

هذه الوثنية (في دائرة ما بعد الطبيعة) بجميع أشكالها الواضحة والدقيقة كانت موضوع جهاد الأنبياء في كلِّ عصورهم ، وفي جميع بيئاتهم ، ومجتمعاتهم ، وهو الذي أثار غضب أهل الجاهلية ، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ﴾ [ص: ٥ ـ ٧] ، وممَّا لا يَشكُّ فيه عاقل دَرَسَ تاريخ العصر النبوي واطَّلع أخبار صحابة الرسول ﷺ: أنَّ الصحابة لم يكونوا يفهمون من هذا الآيات التي سردناها إلا هذه الوثنية السَّافرة ، وعبادة الأصنام ، والأوثان ، وتقديس الأشخاص

www.abulhasanalinadwi.org

الماضين ، أو الموجودين ، والسجود لهم ، والدُّعاء منهم ، والذَّبح والنذر لهم ، والحلف بأسمائهم ، والتقرُّب إلى الله بعبادتهم ، والاعتماد على شفاعتهم المطلقة التي لا تردُّ ، وطلب النفع والضرِّ ، وكشف الكربة منهم ، ولا يفهمون من معنى الإله ، والرَّبِّ ، والعبادة ، والدين ، إلا هذه المفاهيم الدِّينيَّة ، وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم وأخبارهم ومناهج كلامهم لا يختلف فيه اثنان .

ما يجب أن يكون الركن الأساسيَّ في الدعوات الدِّينية وشعار الدُّعاة في جميع العصور :

ولا يزال هذا هو الرُّكن الأساسيُّ في الدعوات الدِّينية وحركات الإصلاح إلى يوم القيامة ، وهو تراث النُّبوَّة الخالدة ، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]. وشعار جميع الدعاة إلى الله ، وجميع المصلحين المجاهدين .

أمَّا مظاهر الجاهلية الأخرى ، كالطَّاعة لغير الله ، والتحاكم إلى غير الله ، وقبول التشريع غير الإلهي ، وتسليم حكومةٍ لا تقوم على النيابة عن الله ، وعلى أحكامه ، فكلٌّ ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ، ويأتي بعده ، ولا يجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجليِّ المتقدِّم ذكره وأهميته ، وأن يوضع في الهامش من منهاج دعوةٍ أو جهادٍ ، أو يساوى بينه وبين معاني الطاعة والحكم السياسية ، ويحكم عليها حكماً واحداً ، أو يعتقد أنَّه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلِّفة التي ولى عصرها ، وانقضى دورها ، فإنَّ هذه إساءةٌ إلى دعوة الأنبياء وجهودهم ، وشكٌّ في خلود القرآن ، وأنَّه هو الكتاب الأخير الدائم ، وشكٌّ في أنَّ منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذي ارتضاه الله تعالى ، والذي كتب له من النجاح والتوفيق والإنتاج والإثمار ما لم يكتب لأيِّ منهاجٍ من مناهج الإصلاح .

وصية للشباب والدعاة والكتاب :

أيها الشباب الأعزاء ، ستتخرجون من هذه الجامعة دعاةً مصلحين ، وكتّاباً مؤلفين ، وقادةً موجهين ، فأريد أن أوصيكم وصيةً هي عصارة

www.abulhasanalinadwi.org

تجارب ودراساتٍ طويلةٍ ، ولا تعرفون قيمتها وأهميتها إلا بعد التجربة الطويلة : إيَّاكم أن تعطي كتاباتُكم وعرضُكم للإسلام وحقائقه ومبادئه فكرة أنَّ المسلمين ظلُّوا هذه القرون الطوال في جهلٍ متَّصلٍ عن فهم هذا الدين الذي هو دين كلِّ عصر وجيل ، وعن فهم القرآن ومصطلحاته وتعبيراته الأساسية[١] ، لأن ذلك يثبت أن هذا الكتاب بقي هذه المدَّة الطويلة

---

(١) قد جاء في بعض الكتب التي نالت حظوةً وقبولاً عند كثيرٍ من المثقفين ، وعددٍ من العلماء والمفكرين ، لبعض كبار الكتاب الإسلاميين ودعاة الإسلام في هذا العصر ، ما يفهم منه أنه قد خفي على الناس معظم تعاليم القرآن ، بل غابت عنهم روحه السامية ، وفكرته المركزية لمجرد ما غشي بعض المصطلحات القرآنية الأساسية (أمثال: الإله ، والرب ، والدين ، والعبادة) من حجب الجهل ، ويردون تاريخ هذا الخفاء والغموض إلى عصورٍ قديمةٍ في التاريخ الإسلامي ، وقد تورطت فيه الأمة بشكلٍ عامٍّ في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر ، فجعلت تتبدل المعاني الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات ، وتلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن ، حتى أخذت تضيق كلُّ كلمة من تلكم الكلمات الأربع عما كانت تتسع له ، وتحيط به من قبل ، وعادت منحصرةً في معانٍ ضيِّقةٍ محدودةٍ ومخصوصةٍ بمدلولاتٍ غامضةٍ مشتبهة .

ولا يبعد أن يفهم منه القارىء الذي لم يتعمق في العلم ، ولم يقوَ إيمانه بحفظ هذا الكتاب الخالد ـ بجميع معاني الكلمة ـ وصيانة هذه الأمة عن الضلال العام ، والجهالة المطبقة أنَّ القرآن قد بقي هذه المدة الطويلة ملتبساً على الأمة ، أو على أكثر أفرادها ، ومضت على ذلك قرونٌ وأجيالٌ ولم تتبين الأمة حقيقة الكلمات التي يدور عليها هذا الكتاب ، وتقوم عليها تعاليمه ودعوته إلا في العصر الأخير حين قيض الله لفهمها ورفع اللثام عنها بعض الكتاب الإسلاميين .

وهذا الفهم وإن بدا أمراً غير ذي خطر ، ولكنه عميق الجذور بعيد العواقب في التفكير الإسلامي ، لأنه يشكك في صلاحية هذه الأمة ومركزها القيادي والدعوي ، وفي فهم هذه الأمة لهذا الكتاب والعمل به في تاريخها الطويل ، فإنَّ الكتاب الذي لم يفهم حقَّ الفهم في أطول مدَّةٍ وأخصبها علماً وعملاً وكفاحاً يشك في إبانته ووضوحه وإفادته ، ويشك في كلِّ ما يقال عنه ، ويفسر به في هذا العصر ، ويفتح الباب للتوسع في تأويله ـ كما فعلت الباطنية في مختلف أشكالها ـ من غير أن يقوم ذلك على تلقي هذه الأمة لهذا الدين ومفاهيمه ، والتوارث في فهمه ، فضلاً عن أنه ينافي وصف الله تعالى لهذا الكتاب بالإبانة والوضوح في غير ما موضع من القرآن ، فقال : ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ=

www.abulhasanalinadwi.org

لا يفهم على حقيقته ، وأنه بقي مطوياً على غرته ، وانقطعت الاستفادة منه بعد نزوله بمدَّةٍ قصيرة ، وهذا لا شك يناقض قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] والوعد بالحفظ في موضع الامتنان يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق ، فلا خير في كتاب يبقى ، ولايُفهم ، ولا يعمل به ، وقد قال لرسوله : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٧ ـ ١٩]. وهذا الأسلوب من التفكير الذي قد يتجه إليه بعض الكتاب والمفكرين في هذا العصر يرمي هذه الأمَّة الخالدة الولود بالعقم والجدب الفكريِّ الدائم. والشجرةُ التي بقيت أفضل مدة حياتها لا تعطي ثمارها غيرُ جديرة بالاعتماد والاعتناء ، ولا يرجى منها الخير.

وذلك لا شك نتيجة ما نالته المعاني السياسية ، والمؤسسات السياسية ، والتنظيمات في عصرنا من الأهمِّيَّة بتأثير النظم الحديثة ، والثقافات الحديثة[(١)] ، وكلُّ من يسعى لمجد المسلمين ويطمح إلى سؤددهم وصلاح أحوالهم ، ويريد أن يسود النظام الإسلاميُّ ، ويقوم الحكم الإسلاميُّ في جميع أقطار المسلمين ؛ قد يقع في هذا التفريط والإفراط ، ولا شك أنَّها غاياتٌ ساميةٌ يجب أن يجنِّد لها المسلمون ،

= ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ١ ـ ٢] وقال : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥] وقال : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١].

(١) وكان من تأثير المؤسسات السياسية والتفكير السياسي المستولي على العقول والتعبير في هذا العصر استيلاءً عظيماً ، أن بدأ بعض الدعاة الإسلاميين والكتاب المرموقين يؤثرون في كتاباتهم المصطلحات السياسية التي اقترنت بها مفاهيم خاصَّة وانطباعات لا تنفك عنها ، وزيادةً على ذلك : إنها تعبيراتٌ محدودةٌ قاصرةٌ لا تفي بالغرض ، ولا تعبر عن دعوة الأنبياء في أمانةٍ وبلاغةٍ ، كـ «الانقلاب» و«الثورة» و«الديمقراطية» و«الاشتراكية» و«النظام» فكلٌّ مفهومٍ قد نشأ وكمل في ظروفٍ خاصَّة ، وتحت عوامل خاصة ، وكان التعبير الذي نطق به القرآن وجرى على لسان الشرع والدين أولى بالإيثار ، وأبعد عن سوء الفهم ، وطبع الدين بطابعٍ خاصٍّ.

www.abulhasanalinadwi.org

والـدعـاة ، والمفكـرون منهـم بصفـة خـاصَّـة مـواهبهـم ، وطـاقـاتهـم ، وأقلامهم ، ولكن يجب عليها كذلك ألَّا يخضعوا القرآن لهذه الغاية ، والنصوص الداعية إلى هذه الغايات ، الحاثَّة عليها ، الموجبة لها ، وافرةً كثيرة لا يحتاج معها إلى هذا التأويل.

عقيـدة الآخـرة والاهتمـام بـهـا فـي سيـرة الأنـبيـاء ودعـوتهـم:

والسمة الثالثة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشعائرها: هو التشديد على جانب الآخرة ، واللهج بها ، والإشادة بذكرها ، والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقط الأساسية في دعوتهم ، ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم ، ويتذوَّق كلامهم أنَّ الآخرة دائماً نصب أعينهم ، لا تزال ماثلةً أمامهم بنعيمها ، وجحيمها ، وسعادتها ، وشقائها ، فهم إلى الجنة في حنينٍ شديدٍ ، ومن جهنم في فزعٍ كبيرٍ ، وهو شيءٌ طبيعيٌّ قد ملك عليهم مشاعرهم ، واستولى على فكرهم ، وحسبنا أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول إبراهيم وقد جاشت نفسه ، وفاضت عواطفه حين ذكر الآخرة ، وتمثل هولها وفزعها: ﴿وَالَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٨٢ ـ ٩١].

وكذلك ينظر إليها يوسف العزيز وهو في أوج أبَّهته وسيادته ، له الكلمة النافذة والأمر المطاع في مصر ، أرقى مملكةٍ وأخصب بلادٍ في ذلك العصر ، وقد أقرَّ الله عينه من أبيه الكبير وأسرته العزيزة ، وأقرَّ عينهم بما رأوه من إقبال الدنيا على يوسف ، وقد كان في ذلك ما يرضي الطموح ، ويزهي عالي الهمَّة بعيد النظر ، ولكن فكرة الآخرة وحسن الختام هي التي تسيطر على يوسف وتجعله لا يحسب لهذه العظمة حساباً كبيراً ، فيقول شاكراً داعياً ، راضياً وَجِلاً: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الحافز الحقيقي إلى الدعوة وبذل النصح:

والإيمان بالآخرة وتمثُّل ما فيها من سعادةٍ دائمةٍ وشقاءٍ دائم، وما أعدَّ الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاءٍ، وللكفار العصاة من عقابٍ، هو الحافز الحقيقي إلى دعوتهم، وبذل نصحهم، وهو الذي يقلقهم، ويطير نومهم، ويكدر صفو عيشهم، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال، ولا يقرُّ لهم قرار، وهو حافزٌ أقوى وأعظم سلطاناً على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام، واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من اختلال النظام، واضطراب الأحوال، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع إذا انتشر فيه الفساد، ويجعلون ذلك موجباً لدعوتهم وإنذارهم، وسبباً لقلقهم وإشفاقهم، فيقول القرآن عن نوح ـ وهو أول رسولٍ يذكره القرآن بتفصيل ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦] ويقول عن هود ـ وهو من أقدم الأنبياء، وقد بعث في قوم تهيَّأت لهم أسباب العيش، وتوسَّعت لهم الدنيا، وطابت لهم الحياة ـ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٥]، ويقول عن شعيب ـ وقد بعث في قوم لان لهم العيش، وانتشر في أرضهم الخصب ـ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: ٨٣].

سيطرة هذه العقيدة على أتباع الرسل:

وقد تعدَّت هذه الفكرة ـ بقوة تأثيرهم ـ إلى أتباعهم والمؤمنين بهم، وتجلَّى لهم قصر مدى الحياة وتفاهتها، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها، وأنَّها الجد الذي يجاهد في سبيله المجاهدون، ويسعى له العاملون، ويتنافس فيه المتنافسون، فقال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ

www.abulhasanalinadwi.org

عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٩ ـ ٤٠] ، وقال سحرة فرعون بعد لحظة من إيمانهم بموسى ، لما أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم ، وما أدراكم به؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والتصليب في جذوع النخل: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٢ ـ ٧٦].

مناط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة:

والأنبياء يبعدون كلَّ البعد عن أن يطمعوا أمتهم في ملكٍ ، أو سيادةٍ ، أو منفعةٍ دنيويةٍ ، ويجعلونه ثمناً لإيمانهم ، أو مكافأةً لقبول دعوتهم ، بل بالعكس من ذلك ينكرون على حبِّ العلوِّ والاستعلاء والاستيلاء على الناس بدافع حبِّ الجاه ، والطموح الفرديِّ أو القوميِّ ، وقد جاء في القرآن: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] ، إنَّما يطمعونهم في رحمة الله ، ويخوِّفونهم من عذاب الله ، ويجعلون مناط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة ، إنما يذكرون أنَّ هذا الإيمان والطَّاعة والاستغفار يجلب رحمة الله ، ويستدرُّ الرزق ، وينزل الأمطار ، ويدفع ما هم فيه من جدبٍ وضيقٍ ، فيقول نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢] ، ويقول هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] ، وهذه طبيعة الإيمان والاستغفار وسجيتها التي لا تتخلَّف عنهما كطبائع الأشياء وخواصِّ الأدوية ونواميس الفطرة.

سيرة الأنبياء وأصحابهم في الزُّهد وإيثار الآخرة على الدنيا:

ولم تكن دعوة الرسل إلى الآخرة وإيثارها على الدُّنيا والاستهانة بقيمة

www.abulhasanalinadwi.org

الدُّنيا ومتاعها دعوةً باللسان فقط ، ودعوةً لأمتهم فقط ، بل كان ذلك مبدأ ومنهاجاً لحياتهم ، وكانوا من أول المؤمنين بها ، السَّائرين عليها في حياتهم ، وخواصِّهم ، وعشيرتهم ، وقد قال شعيب معبراً عن جماعته كلِّها: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] ، فكانوا زاهدين في الدنيا مقبلين على الآخرة ، قد زهدوا في المناصب الكبيرة ، والمراكز الخطيرة ، وضحّوا بها في سبيل دعوتهم ، وفوّتوا الفرص ، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبلٌ زاهرٌ في الحياة والغد المضمون ، وكانوا من «اللامعين» في المجتمع بذكائهم ، ونبوغهم ، وشرف أسرتهم ، وصلاتهم بالبلاط ، أو الأسرة الحاكمة ، وعن ذلك عبر قوم صالح؛ إذ قالوا: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢] ، وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم ، وقد قيل لسيد الرسل ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩] ، وكان من تأثير صحبته أنَّ أزواجه رضي الله عنهنَّ كلَّهن آثرن الله ورسوله ، وآثرن الفقر والضيق مع الرسول على الرَّخاء وخفض العيش مع غيره .

ومعيشة النبي ﷺ وحياته وحياة أهل بيته معروفةٌ في التاريخ ، معروفةٌ في السيرة النبوية ، تثير العجب ، وتسحر النفوس ، وتملأ القلوب عظمةً ومهابةً ، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة مناراً عالياً من نور ، وكان شعارها الدائم: «اللهم لا عيش إلاَّ عيش الآخرة»(١) ودعاؤها المقبول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»(٢) .

الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية:

ولم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة ، أو الإشادة بها كضرورةٍ خلقيَّةٍ ، أو كحاجةٍ إصلاحيَّةٍ ، لا يقوم بغيرها مجتمعٌ فاضلٌ ومدنيَّةٌ

---

(١) صحيح البخاري .
(٢) صحيح البخاري .

www.abulhasanalinadwi.org

صالحةٌ ، فضلاً عن المجتمع الإسلامي ، وهذا وإن كان يستحقُّ التقدير والإعجاب ، ولكنَّه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ، ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً ، والفرق بينهما: أن الأول ـ منهج الأنبياء ـ إيمانٌ ووجدان ، وشعور وعاطفة ، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره ، وتفكيره ، وتصرفاته ، والثاني: اعترافٌ وتقريرٌ ، وقانونٌ مرسومٌ ، وأنَّ الأوَّلين يتكلَّمون (عن الآخرة) باندفاع ، والتذاذٍ ، ويدعون إليها بحماسة وقوَّة ، وآخرون يتكلَّمون عنها بقدر الضرورة الخلقية ، والحاجة الاجتماعية ، وبدافعٍ من الإصلاح والتنظيم الخلقي ، وشتَّان ما بين الوجدان والعاطفة ، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية[١].

مطالبةٌ بالإيمان بالغيب:

ومن سمات دعوة الأنبياء وصحفهم ، ومن ملامحها البارزة أنها تشدِّد على الإيمان بالغيب[٢] ، وتجعله شرطاً أساسيّاً للهداية ، والانتفاع بالدين ، وشعاراً للمهتدين ، وعلامة للمتقين ، فقال: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥] ، وتطالب به في قوَّةٍ وشدَّة ، وتطلب من الذين يؤمنون بالله ويدخلون في الإسلام ، ـ هو دين جميع الأنبياء ـ أن يصدقوا بصفات الله العليَّة ، وقدرته الواسعة ، وأفعاله العجيبة التي تتحدَّى العقل الضعيف ، والعلم المحدود والتجارب القاصرة أحياناً ، ويصدِّقوا بكلِّ ما جاء عن الرسل وحده ، وصدقهم فيما يروونه وينسبونه إلى الله ، ولم يصدقه

(١) انظر كتاب العلامة الندوي «تأمُّلات في سورة الكهف» طبع دار القلم بدمشق.

(٢) قال العلامة أبو السعود في تفسيره: الغيب هو ما غاب عن الحسِّ والعقل غيبة كاملةً ، بحيث لا يدرك بواحد منها ابتداءً بطريق البداهة ، وهو قسمان: قسم لا دليل عليه ، وهو الذي أريد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقسم نصب عليه دليل ، كالصانع وصفاته ، والنبوات وما يتعلق بها من الأحكام والشرائع ، واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء.

www.abulhasanalinadwi.org

الحسُّ ، ولم تألفه العقول ؛ اعتماداً على أخبار الرسل وحده ، وصدقهم فيما يروونه وينسبونه إلى الله ، واعتماداً على أنَّ الله على كلِّ شيء قديرٌ ، يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يشاء ، وهو الخلاَّق المبدع ، فعَّالٌ لما يريد ، لا يحتاج إلى الأسباب التي هو خلقها ، ولا يتقيد بسننه التي هو سنَّها ، لقد خلق الأسباب ، وسنَّ السنن ، ولكنه لا يزال خالقها ، ومالكها ، والمتصرف فيها ، والحاكم عليها ، وإنَّه لم يفلت منه زمامها ، وهي لم تستقلَّ بوجودها وإرادتها ، ولم يتوقف أمره على مقدمات ووسائل ، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل : ٤٠] .

وقد زخرت الكتب السماوية ، وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله ، وبالمعجزات والخوارق الَّتي لا يصدِّقها ، ولا يسيغها ، ولا يحتملها إلا الإيمان بالغيب ، الإيمان بقدرة الله المطلقة ومشيئة الله القاهرة ، والاعتماد الكامل على صحة هذه الكتب ، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها ، أما الإيمان الذي لم يقم إلا على الحسِّ والتجربة ، والمألوف من الحوادث ، ومطابقة العقل الظاهر ، والعلم المدوَّن في الكتب ، فإنَّه إمَّا يرفض أن يقبله ويصدِّق به ، أو يتعثَّر ، ويتلجلج في قبوله ، والتصديق به ، أو يؤوله تأويلاً يتَّفق مع ما ألفه ، ولذلك قال : ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل : ٦٦] ، وقد ذكر القرآن الفرق بين الفريقين ، فريقٍ أكرمه الله بالإيمان الكامل وشرح صدره للإسلام ، وفريقٍ ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله ، وصوَّر هذا الفرق تصويراً دقيقاً ، فقال : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يُقبل ولا يُصدَّق إلا بالإيمان بالغيب ، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه ، وأخبار الرسل وما أجري على أيديهم من المعجزات ، وما أظهر لهم من الآيات ، ما لا يطيقه ، ولا يسيغه إلا الإيمان بالغيب ، وما لا يقبل التعليل العقليَّ ، ولا التطبيق بنواميس الطبيعة إلا بتكلُّفٍ شديدٍ مضحكٍ ، وخروجٍ على

www.abulhasanalinadwi.org

قوانين اللغة العربية ، وجراءةٍ على الله ، وتجنٍّ على اللغة وأبنائها ، ووقاحةٍ شديدةٍ[١] كانفلاق البحر لموسى وقومه ، وانفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بضرب موسى ، وارتفاع الجبل كالظُلَّة على طائفةٍ من بني إسرائيل ، وحياتها بعد موتها ، ومسخ فِرَقٍ منهم قردةً خاسئين ، وحياة المقتول الذي جهل قاتله بضرب جزء من البقرة المذبوحة ، وتحوُّل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، ومنطق الطير الذي علمه سليمان ، وفهمه لحديث النمل ، ومطاوعة الرِّياح له ، وسيرها به غدوُّها شهرٌ ، ورواحها شهرٌ ، وانتقال عرش ملكة سبأ في طرفة عين ، وقصة ذي النون ، وخروجه من بطن الحوت ، وولادة عيسى الخارقة للعادة ، وهلاك أصحاب الفيل بحجارةٍ من سجيل ، وإسراء الرسول من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[٢] ومنه إلى السماء ، إلى غير ذلك ممَّا زخر به القرآن والصحف السماوية ، ولا يقبله إلا الإيمان بالغيب ، الإيمان الذي آمن بالله الذي وسعت قدرته كلَّ شيء .

ذلك لأن الإيمان الذي يقوم على الحسِّ والتجربة ، ويسير مع المألوف المعروف ، ويتقيَّد بالسنن الكونية والنواميس الطبيعية ، والحوادث التاريخيَّة؛ ويلجأ دائماً إلى شهادة العقل ، والحواسِّ الخمسة ، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات؛ إنما هو إيمانٌ مقيَّدٌ مغلولٌ ، وإيمانٌ محدودٌ مشروطٌ ، لا يصلح للاعتماد ، ولا يساير الأديان ، ولا يتَّفق مع دعوة الأنبياء ، وما يطلبونه من تصديقٍ مطلقٍ ، وثقةٍ دائمةٍ ، وسرعةٍ في الانقياد والطاعة ، وتفانٍ في الجهاد والتضحية ، ولا يصلح في الحقيقة لأن يسمَّى إيماناً ، إنما هو علمٌ ، وتطبيقٌ ، وخضوعٌ للمنطق ، وطاعةٌ للحواسِّ والتجارب ، ولا فضل فيه ، ولا يختصُّ بالدِّين ، فكلُّ عاقلٍ في حياته يؤمن بتجاربه ونتائج استقرائه ، وما تؤدِّي إليه حواسُّه ، ويرشد إليه عقله .

وصاحب هذا الإيمان «الطبيعي» في عناءٍ وبلاءٍ مع الكتب السماوية ،

---

(١) اقرأ أمثلته الواضحة في تفسير سيد أحمد خان والشيخ محمد علي اللاهوري .
(٢) كل ذلك جاء في القرآن صراحةً في سورٍ كثيرة ومواضع عديدةٍ .

www.abulhasanalinadwi.org

والأديان الإلهية ، وفي صراع دائم مع روح الديانات ومطالبها ، وهو كما قال أحد العارفين(١) : «رجلٌ خَشبةٌ ، لا تطاوع صاحبها في سرعة المشي ، ورفع الخطى بحريَّةٍ وكثرة التنقلات والاتجاهات» ، وهو إما يلجأ إلى التحريف ، أو التأويل البعيد ، وإمَّا يضطر إلى الإنكار والإلحاد؛ بناءً على الفجوة الواسعة بين هذا العلم الجديد والحقائق التي جاءت بها الرسل ، ونطقت بها الكتب ، وبين ما آمن به من المحسوسات ، والماديات ، والأصول التي هي مبنيةٌ على استقراءٍ محدودٍ ، فقال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس : ٣٩].

أما المؤمن بالغيب ، المؤمن بقدرة الله المطلقة وإرادته الحرَّة ، المصدِّق للرسل في كل ما جاؤوا به ، ونطقوا به ، وأخبروا عن الله ، فهو في راحةٍ ، وهدوءٍ وانسجامٍ ، ووئامٍ ، مع روح هذه الديانات وأخبارها ، جاهد ، وفكر مرةً ، ثمَّ استراح ، جاهد ، وفكر في الإيمان بالله وصدق الرسول ، وعصمته فيما يقول : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ ـ ٤] ثم آمن ، واطمأنَّ وصدَّق بكل ما جاء به الرسول ، وصح به النقل في سهولة ويسر ، كأنه كان منه على ميعادٍ ، وكان له على أتمِّ الاستعداد .

وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين ، نفسية المؤمن الذي أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول ، وبين نفسية الرجل الذي يحاول أن يخضع الكتاب وما جاء به الرسل لعقله ، وعلمه القاصر ، ويسلط عليه التأويل البعيد ، فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٧ ـ ٨] وذكر نفسية الرجل الذي تعوَّد ألاَّ يؤمن وألاَّ يدين وألا يعيش إلا على المألوف المعروف الموافق لعقله ، الظاهر

(١) هو الشيخ جلال الدين الرومي صاحب المثنوي المشهور .

www.abulhasanalinadwi.org

السطحيِّ ، وشهواته ومصالحه ، فقال : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

إن أدبنا الإسلامي ـ مع الأسف ـ ونظامنا التعليمي الديني ، وأسلوب الدعوة قد قصَّر تقصيراً كبيراً في الدعوة إلى الإيمان بالغيب بإيمانٍ وحماسةٍ ، وتساهل في دعمه وتغذيته والإلحاح عليه ، وقد اتَّجه بعض كتابنا المعاصرين ـ مع ما لهم من فضلٍ في عرض محاسن الإسلام وتقريبه إلى الأذهان ـ إلى صياغةٍ عقليةٍ جديدةٍ للدِّين ، يتفق فيها مع العلم الحديث والعقلية الجديدة ، فجنى ذلك إلى حدٍّ ومن غير إرادة على روح الإيمان بالغيب ، واعتاد الشباب الإسلاميُّ المثقف ألا ينشط إلا للمألوف المقرر ، والواقع المتكرر في الحياة الطبعية ، أمَّا ما شذَّ عنه ، وخرج عليه ، واحتاج في تصديقه إلى إيمانٍ أعمق ، وأوسع ، واعتمادٍ على صدق المخبر ، فإنه لا يقبله إلا على مضضٍ وجهدٍ ، ولا ينشط له ، ولا يرحب به ، ويرى في ذلك منافاةً لما سمع ، وآمن به من أن الإسلام هو دين العقل ، ودين العلم ، ولا شكَّ أنَّ الإسلام كذلك ، ولا شك أنَّ صحيح المنقول لا يناقض صريح المعقول ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية؛ ولكن العقل الإنساني طبقاتٌ ومستوياتٌ ، فعقل البدويِّ ينكر ما زخرت به العواصم والمدن الكبيرة في عصرنا من عجائب المصنوعات ومرافق المدنية ، وعقل العاميِّ ينكر ما وصل إليه الإنسان في العصر الحديث من الاختراع والاكتشاف ، ومن تسخير الطاقات النووية والأقمار الصناعية ، وهكذا ، ثم إن أعلى ما يتصور من العقل النابغ له حدود يقف عندها ورسالة يقتصر على أدائها ، ولا يكلف فوق طاقته ، ويعجبني في ذلك كلمةٌ لنابغة العرب ، بل نابغة الدنيا في فلسفة التاريخ وعلوم العمران العلامة ابن خلدون ، قال رحمه الله :

«ولا تثقنَّ بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدرٌ على الإحاطة بالكائنات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كلِّه ، وسفِّه رأيه في ذلك ، واعلم أنَّ الوجود عند كل مدرك في بادىء رأيه منحصرٌ في مداركه ، لا يعدوها ، والأمر في نفسه بخلاف ذلك ، والحقُّ من ورائه ، ألا ترى الأصمَّ كيف

www.abulhasanalinadwi.org

ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع المعقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات ، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات ، ولولا ما يردهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقرُّوا به ، لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم ، وطبيعة إدراكهم ، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكراً للمعقولات ، وساقطةً لديه بالكليَّة ، فإذا علمت هذا فلعلَّ هناك ضرباً من الإدراك غير مدركاتنا ، لأنَّ إدراكاتنا مخلوقةٌ محدثةٌ ، وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهولٌ والوجود أوسع نطاقاً من ذلك ، والله من ورائهم محيط ، فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر ، واتَّبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك ، فهو أحرص على سعادتك ، وأعلم بما ينفعك؛ لأنه من طورٍ فوق إدراكك ، ومن نطاقٍ أوسع من نطاق عقلك ، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه ، بل العقل ميزانٌ صحيحٌ ، فأحكامه يقينيةٌ لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الإلهية ، وكلَّ ما وراء طوره ، فإنَّ ذلك طمعٌ في محال ، ومثالُ ذلك مثالُ رجلٍ رأى الميزان الذي يوزن به الذهب ، فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدرك على أنَّ الميزان في أحكامه غير صادقٍ ، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه»[1] .

البعد عن الأساليب الصناعية والاعتماد على الفطرة السليمة :

ومن سمات النُّبوَّة وخصائص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ البعد عن الأساليب الصناعية والتصنُّع والتكلُّف في حياتهم وسلوكهم بصفةٍ عامَّةٍ ، وفي دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصَّةٍ ، وقد كان قول آخر الرسل ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [ص: ٨٦ ـ ٨٧]. تصويراً لحال جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين صلى الله عليهم وسلم جميعاً .

(١) مقدمة ابن خلدون/ ص/ ٣٢٢ .

www.abulhasanalinadwi.org

فهم دائماً يخاطبون الفطرة السليمة ، والعقل العامَّ بأسلوبٍ فطريٍّ غير ذي عوج ، لا يتوقف فهمه على ذكاءٍ نادرٍ ، وعلمٍ فائقٍ ، وألمعيةٍ بارعةٍ ، ودراسةٍ واسعةٍ للعلوم ، وإحاطةٍ بالمصطلحات العلمية ، ومعرفة المنطق ، والفلسفة ، والرياضيات ، والفلكيات ، وعلوم الطبيعة ، يفهمه العوام ، كما يتذوقه الخواص ، وينتفع به الجهلاء ، كما ينتفع به العلماء ، كلٌّ على قدر فهمه وطاقته ، ويطابق حال الأمم التي تعيش على فطرتها وسذاجتها ، كما يطابق حال الأمم المتمدنة المثقفة العالية ، ولا يثيرون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها ، إنما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذي يسيغيه كلُّ واحدٍ ، ويحتاج إليه كلُّ واحدٍ.

وقد أجاد شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في الإشارة إلى هذه النكتة في كتابه الفريد «حجة الله البالغة» يقول رحمه الله :

«ومن سيرتهم (الأنبياء) ألا يكلموا الناس إلا على قدر عقولهم التي خلقوا عليها ، وعلومهم التي هي حاصلةٌ عند غيرهم بأصل الخلقة ، وذلك لأنَّ نوع الإنسان حيث ما وجد فله في أصل الخلقة حدٌّ من الإدراك زائدٌ على إدراك سائر الحيوانات إلا إذا عصمت المادَّة جداً ، وله علوٌّ لا يخرج إليها إلا بخرق العادة المستمرة ، كالنفوس القدسية من الأنبياء والأولياء ، أو برياضاتٍ شاقَّةٍ تهيِّىء نفسه لإدراك ما لم يكن عنده بحساب ، أو ممارسة قواعد الحكمة والكلام ، وأصول الفقه ونحوها مدَّةً طويلةً.

«فالأنبياء لم يخاطبوا الناس إلا على منهاج إدراكهم الساذج المودع فيهم بأصل الخلقة ، ولم يلتفتوا إلى ما يكون نادر الأسباب قلَّما يتفق وجودها ، فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات ولا بالبراهين والقياسات ، ولا أن يعرفوه منزهاً عن جميع الجهات ، فإن ذلك كالممتنع بالإضافة إلى من يشتغل بالرياضات ، ولم يخالط المعقوليين مدةً طويلةً ، وأن يرشدوهم إلى طرق الاستنباط والاستدلالات ووجوه الاستحسانات ، والفرق بين الأشباه والنظائر بمقدمات دقيقةِ المأخذ ، وسائر ما يتطاول به أصحاب الرأي على أهل الحديث».

www.abulhasanalinadwi.org

«ومن سيرتهم ألا يشتغلوا بما لا يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة، كبيان أسباب حوادث الجوِّ من المطر، والكسوف، والهالة، وعجائب النبات، والحيوان، ومقادير سير الشمس والقمر، وأسباب الحوادث اليومية وقصص الأنبياء والملوك والبلدان ونحوها، اللهمَّ إلَّا كلماتٍ يسيرةً ألفتها أسماعهم، وقبلتها عقولهم، يؤتى بها في التذكير بآلاء الله، والتذكير بأيام الله، على سبيل الاستطراد بكلامٍ إجماليٍّ يسامح في مثله بإيراد الاستعارات وبالمجازات».

«ولهذا الأصل لما سألوا النَّبيَّ ﷺ عن كمية نقصان القمر وزيادته أعرض الله تعالى عن ذلك إلى بيان فوائد الشهور، فقال: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩] ونرى كثيراً من الناس فسد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون، أو غيرها من الأسباب، فحملوا كلام الرسل على غير محمله، والله أعلم»[١].

وقال في ضمن بيان أسباب التيسير في هذا الكتاب:

«ومنها أنَّ الشارع لم يخاطبهم إلا على ميزان العقل المودع في أصل خلقتهم قبل أن يتعانوا دقائق الحكمة والكلام والأصول، فأثبت لنفسه جهةً فقال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] وقال النبي ﷺ لامرأة سوداء أين الله؟ فأشارت إلى السماء، فقال: «هي مؤمنة» ولم يكلِّفهم في معرفة استقبال القبلة، وأوقات الصلاة، والأعياد، وحفظ مسائل الهيئة والهندسة، وأشار بقوله: «القبلة ما بين المشرق والمغرب، إذا استقبل الكعبة» إلى وجه المسألة، وقال: «الحج يوم تحجون والفطر يوم تفطرون» والله أعلم»[٢].

وكذلك قال قبله حجة الإسلام الغزاليُّ، وهو يذكر فضل أسلوب القرآن على علم الكلام، والفرق بينهما، قال رحمه الله:

«فأدلَّة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كلُّ إنسان، وأدلة المتكلمين مثل

---

(١) حجة الله البالغة ج/ ١ ص/ ٨٦.

(٢) حجة الله البالغة ج/ ١ ص/ ١٣.

www.abulhasanalinadwi.org

الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضرُّ به الأكثرون ، بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبيُّ والرضيع ، والرَّجل القويُّ ، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرَّةً ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيانُ أصلاً» .

وقد قال الإمام الرازي ، كما ينقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية كثيراً في كتبه :

«لقد تأمَّلت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية؛ فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، ومن جرَّب مثل تجربتي؛ عرف مثل معرفتي»[(١)] .

وقد أفضت في هذا الموضوع لبعد الطبائع والعقول في هذا العصر عن فهم طبيعة النبوة وسماتها ، ومنهاج الأنبياء وسيرتهم في الدعوة والبيان ، وفي حياتهم الخاصَّة وفي حياتهم مع الناس ، وطغت الأساليب الصناعية ، والمناهج الكلامية ، وأساليب الدعوة والتنظيم الحديثة ، حتى صار الناس في غفلةٍ ، بل واستهانةٍ بطريق الأنبياء وسيرتهم ، والتوى عليهم فهم القرآن ، ولم يستطيعوا تذوُّق أسلوبه الحكيم ، ولجؤوا إلى تأويلاتٍ وتكلُّفات ، ولا تزال سيرة الأنبياء في الدعوة هي السيرة المثالية ، ولا يزال أسلوب القرآن هو الأسلوب الفطريُّ البليغ الحكيم ، الذي يقنع العقول ، ويفتح القلوب في كلِّ عصر ، ويجد فيه كل جيلٍ وكلُّ طبقةٍ البيان الوافي ، والدواء الشَّافي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت : ٤٢] .

* * *

(١) كتاب النبوات لابن تيمية ص / ١٤٧ ـ ١٤٨ .

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الثالثة

أئِمّـةُ الـهُـدَىٰ وَقـادَةُ الإنـسـانِـيّـةِ

عبـث الـقـادة والـزعمـاء بـالإنسـانـيـة :

لم يزل الجيل البشريُّ في تاريخه الطويل موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء ، أو تجربة المجرِّبين والمجازفين من المشرِّعين والحكماء ، وقد عبثوا بأبناء جنسهم وعقليتهم ومدنيتهم عبث الوليد بجانب القرطاس ، يطويه ، وينشره ، ويمدُّه ، ويكوِّره ، ويمزِّقه إذا شاء ، ويحرِّقه إذا شاء ، وهانت عليهم الحياة الإنسانية وطاقاتها ، وملكاتها ومواهبها ، وما أودع الله فيها من طبيعة الطاعة ، والتقليد ، والتفاني ، والاعتماد على القادة ، فلم يتَّقوا الله فيها ، ولم يراعوا فيها حقّاً ، ولا حرمةً ، ولا إلاًّ ، ولا ذمَّةً ، واتخـذوهـا مطيـةً لشهـواتهـم ، ونـزعـاتهـم ، وقنطـرةً إلـى سيـادتهـم ، ورياستهم ، وتحقيق أغراضهم ، وقد جرَّ عليها جهل هؤلاء القادة حيناً وعدم اعتصامهم من الخطأ ، والضلال ، وسوء الفهم ، وسوء التعبير أحياناً ، والشهوات التي ركبوا عليها ، والنزعات والأنانية ، الفردية والقومية ، والعصبية الجنسية والوطنية ، قد جر كلُّ ذلك على الإنسانية البائسة شقاءً طويلاً ، وويلاً عظيماً ، وأفقد الثقة بقيادتهم ، وشكَّك تشكيكاً كبيراً في إخلاصهم ، وصحة معلوماتهم ، وحسن قصدهم ، وسعادة الإنسانية تحت قيادتهم ، وإشرافهم ، والتاريخ الإنسانيُّ مليءٌ بهذه المآسي والمهازل ، والمضحكات المبكيات ، ولا تزال شعوبٌ كثيرةٌ في الشرق والغـرب تحـت رحمـة هـؤلاء القـادة الأغمـار العـابثيـن ، يلعبـون بهـا ،

www.abulhasanalinadwi.org

ويتداولونها كالكرة ، ويجرُّون عليها عملياتٍ وتجارب جديدةً كثيرةً ، قد يعترفون بخطئها وإخفاقها بعد قليلٍ ، وقد يفضحها ويزيل عنها الستار من يتسلَّم القيادة منهم ، ويخلفهم ، وقد يسجل عليها ذلك التاريخ ، وتشعر به الأجيال الآتية .

الحاجة إلى الأنبياء المعصومين عن الخطأ :

وشر هذه التجارب المخفقة والنتائج الخاطئة ما كان في باب العقيدة والإيمانيات التي يتوقف عليها المصير ، وتتوقف عليها السعادة في الدنيا ، والنجاة في الآخرة ، والتي تشكِّل الأخلاق الصحيحة ، وتكوِّن المدنية الصَّالحة ، والعبادات التي يتقرَّب بها الإنسان إلى ربِّه ، والشرائع التي تنظم حياته ، فالعثرة في ذلك لا تقال ، والكسر في ذلك لا يجبر .

فمسَّت الحاجة إلى قادةٍ أمناء معصومين من الضلال ، والأوهام ، والأخطاء ، مبرَّئين من كلِّ طمعٍ ومساومةٍ ، وطلب مكافأةٍ ، ومقابلٍ ، وربحٍ ماديٍّ ، لا تتغلب عليهم الشهوات ، ولا تؤثِّر فيهم النزعات ، لا يصدرون عن رأيهم ومعلوماتهم الناقصة ، وتجاربهم القاصرة ، ومصالحهم الخاصة ، وإذا صدر منهم خطأٌ في الاجتهاد والتقدير ؛ نبَّههم الله على ذلك فلم يمكثوا عليه ، ولم يتمادوا فيه .

أمانة وإخلاص :

ولذلك تقرأ في سورة الشعراء : أنَّ كلَّ نبيٍّ يبعث إلى أمته يؤكد لهم أمانته ، وإخلاصه . واقرؤوا معي الآيات التالية :

١ ـ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥ ـ ١٠٩] .

٢ ـ ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . [الشعراء : ١٢٣ ـ ١٢٧] .

www.abulhasanalinadwi.org

٣ ـ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١ ـ ١٤٥].

٤ ـ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٤].

٥ ـ ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦ ـ ١٨٠].

هذه الوحدة التي تربط بين هؤلاء الأنبياء المبعوثين في أممٍ مختلفةٍ، وفي عصورٍ مختلفةٍ ذات معنىً عميقٍ، وهو أنَّ الأمانة، وهي الكلمة الجامعة بين معاني الصدق وصحة التلقي من فوق، التلقي من الله العليم الحكيم، وصحة الإلقاء إلى أسفل، إلى الأمة التي يبعث فيها النبي، هو الركن الأساسي في مفهوم النُّبوَّة والرسالة، ونظامها، ولا أجمع لهذه المعاني، ولا أبلغ من كلمة «الأمانة» في لغة العرب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن يوصف بها الرسول العربي ﷺ قبل البعثة، وألهمت أهل مكة الأميين أن يلقبوه بالصادق الأمين.

وكذلك الإخلاص، والنزاهة، والبعد من كلِّ طمعٍ، والزهد في كلِّ منفعةٍ شخصيةٍ، أو منفعة ترجع إلا الأسرة، والعشيرة، والأولاد، وقد اتفقت الفطر السليمة، والعقول المستقيمة على حبِّ هذا الداعية المخلص، الناصح الأمين، ولذلك قال صالح، في أسف واستغراب: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩] وقال الموجه الكريم الذي جاء من أقصى المدينة يسعى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢١].

وهذا هو المعنى الذي أكَّده موسى عليه السلام لفرعون فقال: ﴿ وَقَالَ

www.abulhasanalinadwi.org

﴿مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا
ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾
[الأعراف: ١٠٤ ـ ١٠٥].

أمانٌ وضمانٌ للأتباع:

وقد كان في هذه «العصمة» والأمانة والنزاهة، التي اتصف بها الأنبياء ضمانٌ لسلامة أتباعهم، وأمّتهم في العقائد والشرائع، وأمانٌ مما استهدفت له الأمم والأجيال البشرية الماضية من الوقوع في المهالك، والتورط في الشبهات، والحيرة في أمر هؤلاء القادة ونتيجة اتّباعهم.

حقيقة العصمة وطرقها:

يقول شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة» وهو يذكر ما يجب أن يتَّصف به هداة السبل، ومقيمو الملل ـ يعني الأنبياء ـ سلام الله عليهم، يقول رحمه الله:

«ثم لا بدَّ لهذا العالم أن يثبت على رؤوس الأشهاد أنَّه عالم بالسنة الراشدة، وأنه معصومٌ فيما يقوله من الخطأ والضلال، ومن أن يدرك حصة من الإصلاح ويترك حصةً أخرى لا بدَّ منها، وذلك ينحصر في وجهين: إما أن يكون راوياً عن رجلٍ قبله انقطع عنده الكلام لكونهما مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته، وكون الرواية محفوظةً عندهم، فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه ويحتجَّ عليهم، ويفحمهم أن يكون هو الذي انقطع عنده الكلام، وأجمعوا عليه، وبالجملة فلا بد للناس من رجلٍ معصومٍ يقع عليه الإجماع يكون فيهم أو تكون الرواية محفوظةً عندهم، وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هذه السنن منها، ووجوه منافعها، وعلمه الآثام، ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان، ولا بالعقل المتصرِّف في المعاش، ولا بالحسِّ، بل هي أمور لا يكشف عن حقيقتها إلا الوجدان، فكما أنَّ الجوع والعطش وتأثير الدواء المسخن أو المبرد لا يدرك إلا بالوجدان، فكذلك معرفة ملاءمة الشيء للروح ومباينته لها لا طريق إليها لا الذوق السليم، وكونه مأموناً عن الخطأ في نفسه، إنه يكون بخلق الله علماً

www.abulhasanalinadwi.org

ضرورياً فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حقٌّ مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للبصر عند الإبصار ، فإنه إذا أبصر شيئاً لا يحتمل عنده أن يكون عينه مؤوفة وأن يكون الإبصار على خلاف الواقع ، وبمنزلة العلم بالموضوعات اللغوية ، فإنَّ العربيَّ مثلاً لا يشك أنَّ الماء موضوعٌ لهذا العنصر ، ولفظ الأرض لذلك ، مع أنه لم يقم له على ذلك برهان وليس بينهما ملازمة عقلية ، ومع ذلك فإنَّه يخلق فيه علمٌ ضروريٌّ ، وإنما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكوِّن لنفسه ملكةً جبليَّةً ، يكون بها تلقي العلم الوجداني على سنن الصواب دائماً ، وأن يتتابع الوجدان وتتكرَّر تجربة صدق وجدانه ، وعند الناس(١) ، إنما يكون بأن يصحَّ عندهم بأدلةٍ كثيرة برهانيةٍ ، أو خطابية أنَّ ما يدعو إليه حقٌّ ، وأنَّ سيرته صالحةٌ يبعد عنها الكذب ، وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة الدعوات ، حتى لا يشكُّوا أنَّ له في التدبير العالي منزلةً عظيمةً ، وأنَّ نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة ، وأنَّ مثله حقيقٌ بألاَّ يكذب على الله ولا يباشر معصيةً ، ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً عظيماً ، وتصيره عندهم أحبَّ من أموالهم وأولادهم ، والماء الزلال عند العطشان ، فهذا كلُّه لا يتحقَّق انصباغ أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه ، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم إلى من يعتقدون فيه هذه الأمور ، أصابوا أم أخطؤوا. والله أعلم»(٢).

جديرون بالطاعة والاتِّباع :

إنَّ هذه الجماعة التي هذا شأنها في العصمة وصحة العلم ، وهذه منزلتها من الأمانة والإخلاص والنزاهة ، وقد أفرغها الله في قالبٍ من الاعتدال والسداد ، وربَّاها فأحسن تربيتها ، وأدَّبها ، فأحسن تأديبها: ﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾ [طه : ٣٩] ﴿ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا

(١) أي كونه مأموناً من الخطأ عند الناس ، يكون إذا صحَّ عندهم أن ما يدعو إليه حق. . . الخ.

(٢) حجة الله البالغة «باب الحاجة إلى هداة السبيل ومقيمي الملل».

www.abulhasanalinadwi.org

﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٦ ـ ٤٧]، هي الجديرة الخلية ـ بحكم العقل والذوق والمنطق ـ بالطاعة والاقتداء والتقليد والاتّباع، ولذلك قال الله تعالى بعد ما ذكر جماعةً من أنبيائه المكرّمين، وذكر ما أكرمهم به من الهداية والصلاح والفضل على العالمين، والاجتباء والكتاب والحكم والنبوة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

محط العناية والرضا:

لقد أحاطت العناية الإلهية والقبول الرحمانيُّ بنفوس الأنبياء، والحياة التي كانوا يعيشونها، وشملت أخلاقهم، وعاداتهم، وسننهم، وطرق معيشتهم، واختار الله طريق حياتهم من بين طرق الحياة، وأخلاقهم من بين أخلاق الناس، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التي تعوَّدها الناس، حتى إذا سلكوا شعباً ووادياً، وسلك الناس شعباً ووادياً كان شِعبهم وواديهم أحبَّ إلى الله من شِعب الناس، وواديهم، ونفذت فيهم وفي كلِّ ما اختاروه، وأصبح لهم شعاراً وبهم خاصّاً محبة الله ورضاه، حتى أصبح تقليدهم واتّباعهم واتخاذ شاراتهم وشعائرهم، والتخلق بأخلاقهم، والتشبه بهم أقرب الأسباب، وأقرب الطرق، وأيسرها بجلب محبة الله، وصار من اتّبعهم، وتشبه بهم من المحبوبين، فضلاً عن أن يكون من المحبِّين، لأنَّ المتشبه بالحبيب حبيبٌ وبالبغيض بغيضٌ، وأصبح ذلك أصلاً من الأصول والقانون الذي لا يتبدَّل، ولا يتغيَّر على مرِّ الزمان، واختلاف المكان، وأصبحت الدعوة إليه عامَّةً، وعلانيةً، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبيين ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] وبالعكس من ذلك كان الميل إلى الظالمين والكفار، وإيثار طريقتهم، والسير بسيرتهم جالباً لسخط الله، والبعد عنه، فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

سرُّ تفضيل عاداتٍ وأوضاعٍ على عاداتٍ وأوضاعٍ، وحقيقة الشعائر:

وهذا السرُّ ما تسمِّيه الشريعة بخصال الفطرة، وسنن الهدى، وتشيد بها

www.abulhasanalinadwi.org

وتحثُّ على الأخذ بها ، ومجموع هذه الأخلاق ، والعادات يحدث انصباغاً بصبغتهم ، وهي الصبغة التي يقول الله عنها : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٨] وهذا سرُّ تفضيل الله عادةً على عادةٍ وخلقاً على خلق ، ووضعاً على وضع ، وهيئةً على هيئة ، وهذا سرُّ ما تتخذه الشريعة الإسلامية شعاراً لأهل الإيمان ، ولأهل الطَّاعة ، وسنَّةً موافقةً للفطرة . وضدُّه علامة للانحراف وشعاراً لأهل الجهل والسفاهة ، ولأهل الجاهلية والكفر ، ولا فرق بينهما ، إلا أنَّ الأول كان شعاراً للأنبياء ومن عادتهم واختيارهم ، وفيه تشبهٌ بهم ، والثاني شعارٌ لأهل الكفر وعادةٌ من عادات الجاهلية ، ومن أوضاع الشيطان ، وأتباعه ، وتشبهٌ بهم ، ويندرج تحت هذا الأصل كثيرٌ من آداب الأكل ، والشرب ، واللباس ، والزينة ، والنوم ، والعشرة ، والاختلاط ، وهو بابٌ واسعٌ من أبواب السنَّة ، وفقه الدين .

لماذا كانت اليد اليمنى أفضل من اليسرى ، وخصَّت بالأعمال الفاضلة المستجادة ، كالأكل ، والشرب ، والإشارة ، وتناول كلِّ شيءٍ ذي بال ، وإعطائه ، وكلِّ ما فيه إكرامٌ ، وخصَّت اليسرى بالاستبراء ، وكلِّ ما فيه لوثٌ وإهانةٌ؟ وكلتا اليدين من خلق الله وصنعه! وكثيرٌ من الأمم الجاهلية ، وممن نشأ بعيداً عن تربية الأنبياء وتعليماتهم لا يفرق بينهما ، ولا يلتزم هذا الأدب ، ويضع إحداهما موضع الأخرى ، لا سبب لذلك إلا أنَّ الأنبياء عامَّةً ـ ورسول الله ﷺ خاصَّةً ـ كانوا يفعلون ذلك بإلهامٍ من الله أو بسائقٍ من فطرتهم السليمة ، التي كانت دائماً على اتصالٍ ومناسبةٍ بما يُرتضيه الله تعالى من الأخلاق ، والعادات ، والأوضاع ، ولماذا كان التيمُّن محموداً مطابقاً للفطرة السليمة ، ومن شعائر الحضارة الإسلامية؟ لأنه كان من سنَّة الأنبياء عليهم السلام ، ومن عادات الرَّسول ﷺ وذوقه . فعن عائشة قالت : كان النبيُّ ﷺ يحب التيمُّن ما استطاع في شأنه كلِّه ، في طهوره ، وترجُّله وتنعُّله[١] .

---

(١) صحيح البخاري .

www.abulhasanalinadwi.org

وعلى ذلك تقاس جميع خصال الطَّهارة ، وخصال الفطرة التي نسبت في الحديث إلى سيدنا إبراهيم ﷺ.

مؤسسو حضارةٍ وأسلوبٍ خاصٍّ من الحياة:

[إنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لم يدعوا إلى عقيدةٍ وشريعةٍ فحسب ، ولم يحملوا ديناً جديداً ـ هو الإسلام ـ فحسب ، بل كانوا مؤسسي حضارةٍ ، ومدنيةٍ ، وعشرةٍ ، واجتماعٍ ، وأسلوبٍ من الحياة جديدٍ خاصٍّ ، جدير بأن يسمى الحضارة الرَّبانيَّة ، ولهذه الحضارة أصلٌ ودعائم ، وعلاماتٌ وشعائر ، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى ، الحضارات التي تسمَّى الحضارات الجاهلية امتيازاً واضحاً ، امتيازاً في الأساس ، وفي الرُّوح ، وفي الأشكال ، والتفاصيل.

حضارةٌ إبراهيميَّةٌ محمَّديَّةٌ:

وكان إبراهيم الخليل الحنيف ﷺ إمام هذه الحضارة الحنيفية المؤسسة على توحيد الله تعالى والإيمان به وذكره ، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم ، المؤسسة على الحياء والأدب مع الله والإنابة ، والرحمة على بني النوع ، ورقة العاطفة. وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة ، وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة ، وكان رسول الله ﷺ ، وهو حفيده مجدد هذه الحضارة ومتمِّمَها ، وهو الذي بعث فيها الروح ، وأفاض عليها الخلود ، وأرسى قواعدها ، وشدَّ بنيانها ، وجعلها خالدةً باقيةً عاليةً.

خصائص هذه الحضارة وسماتها:

«إنَّ هذه الحضارة الإبراهيمية المحمَّديَّة ، لا تعرف الوثنية ، والشرك ، ولا تسمح به في لونٍ من الألوان ، في أيِّ مكانٍ ، وزمانٍ ، فكان أعظم دعاء إبراهيم ، وأكبر همِّه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠ ـ ٣١].

إنَّها لا تعرف التهالك على الشهوات ، والتكالب على حطام الدنيا ، والتناحر على جيف المادة ، والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب. إنَّها دعوةٌ لم تزل عقيدتها : ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

إنَّـها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان ، والتميز بين الألوان والأوطان «فالناس كلهم من ادم وادم من تراب ، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتقوى» ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣][١] وقد قال خاتم الرسل ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية»[٢] وقال لمن هتف بالأنصار ولمن هتف بالمهاجرين: «دعوها فإنها منتنة»[٣].

إنَّها حضارةٌ تُعرف في العقيدة بالتوحيد ، وفي الاجتماع باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها ، وفي دائرة الأخلاق ، والمنهج بتقوى الله ، والحياء ، والتواضع ، وفي ميدان الكفاح بالسعي للآخرة ، والجهاد لله ، وفي ساحة الحرب بالرَّحمة ، والعاطفة الإنسانية ، وفي أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية ، والخدمة على الاستخدام ، تعرف في التاريخ بخدمة الإنسانية المخلصة ، وإنقاذها من براثن الجاهلية ، والدعوات المضلّة الطاغية ، وفي العالم بآثارها الزاهرة الزاهية ، وخيراتها المنتشرة الباقية.

---

(١) سيرة ابن هشام.
(٢) رواه أبو دواد.
(٣) رواه البخاري.

www.abulhasanalinadwi.org

إنها حضارةٌ عُجنت مع اسم الله ومراقبته ، وصُبغت بصبغة الله ، وقامت على أساس الإيمان ، فلا يمكن تجريدها عن الطابع الدينيِّ واللون الرَّباني ، والرُّوح الإيماني.

دعوة القرآن إلى اتّباع الأنبياء وحثُّه على تقليدهم:

إنَّ القرآن يدعو إلى اتّباع الأنبياء ، والأخذ بسيرتهم ، والسير على منهجهم العام في الحياة ، والتشبُّه بهم ما أمكن ، فيقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ويأمر المسلمين بأن يدعو دائماً بقولهم: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧] ولا شكَّ أنَّ في مقدمة هؤلاء المنعم عليهم ، وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلين ، وجعل هذا الدعاء في صلب الصَّلاة ، وكلَّما كان الإنسان أتبع لسننه ، وأكثر تخلقاً بأخلاقه ، وأشبه به هدياً ودلاًّ وسمتاً كان أقرب إلى الله ، وأعلى منزلةً عنده.

الإجلال المنبعث من أعماق القلب والحبُّ العاطفي:

والقرآن يطلب للأنبياء الإجلال المنبعث من أعماق القلب ، والتوقير والتبجيل العميق ، والحبَّ العاطفيَّ ، ولا يكتفي بالطاعة المجردة من كلِّ عاطفةٍ ، وحبٍّ ، وإجلالٍ ، كطاعة الرعية ، والسوقة للملوك ، وكثيرٍ من قادة الجنود وزعماء الأحزاب ، ولا يكتفي بدفع الضرائب وتنفيذ الأحكام ، فقال: ﴿ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩] وقال: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ولذلك أمر بكلِّ ما يحفظ لهم حرمتهم ، واحترامهم ، ونهى عن كلِّ ما يحط مكانتهم ، ويجرح كرامتهم ، ويهون شأنهم ، ويفقد مهابتهم ، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٢ ـ ٣] وقال: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم

www.abulhasanalinadwi.org

بَعۡضًاۚ﴾ [النور: ٦٣] ولذلك حرم زواج أزواجه من بعد وفاته فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقد جاءت النصوص الصريحة الكثيرة تطلب حبَّ الرسول، وإيثاره على النفس والأهل والولد، فقد جاء في الصحيحين: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» وكذلك: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما... الحديث».

تأثير عاطفة الحبِّ وسرُّ تفاني الصَّحابة في طاعة الرسول:

لأنَّ الطاعة الكاملة المخلصة، والتخلُّق بأخلاق الرسول، والانصباغ بصبغته، وإيثار شريعته ورضاه على هوى النفس والعادات والأعراف، وبذل المهجة والنفس والنفيس في سبيل دعوته، لا يتأتّى إلا بهذا الإجلال المنبعث من أعماق القلب، والحبِّ العميق الذي يملك على الإنسان مشاعره، ويستولي على قلبه؛ ولذلك قال: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم من أحرص الناس على طاعته، وأسرعهم إليها، وأنشطهم فيها، وأصبرهم عليها، ولهم في ذلك القدح المعلَّى، والنصيب الأوفر إلى يوم القيامة، ومنهم أبو بكر الصِّديق الذي كان رسول الله ﷺ أكرم عليه، وأحبَّ إليه من نفسه، وحياتُه وصحَّتُه أعزُّ عليه من حياته وصحته، وقد ضربه عتبة بن ربيعة بنعلين مخصوفتين ويحرّفهما لوجهه، ونزا على بطنه حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوبٍ لا يشكُّون في موته، ولـمَّا تكلم آخر النهار؛ قال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ ولما قيل له: إنه

www.abulhasanalinadwi.org

سالمٌ صالحٌ ، قال: إن لله عليَّ ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ[١] .

ومنهم المرأة الأنصارية التي كان الناس يخبرونها بشهادة أعزِّ أقاربها: أبيها ، وأخيها ، وزوجها يوم أحد ، فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا : خيراً ، هو بحمد الله كما تحبين ، فلما رأته؛ قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدك جلل[٢] .

ومنهم عبد الله بن عبد الله بن أبي ، سمع أنَّ والده قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل ، فلما قدموا المدينة قام عبد الله على بابها بالسيف لأبيه ، ثم قال: أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؟ أما والله لتعرفنّ العزَّة لك ، أو لرسول الله ﷺ؟ والله لا يأويك ظلُّه ، ولا تأويه أبداً إلا بإذنٍ من الله ورسوله ، ولم يسمح له بالدخول حتى أرسل إليه رسول الله ﷺ يأمره بأن يخلِّيَ سبيله[٣] .

ولذلك كلِّه استطاعوا أن يضعوا رؤوسهم ومهجهم على أكفِّهم وراحاتهم ، وهانت عليهم الحياة ، وطابت لهم هجرة الأوطان ، وهجر الإخوان ، والشهادة في سبيل الله ، ولذلك استطاعوا أن يقولوا عند وقعة بدر: إنَّ أمرنا تبعٌ لأمرك ، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان؛ لنسيرنَّ معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر؛ خضناه معك[٤] .

نتيجة ضعف عاطفة الحب في العالم الإسلاميِّ اليوم وتأثير ذلك في الحياة:

وما ضعف العالم الإسلاميِّ في العمل بالشريعة اليوم ، والتكاسل في الطاعات ، والابتعاد عن كل ما يشقُّ عن النَّفس ، وما تهاون كثيرٍ من طبقة

---

(١) البداية والنهاية ج/ ٣ ص/ ٣٠ .
(٢) ابن إسحاق والبيهقي .
(٣) تفسير الطبري ج/ ٢٨ .
(٤) ـ قاله سعد بن معاذ ـ عن كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للعلامة الندوي .

www.abulhasanalinadwi.org

العلماء والمثقفين الثقافة الدينية الواسعة بالسُّنن وهدي الرسول إلا لضعف هذا الإجلال الذي اهتمَّ به القرآن كثيراً ، وضعف عاطفة الحبِّ أو فقدانها ، العاطفة التي كانت ولا تزال مصدر قوةٍ لا نظير لها ، ومردَّ عجائب ومعجزاتٍ في التاريخ ، وهو فراغٌ لا يملأ بأكبر مقدارٍ من العقل والعزم والنظام ، وخسارةٌ لا تعوض بشيء.

لا فلاح لأمَّةٍ بعث فيها النَّبيُّ إلا في اتباعه وإيثاره:

وفي الأخير فإنَّ مصير الأمم التي يبعث فيها هؤلاء الأنبياء مربوطٌ باتِّباعهم ، والانقياد لهم ، والاجتماع تحت رايتهم ، والتمسُّك بأهدابهم ، والسَّير في ركابهم بعزٍّ عزيزٍ وذلِّ ذليلٍ ، فلا تفلح أمَّةٌ مهما أوتيت من الحول ، والطول ، والذَّكاء ، والوسائل ، ومهما تقدَّم الزمان ، وتقدَّمت الحضارة ، وتنوَّعت الفلسفات ، وتغيَّرت الأحوال ، إلا باتِّباع هذا النَّبيِّ ، والحبِّ له ، والانتصار لدعوته ، رضيت بذلك أم أبت ، وكلُّ أمَّةٍ تحاول أن تنال العزَّة ، والسؤدد ، والكرامة ، والقوة الحقيقية عن غير هذا الطريق ، معتمدةً على سياستها الحكيمة ، أو الانضمام إلى معسكرٍ من المعسكرات القوية؛ فلن يكون ذلك ، وليس عاقبتها إلا الذلَّ والهوان ، والإخفاق الذريع ، والانشقاق الداخليّ ، والخيبة عاجلاً أو آجلاً.

وضع العالم الإسلاميِّ والعربيِّ اليوم وسببه:

والعالم الإسلاميُّ بصفةٍ عامَّةٍ ، والعالم العربيُّ بصفةٍ خاصَّةٍ خير شاهد على ذلك ، فقد كبر على هذين العالمين في الزمن الأخير اتِّباع الرسول النَّبيِّ الأمِّيِّ ﷺ ، وثقل عليهما إيثار ما أمر به ، وطلبه على ما تأمر به نفوس القادة والزعماء ، واستنكفا عن الانتساب إليه والافتقار له ، والظهور في مظهر دينه أمام الأمم والحكومات ، وآمنا بضرورة التنصُّل عن دينه ، وأحكامه وحضارته ، وآمن أكثر أقطارهما بالقومية ، والوطنية ، والشيوعية ، والفلسفات الحديثة. وإلى الآن لم يقضيا وطراً ، ولم يهزما عدوّاً ، وهذا هو العالم العربي ، ولا معذرة ولا استعفاء ، موزعٌ على نفسه ، لم يستطع أن يحلَّ مشكلة فلسطين في هذه المدَّة الطويلة ، ولم

www.abulhasanalinadwi.org

يحتلَّ المكان اللائق به في زعامة العالم الإسلامي ، أو قيادة العالم الإنسانيِّ ، وفي كلٍّ مشكلةٌ طريفة ، وقضيةٌ جديدة .

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال لأصحابه العرب في الشام ـ وهم كبار الصحابة ، وقادة الفتح الإسلامي ، وقد عيروه ببعض صنيعه الذي لا يتفق مع رئيس حكومةٍ كبيرةٍ ـ :

«إنكم كنتم أذلَّ النَّاس ، فأعزَّكمُ اللهُ بالإسلام ، فمهما تطلبوا العزَّة بغيره يذلُّكمُ الله»[١] .

* * *

(١) البداية والنهاية ج/ ٧ ص/ ٦٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الرابعة

بين الإرادة الإلهيّةِ والأسبَاب المادِّيَّةِ

تفاوت ما بين الأنبياء وخصومهم في الأسباب المادِّيَّة :

إنَّ القارىء للقرآن ـ وهو الكتاب الوحيد الذي حفظ تاريخ الأنبياء ، وحوادث حياتهم ، وأخبار دعوتهم ـ يلاحظ باستمرارٍ ووضوح : أنَّ الأنبياء بعثوا دائماً في بيئةٍ مظلمةٍ خانقةٍ ، معارضةٍ لدعوتهم ، ثائرةٍ عليها ، وبعثوا في ضعفٍ شديدٍ ، وفقرٍ تامٍّ في الأسباب ، وكان كلُّ ما يعتز به إنسان من مالٍ ، وملكٍ ، وشيعٍ ، وأنصارٍ ، والأسباب المادية في جانبِ أعدائهم ، وفي كفَّتهم ، وتحت تصرُّفهم ، ولم يكن في جانب الأنبياء ، وكفَّتهم إلا الإيمان القويُّ الذي لا يرقى إليه شكٌّ ، والإخلاص الكامل الذي لا يشوبه طمعٌ ونفاقٌ ، واعتمادٌ على الله ، وابتهالٌ إلى الله ، واطِّراحٌ على عتبة عبوديته ، والعمل الصَّالح ، والتَّقوى ، وحسن السيرة ، والأخلاق الفاضلة ، وزيادةً إلى كلِّ ذلك ـ زيادةً لا يستهان بقيمتها ـ الدعوة الإيمانية الصحيحة التي تكفَّل الله بنصرها ، فقال : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [المؤمنون : ٥١] وقال : ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة : ٢١] وقال : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣] .

www.abulhasanalinadwi.org

شـيء مـقـصـودٌ ومطَّـردٌ مـستمـرٌّ:

ويبدو لقارىء القرآن أن ما حكاه الله تعالى من قصص الأنبياء والرسل، وأخبار دعوتهم، وما لقيته من معارضاتٍ ومحارباتٍ ومؤامراتٍ، وتألب القوم عليها، وتنمُّرهم لها، ورميهم عن قوسٍ واحدٍ، والحرب الشعواء التي كانت تقع دائماً بين ضعيفٍ فقيرٍ أعزل، وبين جماعةٍ غنيَّةٍ قويةٍ قاهرةٍ، تملك جميع الأسباب، أو ملكٍ مستبدٍ طاغيةٍ ثم النتيجة واحدةٌ دائماً، وهو انتصار الدعوة النَّبوية وأصحابها على ضعفهم وفقرهم، وهلاك الأغنياء الأقوياء والملوك الجبابرة رغم قوتهم وبطشهم، أو خضوعهم لهذه الدعوة، أو قبولهم لها، ويبدو لقارىء القرآن: أنَّه شيءٌ مقصودٌ ليس من المصادفات ـ وقدرة الله المحيطة الشاملة لا تعرف المصادفات، ولا تعرف البخت والاتِّفاق، وإنما هي منطق الضعفاء الجهلاء ـ وأنه شيءٌ مطَّردٌ مستمرٌ، وأنه دعوةٌ إلى الإيمان بالقدرة الكاملة التي خلقت الأسباب، ولا تزال تملكها، وتصرِّفها كيف تشاء، وتشغلها متى تشاء، وتعطِّلها متى تشاء، وأنَّها ـ كما قلنا في المحاضرة السابقة ـ لم تعطل ولم تضعف بعد أن خلقتها، ولم تتخلَّ عنها بعد أن ملكتها من أرادت، وأنها ليست في الخلق والإبداع والنصر والغلبة في حاجة إلى الأسباب، إنه دعوة إلى الإيمان بقوة الحقِّ وصلاحيته للبقاء، وبضعف الباطل وسخافته وتهيُّئه للانكسار والاندحار: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

تـشجيـعٌ علـى الـتجـربـة وإطمـاعٌ فـي رحمـة الله:

وهذا النَّمط من القصص القرآنيَّة دعوةٌ إلى التوكُّل على الله تعالى ونصره، وإن اختلف الزمان والمكان، والاعتماد على الدَّعوة وحسن السيرة والعمل الصالح، وإن اكفهرَّ الجوُّ، وقسا الزَّمان، وإن معجزات النصر، وعجائب القدرة الإلهية تتكرَّر، فإذا ذكر القرآن ما أكرم الله به

www.abulhasanalinadwi.org

الرسل من النصر والفتح المبين ، وقبول الدُّعاء ، والغلبة على الأعداء ذكر ما يشجع أتباعهم والحاملين لدعوتهم على هذه التجربة ، ويطمِّعهم في رحمة الله ، يقول بعد ما ذكر ما أكرم الله به نبيه أيوب: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤] ، ويقول عن يونس: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] ويقول: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٠ ـ ١٢١] ، ويقول: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [ص: ١٣٠ ـ ١٣١] ويقول بعد ما يذكر قصة لوط: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٥].

ولذلك لم تكن هذه القصص التي تكون جزءاً كبيراً من القرآن قصص فكاهة وتسلية ، أو مادة معلوماتٍ تاريخيةٍ ، إنما هي موعظةٌ وذكرى ، وحثٌّ ، ودعوةٌ ، وإرشادٌ ، وتوجيهٌ ، وتشجيعٌ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] ، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

سنة الله مع جميع أنبيائه:

لقد كانت هذه سنَّةُ الله مع جميع أنبيائه ، فنوحٌ يقول له قومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] ويقول مبتهلاً إلى الله مستغيثاً على ضعفه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] ولوطٌ يقول لقومه: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

وشعيب يقول له قومه: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] وفرعون يقول عن نفسه وعن موسى في صراحةٍ ووقاحةٍ: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ

www.abulhasanalinadwi.org

مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٣].

أما أممهم التي بعثوا إليها؛ فقد كانت ذات الطول والحول، وذات العدَّة والعتاد، وذات الزروع والضروع، وقد مرَّ قول هود عليه السلام لقومه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ ـ ١٣٤] وقول صالح لقومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩] وقول شعيب لقومه: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤] ولكن ماذا كانت النتيجة؟ اقرؤوها مجموعةً في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

أعظم تحدٍّ للماديَّة المسرفة، وأكبر ثورةٍ على عبادة الأسباب:

أمَّا قصَّة إبراهيم المعادة المكررة في القرآن؛ فهي أعظم تحدٍّ لتأثير الأسباب واستقلالها، وأعظم شاهدٍ للاستخفاف بقوتها وأصحابها، وأعظم دليلٍ على ضعفها وعدم غَنائها عن أربابها، وكأنَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالاستخفاف بهذه الأسباب وأربابها المدلِّين بها، المقدِّسين لها، العاكفين على عبادتها، والاعتماد عليها، وكأنه ـ وهو رسول التوحيد وإمام الموحِّدين في عصره ـ كانت لذَّته، وشفاء نفسه، وغذاء روحه، وقرَّة عينه في الاستهزاء بهذه الأسباب، وعدم الاحتفال بها، والتغلُّب عليها بنصر الله، وإبطال خواصِّها وطبائعها المودعة فيها، وكأنه كان يلتزم في كلِّ خطوةٍ من خطوات رحلته الإيمانية التوحيدية الطويلة الموفَّقة أن يدوسها بقدمه، ويسخر منها بعزمه، ويسجِّل انتصاراً جديداً للإيمان على الشكِّ، والرُّوح على المادة، والتوحيد على نظام الشرك، وقد عاش طول حياته ثائراً على ما حوله من القوَّة والسُّلطان وعبادة المادَّة والمعدة، والآلهة الزائفة، والقوى المخيفة.

www.abulhasanalinadwi.org

والسرُّ في ذلك: أنَّ العالم في عصر إبراهيم عليه السلام كان خاضعاً للأسباب خضوعاً شديداً، واعتمد الناس عليها اعتماداً زائداً، حتى أصبحوا يعتقدون أنَّها مؤثرةٌ مستقلةٌ قائمةٌ بذاتها، وحتى أصبحت أرباباً من دون الله، وأصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها، والاعتماد عليها وثنيةً أخرى غير الوثنية التي أغرقوا فيها، وغلوا في عبادة الأصنام والأوثان، وكانت حياة إبراهيم ثورةً على الوثنيِّين، ودعوةً إلى التوحيد النقيِّ الخالص، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكلِّ شيء، وأنَّه يخلق الأشياء من عدم، وأنَّه يخلق الأسباب ويملكها، ويفصل الأسباب عن المسببات، وينزع عن الأشياء خواصَّها وطبيعتها، ويستخرج منها أضدادها، ويسخرها لما يشاء، ومتى يشاء.

أشعل النَّاس له النيران وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨] وكان إبراهيم يؤمن بأن النار خاضعةٌ لإرادة الله تعالى، ليس الإحراق لها طبيعةٌ دائمة لا تنفكُّ عنها، إنما هي طبيعة مودعةٌ أمانةً فيها، إذا أراد أطلق لها العنان، وإذا أراد أمسك الزمام، وحوَّلها إلى بردٍ وسلام، فخاضها مؤمناً، مطمئناً، واثقاً، وهكذا كان ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٠].

واعتقد الناس أنَّه لا حياة إلا بالخصب، والميرة، والماء الغزير، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضي مخصبةً تكثر فيها المياه، ويتوفَّر فيها الخصب، وتسهل التجارة والصناعات، وقد ثار إبراهيم على هذه العادة المتبعة، والعرف الشائع، والاعتماد على الأسباب، فاختار لأسرته الصغيرة ـ المكونة من أم وابن ـ وادياً غير ذي زرع، لا زراعة فيه، ولا تجارة، منقطعاً عن العالم ومراكزه التجارية، ومواضع الرَّخاء والثراء، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق، ويعطف إليهم القلوب، ويجبي إليهم الثمرات، من غير سبب وطريقٍ معروف فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا

www.abulhasanalinadwi.org

لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧].

وأجاب الله دعاءه ، فضمن لهم بالرزق والأمن ، وجعل بلدهم محطاً للخيرات والثمرات ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ٥٧] ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش : ٣ ـ ٤] تركهم في أرضٍ لا أثر فيها لما يروي الغلة ، ويبل الحلقوم ، فإذا بماءٍ يفور من الرمال ، ويفيض من غير انقطاع ، يشربه الناس في سخاءٍ ، ويحملونه إلى بلادهم. ويترك أهله في بلدٍ قفرٍ لا أنيس فيه ، فإذا به يصبح مكاناً يؤمُّه الناس من كلِّ صوبٍ ، ويأتون إليه من كل فجٍ عميق.

وهكذا كانت حياة إبراهيم تحدِّياً للماديَّة المسرفة الشائعة في عصره ، وعبادة الأسباب ، واتخاذها أرباباً من دون الله ، ومثالاً للإيمان بالله وقدرته المطلقة ، وأنَّ إرادته فوق كل شيء ، وهكذا كانت سنة الله معه يخضع له الأسباب ، ويخلق له ما تحار فيه الألباب.

تحـدِّي قصـة مـوسـى للـعـقـل الـمـاديِّ الـضَّـيِّـق :

وتلي قصة إبراهيم قصة موسى في تحدِّيها الصارخ للعقل الماديِّ الذي ينظر إلى الأسباب والحوادث كقوانين أبديةٍ ، حامدةٍ ، طبيعيةٍ ، لا سلطان عليها لأحدٍ ، وقوىً قاهرةٍ تحكم ، ولا يحكم عليها ، وجاءت محنةً وبلاءً للذين ضاق تفكيرهم ، وكلَّت أبصارهم عن أن تنظر إلى ما هو وراء الأسباب وإلى من هو فوق الأسباب ، وهنا أستعير ما كتبت في مقالة لي سابقةٍ أستعرض قصة موسى في القرآن وما فيها من عبرةٍ وذكرى.

«يولد موسى في مصر في بيئةٍ قاتمةٍ خانقةٍ ، وقد انطبقت على بني إسرائيل كلَّ الانطباق ، وسدَّت في وجوههم المنافذ والأبواب ، حاضرٌ شقيٌّ ومستقبلٌ مظلمٌ ، قلة عددٍ ، وفقرُ وسائل ، وذلةُ نفوس ، عدوٌّ قاهرٌ ، وسخرة ظالمة ، لا قوة تدافع ، ولا دولة تحمي ، أمةٌ مصيرها معلومٌ محتومٌ قد خلقت للشقاء والفناء.

www.abulhasanalinadwi.org

ويولد موسى ، وولادته وحياته كلُّها تحدٍّ لفلسفة الأسباب ، ومنطق الأشياء ، أراد فرعون أن لا يولد فولد ، وأراد ألا يعيش فعاش ، يعيش في صندوقٍ خشبيٍّ مسدود ، وفي ماء النيل الفائض ، وينشأ في حضانة العدو ورعاية القاتل ، ويجدُّ به الطلب القويُّ الساهر ، فيفلت وينجو ، ويأوي إلى ظلِّ شجرةٍ كئيباً غريباً فيجد الضيافة الكريمة ، والزواج الحبيب ، ويرجع بأهله فيلفُّه الليل المظلم ، والطريق الموحش ، وتتمخض زوجه فيطلب لها ناراً تصطلي بها فيجد نوراً يسعد به بنو إسرائيل ويهتدي به العالم ، يطلب النَّجدة والمدد لامرأةٍ واحدةٍ ، فيجد النَّجدة والمدد للإنسانية كلِّها ، ويكرم بالنبوة والرسالة.

ويدخل على فرعون في أبهته وسلطانه ، وفي ملئه وأعوانه ، وهو المطلوب بالأمس ، قد تحققت عليه الجناية ، وتوجهت إليه الدَّعوى ، وفي لسانه حبسةٌ ، وفي موقفه ضعفٌ ، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وإيمانه ، وحجته ، وبيانه ، ويلجأ فرعون إلى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجزة موسى التي ظنَّها فنّاً وسحراً ، فإذا بالسحرة خاضعون خاشعون ، يقولون : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٧ ـ ٤٨].

ويؤمر بالخروج ببني إسرائيل والإسراء في الليل من أرض الظلم إلى أرض النجاة ، ويتبعه فرعون بجنوده ، ويصبح موسى ، والبحر أمامه ، والعدو من ورائه ، ويخوض البحر ، فينفلق ، ويكون كلُّ فرقٍ كالطود العظيم ، ويعبر موسى وقومه ، ويتبعهم فرعون بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج.

وهكذا يهلك فرعون وقومه الأقوياء الأغنياء ، ويملك بنو إسرائيل الضعفاء الفقراء ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٧].

www.abulhasanalinadwi.org

مخالفة قصة يوسف للمألوف المعروف :

ولا تقل قصة يوسف في الغرابة ومخالفتها للمألوف المعروف من جريان الحوادث على السنن الطبيعي ، خاضعة لقانون العلَّة والمعلول ، والسبب والمسبَّب. فقد اجتمع له من حسد الأخوة ، وكيدهم له ، والبقاء في غيابة الجب مدَّةً من الزمان ، والتقاط السَّيارة له ، والرِّقّ ما هو كفيل بالتعرض للهلاك ، والأذى ، والهوان. ولكنَّه يخرج من كلِّ هذا سليماً معافى ، ويعيش ، ويجتمع له من الوقوع في امتحانٍ شديدٍ في العفة ، والنزاهة ، والوفاء ، والشرف ، ويعصم مع توفر الدَّواعي القوية ، والمغريات القاهرة والإغراء ـ من شبابٍ ، وجمالٍ ، وطلبٍ ، وإلحاحٍ شديدٍ من جانبٍ له الفضل ، وله السلطان ، وله الاستهواء ـ والتصاق التهمة الشنيعة به ، والدخول في السجن في تهمةٍ خلقية ، وفي عصرٍ لم يكن السجن فيه إلاَّ رمزاً للجريمة ، ولم يكن إلا مكان الأشقياء ، ومن سوء القالة والأحدوثة في البلد ، وقد كان زيادة على كل ذلك غريباً عن مصر لا يتَّصل بها بجنسيةٍ ووطنيَّةٍ ، وكان فرداً من شعبٍ ينظر إليه المصريون باحتقارٍ ، واستخفاف كبير ، وكان الإسرائيليُّ آخر من يفكَّر فيه لشرفٍ ، أو حكومةٍ في مصر ، كلُّ ذلك كفيلٌ بإخمال ذكره ، وإضعاف شأنه ، وإساءة شهرته ، وحرمانه من كلِّ ثقةٍ وتكريمٍ ، وبعده عن كل مركز محترمٍ ومكانٍ مرموقٍ في المجتمع المصري ، فضلاً عن إمارة وسيادةٍ ، فضلاً عن تقليد منصبٍ جليلٍ لا يحصل عليه إلا السيد الكريم ، الحفيظ العليم ، فضلاً عن أن يكون سيد مصر المطاع ، يأمر ، وينهى ، ويرجى ، ويخشى ، ولكن عكس ذلك يقع بين سمع الناس وبصرهم ، ويتربَّع يوسف على أريكة مصر ، ويتقلَّد مفاتيحها ، وزمام الأمور فيها ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦].

مماثلةٌ بين قصة يوسف ومحمدٍ صلى الله عليهما وسلم :

إنَّ آخر الرسل ﷺ ومن آمن به ، ووضع يده في يده من أفراد قريش كانوا يواجهون مثل هذه الأجواء القاتمة ، ومثل هذه المشكلات قلةَ عددٍ ،

www.abulhasanalinadwi.org

وضعف شأنٍ ، وفقد أسبابٍ ، وخذلانٍ من العشيرة ، ومحاربةٍ شديدةٍ من القوم ، ومقاطعةٍ ، وتطويقٍ ، وإحصارٍ ، وتضييقٍ ، وصدٍّ عن سبيل الله ، وتعذيبٍ شديدٍ للمهتدين الذين كانوا يسمُّونهم «الصابئين» و«السفهاء» ، وتآمرٍ على قتل الرسول ، ذعرٌ دائمٌ ، وخوفٌ قائم ، ولا بيان أبلغ من بيان القرآن ، ولا تصوير أدقُّ وأصدق من تصويره: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦].

تبشيرٌ لرسول الله بالنَّصر الكريم والمستقبل العظيم:

في هذه الأجواء القاتمة التي لا تثير أملاً ، ولا تبشر بمستقبلٍ ، ولا يرى فيها وميضٌ من النور ، قصَّ الله على رسوله قصة يوسف ، وسيرته ﷺ من أشبه السير به ، وقصته مع قبيلته قريش كقصة يوسف مع إخوته ، حسدٌ ، ومحاربةٌ في البداية ، واعترافٌ ، وإجلالٌ وندمٌ في النهاية ، وإبعادٌ وإقصاءٌ ، ونكرانٌ وجفاءٌ في الأول ، وخضوعٌ ، والتجاءٌ ، واستعطافٌ ، واستجداءٌ في الآخر ، وغيابة الجبِّ في محنة يوسف ، وغار ثور في رحلة محمد ﷺ ، وسجنٌ في قصة ابن يعقوب وشعبُ أبي طالب في قصة ابن عبد المطلب ، وتقريرٌ وإعلانٌ من أعداء كلٍّ واحدٍ منهما ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١] والجواب الرفيق الكريم من كلا السيدين الرفيقين الكريمين ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] وقد بدأ القرآن هذه القصة العظيمة بقوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] وختمها بقوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وهكذا نزلت هذه السورة في جوِّ مكة الثقيل المظلم ليبشر رسول الله ﷺ بمستقبله العظيم المشرق الزاهر ، فكأنَّ قصة يوسف قصته ، ولم تزل الكناية ـ في الجوِّ المعادي الرَّهيب ـ أبلغ من التصريح دائماً.

www.abulhasanalinadwi.org

انتصارٌ مقرونٌ بانتصار الأمّة:

ثم قصَّ الله عليه ﷺ قصة موسى مع فرعون، وملئه، القصة التي قصَّها في سورة القصص، وهي قصة فوز موسى، وسلامته من فرعون، وكيده وتشرُّفه بالرسالة العظمى والنبوة الكريمة، وهو لا يطمع إلا في نارٍ يصطلي بها، وتتدفأ بها زوجه، وهلاك العدوِّ ونجاة بني إسرائيل، وفوزهم، وسيادتهم، وقد افتتح هذه القصة بمقدمةٍ مجلجلةٍ عظيمةٍ، كانت جديرةً بأن تخلع قلوب الأعداء من قريش، وتملأها هيبةً وإشفاقاً من مستقبل هذه الجماعة المؤمنة الصغيرة الضعيفة، التي كانت قريش لا تحسب لها حساباً، وكانت تريد أن تلتهمها التهاماً فقال: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ١ ـ ٦].

مصدر القوّة والثقة والأمل للدُّعاة والعاملين والمؤمنين الصالحين:

ولم تكن هذه القصص البليغة القويّة تسليةً، وتقويةً لقلب الرّسول ﷺ فحسب، كما قال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] بل كانت ولا تزال هذه القصص الصادقة مصدر القوة ورباطة الجأش، والأمل المشرق الوطيد، والثِّقة القويّة بالنجاح، والفوز، والفلاح، والانتصار على المعارضين للدعاة، والعاملين الذين يعملون على نهج النبوة وعلى طريق الأنبياء، ويقومون بالدَّعوة إلى الإيمان، والعمل الصَّالح، وتقوى الله، ويصبرون على الأذى، ويثابرون على الجهاد، ويرابطون في سبيل الله، وقد قال الله تعالى في قصة موسى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾

www.abulhasanalinadwi.org

[الأعراف: ١٢٧] وقال يوسف مجيباً معلِّلاً لما أكرمه الله به من النجاح الخارق للعادة: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وليعلموا أنَّ هذه سنة الله التي لا تتخلف، وأنَّ الدعوة والكفاح على منهاج الأنبياء، والإيمان، والعمل الصَّالح، والطاعة، والصبر، والسيرة الحسنة الفاضلة شجرة تؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربها، وأنَّ الفرد الضعيف مع هذه الصفات قويٌّ، وأنَّ العدد القليلِ مع هذه الأخلاق كثيرٌ ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٩] ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ولم تكن هذه القصص مصدر القوة والعبرة للأجيال بعد الأجيال إلاَّ بهذا الأسلوب الإيمانيِّ القويِّ، وإلاَّ إذا كانت دليلاً على أنَّ دعوة الأنبياء هي التي يكتب لها الانتصار، والازدهار، وأنَّ الصفات والسيرة والأخلاق التي يرضاها الله هي التي يقدر لها الفوز والفلاح، مهما عارضتها الأسباب، وتألفت ضدَّها القوى، وتداعى عليها الأعداء، ومهما ضعف أصحاب هذه الدعوة النَّبويَّة والسيرة المرضية مادِّيّاً ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٣].

إمَّا الإيمان بدعوة الأنبياء وإمَّا الهلاك والدَّمار:

إنَّ سيرة الأنبياء التي حكاها الله تعالى في كتابه في إجمالٍ تارةً وفي تفصيلٍ أخرى، وذكرها مراراً وتكراراً تجمع بينها نقطة لا تختلف، وهي: انتصار دعوتهم على جميع المعارضات، وفوزهم على أعدائهم، إمَّا بإيمان هؤلاء الأعداء، وقبولهم للدعوة، وإخلاصهم لها، وتفانيهم في سبيلها، وإمَّا بهلاكهم، ودمارهم ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

لا قيمة للمصالح الفردية والقوميَّة:

وهذه منزلةُ هذه الدعوة عند الله التي تتوقف عليها سعادة الإنسانية،

www.abulhasanalinadwi.org

ونجاتها ، يخرق الله لها أحياناً نواميس الفطرة ، وكثيراً من القوانين الطبيعية ، ويحدث ما لا يخطر على بال ، أمَّا المصالح الفردية ، أو القومية ، أو حبُّ العلوِّ ، والسيادة ، والطُّموح ، والكبرياء ، والزعامات الزائفة التي لا تبني خيراً ، ولا تهدم شرّاً ، وليس للإسلام والإنسانية فيها مصلحة ، وليس لها مع قوى الشرِّ ومع الفساد والكفر والفسوق نزاع ، إنما تسعى وتناضل لأن يكون كل هذا الفساد ، وكلُّ هذه المعاصي تحت سيطرتـها وإشرافها ، وفي ولايتها ، وحضانتها ، وأن يعود نفعها إليها ، فلا قيمـة لها عنـد الله ، ولا تعـدل عنده جناح بعوضـة ، ولا يبالي الله في أيِّ وادٍ هلكت ، وأيِّ عدو تسلط عليها ، ومتى يفاجئها الموت ، أو ثورةٌ عارمةٌ جبارةٌ لا ترحم ، ولا ترثي ، وأزماتٌ ومشكلاتٌ لا أوَّل لها ، ولا آخر .

التفكير الخاطىء السائد :

إنَّ التفكير السائد مع الأسف اليوم في الشعوب الإسلامية ، وفي أنحاء العالم الإسلاميِّ ، والمنطق المقبول الذي خضعت له جميع الطبقات ، وآمنت به إيماناً راسخاً ، هو أنَّ الميزان الفاصل هو القوَّة المادِّيَّة مع كلِّ سيرةٍ وخلقٍ ، ومع كلِّ عقيدةٍ ومنهجٍ للحياة ، وأصبح من عقيدة العاملين ، وحتى دعاة الدِّين وهتافهم «المادةُ قبل كلِّ شيء» وهذا المبدأ هو الذي تنقضه ، وتبطله سيرة الأنبياء المرسلين ، وما جرى لهم من الحوادث ، وما ظهر على أيديهم من العجائب والمعجزات ، وما أكرمهم الله به من النَّصر والفتح المبين ، وما فعل بأعدائهم .

وهنا أستعير مرَّةً ثانيةً ما قلته في رسالتي «ثورة في التفكير» :

«منذ مدَّةٍ طويلةٍ بدأنا نزن أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا في خارطة العالم بهذه «الطاقات» و«الإمكانيَّات» وبما نملكه من الوسائل ، والمواد الخامِّ وحاصلات البلاد ومنتجاتها ، وعـدد النفوس ، والقوَّة الحربية ، فنرى كفتنا راجحةً في إقليم ، طائشة في آخر ، راجحةً في حينٍ ، طائشةً في حينٍ آخر .

www.abulhasanalinadwi.org

ومنذ مدَّةٍ طويلةٍ آمنَّا بسيادة الغرب ، وقيادته ، وأنه أمرٌ مقرَّرٌ ، وواقعٌ ليس منه مفرٌّ ، وآمنَّا بأنه وضعٌ لا يقبل التحوُّل والتطوُّر ، وتجدُّد المثل القديم ، وأصبح عقيدةً شائعةً «إذا قيل لك : إنَّ التتر انهزموا فلا تصدِّق» .

وأصبحنا لا نفكِّر في معارضة الغرب ومناقشة سيادته ، وجدارته للسيادة ، وإذا فكَّرنا في ذلك ـ على حين غفلةٍ من العلوم ، والدراسة ، والعقل ، والكياسة ـ استعرضنا طاقاتنا ، ووسائلنا ، والقوة الحربية في بلادنا ، وسهمنا من المخترعات الحربية ، والطاقات الذرِّية ، فاستولى علينا اليأس ، والتشاؤم ، وآمنَّا بأنَّنا لم نخلق إلا للخضوع والخنوع ، والعيش على هامش الحياة ، وعيالاً على الغرب ، ومرتبطين معقودي النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين»[1] .

سلاح المؤمن ومفتاح النَّجاح والإيمان والطاعة :

[ولكن ما قصَّ الله علينا من سيرة الأنبياء ومصير أعدائهم في القرآن ـ وقد عرضنا بعض أمثلتها الرائعة في هذه المحاضرة ـ تعارض هذا التفكير على الخطِّ المستقيم ، وتبيِّن لنا بوضوحٍ أنَّ سرَّ انتصارهم ، والسلاح الذي واجهوا به أعداءهم ، وانتصرت به جماعتهم الصغيرة المستضعفة ، وتبوَّأت الإمامة والزعامة في العالم هو «الإيمان» و«الطاعة» و«الدعوة إلى الله» ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] و﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٨٧] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمَّد : ٧] ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمَّد : ٣٥].

لا مستقبل للأمَّة الإسلامية إلا في طريق الأنبياء :

هذه رسالة هذه القصص الحكيمة البليغة الصَّادقة ، وهذا هو الدرس الحكيم الذي تلقيه علينا حياة الأنبياء وسيرتهم الفاضلة ، وهذا هو المنهج

---

(١) «ثورة في التفكير» ص/ ٢ ـ ٣.

www.abulhasanalinadwi.org

الرَّشيد الذي سار عليه الأنبياء من غير استثناء ، وسجَّله عليهم القرآن ، ولا أمل للأمم الضعيفة إلا في هذا المنهج ، ولا مستقبل للأمم التي تؤمن بالمبادىء ، وتحتضن الدعوات إلا في هذا الطريق ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الخامسة

عَظمَة البعثة المحَمّديّة

نكبة العصر الجاهليّ:

لم تكن نكبة الجاهلية ـ هذا العصر الذي أطبق المؤرخون على انحطاطه وسواده ـ انتشارَ الكفر والفجور ، والمعاصي والآثام ، والظلم والطغيان ، وإهدار كرامة الإنسان ، والاعتداء على حقوقه ، وتغلُّب الحكومات الجائرة ، والملوك الجبابرة ، ولم تكن نكبتها قلةَ عدد الصَّالحين العابدين لله ، وضعفهم ، وكلٌّ ذلك ما يؤسف له ، ولكنه وقع مراراً في تاريخ الإنسانية الطويل ، وعالجه رجال الإصلاح والدعوة ، وأهل الضمائر الحية ، والعزائم القوية في عصورهم.

ولكن نكبة الجاهلية التي جاءت لإزالتها والتغلب عليها البعثة المحمدية التي اختارها الله لمعالجة أعظم نكبةٍ ونكسةٍ للإنسانية ، هي فقدان العلم الصحيح من العالم ، والإرادة الخيِّرة ، وفقدان الجماعة التي تنتصر للحقِّ وتحارب الباطل ، وتصارع الشرَّ ، وتبني عالماً جديداً.

فقدان العلم الصَّحيح:

لقد فقد العلم الصَّحيح الذي يعرف به الإنسان ربَّه معرفةً صحيحةً ، ويصل به إلى خالقه ، ويعبده به عبادةً خالصةً مرضية ، حتى إذا وجدت الإرادة الصحيحة القوية ، والطلب الصَّادق؛ لم ينتفع به صاحبه ، وكلُّ علمٍ وجد في هذا العصر مشوبٌ بالجهل ، ممزوجٌ بالخرافة ، منحرفٌ عن الأصل ، خطؤه أكثر من صوابه ، وضرره أكبر من نفعه.

www.abulhasanalinadwi.org

فقـدان الإرادة الـخيِّـرة الـقـويَّـة :

وإذا وجد هذا العلم الصَّحيح على ندرته في صدرٍ من صدور العلماء ، أو في كتابٍ من كتب الحكماء ، أو كأثارةٍ من علمٍ نزل قديماً من السماء ؛ لم نجد الإرادة الخيِّرة القويَّة التي تلتقطه من مكانه ، وتعضُّ عليه بالنواجذ ، وتتغلَّب به على شهوات نفسه ، ومعارضة بيئته ، فقد فُقدت عاطفة الطلب لله والبحث عن الحق ، وكلّت العزائم والقوى في هذا الطلب ، وانصرفت إلى طلب المعاش وإرضاء الشَّهوات ، وتحقيق مطالب النَّفس ، وطاعة السلاطين العمياء ، والاستماتة في سبلهم ، وانطفأت جذوة الحب وبردت مجامر القلوب . واستحوذ عليها حب الدنيا ، وما بقي من مظاهر الدين ؛ فإمَّا وثنيةٌ خرافيةٌ ، وإما تقاليد سطحيةٌ .

فقـدان الـجمـاعـة الـتـي تـنتـصـر للحـقِّ :

«وإذا وُجد العلم الصَّحيح والإرادة الخيِّرة ؛ لم توجد الجماعة التي يلتجئان إليها في الشدَّة ، ويستمدَّان منها القوَّة عند الضعف ، فضاعا في جهـودٍ فرديَّـةٍ ، وإصلاحاتٍ شخصيَّـةٍ ، وكان هؤلاء الأفراد ـ الملتجئون إلى الكنائس والأديار ، أو المغارات ، وقلل الجبال ـ مصابيحَ احترقت ذبالـتُـها ، ونفد زيـتُـها ، وخفت نورُها ، أو كيراعات تطيـر في ليلةٍ شاتيةٍ مطيرةٍ مظلمـةٍ ، لا يهتـدي بها المسافر التائه ، ولا يتدفأ بها الفقير المقرور .

الحـاجـة إلـى طلـوع شـمـسٍ جـديـدةٍ :

أمَّا العلم الصَّحيح الذي يهدي الناس إلى فاطر هذا الكون وصفاته اللائقة به ، وأسمائه الحسنى ، ويصلهم به صلة جديدةً قويَّةً ، ويملأ العقول يقيناً جديداً ، والقلوب حبّاً شديداً ، وينفي تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الشكِّ إلى اليقين ، فلم يكن إلا علماً محفوظاً ، غضّاً ، طريّاً ، منزَّلاً من السماء حديث عهدٍ بربِّه ، وكانت النبوة الجديدة وحدها هي التي تستطيع ـ بإذن الله ـ أن تغيِّر هذا الوضع الفاسد المحيط بالإنسانية كلِّها ، ويردع أهل الشرك

www.abulhasanalinadwi.org

والوثنية من خرافتهم ، وأهل الكتب من اليهود والنَّصارى والمجوس من تحريـفهم وجهالـتـهم ، ويعترفـون هم جميعـاً ـ إذا أنصفوا وخافـوا الله ـ بأنَّ الـنُّجوم قـد أفلت ، وأنَّ شمساً جديـدة قد طلعت ، وأنَّ الصباح قد أغنى عن الـمصباح ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة : ١ ـ ٣].

تعـاون الـفـلسفـة والـوثـنيـة علـى إضـعـاف الإيمـان وإضـلال الإنسـان :

وكانت الإرادة الخيِّرة القويّة خاضعةً دائماً للعلم الصحيح ، والإيمان القويِّ ، فإذا آمن الإنسان بحقائق ، وآمن بمضارَّ ومنافع ، وخاف ورجا ، ورغب ورهب؛ تبعت ذلك إرادته ، وطاوعته أعضاؤه ، واستجابت له قواه ، ولكنْ فَـقْدُ الإيمان القويِّ في العصر الجاهلي ، وشكُّ الإنسان في وجود الله ، وفي وجود الآخرة ، وفي وجود الجنَّة والنَّار ، وفي نتائج أعماله وتصرفاته ، وتعاونت الفلسفة والشِّرك على إضعاف هذا الإيمان ، وإضعاف رابطة العبد وربه ، أما الأولى؛ فبالإلحاح الشَّديد على نفي الصفات . وأمَّا الثاني؛ فبصرف هذه الصفات إلى المخلوقات ، فمن آمن بالأولى لم ير حاجةً للالتجاء والخوف والطمع من هذا الخالق؛ الذي تجرَّد عن كلِّ صفة ، وعن كلِّ قدرة ، وعن الرَّحمة والمحبة ، ومن آمن بالثاني تشاغل بالمخلوقات ، والالتجاء إليها ولم ير حاجةً ، أو لم يجد فراغاً للالتجاء إلى ربٍّ لا يُرى بالأبصار ، قد تنازل لكثيرٍ من خلقه في أمور العباد .

وهكذا توزَّع العالم في معسكرين : معسكرٍ لا يجد في نفسه اندفاعاً وداعيةً للالتجاء ، والدُّعاء ، والسعي للآخرة ، ومعسكرٍ لا يجد فرصةً للسؤال عن ربِّ الأرباب ، ووجد كلاهما مرتعاً خصيباً في العصر الجاهليِّ ، وهكذا ضاعت الإنابة المودعة في قلب الإنسان ، وضاعت القوى الغنية المودعة في أعضاء الإنسان ، في جحودٍ وخمودٍ ، وفي وثنيةٍ وخرافةٍ ، وفي عبادة النفس والسلطان ، والطاغوت والشيطان ، وعكف

www.abulhasanalinadwi.org

العالم الإنسانيُّ كلُّه من الشرق إلى الغرب على عبادة أصنامٍ وآلهةٍ قد تخيَّلها ، أو توارثها ، أو مقاصد وغايات ومثلٍ عليا في الحياة قد اخترعها ، وفرضها على نفسه ، وحقَّ عليهم كلِّهم قولُ إبراهيم قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥].

لا يغيِّر الوضع الجاهليَّ إلا الإيمان النَّبويُّ القويُّ العالميُّ:

ولم يكن لغير نبيٍّ مؤيَّدٍ من الله ، صاحب قوَّةٍ قدسيَّةٍ وشخصيَّةٍ نبويَّةٍ أن يعيد هذا الإيمان الضائع ، المفقود من قرونٍ متطاولةٍ إلى قلب الإنسان ، ويشغله بطلبٍ جديدٍ وحبٍّ جديدٍ ، ويصرف إرادته القويَّة من طلب الدنيا الحلوة الخضرة ، وتحقيق مطالب النفس العزيزة اللذيذة ، وإرضاء السَّلاطين الأقوياء الأغنياء ، إلى طلب الله تعالى؛ الذي لا تدركه الأبصار ، وإفناء قواه في مرضاته ، وبذل المهجة والنفس والنفيس في سبيله إيماناً بموعوده ، وطمعاً في ثواب الآخرة ، إنَّه يحتاج إلى إرادة لا تثنيها الجبال ، ولا توهنها معارضة الجنِّ والإنس ، «لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه»[1] إرادةٌ اقتضتها الرحمة الإلهية بالإنسان ، فلا بدَّ أن تقوى وتتحكّم ، ولا بدَّ أن تتحقَّق ، وتتمَّ ، إنه يحتاج إلى إيمان لو وزع على العالم كلِّه ، وعلى الإنسانية كلِّها لوسعها ، وبدَّل شكَّه يقيناً ، وضعفه قوةً ، إيمانٍ كان ينطق على لسان صاحبه في ساعة تخرس فيها الألسن ، وتزيغ فيها الأبصار ، وقد قام الأعداء الألدَّاء على وجه الغار ، ويقول: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] وكان يرى من أمدٍ بعيدٍ وفي ظلام شديدٍ في يد سراقة الفقير البدويِّ سِواريْ كسرى إمبراطور فارس ، وكانٍ يرى في جوع قد مسَّ ، وحصارٍ قد طال في شرارة صخرة الخندق التي كسرها ؛ القصرَ الأبيضَ لقيصر الإمبراطور الثاني ، إنَّه لا يمكن تغيير هذا الوضع الجاهليِّ العالميِّ ، وإعادة الحياة واليقين ، والحماسة الدِّينية إليه إلا بهذا الإيمان القويِّ النبويِّ ، وإلا بهذه الإرادة الإلهيَّة

(١) من قول رسول الله ﷺ ، انظره في «البداية والنهاية» ج/ ٣ ص/ ٤٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

للإنسان الخير : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعـة : ٢] ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩].

الحاجة إلى أمَّةٍ تُبعث للإصلاح والكفاح الدائم :

وكان هذا الفساد أعظمَ وأوسعَ من أن يتداركه أفرادٌ منتصرون ، ومصلحون موزَّعون ، أو عصابةٌ قويَّة ، أو مؤسسةٌ غنيَّةٌ ، فقد اتسع الخرق على الراقع ، وطمَّ الوادي على القرى ، إنما كان ذلك عمل أمةٍ تبعث وتتَّصل ، وتستمرُّ ، وتكافح ، وتناضل ، وتنتشر في أرض الله ، وتتحدَّى الباطل أينما كان ، وتجتثُّ الشرَّ أينما وجد ، وتملأ أرض الله قسطاً وعدلاً ، كما ملأت ظلماً وجوراً ، وكان العالم في حاجة إلى بعثة نبيٍّ من أعظم الأنبياء مقرونةً ببعثة أمَّة من أقوى الأمم ، وهكذا كان ، ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه كانت البعثة المحمدية ـ أيها الإخوان ـ جاءت في أوانها ، وفي شدَّة حاجة الإنسانية إليها ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الحج : ٥ ـ ٦].

تأثير البعثة المحمَّدية :

«وإذا بهذه الجثَّة البشرية الهامدة ـ التي كانت تسمَّى النسل الإنسانيَّ ـ يدبُّ فيها دبيبُ الحياة. وإذا بهذا الجسد الميت يهتزُّ اهتزازاً تتزلزل به أوكار الطيور التي قد عشَّشتْ عليها ، وباضت وفرَّخت ، وهي تحسب أنها ميتةٌ لا حراك بها ، وإذا بيوت العناكب تتفتَّت وتتساقط ، وذلك ما يعبِّر عنه أصحاب السير والروايات في لغتهم المحدودة بارتجاج إيوان كسرى وخمود نار المجوس ، أما رأيتم كيف تتناثر المباني المجصَّصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركةٍ من باطن الأرض ، فيضطرب بها ظهر الأرض ،

www.abulhasanalinadwi.org

فكيف لا تزلزل نظم كسرى وقيصر ، وما بناه فراعنة العصر ببعثة النَّبيِّ الأعظم ﷺ ، وطلوع فجر السَّعادة والعدل في العالم»[١] .

مولد عالمٍ جديدٍ :

لم يكن مولد رسول الله ﷺ وبعثتُه مولد نبيٍّ فحسب ، أو مولد أمَّة فحسب ، أو مولد عصرٍ فحسب ، إنَّما كان مولد عالمٍ جديدٍ بدأ من ولادته وبعثته ، وسيبقى إلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها ، وقد تسربت آثار بعثته إلى هذا العالم ، وتغلغلت في أحشائه ، وخضع لها هذا العالم في عقيدته ، وفي أسلوب تفكيره ، وفي مدنيته ، وفي أخلاقه واجتماعه ، وفي علمه وثقافته ، حتى لا يمكن تجريده عنها ، ولو جرِّد منها ؛ لحرم أغنى ثروة يملكها ، وأعظم قوةٍ يعتزُّ بها ، ولنكص على أعقابه ، ورجع إلى الوراء ، وهو يدين له في حياته ؛ لأنَّ بعثته ﷺ هي التي منحته حقَّ الحياة ، ومدَّت في أجله ، وغلَّبت قوى الخير على قوى الشرِّ ، وأنقذته من سخط الله الذي أحاطه ، ولعنة الله التي حقت عليه ، والشؤم الذي أظله ، كان جديراً ـ قبل بعثته ـ بأن يطوي بساطه وينفض أساسه ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] «إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم ، وعجمهم ؛ إلا بقايا من أهل الكتاب»[٢] .

تصوير للعصر الجاهليِّ :

وماذا رأى في الأرض ـ وهو العليم الخبير ـ لم ير إلا ساجداً لوثنٍ ، أو عابداً لبطنٍ ، وخاضعاً لسلطانٍ ، أو مطيَّةً لشيطان ، أمَّا الدِّين الخالص ، أمَّا الطلب الصادق ، أمَّا العلم الصحيح والعمل الصالح ، أمَّا الإخبات إلى الله ، والسعي للآخرة فأندر من الكبريت الأحمر ، وأغرب من العنقاء

---

(١) منقول من رسالة «معتقل الإنسانية» للعلامة الندوي .

(٢) حديث شريف .

www.abulhasanalinadwi.org

المغرب ، وصدق شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي إذ قال ـ ولم أر تصويراً أدقَّ للجاهلية منه ـ :

«اعلم أنَّ العجم والروم لما توارثوا قروناً كثيرةً ، وخاضوا في لذَّة الدُّنيا ، ونسوا الدَّار الآخرة ، واستحوذ عليهم الشيطان ، وتعمَّقوا في مرافق المعيشة ، وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها ، فما زالوا يعملون بها ، ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها ، حتى قيل: إنهم كانوا يعيِّرون من كان يلبس من صناديدهم مِنطقةً ، أو تاجاً قيمتها دون مئة ألف درهم ، أو لا يكون له قصرٌ شامخٌ ، وآبزن ، وحمَّام ، وبساتين ، ولا يكون لهم دواب فارهةٌ ، وغلمان حسانٌ ، ولا يكون له توسع في المطاعم ، وتجمُّلٌ في الملابس ، وذكر ذلك يطول ، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم ، فدخل كلُّ ذلك في أصول معاشهم ، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع ، وتولد من ذلك داءٌ عضالٌ ، دخل في جميع أعضاء المدينة ، وآفةٌ عظيمةٌ ، ولم يبق منهم أحد ، من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم ، إلا قد استولت عليه ، وأخذت بتلابيبه ، وأعجزته في نفسه ، وهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء لها ، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموالٍ خطيرةٍ ، ولا تحصل إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم ، والتضييق عليهم ، فإن امتنعوا قاتلوهم ، وعذَّبوهم ، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير ، والبقر يستعمل في النضح ، والدياس ، والحصاد ، ولا تقتنىٰ إلا ليستعان بها في الحاجات ، ثم لا تترك ساعةً من العناء ، حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ، ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان إقليمٌ واسعٌ ليس فيه أحدٌ يهمُّه دينه»(١).

اتجـاهٌ عـالمـيٌّ جـديـــد :

وقد غيَّرت البعثة المحمَّدية هذا الوضع ، وقلبته رأساً على عقب ،

---

(١) حجة الله البالغة (باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم).

www.abulhasanalinadwi.org

فاكتسحت العالم المتمدِّن كلَّه موجةٌ قويةٌ من الإيمان والطلب لله ، والجهاد في سبيله ، والسعي للآخرة وإدالة الإنسانية من أعدائها ، وإنهاض الأمم من كبوتها ، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، واتَّجهت إلى هذه الغاية همم أهل العزائم ، وكفاية أهل المواهب ، وذكاء الأذكياء ، وسليقة الأدباء ، وقريحة الشعراء ، وسيوف الأقوياء ، وأقلام العلماء ، وعبقرية النبغاء ، وكثر في هذا العالم الذي لم يكن يعرف غير ضربٍ واحدٍ ، وغير طرازٍ واحدٍ من الإنسانية ، وهو عابد النفس ، وأسير الشَّهوة ، وضريع الهوى .

كثر في هذا العالم في كلِّ عصرٍ ، وفي كلِّ بقعةٍ عبادٌ مخلصون ، وعلماء ربانيُّون ، وحكام عادلون ، وملوكٌ زاهدون ، وأبطالٌ مجاهدون ، لايحصيهم كثرةً من أحصى رمال عالج وحصى البطحاء ، يباهي بهم الله الملائكة ، ويقف أمامهم التاريخ خاشعاً ، والأعداء مقنعي رؤوسهم . وانتشر العلم الصحيح النافع ، والعمل الفاضل الصَّالح ، والإرادة الخيِّرة القويَّة ، والجماعة المؤمنة المجاهدة ، التي تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتجاهد في سبيل الله ، ولا تخاف لومة لائم ، واتَّصل تاريخ الإصلاح ، والجهاد ، والدَّعوة ، والإرشاد ، لا تتخلَّله فترةٌ «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون»[١] .

الأمَّـة الـمحمَّـديـة مـعجـزة الـرَّسـول :

وقد أحسن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تصوير أثر البعثة المحمَّدية وفضلها وإنتاجها في كتابه «الجواب الصحيح» يقول رحمه الله :

«وسيرة الرسول ﷺ من آياته ، وأخلاقه ، وأقواله ، وأفعاله ، وشريعته من آياته ، وأمَّته من آياته ، وعلم أمته ودينُهم من آياته ، وكرامات صالحي أمَّته من آياته .

ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقةٍ وأتمِّها من الصِّدق ، والعدل ،

(١) صحيح البخاري ج/ ٢ ص/ ١٠٨٧ .

www.abulhasanalinadwi.org

والوفاء ، لا يحفظ له كذبةٌ واحدةٌ ، ولا ظلمٌ لأحدٍ ، ولا غدرٌ بأحدٍ ، بل كان أصدق الناس ، وأعدلهم ، وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حربٍ وسلمٍ ، وأمنٍ وخوفٍ ، وغنىً وفقرٍ ، وقلةٍ وكثرةٍ ، وظهوره على العدوِّ تارةً ، وظهور العدوِّ عليه تارةً ، وهو على ذلك كلِّه ملازم لأكمل الطرق ، وأتمِّها ، حتى ظهرت الدعوة في جميع أرض العرب ، التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان ، ومن أخبار الكهَّان ، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق ، وسفك الدماء المحرَّمة ، وقطيعة الأرحام لا يعرفون آخرةً ولا معاداً ، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم ، وأعدلهم ، وأفضلهم ، حتى إنَّ النصارى لما رأوهم من حين قدموا الشام؛ قالوا: ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء. وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وأمَّته أكمل الأمم في كلِّ فضيلةٍ ، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم؛ ظهر علمهم ، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم؛ ظهر أنَّهم أدين من غيرهم ، وإذا قيس شجاعتهم ، وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكره في ذات الله؛ ظهر أنَّهم أعظم جهاداً ، وأشجع قلوباً ، وإذا قيس سخاؤهم ، وبذلهم وسماحة أنفسهم لغيرهم؛ تبيَّن أنَّهم أسخى وأكرم من غيرهم ، وهذه الفضائل به نالوها ، ومنه تعلَّموها ، وهو الذي أمرهم بها ، لم يكونوا قبله متَّبعين لكتابٍ جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة ، وكانت فضائل أتباع المسيح وعلومهم ، بعضها من التوراة ، وبعضها من الزَّبور ، وبعضها من المسيح ، وبعضها ممَّن بعده ، كالحواريين ومَنْ بعد الحواريين ، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا ـ لما غيروا دين المسيح ـ في دين المسيح أموراً من أمور الكفار الناقضة لدين المسيح.

أمَّا أمَّة محمَّد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرؤون كتاباً بل عامتهم ما آمنوا بموسى ، وعيسى ، وداود ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور إلا من جهته ، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقرُّوا بجميع الكتب المنزلة من

www.abulhasanalinadwi.org

عند الله ، ونهاهم أن يفرِّقوا بين أحدٍ من الرسل ، فقال تعالى في الكتاب الذي جاء به : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٦ ـ ١٣٧][(١)] .

* * *

(١) مقتبس من «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» .

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة السادسة

مَـأثَـرَةُ الـنُّبـوة الـمحَمَّـديَّـةِ

أهميَّـة الإنـسـان:

إنَّ مصير العالم لم يزل ولا يزال مربوطاً بناصية الإنسان ، وفيه سرُّ سعادته وشقائه ، فإذا وُجِد الإنسانُ الحقيقيُّ وفقد كلَّ ما يعتزُّ به هذا العالم من ثروةٍ وزينةٍ وجمالٍ ، لم يكن رزءاً كبيراً ، أو خسارةً فادحةً ، وكان وجود الإنسان الحقيقيِّ خلفاً لكلِّ فائتٍ ، وعوضاً عن كلِّ مفقودٍ ، وسدّاً لكلِّ عوزٍ ، وأعاد الإنسانُ إلى العالم بنشاطه ، وحيويته ، وإنتاجه ، وعزيمته كلَّ ما فقده هذا العالَم ، أو من يهمه أمره بين الإنسان من غير شيء وبين كلِّ شيءٍ من غير الإنسان ، واستعمل عقله ، وما وهبه الله من قوَّة الرُّشد والتمييز لكانت خيرته «الإنسان» من غير شكٍّ ، ومن غير تردُّدٍ ، فالإنسان هو الذي خُلق له هذا العالم ، وبسببه نال هذه القيمة والشَّرف.

ليس شقاء هذا العالم في فقد الآلات ، والوسائل ، إنَّ شقاءه في سوء استعمالها ، وفي وضعها في غير محلها ، إنَّ سبب كلِّ نكبةٍ نكب بها هذا العالم في تاريخه الطويل المليء بالأحداث ، هو ضلال الإنسان ، وانحرافه عن الجادَّة المستقيمة ، وعن فطرته السَّليمة ، أما القوى والوسائل؛ فلم تكن إلاَّ آلاتٍ صمَّاء بريئةً في يده تمتثل أمره وتنفِّذ رغباته ، وإذا كانت لها جنايةٌ فهي أنَّها ضمَّت إلى هذه النكبة سرعةً في الوصول والانتشار ، وسعةً في المساحة والامتداد.

أسـرار الـفطـرة الإنـسانـيَّـة وعـجـائـبـهـا:

إنَّ هذا الكون الواسع مليء بالأسرار ، مليء بالعجائب ، وإنَّ جماله

www.abulhasanalinadwi.org

ليبهر الألباب ، ويثير الدهشة والاستغراب ، ولكنه إذا قيس بأسرار الفطرة الإنسانية وعجائبها ، وكنوزها ، ودفائنها ، وإلى سعة القلب الإنسانيِّ وبعد أغواره ، وإلى سموِّ الفكر الإنسانيِّ وسعة آفاقه ، وإلى لوعة الروح الإنسانية وقلقها ، إلى آماله البعيدة التي لا تكاد تنتهي ، وإلى طموحه الذي لا يشبع ، ولا يرضى بأعظم مقدارٍ من الفتوح ، واللَّذات ، والخيرات ، والمسرَّات ، والملك ، والسيادة ، والنعيم ، والسَّعادة ، وإلى مواهبه المتنوِّعة المتناقضة ، الواسعة ، الكثيرة؛ التي لا تعدُّ ولا تحدُّ ، كأنَّ هذا الكون الواسع أمامه قطرةٌ من بحر ، أو ذرّةٌ من صحراء ، وغاب في سعة القلب الإنساني وأعماقه كما تغيب الحصاة الصغيرة في البحار العميقة الزاخرة. إنَّ الجبال تتضاءل أمام إيمانه الواثق الرَّاسخ ، وإنَّ النار لتنطفىء ، وتحقر نفسها أمام حبِّه الولوع الوهَّاج ، وإن البحار لتخجل أمام دمعةٍ طاهرةٍ انحدرت من عين الإنسان خشية الله ، أو رحمةً على ضعيفٍ ، أو ندامةً على تفريطٍ. إنَّ الإنسان إذا تجلَّى جمال سيرته ، وحسن خلقه ، ورقَّة عاطفته؛ أزرى بكلِّ جمالٍ في هذا العالم ، وبهر كلَّ حسنٍ في هذا الكون. إنَّه واسطة العقد ، وبيت القصيد ، وأعظم آيةٍ من آيات الخلَّاق المبدع الحكيم؛ الذي خلقه في أجمل صورةٍ ، وأكمل سيرةٍ ، وأحسن تقويمٍ.

الإنسان فوق كلِّ مساومةٍ وتقويمٍ:

إنَّ العالم بما فيه من خزائن ، وكنوز ، وثرواتٍ ، وحكوماتٍ لا يستطيع أن يقوِّم عقيدة الإنسان التي لا تعرف الشكَّ والضَّعف ، والحبَّ الذي لا يعرف المادة والأشكال ، والعطف الذي لا يعرف الفوارق والحدود ، والإخلاص الذي لا يعرف الأغراض والمنافع ، والأخلاق التي لا تعرف المساومة ، وجزاء الشرِّ بالشرِّ ، والخدمة المخلصة التي لا تريد جزاء ولا شكوراً ، إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه ، وطلب قيمته؛ عجز العالم عن مساومته ، وإذا اتَّسع ، وأرخى لعزيمته وخواطره العنان ، وأرسل النفس على سجيتها؛ ضاق هذا العالم ، وانضوى حتى أصبح قفصاً صغيراً ، لا هواء فيه ، ولا نور. إنَّه لا تسبر أعماقه ، ولا يبلغ أغواره ، ولا يحاط بأسراره ، ولا تُكتنه حقيقتُه ، ولا تنفد عجائبُه ، علمه وحلمه ، وكرمه

www.abulhasanalinadwi.org

ونبله ، ومحبته ورحمته ، وعطفه وإحسانه ، ورقَّة شعوره ودقَّة إحساسه ، وإيثاره وزهده ، واعتداده بكرامته ، ونفيه لذاته ، واستعداده القريب لمعرفة ربه ، والتفاني في سبيل مرضاته ، وفي سعادة بني نوعه ، وتلقِّيه لكلِّ علمٍ دقيقٍ عميقٍ ، ولكلِّ علمٍ مفيدٍ جديدٍ ، كلُّ ذلك مما تحار فيه الألباب ، ويقصر عنه ذكاء الأذكياء .

مـأثـرة الـنُّـبـوَّة الـمحمَّـديـة :

إنَّ وجود هذا الإنسان مفتاح كلِّ سعادة وخير ، ويحلُّ كلَّ أزمةٍ ومشكلةٍ ، وإنَّ تقويمه إذا زاغ ، وتهذيبه إذا فسد ، وتكثيره إذا عزَّ ، وندر ، وإعادته إذا ضاع ، وفقد موضوع كلِّ نبوة ، ومهمة كلِّ نبيٍّ في عصره ، وإن وجود هؤلاء الأفراد بهذه الكثرة ، وبهذا الانتشار ، وفي صورةٍ أتم؛ لم يُسمع بمثلها في التاريخ ، ولم تقع عليها عين السماء ، ولم تطلع عليها الشَّمس. وإنَّ انخراطهم في سلكٍ واحدٍ ، واجتماعهم في شملٍ واحدٍ ، ثم تعاونهم الوثيق على مبدأ واحدٍ ، وهدفٍ واحدٍ مأثرةُ النُّبوَّة المحمَّدية ، ومعجزتها الكبرى .

إنَّ محمَّداً ﷺ بدأ عمل تكوين الأفراد وتهذيب الإنسان من مستوى لم يبدأ نبيٌّ ، أو مصلحٌ عمله منه ، ولم يكلَّف به ، لأنه وجد مستوى أرفع منه بكثير ، وبلغ ﷺ بهذا العمل إلى مستوى لم يبلغ عمل نبيٍّ إليه ، بدأ من مستوىً تنتهي هنالك الحيوانية وتبتدىء منه الإنسانية ، وبلغ به إلى مستوىً هو منتهى الإنسانية ، ولا منزلة فوقه إلا النُّبوَّة ، وقد ختمت بمحمَّدٍ ﷺ.

واقـعٌ أجـمـل مـن الـخـيـال والـشعـر :

إنَّ كلَّ فردٍ من هؤلاء الأفراد معجزةٌ مستقلةٌ ، وآيةٌ من آيات النُّبوَّة ، ومأثرةٌ من مآثرها الخالدة ، وبرهانٌ ساطعٌ على أشرفية النوع الإنساني. إنَّ مصوِّراً لم يصوِّر بريشته البارعة ، ومخيلته السخية صورةً أجمل ، وأبدع مما كان عليه هؤلاء الأفراد في عالم الحقيقة والواقع ، وفي شهادة التاريخ ، وإنَّ شاعراً لم يتخيل بخياله الخصيب وقريحته الفياضة ، ومقدرته الشعرية أوصافاً أجمل وسيرةً أعطر ، وجمالاً أكمل مما وُجِد في هؤلاء الأفراد ، ولو

www.abulhasanalinadwi.org

اجتمع أدباء العالم في صعيدٍ واحدٍ فعرضوا نموذجاً إنسانياً رفيعاً لم يصل بهم الخيال إلى ما وصل إليه الواقع في حياة هؤلاء الأفراد الذين نشؤوا في حجر النُّبوَّة وحضانتها، وتخرَّجوا في مدرستها، إن إيمانهم الراسخ، وعلمهم العميق، وقلبهم البار، وحياتهم البعيدة عن كلِّ تكلُّف وصناعة، وعن كلِّ رياءٍ ونفاق، وتجردهم من الأنانية، وخشيتهم لله، وعفتهم، ونزاهتهم وعطفهم على الإنسان، ورقة مشاعرهم، وشجاعتهم، وجلادتهم، وحرصهم على العبادة، وحنينهم إلى الشَّهادة، وفروسيتهم، وفتوتهم، وإحياءهم الليل، وزهدهم في حطام الدنيا وزخارف الحياة، وعدلهم، وسهرهم على مصالح الرعية، وإيثار راحتها على راحتهم، كلُّ ذلك لا يوجد له نظيرٌ في الأمم، ولا سوالف في التاريخ.

الفرد الصالح في مختلف مظاهره ومجالات الحياة:

«أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع الأمين، المؤثر للآخرة على الدُّنيا، المستهين بالمادَّة، المتغلب عليها بإيمانه، وقوته الروحية، يؤمن بأن الدنيا خلقت له، وأنه خلق للآخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجراً فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيراً؛ فهو الرَّجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملاً؛ فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنيّاً؛ فهو الغنيُّ السَّخيُّ المواسي، وإذا كان قاضياً؛ فهو القاضي العادل الفهم، وإذا كان والياً؛ فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيداً رئيساً فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادماً أو أجيراً؛ فهو الرَّجل القويُّ الأمين، وإذا كان أميناً للأموال العامَّة؛ فهو الخازن الحفيظ العليم.

اللبنات التي قام عليها المجتمع الإسلاميُّ:

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلاميُّ، وتأسَّست الحكومة الإسلاميَّة، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورةً مكبرةً لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً أميناً مؤثراً للآخرة على الدنيا، متغلِّباً على المادة غير محكوم لها، انتقل إليه صدق

www.abulhasanalinadwi.org

التاجر وأمانته ، وتعفُّف الفقير وكدحه ، واجتهاد العامل ونصحه ، وسخاوة الغني ومواساته ، وعدل القاضي وحكمته ، وإخلاص الوالي وأمانته ، وتواضع الرئيس ورحمته ، وقوة الخادم ، وحراسة الخازن ، وكانت هذه الحكومة حكومةً راشدةً مؤثرةً للمبادىء على المنافع ، والهداية على الجباية ، وبتأثير هذا المجتمع ، وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياةٌ عامَّةٌ ، كلُّها إيمانٌ وعملٌ صالحٌ ، وصدقٌ وإخلاصٌ ، وجدٌّ واجتهادٌ ، وعدلٌ في الأخذ والعطاء ، وإنصافٌ مع النَّفس والغير(١) .

نجـاح هـذا الـفـرد فـي الـمحـن والـتجـارب :

إن هذا الفرد قد نجح في كلِّ اختبارٍ ومحنة تظهر مواطن الضعف ، وتبرز كوامن النفس ، وبرز فيها كالإبريز الخالص ، والتبر المسبوك ، لا غشَّ فيه ولا زينة وأبرز في كل موقف دقيق محرج من قوة الإيمان ، وقوة الإرادة ، وقوة النفس ، وتأثير التربية النبوية ، ومن رقة العاطفة ، ومن دقة الشعور بالمسؤولية ومن المستوى الرفيع للأمانة ، والزهادة ، والإيثار ، ما لم يتوقعه علماء النفس والأخلاق ، ومن جرَّبوا الإنسان وكتبوا تاريخه في العصور والأزمان المختلفة .

وكان من أدق هذه المواقف موقف الأمير والحاكم الذي ليس مسؤولاً أمام أحد ، ولا تراقبه عين ، ولا تناقشه محكمةٌ ، أو لجنةٌ ، يزهد فيما أبيح له ، وفي خاصَّة ماله ، وفي النزر اليسير التافه الذي أباحته الشريعة ، وجرى به العرف ، واستهان به النَّاس في كلِّ زمانٍ .

زهـد الـولاة وتـقشفهـم فـي الـحيـاة :

ومن أروع الأمثلة لذلك أنَّ امرأة أبي بكر الصِّدِّيق خليفة المسلمين اشتهت حلواً ، واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريه به ، فلما علم ذلك ردَّ الدريهمات إلى بيت المال ، وأسقطت من نفقته كلَّ ما فضل منها لثمن الحلوى ، لأنه ليس من الحاجات التي يعيش عليها الإنسان ، وليس

(١) انظر محاضرة العلامة الندوي في هذا الجزء بعنوان «غار حراء» .

www.abulhasanalinadwi.org

بيت مال المسلمين لتترفه به أسرة الحاكم ، وتتوسَّع به في المطاعم .

وهنا تصويرٌ أمينٌ لموكب الخلافة ، وحكايةُ رحلةٍ رسميَّةٍ في مصلحةٍ حكوميَّةٍ لحاكمٍ من أقوى الحكَّام في ذلك العصر ، ومن أوسعهم مملكةً ، والذي كان اسمه يخلع القلوب ، ويرجف البوادر من بعيد ، ونترك المؤرخ يحكي هذه الرحلة العجيبة ، ويصوِّرها بقلمه البليغ .

قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيلياء على جملٍ أورق ، تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة ، ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرَّحل بلا ركاب ، وطاؤه كساءٌ أنبجانيٌّ ذو صوف ، هو وطاؤه إذا ركب ، وفراشه إذا نزل ، حقيبته نمرة أو شملة محشوةٌ ليفاً ، هي حقيبته إذا ركب ، ووسادته إذا نزل ، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرَّق جنبه ، فقال: ادعوا لي رأس القوم ، فدعوا له الجلومس ، فقال: اغسلوا قميصي وخيطوه ، وأعيروا لي ثوباً أو قميصاً ، فأتي بقميصٍ كتَّانٍ ، فقال: ما هذا؟ قالوا : كتان ، قال: وما الكتان؟ فأخبروه فنزع قميصه ، فغُسل ، ورقِّع ، وأُتي به ، فنزع قميصهم ولبس قميصه ، فقال له الجلومس: أنت ملكُ العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل ، فلو لبست شيئاً غير هذا ، وركبت برذوناً لكان ذلك أعظم في أعين الروم ، فقال: نحن قومٌ أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب لغير الله بديلاً ، فأتي ببرذونٍ فطرح عليه قطيفته بلا سرج ولا رحلٍ ، فركبه بها ، فقال: احبسوا! احبسوا! ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا ، فأتي بجمله فركبه[١] .

وروى الطبريُّ قال: «خرج عمر وخلف عليَّاً رضي الله عنهما على المدينة ، وخرج معه بالصحابة ، وأغذوا السير ، واتخذ أيلة (على ساحل البحر الأحمر) طريقاً حتى إذا دنا منها تنحَّى عن الطريق ، واتبعه غلامه فنزل فبال ثمَّ عاد ، فركب بعير غلامه ، وعلى رحله فرو مقلوب ، وأعطى غلامه مركبه ، فلما تلقاه أوائل الناس ، قالوا: أين أمير المؤمنين؟ قال: أمامكم

(١) البداية والنهاية ج/ ٧ ص/ ٥٩ ـ ٦٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

(يعني نفسه) فذهبوا إلى أمامهم فجاوزوه ، حتى انتهى هو إلى أبلة ، فنزلها ، وقيل للمتلقِّين: قد دخل أمير المؤمنين أبلة ونزلها ، فرجعوا إليه»[١].

نـمـوذجٌ إنـسـانـيٌّ رائـــعٌ:

إنَّ هذه الملامح والقسمات الجميلة الرائعة من زهدٍ ، وتواضعٍ ، وإيثارٍ ، وعطفٍ ، ومواساةٍ ، وشجاعةٍ ، وعدلٍ ، وحكمةٍ ، وصدقٍ منتشرةٌ في وصف الخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله ﷺ ، لو جمعها مؤرخ ، أو أديبٌ ، أو عالمٌ من علماء النفس والأخلاق ، وكوَّن منها شخصية واحدةً أو صورةً موحَّدة؛ لكانت من أسمى السير البشرية ، ومن أجمل الصُّور الإنسانية في المصوَّر الإنسانيِّ الكبير ، وفي المعرض البشريِّ التاريخيِّ العالميِّ ، ولكننا إذا لم نجد مع الأسف وصفاً كاملاً شاملاً وتصويراً جامعاً لهذه الجماعة الفريدة التي أبرزتها للعالم تربية الرسول ﷺ ، وصحبته ، فإننا نجد وصفاً لبعض الشخصيات يتَّسم بالبلاغة ، وحسن التصوير ، ودقة التعبير ، وقد عُرِف العرب قديماً بإجادة الوصف ، وبلاغة التَّصوير ، وصدق التعبير ، وبهذا الوصف نستطيع أن نستعرض آثار التربية النبوية ، ومدى نجاحها ، وإبداعها ، ونرى نموذجاً رفيعاً لهذا الجيل الذي ظهرت فيه معجزة الرسول في أروع مظاهرها. وهي صفة عليٍّ بن أبي طالب ابن عمِّ الرسول ، ورابع الخلفاء الراشدين ، الذي نشأ في بيت الرَّسول ، وفي حضانته ، وتربيته ، وهي قطعةٌ تستحقُّ أن تعتبر من أجمل القطع الأدبية العالمية الخالدة تأثيراً ، وتعبيراً ، وتصويراً ، قال ضرار بن ضمرة ـ وقد طلب منه الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن يصف له عليَّ بن أبي طالب ، الذي صحبه طويلاً ، وعرفه من قربٍ ـ فقال:

«كان ـ والله ـ بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجَّر العلم من جوانبه ، ومن نواحيه ، يستوحش من الدُّنيا

(١) الطبري ج/ ٤ ص/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

www.abulhasanalinadwi.org

وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدَّمعة ، طويل الفكرة ، يقلِّب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان ـ والله ـ كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه ، ونحن ـ والله ـ مع تقريبه لنا وقربه منَّا ، لا نكلمه هيبةً ولا نبتديه ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويحبُّ المساكين ، ولا يطمع القويُّ في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وكأني أسمعه وهو يقول :

يا دنيا! أبي تعرَّضت ، أم لي تشوَّفت؟! هيهات هيهات! غُرِّي غيري ، قد بتتك ثلاثاً لا رجعة فيك! فعمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك كبير! آهٍ من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق![(١)] .

الـجيـل الإسـلامـيُّ الأوَّل :

وبالجملة فقد كان هذا الجيل الذي أنشأته دعوة الرَّسول ﷺ . وأحكمت تربيته من أفضل الأجيال البشرية في تاريخ الإنسان كلِّه ، وأجملها وأكملها وأجمعها للمحاسن الإنسانية ، وقد وصفه أحد أفراده ، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ببلاغةٍ نادرةٍ ، وكلماتٍ موجزةٍ عميقةٍ دقيقةٍ ، زاخرةٍ بالمعاني الكبيرة البعيدة المدى ، فقال : «أبرُّ الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلُّهم تكلُّفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإعزاز دينه»[(٢)] .

وإذا قورن هذا الجيل بجيلٍ آخر رجح عليه في المجموع ، وكانت مآخذه ـ ومما لا يخلو منه بشرٌ ـ ضئيلةً في جنب محاسنه ومظاهره العظيمة البشرية ، وروائع الكمالات الخلقية التي يخلو عنها التاريخ الإنساني ، وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية بليغاً ودقيقاً في قوله :

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي .

(٢) رواه الدارمي في سننه .

www.abulhasanalinadwi.org

«وخيار هذه الأمة هم الصَّحابة ، فلم يكن في الأمَّة أعظم اجتماعاً على الهدى ودين الحق ، ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم ، وكلُّ ما يذكر عنهم ممَّا فيه نقصٌ ، فهذا إذا قيس إلى ما يوجد في غيرهم من الأمة كان قليلاً من كثير ، وإذا قيس ما يوجد في الأمَّة إلى ما يوجد في سائر الأمم كان قليلاً من كثيرٍ ، وإنما يغلط من يغلط أنه ينظر إلى السواد القليل في الثوب الأبيض ، ولا ينظر إلى الثوب الأسود الذي فيه بياض ، وهذا من الجهل والظلم»(١) .

تـأثيـر الـرسـالـة الـمحمَّـديـة فـي الأجيـال الـمتـأخـرة :

ولم يكن تأثير دعوة الرسول ﷺ وتعليماته ، وتأثير المثل العالية التي عرضها في سيرته وسيرة أصحابه ، وطالب بها أتباعه من بعده ، لم يكن تأثير شخصيته التي ظلَّت ، ولا تزال المثل الكامل والنبراس المضيء المرشد الدائم لجميع الأجيال في جميع الأحوال ، قاصراً على العهد الذي بعث فيه ، والجيل الذي أدركه وسعد بصحبته ، إنَّما كان الشمس التي تنوَّع في نورها وحرها الزرع والأشجار في جميع الأعصار والأمصار ، وترسل أشعتها وخطوطها الذهبية الحافلة بالقوة والحيوية من مكانها العالي ، فينتفع بها القاصي والدَّاني ، لأنَّ دعوته إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، واستحضار رقابة الله ، والخوف من سخطه ، وعقابه ، والطَّمع في أجره وثوابه ، والإشفاق من النار ، والحنين إلى الجنَّة ، وسيرته ﷺ في الزُّهد في حطام الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، والشظف في العيش ، وإيثار الناس على نفسه وأسرته وعشيرته ، فيما يرفعهم ويعينهم ، وكلما كان الرَّجل أبعد كان في الإيثار أحقَّ وأقرب ، وكلما كان أقرب كان في المنافع واللذائذ أبعد ، وفي الجهاد والمشقة والتضحية أقرب ، وكان أخذه بمكارم الأخلاق والأحاسيس الدقيقة الرقيقة لا يتخيَّلها الأذكياء ، ولا يخطر من علماء النفس والأخلاق على بال ، كان كلُّ ذلك مدرسةً جامعةً ، عالميةً ،

(١) منهاج السنَّة ج/ ٣ ص/ ٣٢٤ .

www.abulhasanalinadwi.org

خالدةً ، ينسب إليها ، ويلتحق بها أجيالٌ بعد أجيال ، ويتخرج فيها علماءُ وزعماءُ وملوكٌ وحكامٌ وعبَّاد وزهاد ، كلهم تلقوا فيها دروس الأخلاق والإنسانية الأولية ، ثم فاقوا فيها ، وبذُّوا العالم والأمم في سموِّ أخلاقهم ، ولطافة حسِّهم ، ورقة شعورهم ، ودقَّة أمانتهم ، وكثرة زهادتهم ، على تملُّكهم لأسباب البذخ والتَّرف ، ومفاتيح الخزائن ، وأزمة الدول ، ومصير الشعوب والأمم ، يخضع لهذا التأثير أفرادٌ يتفاوت بهم الزمان ، ويبعد بهم المكان ، ولكنَّهم زرع الإيمان ، وغرس النُّبوَّة ، وثمرة الدعوة الإسلامية ، ومأثرة نبوة محمَّدٍ ﷺ وإنتاجها ، وكلُّ حُسْنٍ في سيرتهم وأخلاقهم مقتبسٌ من مشكاة النُّبوَّة المحمدية العالمية ، لا منَّة لآبائهم ، وبيئتهم ، وثقافتهم ، وذكائهم على هؤلاء الأفراد في هذه العقيدة ، وفي هذه السيرة ، وفي هذه الأخلاق ، فلولا دعوة رسول الله ﷺ وتعليماته ، ولولا حبُّهم العميق له وخضوعهم لتأثير سيرته ، ولولا فضل الإسلام؛ لكانوا في العقيدة عبَّاد الأصنام ، وفي الأخلاق أشبه بالسباع والنعام ، لا توحيد ، ولا تقوى ، ولا زهد ، ولا إيثار ، ولا رِقَّة عاطفة ، ولا كرم خلق.

بعض تلاميذ المدرسة المحمَّدية العالمية الخالدة ، وأمثلةٌ من حياتهم وأخلاقهم:

وخذوا أحد تلاميذ هذه المدرسة وخريجها ، وممَّا درسته النَّبوَّة المحمَّدية بعيداً عن مهد الإسلام ، وعن جزيرة العرب ، بعيداً عن عهد الرسالة والصَّحابة ، بعيداً عن الأصل المضري ، والدم العربي ، وهو السُّلطان صلاح الدين بن أيوبٍ الكرديِّ العجميِّ في القرن السادس الهجري[1] ، يقول عنه صديقه ، ورفيقه ابنُ شداد:

إنَّه ملك ما ملك ، ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ناصريةً ، ومن الذهب إلا جرام واحدٌ صوريٌّ ، ما علمت وزنه.

---

(١) توفي صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

ورأيته قد اجتمع عنده جمعٌ من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن في الخزانة ما يعطي الوفود ، فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل درهمٌ واحدٌ .

وكان رحمه الله يعطي في وقت الضِّيق ، كما يعطي في حال السَّعة ، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مهمٌّ لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه ، وسمعته يقول في معرض حديثٍ جرى : يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى ، وكان يعطي فوق ما يؤمِّل الطَّالب ، فما سمعته يقول أعطينا لفلانٍ[١] .

ولما مات هذا السلطان العظيم الذي كان يحكم من حدود الشام الشَّمالية إلى صحراء النوبة في الجنوب ، لم توجد في خزانته ما يكفنونه به ، وينفقون على تجهيزه ، يقول ابن شداد :

«ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه ، فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبةً واحدةً إلا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي بلت به الطين ، وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوتٍ مسجًّى بثوب فوط ، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حلٍّ عرفه»[٢] .

ويتحدَّث مؤرخه الإنكليزي الشهير Storely Lonpool في كتابه المشهور (صلاح الدين)[٣] فيقول :

إذا لم يتيسر للعالم أن يعرف شيئاً عن صلاح الدين غير ذلك الكرم ، وتلك السَّماحة التي عامل بها أهل القدس المسيحيين الأعداء حين فتحه وردَّه للإسلام ؛ كان ذلك كافياً ليثبت أنَّه لم يكن أعظم رجل في عصره

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شدَّاد ص/ ١٣ ـ ١٤ .

(٢) «النوادر السلطانية» ص/ ٣٥١ .

(٣) «النوادر السلطانية» ص/ ٣٠٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

فحسب في علوِّ الهمة ، وفي العظمة ، والشهامة ، والفتوة ، بل كان أعظم رجلٍ في هذا الشأن في كلِّ عصرٍ وزمانٍ.

ولم يزل هذا التأثير قوياً ، سخيّاً ، بعيد المدى ، واسع الأرجاء والآفاق ، يصنع عجائبه ، ويظهر روائعه في بلاد في أقصى العالم الإسلامي ، وفي شعوبٍ حديثة العهد بالإسلام ، وفي رجال لا يتَّصلون بدعاة الإسلام الأولين في نسبٍ أو لغةٍ أو ثقافةٍ ، يسلم أحدهم على يد داعية إسلاميٍّ ، أو مرشدٍ روحانيٍّ ، وينشأ في أولاده وأحفاده الأقربين ملك في صورة مَلِكٍ وزاهدٌ فقيرٌ في لباس مَلِكٍ ، وحميةٌ وتقوى ، وعدلٌ وقسطٌ ، وعطفٌ ومواساةٌ ، ورحمةٌ وبرٌّ ، واحتسابٌ ونيَّةٌ ، وصدقٌ وإخلاص ، لا يوجد أمثلته في زهَّاد الأمم الأخرى ، وأحبارها ، ورهبانها فضلاً عن ملوكها وسلاطينها ، وأقتصر هنا في تاريخ الهند الإسلاميِّ الطويل الزَّاهي بهذه النماذج الرفيعة ، على أمةٍ واحدةٍ لا تبلى جدَّتها ، وطرافتها ، ولا تنتهي روعتها على مرِّ الأيام ، وكثرة الإعادة والتكرار.

كان بين السُّلطان مظفر الحليم ملك كجرات (٩٣٢ هـ) وبين معاصره السلطان محمود الخلجي ملك ماندو منافسةٌ قديمةٌ ، وقد كان الخلجي معتدياً مهاجماً دائماً يزحف بجيوشه على مملكة كجرات الإسلامية؛ التي يحكمها مظفر الحليم ، ويضطر الحليم إلى الدفاع عن ملكه وردِّ الغارة عليه ، حتى حدث ما غيَّر الوضع ، وجعل من الملك المعتدي ، المدل بقوَّته ، وأبَّهته طريداً لاجئاً يطلب من عدوِّه الكريم النفس الغوث والنَّجدة ، فقد استولى على ملكه الواسع الجميل وزيره الوثني مندلي راي واغتصب بلاده ، ولم يجد السلطان محمود ملجأً إلاَّ في عطف عدوِّه القديم مظفر الحليم ، وفي حميَّته الإسلاميَّة ، فلقي منه من البرِّ ، والكرم ، وحسن الإجابة ، وسرعة الإغاثة ما لا يصدر إلا عن رجلٍ لا تأخذه حميَّة الجاهلية ، ولا يدين بالفلسفة المادِّية «الانتهازية» فلم يستغلَّ هذا الوضع ، ولم يشمت بالعدوِّ والسليب الضعيف ، بل انتهز الفرصة لإرضاء الله وحده ، ولإخزاء الشيطان ، فتقدَّم بجيوشه الكثيفة المنصورة إلى مندو ، واهتمَّ بقضيتها كقضية بلاده بل أكثر ، وجازف بحكومته ، وحرِّيَّة بلاده في

www.abulhasanalinadwi.org

سبيل المحافظة على حرية بلدٍ إسلاميٍّ منافسٍ ، وإعادة الإسلام إلى مركزه ، واعتباره في هذه الدولة ، وتقدَّمت القوات البرهمية والإمارات الوثنية إلى إغاثة صديقها مندلي ، ووقعت حرب طاحنةٌ مجنونةٌ كثر فيها القتلى ، وسالت الأزقة بالدماء الغزيرة ، حتى استولى مظفر الحليم على البلاد ، وهزم العدو هزيمةً منكرةً ، وأحرقت الأميرات الوثنيات والحرم الملكي أنفسهن على عادة ملوك راجبوت ، وعادت البلاد إلى الإسلام .

وهنا تجلى النبل الإنسانيُّ ، والخلق الإسلامي في أروع مظاهره ، فقد أشار أهل الرأي من قادة الجيش على الملك المظفر المنصور أن يحتفظ بهذه البلاد الجميلة الغنية الزاهية ، لقصورها البديعة التي لا يوجد لها نظير في الهند ، وقلاعها الحصينة ، وخزائنها الحافلة وخيراتها الدارَّة ، وقد ذهبت ضحية سفاهة الملك الراعن الضعيف ، وقد فتحها الملك فتحاً جديداً ، واسترقها فاستحقها ، والملك للقوَّة والغلبة ، والبلادُ للمنتصر .

ولما سمع الملك هذا الرأي ، وعرف ما تحدَّث به القادة نفوسهم؛ أرسل إلى السلطان يأمره بأن لا يأذن لأحدٍ في جيشه في دخول البلد ، وسأله السلطان البقاء في القلعة ، والاستجمام فيها مدَّةً من الزمان ، فلم يقبل ، وأمر جيوشه بالانصراف إلى أحمد آباد ، والعودة إلى ثكناتها ، وقال للخلجي :

إنني لم أتقدم إلى هذه البلاد إلا لرضا الله تعالى وحده وطمعاً في ثوابه ، وعملاً بقوله : ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ [الأنفال : ٢٧] والمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله[1] وقد تحقَّق ذلك ، وبيَّض الله وجهي ووجهك ، وبيَّض وجه الإسلام ، وقد سمعت من أصحابي ما لو عملت به لحبط عملي ، وضاع جهادي ، والفضل لك وليس لي ، فقد أكرمتني ، وكنت سبباً في هذه السعادة ، وأنا قافلٌ إلى بلادي ، لا أريد أن أحبط عملي ، وأخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . وهنا تحرَّك الجيش المنصور اللجب ، ورفع الفرسان أعنة خيلهم ، وانصرفوا راشدين .

---

(١) معنى الحديث .

www.abulhasanalinadwi.org

وبعد أن فتح المظفر «مندو» ودخل محمود في البلد عزيزاً مكرَّماً ، أخذ صديقه المظفر ليتنزَّه ، ويطلع على ما في هذا البلد من خيرات وخزائن ، وجواهر ، وتحف ، فكان الأمر عجباً وكان البلد آيةً في الجمال والخصب والثروة ، وكثرة الترف ، وكثرة الجواري الحسان ، والفتيات البارعات في الجمال ، والسلطان مظفَّر مطرقٌ رأسه غاضٌّ بصره ، لا ينظر لا إلى هذا المال ، ولا إلى هذا الجمال ، فقال له محمود ، وهو يمرُّ بصديقه أمام الأميرات والحشم ، وبين الزوجات والحرم ، وهن يستقبلن الفاتح المحسن ، ويحيينه بثغور بواسم : ما لك يا سيدي لا ترفع رأسك ، ولا تنظر إلى هذا المنظر! ؟ فقال المظفر : إنَّه لا يحلُّ لي يا محمود! وقد قال الله : «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم» فقال الملك الذَّكي : إنَّهنَّ إمائي وأنا عبدك ، قد أسرتني وملكتني بإحسانك ، فهم عبيد وهنَّ إماءٌ لك مرَّتين ، ولكن مظفر لم يقتنع بهذا الجواب اللبق ، وعرف أن ما حرمه الله لا يحلُّه أحدٌ .

وهكذا أثبت الملك الورع كرم نفسه ، وعفَّة باطنه وروحه ، وشدَّة خضوعه لتأثير الإسلام ، ولتأثير المثل العليا الإسلامية التي نشأ على حبِّها والتمسُّك بها في حياته .

إنَّه رجلٌ يغيب نسبه الإسلامي بعد واسطتين أو ثلاث في دياجير الكفر والجاهلية الهندية ، ويفقد المؤرخ النسابة الأسماء الإسلاميَّة بعد جدِّه الذي أسلم في أيام فيروز تغلق في القرن الثامن الهجري ، وتفاجئه أسماء عجمية هندية ، لا يعرف أصلها ، ولا يفهم معناها ، فلم يتعلم مظفر هذا النبل وهذا الورع إلا في مدرسة محمَّد ﷺ التي دخلها مخلصاً جادّاً مقدِّراً للإسلام نعمته ، ولمحمَّدٍ ﷺ فضله ، ورفده ، مقبلاً على هذا الدين بشغفٍ وإجلالٍ ، كارهاً للدين الذي كان عليه آباؤه وأبناء قبيلته وأسرته .

إنتـاج هـذه الـمـدرسـة الـمبـاركـة الـدائـم فـي كـلِّ الأمـم وفـي جـمـيـع العصـور :

وكم لهذه المدرسة المباركة المنجبة المنتجة من أبناء كرامٍ بررةٍ في بلاد الشرق والغرب ، وفي بلاد العرب والعجم ، وفي قرونٍ متقدمةٍ ،

www.abulhasanalinadwi.org

ومتوسطةٍ ، ومتأخرةٍ ، وكم لهؤلاء الأبناء البارِّين العظماء من مآثر ، وبطولاتٍ ، ومحامد ، ومكارم في كلِّ ناحيةٍ من نواحي الحياة الإنسانيَّة ، وقد تجلَّى تأثير تربيتها ، وفضل مؤسسها في فتوة طارق ، وشهامة محمد بن القاسم ، وهمة موسى بن نصير ، وذكاء أبي حنيفة ، والشافعيِّ ، وصلابة مالك ، وأحمد بن حنبل ، وكرم نور الدين ، وعزم صلاح الدين ، وعبقرية الغزالي ، وروحانية عبد القادر الجيلاني ، وتأثير ابن الجوزي ، وطموح محمّد الفاتح ، ومغامرات محمود الغزنوي ، ورِقَّة عاطفة نظام الدِّين الدَّهلويِّ ، وسماحة فيروز شاه الخلجيِّ ، وتبحُّر ابن تيميَّة الحرَّانيِّ ، وحسن إدارة شيرشاه السوري ، وقوة إرادة أورنك زيب التيموريِّ ، وفي معارف شرف الدين يحيى المنيريِّ ، وحقائق أحمد بن عبد الأحد السَّرهنديِّ ، ودعوة محمَّد بن عبد الوهاب التَّيميِّ ، وحكمة أحمد بن عبد الرحيم الدهلويِّ ، ومن جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين ، والعلماء الرَّبانيين ، وإنَّ الفضل في كلِّ هذه العبقرية ، وفي مآثرهم العلميَّة والعمليَّة الخالدة يرجع إلى تعليمات هذه المدرسة وتربيتها ، وإلى العهد الزاهر الجديد الذي افتتح ببعثة محمَّد ﷺ ، ووجدت فيه المواهب الإنسانيَّة الفائقة سبيلها ومجال نشاطها ، ووجد من يستخدمها وينتفع بها ، ولا تزال هذه المدرسة ـ مهما قسا عليها الزَّمان ، وتنكَّر لها المتنكِّرون ـ تنجب أفذاذاً في التاريخ ، وتؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها ، وتغيث الإنسانيَّة بقادةٍ مخلصين ، وعلماء ربانيِّين ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة : ٥٤] ولسان الغيب يهتف : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة السابعة

محمَّد رَسُول الله ﷺ آخِر الرُّسُل وخاتم النَّبيين (١)

دينٌ يبلغ نقطة الكمال ، وأمَّة تضطلع بأعباء خلافة النُّبوَّة :

تمت إرادة الله العليمة الحكيمة ، القادرة القاهرة في البلوغ بهذا الدين ـ الذي سمَّاه الإسلام ـ إلى حيث إرادته وحكمته ورحمته ، واقتضته حاجة البشرية على اختلاف الزمان والمكان ، وبلَّغ رسولُ الله ﷺ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، وجاهد في الله حقَّ جهاده ، وربَّى أمَّةً تقلَّدت مهامَّ النُّبوة ومسؤولياتها من غير نبوَّة ، كلفت النهوض بالدعوة ، وصيانة الدين من التحريف ، والوصاية على العالم ، والحسبة على البشرية في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وفي كلِّ عصرٍ ومصرٍ ، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠].

وتحقَّق في علم الله وفي قضائه وقدره وجود خلفاء الرسل ، وأئمة الهدى ، وطواد في العلم واليقين ، ينفون عن هذا الدين في كلِّ زمان «تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين» وأخبر بذلك لسان النُّبوَّة فقال : «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحقِّ ، لا يضرُّهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[١] .

إعلان انتهاء سلسلة النبوة على محمَّد ﷺ وانقطاعها بعده :

ولما تحقَّق كلُّ ذلك في عالم التكوين والتشريع ـ وقد سبق به علم الله وقضاؤه ـ أعلن انتهاء تعليم البشر العقائد والشرائع ، وما تتوقف عليه

(١) رواه مسلم عن ثوبان رضي الله عنه .

www.abulhasanalinadwi.org

سعادتهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة ، بالنَّبيِّ الذي يأتيه الوحي من الله عن طريق جبريل «الروح الأمين» خاصَّةً ، والملائكة عامَّةً[١] .

وذلك معنى النبوة ، فيقول الله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢] . ويقول : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١] . ويقول : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النجم : ٤ ـ ٧] . ويقول : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥] . ويقول : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢] . ويقول : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٩٧] . ويقول : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير : ١٩ ـ ٢٥] .

أما العلوم الوجدانية والتلقائية ، والحكم والمعارف ، وبعض الأخبار التي يلهمها بعض النفوس الزَّكية ، أو أصحاب الرياضات والمجاهدات والغواصون في العلوم والحقائق ، وما قد يسمعه بعض الناس من هواجس ونداءات غيبية ، فليست من النبوَّة في شيءٍ ، وقد يسمعها بعض أصحاب الرياضات من غير المسلمين ، وقد استفاض ذلك ، فإنكاره من المكابرة ، وليست دليلاً للهداية فضلاً عن النُّبوَّة والرسالة ، وقد صح في حديثٍ

(١) يظهر من تتبع الآيات القرآنية والسنة الإلهية فيما يختصُّ بالأنبياء المرسلين ، أنَّ جبريل هو الواسطة غالباً ، وفي عامة الأحوال بين الله تبارك وتعالى وبين الأنبياء في وحي السيرة والشرائع ، وتدل على ذلك دلالة واضحة الآيات التي نقلناها ، ولكن أكثر المتكلمين ومن صنف في العقائد لم ينوهوا بكون جبريل هو الواسطة الغالبة في شأن النبوة والرسالة ، واقتصروا على ذكر الوحي .

www.abulhasanalinadwi.org

صحيح أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء»[1] وأعلن أنَّ النُّبوَّة قد ختمت بمحمَّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وذلك كله في عباراتٍ صريحةٍ مكشوفةٍ، لا يتطرَّق إليها شكٌّ، ولا ترتقي إليها شبهةٌ، ولا يجد متسعاً للنقاش فيها، وإثارة الشكوك حولها إلا مَنْ في قلبه مرضٌ، أو كان له غرضٌ.

أساليب القرآن وطرقه في تقرير هذه الحقيقة وغرس هذه العقيدة:

واتَّخذ القرآن لذلك أساليب متنوعةً، بليغةً، عميقةَ الأثر في النفس، كبيرة القيمة عند العقل.

منها ما يختصُّ بصاحب الرِّسالة الذي ختم به الأنبياء، وانتهت عليه سلسلة النبوءات، فقال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقد استخدم القرآن لغرس هذه العقيدة والفكرة لغةً وتعبيراتٍ ألفها العرب الذين نزل في لغتهم

(١) وقد صرح الشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (م ٦٣٨ هـ) بأن إلهام الأولياء، وأصحاب الرياضات محصور في العلوم والأخبار، لا في الأحكام والشرائع، وما كان من ذلك فلا يعتمد عليه، ولا يعبأ به أصلاً، راجع «الفتوحات المكية» باب ٣١٠ ج/٣، ص/ ٥٠ وج/٢ باب ٣٨٣ ص (٨٢٣) وقال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية (م ٧٢٨ هـ) في كتاب النبوات بعد ما ذكر أنَّ الوحي يتناول وحي الأنبياء وغيرهم، كالمحدثين الملهمين: «فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون يوحي إليهم هذا الحديث الذي هو لهم خطاب والهام، وليسوا بأنبياء معصومين مصدَّقين في كل ما يقع لهم، فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء لا تكون من إيحاء الرب، بل من إيحاء الشيطان، وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء...» الخ (ص ٦٧).

وقد توسَّع في هذا الباب محققو الصوفية، وأئمة المعرفة والتحقيق، ومن أراد التفصيل فعليه بكتب القوم، خاصَّةً رسائل الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهنديِّ (م ١٠٣٤ هـ). وكتاب العلامة الندوي «الإمام السرهندي» (الجزء الثالث من سلسلة العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام») طبع دار ابن كثير ـ دمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

القرآن ، وكلِّفوا فهمه ، ثم تبليغه إلى العالم ، وهي اللغة التي كانوا يتفاهمون بها ، ويقضون بها حاجةً في نفوسهم ، ولم تكن في لغتهم ـ على سعتها وغناها ـ كلمةٌ أدل على مفهوم الانتهاء والإكمال من كلمة «الخاتم» وذلت به ألسنتهم في حديثهم وشعرهم ، ولا تعرف لغتهم للخاتم والختام والختم معنى غير ما أراده القرآن من أنَّ رسول الله ﷺ هو آخر الرسل وخاتم الأنبياء الذي لا نبيَّ بعده»(١).

صفاتٌ لا تليق إلاَّ بالنَّبيِّ الخالد والرسول الخاتم:

وكذلك قد وصف القرآن صاحب الرسالة الأخيرة الذي ختم به الأنبياء بصفات تشير إشارةً بليغةً إلى خلود رسالته ، وكونه قدوةً صالحةً ، وأسوةً حسنةً ، في كلِّ عصرٍ وجيلٍ ، ولكلِّ طبقةٍ من الناس ، من غير تقييد بزمانٍ أو مكانٍ ، فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

وليس من عادة العقلاء ، والأدباء البلغاء ـ فضلاً عن العليم الخبير ، علاَّم الغيوب ـ أن يسبغوا على ملك راحل وسلطانٍ زائل نعوتاً وألقاباً لا تليق إلا بمن استقرَّ حكمه ، واستتب أمره ، وليس من عادة الحكماء الذين ينظرون في عواقب الأمور ، ويزنون الكلام وزناً دقيقاً أن يبالغوا في التهنئة على مولودٍ عرفوا أن حياته قصيرةٌ وأنفاسه معدودةٌ(٢).

---

(١) راجع «لسان العرب» لابن منظور «وصحاح العرب» للجوهري و«المحكم» لابن سيده و«القاموس المحيط» للفيروز آبادي ، وشرحه «تاج العروس» للزبيدي.

(٢) كذلك أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن يكون إسحاق هو الّذي أمر أبوه إبراهيم بذبحه ، فإنَّ ذلك يتنافى مع حكمة الله تعالى في التبشير ببقاء ذرِّيته ، وقد قال كما نقله تلميذه ابن القيم: «وكيف يسوغ أن يقال أنَّ الذبيح إسحاق والله تعالى قد بشر أمَّ إسحاق به وبابنه يعقوب ، فقال الله تعالى عن الملائكة أنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: =

www.abulhasanalinadwi.org

القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلِّها ، وكيف أمكن ذلك؟

ولمَّا كان محمَّد رسول الله ﷺ هو القدوة الصَّالحة ، والأسوة الحسنة لطبقات الناس جميعاً ، وللأجيال البشرية على اختلاف الزَّمان والمكان؛ واتجهت عناية الله إلى حفظ أخباره ، وآثاره ، وصفاته ، وأخلاقه ، وعاداته ، وتصرُّفاته ، وصرف الله قلوب المسلمين إلى تتبُّع كلِّ ما يصدر عنه من حركة وسكونٍ ، وأخذٍ وردٍّ ، وعادة وعبادةٍ ، وألهمهم الاعتناء به اعتناءً لا مزيد عليه كأنَّ سائقاً يسوقهم إلى ذلك .

وقد تجلَّت هذه العناية الإلهية بكلِّ وضوحٍ في الحديث والسيرة ، وفي كتب الشمائل ، وفيما أثر عن الوصَّافين الحاذقين من أصحابه وأهل بيته ، في صفته التي لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب صفةً أكثر منها دقةً ، وأعظم منها استيعاباً للملامح البشرية ، والدقائق الخَلقية ، ولَنظرةٌ عابرةٌ في شمائل الإمام أبي عيسى الترمذيِّ (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ) ـ على سبيل المثال ـ تكفي للإيمان بأنَّ هذا الاهتمام البليغ الخارق للعادة بتسجيل دقائق الخَلق والخُلق ، والعادات والعبادات ، والأقوال والأفعال ، وكلِّ ما يتصل بهذه الشخصية الكريمة اتصالاً يتصوَّره الذهن الإنساني ، وفي بسطٍ وتفصيل لا نظير لهما في سير الأنبياء ، ولا في تاريخ العظماء[(١)] لم يكن مجرَّد مصادفةٍ ، ولا وليد الاتجاه الشخصيِّ ، والعمل الفرديِّ ، وكذلك من

= ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ فمحال أن يبشرها بأنه يكون له ولد ، ثم يأمره بذبحه» (زاد المعاد ج/١ ص/١٦) .

(١) وقد عني علماء الأمة الإسلامية بجمع التفاصيل الدقيقة عن الحياة النبوية والتراتيب الإدارية ، والحرف ، والصنائع ، والمتاجر ، والمناصب ، وأنواع العلوم ، والمشخصات التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية النبوية عنايةً لا مثيل لها في أمم الأنبياء السابقين ، وحسب القارىء أن يقرأ كتاب «التخريج» لأبي الحسن علي الخزاعي التلمساني (٧١٠ ـ ٧٨٩ هـ) وتهذيبه وتكميله للعلامة الشيخ عبد الحي الكتاني الذي أسماه «التراتيب الإدارية» وهو موسوعةٌ في كلِّ ما تهم معرفته عن عصر الرسول ﷺ والحياة فيه .

www.abulhasanalinadwi.org

تصفَّح كتاب «الأدب المفرد» للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاريِّ (١٩٥ ـ ٢٥٦ هـ) الذي خصَّه مؤلفه العظيم، بما ورد في الآداب الإسلامية، ومكارم الأخلاق، وحسن العشرة والاجتماع، وحقوق الصُّحبة، وتهذيب النَّفس، وأدب الحياة، معتمداً في كلِّ ذلك على ما صحَّ عن الرسول ﷺ، ونقل عنه؛ عَلِم عِلْم اليقين أنَّها لم تكن فلتةً من فلتات الدَّهر، إنما تقدير العزيز العليم، ليتحقَّق العمل في كل عصرٍ وجيلٍ بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. ولئلا يكون لمتعللٍ بانقراض الآثار، وانقطاع الأخبار عذرٌ في ترك الائتساء، والاقتداء، كما هو الشأن في قضية الأنبياء الذين لم يبق لبعضهم إلَّا الاسم أو أخبار مبتورة لا تكفي للاقتداء، والاقتفاء.

أمَّا الحديث النبويُّ فيصحُّ أن يسمَّى «سجل الوقائع اليوميَّة» وشبه مذكرات ـ إذا صحّ هذا التعبير ـ لمدة ثلاث وعشرين سنة قضاها النَّبيُّ ﷺ ـ بعد ما أكرمه الله تعالى بالنُّبوَّة ـ على ظهر الأرض، ترينا كيف كان الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعيش في هذه الحياة، وكيف كان يقضي نهاره، وليله، ونعرف عنه من دقائق الأخلاق، والعادات، والميول، والرَّغبات، والقول، والعمل ما لا نعرفه عن كثيرٍ من الشخصيات التي عاشت قريباً، بل عن الشخصيات المعاصرة أحيانا، وهو مجموع صور ناطقة يعترف بها الإنسان بنبيِّه، ويسعد بصحبته، ويتبرك بأنفاسه، وكأنه حضر مجلسه، واستمع لحديثه، وعاش معه، وكان ذلك أبعث على الاقتداء، وأبعد عن مضارِّ الوثنية، وعبادة التماثيل ممَّا جرت عليه الأمم القديمة، من تصوير أنبيائها، ونحت تماثيلهم.

وحسب القارىء أن يقرأ قصَّة حجَّة الوداع في كتب الحديث، فقد سجَّل الرواة فيها كلَّ دقيقةٍ من دقائق هذه الرحلة، وكلَّ حادثٍ من حوادثها التي لا تسترعي الانتباه، وليست لها قيمةٌ تاريخيَّةٌ كبيرةٌ، ولا يُحتفل بأمثالها في

www.abulhasanalinadwi.org

رحلات العظماء، والرؤساء، والملوك ، والأمراء ، والعلماء ، والنبغاء[١] .

وبفضل هذه الثروة الحديثية استطاع المؤلفون الحاذقون في مختلف العصور والبقاع أن يؤلفوا للمسلمين كتباً تكون دستوراً كاملاً لحياتهم ، حتى إذا أراد المسلم ـ مهما كانت مهنته وطبقته ـ ألَّا يخطو خطوةً ولا يبتَّ في أمر وألا يمارس نشاطه إلا في ضوء الهدي النبويِّ؛ أمكنه ذلك ، والكتب التي أُلِّفت في هذا الموضوع كثيرةٌ ، وفي أكثر لغات العالم الإسلاميِّ ، وهي بين بسيطٍ ووسيطٍ ووجيز ، أحسنها «زاد المعاد في هدي خير العباد»[٢] للعلامة شمس الدين أبي عبد الملك المشهور بابن قيِّم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ) أنبغ تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأحد أعلام الأمة .

ويتجلَّى هذا السرُّ الإلهي في وضوح هذه السِّيرة وخلودها ، وكونها بمتناول المؤتسين ، والمقتدين ، إذا قارن الإنسان بين هذه السيرة وبين سير الأنبياء السابقين وحياتهم؛ فأكثرها توارت في ظلمات الجهل والإهمال والحوادث التاريخية الدَّامية ، وقد أدَّت رسالتها في فترةٍ زمنيَّةٍ خاصَّةٍ ، ومشى في ضوئها الجيل الذي كلف اتِّباعهم ، ثم لم تبق حاجةٌ إلى الاحتفاظ بها ، وإلى أن تتوارثها الأجيال ، ويكفينا أن نستعرض حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصَّلاة والسَّلام ، فكان آخر الأنبياء قبل محمَّد ﷺ ، وتنتسب إليه أمة عُرف شغفها بالعلم والتأليف ، وإفراطها في حبِّ نبيها ، وإطراؤها له إطراءً بلغ حد التأليه والتقديس ، ولكنَّها لم تستطع أن تعرض على العالم إلا نُتفاً من أخباره وأقواله التي لا تكون هيكلاً من حياةٍ بشريةٍ

(١) اقرأ في كتب الصحاح تفاصيل تطبيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع عند الإحرام ، وإشعاره لهديه ، واحتجامه ، وتحديد مكانه من الجسم وموضعه من الطريق ، وتحديد المنازل بين المدينة ومكة ، ولم يفت الراوي أن يقيد خروج حية ليلة منى ، وإفلاتها من القتل ، وأسماء من كان رديف رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في هذه الرحلة ، بل ومن أردفهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في حياته كلها.

(٢) قد صدرت للكتاب عدة طبعات في مصر والهند ، والكتاب مكتبة في السيرة والحديث والفقه وقد تلقاه العلماء في كل عصر بالقبول .

www.abulhasanalinadwi.org

كاملةٍ يقلِّده الإنسان في حياته الفردية ، أو يسير في ضوئه مجتمعٌ فاضل ، وقد كان الاعتقاد السائد في العالم المسيحي قبل أيام ، أنَّ «العهد الجديد» يتضمن أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرة المسيح وأخباره ، فانتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص في الموضوع في الزَّمن الأخير إلى أنَّها لا تتجاوز أخبار خمسين يوماً من حياته ، لا أكثر ولا أقلّ[(١)] .

أمَّا الأنبياء الآخرون ، وعظماء الملل والديانات السابقة ، فيصحُّ القول بأنَّ أخبارهم ، وصور حياتهم مطمورةٌ في ركام الماضي ، وهنالك حلقاتٌ رئيسيَّةٌ لا يكمل بدونها التاريخ ، ولا يتسنَّى بدونها الاقتداء والتقليد مفقودةٌ ، لا يمكن البحث عنها ، والاهتداء إليها في هذا العصر المتأخِّر[(٢)] ، وهذا عين ما تقتضيه الحكمة الإلهية ومنطق الأشياء ، فالمثل الإنسانية لها أعمار طبيعيَّة وحيويَّةٌ محدودةٌ ، فإذا انتهت لم تكن مصلحة في تناقلها. أمَّا ما كانت الحاجة إليه قائمةً دائمةً فبقي على اختلاف الزمان والمكان ، واستمرَّ ، وانتشر ، وأورق ، وأثمر .

صلة الأمَّة الوثيقة الدائمة بمحمَّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وما يتَّصل به :

ومن قرأ ما ورد من الآداب والأحكام عن النَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم في سورة الأحزاب ، وفي سورة الحجرات ، وفي سورة التحريم ، وفي سورة المجادلة ، وما ورد من تكريم الله تعالى له ، ونعمه عليه في سورة الفتح ، وسورة الضحى ، والانشراح ؛ عرف بدلالة العقل ، وسلامة الذوق أنَّها نعوتُ نبيٍّ قد بعث للأجيال كلِّها ، وللعصور كلِّها ، وأنَّ شمس

(١) يقول القس الفاضل الدكتور «شارلس أندرسن اسكات» في مقالٍ له في دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الرابعة عشر ج/١٣ ص/١٧١٠ : «ينبغي أن يتنازل الإنسان عن محاولة وضع كتابٍ في سيرة المسيح بكلِّ صراحةٍ ، فإنه لا وجود للمادة والمعلومات التي تساعد على تحقيق هذا الغرض ، والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوماً» .

(٢) اقرأ للتفصيل الكتاب القيِّم «الرسالة المحمَّدية» للعلامة السيد سليمان الندوي ، المحاضرة الثانية ، والثالثة ، والرابعة ، صدر بعناية وتحقيق المحقق عن دار ابن كثير بدمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

رسالته لا تقبل الكسوف بأنَّ نجمه لا يقبل الأفول ، ولا شكَّ أنَّ بعثة نبيٍّ ـ ولو لم يأت بشريعةٍ جديدةٍ ـ تتنافى مع الحكمة الإلهية في هذا الثناء العاطر ، والوصف البالغ لمحمَّد ﷺ ، وربط الأمة ربطاً وثيقاً دائماً بهذا النَّبيِّ الكريم ، وتعاليمه ، وأسوته ، وأصحابه ، وأهل بيته ، والأرض التي ولد فيها ، ونشأ ، ودعا فيها الناس إلى الله ، وشعائر الله فيها ، ولا شكَّ أنَّ النَّبيَّ الذي يبعث بعده ، أو يدعي النُّبوَّة ، يحول بين الأمة ونبيها الأول ، أراد ذلك أو لم يرد ، ويضعف صلتها به ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ـ شعر بذلك أو لم يشعر ، وتلك طبيعة الأشياء ، وخاصَّة الفطرة البشرية ، وقد أثرت عقيدة الإمامة عند الشيعة الإمامية في صلة هذه الطائفة بالنَّبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فتحوَّل تيار الحب والعاطفة والحماس ، والاندفاع إلى الأئمة الاثني عشر ـ رحمهم الله تعالى ـ وتجلَّى ذلك في مجال التأليف والتصنيف ، والأدب والشعر ، وشدِّ الرِّحال إلى المشاهد والهيام بها ، وأصبح الولاء للأئمة ، والحبُّ لعليٍّ بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنه ـ وابنه الحسين؛ هو شعار هذه الطائفة ودثارها ، قد ملأ كلَّ فراغ في العقيدة ، والعاطفة ، والحماس ، فما ظنُّ العاقل بنبيٍّ يبعث في هذه الأمة أو غيرها ، في عصرٍ من العصور ، ألا ينافس الولاء له ، والانضواء إلى رايته ، حبُّ الأمة لنبيِّها محمّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وكلِّ ما يتَّصل به ويعزى إليه من تعاليم ، وسننٍ ، وهديٍ ، وأصحابٍ ، ولغةٍ ، وآدابٍ ، وتاريخٍ ، وحضارةٍ ، إنَّه ناموسٌ من نواميس الفطرة التي لا تتغيَّر.

وذلك عكس ما فهم من الدين بالضرورة ، ودلَّ عليه القرآن ، ونطقت به السنة المتواترة ، فقد جاء في الحديث الصحيح: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده ، وولده ، والناس أجمعين»(١) ويقول القرآن: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ﴾ [الأحزاب: ٦].

---

(١) رواه الشيخان والنَّسائي ، وفي بعض الروايات «من نفسه» (الطبراني في معجميه الكبير والأوسط).

www.abulhasanalinadwi.org

وصف القرآن للرسالة المحمَّدية وما يقتضي ذلك:

ومن هذه الأساليب القرآنيَّة ما جاء في وصف الرسالة التي حملها الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى الخلق أجمعين، والشريعة التي جاء بها، فهي من أكبر الأسباب والدَّواعي لهذا الإعلان الصَّارخ والمبرر - بل الموجب - لانتهاء سلسلة النبوءات والرسالات السَّماوية على محمَّد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فصرَّح القرآن بلسانٍ عربيٍّ مبين، لا غموض فيه ولا لغز بأنَّ هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال، والوفاء بحاجات البشر، والصلاحية للبقاء والاستمرار فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد نزلت هذه الآية يوم عرفة في حجَّة الوداع سنة عشر للهجرة، ولم ينزل بعدها - كما تقول أكثر الآثار - حلالٌ ولا حرامٌ، ولم يعش رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بعد هذا اليوم إلا إحدى وثمانين ليلة، وقد فهم كبار الصحابة - الذين كانوا من أعرف الناس بأسرار هذا الدين، ومقاصد التشريع وأقرب الناس إلى صاحب الرسالة صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأعظم الناس حبّاً له، وحرصاً على بقائه، وكان في مقدمتهم أبو بكر وعمر - دنوَّ ما كانوا يحذرونه من مفارقة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولحوقه بالرفيق الأعلى، فقد بلَّغ رسالة الله، وكمَّل الدين، وتمَّت نعمة الله على عباده، فمنهم من بكى، ومنهم من تنبَّأ بدنوِّ هذه الساعة[١]، وفهم علماء اليهود الأذكياء الذين كانوا من أعرف الناس بالعلم القديم، وتاريخ الديانات: أنَّها كرامةٌ خُصَّ بها المسلمون، ومفخرةٌ لهذا الدين، لا يشاركه فيها دين آخر، ورأوا أنَّ اليوم الذي نزلت فيه هذه الآية جديرٌ بأن يخلَّد، ويحتفل به على مرِّ العصور، ويبدي فيه المسلمون سرورهم وامتنانهم[٢].

(١) راجع كتب الحديث والسيرة وكتب التفسير.

(٢) راجع صحيح البخاريِّ.

www.abulhasanalinadwi.org

وهكذا فهمها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وهو الذي نزلت عليه هذه الآية ، فقال في خطبته يوم حجة الوداع ، ينصت إليها أكثر من مئة ألف إنسان ، ويحفظونها : «أيها الناس! إنَّه لا نبيَّ بعدي ، ولا أمَّة بعدكم ، ألا فاعبدوا ربَّكم ، وصلُّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدُّوا زكاة أموالكم طيبةً بها أنفسكم ، وأطيعوا ولاة أمركم ، تدخلوا جنَّة ربكم»[١].

وكذلك صرَّح القرآن بأنَّ هذا الدين قد قدر له البقاء ، والغلبة ، والانتشار ، وأنَّه سيبلغ ذروة المجد والعزَّة ، وتعلو كلمته ، ويمتد ضوؤُه ، ويتبيَّن صدقه ، فقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح : ٢٨] وقال : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] وكلُّ هذه الكفالات ، والضمانات ، والنبوءات ، والإعلانات تدلُّ بدلالة النَّص وإشارته على أنَّ هذا الدين هو رسالة الله الأخيرة ، وحاجة البشرية كلها ، على اختلاف العصور والأمصار ، وأنَّ الله هو بالغ أمره فيه ، كره الناس ذلك أو أحبُّوه ، وسالمه الحسَّاد والمعارضون ، أو حاربوه ، وكلُّ ما كان ذلك شأنه ، ووردت فيه هذه الأخبار الصادقة ، والتحدِّيات البالغة في كتابٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا يقبل العقل السليم أن يقبل النسخ والتغيير ، أو يحتاج إلى نبيٍّ جديدٍ ، ورسول مبعوثٌ .

عموم الرِّسالة المحمدية للأمم والشعوب والطبقات ، واستغناؤها عن تطوير تعديل :

وكانت الديانات السَّابقة ، والرسالات القديمة ، بعضها محدودةٌ في شعبٍ ، أو مختصةٌ بإقليم ، أو خاصَّة بفترةٍ زمنيَّةٍ قصيرةٍ ، أو طويلةٍ[٢] ،

(١) أخرجه ابن جرير في «تهذيب الآثار».

(٢) وقد وردت في «العهد القديم» نصوصٌ وتصريحاتٌ بأنَّ رسالات أنبياء بني إسرائيل كانت موقتةً ومختصَّةً بزمانٍ خاصٍّ ، اقرأ على سبيل المثال (١٨ : ١٥) (١٨ : ١٨)=

www.abulhasanalinadwi.org

ولم تكن الديانة اليهودية في زمنٍ من الأزمان دعوةً عامَّةً للخلق ، ولم يكلف اليهود ـ في ضوءٍ من نصوص كتبهم المقدسة ـ تبليغ الرسالة إلى الأمم جميعاً ، بل وردت نصوصٌ تمنع عن ذلك ، وتحصر نشاطهم الدَّعوي في نطاقهم العنصريِّ المحدود ، وكان من الطبيعي والمعقول جدّاً أن يميزوا دائماً بين بني إسرائيل وبين الشعوب والقبائل الأخرى ، وأن يضعوا للخير والشرِّ والبرِّ والإثم مقاييس مختلفة، تختلف باختلاف السُّلالات والشعوب.

تقول السيدة الفاضلة المهتدية مريم جميلة Margaret Mareus اليهودية سابقاً في كتابها «الإسلام إزاء أهل الكتاب ماضياً وحاضراً» باللغة الإنجليزية: «ليس أنَّ اليهود لا يبلِّغون دينهم إلى غيرهم عمليّاً ، بل إنَّهم لا يرحبون بالدخول في ديانتهم ، ولا أعرف إلا مثالين في تاريخهم الطويل حين دخل غير اليهود في اليهودية في عددٍ كبير ، كان ذلك مرَّةً في اليمن في زمنٍ سبق البعثة المحمَّدية ببضعة قرون ، ومرَّة ثانية لما اعتنق عدد من غير اليهود الديانة اليهودية في مملكة خزار التاتارية الأصل التي عاشت مدَّةً قصيرة في روسيا»(١).

ويدلُّ على ذلك دلالةً واضحة الأسلوب الذي ألف فيه «العهد القديم» الموجود في أيدينا اليوم ، والروح التي تسيطر على كلِّ سطرٍ منه ، فيشعر القارىء لهذا الكتاب بأنَّه يطالع ملحمة اليهود ، أو كتاب مناقب اليهود ، أو كتاب الأنساب الخاصِّ بهم ، ولا يجد فيه من تعليمات خلقيةٍ وروحيةٍ ، ومن حثٍّ على مكارم الأخلاق العامَّة ، والمساواة بين البشر ، والاعتراف بكرامة الإنسان ، وحثٍّ على الزُّهد ، وتهذيب النفس ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، واللهج بذكر الجنة ونعيمها ، والتخويف من النار وعذابها ، ما يهذب النفس ، ويرقق القلب ، ويشعره بكرامته ومسؤوليته إذا كان ينتمي

= و(٣٣: ١ ـ ٢) من سفر التثنية في التوراة ، ونبوءة أشعياء الإصحاح ٤٠ ، وسائر أسفار بني إسرائيل والزبور ، والأناجيل مملوءة بمثل هذه النصوص.

(١) Slam Versóes Ahalki lab past And dresent p . 22-32.

www.abulhasanalinadwi.org

إلى سلالة غير إسرائيليةٍ ، فالكتاب بقصصه ، وأخباره ، وأحكامه يدور حول اليهود ؛ الذين يعتبرهم دينهم وكتابهم «شعب الله المختار» .

وكذلك كانت دعوة سيدنا المسيح خاصَّةً لبني إسرائيل ، وقد صرَّح بأنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بني إسرائيل الضَّالة [١] ، واقتصرت رسالته على قراهم وأرضهم ، والمنسوبين إليهم ، ولما لفت نظره إلى من يتَّصل ببني إسرائيل بنسبٍ ، أو بقرابةٍ فاستعطف عليه ، قال : «إنني لست ذلك الرَّجل الذي يعطي خبز الأولاد للكلاب» .

أما أمر الديانات الشرقية الآسيوية ، كالبرهمية الهندية وما شاكلها ، فأمرها أدهى وأمرُّ ، وكانت تَعتَبِرُ غالب الأحيان غير الآريين ، وغير البراهمة أنجاساً مناكيد ، تساوي بينهم وبين الدَّوابِّ ، وتعاملهم أحياناً معاملة الكلاب [٢] .

فكانت حكمة الله ورحمته بعباده تقتضيان بعثة نبيٍّ جديد ، يحمل تعاليم جديدة ، وتعديلاتٍ في الشرائع والأحكام ، اقتضاها تغيُّر الزمان والمكان ، والأحوال والظروف ، واقتضاها بعض الحوادث ، فتتناول التسهيل أحياناً ، وتحليل ما حرَّمه المتدينون الغلاة ، أو تحريم ما أحله المتوسعون المتنعمون ، أو السلاطين المترفون ، ويقول سيدنا عيسى ابن مريم : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران : ٥٠] .

وقد أعلن القرآن انتهاء هذين الموجبين لنبوةٍ جديدةٍ ، أمَّا ما يتصل بعموم الرِّسالة المحمدية للأمم والشعوب ، وطبقات الناس جميعاً ، فقال : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ

(١) راجع إنجيل متى الإصحاح العاشر ٦ ـ ٧ .
(٢) اقرأ كتاب العلامة الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الباب الأول ، عنوان «نظام الطبقات الجائر» . . . ص ٨٧ ، طبع محققاً ومنقحاً في دار ابن كثير بدمشق عام ١٩٩٩ م .

www.abulhasanalinadwi.org

إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨] وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١] وقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [ص: ٨٧].

فالدِّين الإسلاميُّ حقٌّ مشاعٌ، وثروةٌ مشتركةٌ لجميع الأمم والشعوب، والعناصر والأجناس، والأسر والبيوتات، والبلاد والأوطان، ليس فيه احتكارٌ مثل احتكار بني لاوي من اليهود، أو البراهمة من الهنود، لا يتميَّز فيها شعبٌ عن شعب، ولا نسلٌ عن نسلٍ، وليس الاعتماد فيها على العرق والدم، بل الاعتماد فيه على الحرص والشوق، وحسن التلقِّي، وزيادة التقدير، والتفوُّق في الجهاد والاجتهاد، والدِّين والتقوى، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] وأعلن النَّبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم يوم فتح مكة: «الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب، لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ إلا بالتقوى»(١) وروى الإمام أحمد بن حنبل(٢) بسنده عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ أنَّه قال: «لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس»(٣).

وأمَّا ما يتصل بالحاجة إلى التغيير، والتسهيل، فصرَّح بأنَّ هذه الشريعة قد جاءت سهلةً سمحةً، توافق الفطرة المستقيمة، والعقول السليمة في كلِّ زمانٍ، فقال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨].

إنَّ التشريعات المجحفة، والقيود المرهقة ـ من تحريم ما أحلَّ الله، وتضييق ما وسَّع الله فيه ـ التي أخذت بها الأمم السابقة نفسها، والتزمت ما لم يلزمها الله به، كانت كدَّرت عليها صفو الحياة، وعقَّدت الدين

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) مسند الإمام أحمد ج/ ٢ ص/ ٩٦.

(٣) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» للإمام ابن تيمية ج/ ١ ص/ ١٢٦ ـ ١٤٥.

www.abulhasanalinadwi.org

وجعلته عبئاً ثقيلاً لا يُطاق حمله، وجاءت النُّبوَّة الأخيرة، والشريعة السمحة الحنيفية، فأزالت هذه القيود والأغلال التي كانت من اختراع العباد الغلاة، والمشرعين القساة، وأعادت الأمور إلى نصابها، يقول القرآن في وصف هذا النَّبيِّ الذي ختم الله به الأنبياء، وأرسله إلى الناس كافَّةً بشيراً ونذيراً:

﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وذكر أنَّ كبار العقلاء والمشرعين لو حاولوا مراعاة الحاجة البشرية، والأحوال المختلفة لم يبلغوا حيث بلغ علم الله المحكم، فقال في آيات المواريث: ﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١١] ويقول في سياق آيات الزواج وما للزوجين من حقوق وفرائض: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

الصحف السَّماوية السَّابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ:

وما زالت الصُّحف السَّماوية السَّابقة للقرآن عرضةً للتَّحريف، والتبديل، والضَّياع، والتَّلف، فإنَّ الله سبحانه وتعالى لم يتكفل بحفظها، وبقائها، بل أسند ذلك إلى علمائها، وحملتها، ولم تحتج إليها البشرية، أو الأمم التي خوطبت بها إلاَّ لفترةٍ من الزَّمان، فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد ثبت ذلك تاريخيّاً، وتواتر، وأقرت به الأمم والطوائف التي نزلت فيها هذه الصحف، وقد استُهدفت صحفُ العهد القديم للتَّلف والإحراق والإبادة بصورةٍ واضحةٍ، وباتفاق المؤرخين اليهود ثلاث مرَّاتٍ في التاريخ:

المرة الأولى حين زحف بختنصر (Nabuchodonosor) (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق. م)

www.abulhasanalinadwi.org

ملك بابل على اليهود سنة ٥٨٦ ق . م وأشعل النيران في بيت المقدس الذي حفظ فيه النَّبيُّ سليمان عليه السلام ألواح التوراة ، وبقيةً مما ترك آل موسى وآل هارون ، وأخذ مَنْ سلم من القتل من اليهود أسيراً إلى بابل حيث مكثوا فيه خمسين سنة ، وقد أعاد «عزرا» الصحف الخمس الأولى التي تسمى «تورة» بحفظه ، وقيَّد الحوادث في أسلوبٍ تاريخيٍّ ، ثم ضمَّ إليها «نحميا» السلسلة الثانية من الكتب ، مضيفاً إليها زبور داود .

والمرَّة الثانية حين كرَّ أنطيوخوس (Antiochus) الرابع الملقب أبيقانس ملك إنطاكية اليوناني على بيت المقدس (سنة ١٦٨ ق . م) وأحرق الصحف المقدسة ومنع من تلاوة التوراة ، وممارسة الشعائر اليهودية رسميّاً ، ونشط يهودا المكابي في جمع الصحف المقدسة وترتيبها ، وضم إليها السلسلة الثالثة من صحف «العهد القديم» .

والمرَّة الثالثة حين هجم تيطس (Titus) الإمبراطور الروماني (٤٠ ـ ٨١ م) على بيت المقدس في ٧ من سبتمبر سنة ٧٠ م ودمَّره بما فيه هيكل سليمان ، وحوَّله إلى أنقاض وخرائب ، واستولى على الصحف المقدسة ، ونقلها إلى بلاطه في روما تذكاراً للفتح ، وأجلى اليهود من القدس ، واستعمر غيرهم حول المدينة[١] .

ومقاييس حفظ الصحف المنسوبة إلى الأنبياء المستفادة من الوحي ، وبقائها على أصالتها ، ونصوصها ، ووجهة نظر أصحابها إليها تختلف عن مقاييس المسلمين ، وعقيدتهم عن الكتاب المنزل من الله تعالى على محمَّد ﷺ اختلافاً كبيراً ، فلا يمنع دخول بعض زياداتٍ وتعديلاتٍ في هذه الكتب عن إضافتها إلى الوحي ، وتسميتها بالصحف السَّماوية عند اليهود ، وقد لا يتحرَّجون من إضافة تأليفها إلى الأنبياء ، فقد جاء في مختصر دائرة المعارف اليهودية ما يلي :

---

(١) راجع كتب تاريخ الصحف المقدسة ، وراجع دائرة المعارف اليهودية ، وقد وردت إشاراتٌ إلى هذه الحوادث في سفر نحميا ، وسفر المكابين ، وغيرها .

www.abulhasanalinadwi.org

«إنَّ الأخبار اليهودية وإن كانت تلح على أنَّ صحف العهد القديم من تأليف «الأبطال» ، أو الشخصيات التي تتحدَّث عنها هذه الصحف ، وذلك لا يبعد عن الصواب ، ولكنَّهم لا يتحرَّجون في الإقرار بأنَّ بعض هذه الصحف تناولها التعديل والزيادة في العهود المتأخرة»[١] .

وجاء في دائرة المعارف اليهودية ما معناه :

«إنَّ الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (العهد القديم) كما تقول الأخبار اليهودية القديمة ، من تأليف النَّبيِّ موسى ، وما زال الربِّيُّون يعنَون بتناقضات واختلافات وردت في هذه الصحف ، وما زالوا يصلحونها بحكمتهم ، ولباقتهم»[٢] .

وتزيد هذه الموسوعة الكبيرة : «أن أسفينوزا (Spinoza) يقول : إنَّ الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم ليست من تأليف موسى ، بل هي من تأليف عزرا[٣] ، وإنَّ آخر ما وصل إليه البحث العلمي ، هو أنَّ هذه الكتب (الخمسة الأولى) ترجع إلى ثمانية وعشرين (٢٨) مصدراً ، استقيت ، واستفيدت منها هذه الكتب»[٤] .

أما أمر الأناجيل الأربعة التي تسمى «العهد الجديد» فأمرها أغرب من صحف العهد القديم ، فإنَّه يكتنف تدوينها ومؤلفيها الشيء الكثير من الغموض ، والالتباس ، والاضطراب ، وبينها وبين السيد المسيح (عليه الصلاة والسلام) هوَّةٌ عميقةٌ واسعةٌ ، ليس في إمكان باحثٍ أو مؤرِّخٍ ردمها ، أو إقامة جسرٍ عليها ، وقد تعرَّضت للتحوير ، والتطوير ، والتعديل ، والتحسين في مجامع دينية ، وفتراتٍ رومانيَّةٍ عديدة ، وبعد ذلك كلِّه فإنه بكتب السيرة والأخبار والحكايات والآثار أشبه منها بالكتب المنزلة من

(١) ellentin sone volume Jewish Encyclopaecia London p. 93.
(٢) Jewish Encyclopaedia V. 9 p. 589
(٣) ص ٥٩٠ ملتقط من تفسير الشيخ عبد الماجد الدريابادي بالإنجليزية . طبع دار ابن كثير بدمشق .
(٤) نفس المصدر ص ٥٩٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

الله ، المبنية على الوحي والإلهام ، يعرف ذلك بداهةً مَنْ أجال النظر فيها وتصفَّحها ، ومن قرأ الكتب التي ألفت في تاريخها والأدوار التي مرَّت بها[١] وهي لا تناهض كتب الحديث ، ودواوين السنة عند المسلمين ، من الطبقة الثانية والثالثة ـ فضلاً عن الصِّحاح ـ فإنَّ هذه الكتب امتازت باتصال السند من أصحابها إلى رسول الله صلى تعالى عليه وعلى آله وسلم ، والحديث الصحيح عند علماء المسلمين ما روي بنقل عدلٍ تامِّ الضَّبط ، متصل السند ، غير معللٍ ولا شاذ[٢] أما الأناجيل فقد تجردت عن جميع أنواع السند ، فليس هنالك سندٌ متَّصلٌ من عصرنا إلى مدونيها ولا من مدونيها إلى سيدنا عيسى ابن مريم.

وهذا كلُّه زيادةٌ على أنَّ هذه الصحف التي بأيدينا اليوم ليست باللغة التي نزلت فيها ، وكان يتكلم بها المسيح (عليه الصلاة والسلام) وقومه ، بل نقلت من لغةٍ إلى لغةٍ ، وتناولتها أيدي المترجمين الناقلين حتى وصلت إلينا ، وهي في الحقيقة بكتب السير والتاريخ ، ومجاميع الأقوال والمواعظ ، ـ إذا لم نقل قصص المولد الكثيرة المنتشرة بين المسلمين ـ أشبه منها بكتب الحديث عند المسلمين ، لذلك كان من الخطأ المقارنة بين هذه الصحف والقرآن ، فإنَّ المقارنة إنما تكون بين ما كان من جنسٍ واحدٍ ، وعلى درجةٍ واحدةٍ.

وقد أحسن العالم المستشرق المهتدي المسيو «ايتين دينيه» الفرنسي في وصف هذه الأناجيل ، وتحديد مكانتها العلمية والتاريخية ، وكان دقيقاً في هذا الوصف ، يقول:

«أمَّا أنَّ الله سبحانه قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ، ولغة قومه ، فالذي

---

(١) اقرأ الكتب التي ألفت في تاريخ العهد الجديد في اللغات الأوربية بأقلام العلماء المسيحيين ، واقرأ خلاصتها في كتاب «أضواء على المسيحية» لمؤلفه الفاضل الأستاذ متولي يوسف شلبي ، نشر الدار الكويتية.

(٢) راجع للتفصيل ومعرفة أقسام الحديث وشروطها كتب أصول الحديث ومصطلح أهل الأثر.

www.abulhasanalinadwi.org

لا شكَّ فيه أنَّ هذا الإنجيل قد ضاع ، واندثر ، ولم يبق له أثرٌ ، أو أنَّه أبيد .

ولهذا قد جعلوا مكانه «تأليفاتٍ أربع» مشكوكاً في صحتها ، وفي نسبتها التاريخية ، كما أنها مكتوبةٌ باللغة اليونانية ، وهي لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التي هي لغةٌ ساميَّةٌ ، لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود ، وقرآن العرب»[١] .

ثم هناك شواهد داخلية ، من أغلاطٍ تاريخيةٍ صريحةٍ ، وتناقضاتٍ واضحةٍ ، وأمورٍ مستحيلةٍ ، ينكرها العقل ، ونسبة أشياء إلى الله لا تليق بجلاله وكماله ، ولا تتفق مع صفاته التي اتفقت عليها الأديان السَّماوية ، والعقول السليمة ، ومطاعن في أنبياء الله المكرَّمين ، واتهمهم بأفعال وأخلاق يترفع عنها أوساط الناس ، إلى غير ذلك من الشواهد الجلية الكثيرة العدد التي تدلُّ على الدَّسِّ ، والإلحاق ، والتغيير في كتب العهدين: القديم، والجديد التي تسمَّى مجموعاً ببائبل (Bible) أو الكتاب المقدس[٢] .

أما صحف الديانات الأخرى التي تعتبر أعرق في القدم ، وفيها صحف الهند العتيقة التي تدين بها الشعوب الهندية الآرية ، وتعتقد أنَّها نزلت من السماء ، وأنها من كلام فاطر الكون ووحيه ، فقد أحاطت بها هالاتٌ من الظلام والغموض ، والجهل والأساطير ، وجُهلت العهود التي نزلت فيها والأشخاص الذين خوطبوا بها ، ودخل في صلبها الشيء الكثير من الزيادات والتفسيرات ، واندرست اللغات واللهجات التي نزلت بها ، حتى أصبح الجزم بتحديد عهدها ، والوصول إلى حقيقتها ومقاصدها ، والتمييز بين أصولها وشروحها ، شبهَ المستحيل . يقول أحد كبار العلماء المختصين في تاريخ هذه الصحف ، وهو الموسيو A - Parth عضو المجمع الآسيوي

---

(١) نقلاً من كتاب «أضواء على المسيحية» ص ٥٢ ـ ٥٣ .

(٢) اقرأ كتاب «إظهار الحق» الفريد في موضوعه للعلاَّمة رحمة الله الكيرانوي الهندي المتوفى سنة (١٣٠٨ هـ) المدفون بمكة المكرمة ، وقد عدَّ المؤلف ما وقع في الكتاب المقدس من اختلاف لفظي فبلغ ١٢٢ اختلافاً ، وما عثر عليه من أغلاط لا تقبل التأويل فبلغ عددها إلى ١٠٨ . راجع الكتاب .

www.abulhasanalinadwi.org

الملكي في باريس (The Societe- Asiatiqne of Paris) وهو يتكلَّم عن «ويدا» في كتابه «ديانات الهند»:

«إنَّ هذه الصحف لا تدَّعي أنَّها من الله، ولا تحاول أن تخفي ـ بطريقةٍ صناعيةٍ ـ عمرها، لقد دخل الشيء الكثير من الزيادات والتحريفات في صلب هذه الكتب وصميمها، وقد كان الدافع إلى الإخلاص وحسن النية[١] ولكن رغم ذلك من الصعب تحديد عمرها، أو تقديره على الأقل، إنَّ أجزاء «برهمنا» (Brahmana) التي كتبت في آخر ما كتب، لا تتقدَّم بداية عهدنا إلا خمسمئة سنة، أمَّ بقية ما اشتملت عليه «ويدا» فهي موغلةٌ في قدم يصعب معه الجزم بشيءٍ، أمَّا ما كان أعرق منه في القدم فمن المستحيل إبداء الرأي فيه»[٢].

أما «أوستا» صحيفة المجوس الفرس، فلا يختلف شأنها عن شأن «ويدا»، ولعلَّ نصيبها من البحث العلمي، والقيمة التاريخية أقلُّ، والشبهات حولها أقوى، يقول (Robert. H. Pfeiffer) رئيس فرع اللغات السامية في جامعة هارورد، في دائرة معارف الديانات، وهو يتحدَّث عن «أوستا»:

«إنَّ أصل «أوستا» كما تقول الحكايات كان جامعاً للعلوم، وقد أباد معظمه الإسكندر، وقد أُلِّف كتاب في القرن الثالث المسيحي مما تبقى من الكتاب كان يحتوي على ٢١ جزءاً تسمَّى (Nask) ولم يبق من هذه الأجزاء كلها إلا جزءٌ واحدٌ يسمى (Vendidad) وقد نقل جزءٌ يتَّصل بالعبادات من هذا الكتاب إلى الهند بعد القرن التاسع المسيحي، وهو يتألف من خمسة أجزاء تسمَّى (Yasan) بما فيها (Vespered) (Vendid) (Khoroa Avasta) (Gatha)[٣].

---

(١) لعلَّه يعني أنَّ الذين فعلوا ذلك كان غرضهم أن يقبل عليها الناس قراءةً ومطالعةً، وأن يطبقوا بينها وبين روح العصر وثقافته، وهذا نفس ما وقع مع العهد القديم والجديد. وقد جنى ذلك على هذه الصحف جنايةً كبيرة، فقد ثبت بطلان النظريات والشائعات علمياً، ففقدت «الكتب المقدسة» قيمتها ومكانتها.

(٢) The Relig ones Fo India. Delhi 1969 p. 4-5.

(٣) دائرة معارف الديانات طبع نيويورك ١٩٤٥ م ص/ ٤٩.

www.abulhasanalinadwi.org

أمَّا القرآن الكريم الذي كان آخر الكتب المنزلة من الله ، ومصدقاً لها ، ومهيمناً عليها ، وعليه الاعتماد في هداية البشر ، وربط الخلق بالخالق ، والدعوة إلى الله بعد البعثة المحمَّدية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فشأنه يختلف عن شأن جميع الكتب السَّماوية كلَّ الاختلاف ، فقد تكفَّل الله بحفظه ، وسلامته من كل تحريفٍ وتبديل ، وزيادة ونقصٍ ، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢]. وكذلك تكفَّل بسلامته من مسخ وعبث ، ومحوٍ من الذاكرة ، وارتفاع عن صدور الناس ، أو تعرضٍ لنكبةٍ تقضي عليه ، أو تبيده ، كما وقع أكثر من مرَّةٍ للتوراة ، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وهي الكفالة بحفظه وبقائه ، وانتشاره وازدهاره ، وبقائه متلواً مدروساً ، ومفهوماً ، وغير مهجورٍ ، قد انقطع العمل به بتاتاً ، وتنوسي ، فكلُّ هذا ـ من معانٍ ولوازم وآفاق ـ مما تنطوي عليه كلمة «الحفظ» العربية البليغة.

ولمَّا قضى الله ببقاء هذا الكتاب على أصالته ونقائه ، وبنصِّه وفصِّه ، كما نزل على محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، سخَّر الله لهذا الغرض النفوس البشرية ، والدواعي الطبعية ، والأسباب الخارجية والحوادث الكونية ، فكان لا يتحرَّك به لسان النُّبوَّة ، ولا يدخل في الأذن إلا ويتهالك المسلمون على تلقفه ، وحفظه ، وتلاوته ، وتدارسه ، بدافعٍ من الحبِّ الذي جبلت عليه القلوب ، ولإعجازه ، وبلاغته ، ورنينه ، وحلاوة جرسه ، ثم بما وردت في فضل حفظته وحملته من الآيات الكثيرة ، والأحاديث المستفيضة المتواترة(١) . وقد قرنت حياة المسلمين به صلاةً ، وتعبداً ، وأحكاماً ، ومدنيةً ، واجتماعاً ، وعلماً ، وأدباً ، فبلغ تعلُّق قلوب المسلمين به إلى حدِّ الغرام والهيام ، وكثر عدد حفاظه فيهم من أقدم العصور ، فقد استشهد في وقعة بئر معونة التي كانت سنة ثلاث للهجرة

---

(١) انظر «فضائل القرآن» للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

سبعون رجلاً من المسلمين يقال لهم القراء[١] وهكذا لم يزل عدد الحفاظ يتزايد بتزايد عدد المسلمين وكثرة الدواعي إلى الحفظ ، وتنوُّعها ، حتى وصل إلى حدٍّ يقضي منه العجب في مدينة صغيرة ، وفي كلِّ مجتمع إسلاميٍّ ، ويتناقله المسلمون صدراً من صدر ، ولساناً من لسان ، ويبلغ منهم الإتقان لحفظه ، والدِّقة في صحته ، والبراعة في استحضاره ، والتنافس فيه ، والشغف بقراءته ، والتعبُّد به إلى حدٍّ لا يصدقه من غير المسلمين إلا من عاشر المسلمين ، وعاش معهم ، وعرف عوائدهم ، وكان عدد هؤلاء الحفاظ يفوق الإحصاء في كلِّ زمانٍ ، فضلاً عن هذا الزمان الذي لا يقلُّ عددهم عن ملايين .

وقد ألهم الله خلفاء رسول الله ﷺ بالحق ، والقائمين بأمر المسلمين حين استحرَّ القتل يوم اليمامة بالقراء ، فخشوا أن يكون في استشهاد القراء في المواطن الأخرى ضررٌ على بقاء القرآن أن كان جلُّ الاعتماد على الحفظ ، وقد بدا ذلك لعمر الذي كان يسبق زملاءه الصحابة في التعرُّف لحاجات المسلمين ومصالحهم ، وكان يتوارد خاطره بمقاصد التشريع ، فاقترح على أبي بكر وهو خليفة رسول الله ﷺ يومئذٍ ، وخليفة المسلمين ، جمع القرآن وكتابته ، وكان مفرقاً في الرِّقاع ، والعُسُب ، واللِّخاف[٢] وصدور الرجال ، وشرح الله صدر أبي بكر لهذا الأمر ، وكلف زيد بن ثابت لاختصاصه بهذا الشأن ، فقام بذلك خير قيام ، معتمداً على المحفوظ في صدور القرَّاء ، والمكتوب لدى الكتبة ، وبقيت تلك الصحف محفوظة يُرجع إليها ، ويُعتمد عليها ، حتى آل الأمر إلى عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، وقد اتَّسعت الفتوحات الإسلامية ، وتفرق القرَّاء في الأمصار ، وأخذ أهل كلِّ مصرٍ عمَّن وفد إليهم قراءته ، وخشي على المسلمين الاختلاف والاضطراب في وجوه القراءة ، واللحن بدخول العجم في

---

(١) راجع «البداية والنهاية» ج/ ٤ ص/ ٧١ .

(٢) العسب جمع عسيب : أي جريدة من النخل ، وهي السعفة مما لا ينبت عليه الخوص . واللخاف جمع لخفة : حجارة بيض رقاق .

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلام في عددٍ كبيرٍ ، وخاف عقلاء الصحابة أن ينشأ عنه التحريف ، والتبديل ، فأمر عثمان رضي الله تعالى عنه بنسخ الصحف الأولى ، التي نسخت في عهد أبي بكر في المصاحف ، وكتبت على القراءات المتواترة ، وبعث عثمان إلى كلِّ أفق بنسخة من المصاحف ، واحتبس بالمدينة واحداً ، هو مصحفه الذي يسمى «الإمام»[1] وهذه المصاحف هي التي تمسَّك بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، وعليه درجت أجيالهم ، وبها ذلَّت ألسنتهم ، وحفظوا القرآن ، وعبدوا الله به ، وعليه الاعتماد في العالم الإسلامي كلِّه من أقصاه إلى أقصاه ، ومن السنة الخامسة والعشرين التي كان فيها هذا الجمع الأخير إلى يوم الناس هذا ، لا يشذُّ عنه شاذٌّ ، ولا يوجد عنه اختلاف في مجتمع إسلاميٍّ ، أو في مكتبةٍ أثريَّة[2] ، وأجمع عليه المسلمون ، وتواتر منذ أن تمَّ هذا العمل ، وأطبق عليه المسلمون إلى هذا العصر الذي أصبح القرآن فوق متناول المحرِّفين ، والمغرضين ، والعابثين ، لكثرة الحفاظ ، والعلماء ، والمتقنين له ، وكثرة التداول بين الناس ، وكثرة الطبعات ، وقد اعترفت الموسوعة البريطانية ، بأنَّ القرآن هو أوسع الكتب تلاوةً على وجه الأرض[3] .

وقد اتفقت كلمة المستشرقين ، وعلماء الغرب المحققين ـ الذين لا يؤمنون بطبيعة الحال بكون القرآن منزلاً من الله ، ووحياً أُوحي به إلى

(١) اقرأ تاريخ جمع القرآن وكتابته في الكتب التي ألفت في هذا الموضوع قديماً وحديثاً ، واقرأ خلاصتها في كتاب «مباحث في علوم القرآن» للأستاذ مناع القطان طبع مؤسسة الرسالة ، واقرأ الكتاب الممتع المفيد «النبأ العظيم» لمؤلفه الفاضل العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز .

(٢) يقول: (أي: منجانا) (A. Mangana) أستاذ جامعة منشستر سابقاً: «إن هنالك نسخاً كثيرةً مخطوطةً للقرآن كلها في مكتبات أوربا العامَّة ، لعلَّ أقدمها ما ترجع كتابتها إلى القرن الثاني الهجري ، وهذه المخطوطات لا يوجد فيها اختلاف عدا هناتٍ من الكتابة العربية التي هي من عيوب الخط العربي القديم» وقريباً من ذلك قال نولديك Noeldeke (دائرة معارف الأديان والأخلاق) (ج/ ١٠ ص/ ٤٩ ـ ٥٤٨) .

(٣) دائرة المعارف البريطانية ، مادة «محمَّد» .

www.abulhasanalinadwi.org

محمَّد ﷺ ـ على صحة نقله ، وانتهائه بنصِّه إلى محمد ﷺ ، وهنا بضع شهاداتٍ لكبار العلماء المسيحيين .

يقول سير وليم ميور (Ser Willnam Muir) الذي عُرِف تحامله على الإسلام ، وصاحب رسالته ، حتى اضطر ذلك زعيم حركة التعليم العصري في المسلمين في الهند سيد أحمد خان ، مؤسس جامعة عليكراه الإسلامية إلى وضع كتابه الشهير «خطبات أحمدية» في الردِّ على كتابه «حياة محمد» (Life of Mohammed) ، يقول ميور في نفس هذا الكتاب :

«لم يمض على وفاة محمَّد ربع قرن حتى نشأت منازعات عنيفة ، وقامت طوائف ، وقد ذهب عثمان ضحية هذه الفتن ، ولا تزال هذه الخلافات قائمة ، ولكن القرآن ظلَّ كتاب هذه الطوائف الوحيد ، إنَّ اعتماد هذه الطوائف جميعاً على هذا الكتاب تلاوةً برهانٌ ساطعٌ على أنَّ الكتاب الذي بين أيدينا اليوم ، هي الصحيفة التي أمر الخليفة المظلوم بجمعها وكتابتها ، فلعلَّه هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقي نصُّه محفوظاً من التحريف طيلة ألفٍ ومئتي سنة»[١] .

ويقول وهيري (Wherry) في تفسيره للقرآن ج : ١ ص : ٣٤٩ : «إنَّ القرآن أبعد الصحف القديمة بالإطلاق عن الخلط والإلحاق ، وأكثرها صحَّةً وأصالةً» .

ويقول بامر (Palmer) مترجم القرآن المعروف إلى اللغة الإنجليزية في كتابه (The Quran introduction) : «لم يزل نصُّ القرآن الذي رتَّبه عثمان هي الصحيفة المتلقاة بالقبول والمعتمد عليها عند المسلمين»[٢] .

ويقول لين بول (Lane Poole) :

«إنَّ أكبر ما يمتاز به القرآن أنَّه لم يتطرَّق شكٌّ إلى أصالته ، إنَّ كلَّ حرفٍ

(١) Life of Mohammed طبعة ١٩١٢ ص/ ٢٢ ـ ٢٣ .
(٢) ص/ ٧ .

www.abulhasanalinadwi.org

نقرؤه اليوم نستطيع أن نثق بأنه لم يقبل أيَّ تغييرٍ منذ ثلاثة عشر قرناً»(١) .

إذاً فلم تعد حاجة إلى نبوَّةٍ جديدةٍ ، تزيل الالتباس ، وتميِّز بين الحقِّ والباطل ، وتبيِّن كذب المفتري ، ولا إلى صحيفةٍ تحلُّ محلَّ هذه الصحيفة المنسوخة التي عبثت بها الأيدي ، واعتدى عليها المعتدون .

سكوت القرآن عن بعثة نبيٍّ جديد :

وهذا الكتاب الخالد الذي هو الفرقان والميزان ، والذي هو تبيانٌ للناس ، والذي لم يهمل أصلاً من أصول الدين ، يتوقف عليه فلاح الدين والدنيا ، وتتوقف عليه النَّجاة والسَّعادة ، ساكتٌ عن ورود نبيٍّ جديد ، مع أنه كان من أهمِّ المهام الذي لا يقبل الغموض والإبهام ، فضلاً عن السكوت ، فالكتاب الذي يذكر الشيء الكثير من أشراط الساعة ، والحوادث التي تحدث في آخر الزمان ، ويتحدَّث عن الدخان(٢) ، وعن الدَّابة(٣) ، ويأجوج ومأجوج(٤) ، من حوادث آخر الزمان ، كيف لا ينبىء عن نبيٍّ يبعث في هذه الأمة ، أو غيرها ، ويهيِّىء العقول والنفوس ـ التي تنفر عن كل جديدٍ ، وتفرُّ من التكاليف والمسؤوليات ـ للترحيب به وقبول دعوته ، والانضواء إلى رايته ، وقد عرف اعتناء القرآن الزائد ، واهتمام الرسول ﷺ البالغ بكل ما ينفع في الدنيا والآخرة ، والتحذير عن كل ما يضرُّ ، ويعرض لسخط الله وعقابه ، والحرص الشديد على أن يكون المسلمون على بينةٍ من أمرهم ، مستعدِّين لمواجهة ما يتحدَّى دينهم ، ويفسد عقيدتهم ، ويغير على إيمانهم ، وقد ذخرت كتب الحديث بالأحاديث الواردة في المسيح الدجال ، وفتنته ، ومحنته ، أيعقل من هذا

---

(١) Selections From the Koran p. G هذه الاعترافات ملتقطة من تفسير الشيخ عبد الماجد الدريابادي ، بالإنجليزية .

(٢) ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان : ١٠ ـ ١١] .

(٣) ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل : ٨٢] .

(٤) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٦] .

www.abulhasanalinadwi.org

الكتاب الذي هو تنزيل من حكيم حميد ، ومن هذا النَّبيِّ ـ الذي يصفه القرآن بأنه ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] ـ أن يترك أمته في عماءٍ وظلامٍ ، وجهالةٍ مطبقةٍ ، وحيرةٍ مردية عن هذا الحدث الأكبر ، والنبأ العظيم الذي هو أهمُّ بكثيرٍ مما لهج لسان النبوة بذكره ، وذخرت دواوين السنَّة بتفاصيله؟!

الأحاديث الصحيحة الصَّريحة المتواترة:

ثم لم يقتصر النَّبيُّ ﷺ على ما جاء صريحاً في القرآن عن كمال هذا الدين ، وانتهاء سلسلة النبوة عليه ، مما لا يدع مجالاً للشكِّ لكلٍّ من عرف اللغة العربية ، ولم يبتل بفساد الذوق ، أو سوء النية ، أو ابتغاء الفتنة ، بل شرحه لأمته في وضوحٍ لا وضوح فوقه ، وفي بسطٍ وتفصيلٍ لا يتصوَّر أكثر منه ، وضرب لذلك الأمثال البليغة ، وقد زخرت كتب الحديث بهذه الروايات التي وردت في معنى أنَّ رسول الله ﷺ هو آخر الرسل ، وخاتم الأنبياء[١] ونقتصر هنا على خمسة أحاديث وردت في الصحاح حتى يتبين الصبح لذي عينين:

١ ـ قال النَّبيُّ ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبيٌّ خلف نبيٌّ ، وإنه لا نبيَّ بعدي ، وسيكون خلفاء»[٢].

٢ ـ قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي ، كمثل رجلٍ بنى بيتاً

---

(١) قال العلامة السيد أنور شاه الكشميري شيخ المحدثين في عصره (م ١٣٥٢ هـ) في كتابه «عقيدة الإسلام»: «تواترت الأحاديث في ختم النُّبوَّة نحو مئتي حديث» (ص/ ٣١٨) وقد جمع العلامة المفتي محمد شفيع الديوبندي (كبير علماء باكستان) الأحاديث الواردة في هذا المعنى في كتابه «ختم النبوة» فبلغت ٢١٠ حديثاً ، وقد تزيد على ذلك عند المستقصين ، وتكلم على هذه الأحاديث ، وبحث فيها ، وفي أقوال العلماء ، والمتكلمين ، والأصوليين ، والصوفية العلامة محمود حسن خان الطوكي (م ١٣٦٦ هـ) مؤلف موسوعة «معجم المصنفين» في كتابه «معيار السنة لختم النُّبوَّة» وهو من أحسن ما كُتب في هذا الموضوع.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المناقب ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، ومسلم في كتاب الإمارة) وأحمد في مسنده ، وابن ماجه وابن جرير ، وابن أبي شيبة.

www.abulhasanalinadwi.org

فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنةٍ من زاويةٍ ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون: هلاَّ وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين»[١] .

٣ ـ إنَّ رسول الله ﷺ قال: «فضلت على الأنبياء بستٍّ: أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافَّة ، وختم بي النَّبيُّون»[٢] .

٤ ـ قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرسالة والنبوَّة قد انقطعت ، فلا رسول بعدي ، ولا نبيّ»[٣] .

٥ ـ عن جبير بن مطعم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أنا محمد ، أنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبى ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبيٌّ» .

إجماع الصَّحابة والأمَّة الإسلاميَّة على انقطاع النُّبوَّة بعد محمد ﷺ ، واستبشاعها ورفضها لهذه الدعوى:

وبسبب هذه الآيات البيِّنات المحكمات ، والأحاديث الصحيحة الصريحة ـ التي بلغت حدَّ التواتر ـ أجمع الصَّحابة رضي الله عنهم ـ وإجماعهم أكبر دليلٍ من دلائل الثبوت الشرعي ـ على انقطاع النُّبوَّة بعد النَّبيِّ ﷺ ، وأنَّه لا نبيَّ بعده في كلِّ مفهومٍ من مفاهيم هذه الكلمة العربية التي كانوا يحسنون فهمها ، ولذلك اتفقت كلمتهم عن آخرهم على قتال مسيلمة الكذاب ، والحكم بكفره ، وردَّته ، لم يشذَّ منهم في ذلك شاذٌّ ، مع أن مسيلمة كان مقرّاً بنبوَّة محمد ﷺ ، وكان يؤذِّن للنبي ﷺ ، ويشهد في الأذان أنَّ محمَّداً رسول الله[٤] ، وكان مؤمناً بالقرآن يرى العمل به فرضاً ،

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المناقب ، باب خاتم النَّبيين) ورواه مسلم ، وأحمد ، والترمذي ، وابن أبي حاتم ، واللفظ للبخاريِّ.

(٢) رواه مسلم ، والترمذيُّ ، وابن ماجه.

(٣) رواه الترمذيُّ في (كتاب الرؤيا ، باب ذهاب النُّبوَّة) وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(٤) تاريخ الطبري ج/ ٣ ص/ ٢٤٤.

www.abulhasanalinadwi.org

وإنما كان يفسر القرآن حسب أهوائه ، ويدَّعي الإلهام ، وكان يدَّعي أنَّه أُشرك في نبوَّة محمد ﷺ ، فكان أول فاتح لباب نبوة تابعة للشريعة المحمَّدية ، وكلُّ من ادَّعى ذلك في العصور الأخيرة كان تابعاً له ، وقد قتل في حرب اليمامة ألف ومئتا رجلٍ من خيار المسلمين ، كما جاء في كتابٍ كتبه أبو بكر إلى خالد بن الوليد[١] ، وقتل الأسود العنسي الذي ادَّعى النبوة في عهد رسول الله ﷺ .

ثم أجمع المسلمون في كلِّ عصر على انقطاع النُّبوَّة بعد محمَّدٍ ﷺ ، وأنَّ كلَّ من يدَّعيها مارقٌ من الدين ، متَّبعٌ غير سبيل المؤمنين[٢] ، واستفاضت هذه العقيدة في العالم الإسلامي كلِّه ، وأصبحت جزاءً من عقائد المسلمين التي يدينون بها ، ويعضُّون عليها بالنواجذ ، وتتوارثها الأجيال بعد الأجيال ، حتى أصبحت عقول المسلمين وطبيعتهم لا تسيغ ادِّعاء النُّبوَّة ولا تحتمله[٣] ، لذلك قلَّ عدد المتنبئين في المجتمع الإسلاميِّ بالنسبة إلى اتساع العالم الإسلاميِّ ، وتفاوته في فهم الدين والتمسُّك به ، وبالنسبة إلى عددِ المسلمين الضخم ، واضطراب الأمور فيهم ، وبالقياس إلى كثرة

---

(١) تاريخ الطبري ج/ ٣ ص/ ٢٥٤ .

(٢) قد نقل الإجماع على ذلك القاضي عياض (م ٥٤٤ هـ) في كتابه المشهور «الشفاء» وبسط القول فيه («الشفاء» ج/ ٢ ص/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢) والعلامة الشهرستاني (م ٥٤٨ هـ) في كتاب «الملل والنِّحل» (ج/ ٣ ص/ ٢٤٩ ، والعلامة ابن نجيم (م ٩٧٠ هـ) في كتاب «الأشباه والنظائر» ص/ ١٧٩ ، والعلامة ملا على القاري (م ١٠١٦ هـ) في شرح «الفقه الأكبر» ص/ ٢٠٢ ، ومن كبار الصوفية الإمام عبد الوهاب الشعراني في كتاب «اليواقيت والجواهر» ص/ ٣٥ ، وكل ما نقل خلافه عن عالم من علماء المسلمين الذين عليهم الاعتماد ، إمَّا مفترى عليه ، وإمَّا مدسوسٌ في الكتاب ، وإمَّا قطعت عبارته عن سياقها ، وحرِّفت عن موضعها وإما أسيء فهم مراده عن قصدٍ ، أو عن غير قصدٍ .

(٣) لقد خلَّد التاريخ أسماء من ادَّعوا النُّبوَّة ، ولقَّبهم المسلمون بالمتنبئين ، وبقي هذا العار واللقب الشنيع لاصقاً بهم ، ولم يسامح التاريخ في ذلك أشهر شاعرٍ من شعراء العربية ، وقد انتهت إليه رئاسة الشعر ، وعقد له اللواء ، وهو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي (م٣٥٤ هـ) وقد غلب عليه لقب «المتنبي» فغطى اسمه .

www.abulhasanalinadwi.org

الدواعي إلى هذه الادعاءات ، بالعكس من الأمم السابقة التي كثر فيها عدد المتنبئين مع ضيق رقعة الأرض التي كانت تسكنها ، وقلة عدد المتديِّنين الذين كانوا يتديَّنون بهذه الديانات .

ثم إنَّ من ادَّعى النبوة لم يحقق من النجاح ، ولم يكتسب من الأتباع ما كان يخشى من جهالة المسلمين ، ودهاء المتنبئين ، وما وردت به الأخبار الصحيحة عن عدد المتنبئين (الذي لا يتجاوز سبعين إلى أن تقوم القيامة) والذي سجله التاريخ من أسمائهم وأخبارهم قليلٌ ، نظراً إلى اتساع الأمة الإسلامية ، وامتداد نفوذ الإسلام ، واضطراب العقائد ، وتشتُّت الأغراض والمذاهب ، وتلك نتيجة رسوخ عقيدة ختم النُّبوَّة في أذهان المسلمين ، وتغلغلها في أحشائها ، ولوضوح الآيات ، ولصراحة الأحاديث ؛ التي وردت في هذا المعنى ، وشهرتها ، واستفاضتها .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

المحاضرة الثامنة

محمَّد رَسُول الله ﷺ آخرُ الرُّسُل وخاتمُ النَّبيّين (٢)

انقطاع النُّبوَّة تكريمٌ للإنسانية ورأفةٌ بها :

أشارت الحكمة الإلهية بختم النُّبوَّة إلى أنَّ الإنسانية قد بلغت سنَّ الرشد ، ومرحلة النُّضج والاستواء ، فقد خرجت من إطارها الضَّيِّق الذي عاشت فيه قروناً طويلةً ، لأسبابٍ تاريخيةٍ طبيعيةٍ يطول شرحها ، واستعدَّت لأن تدخل في مرحلةٍ جديدةٍ من العلم والمدنية ، والتعارف والوحدة ، وتسخير الكون وطاقاته ، والتغلب على العوائق الطبيعية والتقسيمات الجغرافية ، والفوارق السياسية ، وخرجت من مفهوم الأسر والقبائل ، والشعوب والأقاليم إلى مفهوم العالم الفسيح ، والإنسانية الواسعة ، والهداية العامَّة ، والعلم المشاع .

وكانت كلُّ الشواهد والتجارب تدلُّ على أنَّ سعادتها في الاعتماد على ما نزل من وحيٍ ، وصحَّ من عقيدةٍ وتشريعٍ ، وتعيَّن من حدودٍ وغاياتٍ ، وأصولٍ وكلِّيَّاتٍ عن طريق النبوءة التي كانتْ خاتمة للنبوءات ، وعن طريق الكتاب الذي كان مهيمناً للكتب ، والسير في ضوئه على هدىً وبينة ، وشقِّ طريق الحياة إلى الأمام ، والاعتماد في مجال الحياة على القوى الطبيعية ، ووسائل العلم ، والعقل المؤمن ، والقلب السليم ، والسعي الهادف .

وكان شقاؤها في الزَّمن الماضي بالتباس الأمور ، واختلاط الحقِّ بالباطل ، وكثرة الدعوات المدَّعية للاتصال الخاصِّ بالسماء ، وتلقِّي

www.abulhasanalinadwi.org

التعاليم من فوق كذباً وزوراً ، وتوزيع الناس بين المؤمن والكافر على هذا الأساس.

وكان هلاك أممٍ كثيرةٍ بالكفر بالأنبياء الذين كانوا يبعثون فيها ، والذين كان يأتي بعضهم على إثْرِ بعضٍ ، فإنَّ النبوة ليست زعامةً سياسيةً ، أو رئاسةً دنيويةً يهون إنكارها ومحاربتها ، والثورة عليها ، إنَّما هي فرقانٌ بين الحقِّ والباطل ، وبها تتمُّ حجَّةُ الله على هذه الأمة التي يبعث فيها النَّبيُّ ، ويعرف المتتبع للقرآن أنَّ سبب هلاك الأمم السابقة لم يكن بالكفر المطلق ، وبمجرد فساد العقائد ، والأعمال ، والأخلاق ، إنَّما كان لتكذيبها بالنَّبيِّ المبعوث فيها ، واستهزائها به ، وإهانتها له ، وقد قصَّ القرآن قصة هذه الأمم في بسطٍ وتكرارٍ ، واجترائها على نبيها المرسل ، وما لقيه منها من أذىً وسخريةٍ وإهانةٍ أحياناً أخرى ، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ ، يصعب استقصاؤها ، ونقتصر هنا على بعضها:

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون: ٤٤].

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٩ ـ ٤١].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرَّعد: ٣٢].

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤].

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨].

وفي انقطاع النُّبوّة توفيرٌ للجهود البشرية والطاقات الإنسانية عن أن

www.abulhasanalinadwi.org

تمتحن وتستنفد بعد كلِّ فترةٍ زمنيةٍ ، وعلى مسافة مكانية ، في التصديق والتكذيب ، والإيمان والكفر ، وذلك شيءٌ طبيعيٌ ، إذا استمرَّت سلسلة النُّبوَّة ، واتصال الأرض بالسماء لتلقِّي الوحي الجديد ، والتعليم المفيد ، والشرع المزيد ، ونهض بعد حقبة من الزمان ـ قد تطول وقد تقصر ، وعلى مسافة من المكان قد تبعد وقد تقرب ـ من يدّعي النبوة ، ويدَّعي أنَّ الله يخاطبه ويوحي إليه ، وأنَّه كلِّف تبليغ الرسالة ، ويحكم بكفر من يكفر به وينكر نبوءته ، ويحاربه حرباً شعواء لا هوادة فيها ولا رفق ، ولا استثناء فيها ولا فرق ، وينحت من الأمة الواسعة ، التي ملأت الآفاق أمَّةً صغيرةً ، قد يبلغ عددها إلى مئاتٍ من النفوس ، أو إلى آلافٍ ، أو مئات آلاف ، وهكذا يتشاغل الناس ـ بعد كلِّ فترةٍ من الزمان ـ وفي أمكنة متعددة في هذا العالم الفسيح في وقتٍ واحد ، بالحكم على هذا المدَّعي أو المدَّعين ، منهم المغبون في عقله ، ومنهم المحترف بدينه ، ومنهم من هو صنيعةٌ لغيره ، أو الملبوس عليه في عبادته لقلَّة علمه ، وكثرة مجاهدته ، قد اتخذه الشيطان مطيَّةً ولعبةً ، أو الحكومات ، أو أصحاب الأغراض السياسية وسيلةً وذريعةً ، إلى غير ذلك من الإمكانات التي لا ينكرها العقل ، ولا تنفيها التجربة ، ولا يكذبها الواقع ، فكل ذلك وجد في الديانات السابقة ، وظهر في الأمة الإسلامية في بعض الفترات التاريخية .

مشكلة كثرة المتنبئين في الدِّيانات السابقة وخطرها على سلامة العقيدة ووحدة الدِّيانة :

وتدلُّ مطالعة صحف «العهد القديم» دلالةً واضحةً على أنَّ عدداً كبيراً من أصحاب الطموح ، وعشاق الجاه والزعامة الدينية ، تزعَّموا النُّبوَّة والكهانة ، والاتصال بعالم الغيب اتصالاً مباشراً معتمدين في ذلك على رؤىً وأحلام كانوا يرونها ، أو يزعمون أنهم يرونها ، وقد أحدث ذلك فتنةً عظيمةً في المجتمع اليهودي ، حتى لزم أن ينبَّه عليها عن طريق الصُّحف التي نزلت على أنبياء بني إسرائيل ، وهنا نقتصر على بضع شهاداتٍ ملتقطةٍ من العهد القديم .

www.abulhasanalinadwi.org

«ها أنذا على الذين يتنبؤون بأحلامٍ كاذبةٍ ، يقول الربُّ : الذين يقصُّونها ، ويضلون شعبي بأكاذيبهم ومفاخراتهم ، وأنا لم أرسلهم ، ولا أمرتهم ، فلم يفيدوا هذا الشعب فائدةً يقول الربُّ»(١) .

«فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم ، وعرّافيكم ، وحالميكم ، وعائفيكم ، وسحرتكم ، الذين يكلمونكم قائلين : لا تخدموا ملك بابل ، لأنهم إنما يتنبؤون لكم بالكذب لكي يبعدوكم من أرضكم ، ولأطردكم فتهلكوا»(٢) .

«فتحققت وهو ذا لم يرسله الله ، لأنه تكلم بالنبوة علي ، وطوبيا وسنبلط قد استأجراه ، لأجل هذا قد استؤجر لكي أخاف وأفعل هكذا وأخطىء ، فيكون لهما خبر رديء لكي يعيراني»(٣) .

«وكان إليَّ كلام الرب قائلاً : يا بن آدم تتنبأ على أنبياء إسرائيل الذين يتنبؤون ، وقل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم : اسمعوا كلمة الربِّ ، هكذا قال السيد الربُّ ، ويل للأنبياء الحمقى ، الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئاً»(٤) .

«صار في الأرض دهش وقشعريرة ، الأنبياء يتنبؤون بالكذب ، والكهنة تحكم على أيديهم ، وشعبي هكذا أحب ! ! وماذا تعملون في آخرتها»(٥) .

«لأنه هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل : لا تغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم ، وعرّافوكم ، ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحلمونها ، لأنهم إنما يتنبؤون لكم باسمي بالكذب ، أنا لم أرسلهم يقول الربُّ»(٦) .

ويبدو من الوثائق التاريخية اليهودية ، أنَّ سلسلة هؤلاء المتنبئين استمرت إلى بعد عهد تدوين صحف «العهد القديم» ، وقد تكاثر هؤلاء

---

(١) أرميا ٢٣ : ٣٢ .

(٢) أرميا ٢٧ : ٩ ـ ١٠ .

(٣) نحيما ٦ : ١٢ ـ ١٣ .

(٤) خرقيال ١٣ : ٢ ـ ٣ .

(٥) أرميا ٥ : ٣٠ ـ ٣١ .

(٦) أرميا ٢٩ : ٨ ـ ٩ .

www.abulhasanalinadwi.org

«المتنبئون» اليهود في البيئات التي كان اليهود فيها هدف الاضطهاد والقسوة والإهانة ، واستشرف المجتمع اليهودي من ينقذه من هذه الحالة المزرية ، وينتصف من عدوه ، ويردُّ إليه الاعتبار والكرامة ، واستغل هذه النفسية المكلومة الموتورة بعض الأذكياء الذين لا يخافون الله ، ولا يرجون حساباً ولا كتاباً ، فاعتبروا ذلك فرصةً سانحةً لتحقيق مآربهم الشخصية ، أو أغراضهم السياسية ، ففاجؤوا أبناء ملتهم بمبشراتٍ وتكهناتٍ ، ووعودٍ خلابةٍ ، وأسسوا عليها نبوتهم الجديدة ، وكان لها سحرٌ عجيبٌ في النفوس البائسة ، التي ضاقت ذرعاً بالظروف القاتمة التي طال أمدها ، فأقبل عليهم عددٌ كبيرٌ من المصدِّقين والمصفقين ، واضطربت العقائد ، وشاعت البدع ، ونشأت طوائفُ محدثةٌ ، هالَت الغيارَى على التعليمات اليهودية الأصيلة وأفزعتهم ، يقول البرت ايم تامسن (Albert M. Tyamson) عضو المجمع التاريخي اليهودي الأمريكي البريطاني في دائرة معارف الأديان والأخلاق :

«يكثر الحديث في تاريخ اليهود عن المتزعمين الذين كان كلُّ واحدٍ منهم يدَّعي أنه «المسيح الموعود» وذلك في الفترة التي أعقبت تجريد الحكومة اليهودية عن الحرية ، ودامت إلى عدَّة أجيالٍ ، وكان هؤلاء المبشرون بالعهد الزاهر ، والغد الباسم لا يزالون يبعثون في اليهود ـ في أحلك عصورهم ـ أمل العودة إلى وطنهم الذي أجلي منه آباؤهم في الزَّمن الماضي ، وكان أكبر عدد من هؤلاء المتزعمين ينهض في أمكنةٍ وأزمنةٍ يبلغ فيها اضطهاد اليهود أوجه ، وكانت تلوح طلائع الثورة على هذا الوضع المخزي ، وكانت هذه الحركات غالباً تتسم بالسمة السياسية ، وقد غلبت الصبغة السياسية على هذه الحركات في الزمن الأخير ، ورغم أن هذه الحركات لم تكن تتجرد عن المظهر الديني تجرداً كاملاً ، ولكنَّها كانت في غالب الأحيان تشجِّع على البدع ، وتوسِّع بذلك نفوذها وتقوِّي سلطانها ، لذلك كانت جنايتها عظيمةً على التعاليم اليهودية الأصيلة ، وتنجم فرقٌ

www.abulhasanalinadwi.org

متطرفةٌ تنضم أخيراً إلى المسيحية أو الإسلام[١].

وقد استمر التنبؤ والتزعُّم للنُّبوَّة بدوافع شخصيةٍ، وطائفيةٍ، واقتصاديَّةٍ، وسياسيَّةٍ إلى ما بعد المسيح، وهنا شهادات من «العهد الجديد» تدلُّ على كثرة المتنبئين وخطرهم:

«وفي تلك الأيام انحدر من أورشليم إلى إنطاكية وقام واحدٌ منهم اسمه «أغابوس»، وأشار بالرُّوح أنَّ جوعاً عظيماً كان عتيداً أن يصير على جميع المسكونة، الذي صار أيضاً في أيام كلوويس قيصر»[٢].

«وبينما نحن مقيمون أياماً كثيرةً انحدر من اليهودية نبيٌّ اسمه أغابوس، فجاء إلينا، وأخذ منطقة بولس، وربط يدي نفسه ورجليه، وقال: هذا يقوله الروح القدس، الرجل الذي له هذه المنطقة، هكذا سيربطه اليهود في أورشليم، ويسلمونه إلى أيدي الأمم»[٣].

«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة»[٤].

«ولكن ما أفعله سأفعله لأقطع فرصة الذين يريدون فرصةً كي يوجدوا كما نحن أيضاً فيما يفخرون به، لأنَّ مثل هؤلاء هم رسلٌ كَذَبةٌ، فعلةٌ، ماكرون، مغيِّرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح»[٥].

«أيها الأحبار لا تصدِّقوا كلَّ روح، بل امتحنوا الأرواح، هل هي من الله، لأنَّ أنبياء كذبةً كثيرين خرجوا إلى العالم»[٦].

«وكان قبلاً في المدينة رجلٌ اسمه سيمول، يستعمل السِّحر، ويدهش

---

(١) دائرة معارف الأديان والأخلاق (Encycelopaedia of Relegion and ethic) ج: ٨ ص/ ٥٨٨.

(٢) أعمال الرسل ١١: ٢٧ ـ ٢٨.

(٣) أعمال الرسل ٢١: ١٠ ـ ١١.

(٤) إنجيل متى ٧: ١٥.

(٥) رسالة بولس الثانية لأهل كورنثوس ١١: ١٢ ـ ١٣.

(٦) رسالة يوحنا الأولى ٤: ١.

www.abulhasanalinadwi.org

شعب السامرة قائلاً: إنه شيءٌ عظيمٌ ، وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير قائلين: هذا هو قوة الله العظيمة»[١].

«ولما اجتازا الجزيرة إلى بافوس ، وجدا رجلاً ساحراً ، نبيًّاً كذّاباً يهوديًّاً ، اسمه باريشوع»[٢].

«فأجاب يسوع وقال لهم: انظروا لا يضلُّكم أحدٌ ، فإنَّ كثيرين سيأتون باسمي قائلين: أنا هو المسيح ، ويضلون كثيرين»[٣].

«هل يجتنون من الشوك عنباً ، أو من الحسك تيناً»[٤].

أما ما يتصل بالعهد المسيحي والحديث عن مشكلة ظهور المتنبئين والكهان، والمتزعمين للهداية الرّبانية المباشرة ، فنقتصر هنا على شهادة واحدة لكاتب مسيحي صاحب اختصاص في الموضوع ، يبدو للمتأمل فيها تذمُّر العلماء المسيحين من هؤلاء المتنبئين الذين تكاثر عددهم في العهد الأخير ، وإشفاقهم البليغ على سلامة العقيدة ، ووحدة الديانة ، وهدوء الحياة ، يقول «ايدون ناكس متكل» (Edwin Knox Mitchl) أستاذ تاريخ الكنيسة اليونانية الرومية ، والكنيسة الشرقية في معهد الديانات بـ «هارت فورد» (Hart Ford) في مقال كتبه لدائرة معارف الديانات والأخلاق ، يقول هذا الكاتب:

«إن ظهور المتنبئين الأدعياء الذين كانوا يدَّعون الحكمة ـ التي مصدرها الغيب ، وما وراء العقل ـ أحدث اضطراباً ، وعدم ثقة ، وجعل قادة الكنائس وأساقفتها يشعرون بالخطر الذي كان يتهدَّد مستقبلها ، ويحلِّق على رؤوسهم ، ولكنهم لم يهتدوا بعد إلى طرق تأديبيةٍ ملائمةٍ وافيةٍ بالمراد لزجر هؤلاء الأدعياء والدُّعاة ، الذين كانوا يزعمون أنَّ الله يكلمهم ، ويبوح لهم بأسراره المكتومة ، ولم يكشفوا بعد ميزاناً يمتحن به مدى روحانية

---

(١) أعمال الرسل ٨ : ١٠ .
(٢) أعمال الرسل ١٣ : ٦ .
(٣) إنجيل متى ٢٤ : ٤ ـ ٥ .
(٤) إنجيل متى ٧ : ٦ .

www.abulhasanalinadwi.org

هؤلاء المتزعمين ، ومبلغها من الصدق ، وكان العثور على هذا المعيار والمحك قد أصبح لازماً لمصالح الكنيسة ، وكانت الكنيسة مهتديةً إليه لا محالة ، لتصون الدين ـ عن طريق هذا المحك ـ عن الفوضى في المبادىء الأساسية ، والحياة عن الاتجاه إلى الإلحاد ، وهكذا تستطيع أن تنشىء سياجاً حول كيانها تعيش فيه بهدوءٍ وسلامٍ».

ويقول وهو يتحدَّث عن كثرة الأدعياء والمتنبئين في العالم المسيحي :

«إنَّ تأليف «هيرمو باستر» Hermo Paster الذي سماه «Mand» ومؤلفات «اجناتيس» «Ignatius» مملوءةٌ بتنبيهاتٍ وتعليماتٍ ضد الدَّجالين من المتنبئين والمعلمين».

وتدلُّ مطالعة كتاب The Didache على أنَّ الكهانة كانت لا تزال تتمتَّع بحريةٍ زائدة ، بل كانت لها مكانةٌ مرموقةٌ في سورية (أو مصر) مع أنها كانت في غالب الأحيان مصطنعةً مزوَّرةً ، وكانت الكنيسة ترفضها رفضاً باتّاً ، ولكنها كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وكانت لتفقد اعتبارها في المستقبل القريب ، وتواجه معارضةً واجهها جميع الأشخاص الذين غلَوا في ادِّعاء الحكمة الغيبية . إنَّ العارفين الروحانيين (غنوسطين) «Cnostics» والمارسيين Marcion كان لهم أنبياء يختصُّون بهم ، وكنائس تتَّصل بهم ، وكان من الصعب في بعض الأحيان التمييز بينهم ، وكأنَّ حركة «مونتانزم» «Montanism» مشجعةٌ لدعوى النُّبوَّة ، وكانت في الحقيقة سعياً وراء إحياء الأحوال البدائية التي مرت بها المسيحية ، حين كان كلُّ مؤمنٍ بهذه الديانة حرّاً في استخدام المواهب التي أكرمه الله بها .

واتخذت الكنيسة موقف الدفاع (ضد هذا السيل الجارف من النبوءات والكهانات ، والمزاعم والادعاءات) وهكذا فرضت رقابةً وحجراً عن طريق الوثائق المكتوبة على الكهانة والنبوءات ، وهكذا فقدت الدعاوَى الطويلة العريضة ، و«المعجزات» وشفاء الأمراض قوَّتها ونشاطها ، ولم ينته القرن الثاني المسيحي ، حتى أصبح رؤساء الكنيسة والمسؤولون عنها مسيطرين

www.abulhasanalinadwi.org

على أصحاب الكهانات والنبوءات ، مالكين لزمامهم[١] .

ختم النُّبوَّة نتيجةٌ لوضع هذا الدِّين الكامل :

ثم قد اقتضى ذلك ـ ختم النُّبوَّة ـ طبيعة هذا الدين الذي جاء به محمَّد ﷺ ، تامّاً كاملاً ، في العقائد والشرائع ، والتعاليم الخلقية ، والاجتماعية ، والمدنية ، حاوياً للأسس السليمة الصالحة ، التي يقوم عليها المجتمع الصالح ، والمدنية الرشيدة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، ويبلغ بها الفرد البشري ذروته في التقدُّم والاكتمال ، ويحقِّق به أهدافه الصَّالحة من غير أن يشعر بعرقلة في هذا السير الطبيعي ، والبلوغ إلى قمة الحسن والإحسان ، والجمع بين حسني الدنيا والآخرة ، ومن غير أن يشعر بنقصٍ في مجال التشريع ، وعجزٍ عن مسايرة الحياة ، وتحقيق مطالبها الفطرية ، بل يجد هذا التشريع سابقاً للزمن ، باهراً للعقل البشري .

وقد دلَّت دراسة الكون ، وتتبُّع سنن الله في هذا العالم الفسيح ، وفي ماضي الأمم وحاضرها ، أنه لا فضول عنده ولا تقصير ، وأنَّ كلَّ شيءٍ عنده بمقدار ، وأنَّه ينزِّل الأشياء كلها بقدر ، وأنَّ كلَّ ما نراه مما يبدو زائداً أو قليلاً ، أو متجاوزاً ، أو متخلفاً ، إنما هو من قصور نظرنا ، وقلة علمنا ، والتكليف والتشريع أحقُّ من التكوين والعالم الطبيعي بالدِّقة ، والإتقان ، والتناسب؛ لأنَّه غايةٌ ، والكون وسيلةٌ ، فلو لم يقم دليلٌ نقليٌّ على اختتام النُّبوَّة على محمَّد ﷺ لعرفنا بحكم العقل أنَّ النُّبوَّة الجديدة التي يمتحن بها البشر بعد النبوة المحمَّدية إرهاقٌ للبشرية ، فيما لا لزوم له ، وجهادٌ في غير جهاد ، ومخالفٌ لما عرفناه من سنن الله في خلقه ، وفي هذا العالم .

حيوية هذا الدين ، وقوة توليده ، وإنتاجه للعارفين وأصحاب اليقين والمصلحين والمجددين :

وليس لأحدٍ من أفراد الأمَّة بل من أفراد البشر ـ في أيِّ عصرٍ من

---

(١) راجع مقال «النبوة والتنبؤ (في الدور المسيحي) دائرة المعارف للديانات والأخلاق» .
(Encyclopaedia of Religion and eathiec 1939 p.p. 383/84).

www.abulhasanalinadwi.org

العصور ـ عذرٌ في عدم الوصول إلى مراتب اليقين ، وأعلى درجات القرب والوصول ، وغاية الرِّضا والقبول ، والإخبات والإنابة ، وتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق إلا ضعف إرادته ، وفتور همَّته ، وإخلاده إلى الأرض ، واتِّباع الهوى ، أو جهله للقرآن والحديث ، وإلا فهذا الدين زاخرٌ بالحياة والقوَّة والجِدَّة ، متكفلٌ بجميع السعادات الدنيوية والأخروية ، يبلغ الإنسان بالعمل به ـ في جِدٍّ وعزمٍ وإخلاصٍ ـ إلى درجةٍ من درجات القرب والسُّموِّ والكمال ليست فوقها إلا النبوة .

«وحسبنا الكتاب المعجز الخالد الذي يتدفَّق بالحياة والقوة ، والذي لا تبلى جِدَّته ، ولا تنقضي عجائبه ، و«الصلاة» التي تزخر بالقوة والحيوية كذلك ، ولها من الفضل والتأثير في ربط الصلة بالله ، والوصول إليه ، وقطع منازل القرب والولاية ما ليس لشيءٍ آخر في الدين ، وبهما وصل المخلصون والمجاهدون من هذه الأمة في كلِّ عصرٍ وجيلٍ إلى مكانةٍ في الإيمان ، واليقين ، والعلم ، والمعرفة ، والرَّبَّانيَّة ، والرُّوحانيَّة ، والقرب ، والولاية ، لا يصل إليها ذكاء الأذكياء ، وقياس العقلاء والحكماء ، وما زالوا في عدد يفوق العدَّ والإحصاء ، ولا يزالان يفيضان النُّموَّ والحياة ، والجدَّةَ والنشاط ، والروحانية الصافية الدافقة في نفوس هذه الأمة وأجيالها ، تستغني بهما هذه الأمة عن نبوةٍ جديدةٍ ، وبعثةٍ جديدة ، وتعيش متصلةً بالله مرتبطةً به في كلِّ دورٍ من أدوار حياتها ، وفي كلِّ عهدٍ من عهود التاريخ ، تستمدُّ لنفسها من القرآن والصلاة رابطةً قلبيةً ، وقوَّةً روحيَّةً ، وتمدُّ إلى العالم المعاصر يد الدلالة والهداية ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(١) [الحج : ٧٨] .

---

(١) راجع كتاب العلامة الندوي «الأركان الأربعة» طبع الدار الشامية بيروت ، ودار ابن كثير ـ دمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

ثم إنَّ هذا الدِّين تكمن فيه قوةٌ حافزةٌ عجيبةٌ ، على الثورة على كلِّ ما يخالف هذا الدين ، وينحرف عن الجادة ، ويعرض الإنسانية وبقايا الخير للهلاك والتلف ، باعثةٌ على التحدِّي للباطل ، ومحاربة قوى الشرِّ والرذيلة ، والدعاة إلى الإفساد والإلحاد ، وردِّ الأمر إلى نصابه ، وعلى الحسبة على الأخلاق ، وكلمة حقٍّ عند سلطان جائر ، والمجازفة بالحياة ، والتخلِّي عن المنافع والملذَّات ، والإنكار على البدع والخرافات ، والفتن والضلالات ، مهما كلف ذلك من خسارةٍ في الأموال والأرواح ، وعذاب الأبدان والأجسام ، فلم يزل هذا الكتاب الذي يفرض على المسلمين أن يكونوا قوَّامين بالقسط ، شهداء لله ، ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين ، غير متعاونين على الإثم والعدوان ، يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، آمرين بالمعروف ، ناهين عن المنكر ، أولياء لله ولأتباعه ، محاربين للشيطان ولأوليائه ، لا يبيعون دينهم بدنياهم ولا يؤثرون العاجلة على الآجلة ، وترد الأخبار الصحيحة الصريحة الحاسمة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد بما استطاعه الإنسان من يد ، ومن لسانٍ ، وقلب ، والوعيد الشديد لمن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومالأ أعداء الله ، والمحرِّفين والمبتدعين ، وتواتر ذلك ، واستفاض ، فظلَّ هذا الكتاب ينشىء في كلِّ ناحيةٍ من نواحي العالم ، وفي كلِّ فترةٍ من فترات التاريخ الإسلاميِّ من يحمل راية الجهاد والتجديد ، ويقود حركة الإصلاح والدعوة ، ويخوض المعركة ، غير مكترثٍ بالعواقب ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٢٣].

وقد بشر لسان النبوة بأنَّ الله يقيِّض لهذه الأمَّة في كلِّ قرن ـ وهو فترة زمنية ذات اعتبار في حياة الأمم ـ من يقوِّي صلتها بهذا الدين ، وينفخ فيها روحاً جديدةً ، فقال : «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لها دينها»(١) .

وهو الكتاب الذي منع من الانحراف مع تيار الفساد والضَّلالة ، والترف

(١) رواه أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ .

www.abulhasanalinadwi.org

والجاهلية ، ونفخ روحاً جديدةً في أجسادٍ ضعيفةٍ ، وأشعل شعلة الإيمان والحماس في هممٍ هامدةٍ ، وقلوبٍ خامدةٍ.

اتصال تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، وسرُّه:

«إنَّ تاريخ الإصلاح والتجديد متَّصلٌ في الإسلام ، والمتقصِّي لهذا التاريخ لا يرى ثغرةً ، ولا ثلمة في جهود الإصلاح والتجديد ، ولا فترةً لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ، ويكافح الفساد الشامل ، ويرفع صوت الحقِّ ، ويتحدَّى القوى الظالمة ، أو عناصر الفساد ، ويفتح نوافذ جديدةً للتفكير . والدارس لهذا التاريخ ، والمتتبِّع لحوادثه وشخصياته لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلام فيه على العالم الإسلاميِّ ، وخبَت مصابيح الإصلاح ، وخفتت أصوات الحقِّ ، ومات الضمير الإسلاميُّ ، وتبلَّد الشعور ، وأضرب الفكر الإسلاميُّ عن العمل ، إن هذه الثغرات التي قد نشعر بها في دراستنا العابرة للتاريخ الإسلاميِّ ، وفي نظرتنا العجلى في كتبه ، إنَّ مردَّها إلى منهاج التأليف الذي اتخذه المؤرخون للإسلام قديماً وحديثاً ، ودرجت عليه الأجيال ، إنَّ النقص في التأليف ، وليس في التاريخ ، أو بكلمةٍ أخرى: إنَّ المسؤولية على المؤرخين والمؤلفين ، لا على المجدِّدين والمصلحين؛ الذين ظهروا حيناً بعد حين ، وحفظوا على الإسلام جدَّته وشبابه ، وقضوا على كثيرٍ من الفتن ، والبدع ، والمؤامرات والتحريفات ، حتى أصبحت مطمورةً في ركام الماضي ، لا يهتدي إليها أحدٌ في هذا العصر إلا بعد بحثٍ وعناءٍ ، وكثيرٌ من أفراد هذا الجيل لم يسمعوا بأسمائها ، ولا يعرفون حقيقتها إلا بشقِّ الأنفس ، وإجهاد العقل والعين ، وقد كان بعض هذه المذاهب ، وبعض الحركات تتمتَّع بحماية البلاط ، وتستند إلى الملك ، والسلطان ، والمال ، والجاه ، وقد كانت في عصرها صاحبة حولٍ وطولٍ ، ولكنَّها طُويت ـ بفضل جهود هؤلاء المسلمين المصلحين المخلصين ـ في صحائف الماضي ، وأصبحت موضوع علماء الآثار ، لا محلَّ لها إلا في المتاحف والصحائف»[١] .

---

(١) مقتبس من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة الندوي ص/ ٢٧ .

www.abulhasanalinadwi.org

جناية عقيدة استمرار النُّبوَّة أو «الإمام المنتظر» على الشعور بالمسؤولية، وقوة مقاومة الفساد:

ولا شكَّ أن الفضل في اتصال تاريخ الجهاد والتجديد، والبطولات والمغامرات في سبيل إعادة الأمور إلى نصابها، والمياه إلى مجاريها الطبيعية، والأخذ على يد الظالم، والانتصار للمظلومين في تاريخ الإسلام، يرجع إلى اعتبار الأمَّة ـ خاصَّة العلماء منها ـ نفسها مسؤولة عن إقامة الحقِّ والعدل، والموازين القسط، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدَّعوة إلى الدين الخالص، لا تنتظر لذلك نبيّاً جديداً يبعث، وقوة غيبية تتَّصل بالسماء اتصالاً مباشراً، ولا تعتمد في ذلك على شيءٍ غامضٍ يجلُّ عن العقول والظواهر، ويدِقُّ فهمه، فيقوم على مجرد التقليد والتقديس.

والأمم والطوائف ـ الإسلامية وغير الإسلامية ـ التي تمسكت بمثل هذه العقائد، لم تعتبر نفسها مسؤولة، ولا مكلَّفةً لمحاربة الباطل وقوى الشر، وإقامة الحقِّ والعدل، وعاشت في عالم الخيال والأماني والأحلام قروناً طويلةً، واستسلمت للأوضاع الفاسدة، وأخلدت إلى الدَّعَة، والراحة، والتواكل، وضعفت في تاريخها حركة الإصلاح والتجديد، وخفتت أصوات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويحار المتتبِّع لتاريخها في فهم السرِّ في هذا الفراغ الذي لا يحمل على مجرَّد مصادفة، ويعجز عن تعليله، وما ذلك إلا لاعتماد هذه الطائفة الاعتماد[1] الزائد على شخصية غامضةٍ مقدَّسةٍ، تحمل من علم الأسرار والأمانة الباطنة، والصلة السرِّيَّة بينه وبين فاطر الكون وصاحب الرسالة ما لا يحمله غيرها، وستفاجىء العالم بظهورها في وقتٍ مناسبٍ، وتقلب الأوضاع.

---

(١) وخير مثال لهذا الاعتقاد والاعتماد، ما يعتقده الشيعة الإمامية في الإمام الغائب. وهو الإمام الثاني عشر في اعتقادهم، فيعتقدون أنه برجوعه يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، وهو محمد المهدي بن الحسن العسكري، ولد ببغداد سنة ٢٥٥ هـ ويعتقدون أنه دخل مع أمِّه سرداباً في «سامراء» ولم يعد إلى الآن، وهو حيٌّ لم يمت، اقرأ: «أصل الشيعة وأصولها» للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ص: (٢ ـ ١٠٩).

www.abulhasanalinadwi.org

ولا شك أنَّ قضية نبيٍّ جديدٍ ، وأنبياء جددٍ ، وعقيدة استمرار النبوة ، ونزول الوحي ، والمكالمات ، والمخاطبات الإلهية ـ التي أسس عليها بعض المدَّعين نبوتهم ، واستدلوا بها في صدق دعواهم ـ أدقُّ وأخطر ، وأعمقُ تأثيراً في العقول والنفوس ، فإنَّها تضعف ثقة هذه الأمة بصلاحية دينها وشريعتها ، وخلود رسالتها ، واستغنائها عن نبوَّةٍ جديدةٍ ، وعن تعليماتٍ جديدةٍ من السماء ، وتحول بينها وبين اعتمادها على طاقاتها وصلاحيتها وكفاحها ، من حيث تشعر ، ومن حيث لا تشعر ، هذا عدا أنَّ إمكان ذلك يجعلها فريسةً للأدعياء ، والدجَّالين ، والمحترفين المشعوذين ، ولعبةً لدهائهم ، وذكائهم .

رحمةٌ بالأمَّة الإسلاميَّة ومنّةٌ عليها :

فكان من أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمَّة ، ومن خصائصها سدُّ هذا الباب إلى الأبد ، والإعلان السافر الصَّريح الواضح البيِّن بأنَّ النُّبوَّة قد ختمت بمحمَّد ﷺ ، وأنَّ الدِّين قد أُكمل للمسلمين قبل أن يفارق الرسول هذا العالم ، ويلحق بالرفيق الأعلى ، وأنَّ الله قد أتمَّ نعمته على هذه الأمة ، فلا نبيَّ بعد محمَّدٍ ﷺ ، ولا أمَّة بعد الأمَّة الإسلامية ، وتلك نعمةٌ حسد المسلمين عليها حكماءُ اليهود وفقهاؤهم؛ الذين عرفوا بلاء اليهود من كثرة أدعياء النُّبوَّة ، ومتزعميها في العالم اليهودي ، وما جرَّ ذلك من بلبلةٍ فكريَّة ، واضطرابٍ عقائديٍّ ، وصراعٍ مذهبيٍّ ، وتمزُّقٍ اجتماعيٍّ ، فقد جاء في الحديث الصحيح : «جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال : يا أمير المؤمنين! إنكم تقرؤون آيةً في كتابكم ، لو علينا معشر اليهود نزلت؛ لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : وأيُّ آيةٍ؟ قال : قوله : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة : ٣] . فقال عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ : «والله! إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم الجمعة»[١] ،

---

(١) رواه البخاريُّ ، وأصحاب الصحاح والسنن .

www.abulhasanalinadwi.org

وهذا يدلُّ على عظم هذه النعمة وجلالتها ، حتى يتحسر علماء اليهود ، ويحسدوا المسلمين عليها ، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ الأديان السابقة لم يكن لها حظٌّ من هذا الإعلان والضمان ، والكرامة والكفالة ، وكان ذلك بطبيعة الحال ، فإنها كانت في دور النشوء والارتقاء ، وكانت السلالة البشرية في دور التطور والانتقال ، وكانت الرسالة الأخيرة الخاتمة التي فُصِّلَتْ على أكبر قامة ، وأدقِّ مقياسٍ لم تنزل بعد ، وتلك مزيَّةٌ خصَّ الله بها محمدًا ﷺ آخر الرسل وخاتم النبيين ، وأكرم الله بها هذه الأمة ، آخر الأمم ، وأوسطها.

الحارس من الفوضى الفكرية :

لقد بقيت عقيدة ختم النُّبوَّة تحرس هذا الدين من غائلة المبتدعين ، وفتنة المتنبئين والمتزعمين ، وتحرس هذه الأمَّة من الفوضى الفكرية والدينية؛ التي كانت الأمم السابقة والديانات السالفة فريستها ، واستطاع هذا الدين ، واستطاعت هذه الأمَّة ـ بفضل هذه العقيدة ـ أن تقاوم المؤامرات الدقيقة ، وتحتمل الصدمات العنيفة ، وبقيت وحدةً في الدين والعقيدة ، لم تواجه ثورةً داخليةً أو اضطراباً فكريّاً ـ إلا ما كان من الباطنية في العهد القديم ـ ولا تنقسم هذه الأمَّة في الأمم ، لكلٍّ وجهتها ، ولكلٍّ مركزها الروحيُّ ، ومصدرها العلميُّ والثقافيُّ ، ولكلٍّ تاريخٌ منفردٌ وماضٍ مختلفٌ.

فضل عقيدة ختم النُّبوَّة على المدنيَّة :

وقد بعثت هذه العقيدة في الإنسان الثقة ببلوغه سنَّ الرشد ، وكان ذلك حافزاً للإنسان على التقدُّم في مضمار المدنية ، والاعتماد على العلم ، والتجربة في الحياة اليومية ، فليست حاجة العالم اليوم أن ينتظر وحياً جديداً من السماء فيرفع بصره إليها ، وإنما حاجته اليوم أن يفكر في مواهب هذا الكون وطاقاته التي خلقها الله تعالى ليشغلها الإنسان في صالحه ، ويستخدمها لحوائجه ، كما أنَّ حاجته اليوم أن يفكر في نفسه ، وينظر إلى الأرض لبناء حياة أفضل ، تقوم على أساسٍ من الدِّين والأخلاق. إنَّ

www.abulhasanalinadwi.org

الاعتقاد بانتهاء النُّبوَّة يبعث في الإنسان روح الطموح والتقدُّم ، ويحثه على بذل مواهبه ، ويعين له المجال السليم لكفاحه وجهوده.

لولا عقيدة ختم النُّبوَّة لفقد الإنسان ثقته بنفسه ، وبقي في ريبٍ دائم ، وظلَّ شاخصاً ببصره إلى السماء ، بدلاً من أن ينظر إلى الأرض ، وفقد ثقته بمستقبله ، وثارت شبهاتٌ وشكوكٌ حوله ، ووقع فريسة المتنبئين على الدوام ، ولا يظهر متنبىء يؤكد له «أن الروضة الإنسانية كانت ناقصةً ، فجئت وبلغت إلى كمالها»[١] إلا أنه يضطر إلى اعتقاد أن هذه الروضة إذا كانت ناقصةً إلى الآن فأيُّ ضمانٍ لكمالها في مستقبل الحياة الإنسانية ؟!.

وهكذا يستمر انتظاره لمن يبلغ بهذه الروضة إلى حدِّ الكمال ، دون أن يتمتَّع بأزهارها وأثمارها ، ودون أن يهمَّه سقيها وريُّها.

يقول الدكتور محمد إقبال في كتابه «تجديد الفكر الديني في الإسلام»:

«إنَّ النُّبوَّة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إنهاء النُّبوَّة نفسها ، وهو أمرٌ ينطوي على إدراكها العميق ، لاستحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على مقود يقاد منه ، وأنَّ الإنسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو ، إن إبطال الإسلام للرهبنة ، ووراثة الملك ، ومناشدة القرآن للعقل والتجربة على الدوام ، وإصراره على أن النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية ، كلُّ ذلك صورٌ مختلفةٌ لفكرة انتهاء النُّبوَّة»[٢].

فتنة المتنبئين الكبرى:

لم يُمتحن الإسلام والمسلمون في تاريخ الإسلامِ الطويل بفتنةٍ أعظم وأدقَّ من فتنة المتنبئين ، إلا أنَّ دعوة أكثرهم لم تلقَ نجاحاً يذكر ، وقد ماتت في مهدها ، ولم يبق لها عين ولا أثر ، ولكن الشأن يختلف فيما يختص بمتنبىء شبه القارة الهندية في القرن التاسع عشر والعشرين: المرزا

---

(١) من كلام متنبىء الهند المرزا غلام أحمد القادياني في شعرٍ له.

(٢) «تجديد الفكر الديني في الإسلام» ترجمة عباس محمود. ص/ ١٤٤.

www.abulhasanalinadwi.org

غلام أحمد القادياني (١٨٤٠ ـ ١٩٠٨) لأسبابٍ سياسية اقتضت ذلك[١].

فقد فتح باب النبوة على مصراعيه ، وقال: «إن اتِّباع النَّبيِّ ﷺ يمنح كمالات النبوة ، وإنَّ العناية بذلك والاهتمام ينحت الأنبياء الجدد ويخلقهم»[٢] ، وقال نجله وخليفته المرزا بشير الدين محمود: «لقد اعتقدوا أنَّ كنوز الله قد نفدت ، ما قدروا الله حق قدره ، إنكم تتنازعون في نبيٍّ واحدٍ ، وأنا أعتقد أنه سيكون هنالك ألف نبيٍّ بعد محمَّد ﷺ»[٣].

وقد أحدث ذلك فوضى في النُّبوَّة ، وفقدت كلمة «النُّبوَّة» جلالتها ، وحرمتها ، وقداستها ، وأصبحت ألعوبةً وعبثاً ، وهان على الناس بصفة عامَّة بعد المرزا أن يتنبؤوا ، وما عرفنا في التاريخ الهندي ـ الذي لا يزال محفوظاً إلى حدٍّ كبيرٍ ـ شخصية أنكرت ختم النبوة ، وتجرأت على تأسيس دينٍ جديدٍ ، سوى الإمبراطور «أكبر» غير أنه لم يدَّعِ النبوة كما ادَّعاها المرزا بصراحةٍ وتنظيم ، ولكن المرزا هو أول من فتح هذا الباب بوجهٍ عامٍّ ، ونهض عدد من المتنبئين ، وقد عدَّ منهم الأستاذ محمد إلياس البرني إلى عام (١٩٣٦ م ـ ١٣٥٥ هـ) سبعة ، ولا شكَّ أنه لم يكن إحصاءً دقيقاً ، وإلا فإن قام أحد بإحصائهم بشيءٍ من الاهتمام والدِّقة ، لوجد في نفس مقاطعة «بنجاب» أكثر من هذا العدد بكثير.

وقد احتج على كثرتهم وضعف آرائهم ، وسفاهة أحلامهم المرزا بشير الدين محمود نفسه في إحدى محاضراته ، يقول:

«لقد نشأ في جماعتنا كثيرٌ ادَّعوا النبوة ، وأعتقد أنهم ليسوا في الدعوى كاذبين غير واحدٍ منهم ، وفي الحقيقة أنَّهم ألهموا في أول الأمر ، ولا عجب إذا كان هذا الإلهام باقياً إلى الآن ، ولكن الخطأ الذي وقعوا فيه هو أنهم أخطؤوا في فهم تلك الإلهامات، وأنا شخصياً أعرف بعض هؤلاء ، حتى أستطيع الإقرار بإخلاصهم وخشيتهم لله ، ولا يدري ما في قلوبهم إلا

(١) راجع كتاب العلامة الشيخ الندوي «القادياني والقاديانية» ، طبع دار ابن كثير ـ دمشق.
(٢) «حقيقة الوحي» للمرزا غلام أحمد ص/ ٦.
(٣) «أنوار الخلافة» ص/ ٦٢.

www.abulhasanalinadwi.org

الله ، سوى أنهم كانوا في بادىء الأمر مخلصين ، وكانت بعض إلهاماتهم من الله ، ولكن الذي سبب خسارتهم هو أنَّ حكمتها خفيت عليهم فعثروا»[١] .

فتنة «المكالمات والمخاطبات الإلهية» ورؤية الباري تعالى في الدنيا :

ويعرف المطلع على التاريخ الفكري ، وتاريخ التصوُّف ـ الإسلامي وغير الإسلامي ـ أنَّ الاتصال بعالم الغيب عن طريق الرياضات ، والمجاهدات ، وتلقِّي الإلهام والكلام ، والهتافات والأصوات من هذا العالم ، كان مدخلاً واسعاً للأوهام والمغالطات والتناقضات ، ودخل منه الشيء الكثير من الأضاليل ، والأباطيل عن قصدٍ وعن غير قصد ، كان من الصعب دائماً التمييز بين مصادرها ودرجاتها ، وما هو من الله ، وما هو من الشيطان[٢] ، وما هو نابع عن العادات والمألوفات ، والعلم السائد والثقافة المنتشرة ، والعقائد التي نشأ عليها هذا «الملهم» أو «المحدَّث» أو «المكشوف له» وقد بينَّ علماء هذا الشأن الذين سلكوا هذا الطريق : أنَّ التجرد عن تأثير العوائد والعقائد والبيئة في تلقي هذه «المغيبات» وفهمها يكاد يكون مستحيلاً[٣] .

---

(١) «الفضل» أول يناير ١٩٣٥ م .

(٢) وقد أشار إلى هذا الإمكان الدكتور محمد إقبال الذي كان من كبار علماء الفلسفة في العصر الحديث ، فقال : «إني أعترف بأنَّ مؤسس الجماعة الأحمدية (القاديانية» سمع صوتاً ، ولكن الحكم بأن هذا الصوت كان من عند الله الذي بيده الحياة والقوة ، أم كان مصدره الإفلاس الروحي الذي كان سائداً في الناس؛ وتوقف على هذه الحركة التي خلقها هذا الصوت ، إلى أن قال : فإذاً أعتقد أن هؤلاء الأبطال الذين أسهموا في تمثيلية «الحركة الأحمدية» كانوا ألعوبةً في يد الانحطاط والزوال (حرف إقبال ص/ ١٥٧ ـ ١٥٨). وأبلغ من ذلك ما قاله في البيت : «أعاذ الله من إلهام ملهم نشأ وعاش في حكم أجنبي ، فإنه أضرُّ بالأمم ، وأشدُّ فتكاً بها من الفاتحين الوحوش أمثال «جنكيز» و«هولاكو» .

(٣) لقد شرح الإمام الرَّبانيُّ الشيخ أحمد السرهندي (م ١٠٣٤هـ ـ ١٦٢٤ م) هذه النقطة شرحاً وافياً في بعض رسائله ، وجاء بإشاراتٍ بليغةٍ في هذا الموضوع تقوم على التجربة الشخصية ، والعلم العميق ، والاطلاع الواسع ؛ إنَّه يرى أن العقل المجرد =

www.abulhasanalinadwi.org

وكلُّ من جعل هذه «المكالمات ، والمخاطبات الإلهية» أو رؤية الباري تعالى شرطاً للهداية ، أو للنجاة ، أو لكمال الإيمان(١) وأسَّس على ذلك نبوةً جديدةً ، أو دعوةً جديدةً ، وألزم ما لم يلزم ، وجنى على هذا الدِّين الذي هو عامٌّ للبشر جنايةً عظيمةً ، وأفقده بساطته وسهولته ، وعمومه للبشرية ، وفتح باباً واسعاً للفساد ، والاضطراب ، والفوضى ، كما فعل المرزا غلام أحمد القادياني ، فقد جعل «المكالمات ، والمخاطبات الإلهية» شرطاً لصحة الدِّيانة ، ونتيجةً طبعيةً للعمل بالأحكام الشرعية ، والسعي في العبادة ، وزعم أنَّ الدِّين الذي لا توجد فيه هذه المخاطبات

= والكشف المجرد شيئان يندر وجودهما ووقوعهما ، ومن المصادفة العجيبة والتوارد الغريب أنَّ الفيلسوف الألماني الشهير «كانت» (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) (Emmanual Kant) الذي ظهر بعده بمئةٍ وثمانين سنة أبدى عدم ثقته بالعقل المجرد وقدرته على التعبير والحكم متحرراً عن البيئة والمجتمع ، والتراث ، والعادات ، والمعتقدات (انظر كتاب نقد العقل المجرد (Critic of Pure Reason) وقد تقدم الإمام الربَّاني خطوةً وبحث في قضية الكشف المجرد ، والإلهام المجرد لأنه سار على هذا الدرب ، وجرَّب هذه الأمور بنفسه ، وأهل مكة أدرى بشعابها (اقرأ رسالته إلى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله من أبناء الشيخ الكبير عبد الباقي النقشبندي الدهلوي ـ رقم ٢٢٦ ـ المجلد الأول).

(١) كما فعل ذلك السيد محمد يوسف الحسيني الجونفوري (٨٤٧ ـ ٩١٠ هـ) فادَّعى أنَّ الإنسان إذا لم يسعد بالمشاهدة الإلهية ، ولم ير البارىء تعالى بالعين ، أو بالقلب في اليقظة ، أو في المنام؛ فليس بمؤمن ، وقد أحدث ذلك اضطراباً عظيماً في المجتمع الإسلامي الممتد من شرق الهند إلى غرب أفغانستان في القرن العاشر الهجري ، وأصبح الشغل الشاغل للمسلمين ، العلماء منهم والسلاطين ، وكان السيد المشار إليه صاحب صدقٍ وعزيمةٍ ، واستعداد باطنيٍّ عظيم ، وكان له شأن رفيع في التأثير في النفوس والقلوب ، والدعوة إلى الله ، وإيثار مرضاته على غيره ، والزهد في الدنيا وأسبابها ، والهجرة في الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلا أنه شُبِّه له في فهم ما كان يُكشَف له ، أو يسمعه ، فادَّعى «المهدي الموعود» الذي يظهر في آخر الزمان ، وغلا في دعوته ، واشترط ما ليس بشرط ، وكلف المسلمين بما لم يفرضه الله عليهم ، ولم يطالبهم به (اقرأ ترجمته في الجزء الرابع من نزهة الخواطر للعلامة عبد الحي الحسني).

www.abulhasanalinadwi.org

الإلهية إنما هو دينٌ باطلٌ ، وميِّت ، بل هو دين الشيطان المؤدي إلى جهنَّم ، وإذا كان أتباع دين لم يتشرفوا بهذه النعمة رغم عباداتهم وعلمهم بالأحكام الشرعية ، فإنما هم في جهلٍ وغواية[١] .

وتهافت هذا الرأي ، وسخافته غنيَّةٌ عن الردِّ عليه ، وبسط القول فيه ، وحسب القارئ أنَّ الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ الذين كانوا زرع النبوة وغرس القرآن ، والجيل المثالي في تاريخ البشرية ، وعلى أكتافهم قام الإسلام ، لم يدَّعوا هذه «المكالمات والمخاطبات» ورؤية الباري تعالى بالعين أو القلب ، ولم ينسب التاريخ إليهم ذلك ، ولم يعرف عنهم التنافس فيه ، أو الحرص عليه ، أو التأسف على فواته ، فكيف بمن جاء بعدهم ، ولم يبلغ شأوهم في الدين والعلم[٢] .

وقد لوحظ في التاريخ مراراً أنَّ كلَّ دعوةٍ متطرفةٍ قامت على مثل هذه الدعاوي والافتراضات والتجارب الشخصية ، لم تفد إلا إنشاء طائفة متطرفةٍ تنشقُّ عن المسلمين وتنابذهم ، وقد تكفرهم ، وتتحول على مرِّ الزمان ديانةً مستقلةً ، وتصبح مشكلةً جديدةً في المجتمع الإسلاميِّ والإنسانيِّ تعيي كبار العقلاء والقادة حلها والتغلب عليها[٣] ، ولا تخدم مصلحةً من مصالح الإنسانية ، وإصلاح النفوس ، والدعوة إلى الله[٤] .

الإلهام الجماعي لمصلحة الإسلام والمسلمين :

وقد أكرم الله بنصيبٍ كبيرٍ من «الإلهام الجماعي» الذي لا خطر فيه ولا ضرر ، وهو أن يُلهم عددٌ من أصحاب النفوس الزكية ، والقصد الصالح ، والعلم الراسخ الصواب فيما تحار فيه الألباب ، وتختلف فيه الآراء ، والسعي وراء عملٍ فيه مصلحة الإسلام والمسلمين ، وتقويةٌ

(١) اقرأ كتاب «براهين أحمدية» للمرزا غلام أحمد القادياني ج/ ٥ ص/ ١٨٣ .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب العلامة الشيخ الندوي «القادياني والقاديانية» .

(٣) وقد عالجت حكومة باكستان هذه المشكلة بفصل الطائفة القاديانية عن المسلمين ، واعتبارها أقليةً غير مسلمة ، رسمياً ، وهذا عند كتابة هذه المقالة .

(٤) اقرأ تاريخ الحركات الهدامة في الإسلام وفي الديانات الأخرى .

www.abulhasanalinadwi.org

للدين ، وذبٌّ عن حوزته ، فيشعرون باندفاع إلى القيام بهذا العمل ، لا يستطيعون له قهراً ولا دفعاً ، وكأنهم مضطرّون إلى ذلك ، محاسبون عليه ، فيبذلون في ذلك النفس والنفيس ، ويهجرون في سبيله راحاتهم ، ولذاتهم ، ويرون في تحقيقه أكبر سعادةٍ ، وأعظم لذَّةٍ.

وقد يكون ذلك بعددٍ قليلٍ كما وقع في قضية الأذان لعبد الله بن زيد بن عبد ربه ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فقد توافقت رؤياهما ، ولقِّن كلٌّ واحد منهما كلمات الأذان في المنام ، ووافق عليه رسول الله ﷺ ، واستحسنه ، فشرع الأذان الذي ينادي به للصلاة في العالم الإسلامي اليوم(١) ، وكما وقع في أمر ليلة القدر ، فقد روى الشيخان عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر ، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحرِّيها فليتحرَّها في السبع الأواخر» وقريبٌ من ذلك أمر صلاة التراويح التي ثبت أصلها عن النَّبيِّ ﷺ ، وقد تركها بعد ثلاثة أيام لئلا تفرض على أمته فرضاً ، فتشق عليها(٢) ، وكان المسلمون يصلُّونها فرادى ، فجمعهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عليها ، وكانت إشارة عمر على ذلك إلهاماً من الله ، وتوجيهاً منه ، فكان في ذلك خيرٌ كثير ، وألهم الله المسلمين المحافظة على هذه الصلاة بجماعة ، والحرص عليها ، وختم القرآن فيها ، وكان عاملاً كبيراً من عوامل حفظ القرآن ، والمحافظة عليه ، والسبق فيه ، وإحياء ليالي رمضان ، ويرى الفرق واضحاً بين أهل السنة الذين أخذوا بسنة التراويح ، وبين الطوائف التي أنكرتها ، في انتشار حفظ القرآن ، وتدارسه ، والاهتمام به.

وقد يكون ذلك بعددٍ كبيرٍ ، وجمٍّ غفيرٍ يستبعد العقل السليم تواطؤهم على الكذب ، أو تآمرهم على الشره ، فيعود ذلك على الإسلام والمسلمين بنفعٍ عظيمٍ وخيرٍ كثير ، أو تسدُّ به ثلمةٌ في ثغر الإسلام ، أو يُزال به وهنٌ

(١) اقرأ الحديث الطويل الذي رواه أبو داود ، والترمذيُّ ، والدارميُّ ، وابن ماجه.
(٢) اقرأ ما رواه البخاري ، عن عائشة رضي الله عنها في «باب فضل من قام رمضان».

www.abulhasanalinadwi.org

يدخل على المسلمين ، أو يحقِّق مقصداً من مقاصد الدين العظيمة ، ومن أمثلة هذا الإلهام الجماعي المبارك ، الذي ألهم به عددٌ لا يحصى كثرةً من العلماء الراسخين والعاملين المخلصين جمع القرآن في المصاحف في زمن أبي بكر ، وجمع الحديث وتدوينه في القرن الأول ، والثاني إلى ما بعدهما ، واستنباط الأحكام والاجتهاد الفقهي من القرن الأول إلى عصر المجتهدين وأئمة المذاهب في القرون الأولى ، ووضع علم النحو ، وعلم القراءات ، وأصول الفقه ، إلى غير ذلك من العلوم النافعة الضرورية ، لحفظ سلامة اللغة التي نزل بها القرآن ، وصيانة القرآن من اللحن والفوضى ، وكتأسيس المدارس ، وتأليف الكتب ، وطرق نشر العلم ، وغير ذلك مما اقتضته الأحوال ، واختلاف الزمان والمكان.

وكالعناية بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتبيين غوائل النفس ، ومكائد الشيطان ، والرَّبانية الصَّافية التي لا تشوبها البدع ، حتى أصبح ذلك علماً مستقلاً ، وتخصَّص له رجالٌ بلغوا فيه درجة الاجتهاد ، واعتبروه أكبر عبادةٍ ، وأعظم جهاد ، فأحيا الله بهم موات القلوب ، وشفى بهم أعلاَّء الأرواح ، ونشطوا في الدعوة إلى الإسلام ، فانتشر بهم الدين الحنيف في أنحاء العالم البعيدة ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وكان لهم فضلٌ خاصٌّ في انتشار الإسلام في شبه القارة الهندية (وخاصة في المناطق التي لم يغزها جيشٌ إسلاميٌّ كـ «كشمير» و«بنغال الشرقية») وفي جزر المحيط الهندي ، وقارة إفريقية ، وكان لهم فضل كذلك في مقاومة قوى الباطل وكلمة حقٍّ عند سلطان جائر ، ومواجهة الزحف الأجنبي(١). وكالردِّ على الفرق الضالة ، والفلسفات الإلحادية المثيرة للشكوك والشبه ، الناشرة للاضطراب في العقيدة والوهن في العمل ، وقد تجرَّد لذلك خيار المسلمين علماً وذكاء ، ومقدرةً علميَّةً وقوة إيمان ، فكان كل ذلك إلهاماً من الله ، تُكْرَمُ به جماعةٌ كبيرةٌ من المسلمين في كلِّ دورٍ من أدوار التاريخ الإسلامي ،

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك في كتاب العلامة الشيخ الندوي «ربانية لا رهبانية» طبع دار ابن كثير بدمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

وفي كلِّ مركزٍ من مراكز العلم والحضارة ، فكان دليلاً على عناية الله بهذه الأمَّة التي هي آخر الأمم ، وأمل الإنسانية ، وعلى مكانتها من الله ، وهذا الإلهام الذي لم ينقطع ، والمدد الإلهي الذي لم يتخلف دليلٌ ساطعٌ على ختم النبوة ، وانقطاعها بعد محمَّد ﷺ ، لا يوجد له نظير بهذا الوضوح والاستمرار في الأمم السابقة؛ إذ لم تكن في حاجة إليه ، فقد كانت سلسلة النبوة مستمرةً ، والنبوة باقيةً.

التفريق بين المسلمين:

إنَّ البلبلة الفكرية ، والاضطراب العظيم الذي تحدثه هذه النبوءات الكثيرة المزعومة ، وما يؤول ذلك إلى تفريقٍ بين المسلمين ، وتمزيق وحدة الأمَّة الإسلاميَّة ، يبعث في كلِّ قلب مسلمٍ وحشةً وقلقاً ، ولم يتعود الناس في هذا العصر الذي يتَّسم بسمة اللادينية والإلحاد أن يهتفوا بقولهم: «أنا الحق» ولكنَّه إذا نشأت هنا في العالم الإسلامي «هواية» التنبؤ بتأثير المرزا غلام أحمد القادياني ، ودعاته المتحمِّسين ، وظهر رجالٌ في مختلف أرجاء العالم الإسلاميِّ يرفعون راية «النُّبوَّة» ، ويكفِّرون الذين لا يقبلون دعوتهم كنتيجةٍ حتميَّةٍ للنُّبوَّة ، فلا ينتج ذلك سوى بلبلةٍ فكريةٍ ، وفوضى دينيةٍ ، واصطدامٍ بين الأفكار ، ويتوزع العالم الإسلاميُّ بين معسكراتٍ مختلفةٍ ، وتقع هذه الأمَّة التي جاءت لمحو كل عصبيةٍ من اللون ، والجنس ، والوطن ، وإنشاء الأخوَّة الإسلاميَّة فريسةَ التفريق ، والتكفير ، والعصبيات الدينية[١].

ولقد أحسَّ بخطر القاديانية الأستاذ محمد علي اللاَّهوري[٢] وأبداه في

---

(١) وقد كان العلامة الدكتور محمد إقبال الشاعر الفيلسوف دقيق النظر جدّاً في قوله المأثور: «إننا نعتقد أنَّ الإسلام دينٌ أوحى الله به ، ولكن وجود الإسلام كمجتمعٍ أو أمَّةٍ يتوقف على شخصية محمَّد ﷺ ، واعتقاد أنه كان آخر الرسل ، وخاتم النبيين ، وهو خطُّ التحديد الدَّقيق بين الدين الإسلاميِّ والديانات الأخرى».

(٢) هو أمير الفرع اللاهوري الذي يسمى «الجماعة الأحمدية» اللاهورية وهو صاحب ترجمة القرآن الإنجليزية المعروفة ، وتفسير «بيان القرآن» ومؤلفات كثيرة ، وهو =

www.abulhasanalinadwi.org

إحدى مقالاته بكلِّ قوةٍ ووضوح ، غير أنه يفكِّر أنَّ فاتح هذا الباب إنما هو إمامه المرزا غلام أحمد ، وأنَّه هو أوَّل شخصٍ عرض فكرة استمرار النبوة كحركةٍ ودعوةٍ ، يقول الأستاذ محمد علي يناشد أهل البصيرة والإنصاف :

«وأنشدكم بالله ، إنْ صحَّ الاعتقاد بأنَّ النبوة لم تنقطع وأنَّ الأنبياء لا يزالون في غدوٍّ ورواحٍ إلى هذا العالم ، كما صرَّح بذلك محمود أحمد[١] في «أنوار الخلافة» أفلا تزال هذه الطوائف التي تعدُّ بالآلاف يكفِّر بعضها بعضاً ، وتغيب الوحدة الإسلامية؟ نفرض أنَّ هؤلاء الأنبياء يبعثون في الجماعة الأحمدية (القاديانية) وحدها ، أفلا تمزق بذلك الجماعة الأحمدية نفسها ، إنكم لا تجهلون السنن القديمة ، وتعرفون كيف كان الناس ينقسمون بين موافقٍ ومعارضٍ على مبعث نبي ، إنَّ الله الذي قضى بتوحيد شعوب العالم وأممه ، أيمزق المسلمين ويقطعهم إرباً إرباً ، يكفِّر بعضهم بعضاً ، وتتوتر بينهم العلائق والصلات ، وتصبح الأخوَّة الإسلامية أثراً بعد عين؟ اعلموا إذا كان الله قد وعد لهذا الدين بأن يظهره على الدِّين كله ـ وهو لا يخلف الميعاد ـ فإنَّ الإسلام لا يبتلى بهذه المحنة ، ولا يأتي يومٌ ينفرد كلُّ نبيٍّ بحزبه ، وتتوزع المسلمين دعواتٌ مختلفةٌ ، وراياتٌ مختلفةٌ ، ومراكز روحيةٌ مختلفةٌ ، ويصبح كهنتها محتكرين للإيمان والنَّجاة ، يكفِّرون سائر المسلمين»[٢] .

والحاصل أنَّ عقيدة انتهاء سلسلة النبوءات ، وتعليم البشر العقائد والشرائع عن طريق الوحي والملائكة والروح الأمين ، وما تتوقف عليه نجاتهم في الآخرة ، على محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب العربيِّ الهاشميِّ القرشيِّ ـ عليه ألف ألف صلاة وسلام ـ وانقطاع النُّبوَّة والأنبياء

= لا يقول بنبوة المرزا غلام أحمد ، ويؤول ما صدر عنه من تصريحات في هذا الصدد ، إنما يعتقد أنَّه كان «المسيح الموعود» ، ومجدد القرن الرابع عشر الأعظم ، والمصلح الأكبر. اقرأ لمعرفة آرائه وتأويلاته في القرآن: الفصل الثالث من الباب الرابع من كتاب العلامة الندوي «القادياني والقاديانية».

(١) هو نجل المرزا غلام أحمد القادياني ، وخليفته الثاني.

(٢) رد تكفير أهله قبله. لمحمد علي. ص: ٢٤ .

www.abulhasanalinadwi.org

بعده ، وكونه خاتم الرسل ، وموضح السبل ، وإمام الكلِّ من أجلِّ مواهب الله تعالى ونعمه على هذه الأمَّة ، ورحمةٌ بالإنسانية الممزقة وترفيهٌ لها ، وتوفيرٌ لجهودها وطاقاتها ، من أن تضيع في غير سدىً ، وفيما لم تكلفه ، وجامعةٌ لشمل هذه الأمة المحمَّدية ، حافظةٌ لوحدتها ، وأصالتها ، وقوتها ، باعثةٌ لثقتها بنفسها ، وصلاحية دينها وخلوده ، واعتبارها نفسها مسؤولة عن اتجاه العالم وموقفه ومصيره ، حافزةٌ على الإصلاح والتجديد ، والجهاد في سبيل الله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وهو الأساس المتين الذي يقوم عليه البناء الإسلاميُّ ، كمجتمعٍ وأمَّة ، ورسالةٍ خالدةٍ.

ألدُّ أعداء الإسلام :

لذلك كان ألدَّ أعداء الإسلام ، وأدهاهم ، وأمكرهم ، وأضرَّ على الإسلام والمسلمين ، وأنفع لأعداء الإسلام والكائدين له من ادَّعى نبوةً جديدة ـ في أيِّ مفهومٍ من مفاهيمها ـ أو دعا إليها ، وتولَّى كبرها.

وصدق الله العظيم :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣ ـ ٩٤].

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

مطالبة القرآن الانقياد التّامّ والاستسلام الكامل

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة الصريحة والحديث الأخويّ في مسجد الجوهرة الفسيح في ٢٧/ نوفمبر ١٩٨٨ م بعد صلاة المغرب خلال زيارته لجدَّة ، وقد حضر عددٌ وجيهٌ من الناطقين بالأردوية للاستماع إلى خطاب سماحة الشيخ الندوي ، كانت الكلمة باللغة الأردوية ، فنقلها الأستاذ عبد الله الحسني الندوي إلى العربية بناءً على رغبة بعض الإخوة العرب .

www.abulhasanalinadwi.org

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨ ـ ٢٠٩].

إخواني وأصدقائي! تلوت عليكم آيةً من القرآن الكريم تشتمل على إنذارٍ وتحذير، هل يتصوَّر أحدٌ أن يحارب الله ويعاديه، فما معنى هذا الإنذار والتحذير؟ فهل يقدر عبدٌ من عباد الله على أن يحارب الله؟ ولكن القرآن الكريم قد استخدم كلمةً تتضمن هذا المعنى، وهو ما تقشعر منه الجلود، وتتصكَّك لها الآذان، يقول الله ـ عزَّ وجل ـ وهو خالق الكون، ومالك الملك، والقادر على الإطلاق، والذي أنعم فأجزل على عباده: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨] فإنَّه لا قبل لكم أن تحاربوه، وتبارزوه، وتعادوه.

يتبادر إلى الذِّهن في بادىء ذي بدء أن تستخدم كلمة «الإسلام» في موضع السلم، وهو «ادخلوا في الإسلام كافة» ولكنه أمرهم بالدخول في «السلم» كافَّةً، وهي أن تكون المعاملة مع الله معاملة استسلامٍ، وانقياد، وخضوعٍ كاملٍ، بجميع معاني هذه الكلمات، ومقتضياتها، ومضموناتها: العقائد، والعبادات، والسلوك الفرديِّ والاجتماعيِّ، وجوانب الحياة كلِّها، موافقةً بما جاء بها سيِّد المرسلين ﷺ، من عند الله رب العالمين، ومطابقةً للأوامر الإلهية، والأحكام الربَّانية، ولا تكون العلاقات مبنيةً على الموالاة لأعداء الله، والخضوع لأوامرهم.

إنَّ كلمة الإسلام في اللغة العربية مشتقَّةٌ من «السلم» ومعنى الإسلام هو الانقياد، والاستسلام، والتنازل عن كل شيءٍ في حقِّ الله تعالى، وأوامره، وتعاليمه عن الأهواء، والشهوات، وعن المصالح والأغراض، وعن الشعور بالتمييز بين المنافع والمضار، والاطِّراح على عتبة الأحكام الربَّانية بالانقياد التامِّ والاستسلام الكامل.

www.abulhasanalinadwi.org

أما معنى السلم ، فهو الصلح ، يقول الله عز وجل في موضع آخر: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. وجاء «أسالم من سالم ، وأحارب من حارب» وقد استخدم القرآن الكريم في مواضع مختلفةٍ كلماتٍ تعبِّر عن الرُّعب ، والجلال ، والهيبة ، وتنذر وتزلزل ، يقول عن الربا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩].

وجاء في الحديث القدسي: «من آذى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب» فإنه من المستبعد والمستحيل أن يكون هناك شقي يدور بخلده أن يحارب الله ويعاديه ، ولكن دراسة نفس الإنسان ، وتجارب الحياة الإنسانية ، والأعمال التي تصدر نتيجة لإغفال التعاليم النبوية: تدلُّ على أنَّ هناك إمكانيةً لمثل هذه المعاداة ، فيمكن أن يدَّعى الرَّجل الإسلام ، ويعترف بعبديته ، ثم يعادي ربَّه في بعض أموره ، ويخالفه في بعض أحكامه ، فمثلاً يقيم عبد من عباد الله علاقة العبودية مع الله ـ ولكن بشيءٍ من التحفظ ، ويشرك رضاه وهواه ـ في هذه العلاقة ، أن يشهد أنَّ الله حقٌّ ، وأنَّ الحساب حقٌّ والحشر حقٌّ ، ولكنه يعيش باستقلال وحريَّةٍ في الحياة الاجتماعية ، والأسرية ، وفي الثقافة ، والمبادىء العامَّة ، وفي العلاقات مع الأقارب والأصدقاء ، والمعاملات التجارية ، فلا يقبل الله هذه العلاقة المتحفظة المشروطة فكأنَّ هذه الآية نزلت لإيضاح تلك النكتة ، وفيها عبرةٌ ، وجرس إنذار لأصحاب مثل هذه العلاقة بالله ، إن الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] فإنَّ المشاطرة في هذا المجال غيرُ مقبولةٍ أن يقول القائل: أقبلُ هذا ، ولا أقبل ذاك ، أستسلمُ لهذا ، ولا أستسلمُ لذاك. إنَّ الداخل في المسجد يدخل المسجد بكل جسمه ، وبكل أعضائه ، فإذا قال القائل: إنه يضع قدميه داخل المسجد ، وأما جسمه فيكون خارج المسجد ، أو أنه يطرق رأسه في داخله ، ويبقى جسمه في خارجه ، أو قال: إذا أمرتني بالقيام فعلى الرأس والعين ، ولكن لا يمكن لي الركوع ، والسجود ، فإني أرى فيه إهانةً للإنسانية ، وأشعر بالخيبة والفشل ، وتنازلاً عن الاعتزاز ، والثقة بالنفس ، فإن هذه العبادة

www.abulhasanalinadwi.org

لا تستحقُّ أن تسمَّى بالصلاة ، بل هي كلمةٌ فيها كفرٌ ، وجحودٌ ، وطريقةٌ فيها طغيانٌ ، وبغيٌ .»]

عفواً لو توقعتم أني سأتلو عليكم البشائر ، أو أقصُّ عليكم حكاياتٍ رائعةً للسَّلف ، أو أبين أمامكم أموراً تطمئنون إليها ، وترتاحون بها؛ فإنَّه من مواضع الضعف ، إننا نحن المسلمين تعودنا الطمأنينة والتزكية لتلك الحياة التي نقضيها في هذه الأرض المقدَّسة ، نريد أن نسمع كلماتِ التهنئة ، والتقدير ، والغبطة ، وإنَّ آذاننا تصغي إلى أصوات الترحيب من كل جانب ، نريد أن نسمع : يا مرحباً! يا مرحباً ، يا للسعادة!! ندعو الله أن يرزق لكم الدوام والهناء في هذه الأرض المباركة ، فأنتم قد حالفتكم السَّعادة ولا شكَّ في هذه السعادة .

وقد تمنى آلافٌ من الأولياء المقبولين أن يُصَلُّوا في الأرض المقدسة ، ويتشرَّفوا بزيارتها .

إنَّ الإمام الهمام المجاهد الكبير الذي اعتنق على يديه أربعون ألف شخصٍ الإسلام ، وبايع على يديه المباركتين ثلاثة ملايين شخص مباشرةً ، وعاهدوا على اتباع الشريعة ومجانبة الكفر ، والشِّرك ، والبدع ، وعلى الجهاد في سبيل الله ، وأما الذين بايعوا على يدي تلاميذه وخلفائه ، فلا يعدُّ عددهم ، ولا يحصى ، ولا يعلمهم إلا الله ، ولم يكن له نظير في الدول الأخرى في التأثير والكمالات العملية والعلمية ، وقد وصل آلافٌ مؤلفةٌ من العلماء وعامَّةُ الناس إلى المراتب العليَّة ، والمقامات الرفيعة على يديه ، خلال رحلته الأولى للحج والزيارة ـ وكانت الرحلة في تلك الأيام بالسفن الشراعية ـ خاطبه أحد رفقائه ، بقوله : هذه جزيرة العرب ، هذه هي النخلة تبدو من بعيد ، وأومأ إليها ـ لا يعرف أحدٌ أي موضع كان ذلك الموضع من جزيرة العرب ، وكم كان بعيداً عن تلك البقعة المباركة التي أصبحت جزيرة العرب من أجلها محببةً لدى النفوس ، وأثيرة في القلوب ـ فعيل صبره بعد سماع هذه الكلمات ، وخرَّ لله ساجداً ، وركع ركعتين ، شكراً لله تعالى ، وكان على الوضوء ، ثم قال : الشكر لله الواحد الأحد الصمد الذي أكرمنا

www.abulhasanalinadwi.org

بزيارة هذه الأرض المقدسة ، وقد انتقل إلى رحمة الله كثيرٌ من العبَّاد والزُّهاد وبقيت الأماني في قلوبهم لزيارة هذه الأرض المقدسة كما كانت ، ولم تتح لهم فرصةٌ لوضع أهداب العيون على أراضيها الطاهرة وغسلها بدموعهم الحارَّة ـ فإنكم تقولون لو بشرَّتنا ورحَّبْتَ بنا ، ودعوت لنا ليطول بنا القيام في هذه الأرض المقدسة لكان أفضل من أن تنذرنا ، وتخوفنا ، وتتلو علينا مثل هذه الآية التي يخاطب الله عز وجل بها المؤمنين بأنَّ أمرنا ليس كأمر السلاطين والملوك في الدنيا الذين يقتنعون بشيءٍ من المكوس التي تؤدى إليهم ، وبشيءٍ من التوقير والتبجيل الذي يسدى إليهم من رعاياهم ، وبشيءٍ من الخضوع الذي يكون لأبهتهم الملوكية ، ولكن الله الغنيَّ القويَّ العزيز ، خلق هذا الكون ، وقدَّر المقادير والآجال ، وبيده الأمر كله من إنشاء المرض والصحة ، وإيصال النفع والضرر ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

والتاريخ يشهد بأنَّ الحكومات التي طبق صيتها الخافقين ، والتي يتفاءل بأربابها؛ الذين بهم ينقلب التراب تبراً ، وفي ظلالهم ينقلب الشؤم تفاؤلاً وسعداً ، غربت شموسها طرفة عين ، وجعل الله عزَّ وجل هذه الشموس آفلةً لم تطلع بعد على مرِّ الدهور والأعصار ، إنَّ تاريخ روما الكبرى يشهد كما جاء في كتاب جبون (GIBBON) «زوال وسقوط روما» (DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE) كيف كانت هذه الدولة ، وكيف كانت عظمتها وهيبتها على النفوس ، سقطت كما تسقط أوراق الخريف .

اقلبوا صفحات تاريخ الدولة الساسانية ، كيف كان عهد مجدها ، وتقلُّب ملوكها في البلاد ، ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ : ١٩] .

يقول الله تعالى : إنَّه لا يجدر الاكتفاء بالصَّلاة والسجدة لله ، وبذكر اسمه تعالى فقط ، حتى تظنَّ أنَّ الله لا يسأل عن الأمور الأخرى شيئاً ، فإنه يتحتَّم عليك أن تدخل في العبودية الكاملة لي من غير استثناء ، ولا يقبل أن تقول : إنَّ هذا لي ، وهذا لك ، إنما لي كل شيء ، إن مالك وعرضك ،

www.abulhasanalinadwi.org

صحتك وجسمك ، رأسك وبدنك ، إيمانك وإسلامك ، وفاءك وفداءك ، كله من حقوقنا ، فإنّه لا طاعة لأحدٍ إلا لله ، وبما شاء الله .

تتضمَّن هذه الآية التي تلوتها أمامكم إنذاراً شديداً وتحذيراً عنيفاً ، ولا أدري هل تتاح لي فرصة أخرى للّقاء بكم فأبين ما يلقي الله في قلبي عن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]. فإنَّ كلمة «كافة» كلمة شاملةٌ جامعةٌ ، أي استسلموا لأوامره كلِّها ، برمَّتها ، واستسلموا أنتم جميعاً كذلك له ، فلا يمكن أن ينقاد أحدكم ، ولا ينقاد الآخرون ، أو أن يطيع أحدكم في بعض الأمور ، ويعصيه في أمورٍ أخرى ، بل كلُّكم لنا ، وكلُّ مالكم لنا ، فأطيعوني إطاعةً كاملةً ، فتكون عقائدكم موافقةً بما جاء به الله ورسوله موافقةً تامَّةً بدون أيِّ انحراف ، أو عدول ، فليس لأحد الأمر في هذا الكون؟ ألا له الخلق والأمر ، واعلموا أنَّه بيده الخلق والأمر ، والصحة والمرض ، وبيده الرزق ، والقوة ، وهو المعزُّ ، وهو المذلُّ ، وهو الرزّاق ، وهو الذي يؤتي الملك والقوة ، والغنى ، بيده الخير كلُّه ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، لا شريك له في خلقه وأمره ، وفي ملكه ، لا نبيَّ ولا وليَّ ، وهو القادر على الإطلاق ، ولا يجرؤ على الشفاعة عنده أحدٌ إلا بإذنه ، وكذلك يجب أن تطيعوا الرسول ﷺ طاعةً كاملةً ، فالذين يطيعونه في أمورٍ ويعصونه في أمورٍ ، فإنَّهم ليسوا من المطيعين للرّسول في نظر القرآن ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. فإذا عُرف بسندٍ صحيح ، وطريقةٍ صحيحةٍ معتمدةٍ أنَّه قَوْلُ رسول الله ، وفيه رضاه ، فلا خيار لأحدٍ فيه ، ولا حرية ، ولا تردُّد فيه ، إلا أن يُطاع الرسول ﷺ ويُتَّبع قوله ، ويؤخذ به ، ويعضَّ عليه بالنواجذ .

اسمحوا لي ، ودعوني أتحدَّث بصراحةٍ ، فإني كطائرٍ وقع على شجرة طور ، ثم طار ، فسأطير غداً إن شاء الله تعالى ، وإني لم آتكم متجسساً ولا منقِّباً عن المساوىء للمجتمع هنا ، ولكني لست بعيداً عن تيار الحياة ، وإنما أطلع على ظروف المسلمين ، وأحوالهم هنا ، وأتابع التيار الذي يجرف هنا ، ولقد شاهدت أن العقائد سليمةً صحيحةً ، ووجدت مواظبةً

www.abulhasanalinadwi.org

على الصلوات والفرائض ، ولكن المجتمع مع الأسف الشديد يميل إلى الفساد ، وأصبحت الحياة المنزلية معاكسةً للإسلام ، كلُّ بيتٍ مؤثثٌ بغاية من الإسراف والتبذير ، والترف والبذخ ، وبالأمتعة المسلية الملهية كالفيديو الذي أصبح الشغل الشاغل ، وحديث المحافل ، إننا نحن المسلمين مؤمنون في المساجد لا شك ، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئاً عن المساجد ، وهي بيوت الله .

ولكن يا إخواني! إنَّ المسلم لا يكون فقط مسلماً في المسجد ، إنَّ المسلم يعيش مسلماً في بقاع المعمورة وأرجائها ، في برِّها وبحرها ، وفي قمرها إذا وصل ـ وقد وصل إليه بعلم الله وتيسيره للإنسان ـ هو عبدٌ من عباد الله ، وقد أجمع العلماء على أنَّه لا يسقط التكليف عن أحد ، ولا عن الأنبياء والمرسلين ، والتكليف معناه: اتِّباع الأمور الشرعية ، ورعاية حدودها ، وجاء في الآية الكريمة ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] وقد أجمع المفسرون على أن اليقين هو الموت ، فواظب الرسول ﷺ وداوم على الصلوات إلى حين وفاته ، وكان لا يزال يسأل ـ ﷺ ـ هل صلى الناس؟ قيل: يا رسول الله ، هم ينتظرونك ، فقال: ضعوا لي ماءً في المخضب ، ففعلوا ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال: أصلى الناس؟ قالوا: لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله! والناس عكوفٌ في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلِّي بالناس ، ثم صلَّى الرسول ﷺ نفسه ، وقد ثبت سؤاله في هذا الوقت ووصيته بالصلاة ، وبالعبيد ، وبالأنصار ، ثم كانت آخر كلمةٍ تكلَّم بها رسول الله ﷺ : «اللهم الرفيق الأعلى!» .

وقد بلغ بنا نحن المسلمين الحال إلى أنَّ العقائد إذا كانت صحيحةً وسليمةً؛ كانت العبادات ناقصةً سقيمةً ، وإذا سلمت العقائد وصلحت العبادات كلتاهما ، كانت في المعاملات خنادق كبيرة ، ليست ثلمةٌ واحدةٌ ، ولا خللٌ بل خنادقُ ، وفجواتٌ ، وخلجان هائلةٌ .

قلت خلال محاضرة لي في الشارقة : أنتم أعرف بهذا الخليج الذي

www.abulhasanalinadwi.org

تعيشون على ساحله بالنسبة إلى الآخرين ، ولكنكم لا تعرفون إلا نوعاً واحداً من الخلجان ، وهو هذا الخليج الذي يفصل جزيرة العرب عن إيران ، وبينهما ماء ، لكنْ هناك خليجٌ آخر أكثر خطراً ، وأطول مدىً ، وأشدّ عمقاً من خليجكم وهو الخليج الذي وقع بين الإسلام والمسلمين ، وأنَّ هناك خلجاناً وفجواتٍ بين الإسلام والمسلمين في العقائد والعبادات ، (فكم من المسلمين الذين ينطقون بالشهادتين، ولكن لا علاقة لهم بالصلوات ، ومنهم من إذا صلحت عقائدهم وعبادتهم، ولكنهم يخرجون المعاملات، والأخلاق والمثل عن حياتهم ، يكذبون ، ويخونون ، ينقصون المكيال والميزان ، يغشُّون ، ويحلفون الزور لترويج متاجرهم ، وسوقهم ، ويغتصبون حقوق الآخرين، فلا يأخذهم الحياء ، ولا الغيرة؛ لأنهم لا يعدُّونها من الدين؟!).

وكم منهم من لا يرعى حقوق الوالدين ، ويدوس حقوق الأهل والعيال ، ولا علاقة لهم بالجيران ، فلا صدق في قولهم ، ولا حلاوة في لسانهم ، يشكوهم من يسكن حولهم من الجيران ، أو الأقل لا يشكرهم لأجل صنيعهم.

وكم منهم من لا يفرِّق في السياسة والمعاملات بين عدوِّ الله وخليله ، ولا يميِّز بين الخير والشر ، ولا بين الصالح والفاسد ، ولا بين المتدين والملحد ، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣] أي: لا تميلوا إليهم ، وقد استخدم القرآن لفظ الركون ، وهو أدنى الميل ، فضلاً عن الموالاة والمناصرة ، فلا تركنوا ، ولا تميلوا إلى الذين جعلوا الظلم شعارهم ، وتخطَّوا حدودهم ، وجاوزوا خطَّ الاعتدال ، وداسوا كرامة الحقوق ، وجعلوا الدنيا أكبر همِّهم ، ومبلغ علمهم ، وتجرَّدت قلوبهم من خشية الله ، وهم أصبحوا عبيد المال والثروة ، عبيد الدرهم والدينار ، عبيد القطيفة والخميصة ، عبيد الجاه والمنصب ، ولا يهمُّهم إلا شأنُهم ، إنَّ كلمة «ظلموا» تشمل هذه الأمور كلَّها ، ولعلَّ هذه الآية تكون جديدةً في حقِّ بعض المسلمين ، إنَّها لم تنهانا عن المبايعة على يديهم والخضوع أمامهم ، بل نهتنا عن الركون ، والميل القليل إلى هؤلاء الذين جعلوا الظلم سمتهم وشعارهم.

www.abulhasanalinadwi.org

فكم من المسلمين من يعتبر هذه الأمور جزءاً من الدين ، إنهم يقولون : إنَّ هذه الأمور من الحياة ، ولا علاقة لها بالدين ، فهات ما عندك من نصائح دينية ، ولو تكرهت ببيان ما هو الأجر والثواب في قراءة هذه الأوراد ، أو تلك وهذه الأدعية؛ لكنت جديراً بها ، وأطعناك فيها ، أمَّا مظاهر الحياة والسلوك فنحن أحرارٌ فيها ، نفعل فيها ما نشاء ، لا نفكر بما يلحق الضرر بنا ، أو بديننا إذا قمنا بموالاته ، ولا نكترث بما يأتي به التعسير في سبيل الدين ، أو يحدث نقصٌ فيه إذا قمنا بمعاداته ، فإننا نزعم أنَّه لا علاقة لهذه الأمور بالدين .

إخواني! نحن عباد الله في الأمور كلها ، فينبغي لنا أن نكون ممتثلين للأوامر الإلهية ، ومتمسكين بها كلِّيَّاً ، وكذلك يجب أن نكون مهتمِّين بإخواننا المسلمين ، وأن ندعو لعلوِّ الإسلام وغلبته في العالم ، وننصره بفكرنا وجهدنا ، فلا يجدر بنا أن نكون من العباد الزاهدين ومن المتدينين المتشرِّعين من غير الاهتمام بأمر الإسلام والمسلمين ، فلا يهمُّنا أمر المسلمين أيـن يذهبون ، وأيـن يروحون ، وكيف يمتحن الإسلام ، وما هي القضايا التي يعانـي منها المسلمون ، وما هي الدول التي أصيب فيها الإسلام بالانحطاط؟ وقد جاء في الحديث : «من لم يهتمَّ بأمر المسلمين؛ فليس منهم» ، «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى» .

ولقد وسع الله الرزق وأنعم على هذه البلاد ، بارك الله فيها فلا أغتبط فيها ، ولكن يجب عليكم أن يهمَّكم أمر المؤسسات في بلدانكم التي تنحدورن منها ، وأمر الأمَّة الإسلامية التي تتوجَّع لأجله ، إنكم تقدرون على أن تحسُّوا تلك الحرارة التي اشتعلت في هذه البلاد ـ بما فيها باكستان والهند ـ وأنتم أبناؤها وأفلاذ أكبادها ، ولو رحل إليها عبدٌ من عباد الله الذي رزق فهماً سليماً ، وإدراكاً صحيحاً ليحسَّ تلك الحرارة في ذلك الجو الذي قام فيها الدعاة إلى الله كالشيخ معين الدين الجشتي ، والشيخ قطب الدين

www.abulhasanalinadwi.org

بختيار الكاكي ، والشيخ عبد الباقي بأنفاسهم الطيبة ، ويشعر بندى دموعهم الطاهرة في تلك الأرض وإن كانت في داخلها ، وأن شجرة الإسلام التي نراها قائمةً على قدمٍ وساقٍ ، تورق ، وتثمر رغم المراحل الصعبة ، والعقبات التي اجتازتها ، ترجع إلى هؤلاء الدعاة المصلحين ، ونحمد الله عز وجل على بقائها وازدهارها ، لا بدَّ أن توجهوا اهتمامكم إلى قضايا بلادكم الإسلامية ومؤسساتها الإسلامية ، وأن تفكروا في مسألة الجيل الناهض ، وبقائه على إسلامه ، وإذا دبرتم خطَّةً لصيانة أولادكم وهيَّأتم لهم الجو اللائق فنهنئكم ، ونرحب بكم ، ولكن لا ينبغي لأحدٍ أن ينسى مولده ، ووطنه ، وأقاربه ، وذويه .

نشكر الله عز وجل وهو الرزاق ذو القوة المتين يرزقكم هنا ويرزقهم هناك ، وهو قادرٌ على أن يرزقهم أكثر منكم ، وقد هيَّأ لكثيرٍ من سكان تلك البلاد أضعافاً مضاعفة ، فلا ألفت أنظاركم إلى منظمةٍ ، أو مؤسسة معيَّنة للدَّعم ، ولكن يجب عليكم أن توجهوا اهتمامكم إلى تلك الملَّة الإسلامية التي تعيش في أوطانكم وإلى إيمان النشء الجديد ، وأن تهتموا بما يحيط بها من تحدِّيات ، ويخطط لها من برامج يشاهدونها على الشاشة ، فإنَّ مسلسلات رامائن استمرت شهوراً ، وقد أخبرني شاهد عيان أنَّه رأى في مدرسةٍ أنَّ المصاحف بقيت مفتوحة وهي موضوعة على كراسيها ، والطلبة غائبون ، وعندما سئل أساتذتهم : أين ذهب الطلبة؟ قالوا : اليوم يوم الأحد وهو موعد الرواية المسلسلة لرامائن ، هذه قصة ولاية «بيهار» التي أنجبت العلامة محب الله البهاري[١] الذي كان رأس العلماء ، وأستاذ العلماء ، وإمام العلماء ، وكم أنجبت هذه الولاية من العلماء الربَّانيين !

لا بدَّ أن يكون اهتمامكم ببلادكم اهتماماً فكرياً ، لا أقول أن يكون هذا الاهتمام اهتماماً اقتصادياً فحسب ، بل يكون عقليّاً ، وتكون قلوبكم متألمةً

---

(١) مؤلف كتاب «مسلم الثبوت» في أصول الفقه ، «وسلم العلوم» في المنطق ، وقد عكف علماء الهند على تدريسهما وشرحهما ، واعتنى علماء الأزهر بكتاب «مسلم الثبوت» تدريساً واستفادةً.

www.abulhasanalinadwi.org

على الأحوال والظروف ، هل يبقى النشء الجديد على الإسلام أم لا؟ إنَّ هذه الأرض قد أنجبت مجددين للدين لم تنتفع بهم الهند فحسب ، بل نفع الله بهم العالم ، أستطيع أن أقول في ضوء التاريخ : إنَّ الإمام الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي ، المشهور بمجدد الألف الثاني بلغ نفعه إلى تركيا ، ولم يزل تلاميذ تلاميذه موجودين فيها ، سافر الشيخ خالد الرومي إلى دهلي ـ وقد قيد قصته ـ فيقول : إني سألت القافلة التي جاءت من الهند حينما كنت في مكة المكرمة أيام الحج ، عن الشيخ الكبير غلام علي النقشبندي ، فأبدوا عدم معرفتهم ، فقضيت العجب منهم على أنهم لا يعرفون مثل هذا العالم الرَّبَّانيِّ الجليل ، فسافر إلى دهلي ، وأقام عنده مدَّةً من الزمن ، وقرض قصائد مدحية له في العربية والفارسية ، ورجع من الهند بعد إكمال مقصده وبغيته ، فاستقبلته بلاد العراق على بكرة أبيها ، وتقاطر العلماء عليه كتقاطر الفراش والهوام على النور للحصول على تلك السعادة التي أتى بها من الديار الهندية ، والاستنارة بذلك النور الذي اكتسبه فيها ، وساقه إلى بلاده ، هذه هي بلادكم ، فلا تغضّوا البصر عنها .

إخواني! إنَّ من أولى الأوليات أن تكون ثقتكم قويةً بأن هذا الدين كاملٌ عقيدةً ، فاستمسكوا بها ، لأنَّ الانحراف عنها كالارتداد عن الدين وواظبوا على تلك الفرائض المعينة؛ لأنه لا تكون الشقاوة أكثر منها من أن تقيموا هناك من غير أداء الصلوات ، والمواظبة عليها ويتحتَّم عليكم كذلك أن يكون مجتمعكم إسلاميّاً حتى لا يكون من المعقول أن تقيموا في هذه الأرض المقدَّسة ، ويجري التلفزيون في بيوتكم كلَّ وقتٍ يراه أولادكم في أوقات الصلوات ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان : ٦] يبدو أنَّ القرآن ترك هذه الأسماء : الفيديو ، والتلفزيون لأنَّه في لسانٍ عربيٍّ مبينٍ لا يمكن الإتيان بكلمة إنجليزية ، لكن من الإعجاز القرآني العجيب أن الكتاب الذي نزل قبل أربعة عشر قرناً أشار إلى ما ينطبق على الجهاز المستعمل اليوم ، ولو قلت : إنه يعني الفيديو ، والتلفزيون؛ لما أخطأت ، لأنه قال فيه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾ . [لقمان : ٦] فإنَّ المتذوقين باللغة العربية وبلاغتها في كلِّ

www.abulhasanalinadwi.org

بلد يتذوقون بـ «لهو الحديث». إنَّ الذوق الأدبيَّ يسوق إلى آفاقها، وأبعادها، فإنَّه يصعب علي أن أترجم هذه الكلمة إلى اللغة الأردية بالضبط، رغم كوني من أبنائها وأصحابها، ما هي وظيفة الفيديو، والتلفزيون، وما يشغلهما؟ إذا كان أحد يعجبه اللعب يشتريه، فهل لا تدخل فيه هذه الأجهزة، الفيديو، والتلفزيون، التي قيل لها «لهو الحديث»، ولو ادعيت أنَّ القرن الأول، والثاني إلى السابع والثامن، حتى لو قلت إنَّ ذهن أكبر عالم في العصر الماضي لم ينتقل إليه؛ لما أخطأت.

وهذا من الإعجاز القرآني، ما هو «لهو الحديث»؟ هذه المسلسلات المرئية، والتصاوير الناطقة، والأصوات المسجَّلة كلها من «لهو الحديث» هل كان في استطاعة أحدٍ أن يتصور قبل أربعة عشر قرناً مثل هذا الجهاز حينما لم يحلم به أحدٌ فضلاً عن اختراعه وإبداعه، ولكن كتاب الله قد قال إنَّ هناك رجالاً يشترون «لهو الحديث» وهو اللهو الذي لا يحصل للإنسان، ولا يملكه إلا بالشراء، وبذل النقود.

إخواني! قوا أنفسكم وأهليكم منها، وصونوا بيوتكم على الأقل، يجب أن تكونوا مسلمين كاملين في الإسلام عقيدةً، وسلوكاً، وإذا ما بلغتم الكمال هنا، فمن أين يأتي إليكم الكمال؟ وأقول بصراحةٍ بعد طلب العفو منكم: إنَّكم إذا رجعتم إلى الهند في إجازةٍ، أو إلى أوطانكم شهد غير المسلمين على أن الذين جاؤوهم قادمون من بيئةٍ صالحةٍ مباركة، لأنَّ سيماهم في وجوههم من النور، وحلاوتهم في نطقهم من العسل، والاحترام والحرمة في عيونهم من الحياء والحشمة؛ لأنهم جاؤوا من الجزيرة العربية، لا أن يعرفكم هؤلاء، ويميِّزونكم من غيركم أنَّكم جئتم بالعفش الثمين الزائد، والكماليات، والتُّحف، فيتبعوكم لاختطافها منكم، لأنها ذات قيمة، وتجذب الأنظار، فإذاً لا بدَّ أن يعرفكم هؤلاء بسيما وجوهكم، وآثار سجودكم، ونور جباهكم، وحلاوة نطقكم، ونصحكم، وأناتكم، لا من ملابسكم وشنطكم، ولا بدَّ أن تتغير أجواء بيوتكم، ويتأثَّر بكم أهلكم، وعيالكم حتى تجري فيها تلك السنن النبوية التي لم تكن باقيةً فيها، وأن تتلى فيها الآيات القرآنية التي لم تكن البيوت

www.abulhasanalinadwi.org

متعودةً عليها حتى يقول هؤلاء : إن أولئك جاؤوا من مكة ، ومن المدينة ، ومن الأرض المقدسة ، فلا تشتغلوا بالراديو ، والتلفزيون ، لا أن يقول هؤلاء : إن رجالاً جاؤوا من مكة والمدينة ومن عادتهم مشاهدة التلفزيون ، فافتحوا أمامهم الفيديو ، والتلفزيون ، فإنَّه لا يليق بكم ، ولا بشأن هذه الأماكن المقدسة ، بل هو انتهاك لحرمتها ، وحطٌّ من شأنها ، ونيلٌ من كرامتها ، فإنَّه أحرى بكم أن تزيلوا هذه المنكرات الشائعة حتى يستحيوا منكم ، فلا يشتغلوا بهذه الأمور .

وحيثما رحلتم ، فكما أنَّ النور يبدِّد الظلمات وتتقشع السُّحب الكثيفة به ، تظهر صوركم كالأضواء النَّيِّرة في بحر الظلمات ، لا بدَّ أن تتغير حياتكم قبل الرحيل من هذه الأماكن المقدسة .

فهل عرفتم كم من الناس دخل في الإسلام بعد صلح الحديبية في أربع سنوات ما بين فتح مكة وحجة الوداع ، يقول الإمام الزُّهري : إنه لم يسلم في مكة المكرمة في ثلاث عشرة سنة وفي المدينة المنورة في عشر سنوات مثلما أسلم في فترة صلح الحديبية ، فيبين سبب هذا الإسلام أنَّ الباب فتح عليهم بعد صلح الحديبية ، فجاء رجالٌ من قريش من مكة إلى أقاربهم في المدينة المنورة ، فشاهد أهلهم لياليهم ، فتحيَّروا ، وقالوا : إنهم في عالم غير ذلك العالم ، إنَّهم يستيقظون مبكرين ، ومعهم صبيانهم لا يعرفون اللغو فضلاً عن الكذب ، لا ينطقون إلا بذكر الله ورسوله ، إنهم يطعمون أضيافهم إيثاراً ، وينوِّمون أطفالهم جائعين ، فتسارعوا إلى الإسلام؛ لأنَّهم شاهدوا صورة الإسلام النَّيِّرة بأمِّ أعينهم .

إخواني! يجب أن ينتشر بكم الإسلام في أوطانكم وإذا قمتم لهم بالمراسلات الخطابية ، وبالعلاقات الأخرى ، أو قابلتموهم بالذهاب إليهم ، فكان وقعكم عليهم طيِّباً ، يظنوا أنكم جئتم من تلك البلاد ببركاتٍ ورحمات ، ورافقتكم نفحاتها الطيبة المباركة .

لا أريد أن أطيل عليكم ، فينبغي أن ترتسم هذه الآية الكريمة على ألواح قلوبكم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ

www.abulhasanalinadwi.org

ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨ ـ ٢٠٩] إنَّ القرآن الكريم أتى بلفظ «خطوات» جمعاً، ما يشير إلى كثرتها، فتشمل الأمور الاعتقاديَّة، والتعبديَّة، والأخلاقيَّة، والثقافيَّة، والسياسيَّة، ولو كان مجتمعنا خالياً عن هذه الأمور لما وقع الفساد والفوضى الذي يقع في كثيرٍ من المجتمعات، لأنَّه لم يبق فرقٌ بين الصَّالح وغير الصالح، وبين التديُّن وغير التديُّن، وبين أن ينهج المنهج الشرعيَّ، وينهج المنهج غير الشرعيِّ.

وفقكم الله لما فيه خيركم، ويتقبل منكم، وينعم عليكم بأفضاله وبركاته، ويرزقكم أن تذهبوا بهذه الأفضال والبركات إلى بلادكم التي ثبت حقُّها عليكم، وسيدوم هذا الحقُّ، وإن استوطنتم مكاناً آخر، وبلداً بعيداً.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

أهميـة الـحضـارة فـي تـاريـخ الـديـانـات
وحيـاة أصحـابهـا

هذه المحاضرة ألقاها العلامة النَّدوي في دار الإمارة بالفجيرة (الإمارات العربية المتحدة) في ٢١/ يناير ١٩٧٩ م ، وقد حضرها صاحب السموِّ نائب الحاكم ، وعددٌ كبيرٌ من العلماء والوجهاء .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

سادتي ، وإخواني! إنَّ كثيراً من الناس الذين لم يتعمَّقوا في دراسة علم النفس الإنسانية والفلسفة الاجتماعية ، وتاريخ الحضارات والمدنيات يعتقدون أنَّ الدِّين محدودٌ في إطار العقيدة ، فالدِّين ـ كما تقول الفلسفة الغربية النصَّرانية؛ التي خضعت لعوامل تاريخيةٍ قاهرةٍ متنوِّعةٍ ـ «قضيةٌ شخصيَّةٌ ، وهو علاقة العبد بربه لا غير» فالإنسان هو متديِّن إذا وقف أمام ربه في معبدٍ من معابد الدُّنيا ، أمَّا إذا خرج من هذا المعبد ، أو إذا تحرَّر من هذه البيئة ؛ فإنَّه حرٌّ يتصرَّف كما يشاء ، إنَّه تفسيرٌ خشيب للدِّين ، لا صلة له بالحياة المتنوِّعة ، الحياة المتأثِّرة المؤثِّرة في وقتٍ واحدٍ ، فإذا لم يكن للدِّين غير هذا المعنى ، وإذا لم يكن للعقيدة غير هذا التفسير ، فهذا الدِّين هو دينٌ محدودٌ مؤقَّتٌ ، وليس هنالك خيطٌ يربط الإنسان بالخارج ، بالعالم الفسيح الواسع ، الجميل الزاهي ، الحيِّ المتدفِّق بالحيوية ، الذي يعيش فيه ، هذا التفسير للدين ـ كما قلت ـ هو تفسير غربيٌّ خاضع لعوامل كثيرةٍ ، فُرِضت على العالم الغربيِّ بحكم طبيعة الدين الذي كان يدين به ، وطبيعة المكان الذي كان يعيش فيه ، وطبيعة الأحداث التي تفاعلت في تكوينه ، وفي تنميته ، وحتى في تفكيره .

ولكن الدِّين الذي نزل من السماء ، ونزل به الروح الأمين على قلب محمَّد عليه الصلاة والسلام أخيراً ، الدِّين الذي ختم الله به الأديان كلَّها ، والرسالة التي ختم الله بها الرسالات كلَّها ، هو دينٌ متَّصلٌ بالحياة ، لا يمكن أن ينقطع عن الحياة ، وتستغني الحياة عنه ، إنَّه دينٌ لا يعيش مع الحياة فحسب ، بل يسيطر على الحياة ، إنَّه ليس ظلاًّ للحياة ، بل يجب أن

www.abulhasanalinadwi.org

تكون الحياة ظلاًّ له ، وامتداداً لعقيدته ، وتطبيقاً لتفسيره لهذا الكون ، فالدِّين الذي يضيِّق نفسه ـ وبتعبيرٍ أصحّ : يضيِّق أهله ـ في قفصٍ من طقوسٍ وتقاليد دينيةٍ ، وفرائض وواجباتٍ شرعيةٍ ، إنَّه دينٌ هزيلٌ شاحبٌ ، قد فقد الحيويَّة ، إنَّه دينٌ لا جاذبيَّة فيه ، إنَّ الدِّين وثيق الصلة بالحضارة ، فلا بدَّ أن يكون هنالك انسجامٌ وتجاوبٌ بين ما يعتقده الإنسان ، ويؤمن به ، وبين الحياة التي يعيشها ، فإذا كانت هنالك فجوةٌ بين العقيدة وبين الحياة ـ الدِّين والعقيدة في وادٍ ، والحياة في وادٍ ، فإنَّه دينٌ لا سيطرة له على الحياة ، أمَّا الدِّينُ الحيُّ ، الدِّين السماويُّ ، فهو الدين الذي يسيطر ولا يسيطر عليه ، ويحكم ولا يحكم عليه ، الدِّين الذي يسود ، ويقود ، لا الدِّين الذي يقاد ، ويفسر كما يشاء الإنسان ، الدِّين الصحيح هو الذي يسبك الحياة سبكاً جديداً ، ويتحكَّم في الحياة ، يقول : هذا خالصٌ ، وهذا زائفٌ ، هذا حلالٌ ، وهذا حرامٌ ، وهذا صوابٌ ، وهذا خطأٌ .

أمَّا الدِّين الإسلاميُّ ؛ فأمره أوضح من أمر غيره ، هذا الدِّين هو صبغةُ الله التي يصبغ بها الإنسان ، كما جاء في القرآن ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة : ١٣٨] . فالدين صبغةٌ يصطبغ بها الإنسان من الرأس إلى القدم ، تصطبغ به المقاييس التي يطبِّقها للحياة ، تصطبغ به حياته المنزلية ، وحياته العائلية ، وحياته المدنية .

إنَّ الدِّين إذا جُرِّد عن المدنية ـ وقد جُرِّد كثيراً في التاريخ ، وتكرَّرت هذه التجربة في فترات كثيرة ـ فكان ديناً ولا حضارةٌ ، كان ديناً ولا اجتماعٌ ، كان ديناً ولا حياةٌ ، فهو كطائرٍ مقصوص الجناح ، منتوف الريش لا يستطيع أن يطير ، ويحلق في الأجواء ، إنه طائرٌ يترفرف ، ويضطرب فهو أشبه ببلبلٍ في قفصٍ من ذهب ، وإن كان بلبلاً غرِّيداً ، أو عندليباً ساجعاً مترنِّماً ، أما الدِّين الحقيقيُّ فهو الدين الذي يطير بجناحيه في أجواء من المعاني ، وفي أجواء من الأخلاق والمعاملات والسياسة والمدنيَّة ، وهو يسبك الحياة سبكاً مطابقاً لعقيدته ولما يدين به ، ظهر الإسلام فأنتج حضارةً كاملةً بحذافيرها ، حضارةً زاهيةً زاهرةً ، حضارة حكيمةً عادلةً ، حضارةً مؤسسةً على توحيد الله تبارك وتعالى ، والإيمان

www.abulhasanalinadwi.org

به ، وعلى ذكر الله تعالى ، واستحضار قدرته ، واستحضار الآخرة ، والإيمان بأنَّ الآخرة خيرٌ من الأولى ، مؤسسة على العدل الاجتماعي ، وعلى الاحترام للإنسانية ، والرحمة بها ، وعلى الجمع بين الواجبات والحقوق في وقتٍ واحدٍ ، والأخذ والعطاء ، والإفادة والاستفادة في حينٍ واحدٍ ، وعلى الاعتراف بقيمة الإنسان أيّاً كان ، وأينما كان.

الحضارة قامت على أساس العقيدة ، وعلى أساس التربية الإلهية ، والنصوص القرآنية السَّماوية ، وعلى أساس السيرة النبوية ، وأسوة الصحابة رضي الله عنهم ، فكانت أزهى حضارةٍ ، وأعدل حضارةٍ ، وأعقل حضارةٍ ، وأعلم حضارةٍ ، وأفضل حضارةٍ جرَّبها الإنسان ، ظهرت هذه الحضارة في الحجاز أولاً في مدينة الرسول ، وفي مهجره صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، ثم خرجت من حدود المدينة ، وغزت العالم كلَّه ، وما دخلت في بلدٍ من البلاد إلا وخضع لها أهله طواعيةً لا كراهيةً وتغلغلت في أحشاء البلد أو المجتمع الذي فتحته ، وتعلمون أنَّ أمَّةً إذا فُتِحَتْ عنوةً بحدِّ السيف ، فإنها تبغض الفاتحين ، هذه تجربة التاريخ المتَّصلة المتكرِّرة ، ولكن الحضارة الإسلامية وقعت من قلوب المواطنين موقعَ الحبيب ، وقبلتها البلاد ، وضمَّتها إلى صدرها ، لأنَّها كانت حضارةً طبعيةً ، عادلةً ، عاقلةً ، مؤسسةً على مبدأ المساواة الإنسانية ، ومبدأ الرحمة بها ، وإخراج الناس من حكم العباد إلى حكم الله تبارك وتعالى ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فكلُّ دينٍ يُجرَّد من الحضارة دينٌ صائرٌ إلى الانقراض ، ومصيره الزوال السريع ، وكلُّ دين يرضى أهله بهذا الموقف الضعيف المتخاذل ، فيرضون من الدين بالعقيدة ، ولا يلحون على مدنيَّة خاصة ، هي نتاج هذا الدين ، ويقتبسون أو يستوردون مدنيةً أخرى هي وليد بيئةٍ أخرى ، وسليل ديانةٍ أخرى ، ونتيجة أحداث وعوامل مرَّت بها أمة خاصةٌ أو بلد خاصٌّ ، فإنهم يفقدون مع الأيام ومع تيار الزمان شخصيتهم ، ويفقد الدين الذي دانوا به السيطرة على نفوسهم وعقولهم ، ويكونون صورةً صادقةً ، أو نسخةً مضبوطة أمينةً للأمَّة التي تطفلوا على مائدتها ، واقتبسوا منها الحضارة

www.abulhasanalinadwi.org

ونمط الحياة ، وهذا ما نتخوَّفه اليوم على العالم الإسلامي الذي يقتبس من الغرب مدنيته ، وأساليب حياته .

إنَّ المدنية الغربية لها تاريخٌ خاصٌّ ، فقد تكونت أولاً ثم تطوَّرت ، ونمت ، وارتقت تحت ضغط عوامل تاريخيَّةٍ سياسيَّةٍ ، وحضاريَّة ، وفلسفيَّةٍ كثيرة ، فكيف تتَّفق هذه الحضارة التي هي سليلةٌ للحضارة الرومانية ، واليونانية مع هذا الدين السَّمح ، دين الفطرة ، دين الله الذي أنزله الله تعالى من فوق سبع سموات؟ إنَّ حضارةً عجنت خميرتها من عناصر أخرى ، ومع فلسفاتٍ أخرى ، كيف تنقل ، أو تستورد هذه الحضارة استيراداً ، نعم نستورد المصنوعات الميكانيكية ، والمنتجات الحضارية الكثيرة ، لا غرابة في ذلك ، ولا استنكار فيها ، ولكن نستورد حضارةً برمتها ، وبحذافيرها؛ ونطبقها في بلدٍ إسلاميٍّ عربيٍّ ، هذا لا يعقل ، إنَّ المسلم العربي أو العجميَّ الذي ينشأ في هذه الحضارة يفقد الشيء الكثير من حساسيته الدِّينية ، ويضطر إلى أن يتخلَّى عن جزءٍ كبيرٍ من أحكام دينه وشريعته ، وهذا الدين يتطلَّب بطبيعته بيئةً خاصَّةً ، وجوّاً خاصّاً يلائم الأحكام الشَّرعية ، ويتَّفق معها ، ويخدمها ، ويساعد عليها ، مثلاً أنا أدخل في فندقٍ كبيرٍ ، إنني أريد أن أتطهَّر . لا أجد كيف أستخدم الماء ، ليست هناك أشياء تساعدني على الانتفاع بالماء ، وإنَّ كان الماء وافراً ، فلا أستطيع أن أكون على جانبٍ من الطهارة ـ لا أقول النظافة ، فالطهارة مفهوم شرعيٌّ لها شروطٌ وقيودٌ تعرفونها ـ التي يطلبها الإسلام ، ولا تصحُّ بدونها الصلاة والعبادات .

ثم إذا دخل الإنسان في فندق مثلاً ، أو في بلدٍ مثلاً لا يجد شيئاً يذكره بالله ، لا يجد شيئاً يذكِّره بالآخرة ، لا يجد شيئاً يذكِّره بالموت ، بل بالعكس كل شيءٍ يشغله عنه ، ويستخف ويستهزىء به ، أنا دخلت في بارك أوتيل (Park Hotel) في طهران في زيارتي لها في وفدٍ من رابطة العالم الإسلامي في سنة ١٩٧٣ ، فلما دخلت في الغرفة وفتحت المنضدة التي كانت أمامي ما وجدت في درجها إلا كتاباً واحداً هو «الكتاب المقدس» (Bible) هذه عاصمة المملكة الإسلامية الإيرانية التي لعبت دوراً رائعاً في

www.abulhasanalinadwi.org

تاريخ الإسلام ، وتاريخ الثقافة الإسلامية ، وأنجبت أئمةً في علم الحديث ، وفي الفقه ، وفي أصول الفقه ، وفي الحكمة ، هذه أرض النبغاء والعماليق المسلمين ، هذه يونان الشرق ، هذه إيران التي زادت في ثروة الإسلام والمسلمين ، أنا لا أجد في هذا الفندق الكبير الذي يقوم في عاصمة إيران ، لا أجد إلا نسخةً من بائيبل ، شيءٌ مؤسفٌ ومخجلٌ! لماذا لا أجد فيه المصحف؟ طيب ، ليس كل واحد يتلو القرآن ، ولكن لماذا لا أجد فيه شيئاً من الأدب الإسلاميِّ الإيراني؟ يا ليتني كنت وجدت هناك ديواناً لشاعرٍ مسلمٍ فارسيٍّ كبير ، فأتسلَّى بذلك ، وأقول هذا هو الطابع الإيراني الإسلامي ، ولكن لا أجد إلا بائيبل ، هذا هو الغزو الحقيقي للبلد الذي تدخل فيه الحضارة الأوربية .

وأدخل في فندق كبير كذلك في بلد عربيٍّ صميمٍ لا أسميه ، فأجد صورة واحدةً معلَّقة في كلِّ غرفة ، هي صورة كنسيةٍ ، والبلد وثيق الصلة بالجزيرة العربية ، وبالحرمين الشريفين ، لماذا لا أجد في هذه الغرف صورة الحرم المكيِّ ، وصورة الحرم النبويِّ ، لماذا لا أجد صورة مسجدٍ عام؟ قد تبدو هذه لبعض الناس أشياء سطحية ، لا يا إخواني! إنَّ لكل ذلك أثراً قويّاً قاهراً على النفس الإنسانية ، ليست النفس الإنسانية هي العقل كله ، إذا كانت النفس الإنسانية عقلاً كله فقط ، لا شعور فيه ، ولا ضمير له ، ولا حساسية فيه ، لا يتألم ، ولا يحزن ، ولا يغضب ، ولا يسرُّ ، فهذا لا يستحقُّ أن يسمَّى إنساناً ، هذا ليس كائناً حياً ، إنما هو ميت لا عقل له ، ولا عاطفة ، ولا حساسية فيه ، ولا شعور ، لا يتألَّم ، ولا يفرح ، ولا يحزن ، ولا يغضب ، ولا يثور .

إذا رجعت إلى وطني لماذا أفرح؟ الأرض سواءٌ ، الطبيعة واحدةٌ ، السماء واحدةٌ ، الأشجار متشابهةٌ ، وكل شيءٍ متشابهٌ ، لماذا ينشرح صدري ، وتقرُّ عيني ، ويثلج فؤادي إذا وطئت أرض بلادي ، ونزلت من الطائرة ينشرح صدري ، لماذا؟ لأنَّ هناك أشياء مألوفة ألفتها نفسي ، وعاشت فيها مدَّةً من الزمان ، وكان لها فيها وكرٌ تأوي إليه هذه النفس ، فلما وطئت هذه الأرض وجدت المألوفات تكثر ، ووجدت المكروهات

www.abulhasanalinadwi.org

تقلُّ ، وتنكمش ، وجدت المألوفات منتشرةً حولي ، هذا أخي جاء ليسلم عليَّ ، هذا صديقي جاء يهنئني ، وهذا هو الحيُّ الذي مررت به كثيراً وألفته ، لذلك أنا أفرح ، فإذا كان الإنسان مجرَّد عقل ، لماذا يفضِّل مكاناً على مكانٍ ، لماذا يفضل حيَّاً على حيٍّ ، لماذا يفضل أسرةً على أسرةٍ ، لماذا يفضل صورةً على صورةٍ؟ لأنَّ الإنسان عقلٌ ، وضميرٌ ، وقلبٌ ، ووجدانٌ.

لذلك كان من الطبيعي ومن المعقول جدّاً أن يجد المسلم في بلد إسلاميٍّ ما ألفه من شعارات الإسلام ، ومن مظاهر المسلمين ، فيميز المجتمع الإسلاميَّ من غيره في أول وهلةٍ ، وحين يطأ بقدمه الأرض ، للإنسان المسلم كلُّ الحقِّ أن يتوقع أنه لا يدخل في بلدٍ إسلاميٍّ إلا ويرى شعار الإسلام مرتفعاً ، لماذا يفرح المسلم إذا سمع الأذان؛ لأنَّه عرف أنها أرض المسلمين ، لذلك كان رسول الله ينتظر الأذان إذا غزا قوماً ، فإذا سمع الأذان؛ قال انصرفوا ، هؤلاء مسلمون.

[إنَّ لكل مدنيةٍ شخصيةٌ ، المدنية الإسلامية لها شخصيةٌ متميِّزةٌ ولها طابعٌ خاصٌّ ، والمدنيَّةُ لها شخصيَّةٌ غربيَّةٌ مسيحيَّةٌ روميَّةٌ يونانيَّةٌ ، ما يمكن تجريدها عن هذه العناصر الرومانيَّة ، واليونانيَّة ، واللادينية التي التصقت بها ، واختمرت هذه المدنية مع هذه العناصر ، فلا يمكن تجريد هذه المدنيَّة منها ، كذلك من قلَّد هذه الحضارة تقليداً أعمى ، واقتبسها كمتطفلٍ وكمقدِّسٍ ، وكخاضعٍ ، فإنَّه ينسى مع الأيام القليلة جدّاً أنَّه في خضم حضارة ليست إسلاميَّةً.]

إنَّ الحضارة لها تأثيرٌ كبيرٌ ، أضرب لكم مثلاً بالتتار ، وإننا نستطيع أن نأخذ منهم درساً كبيراً ذا قيمةٍ تاريخيَّةٍ عظيمة ، لما زحفوا على العالم الإسلاميِّ ، وكانوا كالجراد المنتشر ، وأثخنوا العالم الإسلامي قتلاً وجراحاً ، وأذلُّوه إلى آخر نقطةٍ ، حتى كان من المثل السائر : إذا قيل لك إنَّ التتار قد انهزموا فلا تصدِّق ، هذا كان مدى تأثير التتار وسيطرتهم على العقل الإسلاميِّ ، لا أقول على الجسم الإسلاميِّ فقط ، ولكن لماذا

www.abulhasanalinadwi.org

خضعوا للإسلام؟ هل تعرفون سرَّه ، خضعوا للإسلام لسببين ، الأول: القوة الرُّوحيَّةُ المخلصة المجرَّدة عن الأنانيَّة ، وعن المطامع الدنيويَّة التي كان يحملها أهل القلوب البريئة المؤمنة ، الخاشعة لله تبارك وتعالى في القرن السابع الهجريِّ. والسبب الثاني: أنَّ التتار لم يكونوا يحملون حضارةً ، كانوا يحملون سيفاً ، كانوا يحملون أعرافاً جاهليَّةً صينيَّةً ، ولكن ما كانت ترافقهم حضارةٌ ، فلما واجهوا الحضارة الإسلاميَّة ، وهي بجمالها ، وكمالها ، وعمقها ، وسعتها؛ خضعوا لهذه الحضارة ، وتأثَّروا بها ، فلما تأثَّروا بهذه الحضارة تدرَّجوا إلى الإسلام ، حتى دخلوا على بكرة أبيهم في الإسلام ، هذه هي غريبةٌ من غرائب التاريخ البشريِّ ، إلى الآن لم تفسر تفسيراً كاملاً ، وقد حار في تعليلها كبار علماء الغرب والشرق(١) خضع التتار للإسلام بتأثير الحضارة الإسلامية؛ لأنَّهم كانوا لا يزالون يعيشون في دور البداوة والطفولة الحضارية ، فلمَّا دخلوا في العالم الإسلاميِّ الراقي ، المتقدِّم ، الذي قطع أشواطاً بعيدة في مضمار الحضارة ، والعقل البشري؛ خضعوا لهذه الحضارة ، وأصابتهم دهشة ، أصابت المسلمين دهشةُ الفتح ، وأصابت التتار دهشةُ الحضارة الإسلاميَّة ، هذا مصير كلِّ أمَّةٍ تخضع لحضارةٍ قد عجنت طينتها في بلدٍ آخر ، وفي بيئةٍ أخرى ، إنَّ مصيرها أنَّها تخضع لتأثيراتٍ أجنبيَّةٍ كثيرةٍ.

فأقول لكم أيها الإخوان: إنَّ قضية الحضارة قضيةٌ مهمَّةٌ ، ودقيقةٌ ، قضيَّةٌ كبيرةُ الحساسية بالنسبة إلى مصير الإسلام والمسلمين. نحن الآن نمرُّ بمرحلةٍ عصيبةٍ من مراحل حياتنا ، وهو أنَّنا الآن نأخذ الحضارة الغربية على علاَّتها ، وبحذافيرها ، إنَّه لا أصالة لنا فيها ، ولا حكم لنا عليها ، إنما نحن متطفلون على مائدتها ، نغرف من بحرها ، وتغمرنا موجتها حتى نغرق إلى الآذان ، هذا شيءٌ يشكِّل خطراً عظيماً على مصير الإسلام والمسلمين.

كونوا حذرين أيها الإخوان في قضية هذه الحضارة الغربية ، فإنَّني أخاف

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الاسلام» الجزء الأول ، عنوان «انتشار الإسلام في التتار» طبع دار ابن كثير بدمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

أن تكون هنالك مؤامرةٌ دقيقةٌ ضدَّ العالم الإسلاميِّ ، فالغرب لما عرف أنَّ المسلم هو شديد الحساسية فيما يتَّصل بالدين ، تراجع الآن هو من موقفه القديم في الهجوم على الدين ، وأصبح هو لا يهاجمنا في ديننا الآن ، هو عرف بالتجارب المتكررة العديدة أنَّ التعرض لعقيدة المسلمين يثير خطراً كبيراً ، وقد يحبط مساعيه ، وفسد مخططاتهم الاستعمارية ، فاقتنع بأن يفرض على العالم الإسلاميِّ حضارته ، إنَّه الآن لا يمسنا في عقيدتنا ، فيقول بلسان حاله : اعبدوا ما شئتم ، وآمنوا بما شئتم ، وكونوا ما شئتم ، واقرؤوا ما شئتم ، ولكن هذه حضارتنا ، عيشوا كما نعيش ، وكلوا كما نأكل ، والبسوا كما نلبس . وأنشئوا الأوتيلات والفنادق والقصور والمنازل كما أنشأناها في بلادنا ، مجرَّدةً من أدوات الطَّهارة ، مجرَّدةً من شعارات الإسلام ، مجرَّدةً من ملامح الحضارة الإسلامية ، وهو عرف أنَّ العالم الإسلامي أو العربي إذا قبل هذا الوضع فإنَّه في وقتٍ قصيرٍ ، سيفقد أكبر مقوماته ومشخصاته ، ويبقى محدوداً مقيداً لدينه في مكانٍ محدودٍ ، في وقتٍ محدودٍ ، إذا كان في المسجد فهو مسلم ، يركع ويسجد ، ولكن إذا خرج ، وآوى إلى بيته ، أو إذا نزل في أوتيل ، فإنَّه لا يدلُّ شيءٌ على أنه مسلم ، إلا إذا سئل عن اسمه ، فقال : أنا فلان ، وذكر اسماً إسلاميَّاً عربيّاً .

هذه هي «الاستراتيجيَّة» الجديدة التي توصَّل إليها الغرب بعد تجارب طويلةٍ مريرةٍ ، أخضِعوا العالم الإسلاميَّ للحضارة الغربية ، ولا تهيجوه في عقائده ، وفي عواطفه . نعم ، الدِّين الإسلاميُّ هو كما تشاؤون ، القرآن أمامكم ، تعلموا العلم ، اعبدوا ما شئتم ، ولكن الحضارة المثلى ، الحضارة العصرية الجديدة هي الحضارة الغربية . هذا هو الوضع الخطير الذي يعيشه العالم الإسلاميُّ اليوم . وإنني كنت أنتهز الفرصة لأنفِّس عن ضميري ولأتنفَّس قليلاً عن هذا الألم الذي يساورني في أحد المجتمعات الإسلامية والمدن العربية ، فلي الحقُّ في أن أبدي ما أشعر به من ألمٍ ، أنتم تملكون زمام أموركم ، لستم مدفوعين ، لا تعيشون الآن تحت رحمة أيِّ دولةٍ ، ولا أيِّ قوَّةٍ ، لكم فرصة السبك الجديد ، لكم فرصة الصياغة الجديدة ، تصوغون مجتمعكم كما تشاؤون ، وتصوغون مدنيتكم كما

www.abulhasanalinadwi.org

تشاؤون ، وتصوغون حياتكم كما تشاؤون ، من الذي يسوقكم هذا السوق العنيف نحو الغرب الذي لا هوادة فيه ، ولا رحمة؟ إنَّ الله سبحانه وتعالى أكرمكم بالوسائل ، والطاقات ، والثروات ، والخيرات ، بل الآن الغرب في حاجة إليكم ، فلماذا لا تملون إرادتكم ورغبتكم على بلادكم على الأقل ، إنني أتمنى ذلك الزمن السعيد الذي نستطيع نحن المسلمين أن نملي إرادتنا ورغبتنا على الغرب ، ولكن إذا لم تسنح هذه الفرصة بعده ، فلماذا لا نملي إرادتنا ورغبتنا على مجتمعنا ، وعلى مدنيتنا ، وعلى بلدنا ، وعلى حياتنا؟ نبني على الطراز الإسلامي الشرقي الجميل ، ننشىء أوتيلات وفنادق على المثال الإسلاميِّ الذي يتفق مع آداب الإسلام ، ومع تعاليم الإسلام التي تساعد على الطهارة ، وتساعد على الصلاة ، وعلى ذكر الله تبارك وتعالى ، الجوُّ ملهمٌ للشرِّ والخير ، فلماذا لا يكون جوُّنا ملهماً للخير ، ملهماً لذكر الله تبارك وتعالى ، الإنسان ينسى الله ، ولكنه إذا دخل في هذا الجوِّ و استنشق الهواء تذكَّر الله ، وتذكَّر الآخرة ، كان كل من كان يدخل في مدينة الرسول ﷺ ، بل في مدينة من المدن الإسلامية المثالية في العصر الإسلامي الذهبي يتنفس برئتي الإسلام ، ويتنشَّق أريجه ، ويلمسه ببنانه ، ويذوقه بلسانه ، فينتقل من عالمٍ إلى عالمٍ ، ومن جوٍّ إلى جوٍّ ، فتقصر المسافة بينه وبين فهم الإسلام ، ويسهل عليه ، بل يحبَّب إليه العمل به ، فلا يرجع من هذا البلد الإسلاميِّ ، بل المجتمع المثاليِّ إلا وهو واعٍ داعٍ للإسلام ، ومثالٌ من أمثلته ، ونموذجٌ من نماذجه ، وهذا الذي نتمناه اليوم من مدننا الإسلامية والعربية ، لا العكس الذي تجربه ونصطدم به مع الأسف من منافاة الواقع للتصوُّر ، وتكذيب الحاضر للماضي ، والتشكيك في صلاحية الإسلام لمسايرة الحياة وتخطيط المدنية الفاضلة والمجتمع السعيد .

والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

مصادر العلوم الإنسانية

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في الجلسة الختامية للمؤتمر المنعقد في كانون الثاني عام ١٩٧٧ م تحت رعاية قسم الدراسات الإسلامية في جامعة عليكرة الإسلامية ، ونقدِّم هنا هذه الكلمة نقلاً من الشريط المسجَّل .

www.abulhasanalinadwi.org

أيُّها السادة!

إنه لمن اغتباطي ودواعي سروري أن أرى علماء المعاهد الثقافيَّة الحديثة قد بدؤوا يهتمُّون بالعلوم الإسلامية ، والمؤتمر الحالي هو البرهان على ذلك ، وباعتبارنا أناساً مكرِّسين لهذه العلوم يمكن أن نقول مع «إقبال» :

«ولَّت تلك الأيام كنت فيها وحيداً ، في الاجتماع كثيرون هم الذين يشاركونني أسراري هذا اليوم» .

لم تكن كنوز المعرفة في يوم ما احتكاراً لطبقةٍ اجتماعيَّةٍ دون أخرى ، وما كان ذلك ، أما فيما يتعلق بالإسلام؛ فإنكم تعلمون أنَّه ليس هناك طبقةٌ تتوارث الكهنوت أباً عن جدٍّ. إنَّ مفاهيم الكهنوت هي من صلب العالم النصراني ، وغريبةٌ في عالم الإسلام ، وإذا ما وجدت عباراتٍ أو تعابير كهذه في كتابات بعض العلماء فمردُّ ذلك فقط إلى التقليد الأعمى للغرب ، أصبحت عبارة «رجال الدين» في أيامنا هذه شائعةً ـ حتى بين الكتاب العرب!! ـ وبدؤوا يستعملونها بنفس المفهوم الذي تعنيه كلمة «الكهنة» في العالم النصراني . أما الكتاب الحذرون المتمسِّكون بالدين ، والذين يريدون التعريف الصحيح بالفكر والروح الإسلاميَّين؛ فقد اجتنبوا بحذرٍ شديدٍ استعمال عباراتٍ كهذه .

وفي الوقت الذي أعبِّر فيه عن شعوري بالغبطة للاهتمام المتزايد من قبل المراكز العلمية بالعلوم الإسلامية ، أودُّ أن أضيف إلى أنَّه على الرَّغم من أنَّه لا مكان للقساوسة والكهنوت في الإسلام ، إلا أنَّه كان دائماً لدينا علماء ذوو خبرةٍ واختصاصٍ ، ولم يعد بإمكان المرء أن يضطلع في كل شيء نظراً للتوسع الطارىء المحسوس الذي حدث في شتَّى فروع المعرفة. . ففي أوربا بدأت عملية التقدُّم عندما كرَّس الناس أنفسهم للتخصُّص في فروعٍ

www.abulhasanalinadwi.org

خاصَّةٍ من الدراسات ، ولم يعد علماؤها يسيطرون على كافة فروع المعرفة ، وأعتقد أنَّ هذا المبدأ ـ وحتى في وقتنا الحالي ـ متَّبعٌ في أوربا أكثر منه في الشرق ، وهناك يعترف الخبراء في أيِّ مجالٍ كان ـ وبدون تردُّد ـ بمهنةٍ أو بمجال دراسةٍ لا تدخل ضمن مجال اختصاصهم. والآن . . علينا نحن أيضاً أن نصمِّم بتحديد مساعينا الأدبيَّة والفكرية لنقتصر على موضوعٍ أو فرعٍ دراسيٍّ خاصٍّ بمفرده .

مستـوى الـثـقافـات :

إنني فخورٌ بأن أكون رفيق درب ، وأنتهز ذلك لأتجرَّأ فأقدِّم بعض الاقتراحات :

ربما وافقتم معي على أنَّ مستوى الثقافة يتدنَّى في وسطنا ، ولقد التمست ذلك في الغرب أيضاً. وقد قال لي بعض العلماء هناك : إنَّ الفساد تسرَّب إلى دراسة العلوم الشرقية أيضاً. إنَّ الجيل الحالي من العلماء يفتقر إلى المثابرة والانكباب ، وذلك لأسبابٍ عديدةٍ بعضها سياسيَّةٌ وأخرى اقتصاديةٌ .

السـرُّ فـي نـمـو الاسـتشـراق :

هناك بعض البواعث وراء كلِّ فرعٍ من فروع المعرفة ، ولقد رفعت هذه العوامل الاستشراق في يومٍ من الأيام إلى القمَّة ، وباستثناء القليل من العلوم الطبيعية والاجتماعية ، فقد كانت الدراسات الشرقية تحظى بشرفٍ عظيم ، وكان المستشرقون بكتاباتهم يتمتَّعون بأهميةٍ بارزةٍ؛ إذ كان العامل القويُّ الذي يعمل عمله وراء ذلك هو عامل الإمبريالية[١] ونحن مسرورون على أن ذلك العامل لم يعد فعَّالاً ، ولحسن الحظ ، أو لسوئه فقد كانت أغنى بلدان الشرق تحت حكم المسلمين ، وكان الغرب ينظر إليهم نظرةَ غيرةٍ وحسدٍ لما عندهم من خيرات .

أرادت الإمبريالية الغربية إقامة مستعمراتٍ جديدةٍ ، لذا كان من

---

(١) المقصود بها : بسط النفوذ عن طريق الشركات ، والمؤسسات الاقتصادية . .

www.abulhasanalinadwi.org

الضروريِّ لها: دراسة الخصائص القومية لتلك البلدان.. ولقد كان هؤلآء المستشرقون هم طلائع المستعمرين. فقد لقوا رعاية الجهات الرَّسمية، ووضعت أموالاً طائلةً تحت تصرُّفهم، وكانوا يُستقبلون بحفاوةٍ وتقديرٍ في بلاط الملوك ورؤساء الدول.. لقد زال هذا العامل من الوجود، أمَّا الدافع الآخر؛ فقد كان الكسب الاقتصاديُّ الذي فقد فعاليته هو أيضاً، فقد خضعت البنية الاقتصادية للتحوُّل بحيث لم يعد مواصلة الدراسات الشرقية تدرُّ النفع الماديَّ كما كانت من قبل.

الـتفــرغ:

إنَّ روح التكريس قد ضعفت بين علماء ومثقفي عصرنا: فقد ضعف حبُّ المعرفة ونضب معه معين القدرة على الجدِّ والاجتهاد، وإنَّني لا أشير بذلك إلى أيِّ كلِّيَّةٍ أو جامعةٍ دون أخرى، إنما هي ملاحظة عامَّةٌ كما وجدتها، ويُلمس في كل مكان ـ تقريباً ـ أنَّ التكريس الكامل الذي كان يتميَّز به علماء الماضي لم يعد له وجود في وقتنا الحاضر.

ونستطيع أن نحرز فكرة من كتاب «علماء السلف» الذي كتبه نواب صدر يار جنگ مولانا حبيب الرحمن خان شرواني هنا في عليكراه حيث جاء فيه، كم كان علماء تلك الأيام مشغولين بالدراسة والبحث!! وأيُّ فسادٍ ملحوظٍ حل بها الآن؟! لماذا؟؟!.

إنَّ الأسباب تتعلَّق بالسياسة، والاقتصاد، والأدب، والأخلاق، سواءٌ بسواء.. وليس من الممكن ـ أو من الضروري ـ مناقشتهما هنا.. والأمر الواضح جداً هو أنَّ حب المعرفة الذي يسمو فوق كل شيءٍ، ويجعل الإنسان لا يبالي حتى بالحاجة إلى الطعام والملبس، وقد أصبح ذلك الحبُّ نادراً إن لم نقل قد همد.

خذ حال مولانا لطف الله من عليكراه.. كم كان اهتمامه لعمله شديداً، ولكن دعه وشأنه.. إليك من بين العلماء الأوربيين رجل يُدعى «لين» والذي يعتبر معجمه العربي أساساً لا غنى عنه ليس فقط عند طلاب اللغة العربية وحدهم من الإنكليز بل حتى عند العلماء العرب، ولقد سمعت أنَّه عندما

www.abulhasanalinadwi.org

كان يعمل في معجمه هذا في القاهرة لم يغادر شقته لأشهر ، ولم يتعرَّف إلى السوق ، ولم يهتمَّ أبداً بأن يذهب لرؤية الأهرامات ، ربما تستطيع أن تسمِّي ذلك بلادةً ، أو افتقاراً إلى الذَّوق السليم. . . حسبما تريد ، ولكنَّك إذا تمعَّنت في تاريخ روائع الفنِّ والمعرفة ستجد أنَّ صانعي هذه الروائع ومؤلفيها قد عاشوا في عالم خاصٍّ بهم ، وكان عملهم هو العاطفة بالنسبة لهم ، وما كان لديهم وقتٌ لأيِّ شيءٍ آخر ، أو ميلٍ إليه.

الشخصيات الأدبية المعاصرة:

إنَّني أتكلم إلى أولئك الذين اتَّخذوا القراءة والكتابة مهنةً لهم. . عندما قرر مولانا شبلي الكتابة عن مكتبة الإسكندرية كان الطلاب المسلمون هدفاً لأقوال السخرية: آه. . أجل! تنتمون إلى الدين والمجتمع الذي أحرق خليفته مكتبة الإسكندرية!! . . كان هذا الكلام على لسان كلِّ الناس ، وأولئك الذين عاصروا تلك الأيام لا يزالون على قيد الحياة ، ويحكون أنَّهم احتاروا أين يخفون رؤوسهم ، أو كيف يجيبون؟

والرواية الشائعة هي أن الخليفة عمر ـ رضي الله عنه ـ أُخبِر أنَّ مكتبة الإسكندرية مليئة بالكتب الفلسفية ، وأنَّه أجاب: «إذا كانت تلك الكتب تتوافق مع القرآن لتبق على حالها ، أما إذا كانت تتعارض معه فيجب أن تحرق. . .» ويزعم أنه تقرر أنَّ الكتب كلها كانت مناقضةً لما جاء به القرآن ، لذا أحرقت حتى آخر كتاب فيها دون أن تفتح لمعرفة مضمونها!!

إنَّها قصَّةٌ ملفقةٌ بالكامل. . حتى إنَّ مؤرخاً مثل تونبي (Toynbee) قد أسهم في استمرار تداول هذه القصَّة ، وفي مجال تعليقه على تبديل الأبجدية التركية من قبل أتاتورك يقول تونبي: «إنه لو تعلق الأمر بالوقت الحاضر لما أحرقت مكتبة الإسكندرية. . إنَّ التبديل في الأبجدية كان كافياً». ولقد فجر العلامة شبلي الأسطورة إلى الأبد وأصبح الآن من غير اللائق برجلٍ مثقَّفٍ أن يقول بأن مكتبة الإسكندرية أضرمت فيها النار بناءً على أوامر الخليفة عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته ، لقد قدَّم أدلةً

www.abulhasanalinadwi.org

لا تدحض على أنَّ النار أتت على مكتبة الإسكندرية قبل تولِّي عمر ـ رضي الله عنه ـ الخلافة بزمنٍ طويل.

لقد رفع العلاَّمة شبلي أيضاً قضية الجزية، وناقشها حتى أنه لم يترك شيئاً لمن أتى بعده. ويعتبر مؤلفوه «شعر العجم» دراسةً وبحثاً رائعين حتى في إيران، ويقول البروفسور براون في كتابه (Literary History of Persia): لو أنه رغب في تعلم اللغة الأردية لكان ذلك فقط من أجل تمكينه من دراسة «شعر العجم» مباشرةً، كان كلّ هذا بسبب استغراق العلماء في المعرفة مثل العلامة شبلي.

ولقد ألَّف العلامة سليمان الندوي ـ الذي تتعلَّق مواضيعه الرئيسة التي يكتبها بالقرآن، والسيرة النبوية، والتاريخ الإسلامي ـ كتاباً رائعاً عن عمر الخيام حتى أنه استحوذ على إعجاب الأوساط الأدبية في إيران أيضاً، وكتابه (Arab - o - Hind Ke Talluqat) يمثل قمة المثابرة والبحث العلمي.

ويجدر بي هنا أن أذكر كتاب «نزهة الخواطر» الذي كتبه والدي مولانا عبد الحي.. لقد كتبه بالعربية، ويقع في ثمانية مجلدات ويبحث في ما يزيد على ٤٥٠٠ شخصيَّةٍ بارزةٍ في الهند، وكان قد صمم أن يصنفه في بداية القرن العشرين حينما كان هناك القليل من التسهيلات لتعلُّم اللغة العربية والكتابة بها في بلادنا، ولقد استغرق منه العمل حوالي خمساً وعشرين سنةً لإتمامه، ويعتبر الآن حتى في أوربا ـ أثمن مرجعٍ من نوعه، وكتابه «الثقافة الإسلامية في الهند» يحتوي تاريخاً كاملاً للبحوث والعلوم العربية، ووصفاً تفصيلياً للكتب والمخطوطات التي خلفها العلماء الهنود، ولقد نشر في عام سبعة وخمسين وتسعمئة وألف من قبل المجمع العلمي في دمشق، ولقد سمعت شخصياً علماء سورية، وهم يتكلمون عنه بتقدير.

المعرفة من أجل المعرفة:

كان عالمٌ بمفرده ـ فيما مضى ـ يقوم بعمل أكاديميات علمية بكاملها، أما الآن فقد أقيمت الجمعيات، والمؤسسات الضخمة، لكن

www.abulhasanalinadwi.org

مردودها ـ إجمالاً غير مشجعٍ ، وقليلاً ما تقوم بأعمالٍ أصيلةٍ مبتكرة .

إنَّ ما نحتاجه هو رفع مستوى الثقافة ، والمعرفة الأكيدة ، وجني ثمرتها ، وعطش وارتواء ، وجوع وشبع .

وعلى المرء أن يكرِّس كامل جهده لعمله ، وأن يعتبره مكافأةً في حدِّ ذاته ، لا رئاسة فرع معين في هذه الجامعة ، أو تلك .

إنَّ علماء عصرنا الحاضر يستعجلون لجمع المحصول ، وينصبُّ اهتمامهم الأكبر على الشهرة ، والترفيع في الخدمة ، وزيادة التعويض ، وإنَّ قسماً كبيراً من طاقتهم يصرف في السعي وراء هذه الأغراض ، وإنَّ الربح الماديَّ هو الأساس في نظرهم ، ولا بدَّ أنكم سمعتم بمبادىء كثيرةٍ ، والمبدأ الجديد الذي ينتشر في مؤسساتنا الثقافية ألا وهو المهنية <Careerism>.

الظمأ للمعرفة يجب ألا يكون حالةً عابرةً:

وشيءٌ آخر هو: ألا يكون الاهتمام بالنشاطات الثقافية اهتماماً عابراً ، فنختار للبحث فيه ، ثم نجترُّه بسرعةٍ ، فنلقيه خارجاً كحيوان يجترُّ ، فلا يكون هناك التزامٌ بالموضوع ، ولا تعلقٌ ثابتٌ به ، فإذا ما انتهى البحث غسلنا أيدينا من الأمر كله ، ولنذكر قول إقبال:

«إنَّ هدف الفن هو لهب الحياة الخالدة ، وليس فورة نشاط أو اثنتين تختفيان كالشرارة» .

منابع الدراسة الإسلامية تكمن في الإيمان:

ربما تقرؤون بالطبع في بعض البحوث عن الحاجة إلى الاجتهاد في العلوم الإسلامية ، وكلنا نوافق على ذلك . . ولكن لماذا أغلق بابه ، وما أسباب ذلك ، وما مدى صحته؟؟ فتلك قضيةٌ أخرى ، وسوف أشير إلى أنَّ بعض أصول العلوم الإسلامية تكمن في الدين ، إنه المصدر الرئيسي لها ، لذا يجب أن نختلف في موقفنا حيالها عن المستشرقين ، وألا يكون هذا الموقف أكاديمياً بأن نقوم بمناقشتها فقط دون أيِّ شعورٍ بالالتزام ،

www.abulhasanalinadwi.org

وينبغي علينا أن نعتقد بها شريطة أن تكون مرتبطةً بأركان الإيمان وتهذيبها في حياتنا العملية ، ولقد سمعت في طفولتي أنَّ عشرة مندات[1] من الحكمة ضرورية لمنِدٍ واحدٍ من المعرفة ، وإلا . . . لا يتمَّكن المرء من استنتاج فائدةٍ حقيقيةٍ من المعرفة ، ولا استعمالها بشكلٍ ملائم ، وسأدخل تحسيناً على ذلك ، وأقول : إنَّ التَّقوى يجب أن تكون موجودة أيضاً بشكلٍ متناسبٍ مع البحث؛ لأنَّ القضية هي قضية العلوم الإسلامية ذات الصلة الوثيقة بالدين ، ولا نستطيع أن تخضعها للتشريح كجثة ، أجل : ليس من العدالة أن يكون كذلك ، فيجب أن يكون النقد خالياً من الازدراء والسخرية .

إنَّ أولئك الذين هم على وعي بمسؤوليات الدراسة والبحث ، وتغيُّر الأفكار والآراء لا يقدمون آراءهم وأحكامهم بطريقة جازمةٍ موثوقةٍ ، ولا يفسرون نظريةً كما لو أنها كانت آخر كلمةٍ في السطر ، وينبغي أن يكون موقفهم كمن توصل إلى نتيجةٍ ظهرت بأنَّها صحيحةٌ في تلك اللحظة .

وفي جلسة أمس أخَّر السيد بدر الدين طيب جي الذي كان يترأسها أحد المتكلمين الذي انتهى الوقت المخصص له ، فلم يقل له : إنَّ وقته قد انتهى ، وإنما قال له : «أخشى أنَّه قد انتهى الوقت المخصَّص لك» ، نستطيع أن نتعلم الكثير من ذلك ، علينا أن نمارس الكبح في تفكيرنا ، وأن نتعلم إبداء الاحترام والتقدير للعلم وللشخص الذي كرس حياته وطاقاته له .

أهميـة الـلغـة الـعـربـيـة :

إن اللغة العربية ذات أهميةٍ جوهريةٍ . . فالمرء لا يستطيع أن يقوم بأيٍّ دراسةٍ في العلوم الإسلامية دون أن يكون على درجةٍ من الكفاءة في معرفتها ، وإنَّ العلماء الذين لا يتقنون معرفة اللغة العربية معرضون لارتكاب أخطاء فظيعةٍ عندما يكتبون عن القرآن ، والحديث ، والدراسات الإسلامية ، وذلك بسبب افتقارهم إلى المعرفة باللغة العربية .

أخبرني أحد أصدقائي ـ ذات مرَّةٍ ـ أنَّ رجلاً قد ترجم معاني القرآن إلى

(١) المند : وحدة وزن هندية تعادل ٢٨ و٨٢ باوند .

www.abulhasanalinadwi.org

اللغة الإنكليزية ، كان يتكلم في مؤتمر في مدينة دلهي. وحدث أنَّ الأديبة المعروفة «بنت الشاطىء» كانت حاضرةً أيضاً ، ولقد طلبت منه أن يتكلم بالعربية فأجاب ـ بدون خجل ـ بأنه لا يعرف هذه اللغة ، ثم سألته بنت الشاطىء بتعجب : وكيف تستطيع إذاً أن تترجم معاني القرآن؟ !! . . وحين عودتها إلى بلدها كتبت سلسلةً من المقالات في جريدة الأهرام في القاهرة عن تلك التجربة الغريبة التي مرت بها ، وعلَّقت قائلة : «لقد رأيت شيئاً من عجائب الدنيا. وكان هذا : أنَّ سيداً قد ترجم القرآن ، ويجهل اللغة العربية!!».

تستطيعون الحصول بسهولةٍ على معرفة كافية باللغة العربية ، وتنجوا بأنفسكم من الوقوع في الأخطاء ، والمدارس العربية سوف تقدم لكم كلَّ العون من أجل ذلك.

تجنبـوا إحـداث الـفـوضـى :

يتسرَّع بعض الناس في التعبير عن آرائهم ، ثم لا يلبثون بعد فترةٍ أن يتراجعوا عنها!! . لا شكَّ بأنهم يؤدُّون واجبهم ، ولكن ماذا عن أولئك الذين كان عليهم أن يغادروا هذه الدنيا وهم على ظلالٍ من جرَّاء اتباع الناس؟!. وتصبح المشكلة خطيرةً عندما تتعلَّق هذه الآراء بالعقيدة والدين ، لذا ينبغي ألاَّ ننفذ الصبر في التعبير عن آرائنا ، وخاصَّةً عندما تخصُّ عالم الدين ، وعلينا أن نفكِّر فيها مليَّاً ، ونتفحصها ، ونعرضها على أهل الخبرة ، وننتظر حكمهم. . حينذاك فقط يمكن أن تنشر.

إنَّ عصرنا هو عصر الفوضى ، والإنسان هادىءٌ يميل إلى الإهمال بطبيعته ، فحضارة العصر ، والخطوات السريعة للتقدم العلمي ، والارتفاع المستمر في مستوى المعيشة. . يفضي به إلى أن يكون أكثر حباً للراحة ، وتعرُّضاً للفوضى ، وعلينا والحال هذه أن تحجم عن قول أشياء يمكن لها أن تزيد في الاضطراب الفكريِّ عند الناس.

عندما انتكس العربُ في حربهم مع إسرائيل عام ١٩٦٧ م قلت يومذاك في مقابلةٍ أجريت معي : «إنَّ المسؤولية عن تلك الهزيمة تقع إلى درجةٍ كبيرةٍ

www.abulhasanalinadwi.org

على عاتق أولئك المشكِّكين من مفكِّرينا؛ الذين زعزعوا الأسس الأخلاقيَّة ، والفكريَّة للشباب ، وألقوا بالقيم التقليديَّة في رحاب الفوضى» .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلاميَّة وأثره البعيد في اتجاهاتها وقياداتها

هذه المحاضرة ألقاها العلامة النَّدوي في المهرجان التعليمي لندوة العلماء في ٢٦ شوال ١٣٩٥ هـ الموافق ١/ نوفمبر ١٩٧٥ م ، وكان حفلاً عظيماً حضره عددٌ كبيرٌ من قادة الرأي ورجال التربية وكبار الأساتذة في الأقطار الإسلامية والعربية ، وألوف من المثقفين وجمهور المسلمين في الهند .

www.abulhasanalinadwi.org

سادتي الأجلاء! وزملائي العاملين في مجال التعليم والتربية ، وإخواني المعنيِّين بحاضر الأمَّة الإسلامية ومستقبلها ، ورسالتها ، وشخصيتها .

أنتهز هذه الفرصة الكريمة التي لا تسنح إلا بعد آجالٍ طويلةٍ ، للتحدُّث في موضوعٍ أعتقد أنَّه بالنسبة إلى الأمَّة الإسلامية والعالم الإسلاميِّ ، قضية الحياة والموت ، وقضية الوجود والعدم ، واؤمن بإخلاصٍ وفي حماسٍ أنَّه إذا لم تكن لهذا الالتقاء الإسلاميِّ العالميِّ الكريم قيمةٌ ونتيجة غير هذا البحث والوصول إلى نتيجةٍ فيه ، كان التقاءً مباركاً حاسماً يملي تاريخاً جديداً ، ويفتتح عهداً سعيداً للأمَّة الإسلامية بإذن الله تعالى .

وأستأذنكم أيها السادة! أن أتحدَّث في الموضوع في شيءٍ من التوسُّع ، وفي شيءٍ من الصَّراحة والوضوح ، وإنَّ طبيعة الموضوع تقتضي أن أبدأ الحكاية من بعيدٍ ، فإنَّ القضية ليست بنت الساعة ، ووليدة شهورٍ وأعوامٍ ، إنَّما هي قضيةٌ طويلة الأمد ، عميقة الجذور في حياة الأمة الإسلاميَّة وتاريخها .

إنَّ الحقيقة النفسية التاريخية التي لا يمكن إنكارها ، أو تجاهلها هو إمكان وجود أفرادٍ في المجتمع الإسلاميِّ لم تنشرح صدورهم للعقيدة التي يقوم عليها هذا المجتمع ، ولم يؤمنوا بالحقائق والمبادىء التي يؤمن بها ، والأهداف والمثل التي يعيش لها .

وتلك طبيعة كلِّ مجتمعٍ يقوم على أساس عقيدةٍ معيَّنةٍ ، وحدودٍ مرسومةٍ واضحةٍ ، إذا تخطاها فرد من أفراد هذا المجتمع أو الجماعة ؛ اعتبر خارجاً من دائرته ، أو ثائراً عليها ، وفقد جميع الحقوق والامتيازات التي كان يتمتَّع بها ، خلافاً للجنسيات والقوميات التي تفتح صدرها لكلِّ عقيدةٍ ،

www.abulhasanalinadwi.org

وخلقٍ وتصرُّفٍ ، بشرط أن لا يغيِّر صاحبه جنسيته ، أو قوميته ، ولا تصدر منه خيانةٌ لأمَّته وحكومته .

وتتضخم هذه المشكلة ، وتتضاعف أخطارها وأضرارها ، وتتضخم مسؤولية القائمين على هذا المجتمع ، الحريصين على وحدته وسلامته وحياته وقوته إذا ألحَّ هذا العنصر ـ الذي لم يخلص لهذه العقيدة التي قام عليها هذا المجتمع ، أو لم يسغها . . ، أو لفظها بعد ما أساغها لأيِّ سببٍ من الأسباب ـ ألحَّ هذا العنصر على البقاء في إطار هذا المجتمع المؤمن كجزءٍ من أجزائه ، وربط مصيره بمصيره لمصلحة من المصالح ، أو لاضطراره إلى ذلك ، من غير أن يذيب نفسه في حرارته ، ويصهرها في بوتقته ، ومن غير أن يقتنع بما يقوم عليه هذا المجتمع من عقائد ومبادىء ، وخصائص ، ومقومات ، ويؤمن بها بإخلاصٍ وفي حماسٍ ، ونجح في ذلك بذكائه ، أو بغفلةٍ من القائمين على هذا المجتمع ، ولم يفطن له .

وهو أشدُّ خطراً ، وأعمق أثراً من «الردَّة» التي يفارق بها صاحبها مجتمعه الذي ولد ، ونشأ فيه ، أو الدين والعقيدة التي آمن بها ، أو خُيِّل أنه آمن بها بحكم الوراثة ، أو النشأة ، أو البيئة .

وتتعقَّد هذه المشكلة حين ينجح هذا العنصر بلباقته ، أو مقدرته في إحراز الثِّقة من هذا المجتمع ، والسيطرة عليه ، وتملُّك زمامه ، فيتبوَّأ منصب الحكم ، أو منصب القيادة والتوجيه ، هنالك يرغم هذا المجتمع على أن ينحو نحواً لا يحبُّه ، أو لا يتحمَّس له ، بل يعتبره في بعض الأحيان مروقاً من الدين ، أو الثورة على المبادىء والمثل العليا التي يؤمن بها ، وقد يساق إلى الغايات التي يعتبرها منافيةً لدينه وعقيدته ، كما تساق القطعان من الغنم ، أو البقر ، ويعيش في صراعٍ نفسيٍّ عميقٍ من أعنف أنواع الصراع الذي عرفه تاريخ البشرية ، وتاريخ الأخلاق ، وعلوم النفس ، وتاريخ الديانات ، والمذاهب ، فلا هو حيٌّ يتمتَّع بالحياة ، وحريَّتها ، ونعيمها ، ولا هو ميِّتٌ قد استراح وهدأ .

وبتأثير هذه القيادة التي لا تتَّفق مع عقيدة هذا المجتمع وطبيعته ، بل

www.abulhasanalinadwi.org

تحاربها ، وتنسفها نسفاً ، تنتشر الردَّة العقائديَّة بمعناها الواسع فيمرق عددٌ كبير ممَّن ليست عندهم حصانةٌ خلقيَّةٌ نفسيَّةٌ ، أو شحنةٌ إيمانيَّة روحيَّةٌ ، أو قوَّةٌ علميَّةٌ فكريَّةٌ ، وعددٌ كبيرٌ من عبَّاد الأموال والمناصب ، والعزِّ والفخار ، ومن «الانتهازيين» .

أو ينتشر النفاق انتشاراً فظيعاً ، فيضعف قوة هذا المجتمع ، وينخر هيكله ، وينتشر المكر ، وتكثر المؤامرات ، ويفشو الغدر والخيانة ، ويهون بيع الضمائر ، وبيع المقدسات والأمجاد ، وأراضي البلاد بثمنٍ بخسٍ دراهم معدودةٍ ، ويكثر الخونة ، وصنائع العدو ، ووكلاؤه ، وخدمة مصالحه كثرةً فاحشةً ، لا يوجد لها نظير في المجتمعات البشرية التي لا تمتحن بمثل هذه المحنة ، وليست بين هذه المجتمعات وبين قياداتها هوةٌ عميقةٌ واسعةٌ عقائديةٌ ، أو مبدئيةٌ .

ويعجز هذا المجتمع عن مقاومة أيِّ عدوٍّ مهاجم ، أو خطرٍ داهم ، للبلبلة الفكرية التي يعانيها ، والصراع النفسيِّ الذي يقاسيه ، ولكره عددٍ كبيرٍ لهذه القيادات ، وعدم تحمُّسه ـ بطبيعة الحال ـ للشعارات التي تهتف بها هذه القيادات ، والغايات التي تقاتل في سبيلها هذه الزعامات أو الحكومات ، وذلك كلُّه من طبيعة الأشياء ، ومنطق الواقع ، وخصائص النفس الإنسانية ، يشهد له التاريخ القديم ، ويشهد له التاريخ المعاصر في المناطق التي لم تذق لذة الحبِّ للقادة والزعماء ، أو الحكام والأمراء ، ولم يكن هناك انسجامٌ عاطفيٌّ ، أو تجاوبٌ فكريٌّ بين الشعب والقيادة .

[وقد واجه المجتمع الإسلاميُّ الذي قام على أساس الدعوة الإسلامية وفي أحضان الرسالة المحمدية هذا الواقع الطبيعي التاريخي الذي لا مفرَّ منه لأيِّ جماعة تقوم على أساس الإيمان والعقيدة ، والديانة والتقوى ، والدعوة والجهاد ، وإنما تظهر بادرة «النفاق» في بيئة تجمع بين دعوتين متنافستين ، وقيادتين متقابلتين ، مهما كانت النسبة بينهما بعيدةً في الضعف والقوَّة ، والقلة والكثرة ، هنالك يوجد عنصر مضطربٌ يتأرجح أولاً بين هاتين الدعوتين ، ويتردَّد في إيثار إحداهما على الأخرى ، ثم ينحاز إلى

www.abulhasanalinadwi.org

دعوةٍ ، فيكون في معسكرها ، يعطيها ولاءه وحبّه العاطفيَّ ، إلا أنَّ مصالحه المادِّيَّة ، وانتشار هذه الدعوة المقابلة وانتصارها لا يسمح له بإعلان موقفه ، والانضواء إلى الدعوة الأولى ، وقطعه للحبال التي تربطه بالدعوة المقابلة ، وذلك ما عبرَّ الله عنه بقوله : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء : ١٤٣]، وبقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ [الحج : ١١].

لذلك لم يكن ـ كما يرجح أكثر المفسرين ـ نفاقٌ في مكَّة لأنَّ الإسلام كان هنالك مغلوباً على أمره ، لا يملك حولاً ، ولا طولاً ولا يملك لأحدٍ نفعاً ، ولا ضرّاً ، ولم تكن هنالك قوتان متماثلتان ، إنما كان المشركون الأقوياء القاهرون ، والمؤمنون المضطهدون المستضعفون ، يخافون أن يتخطفهم الناس ، فلما انتقل الإسلام إلى المدينة ، وقام المجتمع الإسلاميُّ بجميع لوازمه نجم النفاق ، ورفع رأسه ، وكانت ظاهرةً طبعيةً نفسيّةً لا بدَّ منها .

ولكن وجود الرسول ـ ﷺ ـ ، واستمرار الوحي قد أمن هذا المجتمع الوليد من غائلة هؤلآء المنافقين ، ففضحهم القرآن في عدَّة مواضع منه وأزاح الستار عنهم ، وعرفهم المسلمون في الغالب ، وكرهوهم كرهاً شديداً ، ولفظهم المجتمع ، فلم يستطيعوا أن يتسرَّبوا فيه ، ويندمجوا ، فضلاً عن أن يحرزوا ثقةً واحتراماً ، أو يتبوَّؤوا قيادةً ورئاسةً ، وبقي المجتمع الإسلاميُّ الأول صحيحاً ، وسليماً لم يضعفه النفاق ، ولم يعبث به المنافقون ، وضعف شأنهم حتى اعتقد كثيرٌ من الصحابة أنَّهم انقرضوا ، بل لا نفاق بعد النبي ـ ﷺ ـ ، وكان منهم بعض كبار الصحابة .

ولكن النفاق كان ولا يزال خصيصةً من خصائص الإنسانية ، ونقطة ضعفٍ في كثيرٍ من النفوس البشرية ، فهو يساير الركب البشري في جميع مراحله ومنازله ، ويرفع عقيرته إذا وجد مجالاً ومتسعاً ، وقد هيَّأت بعض الظروف التي لا مجال لتفصيلها في هذا الحديث لنشاطه ونفوذه ولظهوره على مسرح الحكم والإدارة ، والقوة الحربية والجهاز الحكومي ، وفي

www.abulhasanalinadwi.org

السوق والمنتديات ، والعلم والشعر والأدب ، في العهد الذي كان الإسلام فيه زاحفاً مقتحماً ، فاتحاً غانماً ، حاكماً مالكاً ، واقترنت بالدخول فيه والظهور بمظهره فوائد سياسيَّةٌ واجتماعيَّةٌ واقتصاديَّة ، هنالك برز النفاق في الميدان ، وتبوَّأ كثيرٌ من أصحابه مراكز رئيسية حسَّاسةٌ في حدود الدولة الإسلامية الواسعة ، وكان منهم من استطاع أن يفرض نفسه على هذه الدولة الناشئة بمهارته في بعض الفنون والصناعات ، أو بفضلٍ من ذكاءٍ وتفوُّقٍ في العلم ، فكان منهم كبار الإداريين ، وقادة الجيوش ، وكبار الكتَّاب والأعوان .

وفي مثل هذه الظروف سئل سيد التابعين الإمام الحسن البصري عن وجود النفاق والمنافقين والدولة للإسلام والمسلمين ، فأجاب بالإيجاب ولم يثبت وجودهم فحسب بل أعلن أنهم في قوَّةٍ وشوكةٍ ، وفي موقف نفوذٍ وتأثيرٍ ، قال له رجل: يا أبا سعيد! اليوم نفاق؟ قال: لو خرجوا من أزقَّة البصرة لاستوحشتم فيها ، وقال مرَّةً: لو خرجوا لما انتصفتم من عدوكم ، وقال في مناسبة أخرى: يا سبحان الله! ما لقيت هذه الأمَّة من منافقٍ قهرها واستأثر عليها[١] .

وبقي هذا النفاق يعمل عمله ويثبت وجوده في المجتمع الإسلامي حتى في أوج عظمته السياسية والحضارية ، بل كان أقوى وأنشط في عهد المجد السياسي والمدني لضعف التربية الإسلامية ، وندرة المربين الربانيين المزكين للنفوس ، المهذبين للأخلاق ، وفساد نظام التربية في بعض العهود ، وكونه قنطرةً للوصول إلى كراسي الحكم ، ومراكز القيادة ، ولاحتياج الملوك والأمراء إلى الحذاق البارعين في بعض العلوم والآداب والكتابة والإدارة ، بصرف النظر عن عقيدتهم ، وسيرتهم ، وأخلاقهم ، واستمرَّ ذلك إلى آخر عهدٍ من عهود الحكومات الإسلامية في الشرق والغرب .

---

(١) مقتبس من «صفة النفاق وذم المنافقين» للمحدِّث أبي بكر .

www.abulhasanalinadwi.org

وجاء عهد الاحتلال الأجنبيِّ ، وغزو الغرب الفكريُّ والثقافيُّ ، ووقع الشرق الإسلامي ـ بإرادةٍ أو بغير إرادة ـ في حضانة التربية الغربية ، ونظمها التعليمية ، ومناهجها الفكرية ، وقيمها ومثلها العليا ، وتصورها للحياة والإنسان ، ونظرتها إلى العلوم والآداب ، كما يترامى الطفل الصغير في أحضان مربٍّ كبير ، ويقبل نظامه التعليمي ، وبالأصح فكرته التعليمية ، بحذافيرها وعلى علاتها ، التي ولدت ونشأت واختمرت في بيئةٍ تؤمن بعقائد وأسس ، ومبادىء وقيم ، ومفاهيم ومثل تختلف كلَّ الاخلاف عن العقائد والأسس ، والمبادئ والقيم ، والمفاهيم والمثل ، التي يؤمن بها المجتمع الإسلاميُّ ، أو يجب أن يؤمن بها ، ويعيش لها ، ويجاهد في سبيلها ، بل تقوم على نفيها وهدمها أحياناً ، والتهكم بها ، والاستهانة بقيمتها أحياناً أخرى ، فكان مثله كمثل رجلٍ يتناول السُّمَّ الزعاف ليعيش ، ويشرب الماء الملح الأجاج ليروي غلَّته ، وحكَّموا في تخطيط برامجهم التعليمية ، ومؤسساتهم العلمية الأخصائيين أو المستشارين من البلاد الأجنبية ، ولم يستوردوا منها المقررات الدراسية فحسب ، بل النظريات التعليمية ، والتصورات التربوية ، وأرسلوا البعثات إلى الخارج لتنشأ في أحضان المربين الغربيين والأساتذة الأجانب ، ثم أطلقوا أيديهم ، ومنحوهم كلَّ حرِّيةٍ في تخطيط البرامج التعليمية وسياسة التعليم في هذه الأقطار الإسلامية .

فكانت النتيجة وجود طبقةٍ مضطَّربةٍ في العقائد ، والأفكار ، والسيرة ، والأخلاق ، أحسن أحوالها أن تكون مذبذبةً بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية ، وإلا فهي في أكثر الأحيان تنسلخ من كل ما يدين به مجتمعها ، وأمتها ، وبلادها .

وذلك شيءٌ طبعيٌّ لا يستغرب وجود ، إنما يستغرب عكسه ، وقد يكون هؤلاء الأخصائيون أو المستشارون وتلاميذهم مخلصين في عملهم يريدون الخير للأقطار الإسلامية ، والأجيال الإسلامية في هذا التخطيط التربوي ، وفي هذه السياسة التعليمية ، ولكن ذلك لا يمنع من تعرض الأقطار

www.abulhasanalinadwi.org

والأجيال لهذا الاضطراب الفكري ، أو التناقض المبدئي ، ولكلٍّ منهم العذر في ذلك؛ لقلة معرفتهم بهذا الدين وأسسه ومبادئه ، وطبيعة هذه الشعوب الإسلامية ، وما يتفق مع شخصيتها ورسالتها ، وما ينسجم معهما ، وقد تكون محاولتهم لإنقاذها ـ بإخلاص وحسن نيَّةٍ ـ ذريعة هلاكها ، وقد أعجبني ما قاله الأستاذ (Don Adams) عن هؤلآء الموجهين المستشارين الأجانب في كتابه[١] «المخطط التربوي للمجتمعات المعاصرة» يقول:

«إنَّ أبلغ مثلٍ يُضرب للأضرار التي تلحق بالشعوب بخطأ يخصّ المستشارين التعليميين الأجانب ، وما جاء في حكاية شرقية يصور موقف هؤلآء الماهرين تصويراً دقيقاً ، زعموا أنَّ ناحيةً من العالم أصيبت بفيضانٍ عظيمٍ ، تورَّط فيه قردٌ وسمكةٌ ، وكان القرد شاطراً ومحنَّكاً قد جرب مثل هذه الفيضانات ، فتسلَّق فرع شجرةً وأمن خطر هذا الفيضان ، ووقع بصره على السمكة تكافح تيار الفيضان ، وتطفو على سطح البحر ، واحتمل القرد العطف على هذه السمكة المسكينة ورقَّ لها قلبه ، فنزل من الشجرة وأنقذ السمكة بكل إخلاص من هذا الخطر ، وجاء بها إلى الساحل وألقاها على الرَّمل حيث لا تصل إليها الأمواج ، وكانت النتيجة ظاهرةً لا تحتاج إلى تفسير».

وقد اتفق أعظم علماء التربية في العهد الحاضر على «أن عملية التربية في أمَّةٍ وبلادٍ ليست بضاعةً تُصدَّر إلى الخارج ، أو تستورد إلى الداخل ، كالمصنوعات ، أو المواد الخام ، أو الحاجيات والمخترعات التي لا تختصُّ ببلدٍ دون بلدٍ ، إنَّما هو لباسٌ يفصَّل على قامة هذه الشعوب وملامحها القومية ، وتقاليدها الموروثة ، وآدابها المفضَّلة ، وأهدافها التي

---

(١) Thut and Don Adams: Educational Patterns in Contemporary deties Mc Graw Hill Book Co. Newyork (1964) p. 352.

www.abulhasanalinadwi.org

تعيش لها ، وتموت في سبيلها[١] وأنَّ التربية ليست إلا وسيلةً راقيةً مهذبةً لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعبٌ أو بلدٌ ، وتغذيتها بالاقتناع الفكريِّ القائم على الثِّقة والاعتزاز ، وتسليحها بالدلائل العلمية ، إذا احتيج إليها ، ووسيلةً كريمةً لتخليد هذه العقيدة ، ونقلها سليمة إلى الأجيال القادمة ، وأنَّ أفضل تفسيرٍ لنظام التربية هي أنَّها السعي الحثيث المتواصل يقوم به الآباء والمربون لإنشاء أبنائهم على الإيمان بالعقيدة التي يؤمنون بها ، والنظرة التي ينظرون بها إلى الحياة والكون ، وتربيتهم تربية تمكنهم من أن يكونوا ورثةً صالحين للتراث الذي ورثه هؤلآء الآباء عن أجدادهم ، مع الصلاحية الكافية للتقدم والتوسُّع في هذه الثروة[٢].

وقد جاء في تقريرٍ تربويٍّ قدَّمه بعض كبار خبراء التربية في بريطانيا ما خلاصته :

«إنَّ مصلحة الحكومة في أن تطمئن إلى أنَّ المدارس القائمة في حدودها كفيلةٌ بنقل جميع أجزاء الحياة القومية إلى الأجيال القادمة ، جيلاً بعد جيل ، إنَّ الفكرة التي يجب أن تسيطر على سياسة الحكومة التربوية المرسومة ، وتسندها ، هي أن ينشأ الأطفال ورثةً للخصائص القومية ، وخلفاء آبائهم بالجدارة»[٣].

ويقول (F. W . Gardford) في كتابه : «التربية والغاية الاجتماعية» :

«إنَّ أفضل محكٍّ لنجاح التربية وإخفاقها ، هو تقاليد المجتمع والقيم السائدة ، فهي الأسس التي تقوم عليها خصائصها وبقاؤها ، ومما لا بد منه ألا تكون بينها وبين التربية فجوةٌ فكريةٌ أو عدم انسجامٍ ، فعلينا أن نلاحظ

---

(١) مقتبس من محاضرة العلامة الندوي «مهمة التربية والتعليم» المدرجة في كتابه «نحو التربية الإسلامية الحرَّة». طبع في دار ابن كثير بدمشق .

(٢) يرجع إلى دائرة المعارف البريطانية مقالة «التربية» وكتابات أحد أبناء فن التربية في العهد الحاضر جان ديوي John Dewey.

(٣) Secondry Education With Special Reference to Grammar and Practical Schools. H.M.S.O. 1931 pp 147 - 148.

www.abulhasanalinadwi.org

دائماً أنَّ كلَّ محاولةٍ للتقدُّم تقوم على القيم المقررة التي يؤمن بها هذا الشعب ، فيجب أن تقوم عليها جميع التجارب التي يقوم بها رجال التربية»(١) .

ونكتفي بشهادةٍ أخرى أكثر تركيزاً وأشدَّ صراحةً لأحد علماء التربية (Vernon Mallinson) يقول :

«إنَّ التعليم القوميَّ عبارةٌ عن ميثاقٍ فكريٍّ تتجلى فيه غاية المجتمع المشتركة ومساعيه المشتركة ، ويمثل هذا الميثاق العاطفة القومية ويكون مزيجاً من خصائص لا بدَّ منها لتحقيق مطامع هذا المجتمع وأهدافه»(٢) .

وقد أخذ الغرب ـ على اختلاف نظمه السياسية ومدارسه الفكرية ، ومعسكراته الشرقية والغربية وعلى جميع علاته وعيوبه التي ننتقدها بهذا المبدأ التعليمي ، وطبّقه تطبيقاً دقيقاً شاملاً في جميع مجالات التربية ، وأصبحت المناهج التعليمية وسياسة التربية خاضعة لهذا المبدأ المقرر .

ولم تكن روسيا الشيوعية المعروفة بالتطرُّف والثورة أقل تطبيقاً لهذا المبدأ من البلاد الرأسمالية والديمقراطية ، بل لعلها كانت ـ للاحتفاظ بعقيدتها الشيوعية وروحها الثائرة ـ أدقَّ تطبيقاً له ، وأشدَّ غيرةً على مبادئها ، جاء في بيان رسمي صدر في ١٢ نوفمبر ١٩٥٨ م :

«إن العلوم العمرانية والاجتماعية تمثل دوراً حاسماً في تحقيق خصائص المجتمع الشيوعي ، إنَّه من ألزم اللوازم أن يكون أصحاب الاختصاص في كلِّ فنٍّ على اطلاع كافٍ بالمبادىء الماركسية واللينينية ، إنَّه يجب أن يتلقى شبابنا تربيةً تسري بها فيهم روح المقت الشديد ، والتعصب ضد الرأسمالية والرجعية»(٣) .

---

(١) F. W. Gardford في كتابه(162) "Education and Social Purpose" London pp 46 - 47.

(٢) An Introduction to the Study of Comparative Education (London 1957 Page 4).

(٣) Geoge. S. Count, The Challenge of Soviet Education =

www.abulhasanalinadwi.org

وبذلك سلم الغرب من هذا التناقض الذي يعيشه الشرق ، سواءً الأقطار الإسلامية منه وغير الإسلامية ، فلا وجود في الغرب لهوةٍ عميقةٍ سحيقةٍ فكريَّةٍ وعقائديةٍ بين الشعب والقيادات ، أو الجماهير والحكومات ، إنما هناك طراز واحد للمبادىء والقيم والمثل والغايات ، وليس هناك صراعٌ فكري ونفسي عنيف قاس بين مختلف الطبقات وأفراد المجتمع ، ولذلك أمن الثورات الداخلية ، والمؤامرات ضدَّ سلامة الشعب ، ومصالح البلاد .

وتتلو الغرب أقطارٌ شرقيَّة ذابت فيها العقيدة من عهدٍ بعيد ، وهي لا تؤمن بحقائق تقوم على الإيمان بالغيب واتِّباع الرسل ، وليست عندها تعاليم سماويةٌ معيَّنةٌ ، أو صحفٌ سماويةٌ محفوظةٌ ، وإنما تتمسك بالتقاليد والأعراف ، والمصالح القومية والفردية التي لا تتحدَّاها هذه النظم التربوية ، وليست منها بسبيل ، فهي سليمةٌ كذلك من هذا التناقض الذي يولده نظام التربية الغربي ، بل هي في اصطلاحٍ وتفاهم مع هذه النظم ، أو تكيِّف نفسها وأفكارها وفق هذه المناهج وموادها ، فالثورات والمؤامرات فيها قليلةٌ بالنسبة إلى الأقطار الإسلامية ، والتناقض قليلٌ ، وضعيفٌ لا أثر له في الحياة القومية ، والغدر القومي ، والخيانة الوطنية نادرةٌ جداً ، وليست بين الطبقة المثقفة والموجهة للبلاد ، وبين الجماهير ذلك الخليج الواسع الذي نشاهده في الأقطار الإسلاميَّة ، وإنَّ أدواء هذه الأقطار وعيوبها من جنس آخر ، ولها أسبابٌ ترجع إلى تاريخها ، وطبيعتها ، وعقائدها ، وفقدان الوازع الديني ، وقلة الوعي ، وفساد نظام التربية .

أما الأقطار الإسلامية فهي مسرحٌ للتناقض العجيب بين الطبقات الحاكمة أو الزعيمة ، وبين الجماهير في جانب ، وبين الطبقات المثقفة ثقافة عالية ، والطبقات التي تغلب عليها الأميَّة . وبين الطبقات المتدينة المحافظة وبين الطبقات المتحرِّرة التقدمية في جانب آخر ، وذلك كله نتيجة نظام التربية الغربي المستورد من الخارج ، أو المصوغ في الداخل على فكرة النظام الغربي وخطوطه ، فهو ينشىء جيلاً لا يسيغ العقائد ، والحقائق التي يقوم

= Newyork (McGraw Hill Book Co. 1957 Pages 50 - 51: 32).

www.abulhasanalinadwi.org

عليها المجتمع الإسلامي أو الأمَّة الإسلامية ، لأنَّ ما يعطيه هذا النظام ويغرس في النفوس والعقول يتناقض تناقضاً واضحاً مع العقائد والحقائق التي يؤمن أو يحبُّ أو يؤمن بها هذا المجتمع أو الأمة ، وإذا أساغها فإنَّما يسيغها بمعجزةٍ أو بتأثيرٍ خارجي يضمن سلطان هذا النظام ، وذلك شاذٌّ لا يقاس عليه .

وإذا وجدت هذه الطبقة أو الجيل الذي نشأ في أحضان هذا النظام ، ورضع بلبانه ، بقي في صراعٍ دائمٍ مع عقيدة الشعب وعقليته وعواطفه ، واتجاهاته ، فإذا كان قويَّ النَّفس ، قويَّ الإرادة؛ حاول أن يزيل أنقاض العهد القديم ، أو الرجعية (كما يقول بعض أفراد هذه الطبقة) ويخلِّص الأمَّة والبلاد من ركام الماضي ، وهنالك تقوم معركةٌ تستهلك طاقات وكفايات كانت الأمة أحوج إليها ، وتقوم حربٌ داخليةٌ قد تكون أطول وأعنف من الحروب الخارجية ، وهذه قصة بلادٍ ابتليت بزعاماتٍ دانت بمبادىء وفلسفاتٍ ثوريةٍ ، أو قوميةٍ ، أو علمانيَّةٍ .

وإذا كان هؤلاء الأفراد ضعيفي النفس والشخصية والإرادة؛ أصيبوا بمركب النقص ، وبكرهٍ شديدٍ للعقائد والأهداف التي يؤمن بها الشعب ، فيحيكون المؤامرات ، ويمالئون الأجانب ، وينتهزون كلَّ فرصةٍ للتخلُّص من ضغط الشعب الديني ، ونفوذ الدعاة الذين ينادون بالإسلام ، فتكثر حوادث الخيانة القومية ، وتعيش البلاد في جوٍّ من الاضطراب والإرهاب ، وعدم الثقة ، والشكِّ ، والبلبلة الفكرية .

ولا سبيل إلى التخلُّص من هذا الوضع غير الطبيعي وغير الضروريِّ إلا قلب هذه الأوضاع التعليمية رأساً على عقب ، وصياغتها صياغةً جذريَّةً جديدةً ، وهي قضية العالم الإسلاميِّ الكبرى ، وضرورته القصوى ، ونداء الوقت ، وفريضة الساعة .

وهنا أختم حديثي باستعارة قطعةٍ من إحدى كتاباتي السابقة ، ومعذرة للقراء الكرام الذين مرَّت بهم هذه القطعة قديماً :

www.abulhasanalinadwi.org

حــلُّ الــمشكلــة :

[«حلُّ هذه المشكلة ـ مهما تعقد وطال واحتاج إلى الصبر والمثابرة ـ ليس إلا أن يصاغ هذا النظام التعليميُّ صوغاً جديداً ، ويلاءم بعقائد الأمة المسلمة ومقومات حياتها ، وأهدافها ، وحاجاتها ، ويخرج من جميع مــواده روح المــاديــة والتمــرُّد علــى الله ، والثــورة علــى القيــم الخلقيــة والروحية ، وعبادة الجسم والمادة ، وينفخ فيه روح التقوى والإنابة إلى الله ، وتقدير الآخرة ، والعطف على الإنسانية كلِّها ، فمن اللغة والآداب إلى الفلسفة وعلم النفس ، ومن العلوم العمرانية إلى علوم الاقتصاد والسياسة ، لا تسيطر على كل ذلك إلا روحٌ واحدةٌ ، ويقصى استيلاء الغرب العقلي ، ويكفر بإمامته ، وسيادته ، وتجعل علومه ونظرياته موضوع الفحص والدراسة الجريئة ، ويوضح ماذا جنى نفوذ الغرب وسيطرته على الإنسانية والمدنية ، وتدرس علومه بشجاعةٍ وحريَّةٍ ، وتعتبر كمواد خامة (Raw Material) نصنع منها ما يوافق حاجاتنا ، ورغباتنا ، وعقيدتنا ، وثقافتنا .

إنَّ هذا العمل ولو كانت في طريقه عقباتٌ وعراقيل ولو تأخَّرت نتائجه ، ولكنه حلٌّ وحيدٌ للموجة الطاغية التي قد اكتسحت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، موجة التجدُّد والتغرُّب التي تتحدَّى الكيان الفكريَّ للإسلام وجهازه الاجتماعيَّ ، وظلت تهدِّد حياته وبقاءه ، ونتيجةً لذلك أصبحت عاطفة الشعوب المسلمة وتضحياتها وجهودها ، وإخلاصها ووفاؤها (التي هي السبب المباشر الأساسي في إنشاء الحكومات الإسلامية ، وتحرير البلاد المستعمرة) وقوداً حقيراً في نار التجدد والتغـرُّب ، وأصبحــت الجمــاهيــر المسلمــة ، السليمــة ، المخلصــة ، المتحمسة ، الصامتة قطعاناً من الغنم يتحكَّم في رقابها هؤلآء القادة والولاة ، وتساق إلى أيِّ هدفٍ في صمتٍ وهدوءٍ»[١] .

---

(١) انظر : «نحو التربية الإسلامية الحرة» للعلامة الندوي : ص/ ٤٢ ـ ٤٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

العمل المطلوب:

ما هو الجانب المحدَّد، المعيَّنُ، الرئيسيُّ في هذا الزمان؟ ما هو الواقع المحدَّد الآن في البلاد الإسلامية؟

إنَّها إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة بصلاحية الإسلام، ليست بصلاحية الإسلام فقط، بل بصلاحيته للقيادة وحلِّ المشاكل، ولصياغة المجتمع صياغة سليمةً عصريَّةً، جديدةً صحيحةً، فالجانب الذي أريد أن أركز عليه اهتمامكم الآن، وأركز عليه طاقتكم وإمكانياتكم، وذكاءكم ومجهودكم في بلادكم، هو إعادة الثقة بصلاحية الإسلام في الطبقة المثقفة، لأنَّ هذه الطبقة المثقفة قد ضعفت الثقة بصلاحية الإسلام فيها، أو فقدت تماماً، لأنَّ النظام الدعوي التربوي العصري الغربي هو نجح في ذلك نجاحاً تسعين في المئة تقريباً، أو تسعاً وتسعين في المئة، فإنَّ الطبقة المثقفة التي تخرجت من الكليات والجامعات، أو رجعت من الغرب بعد الدراسة، أو تخرجت من جامعاتها الكبيرة، لا أقول: إنها ضعفت فيها الثقة، بل هي فقدت ثقتها تماماً بصلاحية الإسلام، فالآن القضية الرئيسية المركزية عندهم هو إزالة هذه الثقة عن نفوس الشعب، والتحرر من ربقة الإسلام، ومن قيوده الشرعية، والخلقية، والتشريعية، والقانونية والمدنية.

هذه هي الحرب الحقيقية السافرة التي توجد الآن في البلاد الإسلامية، ما هي الحرب؟ أقول لكم بكلِّ صراحةٍ وعلى بصيرةٍ وعن تجربةٍ واختبارٍ، إنه لا حرب في بلدٍ إسلاميٍّ بين الإسلام والصهيونية، لا حرب بين الإسلام والصليبية، ولا حرب بين الإسلام والنفوذ الغربي، ولا حرب بين الإسلام وفساد الأخلاق، هي حربٌ واحدةٌ، هي حرب بين الطبقة المثقفة الرئيسية التي تملك زمام الحكم وبين الزعماء، وبين الجمهور والشعب لإزالة هذه الثقة بصلاحية الإسلام، إنهم يقولون بلسان الحال: نعم الإسلام كان عظيماً، مثّل دوراً، دوراً محموداً جزاه الله خيراً، جزى الله القائمين به، إنَّه ردَّ على الوثنية السافرة، وإنه أزال وأد البنات، وإنه أعطى النساء بعض

www.abulhasanalinadwi.org

الحقوق ، وإنه أزال بعض المنكرات ، وبعض العيوب الخلقية ، وبعض الذمائم من المجتمع العربي ، ولكن الإسلام قد مضى زمنه ، فقد وقف وتقدَّم الزمان ، إنما هي قضية القيادة وقضية الصياغة للحضارة والقانون ، وأن يتصرَّف ويتحكَّم في حياة الإنسان ، ويقول: هذا حرام وهذا حلالٌ ، وهذا معروفٌ وهذا منكرٌ ، هذا دينٌ وهذا لا دينٌ ـ لا ـ هذا لا نسمح بذلك ، الإسلام قد قضى دوره ، الإسلام قد انتهى أجله ، إنه قام بدورٍ محمود في التاريخ ، إنه قام بعملية إصلاحية محدودة في جزيرة العرب وخارج الجزيرة ، ولكن الآن في هذا العصر المتمدن الراقي الذي يطير الإنسان فيه في الهواء ، ويسير في البحر ، والذي وصل إلى القمر ، وركز الراية على القمر ، إنَّ الإسلام لا يستطيع أن يسايره ، ويقوده ويحلُّ مشاكله .

فهل من بلد إسلاميٍّ أو حكومة إسلاميَّة أو جامعةٍ من الجامعات المرموقةِ في عواصم العالم الإسلامي تلبي هذا النداء ، وتركز جهودها وعنايتها ووسائلها على تحقيق هذا العمل البنائي الثوري الذي ينقذ العالم الإسلاميَّ من أكبر خطرٍ يتهدَّده ، بل من عملية الهدم والإبادة الشاملة التي لم تعرف إبادةً أكبر نجاحاً ، وأعمق منها أثراً في تاريخ الأمم والملل ، والديانات ، والحضارات ، فهل من مجيب؟ وقد قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ [الإسراء: ٣١].

إن القتل المعنوي ليس أهون من القتل الجسماني ، ولا فرق بين السُّمِّ الناقع الذي يسرع بالإنسان إلى الموت ، وبين السم الذي يتدرّج بالإنسان إلى الموت ، وقد نهى الله عن كل ذلك فقال :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلام في عالم متغيِّر

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في مؤتمر الدراسات الإسلامية بجامعة عليكراه الإسلامية في كانون الثاني ١٩٧٧ م بحضور عددٍ كبير من أساتذة الجامعة وممثلين عن الجامعات والمعاهد الإسلامية في الهند. نقدِّم هنا هذه المحاضرة القيِّمة إلى القراء الكرام نقلاً من الأردوية.

www.abulhasanalinadwi.org

أيها السادة! نائب رئيس الجامعة! أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة والضيوف المحترمين!

أشكر منظمي هذا المؤتمر لمنحهم إيَّايَ شرف افتتاحه ، ولقد أحسنوا صنعاً بإقامته تحت رعاية الجامعة الإسلامية عليكره ، التي اهتمَّت بالعالم المتغيِّر فيما يتعلَّق خاصَّةً بالإسلام والمسلمين في الهند.

إنَّ الحركات والمؤسسات التي تعترف بحقيقة التغيُّر تُحمِّل نفسها مسؤوليةً عظمى . . إنَّه ليس من السَّهل الاعتراف بالحاجة إلى التغيير والتعديل ؛ إذ يترتَّب على ذلك المراقبة باستمرارٍ للتبدُّلات والتغيُّرات التي تجري من حولنا ، وفحصها وتقييمها بموضوعيَّةٍ ، ونتساءل فيما إذا كنَّا مهيَّئين فعلاً لهذه التغيُّرات ، ونقبل بتحدِّيها ، ونكيِّف أنفسنا بموجبها؟

لقد أخذ علماء الجامعة الإسلاميَّة وندوة العلماء على عاتقهم مهمةً كبرى ، وإنَّ حشداً من أولئك الذين يمارسون السُّلطة في هذين المعهدين يشهد هذا المكان اليوم ، وعليهم أن يحلِّلوا أنفسهم قبل تحليلهم للعصور ، وأن يقرِّروا فيما إذا كانوا مهيَّئين للقبول بتغيُّر مشروعٍ مرَّة أخرى بعد أن خضعوا للتحوُّل فيما مضى.

التغيـرُ قـانـون الـحيـــاة:

إنَّ موضوع المناقشة اليوم هو الإسلام في عالمٍ متغيِّر ، وإنَّه يتألَّف من كلمتين: «الإسلام» و«العالم المتغيِّر» وبذلك أنتهز الفرصة لأقدِّم آرائي عن وجهي المسألة كليهما ، بحيث تضفي عليها شيئاً من الفكر بشكلٍ صريحٍ وحرٍّ.

يفترض عموماً ، أنَّه ليس للزَّمن ثباتٌ أو دوامٌ ، بل إنَّه اسم آخر للتغيُّر والتحوُّل ، ولكن ليس الأمر كذلك ، إنَّ الزمن مركبٌ من الاثنين ـ التغيُّر

www.abulhasanalinadwi.org

والاستمرار ـ ، وإذا اختلَّ هذا التوازن كأن يتحكَّم الاستمرار بالتغيُّر ، أو يتسلَّط التغيُّر على الاستمرار ، فإنَّ ذلك سينتج آثاراً خطيرةً تنعكس على المجتمع والحضارة ، وإنَّ التوازن بحاجة إلى التناسب حتى أكثر من أيِّ مركب كيميائي .

إن الزمن له القدرة على التغيير ، ويجب أن يغيِّر ، وذلك ليس علامة ضعفٍ أو نقصٍ ، إنما هو قانون الحياة ، وكما قال إقبال : «إنَّ الحياة دائمة الحركة ، دائمة الانسياب ، دائمة الشباب» ، وإنَّ الحياة الخالية من القدرة على النمو والتطوُّر يمكن أن يكون أي شيءٍ آخر إلا الحياة .

إلى جانب ذلك فإنَّ مقاومة التغيُّر هي ـ أيضاً ـ صفةٌ متأصِّلةٌ في الزمن ، وإنَّ مظاهر التغيُّر تبدو لنا بوضوحٍ . . وكلُّها يشعركم بتحوُّل الزمن بشكلٍ كبير . إنَّنا في مجريات الأمور العادية لا نوفق في الإدراك إدراكاً تامّاً للصراع الذي يقوم به الزمن ليحافظ على خواصِّه الجيدة ، والسليمة ، وطبيعته ، وصفته الحقيقية ، وإنَّ ذلك يتطلَّب مجهراً خاصّاً .

خذ النهر الذي يمثل نموذجاً مثالياً للحركة . . ما من موجتين من أمواجه متماثلتين على الإطلاق ، وبالرغم من أمواجه العابرة فإنَّه موجودٌ مكانه منذ آلاف السنين ، محتفظ بكلِّ خصائصه ، واسمه واتجاهه . . فأنهار دجلة ، والفرات ، والغانج ، وجامونا كلُّها هي نفسها منذ أن كانت في العصور الغابرة .

إنَّ الزَّمن ساكن بالإضافة إلى كونه متحركاً ، وكلتا هاتين الصفتين جوهريتان بالنسبة له فهو ـ بدون أيٍّ منهما ـ لا يستطيع الاحتفاظ بفائدته بنفس الطريقة ، لأنَّ القوى السالبة والموجبة تعمل عملها في الأشياء الحيَّة ، وغير الحية الموجودة في العالم ، وعن طريق أفعالها وردود فعلها تحقِّق هذه الأشياء قدرها .

الدين هو حارس الحياة :

باعتباري مريداً وتابعاً لدينٍ لا يمكنني ـ أبداً ـ أن أقبل وضعاً يستجيب فيه هذا الدين لكلِّ تغيُّر ، ولا يمكن أن توافق أنت على ذلك أيضاً ، لأنَّ

www.abulhasanalinadwi.org

الدِّين ليس مقياس حرارةٍ يقتصر عمله على تسجيل درجة الحرارة ، ولا هو بالأداة التي ترصد اتجاه هبوب الرياح . . لا يمكن تعريف الدِّين بهذه العبارات ، ولا يمكن أن يصير إلى أداةٍ آليَّة غريبةٍ ، وليس بيننا واحدٌ يريد من الدِّين أن يعمل كسجلٍ لتغيرات الأزمنة ، وإنَّ ديناً وضعياً مزعوماً لا يمكن أن يتحمَّل هذا الوضع ، فكيف بدين منزَّل؟! .

إنَّ الدين يقرُّ التغير كحقيقةٍ واقعةٍ ، ويعطي أكمل مجالٍ لسبر الأمور من أجل تحوُّلٍ صحيحٍ سليمٍ .

الدين يتقدَّم مع الحياة يداً بيد ، ولا يواكبها فقط ، كتابع لها . . ووظيفته هو أيضاً أن يميِّز بين تغيُّرٍ سليمٍ ، وآخر غير سليمٍ ، وبين نزعةٍ هدَّامةٍ وأخرى بنَّاءة . . ويجب أن يقرِّر الدِّين فيما إذا كان التحوُّل نافعاً ، أو ضارّاً بالبشرية ، أو باتباعها على الأقل .

وبينما يتمشى الدين مع الحياة الديناميكية جنباً إلى جنبٍ من جهةٍ ، فإنَّه يعمل حارساً وحامياً لها من جهةٍ أخرى ، وتجب عليه مهمَّة المراقبة ، والضبط أيضاً ، وليس من مهمَّة الوصي أن يدعم كل ما يفعله القاصر الموضوع تحت وصايته ، ويؤيد كلَّ ميوله ، الجيِّدة منها والسيِّئة ، أو أن يصادق بختم الموافقة على كل شيءٍ يسعى وراءه ، بل إنَّ الدِّين يمتلك ختماً واحداً ، وحبراً واحداً ، ويداً واحدةً فقط . . وليس من شأنه أن يلصق طابعه على أيِّ وثيقةٍ أو صكٍّ . . بل يجب عليه أن يميِّز ، ويختار ، أجل إنَّه يفحص (الوثيقة) أولاً ثمَّ يصدر حكمه . . فإن وجد فيها خطأً أو ضرراً حاول الدين أن يتركها برفقٍ ـ إذا أمكن ـ أو بقوَّةٍ إذا اقتضى الأمر ذلك ، وإذا عُرِضت عليه وثيقةٌ واعتبرها ضارَّةً بالجنس البشريِّ فهو لا يمتنع عن تصديقها وختمها فقط ، بل يكافح لمقاومتها ، وهنا يكمن الفرق بين الدِّين والأخلاق ، فالدين يرى من واجبه ، ومسؤوليته ضبط النزعة الخاطئة وردِّها ، بينما تكتفي الأخلاق بالإشارة إليها ، وإظهارها .

بعض المحن في تاريخ الدين :

نجد في تاريخ الدين بعض الفترات التي فقد فيها الدين الاتصال المباشر

www.abulhasanalinadwi.org

بالحياة ، ولكنَّ التقصير لا يكمن في ذات الدين ، وإنما هو تقصير أتباعه ، وليس الدِّين هو الذي يفشل في مواكبة الحياة ، ولكن أنصاره هم الذين لا يطبقون مُثُلَهُ العليا ، وقيمه النبيلة نتيجةً لكسلهم ، ولا مبالاتهم . . وإنَّ هؤلاء الأنصار يتخلفون عن الركب ، بينما تسير قافلة الحياة إلى الأمام .

والفرق بين الدِّين وأنصاره دقيقٌ جداً ، حتى إننا لا نشغل أنفسنا بالتحقيق لنصل إلى تحميل أيِّهما المسؤولية الحقيقية ، ولكننا نميل ـ دائماً ـ إلى اقترانهما ببعضهما . . ولو أجريت دراسةٌ نقديَّةٌ موضوعيَّةٌ لتبين أنَّ الإسلام من حيث هو عقيدة إلهية لم يكن مسؤولاً عن هذه الحال المؤسفة ، لأنَّه ليس في الإسلام ما يمنعه عن تلبية حاجات العالم العملية ، وحلِّ مشاكله .

إنه لضعفٌ عامٌّ فينا . . أن نلقي باللوم على الآخرين ، فعند ما يتعذَّر على المسلمين حلُّ مشاكلهم على ضوء القرآن ، ويعجزون عن إيجاد تآلف بين أحكام الشريعة النابعة من العقيدة الخالدة وبين حقائق العالم المتغيِّرة ينتقدون القرآن ، ولا ينقدون أنفسهم ، ويقدِّمون للنقاد انطباعاً بأنَّ القرآن ناقصٌ؛ لأنَّه لا يقدِّم تبريراً لكل نزواتهم ، ورغباتهم ، وحاجاتهم!! . . وكما قال إقبال :

«إن اعتقاد هؤلاء العبيد أنَّ القرآن ناقصٌ؛ لأنَّه لا يُعلِّم المسلمين طرق العبودية!» .

ويمضي بعضهم إلى أبعد من ذلك؛ إذ يحاولون إخضاع القرآن لنزواتهم ، وأهوائهم ، ومطامحهم ، فيقدمون تفاسير له تتضمن تبريراً لأعمالهم ، وأفكارهم المنحرفة الضالة ، وبدلاً من أن يصيغوا أنفسهم في قالب القرآن يحاولون صبَّ القرآن في قالب أفكارهم ، وأعمالهم تلك! .

ولقد ألقى مولانا أبو الكلام آزاد الضوء على هذا الضعف بأسلوبه الفذِّ في تفسيره القرآن ، حين كتب قائلاً :

«وعندما شعروا أنَّهم لا يستطيعون أن يتمشوا والقرآن في علوه العظيم حاولوا أن ينزلوه من عليائه ليتمشَّى ومستواهم المنحط» .

www.abulhasanalinadwi.org

نـدرة ذوي الـمـواهــب :

إنَّ فترات الركود في عالم العقيدة ، أو فترات الفوضى والتعقيد ، والصراع الداخلي بين أتباعها ، هي فترات يندر فيها الرجال ذوو الكفاءة ، والمقدرة؛ الذين يستطيعون قبول تحدِّي العصر ، ويعملون هداةً أقوياء ، دعاةً للدين .

وفي تاريخ الإسلام ترى أنَّه كلما لقيت العقيدة تمثيلاً فعَّالاً حقيقيّاً كان المجتمع الإسلامي ، والشريعة الإسلاميَّة ـ أبداً ـ في منأى عن أزمة الثقة . . وخلال تاريخ الإسلام الطويل والمتأرجح بين القوَّة والضعف نجد رجالاً بارزين ارتفعوا فوق المستوى العام ، ووضعوا نهاية لمصدر الأذى في عصرهم ، وأوجدوا حلولاً للمشاكل الجديدة ، وأدَّوا ـ بنجاحٍ ـ مسؤولية القيام بما تمليه العقيدة ، والدفاع عنها ، والتكلم باسمها .

فلقد ولد الإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك ، والإمام الشافعيُّ ، والإمام أحمد بن حنبل في عصرٍ كان الإسلام والعالم بحاجةٍ إليهم ، ولقد حلَّوا المشاكل التي ظهرت نتيجةً لتوسع بلاد الإسلام ، فقدَّموا التشريع الإسلاميَّ بشكلٍ واضحٍ ومحدَّدٍ ، وظهر فيما بعد قادةٌ للفكر والعمل ، كالإمام أبي الحسن الأشعري والإمام الغزالي ، الذين صارعوا التحدِّيات التي واجهوها في زمانهم ، وأوجدوا حلولاً مناسبةً لها .

سهلـةٌ مـثلمـا هـي مـعقــدةٌ:

إنَّ القضية بسيطةٌ جدّاً ، ولكن بإمكانها أن تصبح أكثر تعقيداً حين تفحص من وجهة النظر الفلسفية ، والتعليل المنطقي . . إنَّها سهلةٌ كما هي معقَّدةٌ ، وبسيطةٌ كما هي مركَّبةٌ ، إنَّها سهلةٌ وبسيطةٌ إذا ما أدركت أولاً حقيقة أنَّ الزمن لا يتغيَّر بالطريقة التي لا تستطيع معها مدرسة فكريَّةٌ ، ولا نظامٌ أخلاقيٌّ مجاراته ، ويجب علينا الوصول إلى فهم أهمية الزمن ووضعه في المكان المناسب وفي نفس الوقت فهم الإسلام ، وأن تتولى دراسته دراسةً عميقةً ، ونرى أيَّ هديٍ خالدٍ هذا الذي يقدِّمه لنا القرآن ، وكيف أنَّ الإسلام يقدر ميِّزة التغير في الحياة ، ويدعو إلى التفكير والتأمُّل .

www.abulhasanalinadwi.org

وعلينا أن نتفحَّص كيف أنَّ الرعيل الأول من المسلمين ، الذين كان عليهم مواجهة أفكارٍ ، وعقائدٍ ، وحضاراتٍ جديدةٍ ، ولأول مرَّة استطاعوا إنجاز مهمتهم بنجاحٍ .

إنَّ التمشِّي مع العصر الحديث جنباً إلى جنبٍ شيءٌ لا يدعو إلى الافتخار فيما يخصُّ الإسلام؛ إذ أنَّه يستطيع فعلاً أن يكون رائد العصر الحديث ويرشده إلى الطريق السوي .

انطـواء عـلـى الانـتحـار :

أيَّة هوَّةٍ من الدَّمار مقبلٌ عليها العصر الحديث؟ كيف ينطوي على الانتحار ، ويدفع بالبشرية إلى الهلاك؟ إنَّه يقدِّم الكثير من الدلائل والشواهد التي تشير إلى عدم نفع الجنس البشري في مملكة الله ، وتبيُّن أنَّ الإنسان لا يمتلك حق العيش في هذه المملكة! .

ما القوى المدمرة التي تعمل عملها فيها من خلال المبادىء الثابتة في القرآن؟ سواءٌ الاجتماعية منها ، أو الأخلاقية ، والتي تتعلَّق بالوجود الفرديِّ والجماعيِّ ، لا يستطيع الإسلام أن يفي بمتطلبات العصر الحاضر فحسب ، بل إنَّه يستطيع ـ أيضاً ـ أن ينقذ المدنية الحديثة من الدَّمار والفناء ، إنَّ القضية لم تعد مسألة مجاراة العصر الحديث ، ولكنَّها قضية إنقاذ البشرية .

ما هو مصير أولئك الذين يحلفون بالعصر الحديث ، ويكيلون له المديح ، ويعقدون المؤتمرات باسمه ، وإلى أين سينتهون؟ هل سيسمع لهم صوتٌ في عالمٍ يُعبد فيه البطنُ والشهواتُ الجسدية؟ في وقتنا الحاضر هناك في العالم وفي بلدنا قوَّتان يسلِّم بهما ، وهما : القوة ، والثروة . وهنا يجدر بنا أن نتساءل : أيمكننا أن نفكر تفكيراً جدِّياً في أيِّ شيءٍ ضمن محيطٍ كهذا؟ وهل سيكون الناس في وضعٍ يسمح لهم بالإصغاء لنداء العقل؟ ثمَّة شعارٌ واحدٌ سيلقى الآذان الصاغية له في هذه الحال : أضع التبن حينما تكون

www.abulhasanalinadwi.org

الشمس ساطعةً[١] ، ولن يكون للواجبات ، والقيم الأخلاقية ، والمثل الروحية أيُّ معنىً ، ويصبح الحديث عن إنقاذ البشرية مجرَّد هراءٍ لا يعيره أحدٌ أدنى اهتمام.

إنَّ قضية إنقاذ العالم الحديث أصبحت الآن أكثر أهميَّةً من قضية إنقاذ الإسلام، فعليكم واجب الاهتمام بالعصر الحاضر؛ الذي سكر حتى أنَّه صار غير مهيَّأٍ لأن يستمع إلى أي شيءٍ متَّزنٍ وجادٍّ ، ولا تقلقوا على الإسلام فإنَّه يراقب كلَّ عصرٍ ، ويقرِّر كلَّ متطلباته العادلة والخيرة والمشروعة ، وما من نظامٍ أعدل وأنصف من الإسلام ، فلقد اهتمَّ بكلِّ صرخة ألم اهتماماً شديداً، وهو يناشد العقل ، ويحضُّه دائماً على البقاء نشيطاً وفعالاً . . إنَّ الجامعة الإسلامية ، والمدارس العربية هي اليوم في عطلةٍ وربما كانت في عطلة يوم أحدٍ أو يوم جمعة ، ولكن أكثر تضحية من أي فردٍ العقل البشري، لا يعرف العطل ، ولقد أكَّد الإسلام على رجال العلم أن يكونوا أكثر تضحيةً من أيِّ فردٍ آخر، وأن يكونوا مستعدين ليعيشوا في مستوى حياةٍ قاسيةٍ، وصارمةٍ.

ســـوء فــهــم:

إنَّ سوء التفسير يتسبَّب في كثيرٍ من حالات سوء التفاهم ، فلقد نصحنا الإمام عليٌّ بمخاطبة الناس على قدر عقولهم . . . أن نقدِّم الحقائق المبهمة بطريقةٍ تمكِّن العقل من قبولها ، وليست القضية متعلقةً باللغة وحدها ، بل هي قضية طريقة التفكير ، وصيغة التعبير.

ثم يضيف الإمام عليٌّ قائلاً: أتريدون أن تدحض أحكام (أوامر) الله ورسوله؟ وأن يفنِّد الله ورسوله ، لا لأنَّ دينه بمبادئه متناقض مع حقائق الزَّمن ، وإنما لأنَّها لا تقدَّم بأسلوبٍ صحيح جذَّابٍ ، وسهل الإدراك.

إنَّ الإسلام يطلب مكانه الخاص به في العالم المتغيِّر ، ويصرُّ على هذه المطالبة إذا كان (العالم) ينشد الرحمة ، ومن جهةٍ أخرى يمكن للعالم أن يتقدَّم في الوجهة الصحيحة تحت قيادة الإسلام.

---

(١) يراد بهذا المثل: استغلال كلِّ فرصةٍ مواتية في سبيل المنفعة.

www.abulhasanalinadwi.org

الـديـن والـتمـدن :

إنَّ اهتماماتنا في هذه المرحلة تتوجه نحو التمدُّن . . إنَّها فكرةٌ غربيَّةٌ ، وكثيرون هم الذين يتصوَّرن أنَّ الإسلام اسمٌ لمدنية اندثرت وبادت! ! والكتَّاب مولعون بالتنويه إليها كتراثٍ للإسلام . . وإنَّ الإسلام له مدنيةٌ ، ولكنه لا يمثل حضارةً قديمة .

نعلم أنَّ حضارةً عمرها خمسمئةٍ أو ألف من السنين ليس لها تأثيرٌ فعالٌ في عالمٍ متغير ، لكن الدين ليس اسماً فقط لبعض القيم الأخلاقية ، أو لنظامٍ اجتماعيٍّ وثقافيٍّ ، أو لمدرسةٍ في فنِّ العمارة . . إنَّها قضية حقائق تقع خارجَ نطاق الخبرة البشرية ، وقضية أركان الإيمان والمبادىء الجوهرية كعقيدةٍ ، والصلة بين الرَّبِّ وعباده ، ونواميس الوجود السرمدية .

إذا كان مجال الإسلام بهذا الشكل فمن السُّخف أن يتساءل المرء ما سيحدث للإسلام فيما لو تبدَّلت المعايير ، وهل بمقدوره أن يتناسب معها؟ فالمفكرون الغربيُّون يثيرون أفكاراً باطلة ، ويعزِّزون خلافاتٍ جدليةً مضلِّلةً ، ومهما تغيَّرت الحياة فسيبقى هناك مكانٌ للحقائق الخارجة عن نطاق الخبرة البشرية ، والوجود بكامله يجب أن يخضع لمراقبة الإيمان . . وإلا سقطنا فريسةً لنفس الشرِّ السائد في المجتمعات الغربية .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

مسـؤوليـة الـعلمـاء نحـو الـتحـدِّي الـعصـريِّ الـكبيـر

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرةَ في حفلةٍ كبيرةٍ عقدت في قاعة جامعة التعليمات الإسلامية بمدينة «فيصل آباد» في ٢٣/ يوليو ١٩٧٨ م.

وقـدَّم العلامةَ فضيلةُ الشيخ عبد الرحيم أشرف مؤسس الجامعة ورئيسها، وألقى فضيلة الأستاذ عبد الغفار حسن (أستاذ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة) كلمة شكرٍ وختام.

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة : ٢].

أصحاب السعادة والفضيلة! المسؤولون عن الجامعة وأساتذتها ، وطلابها!

إنَّه تغمرني موجات فرحٍ حينما أتحدَّث إليكم ، ولا أشعر بشيءٍ من الغربة ، ثم إنَّنا ركاب سفينةٍ واحدة ، ورفاق رحلةٍ واحدةٍ ، هي رحلة التعليم الدِّيني ، والدعوة الإسلامية ، والقيام بعرضها ، وشرحها ، ونشرها.

تحدِّي العصر الحديث:

أعتقد أنَّ أكبر تحدٍّ للعصر الحديث ، هو المادِّيَّة ، والأنانية ، والثروة ، وقد ظلت هذه الفتنة تعمل عملها على امتداد العصور ، لكنَّها اليوم برزت في الميدان قويةً ، مخططةً مسلحة بالدلائل المزوَّرة اللمَّاعة ، والفلسفات الخاطئة البرَّاقة ، في صورةٍ باهرةٍ لم تظهر فيها فيما مضى من الزمان قطُّ. . . نعم قد كان الناس فيما مضى في عهد ازدهار المدَنية ، وأوج المادِّيَّة الرعناء يقعون فريسةَ فتنة المال ، والترف ، وما يسميه القرآن «البطر» ، والخضوع لأصحاب الجاه والسلطان ، لكنهم كانوا يشعرون ـ في قرارة نفوسهم ـ بخجلٍ وحياءٍ ، وبأنَّهم خاطئون فيما يصنعون ، وأنهم يشبعون شهوانيتهم ، ويرضون نهامتهم.

ألق نظرةً على التَّاريخ يدلُّك على أنَّ الأثرياء المترفين ، والجبابرة المتمرِّدين ، والمادِّيين اللاهين كانوا يخضعون أمام من يرونهم متسامين عن عبادة النفس والهوى ، والسُّلطان والمال ، بل كانوا يتأدَّبون مع كلٍّ من يرونهم فوق أنفسهم في كبر النفس والمروءة والعفاف ، وكانوا يحذرون أن يواجهوهم ، أو يشافهوهم ، لأنَّهم على علاتهم كانوا يحملون بين جنبهم «نفساً لوَّامة» فكانوا يشعرون بوخز الضمير على اقتراف المظالم

www.abulhasanalinadwi.org

والمنكرات ، ويرون أنَّهم قد حادوا عن الصِّراط المستقيم ، وقد كان صنيعهم في خلواتهم ، وربما كانوا يعترفون بأخطائهم علناً وجهاراً بضغطٍ من الضمير الحيِّ الواعي ، وبأنَّهم وقعوا فريسة الهوى ، والشهوانية ، والأنانية .

النقطة التي يلتقي عليها المعسكر الغربيُّ والمعسكر الشرقيُّ :

ولكن اليوم أصبحت المادِّيَّة تُعتبر رقيّاً وتقدُّماً ، وأناقةً ، وظرافةً ، ومدنيَّةً ، ولا اختلاف هناك بين المعسكرين الغربي والشرقي فيما يتَّصل بالمادِّيَّة ، وإن كان هناك اختلافٌ ؛ فإنَّه فيما يتعلق بتنظيمها ، وبتنسيقها ، وفي أنَّه أيُّ فلسفةٍ ، أو أيُّ مدرسة فكرٍ ينبغي أن تكون متحكمةً فيها ، وفي توزيعها ، إنَّ المعسكر الغربيَّ ـ أمريكا ومن نحا نحوها ـ يرى أنَّ مبدأ الحرِّيَّة الكاملة في التَّصرف في الملكية يطابق المنطق والصواب ، ويرى المعسكر الشرقيُّ ـ الكتلة الشيوعية ومن نهج نهجها ـ أنَّ ملكية فردٍ ، أو جماعةٍ ، أو عائلةٍ شيء لا يقبله العقل والمنطق ، لأنَّه يخالف العدل ، والمساواة ، فلا بدَّ من تعميم (GENERALIZATION) وسائل الحياة على أساس المساواة ، ولا بدَّ أن تكون الحكومة هي المشرفة عليها ، والمتحكِّمة فيها .

أما أسلوب الحياة ، وكيف تستخدم الحياة ، وفيم تشغل ، وكيف ينبغي أن يكون تنسيقها ، وعلى أيِّ أساسٍ يكون التطبيق بين الوسائل والغايات ، وكيف ينبغي أن يكون التمتعُ بنتائج الحياة والثمرات ، وما هي كعبة الحياة ، ومقصودها ، ومنتهاها ، وفيم يكمن سرُّ تقدُّم الإنسانية؟ فإنَّ ذلك كلَّه لا اختلاف في شأنه بين الفلسفتين : الغربية والشرقية ، والمعسكرين الرأسماليِّ والشيوعيِّ ، كلاهما يعتقدان أنَّ الغرض الأساسيَّ هو التمتع باللذة ، والعزِّ ، وحرية الإرادة ، والإباحيَّة ، والانطلاق ، والنزول عند إرادة النفس ، ونداء الهوى ، واستجابة الشهوانية ، وإشباع الضرورات المادِّيَّة ، وإيفاء حقوق النفس ، وإراحة هذا الجسم المادِّيِّ المكوَّن من اللحم والدم بكلِّ حيلةٍ ، وعن كلِّ طريقٍ وعلى كلِّ مستوىً ، ولا مبدأ

www.abulhasanalinadwi.org

ولا مصير ، ولا موت ولا بعث ، ولا مؤاخذة ، ولا حساب ، ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٧] ، ولا فلسفة أعلى من فلسفتنا المادية ، سواء أكانت فلسفة الأخلاق أو العقائد ، أو الروحانية ، ولا حقيقة فوق هذه الحقائق التي نعرفها ، لأنَّ زبدة الحقائق أنَّنا وُجِدنا في هذا العالم لكي نلهو ، ونتمتَّع ، ونلتذَّ ، ونمرح ، ونسرح ، ونرتع ، ونستغلَّ هذه الوسائل والإمكانيات المنبثة ، ونتقاسمها ، ونأخذ بأوفر حظٍّ من متعة الحياة ، ولنزِلْ كلَّ شيء يحول بيننا وبين تحقيق أغراضنا .

إذاً فلا اختلاف في المبادىء والأهداف وإنما الاختلاف في تحديد العوائق والعقبات ، فقومٌ يرون أنَّ الملكية هي العقبة ، وقوم يرون أنَّ العائق هو الأنانيَّة الأسريَّة ، وبعضهم يرى أنه هو الملكية الفردية ، وآخرون يعتقدون أنَّ الرأسمالية هي حجر عثرةٍ في الطريق ، وأمَّةٌ تعتقد أنَّ استئصال الرأسمالية هو الذي شكَّل المصيبة ، وأمَّةٌ ترى أنَّ التوزيع الخاطىء الغير العادل هو السبب الأصيل فيما نواجهه من أزماتٍ ، ومشكلاتٍ ، ومجموعةٌ بشريةٌ ترى أنَّ الجهل والأمِّيَّة هو الداء العضال ، وبعضهم يرى أنَّ أصل الداء هو فقدان المؤسسة الصالحة ، واليد الأمينة القوية الغلابة؛ التي توزِّع هذه الوسائل على المجموعات البشريَّة بكلِّ إنصافٍ ومساواةٍ .

ولا نعرف في أيِّ دورٍ من أدوار التاريخ الإنسانيِّ أنَّه حظيت فيه المادِّيَّة بهذا التنسيق ، والتهذيب ، والصقل ، وسمِّيت بهذه الأسماء البرَّاقة الباهرة الساحرة ، وعُلِّقت عليها أمثال هذه اللافتات الجميلة الأنيقة ، الخلابة الزاهية ، واستنفذت مثل هذه القوى العقلية والفكرية ، واستهلكت مواهب الأذكياء والعقلاء في مثل هذا السَّخاء والإسراف ، ولا نعرف أنَّه استخدمت في سبيل تعميمها وتحبيبها أمثال هذه الوسائل الجبارة ، لا تعرف لكلِّ ذلك سجلاًّ (RECORD) عبر التاريخ البشريِّ كلِّه .

التحدِّي الأكبر :

وعلى ذلك فإنَّ التَّحدِّي الأكبر في هذا العصر ، هو تحدِّي المادِّيَّة ،

www.abulhasanalinadwi.org

والمادِّيَّة كجنسٍ له أنواعٌ كثيرةٌ ، منها الرأسمالية (CAPITALSM) والاشتراكية (SOCIALISM) والشيوعية (COMMUNISM) وما إليها من الفلسفات الاقتصادية الكثيرة ، لكن النقطة الجامعة بينها جميعاً هي المادِّيَّة ، وعبادة النفس والهوى .

الحقائق التي تضرب على جذور المادية :

حينما كان الإنسان قد استعبدته المعدة ، والمادَّة ، والأهواء ، ولم يكن يطأطيء رأسه إلا على عتبة المال ، والمرأة ، والعقار ، لأنَّ هذه كانت آلهته الحقيقية ، وحينما كانت الكثرة الكاثرة من سكان هذا العالم تسجد للمخلوق دون الخالق ، كان الله يرسل الرسل والأنبياء ، فيعلِّمونهم مراشد الخير والهدى ، ويأخذون بأيديهم من حضيض الكفر والشرك إلى قمَّة التوحيد والإيمان ، ويخبرونهم بأنَّ وراء هذا العالم المشهود المعهود عالماً آخر أوسع ، وأجمل ، وآنق من هذا العالم بكثيرٍ وكثيرٍ ، ويقولون لهم : لو رأيتموه؛ لفتنتم به ، وتحلبت عليه أفواهكم ، وتلمَّظت شفاهكم ، ولضاقت هذه الدنيا عليكم بما رحبت ، ولشقَّت عليكم الحياة كما شقَّت على السَّمك الذي أُخرِج من الماء ، ووُضِع على الأرض ، أو على الطير الذي وضع في قفصٍ ضيِّقٍ فيرفرف بجناحيه ، ولاشمأززتم من دنياكم هذه التي تنفقون في سبيلها أعزَّ متاع عندكم ، وتضحُّون بكلِّ ما تملكونه من معنويةٍ ، وعلمٍ ، وثقافةٍ . . . وذلك ما ندَّدت به الصحف السماوية مرَّةً بعد أخرى ، وبأساليب كثيرةٍ ، وفي كلماتٍ متنوِّعة : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : ٧٧] ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ [الحديد : ٢٠] . وقد أتى التعبير في بعض المواضع بـ «حطام الدنيا» وعبَّره لسان النبوة بـ «لعاعة» . . . دلالةً على منتهى التفاهة ، والضآلة .

قد كشف هؤلاء الأنبياء والمرسلون اللثام عن حقيقة هذه الدنيا ، ودلُّوا النَّاس على أنَّها لا تعدل جناح بعوضة عند الله ، وأنَّها كسرابٍ خادعٍ وظلٍّ زائلٍ ، وكدويرةٍ يبنيها الصغار على الرِّمال ما لها من قرار ، ولو درستم التاريخ لصدقتم هذه الحقيقة على بصيرةٍ ، وهديٍ ، وعن تجربةٍ .

www.abulhasanalinadwi.org

لِدُوا للموت وابنوا للخراب :

زرنا في بغداد في رحلتنا سنة ١٩٧٣ م المتحف الكبير الذي يجمع بين آثار الحضارات والمدنيات البائدة فيما قبل التاريخ التي ازدهرت في وادي الفرات وفي غيره ، تمثِّل عصر نمرود وغيره من الملوك والسلاطين المعاصرين ، له والسابقين عليه ، واللاحقين به ، والإمبراطوريات والحكومات الأخرى الكثيرة ، كنَّا نشاهد هذه الآثار ، وكأنَّنا في رحلةٍ تاريخيَّةٍ سريعة يأتي دورٌ ، ويذهب دورٌ ، وتمضي الأدوار كلها كفصول مسرحيَّة ، وواصلنا الرحلة منذ ما قبل التاريخ إلى العهد العباسيِّ ، فإلى عهد السلاجقة ، فإلى عهد التتار ، فإلى عهد الأتراك ، فإلى عهد الإنجليز ، فإلى عهد فيصل بن حسين الخ . . . وتأكدوا كأني أتخمت من رؤية هذه الفصول التي كانت تمثل تقلُّبات الزَّمان ، واختلاف الليالي والأيام ، وكأني أعاني الغثيان ، إذا أكلت شيئاً مريراً تعافه النفس ، فتعبت نفسي ، وكلَّ ذهني ، وأثقل فكري ، وكأني في دنيا الأحلام أو الأساطير والأوهام ، إنَّ بعض هذه الحكومات والإمبراطوريات قد تكون قد استغرقت مدَّة ألفٍ ، أو خمسمئة سنة ، أو أقلَّ ، أو أكثر في قطع مراحل الانحطاط ، لكنِّي قد شعرت كأنَّ ذلك كلَّه قد تمَّ في ساعاتٍ ، ولكن الناس مخدوعون ، فيحسبونها ألف سنة أو خمسمئة . . . الخ وكأني قائمٌ على أنقاض الإنسانية ، وأطلال الحضارات والمدنيات ، والحكومات والإمبراطوريات ، وكذلك يقوم عليها كلُّ الأجيال المتلاحقة ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : ٧٧].

إنَّ الدُّنيا ليست موضع هيامٍ وغرام :

قد أراد الله لهذه الدنيا البقاء والعمران فلم يعرِّ حقيقتها أمام عامَّة البشر كما جَلَّاها للمصطفين الأخيار ، والمؤمنين المخلصين من عباده ، وإلا لأقفرت ، وأوحشت ، ولما أقبل أحدٌ على الإنتاج والابتكار ، وتشييد البنيان ، وإقامة المصانع ، ولتعطَّلت الحركة والنشاط ، وتوقَّفت الرحلة البشرية في مجالات الحياة ، وجلس كلٌّ في عقر داره عاطلاً ضائعاً ، يائساً ، متخاذلاً ، وربما لفظ أنفاسه الأخيرة .

www.abulhasanalinadwi.org

ولكنَّ الأنبياء عليهم السلام ونائبيهم قد أعطوا كلَّ شيءٍ حقَّه على الرغم من علمهم بتفاهة الدُّنيا وضآلتها ، فأدَّوا مسؤوليتهم نحو هذا العالم وأهله ، ونحو أقربائهم ، وأهليهم ، وجيرانهم ، وذوي مودَّتهم ، ونحو الإنسانية جمعاء ، وعاشوا مستجيبين لمتطلبات الحياة ، واضعين كل شيء في موضعه اللائق ، وواجهوا تحدِّي الحياة في صبر وجلادة ، وعاشوا عيشة طهرٍ وصفاء ، وعفَّةٍ وحياء ، لا يبالون بشوكة الملوك وأبهتهم ، يتحدَّثون إليهم كما يتحدَّث أحدنا إلى المريض ، كانوا يرونهم مرضى مصابين بداءٍ عضالٍ ، فيرثون لحالهم ، ويخافون عليهم مآلهم ، ويتوجَّعون عليهم كما يتوجَّع أحدنا على جارٍ له وقع الحريق في بيته ، فأتى على كل ما لديه من الأخضر واليابس ، ألم تروا كيف أجاب سيدنا ربعي بن عامر رضي الله عنه «رستم» قائد الجيوش الإيرانية حين استوضحه عن أغراض الغزو الذي لم يكن للفرس به عهد ، فقال رستم : ما جاء بكم؟ فقال : «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[١] .

يا سادة! قلت في محاضرتي بالديوان الأميري بـ«أبو ظبي»[٢] : لو قال ربعي بن عامر : «لنخرج من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة» ، لم أستغرب ذلك لأنه آمن بأنَّ الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر ، وآمن بالآخرة التي لا آخر لها وبالجنَّة التي لا حدَّ لها ، ولا نهاية ، وقد قرأ في الكتاب الذي قرأه ، وآمن به ، وعاش فيه ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . وعرف قول رسوله في غزوة بدر : «قوموا إلى جنَّةٍ عرضها السموات والأرض»[٣] وقوله بمناسبة أخرى : «موضع سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»[٤] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، ج/٧ ، ص ٣٩ ، طبع بيروت ١٩٦٦ م .

(٢) المحاضرة التي ألقاها العلامة الندوي هي بعنوان : «نظرة مؤمن واع إلى المدنيات المعاصرة الزائفة» في ٣/ محرم الحرام ١٣٩٧ هـ (٢٣/ ١٢/ ١٩٧٦ م) .

(٣) رواه مسلم .

(٤) حديث متفق عليه رواه أبو هريرة رضي الله عنه .

www.abulhasanalinadwi.org

ولكن موضع الاستغراب هو قوله: «من ضيق الدنيا إلى سعتها» كيف ساغ لإنسان ربما قد وضع الحجر على بطنه، وربما لم يملك قوت يومه، وكانت ثيابه متخرِّقةً، وأجفانه باليةً، أن يقول لإنسان وهو في غاية أبهته، وفي زهوه، وعلى قمة مجده، يعيش في رغدٍ من العيش، ويتقلَّب في أعطاف النعيم، قد اتَّسعت له الدنيا، ولانت له الحياة: إنِّي جئت لأنقلك من زنزانة الدُّنيا إلى فضاءٍ رحبٍ فسيحٍ، أفهل كان العرب يعيشون في بحبوحةٍ من العيش؟ أفما كانوا في شظفٍ من العيش، وفي جهدٍ، وتقشُّفٍ، وتخشُّن في الحياة، لا يملكون وسائل الحياة، ولا يكادون يشبعونَ بطونهم، ولا بخبز الشعير، يأوون إلى أخبيةٍ من جلود الإبل، وفي أكواخ من المدر! فما الذي جعله يقول لرستم: أدرك نفسك فإنَّك في بؤسٍ وشقاءٍ، وحرمانٍ وبلاءٍ، أنت حبيسٌ في قفصٍ ضيِّقٍ، يا لسوء حظِّك، وخسة نفسك، وفتور همتك، وقصر نظرك، ترضى بحبات شعيرٍ تطرح إليك... أني متأسفٌ على حالك، أتيت أخلصك من هذا المأزق، وأحرِّرك لكي تستطيع التحليق في هذا الفضاء الرَّحب المترامي.

يا سادة! تلك هي النظرة الحقيقية التي كان ينظر بها الرعيل الأول، ومن تبعهم بإحسان إلى هذه الدنيا، وحطامها الفاني، وعيشها الزائل، فكان الناس يؤمُّونها، يعرضون عليها الداء، ويستوصفونهم الدواء... وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «إن جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني»[1] لأنه كان يتوكَّل على الله، ويلوذ به، وبه يستعين، وإليه يرجع، ومنه يرجو، فكان لا يخاف أحداً، ولا يراه موضع النفع والضَّرر، فكان يجد في الصلاة قرَّة عينه، وفي الصيام لذة الطعام والشراب، وفي الابتهال إلى الله والاطِّراح على عتبته حلاوة لا تعدلها حلاوةٌ.

(١) الوابل الصيب، ص/٦٦.

www.abulhasanalinadwi.org

وأمثال هؤلاء الناس كانوا نماذج الإنسانية المنشودة المقصودة ، استغلُّوا مواهبهم ، واستخدموها لما خلقت له ، حوَّلوا البلد ، أو الحيَّ الذي سكنوه إلى جنةٍ ونعيم ، غطُّوه سكينةً وعدلاً ، ومواساةً وبرّاً ، وعطفاً وخدمةً ، وعاشوا في الدنيا ، وزرعوا فيها مؤهلاتهم ، واستثمروها ، ولكنهم لم يجعلوها «عجلاً» يعبد ، أو إلهاً يسجد له ، وما هاموا بها هياماً بل ظلوا يقولون: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» لأنهم كانوا يدركون حقيقة هذا العالم الماديِّ ، ولكنهم رغم ذلك ، تقدَّموا في كلِّ مجالات الحياة ، وتحرَّكوا في كلِّ وادٍ ، فشادوا البنيان ، وبنوا المساجد ، وأقاموا المدارس ، والمعاهد ، وأسَّسوا المصانع والمعامل ، ونشروا الإسلام ، وزرعوا عقيدة التوحيد ، وفتحوا فتوحاتٍ واسعةً ، وأخضعوا الدول ، وثلُّوا العروش ، وزلزلوا الجنود والبنود ، ووضعوا علوماً ، وابتكروا فنوناً ، وأثروا المكتبات ، وصنَّفوا ، وألَّفوا ، وقادوا ، وسادوا ، وعلَّموا ، ودرسوا ، وأقاموا التاريخ على أساسٍ محكمٍ متينٍ لا يزول . . . صنعوا كلَّ ذلك ، ولكن الذي يضع الفرق الملموس بيننا وبينهم أنَّهم لم يحسبوا الدنيا غايتهم الأخيرة ، بل كانوا يرونها مرحلةً بدائية .

أصبحت المادِّية اليوم راكباً بدل أن يكون مركباً:

كان هؤلاء المخلصون العظام يحطِّمون طلسم المادَّة ، ويكسرون سحرها ، ويزيِّفون لمعانها ، لأنَّهم قد تحرَّروا من ربقتها ، وتمرَّدوا عليها ، وأخضعوها ، ولم يخضعوا لها ، وركبوها ، ولم يكونوا مراكب لها ، والخطُّ الفاصل بيننا وبينهم؛ أنَّنا أصبحنا اليوم مراكب للمادِّيَّة ، بدل أن نكون راكبين عليها ، أو نحن راكبون سكارى ، قد انفلت الزمام من أيدينا ، وانزلقت أرجلنا عن الرِّكب ، فتهرع بنا المادية الجامحة إلى حيث تشاء ، ولا نملك حولاً ولا طولاً ، ولا نكاد ندري كيف نكبحها ، أو نتخلص منها ، حتى لا تهوي بنا في هوَّة الهلاك ، أو في نهرٍ فياضٍ ، أو بحرٍ متلاطم ، فيكون آخر أمرنا .

تلك هي قصة مدينتنا بجميع أجزائها ، وأبعادها ، قد تمرَّدت علينا ،

www.abulhasanalinadwi.org

وجمحت لدينا ، واستعصى علينا تطويعها وإخضاعها ، وكبح جماحها ، وإنما تحدَّاها أولئك الأبرار الأخيار الذين وفقهم الله أن يثوروا عليها ، ويتمرَّدوا على مفاتنها ، وبهارجها التي تبهر العيون ، وتأخذ بالقلوب ، وتتصيَّد العقول ، فكانوا يشعرون كأنَّهم في جنةٍ ونعيمٍ ، وقد قال بعضهم : ماذا يصنع الناس بي؟ إن وسائل التنعم في صدري ، فمن الذي يستطيع أن ينتزعها؟ وقال بعضهم : والله لو أنَّ أهل الدنيا علموا مدى ما نحن فيه من لذةٍ رغيدةٍ ، ونعمةٍ وفيرةٍ لغزونا عليها ، ولجالدونا بالسيوف ، ولحاولوا أن ينتزعوا منا هذا العيش اللذيذ ، زعماً منهم أن في المكان الذي نحن فيه كنزاً دفيناً ، أو منبعاً مكتوماً للرزق ، أو مصدراً مخبوءاً للفرح ، والسرور ، والطمأنينة ، ومن هنا يجلس في هذا المكان ، هادئاً راضياً ، ساكناً آمناً ، مرحاً فرحاً ، جذلان نشوان ، فلننزله من مكانه ، ولننفه إلى الغابة ، ولنحفره حفرتنا لآبار البترول ، ولنكتشف الثروة المخبوءة فيه اكتشافنا للنفط والزيت.

روح القناعة:

أيها السادة! إنما كان يحارب الماديَّة أولئك الذين كانوا يتمتعون برصيد القناعة ، ولا يرضون لأنفسهم أيَّ مساومةٍ وتقويمٍ ، ولم يكن هناك أحدٌ يستطيع أن يصيدهم ، وكانوا يقولون بملء أفواههم : «نرى العنقاء أكبر أن تصادا» ، ويقولون لهذه الدنيا الخدَّاعة الغرَّارة : «يا دنيا! أبي تعرَّضت؟ أم لي تشوفت؟ هيهات ، هيهات! غرّي غيري ، قد بتتُّك ثلاثاً ، لا رجعة لي فيك»[1] ، ويقولون للمساومين : جرِّبوا غيرنا ، أما نحن فلا نرضى بأيِّ ثمنٍ مهما كان غالياً وعالياً ، ولا ننهار أمام أيِّ منصبٍ ، أو جاهٍ مهما كان مشرفاً ومحسوداً ، ومرموقاً ، لا ، لن نبيع كرامتنا ، ولن نبيع ضمائرنا ، ولن نبيع طمأنينة قلوبنا ، وقناعة نفوسنا ، لا لن نلوِّث عفتنا ، ومروءتنا ، ولن نكدِّر

(١) من قول عليٍّ رضي الله عنه كما يروي عنه ضرار بن ضمرة ، اقرأ «صفة الصفوة» لابن الجوزي.

www.abulhasanalinadwi.org

صفو حياتنا ، فلا تتعبوا نفوسكم ، دون جدوى ، ولا تنضوا ركابكم دون فائدة .

هذا الشيخ الكبير الميرزا مظهر جان جانان الشهيد رحمه الله قد عرض عليه ملكُ دهلي أن يقبل منه هديةً كبيرةً من المال ، فقال الشيخ : إن الله تعالى يقول : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء : ٧٧] . . . أمَّا آسيا فواحدةٌ من قارات العالم ، والهند واحدٌ من بلدانها ، وأنت تحكم جزءاً صغيراً من هذا البلد ، فلا أريد أن أرزأكم فيه ، وأشاطركم إيَّاه .

وكان هناك شيخ في «برهانبور» بالهند ، فبدأ الإمبراطور المغولي أورنك زيب عالمكير رحمه الله يزوره ويختلف إليه ، فقال الشيخ : قد كنت اخترت هذا المكان المتواضع لنفسي ، فإن كان قد وقع من الملك موقعاً حسناً ، وأصبح يغارنا عليه ، فليرض به ، وليدعنا نغادره إلى مكان آخر .

من المؤسف جدّاً أنَّ أحوال هؤلاء الصالحين الساهرين في عبادة الله قد قُيِّدت بصور لا تعكس حياتهم عكساً صحيحاً ، فلا نستوحي منها روح اتباع الشَّريعة ، والحرص على التمسُّك بالسنّة ، وإحياء الليالي وشغفهم بالكتاب والسنّة ، وعيشهم في تلاوة القرآن ، وتفانيهم في حبِّ الله ، وأخذهم بروح الشريعة ، وعضِّهم بالنواجذ على لبِّ الإسلام وزبدته ، وأصبحنا لا نستشف من أحوالهم ـ كما يقول مؤلف «تاريخ كجرات» العلامة الشريف السيد عبد الحي الحسني رحمه الله[١] ـ «من قرأ كتب التراجم ، وسير العلماء الرَّبانيين المربِّين المؤلفة على الأسلوب التقليدي القديم ، عرف أنهم لم يكن لهم همٌّ ، ولا لذَّة إلا في خرق القوانين الطبيعية والتمرُّد على السنن الإلهية ، وما كان يهمُّهم إلا التصرُّف في الأكوان ، والتحكُّم في العناصر

(١) هو والد العلامة الندوي ، والأمين العام لندوة العلماء الأسبق ، ومؤرخ الهند الكبير ، ومؤلف كتاب «نزهة الخواطر» في تراجم أعيان الهند في ثمانية مجلدات ، وكتاب «الهند في العهد الإسلامي» و«الثقافة الإسلامية في الهند» ، توفي رحمه الله في ١٣٤١ هـ . انظر ترجمته بكاملها في كتاب المحقق «الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن الرابع عشر الهجري» .

www.abulhasanalinadwi.org

الأربعة ، والمواليد الثلاثة ، فنراهم يحيون الأموات ، ويميتون الأحياء ، وينتزعون السفينة التي غرقت في قعر الماء بإشارةٍ من طرفهم ، أو بتلميحٍ من أصابعهم ، لا شغل لهم غير ذلك».

والله! إنَّ ذلك صورةٌ مشوَّهةٌ ، وتصويرٌ خاطىءٌ لحياتهم ، إنَّهم في الواقع كانوا من ذوي التعمُّق في الكتاب والسنة ، والتشرُّب لروح الشريعة ، ولئن كان هناك نماذج شاردةٌ تدلُّ على خلاف ما نقول ، فلا يستدلُّ بها على القوم جميعاً ، لأنَّه من الإجحاف ، وسوء الإنصاف.

إخوتي الكرام! تلوت عليكم الآية الكريمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] ، الآية تذكر تلك الأركان الأربعة التي بُعث الرسول الأعظم محمد ﷺ لتحقيقها ، وتكميلها ، وقد توارثها القائمون بمهمَّة النُّبوَّة بعده ﷺ. . . فالأول: هو تلاوة الكتاب (القرآن الكريم) وتشاهدون مظاهرها في كلِّ حفلة ، ولدى كلِّ مناسبةٍ ، وعند كلِّ صلاة ، وفي كلِّ بيتٍ ومدرسةٍ ، ومعهدٍ للتعليم والتربية ، وقد أقيمت لتحفيظ القرآن ، ولتعليم تجويده ، وترتيله ، وقراءته مدارس لا تعدُّ ولا تُحصى ، وستبقى هذه السلسلة المباركة الطيبة إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] والثاني: هو تعليم الكتاب ، والثالث: هو تعليم الحكمة ، والرابع: هو تزكية النفس.

المـراد مـن «الـحكمـــة»:

والمراد من «الحكمة»: الأخلاق الفاضلة ، والآداب الإسلامية ، لأن القرآن قد أطلق لفظ «الحكمة» على هذه الأخلاق ، والآداب في مواضع شتَّى ، ذكر في سورة «الإسراء» التعاليم الخلقية الأساسية في موضع واحدٍ ، يقول تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ إلى قوله: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٨] تلك هي خمس عشرة آية ، فيها النهي عن الشرك ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين ، وخفض الجناح لهما ، وإيتاء ذي القربى ، والمسكين ، وابن السبيل ،

www.abulhasanalinadwi.org

الأربعة ، والمواليد الثلاثة ، فنراهم يحيون الأموات ، ويميتون الأحياء ، وينتزعون السفينة التي غرقت في قعر الماء بإشارةٍ من طرفهم ، أو بتلميحٍ من أصابعهم ، لا شغل لهم غير ذلك».

والله! إنَّ ذلك صورةٌ مشوَّهةٌ ، وتصويرٌ خاطىءٌ لحياتهم ، إنَّهم في الواقع كانوا من ذوي التعمُّق في الكتاب والسنة ، والتشرُّب لروح الشريعة ، ولئن كان هناك نماذج شاردةٌ تدلُّ على خلاف ما نقول ، فلا يستدلُّ بها على القوم جميعاً ، لأنَّه من الإجحاف ، وسوء الإنصاف.

إخوتي الكرام! تلوت عليكم الآية الكريمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] ، الآية تذكر تلك الأركان الأربعة التي بُعث الرسول الأعظم محمد ﷺ لتحقيقها ، وتكميلها ، وقد توارثها القائمون بمهمَّة النُّبوَّة بعده ﷺ . . . فالأول: هو تلاوة الكتاب (القرآن الكريم) وتشاهدون مظاهرها في كلِّ حفلة ، ولدى كلِّ مناسبةٍ ، وعند كلِّ صلاة ، وفي كلِّ بيتٍ ومدرسةٍ ، ومعهدٍ للتعليم والتربية ، وقد أقيمت لتحفيظ القرآن ، ولتعليم تجويده ، وترتيله ، وقراءته مدارس لا تعدُّ ولا تُحصى ، وستبقى هذه السلسلة المباركة الطيبة إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] والثاني: هو تعليم الكتاب ، والثالث: هو تعليم الحكمة ، والرابع: هو تزكية النفس.

المراد من «الحكمة»:

والمراد من «الحكمة»: الأخلاق الفاضلة ، والآداب الإسلامية ، لأن القرآن قد أطلق لفظ «الحكمة» على هذه الأخلاق ، والآداب في مواضع شتَّى ، ذكر في سورة «الإسراء» التعاليم الخلقية الأساسية في موضع واحدٍ ، يقول تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ إلى قوله: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٨] تلك هي خمس عشرة آية ، فيها النهي عن الشرك ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين ، وخفض الجناح لهما ، وإيتاء ذي القربى ، والمسكين ، وابن السبيل ،

www.abulhasanalinadwi.org

والنهي عن التبذير ، والأمر بالتلطُّف لهم بالقول ، والنهي عن الإفراط والتفريط ، والنهي عن قتل الأولاد ، وعن الزنى ، وعن قتل النفس إلا بحقها ، وعن الإسراف في القصاص ، والنهي عن أكل مال اليتيم إلا بالحقِّ ، والأمر بالإيفاء بالعهد ، وإيفاء الكيل والميزان ، والنهي عن التبختر ، والمرح الزائد ، وبعد ما انتهى من ذكر هذه التعاليم الخلقية التي تلتقي عليها الأديان والأمم ، والفطر المستقيمة ، والعقول السليمة ، من أول العصر إلى آخره ، ختمها بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ [الإسراء: ٣٩].

وكذلك شأن القرآن في سورة لقمان ، فلو قرأت قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣ ـ ١٩] وقرأت افتتاحية هذه الآيات ، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [لقمان: ١٢] ، علمت أنَّ كلَّ ما صدر عن لقمان من التعاليم الخلقية ، والوصايا الحكيمة إنما نبعت عن هذه الحكمة التي أكرم الله بها لقمان ، وكذلك لو قرأت قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ إلى قوله: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦١ ـ ٢٦٩] علمت أنَّ الحكمة في المصطلح القرآنيِّ الإلهي لها صلةٌ عميقةٌ وثيقةٌ بالأخلاق(١).

لا يتمُّ تعليم الكتاب والحكمة بدون «التزكية»:

والتزكية: هي تهذيب النفس ، وتحليتها بالفضائل ، وتخليتها من الرذائل ، تخليتها من الحسد ، والبغض ، وحبِّ الدنيا وحبِّ الجاه ،

---

(١) قد انتبه العلامة الندوي لهذه النكتة بحديث الأستاذ العلامة المحقق السيد سليمان الندوي رحمه الله ، كان يتكلَّم فيه عن معنى الحكمة في القرآن.

www.abulhasanalinadwi.org

والإخلاد إلى الأرض ، وكراهية الموت ، والحرص ، والجشع ، وتحليتها بحبِّ الله ، والإقبال على الآخرة ، والرغبة في الجنة ، وإيثار الآخرة على العاجلة ، والطَّمع في رضا الله وثوابه ، ومن وظيفة كلِّ مدرسة إسلاميَّةٍ أو جامعةٍ إسلاميَّة ، ومركزٍ إسلاميٍّ للتعليم والثقافة أن تخرِّج رجالاً يقومون عن جدارة ومقدرةٍ بالتلاوة ، وبتعليم الكتاب ، والحكمة ، وبالتزكية : الأركان الأربعة والمقاصد الأولى التي كانت لها البعثة ، ويخلفون الأنبياء في مهمَّة الدَّعوة ، ولا يتمُّ تعليم الكتاب ، والحكمة ، والتلاوة ، ما لم يكن مقروناً بالتزكية والإحسان ، أعني : أنَّ العلماء لا يستطيعون أن يؤدُّوا دورهم المطلوب حتى يتخلَّصوا من عبادة النفس والهوى ، والخضوع لدواعي النفس الأمَّارة بالسُّوء ، وعادوا لا يحيد بهم أكبر كميةٍ من الثراء ، وأيُّ نوعٍ من العزِّ والشَّرف ، وأيُّ جاهٍ محسودٍ ، ومنصبٍ مرموقٍ عن مبادئهم ، وأغراضهم ، ودعوتهم ، ومهمتهم ، وعن أسلوب حياتهم الإسلاميِّ ، وعن مستواهم السامي .

يا سادة! إن العرب والعجم لا ينقصهم اليوم شيءٌ إلا حياة قناعةٍ وزهدٍ ، إنَّ الإنسان لا يخضع إلا حيث يجد ما لا يوجد عنده ، تلك هي القاعدة التي لا تختلف في الشرق والغرب ، إنَّنا لن نعجب إلا بمن نراه أفضل منا بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، أمَّا إذا كان أحدٌ يستوي معنا ، ويوجد عندنا كلُّ ما يوجد عنده من علمٍ ، أو شرف ، أو ثراءٍ ورخاءٍ ، وما إلى ذلك ، ولو بفرقٍ يسيرٍ ، وباختلافٍ في الكمِّيَّة ، فلن تأخذنا منه روعةٌ ، ولن ينال منَّا الإعجاب والتقدير ، فالذين أخذوا بالمادية ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ ، وأصبحوا لا يجدون للمادَّة بديلاً ، ولا يرون عنها محيصاً ، حين يقصدون العلماء ورجال الدين ، ويجدونهم مثلهم في الإقبال على الدُّنيا ، والطمع في حطامها ، ويدرسون حياتهم في بيوتهم ، وأسلوب عيشتهم ، ومستوى معيشتهم ، يصدرون عنهم ، وهم يحملون سوء الظنِّ بهم ، ولا يتأثَّرون بهم في قليلٍ أو كثيرٍ ، إنَّنا نحتاج اليوم إلى علماء الدين الذين يحسنون عملية تلاوة الكتاب ، وتعليم الكتاب ، والحكمة ، والتزكية ، وينوبون الأنبياء الكرام عليهم السلام في مقاصد البعثة والنُّبوَّة عن

www.abulhasanalinadwi.org

جدارةٍ واستحقاقٍ ، «إن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، لكن ورَّثوا هذا العلم»(١).

إنَّ أكبر التحدِّي اليوم هو المادية ، ولا يمكن مقاومتها إلا بسلاح التمرُّد عليها ، والزُّهد في زخارف الدنيا ، والتسامي عن سفاسف الأمور بأوسع المعاني وأعمقها وأشملها ، وتأكيد هذه الحقيقة بالقول ، والعمل ، وأسلوب الحياة.

إنَّنا لا ندعو بذلك إلى الامتناع عن الطيبات ، وتحريم الانتفاع بوسائل الحيـــاة ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف: ٣٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم: ١]. . . نعم لنتمتَّع بالمباحات ، ولنتمتَّع بالطَّيبات ، ولنستغلَّ وسائل الحياة ، وإذا كنَّا نستطيع أن نأكل اللذيذ من الطعام ، ونتناول المريء من الشراب ، ونلبس الوضيء من اللباس ، ونسكن الهنيء من البيت ، فلا بأس بذلك ، ولا حاجة إلى أن نتكلَّف في الزهد فيه ، كما روي عن بعض غلاة المتصوِّفين: أنَّه كان يلقي الماء في الإدام المطبوخ المهيَّأ للأكل حتى يفقد طعمه ، وبعضهم كان يضع الملح أكثر من القدر المطلوب حتى لا يعود الطعام سائغاً هنيئاً ، فمثل هذه «التزكية» ليس من الإسلام في شيءٍ ، وسماه بعض السلف بـ «الزهد العجمي» بل المهم أن نتجرَّد عن الجشع ، والتهالك على الدنيا ، وعن أن يكون شعارنا بصدد المادة «هل من مزيد» فلا تشبعنا أيُّ كميةٍ من المال ، ولا أيُّ قدر من الثراء والرَّخاء ، ويجب أن يكون علماء الدين على جانبٍ من الزهد في هذه السفاسف.

الحاجة إلى رجالٍ متمرِّدين على المادِّيَّة متسامين على الأغراض:

أيها السادة! إنَّ العنصر الهامَّ الأقوى من الوسائل التي نحتاج إليها اليوم من أجل إنقاذ المجتمع الإسلاميِّ ـ والتي تحدَّثت عنها في كلِّ مناسبةٍ ، وفي

---

(١) حديث متفق عليه واللفظ للبخاري.

www.abulhasanalinadwi.org

كلِّ نادٍ ووادٍ عبر باكستان من «كراتشي» إلى «إسلام آباد» ومنها إلى «فيصل آباد» وفي المدن العربية من قبل ـ هو حياة القناعة ، والزُّهد ، والإباء ، والشَّمم التي يجب أن يعيشها علماؤنا ، إنَّه لزامٌ على العلماء أن تكون حياتهم مثاليةً ، تشفُّ عن أنَّهم من طرازٍ آخر فريدٍ ، ومن طبقةٍ خاصَّةٍ ذات مميِّزات ، وتدلُّ دلالةً صارخةً على أنهم ورثة الأنبياء والنائبون عنهم ، فيتبعون هديهم ، ويسيرون سيرتهم ، ويحذون حذوهم ، وليسوا صرعى المادية ، وقتلى القطيفة ، والخميصة ، وعبيد الدينار والدرهم ، يشعر جليسهم بتفاهة الدنيا وضآلتها ، وأنَّ المال والثروة ليس كلُّ شيءٍ في حياة الإنسان ، وأن يثبتوا بأسلوب حياتهم ، وبإبائهم ، وكبر نفسهم ، وتساميهم عن الأغراض: أنَّهم هم الطلبة ، وليسوا طالبين ، فليتردَّد إليهم من شاء ألف مرَّةٍ ، ولكنَّهم لا يتردَّدون لشيءٍ إلى أحدٍ إلاَّ من أجل تبليغ الدعوة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، أو من أجل تحقيق واجبٍ دينيٍّ ، وإحياء سنَّةٍ ، لا من أجل تحقيق غرضٍ شخصيٍّ ، أو لشفاعةٍ ، ووساطةٍ.

ليس هناك شيءٌ يملأ هذا الفراغ:

إنَّها حاجة باكستان وكلُّ بلدٍ إسلاميٍّ الأكيدةُ ، وليس هناك شيء يملأ هذا الفراغ لا يملؤه التصنيف والتأليف ، ولا الخطابة والكتابة ، ولا البحث والسياسة ، ولا الكلام الساحر الأخَّاذ ، إنَّه يجب أن يكون هناك رجالٌ يؤمُّهم رجال السياسة ، والسلطة ، والقوة ، راغمين ، مضطرين ، مدفوعين ، ويجدون عندهم دواءً لدائهم ، وشفاءً من سقمهم ، ويشعرون بتفاهتهم مقابل عباد الله.

وقد قلت في مناسبةٍ أخرى: إنَّه إذا كنتم لا ترون حاجةً إلى «التزكية» و«الإحسان» فلا بدَّ إذاً من شيءٍ آخر يقوم مقامهما ، ويؤدي دورهما ، ويشعر الناس بأنَّهم مصابون في معنوياتهم ، ومنقوصون في أخلاقهم ، وسافلون في سلوكهم وعاداتهم ، ويشعرون بعد الجلوس إلى صاحبه بقوةٍ جديدةٍ ، وبروحٍ جديدةٍ ، وتلوت بهذه المناسبة بيت الحطيئة:

www.abulhasanalinadwi.org

أقلُّــــوا عليهــــمْ لا أبـــا لأبيكـــمُ
مـنَ اللـوْم أو سـدُّوا المكـانَ الـذي سـدُّوا

أيها الأخوة! إذا كنتم تلغون مستشفىً ، فلا بدَّ إذاً من مستشفى آخر يقوم مقامه لأن المستشفى لا ينوب عنه إلا مستشفى ، والطبيب لا يسدّ مكانه إلا طبيب ، فإذا ما أغلقتم مستشفى ، وفتحتم مكانه حماماً مثلاً ، أو مكتبةً ، أو مدرسةً ، فإنَّها ـ على الاعتراف بقيمتها ـ لا تغني غناءه ، ولا تفعل فعله.

إنَّ تحدِّي العصر الحاضر هو المادِّيَّة ، وردُّها الصحيح المشروع المعقول هو تزكية النفس ، الغير المشوبة بشيءٍ لا يوجد نظيره في الكتاب والسَّنة ، وفيما تعامل به المسلمون في عهد النبوة ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وعهد الصحابة ، فليكن الحاملون للوائها راسخين في العلم ، وراسخين في الدِّين معاً ، فاهمين لروح الشريعة ، متشربين لحقيقة الإسلام. . . اللهم وفقنا لما تحبُّ وترضى. . . وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

إنّما الشباب هم أولئك الّذين يقتنصون النُّجوم

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ٢٥/ يوليو ١٩٧٨ م بجامعة بنجاب بمدينة لاهور ، وكان هذا المخيَّم مخيّم جمعية الطلبة الإسلامية التربوي قد ضمّ خيرة الطلاب في مختلف الكليات المنبثة في ولاية بنجاب ، والمسؤولين عن المخيَّم .

www.abulhasanalinadwi.org

إخوتي الأعزاء! قد شعرت بوجودي بينكم ، وحضوري في مجلسكم هذا بسرورٍ ، لا يشعر به إلا العامل في مجال الدَّعوة الإسلاميَّة ، أو المدرِّس ، والأستاذ في مدرسة إسلاميَّةٍ ، الذي استهلك مهجه في بناء الشباب الإسلاميِّ وعلى تربية البراعم في حديقة الإسلام ، ويتمنَّى أن لو أتيح له أن يقرَّ عينيه برؤية شباب وصفه الدكتور محمد إقبال في بيته البليغ :

«إنِّي إنَّما أحبُّ الشباب الذين يقتنصون النُّجوم والكواكب» .

وإنما طبت نفساً بهؤلاء الشباب الكرام لأنِّي أرى فيهم خيراً كبيراً ، أرى أنَّهم سوف يقفون حياتهم لخدمة الإسلام ولإعلاء كلمة الله ، ويلتزمون الصِّراط المستقيم .

الصِّراط المستقيم في دقّته وحدَّته كالصِّراط الذي يواجهه الجنّ والبشر يوم القيامة :

الصراط المستقيم ـ أيها السادة! ـ قد يتحوَّل إلى «الصِّراط» الذي هو أحدُّ من السيف ، وأدقُّ من الشَّعر ، فالحمد لله الذي اختارنا لهذا العمل العظيم ، وأراد أن يكرمنا بنعمه ، وأن يشملنا بآلائه عن طريق هذا «الصِّراط» . . . وقد جاء في الحديث الشريف أنَّه ـ حينما يكرم العبد المؤمن بالجزاء الأوفى ، والثواب المستوفى من ربِّه الكريم الرحيم على ما لاقاه من الشدائد في سبيله في الدُّنيا ـ يتمنَّى كلُّ من يشهد هذا المشهد أن لو وفق إلى معاناة أمثال هذه المشاقِّ ، وقطعت جلودهم بالمقاريض ، ونشرت رؤوسهم بالمناشير . . . فلنحمد الله عزَّ وجلَّ على أنه جعلنا موضع اهتمامه ، وانتقانا من بين عباده ، لكي يغطِّينا بجميل كرمه .

وقد جرَّبتم ـ يا إخوتي التلاميذ ـ أنَّه إذا كان هناك طالب مجدٌّ وصل الليل بالنَّهار ، وعاش في مراجعة الموادِّ الدراسيَّة واستظهارها ، واستوفى ظمأ اجتهاده في الدِّراسة ، ثم حضر قاعة الامتحان ، ففاجأته أسئلةٌ سهلةٌ لا تحتاج الإجابة عليها إلى اجتهادٍ وإجهاد ، فيقلِّب كفَّيه ، ويتحسَّر على

www.abulhasanalinadwi.org

سوء حظه ، لأنه يرى في ذلك ضياعاً لجهده ، واستهانةً بقيمة سهره ليل نهار ، ويتمنَّى أن لو علم بحيلةٍ من ذي قبل أنَّ الأسئلة ستكون بهذه المكانة من السهولة ، أمَّا إذا استقبلته أسئلةٌ صعبةٌ تتطلَّب أعمال الجهد والفكر ، والإمعان والتقليب ، فيرى كأنَّه استوفى قيمة جهده.

إنَّ التسهيلات تسبب العقبات في طريق الحياة:

ومن فتور الهمَّة أن نشكو صعوبة الحياة ، وأن نقول: نحن نعيش في عصرٍ متأزِّم ، ونسير في طريقٍ مفروشٍ بالأشواك ، ومن بعد الهمة والطموح أن يشكو الإنسان السهولة ، ويظنَّ في نفسه كأنه حُطّ من شأنه ، وغضَّ من مكانه ، ولم يُر أهلاً لمواجهة الشدائد ، ومنازعة العقبات ، ومصارعة الجنادل والصخور... ولو حفلت الحياة بالسهولة ، لغابت لذَّتها ، وفقد رواؤها ، ولقد صدق الشاعر الأرديُّ الذي قال:

«إنِّي أمضي في طريق حياتي أهزؤ بالشدائد المتموِّجة والمشاقِّ المتلاطمة ، ولو كانت الحياة كلها سهولة؛ لكانت كلاًّ وعبئاً ثقيلاً لا يطاق».

ربكم يخاطبكم:

يا سادة! قد تلوت عليكم آيةً من سورة الكهف ، وثبت إلى لساني عفواً: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] ، و«الفتية» جمع فتى ، وهو الشباب الحدث الناهض ، يقول الله تبارك وتعالى: إنَّ هؤلاء الشباب الطيبين الطاهرين أحكموا إيمانهم بالله ، وأوثقوا رباطهم مع ربِّهم ، فلما أتمُّوا هذه المرحلة الأولى من عند أنفسهم ، زدناهم نحن هدىً ، وقوَّينا قلوبهم ، وربطنا عليها.

إنَّ الآية الكريمة تحدد مسؤوليتنا نحن ، وتشير إشاراتٍ كبيرةٍ إلى أنَّه إذا ما قمنا بما يجب علينا إلى حدٍّ مستطاع فهنالك يأتي نصر الله ، وتستقبلنا رحمته... وهذا المعنى تؤكده كثيرٌ من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبويَّة الشريفة: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٣] ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمَّد: ٧] ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟

www.abulhasanalinadwi.org

بِعَهۡدِيٓ﴾ [البقرة: ٤٠] وقد شكوا إلى النبيِّ ﷺ قلة الماء، وكان له ﷺ أن يتضرَّع إلى الله ويستمطره رأساً، لكنه لم يصنع ذلك، بل دعا بالبقية الباقية من الماء، فوضع فيه أصبعه، فإذا به يفور فوراناً، وقد شكي إليه قلة الغذاء، فاستدعى بما بقي من ثمالة الطعام، وتجمَّع لديه شيءٌ من التَّمر اليابس، وكسرة الخبز البائتة، وشيءٌ من الشعير، وما إليه من الطعام، فدعا الله عز وجل وتمسَّح به بيده المباركة، فزاد زيادةً ملموسةً، حتى كفى الجيش كلَّه، وقد كان له أن يدعو الله تبارك وتعالى كسيدنا عيسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤]. لكنه ﷺ إنما لم يصنع ذلك لأنَّ أمته كانت مكلَّفة بإعمال مواهبها الذاتية، وقوَّتها الإرادية، وعزيمتها الشخصية؛ قد كتب عليها الله أن تمرَّ بمراحل الحياة المتنوعة، وأن تواجه من وضعيَّة الدعوة والزمان ما لم تواجهه أمة قبلها، فلم يمكنها أن تجلس ضائعةً عاطلة، وألّا تحرك يديها، ولا تمشي برجلها، ولا تفكر بعقلها، ولا تستخدم ساعديها، ولا تحكُّ جلدها بظفرها.

ومن ثم ألقى عليها هذا الدرس الحكيم، وقيل لها: تقدَّمي بما عندك نزده من عندنا، وقد تجلَّت هذه الحكمة الدقيقة العميقة في بعض ما ظهر على يديه ﷺ من المعجزات، فواجه بثلاثمئة وثلاثة عشر نفراً (وهم عزل عن الوسائل المادية) جحافل الكفار في ميدان بدر، وقد كان له غناء في أن يردَّ الكفار بقوته المعنوية، ويهزمهم بدعائه المستجاب، وأن يقذف عليهم الحصى المقروء عليها، وأن ينفثهم بالآيات القرآنية، لكنه لم يجرب هذه الوسائل، بل قطع مسافةً شاسعةً، مسافة ٧٠ ـ ٨٠ ميلاً، ونزل ببدر، وصفَّف جيشه كعادة القواد في الحرب في عصره... فلنع هذا الدرس، ولنكن على ذكرٍ منه دائماً.

كانت القضية قضية الرُّبوبية:

كانت الحكومة قد أحكمت قبضتها على موادِّ التموين، وعلى كل

www.abulhasanalinadwi.org

وسائل الحياة والاقتصاد ، فما كان أحدٌ من الشعب يفوز منها بشيءٍ إلا الذي كانت تتكرَّم عليه الحكومة بعطفها ، وهي التي كانت توزِّع الوظائف كما تشاء ، وتوزِّع الثروة كما تشاء وتتصرَّف في وسائل الحياة كما تشاء ، كأنها صارت «ربّاً صناعيّاً» . . . فيقول الله تبارك وتعالى : كان هناك فتيةٌ طموحون قد نهضوا ، وأعلنوا كفرهم بربوبيتها ، وأفردوا الله بالربوبية ، وأخلصوا له العبودية ، وقالوا بملء أفواههم في نشوةٍ واعتزازٍ : لن نخضع إلا لله الواحد القهار ، لأنَّه هو الذي يربينا ، ويرزقنا ، وهو الذي يهيىء لنا وسائل الحياة ، وطريق المعاش ، وهو الذي يعزُّ ويذلُّ ، فينصر من يشاء ، ويخذل من يشاء ، ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء .

فلما عبروا هذه المرحلة في كل توفيقٍ ونجاحٍ ، زادهم الله هدى . . . وقد دلَّت الآية : أنَّ الهداية مصدرها واحدٌ ، وهو الله الأحد الصمد ، ولا يمكن أحداً أن يكسب الهداية بذكائه ، أو قوّته الفكرية والعقلية ، أو عن دراسته وكتاباته ، أو عن طريق خوضه في المكتبات ، وسيل المعلومات ، فقد نسب الله تعالى الهداية إلى نفسه ، واختار صيغة المجموع في الخطاب كالعظماء والسَّلاطين . . . على كلٍّ فإنَّ هؤلاء الفتية الموفّقين ، السعداء الصالحين ، قد بلغوا إلى هذه الذروة السامقة بلفتةٍ حانيةٍ من ربِّهم الكريم ، وما استحقُّوها إلا بعد ما أسلموا وجوههم له ، وانقطعوا إليه ، وكفروا بكلِّ الأرباب ، وضربوا معبودية كلِّ الآلهة الكاذبة عرض الحائط ، واجتهدوا في معرفة الله وحده ، وتعمَّقوا في معرفة صفاته السَّامية ، وأسمائه الحسنى ، وأعملوا في ذلك جهدهم وفكرهم .

طموح الشباب وفعَّاليتهم :

وقد حدث ذلك عندما نزحت النصرانية لأول مرّة من سيناء مركزها الأصيل إلى روما ، التي كانت تحكمها حكومةٌ وثنيَّةٌ متزمِّتَةٌ ، لما وصل إليها هؤلاء الفتية الدعاة بدأ الشباب يتأثرون بدعوتهم ، ويدلُّنا التاريخ على أن الشباب في كثير من الأحيان كانوا هم السابقين الأولين في الإساغة لدعوةٍ ، والتأثر بفكرةٍ ، لأنَّ الشيوخ والكهول ربما يكونون مثقلين بأعباء

www.abulhasanalinadwi.org

وأحمال وقيود وأغلال ، أغلال التقاليد والأعراف ، وأغلال العلاقات والصِّلات بالبلاد والشعب ، وأغلال القيم العائلية ، فكل ذلك يقف حجرة عثرة في طريقهم إلى منزلٍ آخر ، وعبورهم إلى شاطىء الصواب ، وذلك مثل من يكون مشدوداً بالأحجار ، أو يحمل الأمتعة والعروض لا يمكنه أن يسبح في الماء ، أو يعبر إلى الشطِّ ، في السهولة التي يعبر بها الرَّجل الأعزل الخفيف .

أمَّا الشباب: فلا تمنعهم جنادل وصخورٌ تعترض طريقهم من التوصل إلى المنزل بفضل فتوَّتهم ، وطموحهم ، وحماسهم الثائر ، ودمهم الفائر ، وهمَّتهم الوثَّابة ، وروح «اللا اكتراث» التي هي من أخصِّ خصائص الشباب ، فما أن يقرع آذانهم صوت الحق إلا ويقولون: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ . . . ﴾ [آل عمران: ١٩٣] فكذلك كان أولئك الفتية المؤمنون ، ما كانت في أرجلهم قيود التقاليد والأعراف ، والصلات والوشائج ، التي قد تثقل أرجل الطاعنين في السنِّ ، فهرعوا إلى صوت الحقِّ ولبُّوا نداء الصِّدق .

طـريـقٌ مـفـروشٌ بـالأزهـار وطـريـقٌ مـفـروشٌ بـالأشـواك:

ثم جاء دور المحنة والبلاء والتمحيص الذي يأتي طبعاً في طريق الدعوة ، فيواجه الداعي موقفين ، مؤدَّاهما واحدٌ ، أو طريقين كلاهما ينصبُّ في نهرٍ واحدٍ: طريق مفروش بالأشواك ، بل بالجذوات المتَّقدة ، والنار المحرقة ، وطريق الإغراء بالجوائز والصِّلات ، والمناصب والجاه ، والتسهيلات والامتيازات ، وكلاهما طريقان شاقَّان وعران تعترضهما وهدات الهلاك ، وهوى الدمار والبوار .

ويقول المحنَّكون: إنَّ الطريق المفروش بالأزهار أشدُّ وعورةٌ من الطريق المفروش بالأشواك ، فقد يفعل الترغيب ما لا يفعله الترهيب ، وقد أكَّد هذه الحقيقة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، فقد صمد أمام كلِّ التهديدات والترهيبات ، بل أنواع التعذيب التي قام بها المعتصم بالله فيما يتعلق بقضية كون القرآن مخلوقاً أو غير مخلوقٍ ، حتى ضُرِب بالسِّياط وانخلعت كتفه ،

www.abulhasanalinadwi.org

تلك السياط التي لو صبت على الفيلة لانهارت أمامها ، ولما مات المعتصم ، وخلفه أخوه المتوكل ، وطلب الإمام إلى مقرِّه وبلاطه ـ وكان الإمام قد حمل معه الزاد ليسدَّ به رمقه ، وما كان يلوِّث يده بالطعام الرسمي ـ وجعل يبعث إليه الصرَّة من الدنانير ، فقال الإمام : إنها أشدُّ بلاءً من سياط المعتصم بالله .

والواقع أنَّ الحكومات تستخدم الوسيلتين حسب الضرورة والأوضاع ، فقد تعمل وسائل التهديد والتعذيب ، وقد تستعمل وسائل الإغراء والترغيب ، وقد تكون الثانية أشدَّ من الأولى ، ويكون الصُّمود أمامها أدقَّ وأحرج ، لأن الإنسان إذا تماسك بنفسه وتجالد ، فقد يخضع أمام إلحاح الأبوين اللذين قد يكون لهما اتصالٌ قويٌّ بالبلاط وبرجال الحكومة ، أو يشغلان مناصب حكوميَّةٍ ، إذاً فتضغط عليهما الحكومة أن يقنعا فلذة كبدهما بفكرة الحكومة ، وتفتنهما بوسائل الإغراء الكثيرة ، من المستقبل الزاهر ، والمنصب الكبير ، والجاه العريض ، والمال الكثير ، وبأنَّه من يخلفهما في شأنهما ، ومكانهما ، إذا تنكر لهما ولده الوحيد الحبيب؟

ولكن حينما تخفق هذه الوسائل كلُّها ، وتنهار أمام صمود المؤمن المخلص تلتجىء الحكومة إلى التهديد ، وإلى التعذيب والتشديد ، والضرب بالنار والحديد ، وهنالك يحتاج إلى نصر الله يقوم بجانبه ، ويقوِّي عضده ، ويمسك بيده .

وربطنا على قلوبهم :

وهنالك ربط الله على قلوبهم الخفَّاقة ، ونفوسهم المضطربة القلقة ، وألهمهم الثبات والصمود ، وأخرج من قلوبهم الجبن ، والحزن ، والخوف ، والحيرة ، والاضطراب ، وملأها شجاعةً ، وسكينةً ، وقوَّةً ويقيناً ، ﴿ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف : ١٤] وليس المراد من القيام ، هو القيام المقابل للجلوس ، ولكن المراد هو انبعاث العزم في قلوبهم ، الذي بعثهم على التمرُّد على البيئة الفاسدة ، الدنسة المتعفِّنة ، التي اتخذت أرباباً وآلهةً كثيرةً من دون الله ، فأعلنوا كفرهم بكلِّ

www.abulhasanalinadwi.org

الآلهة المصطنعة، وقالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًاۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] وقالوا: إنَّ هؤلاء أعضاء مجتمعنا، وأبناء قومنا، وبنو جلدتنا الذين يبدون جادِّين وقورين، مجرِّبين محنَّكين، أذكياء عاقلين، ما لهم قد اتخذوا من دون الله الواحد الأحد الصمد آلهةً شتَّى، ولا يملكون على ألوهيتها دليلاً واضحاً يستندون إليه، وبرهاناً ساطعاً يعتمدون عليه، إذاً فهم يفترون على الله، وليس أحدٌ أظلم ممن افترى على الله كذباً... ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥].

إخوتي الأعزاء! إنَّ هذه الآيات الكريمات من سورة الكهف تقول لنا بالتأكيد أن نحكِّم أولاً الإيمان بالله، على بصيرةٍ، وعن معرفةٍ بصفاته، وفي صورة اقتناع العقل والقلب معاً.

والأمر الثاني الذي يجب أن نضعه في الاعتبار: هو أن نظلَّ على اتصالٍ دائمٍ بمنبع الهداية والإرشاد، وأن نشعل جمرتنا الإيمانيَّة، ونلهب غيرتنا الإسلاميَّة، وأن نتلقَّى شحنةً جديدةً، ودفعةً جديدة عن طريق دراسة الكتاب والسنة، وأسوة الرسول عليه السلام، وأصحابه البررة الكرام، وأتباعهم العظام، والمجاهدين المخلصين في سبيل الإسلام، وأن نجدِّد إيماننا بكلِّ ذلك، ونشحن قلوبنا بحرارةٍ إيمانيَّة جديدةٍ، كما تشحن البطارية عند الفراغ.

إنَّنا نعيش في هذا العالم المادِّيّ، وقد تتلمذ على أساتذةٍ لم تؤمن قلوبهم بهذه الحقائق الدِّينيَّة الغيبيَّة، ونواجه على كلِّ خطوةٍ ما يحيد بالإنسان عن طريق الرحمن إلى طريق الشيطان، نعيش في مجتمع تموج فيه أسباب الإلهاء عن الله... من التلفاز، إلى الراديو، إلى الصحف، والكتب الماجنة إلى السينما، وإلى الأدب الخليع المتهتك، حتى الأدب الذي كان يرجى أن يكون عذرياً بريئاً أو «حيادياً» على الأقل، إنه عميل (AGENT) الفسق، والفجور، والخلاعة، والمجون، والإباحية والاستهتار، والمثل الكاذبة، والقيم الباطلة، والعواطف النفسانية

www.abulhasanalinadwi.org

والأنانية والجنس والشهوانية ، إنَّ هذا الشرَّ الذي يموج من حولنا قد جعلنا كأنَّنا في خضمٍّ متدفِّقٍ متموِّجٍ ـ والفضل يرجع في ذلك إلى الأوضاع الجاهلية التي نعيشها ، والنظام التعليميِّ والتربويِّ الذي فرض علينا ـ ثم يقال لنا :

.... إيَّــاك إيَّــاك أن تبتــلَّ بــالمــاء

وللتفادي من «الابتلال بالماء» نحتاج إلى أن نستزيد الهدي من الله ﴿وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف : ١٣] إنَّ وهج الجمرة الإيمانية ، وحرارة الحبِّ والحنان ، وقوة اليقين والإيمان ، هو الذي يذيب هذه الإغراءات الشهوانية المتنوِّعة ، كما يذيب وهج النار الشمعة ، إننا لن نستطيع أن نقاومها بنظامٍ جماعيٍّ فارغٍ مجرَّدٍ ، أو بضابطةٍ خلقيَّةٍ ، أصارحكم أيها السادة ـ في ضوء التجارب ـ إنَّ الإنسان لا يمكنه أن يصمد أمام قوة الإغراء والفتنة العمياء إلا بقـوَّة الإيمـان والعقيـدة ، والقـوَّة التـي يستمـدُّهـا مـن سيـر الصحـابـة ، والتابعين ، والمؤمنين اللاحقين.

مقـاومـة الـمـادِّيَّـة الـمسلَّـحـة :

إنَّ هذه القوَّة لا تحصل إلا بالصَّلاة ، والدُّعاء ، والالتجاء إلى الله ، والصِّلة القويَّة بالله ، وتلاوة القرآن الكريم ، والفزع إلى الركوع والسجود ، والجلوس إلى عباد الله الصَّالحين الذين عضَّدوا صلته بربهم ، وأصلحوا بالهم ، وأخلصوا أعمالهم.

يا سادة! إذا حاولنا أن نقاوم هذه المادِّيَّة التي دجَّجتها أوربا وأمريكا بأحدث الأسلحة ، التي تزلُّ أمامها أقدام الأبطال المغاوير والشُّجعان الأقوياء ، فإنَّنا لن نملك أن نقاومها بالأنظمة ، أو نظم الأخلاق ، بل إنما نستطيع مقاومتها بقوَّة العقيدة والإيمان ، والعلاقة المتينة مع الله ، العلاقة التي تجعلنا إذا سجدنا سجدةً تضطرب لها الأرض ، كما يقول الدكتور محمد إقبال :

«إنَّ السَّجدة التي كانت تهتزُّ لها الأرض ، وترتعش ، تتطلَّع إليها المساجد والمحاريب».

www.abulhasanalinadwi.org

ولا بأس إذا ارتعشت منها الأرض ، أو لم ترتعش ، ولكن المهمَّ أن ترتعش قلوبنا ، وتهتزَّ ضمائرنا ، إذا فزتم بمثل هذه السجدة ، فإنَّكم ستستطيعون أن تقاوموا الماديَّة ، وتحتاجون إلى كسب هذه السجدة إلى اتِّباع سيد الأنام ، سيدنا ، ومولانا محمَّد ﷺ ، وحبِّ الله ورسوله ، والتزام السنن ، وإعطائها حقَّها من العمل والتطبيق. . . ومن الذي لا يخطىء ، ولكنَّ المهمَّ ألا يكون منا الإصرار على الخطأ ، وأن نتصيَّد له الدلائل ، بل نرى في النَّبيِّ الأعظم ﷺ الأسوة الكاملة ، ونصبوا إلى محاكاته في الأعمال والأخلاق والسلوك ، وإذا ما صدرت منَّا أخطاءٌ فإنَّ التوبة الصَّادقة كفيلةٌ بمحوها إن شاء الله ، إنَّه لعصرٌ دقيقٌ متأزِّمٌ نعيش فيه نحن ، لو استطعنا فيه أن نتمسَّك بدين الله ، ونتشبَّث بشرائعه ، وأحكامه ، ونتَّبع سنة حبيبه وصفيِّه ، وسعينا لإعلاء كلمة الله ، ولأن تظلَّ راية الإسلام خفاقةً ، لنكون قد استحققنا رحمة الله في الدنيا والآخرة ، واستوفينا من الله الجزاء الذي لا يتصوَّر.

إنَّ الإسلام هو وحده الحريُّ بالإرشاد والقيادة:

وما نراه في الشباب من التحمُّس والانتصار للإسلام ، ليس من المصادفة ، بل هو قضاء الله المحتوم ، وأمره المبرم ، ألمس ذلك فيكم الآن ، وأنا في «لاهور» ، كما لمسناه في الشباب أمثالكم في مصر والشام ، وفي الأقطار الأخرى ، قد رأينا فيهم ، ولا سيما في الشباب الجامعي ، وطلبة كليات الطبِّ والهندسة من العاطفة الإسلامية الجيَّاشية والغيرة الإيمانية الملتهبة ، ما قد لا نراه في الشباب الذين يتعلمون في المدارس ، ومراكز الثقافة الدينية الخالصة ، قد رأينا في الشام أنَّ الشباب الجامعي ولا سيما الطالبات أصبحن يعلنَّ ولاءهن للإسلام ويصارحن الوقوف بجانبه ، والانتماء إليه ، والانتصار له ، ويقدِّمن في سبيله على نوع من التضحية ، فقد أصررن على أنهن لا يحضرن في الجامعات والكليات إلا في الحجاب الشرعيِّ فإن قبلت الجامعات ودور التعليم والثقافة ذلك فبها ، وإلا فلا حاجة لنا في التعليم والثقافة .

www.abulhasanalinadwi.org

وكذلك وضعيَّة باكستان اليوم قد أحدثت ردَّ فعلٍ صالحٍ جديدٍ في الشباب مما يدلُّ على أنَّ الله يريد بالإسلام وأهله خيراً ، وأنَّ الله هو الذي أراد هذا التحوُّل ، وأنَّه يريد أن يمسك هؤلاء الشباب بزمام الحكومة ، وأن يقودها إلى مسارٍ صحيح ، وإلا فأنَّىٰ هذا الحماس الإسلامي ، وهذه الحركة العجيبة ، والعاطفة الجديدة في الشباب الجامعي الذي عُرِف بتحرُّره ، وانطلاقه .

العناية بتربية السيرة :

إخوتي! وأريد أخيراً أن أضع أمامكم أموراً غربلتها تجاربي المحدودة . الأول : أن تعنوا بتربية السيرة عنايةً كاملةً ، لأنَّها كالدَّم في الجسم الإسلاميِّ أو الإيمانيِّ للحياة ، وأول وأهمُّ ما ينقص اليوم حركاتنا الدينية هو هذا العنصر الهام ، ومن هنا يسقط الشباب في وسط الطريق ، وتنهار أعصابهم ، وتخور قواهم ، ولو تمَّت تربية السيرة والسلوك فيهم على أساس الكتاب والسنة ، لثبتوا إلى آخر الطريق ثبوت الجبال الراسيات .

العناية بنفسه قبل غيره :

والأمر الثاني : أن تبذلوا عنايتكم على أنفسكم قبل غيركم ، فقد عمَّ في هذا العصر أنَّ المرء لا يهمُّه أمر نفسه ، كما يهمه أمر غيره ، وهذه النفسيَّة المريضة قد خلفتها فلسفتنا الاجتماعية ، والسياسية المعاصرة ، فأصبح كلُّ إنسانٍ يقع نظره على عيوب غيره ، يحاسبها ، ويتتبعها ، ويعدِّدها ، ويعيب على كلِّ حزبٍ ما صنعه ، وينعى على كلِّ طبقةٍ ما أنجزته ، ويؤاخذ على فلانٍ أنه قصرَّ في أداء واجبه ، ولا يدعه ذلك كله أن يرجع إلى نفسه ، فينهاها عن غيّها ، ويحاسبها على نقائصها ومعايبها ، فيستخدم الوسائل لإزالتها .

حذار أن يكون نصيب السَّلب أكثر من الإيجاب :

والأمر الثالث الذي يجب أن يكون في الاعتبار هو : ألا يطغى السَّلب على الإيجاب ، ولا بدَّ أن يكون هناك توازنٌ فيما بين الأمرين ، فلا تُعَوِّدُنَّ أنفسكم على ألا تنظروا إلى شيءٍ إلاَّ نظرة الانتقاد ، فلو ذكّركم الجلوس إلى

www.abulhasanalinadwi.org

أحد بالله ، وزادكم إيماناً ويقيناً ، ورغَّبكم في الصَّلاة ، وكرَّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، فاغتنموا ذلك ، وقدِّروه حقَّ قدره ، ولا تقولوا : إنَّه لا فائدة في الجلوس إليه؛ لأنه لم يرفق لإقامة دولةٍ إسلاميَّة ، أو لم يناد بتنفيذ النظام الإسلاميِّ من منبرٍ سياسيٍّ ، لأنكم إذا تعلمتم الصلاة ، والصيام ، ونجحتم في استيعاب الكيفية ، والمعنوية؛ التي تضفي عليها الحياة والنور ، فكأنَّكم تعلمتم طريقة صياغة الحياة صياغةً إسلاميَّة ، وكان ذلك أساساً لكلِّ عملٍ إسلاميٍّ .

وسِّـعـوا دراسـتـكم :

والأمر الرابع : أن توسِّعوا دراستكم ، وتعمِّقوها ، ولا بدَّ لكم من الاطّلاع المباشر على مصادر الإسلام الأصلية ، ولا بدَّ لكم من تعلُّم اللغة العربية؛ لأنَّها الوسيلة الوحيدة إلى فهم الكتاب والسنة ، ثم أحيطوا بالدراسة كلَّ نوعِ من الكتابات ما دامت لا تدعو إلى شذوذٍ وانحرافٍ ، ولا يصحُّ الاقتصار على نوعِ واحدٍ من الكتابات الإسلامية ، وعلى طرازٍ واحدٍ من الكتب؛ التي تبحثُ في الإسلام ، ولا يصحُّ الظنُّ في شخصية ما بأنها النموذج الكامل ، فلا حاجة إلى غيرها ، لأنَّ النموذج الكامل ، والأسوة الحسنة إنَّما هي شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإن كان هناك أحدٌ يرى غير هذا الرأي ، فإنَّ ذلك لا يدلُّ إلا على السطحية ، وعلى قصر النظر ، وضيق التفكير ، وقلَّة الاطِّلاع ، وهذا ما لا يليق بشبابٍ مسلمٍ ، متفتِّح القلب ، واسع الأفق .

وقد كنت أنا شغوفاً بتنويع الدراسة ، وكان من رأيي دائماً ألاَّ بأس من قراءة كلِّ نوع من الكتب والمؤلفات ما لم يكن مشوباً بالمفاسد ، والسموم التي تلحق الضرر بالعقيدة ، وبشرط أن يكون الدارس قد بلغ مبلغ التمييز بين الخير والشرِّ ، والصالح والفاسد .

إنَّـكـم مـوضـع حـبِّـي واهـتمامـي :

يا شباب! إنَّ حضوري في مجلسكم لدليلٌ على أنِّي أمنحكم حبِّي ، وتقديري ، وقد ذكَّرني الموقف بقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله

www.abulhasanalinadwi.org

عنه ، وقد اجتمع حوله جمعٌ من الصحابة ، فعرض عليهم عمر رضي الله عنه ، أن يسأل كلَّ واحد منهم ربَّه ما يتمناه ، فقال بعضهم : نريد أن يكون لديَّ كمِّيَّة كذا من الفضة ، وأنفقها في سبيل الله ، كما تمنَّى بعضهم التوفيق للعبادة ، وكذلك كلٌّ دعا لما أحبَّه ، فلما جاءت نوبة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه تمنَّى أن لو غصَّ بيته بأمثال خالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وفلان ، وفلان رضي الله عنهم ، فيبعث كلَّ واحدٍ منهم إلى جبهةٍ يناسبها ، وتكون كلمة الله هي العليا في أرجاء المعمورة ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وترفرف راية الإسلام على جميع البشرية على ظهر البسيطة. . . أيها الإخوة! ولا يمكن أن نضع أمثال هذه الآمال اليوم إلا في أمثالكم.

وأخيراً لا آخراً ، أحمد الله العلي القدير على أنّه سبحانه أتاح لنا فرصة الاجتماع بكم ، والتحدُّث إليكم ، وأبتهل إليه سبحانه أن يجعلكم في حرزه ، ورعايته ، فما نالكم مكروه ، ولا أصابتكم عينٌ ـ بأوسع معانيها ـ فقد تصيب الإنسان عينه ، فيبتلى بإعجابٍ زائدٍ بالنفس والغرور ، ويوفقكم أن تضعوا مواهبكم في موضعها اللائق.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الأرض الخصبة التي تُنبتُ الزُّرُوعَ والثمارَ وتُنْجبُ العباقرةَ والرجالَ

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في ٢٣/ يوليو ١٩٧٨ م بجامعة الزراعة (AGRICULTURE UNIVERSITY) بفيصل آباد ، واستمع إليها كبار المسؤولين عن الجامعة ، وأساتذتها وطلابها ، بالإضافة إلى أعيان المدينة ووجهائها ، وعددٌ وجيهٌ من رجال العلم والفكر والمثقفين ، وقد تحدَّث المحاضر إلى الطلاب العرب في الجامعة على طلبٍ منهم باللغة العربية في نفس الموضوع .

www.abulhasanalinadwi.org

أصحاب السعادة والفضيلة ، أساتذة هذه الجامعة ، وإخوتي الطلبة والمستمعون الكرام!

يسرني جداً ويسعدني أنِّي وفقت للحضور وإلقاء الحديث في هذه الجامعة الموقَّرة ، الجليلة في وظيفتها وبخصائصها ، فشكري وتقديري للمسؤولين عن الجامعة على هذه الحفاوة والوفادة.

يا سادة! إنَّ البلد لا تقاس عظمته بكثرة الجامعات التي تقوم في رحابه ، ولا يقوّم بخصبة أراضيه ، وقوّة إغلالها ، وكثرة إنتاجها ، وحسن إنباتها ، أو بكميةٍ كبيرةٍ من أصحاب الملايين ، وأولي الثراء والرَّخاء ، والترف ، والسَّرف ، أو بارتفاع مستوى المعيشة في أهله ، بل المقياس الحقيقيُّ الذي يقاس به بلدٌ ، وتقدَّر به قيمته ، هو نسبة وجود ذوق العلم ، وروح البحث الذي يتَّصف به رجال العلم والبحث من أبنائه ، ونسبة عدد الجامعات ومراكز العلم والثقافة التي تقوم على هذا الأساس ، وتحقِّق هذا الغرض ، فلو كان هناك بلدٌ يزخر بأنواع النعم والخيرات ، ويحفل بالذخائر الطبيعية للثروات الهائلة ، وتدرُّ أرضه وسماؤه عسلاً ولبناً ، وبكلِّ نوعٍ من الوسائل والإمكانيات ، ولكن ينقصه الذوق الصحيح للعلم العميق ، والبحث الدقيق ، والدراسة ، والتحقيق ، ولا يوجد فيه ـ في كميَّةٍ وجيهةٍ ـ أولئك الذين وقفوا حياتهم على العلم ، وانقطعوا إلى الدراسة المضنية الجادَّة ، المثمرة المنتجة ، مستغنين عن كلِّ إشادةٍ وتحبيذٍ ، راغبين في رضا الله (وهو جوهر المقصود لدى المؤمن) ساعين في سبيل ترقية البلاد ، وتقديمها إلى الرَّخاء ، والنموِّ ، والازدهار ، لا يدفعهم إلى ذلك طمعٌ في جائزةٍ رسميَّةٍ أو في وسام التقدير والاعتراف من مؤسسة ، يجدون في التَّعب والعناء لذة لا يجدونها في الرَّاحة والجمام ، يرون في التعطُّل والبطالة تعذيباً لروحهم ، وخنقاً لمواهبهم ، ويرون فيمن يحول بينهم وبين العمل

www.abulhasanalinadwi.org

العلمي ، الجادِّ المضني ، ألدَّ وأحنق عدوٍّ لهم ، لأنَّه قد أصبح لهم بمنزلة الماء للسَّمك ، والغذاء للجسم ، بل بمنزلة الرُّوح للجسد.

ترنحت جوانحي حينما زرت هذه الجامعة:

وقد خامرني سرورٌ بالغٌ حينما رأيت أنَّ هناك جامعة زراعة راقيةً ، يؤمُّها الطلاب والمعنيون بالموضوع من خارج البلاد أيضاً ، ولا سيما شباب العرب ، وتأكَّدوا أنِّي لم أكن لأشعر بهذه الفرحة الغامرة ـ التي شعرت بها عند زيارة هذه المؤسسة العلمية العزيزة ـ بزيارة متحف مهما كان عظيماً راقياً ، أو استضافتي في بلاطٍ رسمي عظيمٍ مهما توفرت فيه وسائل الحفاوة والإكرام.

أنفقوا خير مواهبكم في تعمير هذه البلاد:

وأرجو أنَّ الشباب الذين ينهلون اليوم من هذا المنهل الكريم سوف يبذلون خير ما يتمتعون به من مواهب وصلاحيات في صالح هذه البلاد ، ويفضلون خدمة الوطن على المرتَّبات العالية ، والمناصب السامية ، والجاه العريض في أوربا ، أو الولايات المتحدة الأمريكية ، التي أصبحت من سوء الحظ كعبة الطامحين إلى المادَّة والمعدة ، وقد رأيت بعيني رأسي لدى زيارتي لأمريكا ، وكندا (CANADA) أنَّ خيرة شباب الشرق ـ الذين يتمتَّعون بمواهب غنيةٍ ، والذين كان بوسعهم أن يغنوا بلادهم ويجعلوها تدرُّ لبناً وعسلاً ، وتفيض بكلِّ نوعٍ من الثروات والخيرات لو ركَّزوا بعض عنايتهم عليها ـ قد اختاروا مجالَ العمل والنشاط في خارج بلادهم ، ومهما كانت لهم في ذلك بعض المكاسب ، فإنَّ فيه خسارةً كبيرةً وضرراً فادحاً بمصالح بلادهم ، حيث هاجروها إلى بلاد الأجانب بل الأعداء بعد ما بلغوا طور العمل والإنتاج في حين كانت هي بأمسِّ حاجةٍ إلى صلاحياتهم ، وعلى ذلك فأصبحوا يخدمون الأجانب ، ويثرون بلادهم بنتائج أعمالهم ، وثمرات قوَّتهم العلمية ، والعقلية ، والفكرية. . . ولذلك أرجو إخواننا شباب هذا البلد ، والشباب العربي ـ وأظنُّ أنَّهم يفهمون حديثي ، فربما قد

www.abulhasanalinadwi.org

تعلَّموا الأردية بطول مكثهم هنا ـ أنَّهم سيضعون بلادهم في عين الاعتبار ، وسيرونها هي المستحقّ الوحيد لمواهبهم ، وذكائهم ، ودراستهم ، ونتائج تفكيرهم. . . ومن المؤسف جداً ، بل وبلاهة العقل ، وفقدان الغيرة على الدِّين والوطن ، أن نضع مواهبنا في خدمة البلاد التي استعبدت الدول الإسلامية ، إنَّ الدول الإسلامية كلَّها اليوم خاضعةٌ لأمريكا أو روسيا ـ مباشرةً أو غير مباشرة ـ لا في مجال السياسة ، والاقتصاد وحدهما ، ولكن فيما يتعلَّق بمجال العلم ، والثقافة والفنِّ أيضاً ، فلو صرف شبابنا مواهبهم في صالح بلادهم وحدها؛ لاستطاعوا أن يُكسبوها شيئاً كثيراً من الغناء والاكتفاء الذاتي ، ولاستطاعوا أن ينالوا ـ بهذا الطريق ـ جزاء موفوراً ، وعطاءً غير منقوص من ربِّهم وخالقهم.

الفلسفات والنظريات والبحوث العلمية لا يزال لها سلطانٌ على النفوس والعقول:

إنَّ لي في هؤلاء الشباب رجاءً كبيراً ، آمل أنهم سيقفون ببحوثهم العلمية ، ودراستهم الموسعة العميقة الشاملة ، وطموحهم العلميِّ في وجه تلك البلاد التي تغزو قلوب المسلمين عن طريق العلم ، والثقافة ، والدراسة ، إنَّه قد ولَّى العصر الذي كانت تستعبد فيه دولةٌ دولةً ، فإذا كانت هناك دولةٌ تحلم بذلك ، فإنَّها تعيش في عالم الأساطير والأوهام ، ولكن الغزو العلميَّ ، والفكريَّ ضدَّ الإسلام ظل قائماً على امتداد التاريخ ، وسيظلُّ.

لقد مضى على الإسلام حينٌ من الدهر ، قد هجمت عليه الفلسفة الإغريقية بكلِّ ما عندهم من رصيد الحيوية ، والفتوة ، والنشاط ، فقام لها رجالٌ من أبناء الإسلام ـ الذين كانوا قد سبروا أغوارها ، وخاضوا في أعماقها ، وعجموا عودها ـ فجعلوه هباءً منثوراً ، أمثال الأئمة : الغزالي ، والباقلاني ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والرازي وغيرهم.

ثم جاء دور غزو الاستعمار الغربيِّ للإسلام عن طريق التاريخ ، وعمَّ في طول العالم وعرضه الرأي القائل بأنَّ مكتبة الإسكندرية أحرقها المسلمون ،

www.abulhasanalinadwi.org

وقد قدَّمته أوربا كحقيقةٍ تاريخيةٍ مقرَّرة ، فخضع له كلُّ مثقفٍ وكلُّ دارسٍ ، وكلُّ من كان يكابر فيه ، أو يشكُّ ، أو يراه موضع جدالٍ ونقاشٍ ، كان هدف التُّهم ، وموضع الملام ، ويعيَّر بالجهل وبالبلاهة ، وقد وقف العالم الإسلاميُّ كله مسحوراً مبهوراً أمام هذا الرأي ، وبدأ الناس يقولون : أنّىٰ للمسلمين أن يكونوا رائدي العلم والثقافة وعاملين في سبيل إنعاشه وتصعيده ، فقد بلغوا من محاربتهم للعلم أنهم قد أحرقوا مكتبة الإسكندرية بأمر خليفتهم عمر بن الخطاب ، لأنهم رأوا أن هذه المكتبة لو كان ما فيها من علمٍ وفنٍّ مطابقاً للوحي الإلهي والحديث النبوي ، فلنا غناء في كتاب الله وسنة رسول الله ، فلا حاجة إلى غيرهما ، وأمّا إذا كان معارضاً لهما فليكن رماداً تذروه الرياح في مكانٍ سحيق .

وكان ذلك نقعٌ قد أثاره الكتّاب والمؤلفون المسيحيون في أوربا شفاءً لبعض ما في صدورهم من البغضاء البغيضة للإسلام . . . وكان العلامة المؤرخ شبلي النُّعماني أول من قام في شبه القارة الهندية لتفنيد هذا الزعم الباطل ، فعرّاه ، وفضحه في قارعة الطريق ، وأثبت بدلائل علميَّةٍ لامعةٍ : أنَّ مكتبة الإسكندرية قد سبق إحراقها خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ودخول المسلمين في مصر ، وجلّى للعالم : أنَّ هذا الفعل الشنيع قد قام به المسيحيون المتعصِّبون . . . وكذلك كانت هناك آراءٌ وأفكارٌ خاطئةٌ روَّجها أعداء الإسلام عن طريق التاريخ لكي ينالوا من الإسلام وأهله ، فلم يرجعوا بطائلٍ ، وقد جعل الله كيدهم في نحورهم ، فمثلاً قالوا : إن الجزية في الإسلام تقوم على أساسٍ ظالمٍ ، وقد كشف العلامة النعماني اللثام عن الحقيقة في هذا الصَّدد في رسالةٍ مستقلَّةٍ أسماها «الجزية وحقوق الذميين» .

العلم لا يتوقف ركبه على مرحلة :

حينما توجهت الضربات على الإسلام عن طريق السياسة والاقتصاد ، وما إليهما ؛ برز في الميدان الأساتذة الكبار ، والعلماء الأجلاّء في شبه القارة الهندية ، وحاسبوا هذه الفلسفات الخرافية محاسبةً علميةً ، ووقفوا قدرتهم الكتابية على هذا الجهاد المشرّف ، لكن العلم ـ أيُّها السادة! ـ

www.abulhasanalinadwi.org

لا يتوقف على منزل ، إنَّه يتصف باستمراريةٍ ، ورقيٍّ دائمٍ ، وتطورٍ قائمٍ ، لا يعرف الكَلَّ ، ولا السآمة ، فلا يمكن لأحد أن يقول: إنَّه وصل إلى النقطة الأخيرة ، أو المرحلة النهائية؛ لأنَّ ذلك يعني الجهل بمكانة العلم ، ومركزه السَّامي .

فمن واجبكم اليوم أن تبطلوا النظريات الخاطئة التي تهاجم الإسلام عن طريق علم الزراعة ، والتي تتصادم مع القرآن الكريم وتعاليمه ، وأن تقرِّروا حقِّيَّة أمورٍ كثيرةٍ كشف القرآن الكريم عنها لأوَّل مرة ، ولا أعلم أحداً سبق القرآن في الإشارة إلى تلك الحقائق ، مثلاً يدعي القرآن بزوجية كلِّ شيء ـ وقد دخل في «شيءٍ» النكرة طبعاً الزراعةُ ، والنباتاتُ ، والأشجار ـ إذاً فمن وظيفة أمثالكم أن تؤكدوا صدق هذه الدعوى ، وتبرزوا من خلال ذلك إعجاز القرآن ، وبالتالي إعجاز النَّبيِّ الأمِّيِّ العربيِّ ﷺ ، وهناك حقيقة عجيبة جلَّاها القرآن الكريم في سورة الرعد تجدر بالدراسة المستقلة ، يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٣ ـ ٤].

وأرجو أن جامعتكم الموقرة هذه ستقوم بهذه الدراسة خير قيام ، وتقدم نتائجها إلى دنيا الناس .

يا ليته تمَّ هذا العمل المشرِّف الجليل في الدول الإسلامية :

إن نظرية داروين (DARWIN) للنشوء والارتقاء قد تركت ـ كما تعلمون ـ هزَّةً عنيفةً لا في الأوساط العلمية ، بل في الأوساط الدينية أيضاً ، وقد كانت لهذه النظرية صولةٌ وجولةٌ في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين حتى كان الناس يرون أن التجرُّؤ على المحاسبة العلمية لهذه النظرية ، يعني الجهل ، وقلة العقل ، فخضع لها أناسٌ كثيرون في الشرق والغرب ، وعاد كثيرٌ من الناس يرون أنَّه ليس هناك أيُّ تصادم بين

www.abulhasanalinadwi.org

ما يراه القرآن وبين هذه النظرية ، وبدؤوا يطبقون بينهما على أساس كون نظرية النشوء والارتقاء وتنازع الأصلح للبقاء هي الأصل ، فأوّلوا الآيات القرآنية تأويلاً بارداً ، وحمّلوها من المعاني والمفاهيم ما لا تحتمل . . . غير أنَّها أخيراً انهارت ، ولم يبق لها من السلطان ما كان في نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، بفضل الدراسات العلمية التي تمَّت في أوربا ، ويا ليتها قد قامت بها البلاد والأقطار الإسلامية ، يا ليتها قد قامت بها مصر ، والعراق ، والشام ، والهند ، ولكنه مع الأسف إنَّ الأفاضل العرب إنما كان موضع اهتمامهم التاريخ أو الأدب فقط ، وما بذلوا عنايتهم على العلوم التجريبية من العلم (SCIENCES) والكيمياء (CHEMISTRY) والفيزياء (PHYSICS) إلا قليلاً جدَّاً ، ومن ثمَّ فلم ينبغ عبر البلاد الإسلامية رجلٌ يبتكر نظريةً علميَّةً ، أو تسلم له الأوساط العلمية بالسبق والفضل في أيِّ مجال ، أو يكون محطَّ أنظارٍ وموضع إعجابٍ في المحافل الدولية ، والمجالس العلمية العالمية .

أحــرزوا جـائـزة نــوبـــل :

أيها الشباب ، إخوتي الطلبة الأعزاء! اجتهدوا أنتم في مجال علم الزراعة (AGRICULTURE) وأحرزوا فيه قصب السبق ، حتى تستطيعوا أن تبتكروا نظريةً جديدةً ذات قيمة تستأهلكم لجائزة نوبل (NOBEL PRIZE) . . . أنتم لا تستطيعون أن تقدِّروا مدى السرور الذي سيغمر الشباب الإسلامي ، ومدى التشجيع وهزّة الافتخار التي يشعرون بها إذا ما يتسامعون بمسلمٍ ينال جائزة نوبل مقابل عملٍ علميٍّ تحقيقيٍّ ، يا سادة! إنِّي ـ على الرغم من أنني أنتمي إلى طبقة علماء الدين ـ أترقَّب ذلك اليوم السعيد الذي يستحقُّ فيه أحد من أبناء الدول الإسلامية جائزة نوبل في داخلها ، على عملٍ عملاقٍ قام به في مجال الزراعة ، لأن ذلك شيء سيبعث الأمل والطموح في الشباب المسلمين ، وهذا ما لا يلام عليه أحد ، إنَّه لا يتَّصل بالسياسة ، ولا يتعلَّق بما يحطُّ من شأن أمَّة ، أو دينٍ ، ولا تعارضه حكومةٌ ، ولا تعترض عليه دولةٌ . . . إنِّي ألفت أنظار الفتية المسلمين في كل أنحاء الأرض ، ولا سيَّما في البلاد والأقطار الإسلامية ،

www.abulhasanalinadwi.org

إلى ذلك ، وأستقطب اهتمامهم إلى أن يقوموا بعمل عظيم ذي أصالة (ORIGINALITY) وثورةٍ تسترعي انتباه العالم ، ويجعله يؤخذ به ، ويعترف بأنَّ في المسلمين من يتمتَّع بالمؤهلات العقلية ، وقدرة الابتكار والإنتاج ، والعبقرية (GENIUS) والذكاء العجيب .

الأرض الخصبة في قلوب الأمة الإسلاميَّة :

أنتم أفلاذ أكباد المسلمين ، والبراعم الناعمة التي لم تتفتح بعد ، تقومون بدراسة هذه الأرض ، ومدى صلاحيتها للإنبات ، والإنتاج ، والإغلال ، ونوعية جدارتها ، وتجانسها لنوعٍ من الحبوب والزروع وكيف يمكن تضعيف الحاصلات ، وتنمية قوَّة الإنباتِ ، وما إلى ذلك ، أريد أن ألفت أنظاركم إلى أرضٍ غير هذه الأرض ، قلَّما حظيت من البلاد الإسلامية باهتمامٍ وعنايةٍ ، ألا وهي أرض قلوب أمتنا الإسلامية ، إنَّها ذات ثرواتٍ زاخرةٍ ، وخزائن ثرَّةٍ ، وقوىً وطاقات مكنونةٍ لا يعلم مداها إلا الله ، ومن الواجب أن نعرف قدرها ، ونبرزها ، ونستخدمها ، ونهيِّىء لها فرصة العمل والتأثير . . . إنَّ زعماءنا السياسيين ، وقادتنا القوميين ما أعاروها عنايةً منهم ، ولم يدركوا ـ بعد ـ مدى عاطفة الحبِّ والحنان ، وقوة الدين والإيمان ، وروح التضحية والفداء والإيثار والوفاء ، والإخلاص والولاء ، والحماس والسذاجة ، والتقشُّف والجلادة ، التي تمتاز بها هذه الأمَّة التي يقودونها .

يا سادة ! أفلا تستحقُّ هذه الأرض القلبية القيِّمة أن تقام لها جامعاتٌ تقوم بدراستها ، والبحث عن مضمراتها ، ومكنوناتها ، وأبعادها وأعماقها ، وما تخفيه من خزائن لا تنتهي ، وأن تكشف وسائل إيقاظها وإنمائها ، وحرثها ، وحرسها . . . تأكدوا أنَّه لو تمَّ هذا العمل ؛ لأتى بانقلابٍ عظيمٍ في العالم ، يندهش أمامه كلُّ من على فوق البسيطة .

إنَّكم لا تستطيعون أن تقوموا بهذا الانقلاب العظيم في الأخلاق ، والسلوك ، ووضعية العالم ، وأن تنفعوا العالم نفعاً حقيقياً عن طريق أيِّ عملٍ بمِثْل ما تستطيعون بهذه العملية ، وإنِّي بهذه المناسبة أبثُّ شكواي

www.abulhasanalinadwi.org

ـ من خلال إنشاد بيتٍ من بيوت إقبال ـ لا إلى إيران وحدها ، بل إلى شبه القارة الهندية هذه وإلى العالم الإسلامي كلِّه :

«لم ينهض روميٌّ(١) آخر من ربوع العجم ، مع أن أرض إيران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال «تبريز»(٢) كما كانت» .

وأسلي قلبي وأعزِّي نفسي ، وأبشّركم وأرجيكم بقوله :

«إلا أنَّ إقبال ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدُّموع أنبتت نباتاً حسناً ، وأتت بحاصلٍ كبير» .

الأرض المخصبة المنتجة للزروع والمنجبة للرِّجال :

يا سادة! قد متَّعكم الله بباكستان ، تلك التي أراضيها مخصبةٌ ، وأبناؤها ذوو أهليات منتجةٍ ، وعقولٍ مبتكرة ، وقلوبٍ عامرةٍ زاخرةٍ ثرّةٍ.

وتلك هي حال جميع أراضي البلاد الآسيوية التي توافد منها هؤلاء النجباء من الإخوة التلاميذ ، إنَّها حال العراق التي تقع في وادي دجلة والفرات ، وحال السودان التي هي منبع النيل ، وأنتم تعرفون مدى خصبها وقوتها للإغلال ، ولكنكم ـ أسفاً ـ لا تعرفون تهيُّؤها لإنجاب الرجال ، ومن هنا توجَّهت العناية إلى الاستغلال ، واستنتاج الحاصلات ، والأموال ، ولكنها ما توجَّهت إلى استنجاب العباقرة والرِّجال ، والعظماء والأبطال .

أنتم اليوم تلاميذٌ في هذه الجامعة ، جامعة الزراعة في فيصل آباد ، وربما تكونوا غداً وزراء زراعة في بلادكم ، إنَّ العهد عهد الديموقراطية ، وعهد الثورة والانقلاب ، فمن الممكن جداً أن يكون بعضكم وزير زراعة ، أو قائداً سياسياً ، أو زعيماً لحزب من الأحزاب ، أو رئيس جمهورية ، فأريد أن أحمِّلكم رسالةً ، وهي ألاَّ تفوتنَّكم العناية باستنجاب الرجال

(١) إشارة إلى مولانا محمد جلال الدين الرومي (٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ) .

(٢) مدينة في ايران ، نهض منها شمس الدين التبريزي ، شيخ الرومي في التزكية والتربية الروحية .

www.abulhasanalinadwi.org

بجانب استغلال الأراضي. . . ألفتوا أنظار المواطنين في بلادكم أنَّ المواهب الغنية التي حباها الله الأمَّة الإسلامية حُرمتها الأمم الأوربيَّة والأمريكيَّة كلُّها ، إنَّها لا تتمتَّع بعشر معشار الإخلاص ، والسذاجة ، والإيثار الذي يتميز به المسلمون في كلِّ مكانٍ ، وليس عليكم أيها القادة والسادة! إلا أن تستغلوا هذا الإخلاص ، وهيئوا المناخ لنموِّ روح الإخلاص الذي يلتقي به المسلم مع المسلم ، وعاطفة الحبِّ والحنان ، والإيمان بالحديث والقرآن ، التي تحرك ساكن قلوبهم أكثر من أيِّ شيءٍ آخر في الحياة ، إذا فعلتم ذلك؛ فسيكون بلدكم بلد العباقرة والأبطال ، وبلد الثورة والانقلاب ، وبلد الربيع والأزهار ، ويندهش أمام خصبه العالم كلُّه .

وبهذه الكلمة أنهي حديثي شاكراً لمن وجهوا إليَّ الدعوة للحضور والزيارة ، ولإلقاء الكلمة في هذه الجامعة ، متمنِّياً من الله للجامعة كلَّ رقيٍّ وازدهارٍ وعزٍّ وافتخار ، وشرفٍ واعتبارٍ ، لا بالنسبة إلى باكستان ، ولكن بالنسبة إلى العالم الإسلاميِّ كلِّه .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

غايـة الـتعليـم والـتـربيـة فـي الـعـالـم الإسـلامـيِّ ومـنهـاجـه

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في جامعة كراتشي (باكستان) في ١٢/ يوليو ١٩٧٨ م ، وقد استمع إليها أساتذة الجامعة وطلابها ، والمسؤولون عنها بالإضافة إلى عددٍ وجيهٍ من خبراء التعليم ، والثقافة ، والاجتماع ، والسياسة ، والصحافة ، والقادة والزعماء ، والمسؤولين عن المراكز التعليمية والثقافية ، وقدَّم العلامةَ الدكتور إحسان رشيد نائب رئيس الجامعة ، وألقى الكلمة الختامية صاحب السَّعادة إسماعيل سعد أمين جامعة كراتشي .

www.abulhasanalinadwi.org

العلم حقيقة:

صاحب السعادة رئيس الجامعة! وأصحاب السعادة والفضيلة أساتذة الجامعة، وطُلّابها وطالباتها! وإخوتي الأعزّاء!

على الرغم من أنني لا أؤمن بتقسيمٍ في العلم، وإنَّني أعتقد أنَّ العلم وحدةٌ لا تتجزَّأ، ولا تقبل التوزيع، والتصنيف، ولا يصحُّ تقسيمه بين قديمٍ وجديدٍ، وشرقيٍّ وغربيٍّ، وعمليٍّ ونظريٍّ، إنِّي أرى ـ كما يرى الدكتور محمد إقبال ـ أنَّ التوزيع بين القديم والجديد لا يقول به إلا قاصرو النظر، ضيقو الفكر؛ بل إنَّني لا أؤمن بتقسيم العلم إلى دينيٍّ ودنيويٍّ أيضاً، إنِّي أرى أنَّ العلم حقيقةٌ أو تجربةٌ لا يملكها بلدٌ دون بلدٍ، أو أمَّةٌ دون أمَّةٍ، ولا ينبغي أن يكون كذلك، ولن يمكن ذلك، كما إنَّني لا اؤمن بتحديد منابع أخرى في الحياة تحديداً جغرافياً، أو سياسياً، أو عنصرياً، أو قومياً.

على كُلٍّ فإنِّي اؤمن بأن العلم وحدةٌ لا تتجزَّأ، وما يراه الناس كثرةً أراه وحدةً، ووحدية العلم هي صدقه، وواقعيته، وكونه حقيقةً، وولوعه بالحقيقة، ونشدان الصِّدق، والواقعية.

على الرغم من ذلك كلِّه أشكر صاحب السعادة رئيس الجامعة، والمسؤولين عنها؛ إذ اختاروا للتحدُّث إلى هؤلاء الطلبة الأعزَّاء، وإلى هذه الأزهار والبراعم الناعمة في حديقة الإسلام، رجلاً يُنمى ـ عن فهمٍ، وعن قصدٍ أو خطأ ـ إلى منهاج التعليم القديم، ومن هنالك أرى لزاماً أن أعترف برحابة صدوركم، وسعة أفقكم، وانفتاح أنظاركم، حيث إنكم ما أبحتم هذا الفرق بين القديم والجديد الذي يراه قصار النَّظر من النَّاس.

إنِّي لا اؤمن، لا في العلم ولا في الأدب ولا في الشعر، ولا في

www.abulhasanalinadwi.org

الفلسفة والحكمة ، بأنه من تزيَّا بزيه الخاص فهو العالم ، أو الأديب ، أو الشاعر ، أو الفيلسوف والحكيم ، وإنَّ من تخلَّى عن هذا الزيِّ فليس يستحقُّ الخطاب ، ولا يستحقُّ الاهتمام ، والالتفات ، فضلاً عن الاستماع إليه ، ومن سوء الحظ أنَّ ذلك قد راج رواجاً كبيراً فيما يتَّصل بالأدب والشعر ، فيُتَّهم بقلة الأدب من يحضر ندوة علميةً أو أدبيةً أو شعريةً ولا يحمل «لافتة الأدب» ، ولا يتزيا بزيه الخاص ، وأصبح الناس لا يغتفرون جريمة من لم يرتدوا زيَّ الأدب والشعر ولم يتمكَّنوا من الحصول عليه من «دكانه» من الأدباء والشعراء الموهوبين؛ الذين جبلوا على فطرة الأدب ، وسليقة الشعر.

على كلٍّ فإني أرى أنَّها خطوةٌ جريئةٌ منكم أن دعوتموني لإلقاء الكلمة في هذه الجامعة ـ على الرغم من أنني أؤمن بآفاقية العلم ، وشموله ، وحيويته ، ولا أراه ملكاً لأحدٍ ، أو لجهةٍ ، أو لبلدٍ ، أو لأمَّةٌ ، فخزائن الله زاخرةٌ ، وهي مفتوحةٌ لكلٍّ من كان مخلصاً في الطلب ، صادقاً في العزم ـ إنَّها بادرةٌ تستحقُّ التقليد ، وأودُّ أن تدعو مدارسنا القديمة رجال المدارس الجديدة والمثقفين العصريين ، وأن توجه جامعاتنا ومدارسنا العصرية الدعوة إلى أولئك العلماء والأفاضل الذين أخلصوا في طلب العلم ، ولم يقصِّروا في الاستفادة من التجارب الإنسانية العظيمة ، والإنتاجات البشرية العلميَّة والأدبية.

الغاية الأولى والأساسية من التعليم:

أيها السادة! إنَّ قلبي مفعمٌ بعواطف الشكر ، حيث أتيح لي فرصةٌ لإلقاء كلمةٍ أمام هذه المجموعة الطيبة التي تشتمل على كثيرٍ ممن قد يلعبون غداً دوراً خطيراً لا فيما يتعلق بهذا البلد وحده ، بل على مسرح العالم الإسلامي ، وقد يمسكون زمام إدارة البلاد ، أو يتاح لهم أن يوجهوا توجيهاً تربوياً تعليمياً على الأقلِّ.

وفقني الله أن أقرأ كثيراً فيما يتصل بالتعليم والتربية ، وغايتهما المنشودة ، والفائدة التي يجب أن تجنى منهما ، لكنني أكتفي بهذه المناسبة

www.abulhasanalinadwi.org

بتقديم شهادةٍ واحدةٍ فيما يتعلق بتعريف العلم ، وتحديد غرضه لخبيرٍ تعليميٍّ بريطانيٍّ معروفٍ (Sir Percy Neinn) من مقالٍ له كتبه لدائرة المعارف البريطانية :

«لقد سلك الناس مسالك مختلفةً في التعريف بالتربية ، ولكنَّ الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً: أنَّ التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعبٍ ومُرَبُّوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة ، التي يؤمنون بها. إنَّ وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربِّي التلميذ تربيةً تمكِّن من الاحتفاظ بحياة الشعب ، وتمدُّ يدها إلى الأمام(١)» .

إنَّ هذا التعريف بالتعليم والتربية هو أروع ، وأجمع ، وأكثر تواطؤاً مع العمل والتطبيق من بين جميع المحاولات التي بذلت في سبيل التعريف بالتعليم والثقافة.

ما هي غاية التربية؟ وماذا يراد من ورائها؟ ولماذا تبذل المواهب الفنية على التعليم؟ ولماذا تنفق قوى الأمة بسخاءٍ وعلى طريقةٍ منظمة؟ ألكي يوجد التعليم فجوةً بين الأمة وبين ما تعتزُّ به ، وتتبناه من معتقداتٍ وأغراضٍ ، وتراثٍ حضاريٍّ وعلميٍّ ، وتصوراتٍ ، وسواءٌ أكان كلُّ ذلك مما ينبغي الاعتزاز به أم لا ، لكن الشيء الذي تحبُّه ، والمعتقدات التي تعتزُّ بها ، والتصورات ، والقيم ، والمثل (Values) والعقائد (Conceptions) والأفكار (Ideas) التي تتغنَّى بها ، والتراث الذي توارثته من آبائها وأسلافها ، من وظيفة التعليم الأولى أن يربط بين الأمَّة وبين هذه الأشياء ، وينقل هذا التراث إلى الأجيال القادمة ، والنشء الجديد ، ذلك التراث الذي أفرغ عليه سلفها خير قواهم ومواهبهم ، وبذلوا مدَّةً طويلةً من وقتهم ، وربما قاتلت تلك الأمَّة في سبيله ، وحاربت ، وجاهدت ، وضحَّت بعزها وشرفها ، ومجدها التليد ، ومن الفضول أن نتعَّرض بهذه

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، بند «التعليم» (EDUCATION).

www.abulhasanalinadwi.org

المناسبة فيما إذا كانت القيم التي حاربت الأمة من أجلها قيماً صالحةً أم لا ، لكن مسؤولية التعليم أن ينقل هذا التراث إلى الأجيال المتلاحقة ، ولا يقتصر على النقل والتصدير فحسب ، بل يعمِّقه في القلوب والأذهان ، ويجعل القلوب والعقول تسيغه ، وتتذوقه ، ولا يعود نابياً لديها ، أو أجنبياً عندها ، بل يعود مألوفاً لها ، ومحبوباً عندها ، ويصير طبيعةً لها.

أمَّة محمَّد ﷺ أمَّةٌ ممتازة في خصائصها ومزاياها ، وصياغتها ، وعناصر تركيبها :

أرى أنَّ هذا التعريف بالتربية بقلم خبيرٍ بريطانيٍّ تعريفٌ جامعٌ جدّاً ، لكن إذا كان الأمر أمر أمَّةٍ عقائدها وقيمها ليست من عند نفسها ، بل نابعةٌ من الوحي الإلهي ، والكلام الإلهي ، والنُّبوَّة والرسالة ، والعلم اليقينيِّ الغيبيِّ الأزليِّ الذي لا يحول ، ولا يزول ، ولا يتغيَّر قليلاً أو كثيراً ، فهنالك تتضاعف المسؤولية ، وتتضخَّم.

فإذا كان هناك تعليمٌ يزعزع عقائد تلاميذه ـ من شعور ، أو من غير شعور ، عن قصدٍ أو عن غير قصد ، عن خطأ أو عن خطَّةٍ مدبَّرةٍ ـ ويزعزع جذور قيمهم في قلوبهم ، ويفكِّك عراها ، ويمزقها: ويثير في قلوبهم شكوكاً وشبهاتٍ لا تزول ، وصراعاً نفسياً (MENTAL CONFLICT) ويتجاوز هذا الصراع الأفراد إلى الحياة الاجتماعية للأمَّة ، ويتحوَّل الصراع إلى حربٍ داميةٍ شعواء بين تلك القيم ، والمفاهيم ، والتصورات ، والمعتقدات ، والأفكار ، والعقائد ، وبين ذلك الجيل المثقف بذلك التعليم ، وتلك الثقافة. فالأمر أدهى وأمرُّ. أيها السادة! إنِّي لا اؤمن بالإسلام كتراثٍ (LEGACY) ولا أرى ذلك تعريفاً رائعاً بالإسلام؛ ولذلك فإنِّي لست معجباً بالكتب التي وضعت بعنوان: (LEGACY OF ISLAM) و (HERITAGE OF ISLAM) إنِّي أرى الإسلام رسالةً للحياة ، لا أراه قادراً على مسايرة الزمان فحسب ، بل أراه قائداً للزمان ، وموجهاً له ، لا أراه رفيقاً للزمان في رحلة الحياة ، بل أراه محاسباً للزمان ، ومراقباً له (GUARDIAN) فإذا كان هناك مثقفٌ بالتعليم العالي يقع فريسة الشكِّ

www.abulhasanalinadwi.org

والارتياب في جميع قيمه ، وتصوراته ، ومعتقداته ، أو يعود يراها دُمىً يسلِّي بها الصبيان والأطفال ، أو أسطورةً يتعلل بها السذَّج والجهَّال ، أو يصبح لا يتحمَّس لها ، ولا يقاتل في سبيلها ، ولا يدافع عنها ، ولا يغامر من أجلها إذا مسَّت الحاجة إلى ذلك ، إذا كان ذلك فإنَّ هذا التعليم عدوٌّ لدودٌ لمن يحصِّله ، يجب أن يفرَّ منه فرار الإنسان من الأسد ، بل أكثر من ذلك.

قضية البلاد الإسلامية أهمُّ وأكبر خطراً :

أيها السادة! وحين أتحدَّث إليكم في هذا الحفل الكريم ، وفي رحاب هذه الجامعة الكريمة ، وعلى جزءٍ من ربوع باكستان ، فإنِّي أخاطب العالم الإسلامي كلَّه ، أخاطب تركيا ، أخاطب مصر ، والشام ، والعراق ، وأخاطب المملكة العربية السعودية التي انعقد فيها منذ شهور مؤتمرٌ عالميٌّ للتعليم الإسلاميِّ (ALL WORLD ISLAMC EDUATION CONFERENCE) حضره من باكستان الأستاذ إحسان رشيد ، وصاحب السعادة والمعالي أ ، كي بروهي (A.K. Barohi) ، وحضرتُه أنا من الهند ، وقد صرحت عند ذاك ـ في المحاضرة التي ألقيتها ـ أن الأمر يصبح ذا خطورةٍ وحساسيَّةٍ وتعقيد إذا كان يتعلق ببلدٍ إسلاميٍّ ، تعيش فيه أمَّةٌ ذات شخصيةٍ (PERSONALITY) وذات خصائص ومميزات ، ذات دعوةٍ ورسالة ، ومكلفةٌ بقيام دورٍ فريدٍ في العالم البشريِّ ، تنبع معتقداتها ، وقيمها ، ومثلها ، وتصوراتها ، وأفكارها ، ووجهات نظرها من الوحي الإلهيِّ ، فإذا كان التعليم يحدث صراعاً في مثل هذا الجيل ، ويجعله يخلع معتقداته وتصوراته العريقة بعد ما يتخرَّج في جامعةٍ عصريَّةٍ ، يصبح وكأنه أمَّةٌ أجنبيَّةٌ تبدو نابيةً قلقةً فيما بين الشعب المسلم ، ويحصل من ذلك كله تعقيدٌ جديدٌ ، وتحدث مشكلةٌ جديدةٌ (PROBLEM) ويحدث صراعٌ مريرٌ ـ وقد يكون صراعاً دموياً ـ بين هذا الجيل المثقَّف وبين عائلته الإسلامية ، وآبائه ، وأمهاته ، وبين المجتمع الذي هو عضوٌ فيه ، وبين تاريخه وتراثه ، وقيمه ومآثر أسلافه ، وبين منصبه ومكانته التي حباها الله إيَّاه ، وبين رسالة الإسلام والعمل الإسلاميِّ ، وآمال الأمَّة الإسلاميَّة وأحلامها ، إذا كان كلُّ

www.abulhasanalinadwi.org

ذلك ، فإنّي لا أرى في هذا التعليم خيراً ، ولا أراه خدمةً للإنسانية (SERVICE) بل إنَّه سوء خدمة (DISSERVICE) .

المسؤوليَّة الأوليَّة لجامعةٍ إسلامية في بلدٍ إسلاميٍّ :

ومعذرةٌ إليكم فإنّي لا أشير إلى جامعة بعينها ، ولا إلى المسؤولين عن جامعةٍ محدَّدة ، وإنما أتعرَّض لأمرٍ مبدئيٍّ ، وأريد أن أقرِّر أنَّ المسؤولية الأولى والأهمّ والأقدم لجامعةٍ تقوم في بلدٍ إسلاميٍّ ، هي أن تؤكد إيمان الأمة بالعقائد والأفكار التي تؤمن بها ، والحضارة التي تحتضنها ، والدعوة والرسالة التي تتبناها ، والخصائص والمزايا التي تحملها ، حتى لا يعود هذا الإيمان إيمان رجلٍ عاديٍّ (LAYMAN) أو إيمان رجل الشارع (MAN of STREET) بل يكون إيمان عالمٍ ، إيمان مثقَّفٍ ، إيمان دارسٍ ، ويطمئن عقله ، كما يطمئن قلبه ، ولا يعود كما يقول الدكتور محمد إقبال «قلبه مؤمن وعقله كافر» ، مشيراً إلى فيلسوفٍ غربيٍّ. . . وإذا كان الصراع لا يجوز بين الفرد والجماعة ، فإنَّه كذلك لا يجوز بين القلب والعقل في حياة المرء الانفرادية ، فإذا كانت هناك جامعة تُسبب هذا الصراع ، أو يسببه منهاجها التعليمي ، ومنهجها العمليُّ ، ونظامها الإداري ، وبيئتها العلمية ، فذلك شؤمٌ لا شؤم بعده للبلد الذي تقوم فيه الجامعة .

لا بدَّ من اطمئنان القلب والعقل معاً :

أيها السادة! طلبتم منّي أن أتحدَّث حول موضوع منهاج الجامعات الإسلامية وغايتها . . . إنَّ الغاية الأساسية للجامعات الإسلامية ، أن تُوجِد الإيمان بتلك الأشياء التي أشرت إليها ، الإيمان الذي يأتي عن طريق العلم ، والثقافة ، والدراسة ، وعن الشعور والتفكير ، وعن طريق اقتناع العقل ، وعن الدراسة المقارنة ، وإذا كان هناك رجلٌ إنما يؤمن قلبه ، ولا يطمئن عقله ، وهو يعلِّل عقله ويسلِّيه ، ويحاول أن لا يستيقظ عقله ، كشأن الأمم غير المسلمة العديدة التي ترى بقاء دياناتها ورقيها في عدم يقظة الشعور ، وتحاول أن يظلَّ أتباعها سادرين في سبات الغفلة ، مسدوداً عليهم منفذ النوُّر والهواء ، ومن هنا وقع بين الكنيسة والعلم (CHURCH &

www.abulhasanalinadwi.org

(SCIENCE ذلك الصراع الدمويُّ الذي تقرؤون قصته المؤلمة المفجعة في كتاب «الصراع بين الدين والعلم» (CONFLCT BETWEEN RELIGION & SCIENCE) للعالم الأمريكي المعروف «درابر» (JOHN WILLIAM DRAPER) وإنما وقع هذا الصراع؛ لأنَّ الكنيسة كانت ترى أنَّ الخير كلَّ الخير في تبلُّد الشعور الإنساني، بل كانت تعمل فعلاً على تجميده وإماتته، وكانت تؤمن بأنَّ من الخير والسعادة أن يكون الإنسان محدود العلم، قاصر المعرفة، بل عديم العلم جاهلاً، وما دام الحال على هذا المنوال، كان الإيمان بالكتاب المقدَّس راسخاً قوياً، وكانت المسيحية عميقة الجذور، بعيدة الغور في المجتمع، ذلك أنَّ العهد العتيق كان يشتمل على كثيرٍ مما لا يؤيده العلم الحديث، بل ينفيه ويفنِّده، فكانت الكنيسة رأت من المصلحة ألا يتيقظ الشعور المسيحي، ولا يتفتَّح وعيه، ولا يتَّسع أفقه، ولا يتقدَّم العلم، فحاولت أن تقف في وجه العلم؛ لأنَّها ظنته عدواً لها لدوداً، وخصماً محارباً حانقاً، ولكنَّها اضطرت أخيراً أن تضع السلاح أمام مدِّ العلم، وسيله الجارف، وتياره العنيف، لأنَّه حاجة الإنسانية، ومقتضاها الطبيعي، وعاطفة الإنسان الداخلية، ونعمة الله الغالية، وضرورة العالم البشري، جعله الله لكي يخضرَّ وينمو، ويورق ويثمر، لا لكي يذوي، ويذبل، ويموت، وهل تموت الحقائق؟ على كلٍّ فإنَّ العلم كسب المعركة، وذاقت الكنيسة هزيمةً، وعاراً، وشناراً منقطع النظير أمام العلم، وتطلُّع الإنسان إليه، وطلبه الجامح له.

وتلك هي قصةٌ مشؤومة وقعت في العالم المسيحي، ولكنَّها تركت آثارها على دنيا البشر كلِّها، وعلى جميع الديانات تقريباً، وقد جعلت الناس يفهمون أنَّه لا يمكن أن يتقدَّم العلم والعقل معاً، وأن يساير الدين العلم، ولا بدَّ هنا بصفتي دارساً للتاريخ، أن أعترف ـ مع الأسف ـ أنَّ هذا التصور الخاطىء قد نال بعض نصيبه من المفعول في بعض الدول الإسلامية، ولو لبعض الحين، لكنَّه ما لبث أن لقي حتفه، لأنَّه يتنافى مع روح الإسلام وطبيعته، ولم يدم هذا الصراع المصطنع في العالم الإسلامي طويلاً، وذلك لأنه لم يكن وليد خطأ في داخل العالم الإسلامي، وإنما

www.abulhasanalinadwi.org

كان قد نشأ عن طريق أوربا المسيحية ، ولكنَّه غاب ، وانقشع كسحابة صيف ، أو بسرعةٍ أكثر منها.

مصير العلم مرتبطٌ بالقلم:

أرى أنَّ من واجبات الجامعات الإسلاميَّة أن تحاول ألَّا تقع فجوةً بين العلم والدين ، كما وقعت بينهما في العالم المسيحي ، أو في دنيا الديانات التي لم تكن فيها رابطةٌ بين العلم والعقل ، بل إن نشوءها كان مديناً للجهل ، فقد تولَّدت ، وازدهرت بمعزلٍ عن العلم والعقل ، بل على غفلةٍ من العلم والعقل ، ففيها مجال لنشوء الفجوة والجفوة بين العلم والدين وبين العلم والعقل ، ولكن لا يتصوَّر ذلك في الدين الذي أعلن دعوته منذ اليوم الأول بل منذ اللحظة الأولى بما يلي:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

الدِّين الذي لم ينس هذا القلم المتواضع حتى في الحلقة الأولى من وحيه ، ولم ينسه لدى هبوب النفحة الأولى من النفحات الرَّبانيَّة ، لم ينس أن يؤكِّد أنَّ مصير العلم مرتبطٌ بالقلم ، لم ينسه في خلوة غار حراء التي ارتادها نبيٌّ أمِّيٌّ يتلقى الرسالة الإلهية لهداية البشرية ، ذلك النَّبيُّ الذي لا عهد له بالقلم ، ولم يعرف من ذي قبل كيف يحرك القلم ، ولم يتعلم فنَّ الكتابة والقراءة بتاتاً ، شيءٌ لن يجد الإنسان نظيره في تاريخ العالم البشري ، ولا يمكنه أن يتصوَّر هذا المكان العالي ، لا يمكنه أن يتصوَّر أن ينزل وحيٌ على نبيٍّ أميٍّ بين أمَّةٍ أميَّةٍ في منطقةٍ لم تعرف القراءة والكتابة معرفةً تذكر ، فضلاً عن المدارس ، والمعاهد ، ودور التعليم ، والجامعات ، في الوقت الذي لأول مرَّة تمَّ فيه اتصال السماء بالأرض بعد مدَّة قرون ، ولا يبتدىء هذا الوحي بكلمة «اعبد» ولا بكلمة «صَلِّ» أو ما إليهما من الكلمات المتجانسة ، وإنما يبتدىء بكلمة «اقرأ» يخاطب المنزل عليه بالقراءة ، ولا عهد له بها ، لكي يقرر ويؤكد له أنَّ الأمة التي يكلف بهدايتها وتربيتها وتعليمها هي أمَّة ليست ولوعاً بالعلم فحسب ، بل

www.abulhasanalinadwi.org

ستكون معلمة العالم ، ومولعةً بنشره ، وتصعيده ، وترقيته ، والعهد الذي يقوم فيه بوظيفة الهداية والتبليغ والتربية والتعليم ، إنَّه ليس عهد الأمية والوحشة والجهل ، وعهد الظلمة ، والهدم ، والتخريب ، وإنما هو عهد العلم ، والعقل ، والتفكير ، وعهد النظر والحكمة ، وعهد البناء والتعمير ، وعهد حبِّ الإنسانية ، وعهد الرُّقيِّ والتقدُّم .

كانت التجربة الفريدة الطريفة ـ لو صحَّ التعبير ـ في تاريخ الديانات وتاريخ العالم أنَّ الوحي الأول الذي نزل على النبيِّ الأميِّ بين الأمة الأميَّة كانت بدايته بكلمة «اقرأ» ، ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] كان من الخطأ الفادح أن انقطعت صلة العلم بالربِّ ، فحاد عن الصراط المستقيم ، فجاء الوحي الإلهي الذي نزل على النَّبيِّ الأميِّ يصله بالله ، ويربطه بالربِّ تبارك وتعالى ، حيث جاء ذكر العلم مقروناً باسم الربِّ ، لكي يعلم البشر ضرورة بداية العلم ، والتعليم والقراءة باسم الربِّ ؛ الذي وهب هذه النعمة الغالية ، ومنَّ بها على عباده وهو الذي خلقه ، فلا يتقدَّم تقدُّماً متَّزناً إلا تحت توجيهه وهدايته ، إنَّ الآية التي نتحدَّث عنها : إنها ذات ثورةٍ وانقلابٍ عظيمٍ في التفكير ، والعقلية ، والنفسية ، قرعت الآذان البشرية في بداية الإسلام ، وكان ذلك شيئاً لم يخطر من أحدٍ على بالٍ ، ولم يتصوَّره في حالٍ من الأحوال ، لو سئل الأدباء ، والحكماء ، والفلاسفة ، والعلماء في العالم البشريِّ عن افتتاحية هذا الوحي الذي سينزل على النَّبيِّ الأمِّيِّ ؛ لم يكن أحد منهم ـ يعرف طبيعة تلك الأمَّة التي نزل بينها الوحي ، ويعرف عقليته ـ ليقول : إنه سيبتدىء بكلمة «اقرأ» ، كان لهم أن يتنبؤوا بكل شيء ، ولكن لم يكن لهم ليتكهنوا أنَّ الوحي سيكون استهلاله بكلمة «اقرأ» ، ثم إنه لم يبتدىء بكلمة «العلم» وإنما بالقراءة ، والقراءة تتضمَّن الكتابة ، والقلم ، والورق ، بينما العلم قد يكون وهبياً ، لا يحتاج إلى القلم ، والقراءة ، والكتابة ، والورق ، مما دلَّ على أنَّ هذا العلم سيكون وليد القلم ، ووليد الورق ، ووليد الكتابة ، ووليد المكتبات ، والكتب ، والمؤلفات ، والصحف ، ووليد التجارب ، ووليد الذكاء ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١].

www.abulhasanalinadwi.org

هذا الدين لن يفارق العلم :

مما يجب الانتباه له أنَّ الوحي الإلهيَّ أكَّد أنَّ طبيعة هذا الدِّين : أنَّه لن يفارق العلم؛ لأنَّ الرسالة الأولى التي وجَّهها إلى البشرية تأمر بالقراءة ، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين لا يعرفون القراءة ، والمسلم الذي قطع صلته عن العلم ليس بمسلمٍ حقيقي ، ولا يجوز له أن يدَّعي أنَّه ممثلٌ صحيحٌ للإسلام ، ثم يجب الانتباه لهذه الدعوة الثورية ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق : ١] كيف ينبِّه الوحي الإلهي على أن تكون هذه الرحلة ـ رحلة العلم ـ في هداية هادٍ كاملٍ ، وليس هو إلا الله العليم الكريم ، لأنَّ الرحلة طويلةٌ شاقَّةٌ معقَّدةٌ خطرةٌ ، والطريق وعرة ذات منعطفات تعترضها بحارٌ وأنهارٌ ذات عمقٍ سحيقٍ ، وتتخلَّلها غاباتٌ كثيفةٌ فيها سباعٌ مخوفةٌ ، وحياتٌ وعقارب سامَّةٌ ، وكلُّ حيوانٍ ضارٍ .

لكنه ليس مجرد علم ، ليس عبارةً عن معرفةٍ بالدُّمى واللُّعب ، وليس عبارةً عن التسلية ، وليس مما يحرش فيما بين الإنسان والإنسان ، والأمة والأمة ، وليس عبارةً عن معرفة طرق ملء البطون ، وعبارة عن تحريك اللسان ، ولوك الكلمات بل هو ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

أفهل رفع من قيمة القلم أحدٌ في التَّاريخ البشريِّ أكثر من ذلك ، حيث يذكر بهذه الأهميَّة ، وبهذا التمهيد الكريم ، في خلوة غار حراء ، وفي الوحي الأوَّل الذي ينزل من السماء ، ذلك القلم الذي ربما لم يكن بالإمكان تواجده في بيتٍ من بيوت مكَّة ، لا أكاد أدري لئن رحتم تبحثون عنه رجعتم بفائدةٍ أم لا ، ربَّما وجدتموه في بيت ورقة بن نوفل ، أو أيِّ رجلٍ تعلَّم الكتابة في ديار العجم ، القلم الذي ربما لا تجدون ذكره في دواوين الشعراء العرب الجاهلين المعاصرين مهما قلبتم الصفحات ، وأعدتم القراءة .

عصارة كل علم وثقافة «علَّم الإنسان ما لم يعلم» :

ثم دلَّ على حقيقةٍ خالدةٍ ذات انقلابٍ عظيم ، وهي أنَّ العلم لا حدَّ له ، ولا نهاية ، فقال : ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ٥] ، وليس العلم الحديث

www.abulhasanalinadwi.org

(Science) إلا انعكاساً لـ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] وكذلك التكنولوجيا ليس إلا مظهراً لـ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] وينزل الإنسان على القمر، ولا يعني ذلك إلا ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥] ويغزو الفضاء، ويقلص سعة العالم، ويطوي أرجاءه طياً، ويسخِّر أشعة الشمس ـ كما يقول الدكتور محمد إقبال ـ ويشق طريقه بين النجوم والكواكب، ويحلم بالنزول بين السماكين، إنَّ كُلَّ ذلك ليس إلا عبارة عن ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

على كلٍّ فإنَّ الأمَّة التي كان أساسها الأول على القراءة، وخاطبها الوحي الإلهي الأول بذكر القلم، إنَّ تلك الأمَّة لن تفارق العلم والمعرفة، لأنها تلازمه ملازمة الظلِّ، أو ملازمة الغريم.

ثم يجب أن يكون في الاعتبار لدى إقامة كلِّ مدرسةٍ، أو جامعةٍ، أو اتخاذ منهجٍ تعليميٍّ لتعليم هذه الأمَّة أن يكون الهدف من كلِّ ذلك ترسيخ الإيمان بالعقائد، والحقائق التي آمنت بها من ذي قبل، وأن يتأتَّى هذا الترسيخ عن طريق القلب، والعقل معاً، ولا يكفي اطمئنان القلب، أو العقل فقط، لأنَّه حينئذٍ سَيَحْدُث صراعٌ بينهما في الحياة الفردية للإنسان، وسيتدرَّج هذا الصراع إلى الحياة الجماعية... وعلى ذلك فيتخرَّج جيلٌ يتصارع مع مجتمعه، ويتصارع مع دينه وعقيدته، وتضيع كلُّ القوى في إزالة «الأنقاض»، فقد رأى بعض قادة بعض الأمم الإسلامية أنَّه يجب أوَّلاً إزالة الأنقاض، وركزوا كلَّ عنايتهم على إزالة الأنقاض من العقائد، والحقائق، واستنفذت هذه العملية كلَّ قواهم، واستغرقت فرصة أعمارهم، ولم يتمكَّنوا من عرض دعوتهم، ونشر رسالتهم، وزرع أفكارهم التي كانوا بصدد نشرها.

فإذا كان هناك منهاجٌ تعليميٌّ يُعمِّق إيمان الأمة بالعقائد والحقائق التي تحضنها؛ فهو منهاجٌ موفَّق، ولا سيما بالنسبة إلى الإنسان المسلم الذي جاء يحمل رسالةً، ويحتضن دعوةً، فيجب أن يكون منهاجنا التعليميُّ والثقافيُّ بحيث يرسخ الإيمان في قلب المثقف، وقلب الدارس، وقلب

www.abulhasanalinadwi.org

الطالب الجامعيّ ، وقلب الفيلسوف ، وقلب المفكّر ، ويجعلهم جميعاً توفّر لهم عقولهم دلائل لذلك ، ويستخدمون الثروة العلمية القديمة والجديدة المنتشرة على ظهر البسيطة في تحقيق هذا الغرض الأكبر لتقرير هذه الدعوى الكريمة. أيها السادة! إذا استطاعت جامعةٌ أن تصنع ذلك فهي الجامعة التي تستحقُّ أن تسمَّى جامعةً ، وأعتقد أنَّ ذلك خيرُ تعريف بجامعةٍ ما.

العناية بتربية السيرة :

والوظيفة الثانية للجامعات هي تربية السلوك والسيرة ، فلتوجد الجامعات سيرة يربأ صاحبها عن أن يبيع ضميره بحفنةٍ من شعير ـ كما يقول الدكتور محمد إقبال ـ إن الفلسفات والنظم المضادَّة للإسلام ترى أنَّ إنسان اليوم يمكن شراؤه في السوق بقيمةٍ أو بأخرى ، فإن لم يرض بهذه الكمية من الثمن فسيرضى بكمية أكثر منها. . . وسرُّ النجاح الحقيقي لجامعةٍ ما أن تربِّي السيرة ، فتخرج رجالاً من المثقفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأيِّ قيمةٍ مهما كانت رفيعةً غالية ، ولا تستطيع فلسفةٌ هادمةٌ ، أو دعوةٌ منحرفةٌ ، أو حكومةٌ ذات سياسةٍ خاطئةٍ ، أو قوَّةٌ مدمرةٌ ، مهما كانت لبقةً ذات دهاءٍ أن تشتريهم بأيِّ ثمنٍ غالٍ ، ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال ، أو بلسان الحال : «نرى العنقاء أكبر أن تصادا».

ويقول بلسان الدكتور محمد إقبال :

«إنَّ حرية القلب هي سيادةٌ وسلطانٌ ، أمَّا العناية الزائدة بالبطن فهي مدعاةٌ للموت ، والخيار بيديك ، فإمَّا هذا ، وإمَّا ذاك» ، «يا أيها الطائر اللاهوتي : (يخاطب الإنسان المسلم) اعلم أنَّ الموت خيرٌ من القوت الذي يقصر جناحك ، ويمنعك من التحليق».

والمسؤولية الثانية للجامعة الإسلامية أن تخرِّج شباباً يقفون حياتهم لخدمة الأمَّة ، ويستعدُّون للتضحية والفداء ، ينعمون بالجوع بما لا ينعمون بالشِّبع والرِّيِّ ، والتنعُّم والتمتُّع بالحياة ، ويطيبون نفساً بالحرمان ، ما لا يطيبون بالوجدان ، ويصرفون أوقاتهم وقواهم الخيِّرة ، ومؤهلاتهم الفكريَّة والعلميَّة ، والرصيد العلميِّ والفكريِّ الذي زوَّدتهم به جامعاتهم في

www.abulhasanalinadwi.org

رفع رأس الأمة عالياً ، وفي إعلاء كلمة الله ، وتعزيز البلد ، وإنقاذ الوطن ، وفي صنع أمَّةٍ ذات رسالة ، وبناء بلدٍ مسموع الكلمة ، ومرهوب الجانب.

فهذان أمران لا بدَّ منهما ، الأمر الأول: أن توفر الجامعات الإسلامية غذاءً يشبع العقل والقلب معاً ، وضوءاً ينير لهما الطريق في وقتٍ واحد ، حتى يتجها جنباً إلى جنبٍ وبتعاونٍ متبادلٍ (Co-operation) إلى تعزيز الإيمان بالحقائق والعقائد التي آمنت بها الأمة.

ولا بدَّ أن يكون نصب أعينكم هو تخريج الرِّجال ذوي القدرات العالية ، وأريد أن أصارحكم بهذه المناسبة أنَّ قيمة بلدٍ من البلاد ليست في كثرة جامعاتها ومعاهدها ، إنَّها نظريةٌ باليةٌ قد تقادم عهدها ، وأصبح أصحابها يُعرفون بالرجعية وقصر النظر ، بل القيمة في كثرة أبنائه الذين يقفون حياتهم للبحث والدراسة ، ونشر العلم والثَّقافة ، وتثقيف الأمَّة والشَّعب ، ورفع معنويات أمَّتهم ، وصنعها أمَّةً ذات قلبٍ وضميرٍ أبيٍّ ، وفي كثرة الشباب الذين ينقطعون إلى خدمة الدين ، والعلم ، والأمَّة ، والبلد ، ضاربين الشهرة الكاذبة ، ورقيَّهم الشخصيَّ عرض الحائط ، وذلك هو المقياس الحقيقيُّ الأصيل ، الذي يقاس به البلد والأمَّة ، وليكن هذا هو المقياس الوحيد في الشرق والغرب ، فلا نقيم لبلدٍ قيمةٍ إلا نظراً إلى عدد الشباب الذين يتسامون عن لذائذ الحياة الرخيصة ، والمناصب والجاه ، والتقدُّم الشخصيِّ ، ويتوفَّرون على العمل الجادِّ البنَّاء ، وعلى العمل العلميِّ الإيجابيِّ النافع ، على رفع مستوى الأمَّة عقلياً وفكرياً ، على التوصل إلى نظريةٍ علميَّةٍ ذات أهمية ، على بحثٍ علميٍّ مضنٍ يتطلَّب الصبر ، والتحمُّل على تعزيز البلاد من جميع النواحي.

تلك هي أهداف حقيقة يجب أن نصبو إليها ، ونضعها في اعتبارنا ، ونجعلها نصب أعيننا ، أمَّا مجرد التعليم والتثقيف ، والتأهيل لشغل الوظائف والمناصب ، فليس مما يثنى به على جامعة ، وليس أبداً مما يجلب الحمد ، ويستخرج الإعجاب ، وإنِّي على يقينٍ كاملٍ أن رئيس هذه الجامعة الإسلامية والمشرفين عليها سوف لا يرضون بهذا الموقف ،

www.abulhasanalinadwi.org

ولا يقبلون أن يكون هدف الجامعة مجرَّد تخريج شبابٍ مثقفين في كميةٍ كبيرةٍ ، يشغلون الوظائف الشاغرة في الإدارات ، والمصالح ، والقطاعات المختلفة ، والمصانع ، أو الدَّكاكين ، والمحالِّ التجارية ، ويموتون وهم أحياء يفقدون شخصيتهم العلمية .

الغرض الأصيل من العلم هو التوصل إلى الإيمان واليقين :

يجب أن يكون هدف الجامعة ـ التي قامت في هذا العهد العصيب ، وفي هذه البلاد المتأزِّمة ـ أن تعمل على إزالة الاضطراب والقلق الذي يسود جميع الدول الإسلامية منذ مئة عامٍ تقريباً . . . تفككت عرى عقائدنا منذ بدأ الغزو الفكريُّ والحضاريُّ الغربيُّ ، وحدث صراعٌ نفسيٌّ وفكريٌّ استنفدت مقاومته معظم القوى العقلية والفكرية والعلمية لدى الدعاة . . . إنَّ ذلك لوضعٍ غير طبيعيٍّ يجب أن يزول في أقرب وقتٍ ، لكي تتوجه هذه القوى والقدرات إلى الأهداف البناءة ، وإلى إنقاذ البلد ، ودفع عجلته إلى الأمام .

الحقيقة أنَّ الأدب ، والشعر ، والفنون الجميلة ، والحكمة ، والفلسفة ، والتأليف ، والتصنيف ، ليس من وراء كلِّ ذلك إلا غرضٌ واحدٌ ، وهو أن تتولَّد في صاحبه حياةٌ جديدةٌ ، وإيمانٌ جديدٌ ، وبالتَّالي في الأمَّة التي هو عضوٌ فيها ، والمجتمع الذي هو جزءٌ منه .

وأود أن أنشد لكم أبياتاً قالها الدكتور شاعر الإسلام محمد إقبال وهو يخاطب الأديب والشاعر ، لأنَّه ينطبق على الوضع الذي نعيشه جميعاً :

«يا أهل الذوق والنظر العميق! أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أيُّ قيمةٍ للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر ، ولا في صوت مغنٍّ ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله في نسيم السِّحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور ، والخمور ، والذويَّ ، والذُّبول» .

إنَّ الأوضاع التي نمرُّ بها نحتاج فيها إلى أن نأتي بأعجوبةٍ ، وتلك الأعجوبة سوف لن تتحقَّق إلا عن طريق الرسالة الإسلامية ، لأنَّها وحدها التي تجعل حاملها يصنع المعجزات ، ويأتي بخوارق العادات ، ويبطل المقاييس ، ويحطِّم المعايير التقليدية ، ويسخر من كلِّ الموازين التي آمن

www.abulhasanalinadwi.org

بها العالم الجاهليُّ ، يقول الدكتور محمد إقبال :

«أنا لا أعارض التذوُّق بالجمال والشعور به ، فذلك أمرٌ طبيعيٌّ ، ولكن أيُّ فائدةٍ للمجتمع من علمٍ لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر ، وذلك أنَّ الأمم لا يرتفع شأنها ، ومكانها في خريطة العالم حتى تقدر على صنع المعجزات» .

إنَّ باكستان اليوم تحتاج إلى هذه القدرة على صنع الخوارق ، والتأثير في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر أو البحر ، لأنَّ باكستان تعود عليها مسؤولية بعث الدول الإسلامية كلِّها بعثاً جديداً ، إنَّ عليها أن تنفخ روحاً جديدةً في البلاد الإسلامية ، وتوجد لديها اعتماداً جديداً ، وإيماناً جديداً ، ونشاطاً جديداً ، وانتعاشاً جديداً ، وطموحاً جديداً ، وقلباً خفَّاقاً جديداً ، يتحرَّق على بؤس الإنسانية وشقائها ، وشجاعةً جديدةً تبعث على المغامرة والاقتحام ، وجرأةً خلقيَّةً تستطيع بها أن تنفخ الحياة في هذه الأمم والأقوام المشرفة على الهلاك ، التي تزلُّ أقدامها ، وترتعش أعصابها ، وتخفق قلوبها ، وتتعثَّر عقولها .

ومن هنالك فإنَّ مسؤوليتكم مزدوجةٌ ، إنَّ مسلمي شبه القارة الهندية يبذُّون مسلمي العالم الإسلامي كله بالنسبة إلى عددهم ، فتقدَّموا إلى الأمام للقيادة الفكرية للعالم الإسلاميِّ ، واعملوا على إيجاد الثقة بالإسلام ، وأكِّدوا عمليّاً أنَّ الإسلام يتمشَّى مع عهد العلم والتكنولوجيا ، وباكستان اليوم «معمل» سيقرر أنَّ النظريات الإسلامية تستطيع بكل جدارة أن تساير الزمان .

وأخيراً أشكركم وأشكر رئيس الجامعة على استماعكم لحديثي في جوٍّ من الهدوء والجدِّ .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

واجب أصحاب الاختصاص وكبار المثقفين

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في جامع «فيصل آباد» (باكستان) في ٢٢/ يوليو ١٩٧٨ م واستمع إليها النخبة الممتازة من العلماء والمثقفين بالثقافة العصرية ، وأساتذة مراكز الثقافة العصرية والمدارس الإسلامية ، والمسؤولون عن القطاعات السياسية ، والاجتماعية ، والدوائر العلمية ، والأدبية ، والثقافية ، والصحافية.

www.abulhasanalinadwi.org

أصحاب الفضيلة والسعادة: رجالات العلم، وأساتذة المدارس والجامعات، قبل أن أدخل في حديثٍ موسع، أريد أن أضع أمامكم نقطةً مبدئيَّة بالإيجاز:

قد تضاعفت اليوم مسؤولية العلماء والمثقفين. إنَّ دعوةً أو حركةً ـ إذا كان قادتها، من أولي الطبقة العليا في الأمَّة، من أصحاب الذكاء الموهوب ورجالات الفكر والرأي، وذوي التعميق في الكتاب، والسنَّة، والعلوم الدِّينيَّة ـ تكون ذات عمقٍ وجدِّيةٍ، ونضجٍ واكتمالٍ، وتوازنٍ واعتدال، يرجى فيها أنها سوف لا يواكبها انحرافٌ عن الخطِّ المستقيم في أيِّ مرحلةٍ من مراحلها، وتكون ـ في طول الطريق ـ على نجوةٍ من العاطفية والتطرُّف، والسطحية والابتذال... والعلماء وأصحاب الفكر كانت مسؤوليتهم عظيمةً ضخمةً في كلِّ العصور الإسلامية، لكنّها اليوم تضخَّمت واتسعت وازدوجت أكثر من ذي قبل، وأصبح رجال العلم والفكر، وقادة الجماعات الدَّينية والمسؤولون عن المؤسسات والحركات الإسلامية في موقفٍ صعبٍ معقَّد، وأصبح الشعب الإسلامي يتطلَّع إليهم كمنقذي الإنسانية، ويرى أنهم سيقومون بالتوجيه السَّديد، والقيادة الناجعة، ويتفادون بالحركات الدينية، والمحاولات الإسلامية، من السطحية، والتطرُّف، والمغالاة، حتى لا يعتقد فيها أحدٌ أنَّها كسحابة صيف عن قليلٍ تنقشع، أو كزبدٍ يذهب جفاء، بل يرى الناس فيها أنَّها راسخة الجذور، بعيدة الغور.

مـأثـرة الـعلمـاء فـي الـدول الإسـلامـيـة:

أيها السادة! لو لم يكن العلماء ورجال الاجتهاد والفقه يقفون من وراء خلافة بني أميَّة، وخلافة بني العباس، لما وجدت هذه القوانين الإسلامية المدوَّنة التي تغطي جميع مناحي الحياة، ويستوعب الحياة الإنسانية من

www.abulhasanalinadwi.org

المهد إلى اللحد ، ولما كان الإسلام متجلّياً في صورة نظامٍ للحياة منسَّقٍ ومرتَّبٍ.

إنَّ التاريخ يصبُّ المدح والثناء على القادة والفاتحين ، فبطولات قادتنا أمثال طارق بن زياد ، ومحمد بن القاسم ، وعقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، ومآثرهم ساطعةٌ في صفحات التاريخ ، سطوع الشمس في الضحى ، لكن الذين كانوا يقومون بتنفيذ قوانين الله في البلاد المفتوحة للإسلام ، ويحلُّون المشاكل والقضايا التي كان يواجهها المسلمون في تلك المناطق الجديدة ، ويحقِّقون حاجات كانت تستجدُّ فيها ، ويقومون بتوجيهاتٍ في الأحوال والأوضاع المتجدِّدة فقلما يعرف الناس قيمة خدماتهم ، ومدى تأثيرهم في البلاد والعباد ، على حين أنَّه لو لم تكن عقول رجال الاجتهاد والفقه والحديث تعمل عملها من وراء السيوف الفاتحة للبلاد ، والأيدي الشجاعة المخضعة لعباد الله ؛ لله وحده ، ولو لم تصاحب الحكومات التي كانت تنظِّم البلاد ، وتضبط الأمور ، وتدير الشؤون ، لكانت تلك المحاولات كلُّها ، والفتوح كلُّها ، والدول والحكومات جميعها جوفاء ، لا روح فيها ، ولا حياة.

الفاتحون للمسلمين يقعون مفتوحين للإسلام :

ولنذكر مثلاً أنَّ التتار زلزلوا العالم الإسلامي ، وفكَّكوا عراه ، وجعلوا أهله قطيعاً من غنم ، أو لحماً على وضم ، فما كان هناك أمَّةٌ أذلُّ من المسلمين على ظهر هذه البسيطة ، ولو رأيت صور هذا العهد التي لا تزال تضنُّ بها المتاحف اليوم لوجدت أنَّ مسلماً معقودةٌ لحيته بذيل الحصان ، ويقوده التتاري ، كان لكلِّ شعبٍ وقومٍ في العالم قيمةٌ في أعينهم إلا الشعب الإسلاميَّ ، ولا سيما مسلمي تلك المناطق التي كانت مهد حضارة المسلمين ، وثقافتهم ، أعني: مناطق إيران ، وما وراء النهر ، التي كانت مركز الفقه في العهود الأخيرة ، ولاسيَّما الفقه الحنفي. . . لكنكم تعلمون أنَّ هؤلاء التتر الذين فتحوا بلاد المسلمين ، وقعوا مفتوحين للإسلام ،

www.abulhasanalinadwi.org

أولئك الذين لم تستطع سيوف المسلمين أن تخضعهم؛ أخضعتهم حضارة المسلمين ، وثقافتهم ، وعلومهم ، واطَّرحوا على عتبتها عبيداً بارين ، وخدمةً منقادين مستسلمين .

وذلك لأن التَّتر لم يكن عندهم تراثٌ علميٌّ ، ورصيدٌ من الحضارة والمدنيَّة ، والقوانين المدوَّنة الشاملة ، والكتب والمؤلفات ، بل كانت عندهم دساتير قبليةٌ تقليديَّةٌ بسيطةٌ ، وأعرافٌ قوميَّةٌ وحشيَّةٌ كانت متبعةً في مناطق جبال قراقرم ومما حواليها ، فاحتاجوا إلى العلماء المسلمين ، ورجال الفكر والاجتهاد من المسلمين ، وما أن احتكوا بهم ، وترددوا إلى بلاطهم ، حتى أخذوا بعلومهم ، وذكائهم ، وفكرهم ، واجتهادهم ، واستهوتهم الحضارة الإسلامية ، فأسلموا بمجموعهم .

وقد قررت فلسفة التاريخ كمبدأ هام : أنَّ القوَّة الحربيَّة والاستراتيجيَّة لا تكسب النجاح ما لم تساندها العقول المفكِّرة ، وقوة التشريع والتقنين ، والمؤسسات المنظمة . . . وقد كان المسلمون أولي ذكاءٍ ومواهب ، كانت لديهم منابع التفكير والاجتهاد ، وحضارةٌ متقدِّمة ، وثقافةٌ عظيمةٌ ، وتراثٌ علميٌّ عريقٌ عتيدٌ ، وتجربةٌ موسَّعةٌ دقيقةٌ في باب التقنين والتشريع ، يتمتَّعون بقدرةٍ فائقةٍ لحلِّ المشكلات والقضايا المدنيَّة ، وقد اضطرت الأوضاع التَّتر أن يستنجدوا المسلمين في هذه النواحي كلِّها ، فكان ما كان .

إنَّ هذا الدين نابعٌ من العلم :

ومن واجبات العلماء والمسلمين ، وأساتذة الجامعات ، ومعلمي المدارس والكلِّيَّات ، ورجال القانون ، والأدباء والمفكرين ، أن يثبتوا في العصر الحاضر أنَّ هذا الدين لا يمتُّ إلى الجهل بصلةٍ ما. إنَّه ليس وليد الجهل ، أو القوة الحربيَّة. إنَّه وليد المعرفة ، والهداية الإلهية ، والوحي الإلهي ، والعلم الربَّانيِّ ، إنَّه يستطيع أن يرافق الزَّمان في كلِّ أوضاعه وملابساته ، ومشكلاته ومعضلاته ، ويقدر على أن يوجِّه المدنية ، ويراقب الحضارة ، ويتعهَّدها ، ويمنعها من الشذوذ والانحراف ، والتفسُّخ والفساد ، والهدم والإفساد .

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ هذا العمل العظيم ، لا يستطيع أن ينهض بعبئه إلاّ علماء الدين والطبقة المثقفة العليا ، وإنَّه لمسؤوليةٌ عظيمةٌ على أكتافهم ، لأنَّه خطرٌ كبيرٌ على دينٍ أو أمَّةٍ يعتقد فيهما الناس أنهما لا يتَّصلان بالعلم ، بل إنَّهما عدوا العلم ، وصديقا الجهل ، يضرُّهما العلم ، وينفعهما الجهل ، لأن الناس حينئذٍ يرون أنَّهما لا يستطيعان أن ينفذا في القلوب ، ويتملَّكا العقول ، ويقنعا النفوس ، فلهما صولةٌ وجولةٌ ما دامت السيوف تحميهما ، والقوَّة الحربية تقف من ورائهما ، ويخيم الجهل رواقه عليهما ، وما أن يسطع نور العلم حتى ينقشعا ، كالظلمات تنجاب عن إشراق الشمس.

وتلك هي قصة المسيحية ، التي لم ترافق العلم ، وإنما برزت كحركةٍ روحانيَّةٍ اجتماعية ، نعم قد وجهها المسيح عليه السلام توجيهاً نبويّاً صحيحاً ، فأثَّرت تأثيرها المطلق بحكم وجاهته ، وقدسيته ، وقوته الروحية ، وشخصيته القوية ، وفراسته النبوية ، أما بعده ، فلم تتمتَّع إلى زمن طويل بتوجيهٍ سديدٍ من الأذكياء أولي الألمعية والبصيرة الإيمانيَّة ، فتشوَّهت صورتها ، وسيرتها ، ولما دخلت في أوربا ظنَّ الناس أنَّها لا تستطيع أن تساير الزمان ، فلا بدَّ من عزلها عن شؤون الحياة ، ولتعش حبيسة المغارات والكهوف ، والأديرة والكنائس.

المسيحية لا تحمل شريعةً مستقلةً

كانت أوربا وقتذاك تقفز قفزاتٍ واسعة ، تقطع مراحل الرقي والتقدُّم بخطىً حثيثةٍ ، تتدفَّق في المجتمع الأوروبي قوى الرقيِّ والانطلاق ، وكان هناك صراعٌ عنيفٌ حول «التنازع للبقاء» وكانت المسيحية التي كانت في دور طفولتها ، ولم تحظ بتدوينٍ وشرحٍ وتنسيقٍ ، ولم يكن لديها قانونٌ مستقلٌ ، فكانت تعتمد على القوانين اليهودية ، وتتطفل على مائدة الشريعة الموسوية ، بتغييرٍ يسيرٍ ، وتعديلٍ خفيفٍ ، ومن ثم قال المسيح عليه السلام: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠] ، ولم يقل: إني جئتكم بشريعةٍ مستقلةٍ ، إذاً ، فكانت المسيحية تصلح ما أفسدته اليهودية ، ولم يكن عندها دستورها الذاتي ، وكان جلُّ عنايتها مصروفاً إلى

www.abulhasanalinadwi.org

الرحمة والرأفة ، والحبِّ ، ومواساة الإنسانية ، والحدب على الضعفاء والمظلومين ، وتحرير المسحوقين ، والقضاء على السيادات التي ما أنزل الله بها من سلطان .

ولما وصلت المسيحية إلى أوروبا الفتيَّة المنتعشة ، المتدفقة المتوثبة ، وتعرَّف بها أهلها الذين كانوا يسابقون الرياح في ميدان التقدم ، ويمرحون ، ويرقصون رقص العواصف الهوجاء ، اكتشفوا سريعاً أنَّها ـ أي المسيحية ـ لا تستطيع أن تساير الزمن المتطور ، والمجتمع السبَّاق ، والركب المتقدِّم ، والعلم المتدفِّق ، هنالك فرَّط العلماء المسيحيون في جنب المسيحية أيَّما تفريطٍ ، فقد كان الموقف يحتِّم عليهم أن يثبتوا حين ذاك مصلحة المسيحية ، وغناءها ، وأن يجودوا على المجتمع الأوربي بتوجيهاتٍ مبدئية ، وأن يستقبلوا متطلبات الوقت ، ومقتضيات الإنسان ـ التي لم تكن تتعارض مع صميم المسيحية ـ ثم يطالبوا الناس بمراعاة روح الدين وتعاليم المسيحية في تحقيق رغباتهم ومتطلباتهم ، لكنهم لم يصنعوا كلَّ ذلك ، بل توزَّعوا في طبقتين : طبقة الحكام ، ورجال الدين ، أو طبقة علماء الدين ، ورجال الإدارة والحكم ، وعادت الطبقة الأولى ، لا تؤمن بالمسيحية إلا كعقيدةٍ وحدها ، لا شأن لها بالحياة وبالحكم وتنظيم شؤون الحياة ، وإدارة الحكم والسياسة ، والتشريع والقانون ، أمَّا الطبقة الثانية ، فلم تعد وظيفتها إلا معارضة الطبقة الأولى ، والوقوف في طريق الرُّقي ، ورأوا أنَّ التقدم هو الفرار عن الحياة ، والهروب من ضجيجها ، وضوضائها ، واللجوء إلى الكنائس ، والاعتزال في الغابات ، والعزوبة ، والعزوف عن النساء ، والفرار من ظلِّهن ، واعتقدوا أنَّ تلك هي طرق الاحتفاظ بالروحانية .

على كلٍّ فكلتا الطبقتين ألحقتا بالمسيحية ضرراً فادحاً ، فالطبقة الحاكمة تحرَّرت من كلِّ حدٍّ وقيد ، وعادت تصوغ هيكل المدنية في عزلةٍ عن تعاليم المسيحية ، وصارت تستعبد الناس ، وخطا بعض المعارضين للمسيحية خطوةً أخرى ، فنالوا منها في قارعة الطريق ، وجعلوها عرضة لكلِّ تهمةٍ ، وضعفٍ ، وسقطةٍ ، وبدأت كلُّ هذه الألاعيب منذ «سنت بال»

www.abulhasanalinadwi.org

ولا تزال المسيحية سائرةً على هذا الدرب ، مما جعل الناس أن قطعوا آخر خيط كان يربطهم بالكنيسة ، ووقع الخليج بين الكنيسة والإمارة للأبد ، وظلَّت المسيحية يتقلَّص ظلُّها حتى أصبحت نقطةً لا تتضح .

الإسلام والعلم متلازمان :

والحمد لله أنَّ هذا الخطأ لم يقع في عالم الإسلام ، لأنَّ الإسلام والعلم ظلا متلازمين منذ اليوم الأول ، وقد قلت في الكلمة التي ألقيتها في جامعة «كراتشي» : إنَّ الدين الذي كانت بداية نزول وحيه بكلمة «اقرأ» ولم يتجرَّد وحيه الأول من ذكر القلم ، ما كان ليفارق العلم والقلم في أيِّ زمانٍ ومكانٍ ، ولا يمكن في دنيا الإسلام أن يتصوَّر أحدٌ مفارقة الدين للعلم ، لأنَّ الإسلام والعلم رفيقان وفيَّان منذ بداية الطريق . . . وتعلمون أن أسرى بدر الكافرين ، كان عددٌ منهم لا يستطيع أن يفكُّوا رقابهم بتقديم الفدية ، وهنالك جعلت فديتهم أن يُعلِّم ـ كلٌّ منهم ـ عشرة أفراد من أولاد الأنصار والمهاجرين .

الإسلام لا يساير الزمان فحسب بل يوجهه ، ويقوم بإرشاده :

قد كان أكبر واجبات العلماء المسلمين اليوم أن يربؤوا بالإسلام من أن يزعم الشباب المعاصر ، أنه يقوم على ركيزةٍ من القوة والحكومة ، ولا يستطيع أن يجاري تقلبات الزَّمان ، وتقدُّم العلوم والفنون ، وقد تقادم عهده ، وولَّى دوره ونفدت بطاريته ، قد كان له أن يساير العصور البدائية الساذجة المحدودة النِّطاق ، حينما كانت البشرية في عهد طفولتها ، أمَّا في هذا العصر ، عصر المدنية المتقدمة ، المعقَّدة المتشعبة ؛ فلا يملك أن يمثِّل دوراً في الحياة .

كان من أضخم مسؤوليات علماء الإسلام أن يواجهوا هذا التحدِّي ، وأن ينسِّقوا هذه المدنية مع مبادىء الإسلام ، باستخدام ذكائهم ، ودراستهم العميقة ، والمرونة والنعومة التي يتمتع بها أصول الفقه في الإسلام ، بمعونةٍ من مبادىء الكتاب والسنَّة ؛ التي تستطيع أن ترشد الأجيال البشرية في كلِّ زمانٍ . . . والتقصير في هذا الجانب أقلُّ نتيجته هو : التحرُّر من

www.abulhasanalinadwi.org

الحياة الإسلامية ، والتجرُّد من تعاليم الإسلام وأحكام الكتاب والسنَّة ، وأسوأ عاقبته هو: الإلحاد ، واللادينية ، والثورة على الدين ، والخروج على تعاليمه. ونرى الدول الإسلامية تتوزعها هاتان العاقبتان الوخيمتان ، اللتان تعتبران ثورةً على الرسالة الإلهية ، والتعاليم المحمَّدية.

ومن ثم فإنَّ العمل الأول ، والأهم اليوم أن نثبت أنَّ الإسلام بروحه ، ومقاصده ، ومبادئه العتيدة ، يستطيع أن يساير الحياة ، حاشا لله ، بل يستطيع أن يقودها ويوجهها ، لأنَّ مسايرة الإسلام للحياة هي شيءٌ تافهٌ متواضعٌ لا يتَّفق وشأن الإسلام ومكانه ومركزه في الحياة ، والكون ، وإنما عبرت بالمسايرة تنازلاً . . . ومكان الإسلام الحقيقي هو أنه وحده يقدر على أن يرشد الحياة ، وينقذها من الأخطار ، والأهوال . . . والمدنية التي شذَّت عن تعاليم الإسلام ومبادئه مدنيةٌ زائفةٌ ، والإمارة ، أو الدولة التي انحرفت عن التعاليم الإلهية عرضةٌ لكلِّ خطر ، ومصيرها الفناء والانهيار ، مهما كانت موطدةَ الأركان ، شامخة البنيان.

يجب أن نؤثر الإسلام على جميع المصالح والأغراض :

ومسؤولية العلماء والمفكرين المسلمين ثانياً ، أن يفضِّلوا الإسلام على كلِّ جماعة ، ومؤسسة ، ومدرسة ، وطائفة ، وحزب.

أيها السادة ، إذا رأيتم أن بقاء الإسلام يتطلب أن تمحىٰ جميع الأسماء ، واللافتات ، والشعارات ، والشارات ، والأحزاب ، والجماعات ، فليكن ذلك موضع عنايتكم ، ولا يقعن تلكؤٌ منكم ، أو إحجام للحظة واحدة ، ولتكن مصلحة الدين والعقيدة مفضلةً على كلِّ مصلحةٍ حزبية أو جماعية ، وليكن نصب أعيننا هو الدِّين والإيمان ، وانتصارهما ، سواءً رجع الفضل إلينا أو إلى غيرنا من الإخوة في العقيدة والدين ، وقد كان من معجزة نبيِّ الإسلام الأعظم سيدنا محمد ﷺ أنَّه جعل أصحابه لا يطمعون في أن تنمى إليهم مأثرة ، أو يرجع إليهم الفضل في تحقيق بطولةٍ ، كان همُّهم الوحيد هو تحقيق المأثرة والبطولة ، وإرضاء ربهم تبارك وتعالى ، ثم لا يبالون بشيءٍ.

www.abulhasanalinadwi.org

وقد كان الصحابة يحزنون إذا اضطروا إلى الإشارة إلى عملٍ قاموا به لوجه الله الكريم ، كأنَّهم قد أفشوا سرّاً ، كان الضن به واجباً ، فقد روى الإمام البخاريُّ رحمه الله بسنده عن أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه ، قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في غزاةٍ ونحن ستَّة نفر ، بيننا بعيرٌ نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماي ، وسقطت أظفاري ، وكنا نلفُّ على أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع ، لما نعصب من الخرق على أرجلنا ، وحدَّث أبو موسى بهذا ، ثم كره ذلك ، قال: ما كنت أصنع بأن أذكره. كأنه كره أن يكون شيء من عمله أفشاه».

ولكن اليوم تغيَّر المقياس ، وتغيَّرت النفسية والعقلية ، فأصبح الهمُّ يتركَّز على الانتماء إلى مأثرةٍ ، وعملٍ جليلٍ ، وبطولةٍ نادرةٍ ، بحقٍّ وبدون حقٍّ.

وقد ذكرتني المناسبة بقصةٍ طريفةٍ: كان خطيبٌ مناظر من إحدى ولايات بلادكم ، اسمه غازي محمود دهرم بال (GHAZI MAHMOOD DHARAM PAL) سمعته يقول في خطبة: أرى الصحف تنشر خبر إسلام امرىءٍ ، فتنشره مقروناً بمن تشرف المرء بالإسلام على يديه الطاهرتين ، حتى يتسامع الناس باليدين الطاهرتين كما يتسامعون بإسلام فلانٍ ، وربما تكون العناية بالتنويه ، «باليدين الطاهرتين» أكثر من إسلام فلان ، وأكثر من ذلك أنَّنا رأينا بعض الناس يتبادرون إلى إمامة صلاة الجنازة ، إذا كان المتوفى رجلاً له شأنٌ ومكانٌ ، لكي تنشر الصحف خبر هذه الإمامة لهذه الجنازة العظيمة.

أيها السادة! إنَّها عاطفةٌ خبيثةٌ ، قد تعود وبالاً على صاحبها ، ترون أنَّ قريباً من أقربائكم إذا ألمَّ به مرضٌ يتمنَّى كلُّ أقربائه أن يعافى المسكين ، بحيلةٍ أو بأخرى ، ولا يبالون لمن يرجع إليه الفضل ، إلى أحدهم ، أو إلى الطبيب ، فكذلك العالم الإسلامي مصابٌ بالمرض اليوم ، وبلادكم مريضةٌ فلتتركز عنايتكم على الشفاء والدواء ، سواءٌ وقع الشفاء في حسابكم ، أو حساب غيركم ، ولا تكترثوا بما عسى أن يسجِّله المؤرخون ، وأيُّ جماعةٍ

www.abulhasanalinadwi.org

يحبِّذونها ، وأيُّ حزبٍ يعطونه الأولية لدى المدح والثناء . . . لم يستطع رجال التاريخ والمعنيون بفلسفته ، أن يتوصلوا بالضبط والتحديد إلى من كان له الفضل الأكبر في دخولهم في حظيرة الإسلام ، لأن المؤمنين المخلصين الذين عملوا على ذلك في صمت وفي هدوء ، قد كتموا عملهم من حيث لم يستطع نظر التاريخ النفَّاذ إلى يومنا هذا أن يقع عليه ، ويتوصَّل إليه .

ليكن كلٌّ منكم جندياً صغيراً وفيّاً في المعركة التي تجري على ساحة هذا البلد من أجل إعادة الإسلام ، والشريعة الإسلامية إلى مكانتهما الأصيلة ، ومن أجل صوغ الحياة والمجتمع والمدنية في قالب الإسلام ، وتخليص المجتمع من المفاسد التي تسرَّبت إليه بفعل المدنية الغربية وعلى أيدي ساستنا ، وأخلصوا العمل لله ، تسجَّل أسماؤكم في سجلاته القدسية النورانية ، ولا تبالوا بالثناء الحقير ، أو التحبيذ المتواضع ، أو الشهرة التافهة في هذه الدنيا الحقيرة الفانية بين هذا الخلق الفاني .

وليكن موضع اعتباركم أنَّ المعركة الحالية ليست بين مدرستين فكريتين ، وإنما هي بين الإسلام والجاهلية ، وبين الدين واللادينيَّة ، فتصوَّروا كأنَّ هناك مسجداً يجري بناؤه ، فكلُّ من ساهم فيه سينال الجزاء حسب إخلاصه واحتسابه ، ولا ينبغي لأحدٍ أن يبحث عما إذا كان اسمه في أول قائمة الذين ساهموا في بناء المسجد ، وعن تسجيل كمِّية المساهمة التي قام بها ، يجب أن نحارب مثل هذه العاطفة الغير المحمودة ، ونتغلَّب عليها ، ونخضعها إلى حدٍّ مستطاع .

اصرفوا عنايتكم ـ على اختلاف الطبقات والمسالك ، والمذاهب والمناهج ـ إلى هذه الجبهة ، جبهة الدعوة الإسلامية ، وجبهة صوغ الحياة في بوتقة الشريعة الإسلامية ، وليكن هذا البلد الكريم نموذج الحياة الإسلامية ، التي يمكن أن يراها الإنسان بالعيان ، بل يلمسها بالبنان .

لا بدَّ من الإيثار وتقديم التضحية :

والأهمُّ من كلِّ ذلك ، أن نعمل بالإيثار ، ونتجنَّب الخصام ، وبقدر

www.abulhasanalinadwi.org

ما تكون حياتنا بسيطةً ، ومعيشتنا ساذجةً ، وبقدر ما تكون حياتنا مشفوعةً بالإيثار والتضحية تأتي النتيجة أحسن ، والثمرة أحلى بقدر ذلك ، والشيء الذي يكمن فيه الخطر العظيم هو: التخاصم ، والتطاحن ، ومن هنالك يتحتَّم أن نتحاشى عن التعرُّض للمباحث الدينية؛ لأن لها محلها ووقتها ، وقد صرح الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي (المعروف بمجدد الألف الثاني) في إحدى رسائله ، أنَّه قد كان السبب في تقزز الإمبراطور المغولي «أكبر» من الإسلام وخروجه من ربقته هو تناقر العلماء كالديوك ، فقد كانوا يناقشون مناقشةً ساخنةً حول المسألة المطروحة ، وكلٌّ منهم كان يحاول جهده أن يثبت تفوقه على الآخرين ، شأن الذين يسعون وراء الجاه والمنصب ، وشأن المتهالكين على زهرة الدنيا ونعيمها ، من عبَّاد المادَّة والمعدة ، وهنالك فكَّر «أكبر» وقال في نفسه: إنهم أخسُّ من وزرائنا ، وملئنا ، ورجال حكومتنا ، ومن الماديِّين المتهافتين على حطام الدنيا ، ولما بلغ الشيخ السَّرهندي أنَّ الإمبراطور «جهانكير» ابن «أكبر» يريد أن يخصَّ عدداً من العلماء لبلاطه يستشيرهم ، ويأخذ بنصائحهم ، كتب إلى الأمير سيد فريد ، وقال: أشر على الإمبراطور ألا ينتقي لبلاطه إلا عالماً واحداً يخاف الله ، ويخشى حسابه ، وحذار أن يجمع بين عدد من العلماء. . . وذلك إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على فراسة الشيخ السَّرهندي ، وألمعيته البالغة ، حيث أدرك الحقيقة ، وأشار بالصواب ، ولكن لا أقول: إنَّه يجب الاقتصار على عالم واحدٍ في كلِّ قضيةٍ ، وفي كلِّ مناسبةٍ ، وفي كلِّ موقفٍ ، ولكني أريد أن أؤكد أن تخاصم العلماء وتطاحنهم يؤدِّي إلى مثل هذه النتيجة المكروهة المؤلمة المشار إليها.

إنَّ الخطر ـ يا سادة! ـ إذا كان قائماً على الرأس كالسيف المصلت ، فلكلٍّ حقٌّ أن يحذر منه ، ويشير بأخذ العدَّة التي يقاوم بها الخطر ، حتى الطفل له حقٌّ أن يقول: إن الباب ـ مثلاً مفتوحٌ يخاف منه اقتحام السارق ـ فأريد أن يكون الأمور المشار إليها موضع عنايتكم ، ولا يشغلنَّكم عنها شيءٌ.

أولاً: أنقذوا الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية أن تظنَّ أنَّ تعاليم الكتاب ،

www.abulhasanalinadwi.org

والسنة ، والفقه ، وأصول الفقه الإسلامي ، لا تقدر على مجاراة المدنية المعاصرة ، ولا تستطيع أن تحلَّ القضايا المتجدِّدة ، لأنَّ ذاك شيءٌ خطرٌ جداً ، قد يؤدِّي إلى الإلحاد ، واللادينيَّة.

ثانياً: لا بدَّ أن يراكم الشعب ورجال الحكومة أرفع من مستواهم أنفسهم ، وذلك بالحياة البسيطة التي تحيونها ، وبالقناعة باليسير القليل من متاع الحياة ، ولا يرينَّكم تتطلعون إلى المرتبات العالية ، والامتيازات الكثيرة ، والمنافع الكبيرة التي يتمتَّع بها الوزراء ، والحكام ، ولا يرينَّكم تتحلَّب شفاهكم لما يتقلبون فيه من عيشٍ رغيدٍ باذخٍ ، ونعيمٍ خافضٍ ، ويملكونه من قصورٍ شامخةٍ وسياراتٍ فاخرةٍ ذات النوعيَّة الممتازة.

أصارحكم أيها السادة! أنَّ البلاد اليوم تحتاج الزاهدين القانعين الذين يفترشون الغبراء ، لأنَّ هذه الطبقة العالية لا تخضع إلا لأمثالهم ، ولكن لا أشير عليكم أن تتكلفوا الزهادة ، وأن تصنعوا صنيع الزُّهاد ، لكن الواقع أنَّ الناس يرتمون في حضن من يرونه زاهداً فيما عند الناس ، قانعاً بما قسم الله له ، ترون أنَّ الشيخ السَّرهندي لماذا خضع له إمبراطور عصره؟ لأنهم رأوا أنَّ هذا الرجل الأبي ، لا يتردَّد إلى البلاط ، ولا يطوف على الأمراء والكبار ، ولا يشفع لأحدٍ ، وإنما يذكر ربَّه خالياً قابعاً في ناحيةٍ مفردة ، وينصح الناس ، ويخلص لهم الودَّ ، ويسدي إلينا بالتوجيه والمشورة ، وكذلك صنع جميع علمائنا العاملين ، لم يختلفوا إلى الملوك ، ولكنَّهم راقبوهم من بعيدٍ ، ووفروا للحكومة رجالاً أمناء ، ودعوا لها ولم يبخلوا عليها بمشورتهم الغالية ، ولكنَّهم كانوا يقولون: خيرٌ أن تصطلي بالنار من بعيد ، أما إذا ألقيت يدك فيها فهي تحرقها.

هذه ملاحظاتي وعصارة دراستي وضعتها أمامكم ، وقد تحدَّثت عنها في مناسباتٍ كثيرةٍ ، وعصارتها: أن الوقت هو وقت محنتنا ، ومحنة العالم الإسلامي كلِّه ، يجب أن نثبت جدارتنا وصلاحيتنا ، وأخاف أن شعور الناس بضعف صلاحيتنا قد يلحق ضرراً بالإسلام ، ويسجل المؤرخون ويتحدَّث الناس: أنَّ هذه الخسارة قد جلبها عدم جدارة العلماء ، وقلة

www.abulhasanalinadwi.org

كفاءتهم ، ومعذرةً إليكم إذا بدرت منِّي كلمةٌ ساءتكم ، وختاماً أتضرَّع إلى الله العلي القدير أن يوفقنا لهذه الغاية ، وييسر لنا المهمة ، ويهدينا سبيل الرشاد. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

مدرسة شبه القارة الهندية العربية والأدبية ، ميزاتها ومنتجاتها

هذه كلمة تحيةٍ وترحيب ألقاها العلامة الندوي في الندوة العالمية للأدب الإسلامي ، المنعقدة في ندوة العلماء بلكهنؤ الهند من (١٢ ـ ١٤) من جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ (١٧ ـ ١٩) من أبريل ١٩٨١ م.

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ، أما بعد :

حضرات الأساتذة الكبار! وعلماء اللغة العربية والآداب! والمشتغلين بالتربية ، والتعليم ، والتأليف ، والبحث ، والتحقيق في مختلف أرجاء العالمين الإسلاميِّ والعربي!

أحيِّيكم بتحيَّة الإسلام ، وبتحيَّة القرآن ، الذي جمعنا على صعيد حُبِّ اللُّغة العربيَّة ودراستها ، ووصل النهار بالليل ، والشباب بالشيب في خدمتها ، والغيرة عليها ، وإيثارها على لغات الأمَّهات والآباء ، والبلاد والأوطان ، فلولا القرآن الذي نزل بهذه اللُّغة ، ولولا الرسول الذي نطق بها ، ولولا المكتبة الإسلاميَّة العربيَّة التي هي من أغنى مكتبات العالم ، والتي أسهم في تكوينها وتوسيعها وتجميلها علماء العرب والعجم ، لما تسنَّى لبلدٍ عجميٍّ يعاني مشكلة اللغات ، ويخوض معركة صراع الثقافات ، والحضارات ، ولا يرتبط باللُّغة العربيَّة ارتباطاً عنصريَّاً ، ولا مناخيَّاً ، ولا تاريخيَّاً ، ولا اقتصاديَّاً ، ولا سياسيَّاً ، أن يعقد ندوةً عالميَّةً في الأدب الإسلامي ، ويدعو إليها صفوة الأدباء والباحثين في العالم العربيِّ ، ولا يشعر في ذلك بمعنىً من معاني «التطفُّل» وحُبِّ الفضول ، ولا بشيءٍ من الاقتحام والمغامرة ، وتخطِّي الحدود والآداب ، فيلجأ إلى اعتذارٍ وتعليلٍ وتبريرٍ .

إنَّ هذه الندوة العالمية للأدب الإسلاميِّ تعقد في بلادٍ لم تكن اللغة العربية فيها في فترةٍ من فترات التاريخ لغة النطق والتفاهم ، ولغة الديوان والحكومات ، ولغة الرسائل والمكاتبات ، وإن كان ذلك محسوباً على

www.abulhasanalinadwi.org

هؤلاء المسلمين الذين كانوا ، ولا يزالون يقرؤون القرآن باللغة العربية ، وهي لغة صلواتهم وعباداتهم. لكن سادتنا العرب ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ لا يُخلوْن عن التبعة ، فلو وصل المدُّ اللغويُّ والثقافيُّ والحضاريُّ الذي احتضن مصر والشام والعراق ، إلى أسوار هذه القارة الهندية ، وتوغَّل فيها ، كما توغل في ربوع الشرق العربي ، وربطها الخيط النورانيُّ الذي انبثق من الجزيرة العربية في فجر الفتح الإسلاميِّ ، لكان لهذه البلاد شأنٌ غير هذا الشأن ، ولما احتجتم إلى وسيطٍ وترجمان.

ولكن بالرغم من أنَّ اللغة العربية لم تكن في يومٍ من الأيام لغة النطق والتفاهم على مستوى الشعب والجمهور ، فإنَّ صلة هذه القارة باللغة العربية وحركة التأليف والتدوين عميقةٌ وقديمةٌ ، وقد قدَّر الله أن تظلَّ هذه البلاد متمسكةً عبر القرون والأجيال بعلوم الكتاب والسنة مسايرةً لركب التأليف ، والإنتاج العلمي السيَّار، حين ساق إليها في طليعة الدعاة والغزاة، وفي مقدمة الكتيبة المؤمنة المغامرة في أوائل القرن الثاني الهجري ، المحدِّث الكبير الربيع بن صبيح السَّعدي الذي يقول عنه الجلبي في «كشف الظنون»: هو أول من صنف في الإسلام ، أو كان يلي أول المصنفين في الإسلام كما قال بعضهم ، وكان قد خرج مع عبد الملك بن شهاب المسمعي من مطوعة أهل البصرة ، فمات بأرض الهند في سنة ستين ومئةٍ وكانت في موته شهيداً خارجاً في سبيل الله ، حياةٌ للعلم ، وبعثٌ للهمم ، وحفزٌ للعزائم ، وتأمينٌ لمستقبل هذه البلاد العلميِّ والتأليفيِّ.

ولم تكن عناية هذه البلاد وأبنائها مقتصرةً على علوم الكتاب والسنَّة التي توافرت لها الدواعي القويَّة ، من إيمانٍ وعقيدةٍ ، وحبٍّ وعاطفةٍ ، وحاجةٍ وضرورةٍ ، بل تخطَّت ذلك إلى اللغة العربية وآدابها ، وتاريخ هذه البلاد في خدمة اللغة العربية والعناية بها، والاتصال بأئمة اللغة وأقطابها، واحتضانهم وإيوائهم قديمٌ. فقد كان الإمام الكبير رضيُّ الدين أبو الفضائل الشيخ حسن ابن محمد الصغاني (م ٦٥٠ هـ) ـ من رواد وضع المعاجم الكبيرة، ودواوين اللغة ـ من مواليد هذه البلاد ، فقد ترعرع ، وبلغ أشدَّه ، واستكمل دراسته بمدينة لاهور ، وكان دائم التردُّد إلى مسقط رأسه ، وبلاد نيطت بها

www.abulhasanalinadwi.org

تمائمه ، وقد سارت بتصانيفه الركبان ، وخضع لعلمه علماء الزَّمان ، قال السيوطي : (إنَّه كان حامل لواء اللغة) ، وقال الذهبي : (إنَّ إليه المنتهى في اللغة) ، وقال الدمياطيُّ : (إنَّه كان إماماً في اللغة والفقه والحديث) ، ومن مصنفاته : «العباب الزاخر» في اللغة في عشرين مجلداً ، و«مجمع البحرين» في اللغة ، و«النوادر في اللغة والتراكيب» وكتب أخرى في أسماء الحيوانات ، عدا مؤلفاته في النحو .

وقد ظلَّت عناية علماء الهند باللغة العربية وآدابها مستمرةً على مرِّ العصور والأجيال ، ولم تكن هذه العناية تقليديةً ـ سائرةً على خطٍّ واحدٍ من وضع المعاجم الكبيرة ، وتلخيصها ـ بل كانت لهم فتوحٌ وابتكاراتٌ ، وزياداتٌ تكاد تكون فريدةٌ في المكتبة العربية العالمية الواسعة ، فقد عُنِيَ العلاَّمة محمد طاهر الفتني (م ٩٨٦ هـ) بشرح غريب الحديث ، فألف كتابه العظيم «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ، ولطائف الأخبار» في خمس مجلدات كبار ، يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في كتابه «نزهة الخواطر» : (جمع فيه المؤلف كلَّ غريب الحديث وما ألف فيه ، فجاء كشرح للصِّحاح الستة ، وهو كتاب متَّفق على قبوله بين أهل العلم منذ ظهر في الوجود ، وله منَّةٌ عظيمة بذلك العمل على أهل العلم) . ومؤلفات علماء الإسلام كثيرةٌ في موضوع غريب الحديث ، كما يعرف أهل هذه الصناعة ، ولكن الذي مارس تدريس الحديث الشريف ، وكان من المتبصِّرين الحاذقين لهذا العلم ، والذين يواجهون المشكلات في تدريس هذا الفن ، وشرح الحديث عملياً ، يعرفون ميزة هذا الكتاب ، وعلو كعب المؤلف ، ورسوخ قدمه في فهم الحديث ، وسعة نظره فيه .

ويعرف أهل البصر ، والمشتغلون بالتدريس والتأليف أنَّ موضوع المصطلحات العلمية ، وشرحها ، وتحديد معانيها ، والوصول فيها إلى اللباب وفصل الخطاب من أدقِّ العلوم ، والمؤلف في هذا الموضوع من أعظم المؤلفين مسؤوليةً وتحرُّجاً ، فإنَّ المصطلحات كالخارطة للسفن ، والمراكب ، والطائرات ، فأدقُّ خطأٍ في خطوطها التي تضبط المراكب والطائرات ، وتحدِّد الجهات والغايات ، قد يكون سبباً لضياع هذه البواخر

www.abulhasanalinadwi.org

والطائرات ، أو انحرافها عن الغاية المقصودة ، وقد كان من شجاعة علماء الهند ومغامرتهم ، وثقتهم بالنفس ، ومكانتهم في الثقافة الإسلامية العربية أن تناولوا هذا الموضوع الدَّقيق للتأليف ، ومؤلفات أهل الهند في هذا الموضوع هي الفريدة في هذا الباب ، والخطيب في المحراب ، وعليها الاعتماد فيما أُلِّف في فهم المصطلحات العلمية واستخدامها ؛ إذ ألَّف الشيخ عبد النبي الأحمد نكري كتابه «جامع العلوم» المشهور بدستور العلماء في مجلدين ، وألَّف الشيخ محمد أعلى التهانوي (وكلاهما من رجال القرن الثاني عشر) كتابه «كشاف اصطلاحات الفنون» ، وهو كتابٌ عظيمُ النفع تلقَّاه المشتغلون بالعلم في البلاد بالقبول ، وأثنوا عليه لأنَّه يغني عن مراجعة آلاف الصفحات ، ومئات الكتب ، وقد جاءت في عصارة دراسات المؤلف الواسعة العميقة ، ورحيق معلوماته العذب الصَّافي ، وهو في ذلك كنحلةٍ تمتصُّ من الأزهار والأوراد ، وتصبُّ العسل المصفَّى .

وتُوج هذا المجهود العلميُّ ، والعناية الدقيقة المخلصة بعلم اللغة ، بمأثرة العلامة السيد مرتضى بن محمد البلكرامي المشهور بالزبيدي ، التي تجلت في كتابه العظيم «تاج العروس في شرح القاموس» في عشرة مجلدات كبار ، ولا أعرف ـ في حدود علمي ـ أن معجماً في أيِّ لغة من لغات العالم الحيَّة ، عُنِيَ به هذه العناية الفائقة ، وفُكِّر في شرحه وتنقيحه والزيادة فيه ، فأصبح موسوعةً لغويَّـةً . وقد ولد السيد مرتضى في الهند في قريةٍ لا تبعد عن هذا البلد الذي نلتقي فيه بعداً كبيراً ، وقد كانت من توابع هذه المدينة ، وهي مدينة كبار العلماء والأدباء ، والشعراء والمؤرخين ، كان في مقدمتهم مولانا السيد غلام علي البلكرامي صاحب «السبع السيارة» ، وهي سبعة دواوين له بالعربية ، وصاحب ابتكاراتٍ وزياداتٍ في الشعر والعروض ، وتوليد المعاني ، والتفنن في الخيال ، وقد شغل كتاب «تاج العروس» سمع الزمان وبصره ، فتنافس في انتساخه ، والحصول على نسخةٍ منه كبار سلاطين العصر ، وملوك العالم .

ومما يجب أن يسجَّل في تاريخ الأدب العربي ، وينتبه له المتبعون لمسيرة الأدب العربي ، وتطوراته ، أنَّ الهند الخاضعة لنفوذ الفرس الأدبي

www.abulhasanalinadwi.org

والثقافي ، والتي كانت تعيش على فتات مائدة العرب في اللغة والأدب ، أنجبت في مختلف عصورها من استطاع أن يسمو على الأسلوب الأدبيِّ التقليديِّ الذي كان يسيطر على العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه ، بعد أن ظهر كتاب «المقامات» للحريري ، على المسرح الأدبي ـ ولا مؤاخذة فإنَّ أبا زيد السروجي كان ممثلاً في مسرحيات مختلفة ـ فكان المثال الوحيد الذي يحتذى في الإنشاء والكتابة العربية ، وقد كان ذلك كتغيُّر الفصول ، وحلول الربيع والخريف ، أو كالأوبئة التي تؤثر في المزاج تأثيراً عاماً ، لا يخلو منها قويٌّ وضعيفٌ ، وسليمٌ وسقيم ، وقد غشيت العالم العربي ، بل العالم الإسلامي ، سحابةٌ من تقليد أسلوب الحريري ، ولكن ظهر من أفق الهند ـ البعيدة عن مهد اللغة العربية وأساليبها الأصيلة ـ رجالٌ كانوا يبدون كيراعاتٍ وحباحب في ليلةٍ مطيرةٍ مظلمة ، كتبوا بقلمٍ عربيٍّ أصيلٍ ، وفي أسلوب يجري مع الطبع ، وهذه الظاهرة الأدبية ، أو البِدعة في شريعة الأدب العربيِّ المتبعة شرقاً وغرباً ، تحتاج إلى دراسةٍ عميقةٍ .

وكان من هؤلاء الأفذاذ العلامة محمود الجونفوري ـ وهو من مدينة مجاورة في هذه الولاية الشمالية ـ (م ١٠٦٢ هـ) ، فالذي يقرأ كتابه «الفرائد في شرح الفوائد» يتعجَّب لإنشائه المترسِّل ، وأسلوبه العلميِّ التحليليِّ ، وبعده عن السَّجع والتنميق الذي كان له سحرٌ على أصحاب الصناعة الأدبيَّة ، والشادين باللغة العربية .

وإذا لم تكن الهند المجلِّية في مضمار التحرر من قيود السجع والقوافي ، والبديع والصنائع اللفظية ، وإيثار جانب المعاني على جانب زخرفة الألفاظ ، وإرسال النفس على سجيتها ، وإطلاق عنان القلم ، فقد كان السبق في ذلك ، والزعامة العلمية لنابغة العرب ، وإمام فلسفة التاريخ ، العلامة عبد الرحمن بن خلدون التونسي ولمقدمته العظيمة الفريدة التي هزَّت العقول ، والأذواق ، وشقَّت طريقاً جديداً للإنشاء والبحوث العلمية ، أقول: إذا لم يقدَّر للهند أن تكون هي المجلِّية في هذا المضمار ، وقد كان طبيعياً ، لأنَّها كانت في آخر حدود العالم الإسلاميِّ ، وتحت نير الحكم العجمي السياسيِّ والثقافيِّ ، فقد كانت المصلِّية في هذا

www.abulhasanalinadwi.org

المضمار؛ إذ نبغ فيها الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) ، فألف كتابه «حجة الله البالغة» ، والكتاب ـ علاوةً على مكانته في موضوع أسرار أحكام الشريعة ، وفلسفة التشريع الإسلاميِّ ـ مثالٌ فريدٌ لسلامة الذوق الأدبيِّ ، ونصاعة اللغة ، وقوة العبارة وانسجامها ، وبعدها عن السجع البارد ، وتقليد أسلوب الحريري ، وهو يعدُّ بحقٍّ النموذج الثاني للنثر الطبعيِّ السلسال ، والتعبير العلميِّ العامر ، بعد مقدمة ابن خلدون ، والذي يقرأ فصل (المدنية العجمية عند بعثة الرسول ﷺ) في كتاب «حجة الله البالغة» يحار لرشاقة العبارة ، والتدفُّق البيانيِّ ، وسهولة اللغة وعذوبتها.

وقد نبغ بعده علماء كتَّابٌ في الهند ، كانت كتاباتهم في السِّيَر والتراجم ، والبحوث العلمية والتاريخية تختلف عن كتابات معاصريهم في البلاد العربية الصميمة ، ومراكز الثقافة العربية ، في عذوبة العبارة ، وخفة الرُّوح ، وتنوُّع المادَّة ، والترسُّل ، ونخصُّ بالذكر منهم العلامة محسن بن يحيى الترهتي صاحب «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني» وهو كتابٌ مشرق الديباجة ، عليه رواء العربية الفصحى ، ورشاقة الأدب القدير ، وعلاَّمة الهند الأمير السيد صديق حسن القنوجي البهوبالي (م ١٣٠٧ هـ) ، والمؤرخ الكبير العلاَّمة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١ هـ) صاحب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في ثمانية مجلدات ، والعلاَّمة المحقق الكبير عبد العزيز الميمني صاحب كتاب «أبو العلاء وما إليه» وغيره.

وهنا اسمحوا لي أن ألفت نظركم إلى حقيقةٍ تاريخيَّةٍ أدبيَّةٍ ، وأنقل سطوراً من كلمتي التي ألقيتها في مهرجان ندوة العلماء الكبير المنعقد في ٢٥ ـ ٢٨ شهر شوال عام ١٣٩٥ هـ. قلت:

(من سمات علماء الهند البارزة أنَّهم قادوا الحركة الأدبية الإنشائية في شبه القارة الهندية ، وكانوا من الدعائم القويَّة السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع ، والنثر الفني بعد ثورة ١٨٥٧ م ، وكان كلُّ واحدٍ منهم

www.abulhasanalinadwi.org

مؤسِّس مدرسةٍ أدبيةٍ خاصَّةٍ لا يزال لها أنصارٌ ، وأتباعٌ ، ومقلِّدون ، وكان كثيرٌ منهم رائد نشاطٍ جديدٍ في الإنشاء والتحرير والنقد وتاريخ الأدب والشعر ، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل ، والعمدة في هذا الموضوع ، ولم يكن في الهند ذلك الفصام النكد بين علوم الدين والأدب العصري ولغة البلاد ، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء الدِّين والشادين بالأدب والشعر ، والهائمين بهما ، الفجوة التي جنت على الدين والأدب في وقتٍ واحدٍ).

وكانت مؤسسة ندوة العلماء التي تلتقون في رحابها ، في مقدمة من أنكرت هذا الفصام النكد بين الدِّين والأدب ، وتكوين معسكرين متنافسين ، معسكر العلماء والدُّعاة ، ومعسكر الأدباء والكُتَّاب في لغة البلاد ، والمؤلفين في آدابها ، وأنكرت احتكار الأدباء المتزعِّمين للأدب ، واللغة ، والإنشاء ، والنقد ، والتاريخ. وقد تجلَّت هذه الحقيقة وهذا الاستنكار في عبارة أحد المنتسبين إلى ندوة العلماء؛ اسمحوا لي أن أنقلها منقولةً من الأردية إلى العربية ، والكاتب يتحدَّث عن رجعية التقدميين من الأدباء ، يقول:

(إنَّ الأدب الذي كان أجدر بأن يرفض السير على خطٍ واحدٍ رسمه القدماء ، وكان أحقَّ بأن يتعيَّر من الجمود والتقليد من أيَّة مؤسسة علميَّةٍ ، ومدرسة فكريَّةٍ ، إنَّ الأدب الذي رضع بلبان الجدَّة ، والجراءة ، والذكاء ، والتذوُّق بالجمال ، وارتفع أساسه ـ بالتعبير الأدبيِّ ـ على حبِّ الجمال في كلِّ شيءٍ ، وعلى الشغف بالأزهار والأوراد ، في كلِّ حديقةٍ وروضةٍ ، وفي كلِّ غابةٍ وواحةٍ ، هذا الأدب قد وقع ـ مع الأسف ـ فريسة العصبية التقليدية ، وأصبح أسيراً للعادات والرسوم ، وقلَّما نجد الأدباء والنُّقاد في هذا العصر يتجاوزون حدود تعريف الأدب والإنشاء الذي وضعه المؤلف الأول أو مؤرخ الأدب القديم ، أو يتخطَّون رسومه التي قرَّرها هو ، الأمر الذي جعل كلَّ أديبٍ يترسَّم خطى الأديب الذي سبقه في رحلته الأدبية ، دون أن يطمح إلى زيادةٍ أو ابتكارٍ ، أو تطويرٍ في ذخائر النماذج الأدبية ، إنَّما يتمُّ اختيار عدَّة أشخاصٍ مثاليِّين للأدب والكتابة ، فيقلدهم كلُّ أديبٍ

www.abulhasanalinadwi.org

ومؤرخ تقليداً أعمى ، ويجترُّ آثارهم وأسلوبهم).

وما أصدق قول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال تعبيراً عن هذه المدرسة الأدبيَّة التقليديَّة تقليد الببغاء ، حيث قال : (إنَّ هذه المدرسة تدور كثور الطاحون حول محورٍ واحدٍ قديم).

ولقد كانت ندوة العلماء أيضاً أول من نادى بضرورة استعراض المكتبة العربية من جديدٍ ، وغربلتها ، ونخلها ، وإثارة دفائنها ، وكنوزها ، وإبراز محاسنها ، وبدائعها ، ولو كانت في غير مظانِّها ، وعند من يعتبر من أغنى الناس عن الهيام بالأدب والقدرة على التعبير وأبعدهم عن دست الأدباء والكتَّاب ، كما نادت بوضع مناهج جديدةً لتعليم اللغة العربية وآدابها ، تعلِّم الدِّين والأدب في وقتٍ واحد ، وتطبِّع على السليقة العربية ، وتثير المواهب الفطرية ، وتعيد الثقة بصلاحية هذه اللغة ومسايرتها لكلِّ عصرٍ وموضوعٍ.

لكلِّ هذه الأسباب ، ولهذه الركيزة الأدبية التاريخية ، لم يكن من المستغرب أن تنظم ندوة العلماء هذه الندوة العالمية للأدب الإسلاميِّ ، وتدعو إليها كبار الأساتذة والمعنيِّين باللغة العربية وآدابها ، والتربية الإسلامية ومناهجها ، وقد كانت الاستجابة الكريمة التي لقيها منظمو هذه الندوة دليلاً على إخلاص الدَّاعين ، وذوق المدعوِّين الذين قطعوا مسافاتٍ بعيدةً ، وتحمَّلوا صعوبات السفر لتلبية هذه الدعوة ، وتداول الآراء والفكر في هذا الموضوع الكبير الخطير.

ومرحباً بالقادمين الكرام ، وشكراً للأساتذة العظام ، والحمد لله أولاً وآخراً.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

مكـانـة الـعلـم ومسـؤولـيـات الـعلمـــاء

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في جامعة كشمير في سري نكر خلال زيارته بدعوةٍ من مدير الجامعة للحضور في احتفالٍ توزيع الشهادات على المتخرِّجين من الجامعة ، وقبول شهادة الشَّرف للدكتوراه ، وذلك في شهر نوفمبر ١٩٨١ م.

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسَّلام على سيد المرسلين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين . أما بعد :

سادتي وإخواني!

إنَّني أعتقد أنَّ العلم وحدةٌ لا تتجزَّأ ، ولا يجوز تقسيمه إلى قديم وجديدٍ ونظريٍّ وتطبيقيٍّ ، وقد نوَّه الدكتور محمد إقبال بأن أسطورة القديم والجديد إنَّما هي من نسج الخيال الفجِّ السقيم .

إنَّني أرى أنَّ العلم حقيقةٌ مشاعةٌ ، وهي موهبةٌ من الله العليم ، لا تحتكرها أمَّةٌ دون أخرى أو بلدٌ دون بلدٍ ، إنَّني أجد في «الكثرة» من العلم ، وحدةً غير منفصمة العرا ، إنَّ هذه الوحدة هي وحدة «الصِّدق» والبحث عن «الصِّدق» والذوق العلميُّ لا يروى عطشه ، والسرور الغامر بالعثور عليه لا يضاهيه سرورٌ ، ورغم هذه الحقيقة فإنني أرى أن أشكر معالي مدير الجامعة ونائب المدير ، وجميع المسؤولين في هذه الجامعة على أنهم اختاروا للتكريم العلمي شخصاً ينتمي إلى الطراز القديم من التعليم ، ويتَّصل به .

إنني لا أعترف في مجال العلم ، والأدب ، والشعر ، والفلسفة ، بتلك القاعدة الشائعة التي لا تسمِّي العالم أو المفكر إلا من تزيا «بزيها الخاص» وقد سلَّم الناس بأنَّ من لا يلبس تلك البذلة الخاصَّة لا يستحقُّ تكريماً ، ولا يسمع منه ، وليس بأهل أن يؤخذ عنه ، ولسوء الحظ فقد سيطر هذا التفكير في مجال الأدب والشعر أيضاً ، فكلُّ من لا يعلق على حانوته لافتة «الأدب» ولا يلبس بذلته لحضور ندوة الأدب ، فهو «قليل الأدب» وإنَّ الناس لم يغفروا أبداً زلة أولئك الأدباء والشعراء الذين لم يرتدوا زيَّهم ، أو لم يستطيعوا أن يظفروا بزيِّهم .

إنني أعتقد بشمول العلم ، وسعة أفقه ، وجدَّته ، وطراوته ، ولم تزل الهداية الرَّبانية ، تساند مثل هذا العلم وتكلؤه عين الله الحارسة ، فإنَّ العلم

www.abulhasanalinadwi.org

الخالص ، والطلب الصَّادق لا تتأخر عنهما منحة الله وعطاؤه في أيِّ وقتٍ .

سادتي! أتذكر بمناسبة هذه الحفلة التي أقيمت في هذه الجامعة الموقرة لتوزيع الشهادات في سفوح جبال هملايا وفي أحد أوديتها الخضراء الجميلة ، ذلك الواقع الذي تمثَّل قبل أربعة عشر قرناً من الزمن على جبلٍ لم يسم سموَّ هذه الجبال ، ولم يخضرَّ مثل هذا الاخضرار في بلدٍ قاحل أجرد ، الواقع الذي خلَّف آثاراً عميقةً خالدة على التاريخ البشريِّ ، بل على مقادير البشر ، ولا يوجد لها نظيرٌ في التاريخ ، وله صلة خاصَّة بذلك «اللوح» و«القلم» اللذين يقوم عليهما أساس العلم والمدنية ، والبحث والتحقيق ، والكتابة والتأليف ، ولم يكن يتصوَّر دونها وجود هذه المعاهد العظيمة ، والمكتبات الواسعة الكبيرة ، التي تتجمَّل بها الدنيا ، وتتضاعف بها قيمة الحياة ، ولذة العيش ، أعني بذلك الوحي الأول الذي نزل على محمَّدٍ العربيِّ ﷺ في غار حراء على مقربةٍ من مدينة مكَّة المكرَّمة فيما يقرب من ١٢/ فبراير عام ٦١١ م ، كان ذلك الوحي بهذه الكلمات الخالدة :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

إن الله عزَّ وجل في هذه الحلقة الأولى من وحيه العظيم ، وفي هذه الرشحة من وابل الرحمة ، لم يمهل إعلان هذه الحقيقة : أنَّ تقدّم العلم منوطٌ بالقلم ، هل في سجل التاريخ من مثيلٍ لهذا الواقع الذي تمثل في الخلوة الخاشعة في غار حراء؛ الذي كان نبيُّ المستقبل الأميُّ يتحنث فيه ، ويبحث عن طريقٍ لهداية الناس ، والذي كان لا يعرف كيف يستخدم القلم ، ولم يمارس في حياته هذا الفن؟ هل يتصوَّر فوق هذا في الوحي الذي ينزل على نبيٍّ أميٍّ بين أمَّةٍ أميَّةٍ ـ لا يعرف الناس فيها الكتابة والقراءة فضلاً عن أن توجد هناك معاهد وجامعات ـ والذي يربط بعد قرونٍ وأجيالٍ بين الأرض والسماء ، هل يتصوَّر أن يكون مبدأ هذا الوحي ، وأول لفظةٍ من عبارتها ، «اقرأ» فيقال لمن لم يقرأ في حياته فيما يوحى إليه من ربِّه ، «اقرأ»

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّها إشارة إلى أنَّ الأمـة التي سوف تقوم بدعوتـه ، وجهاده لا تكتفي بطلب العلم فحسب ، بل تنهض مرشدةً معلِّمـةً ، هاديـةً ، تنشر العلم وتبثُّه ، وإن العهد الذي بدأ بنبوته ليس عهد الأمِّيَّة ، والجهالة ، ومصادمة العلم ، بل هو عهد العلم ، والعقل ، والحكمة ، وعهد البناء ، والإنسانية ، والرُّقيِّ.

ثم تأمَّلوا في قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] لقد كان من أكبر الأخطاء؛ التي وقعت في سبيل العلم ، أنَّ صلته كانت قد انقطعت عن ربِّ العالمين خالق الكون ، فسار العلم في مسارٍ منحرف ، وضلَّ وعمي ، ولكن وصل حبله المنقطع هنا في هذا الوحي الأول بالله العظيم ، فلما ذكر العلم ، ونال هذا التكريم ، كان من اللازم التنبيه على أنه لا يتقدَّم في مجاله إلا «باسم الربِّ» لأنَّه هو الواهب للعلم وخالقه ، ولا يستطيع العلم أن يتقدَّم تقدُّماً صحيحاً بنَّاءً إلا في ضوء هدايته.

لقد كان هذا النداء العلوي أعظم نداءٍ في تاريخ العالم ، وأبعثه على التغيير ، والثورة على الأوضاع الجاهلية سمعته أذن الدنيا ، ولم يكن أحدٌ يتصوَّر ذلك من قبل ، لو جُمع أدباء العالم وشعراؤه ومفكِّروه وقيل لهم : قدروا ، وفكِّروا في الوحي الذي سينزل ، بماذا تكون بدايته؟ وما الذي ينال الأولية منه؟ لا أعتقد أنَّ أحداً منهم يعرف بطبيعة هذا الشعب الأميِّ وعقليته ، يستطيع أن يقول : إنَّه سيبدأ بـ «اقرأ».

كان هذا النداء دعوةً صارخةً إلى الثورة والانقلاب ، وإلى أنَّه لا يجوز للعلم من الآن فصاعداً أن يخطو خطوةً واحدةً في مضمار الكون إلا بهداية العليم الحكيم ، لأنَّ رحلة العلم طويلةٌ ، عسيرةٌ ملتويةٌ متعرِّجةٌ ، يقطع فيها الطريق على ركب الحياة ، وتواجه كلَّ خطوةٍ من الخطوات أوديةٌ عميقةٌ هائلةٌ ، وبحورٌ سحيقةٌ مائجةٌ ، وتعترض طريقه الحيَّات والعقارب ، فلا بدَّ إذاً في هذا الطريق من خرِّيتٍ ماهر ، ودليلٍ لا تخفى عليه الخوافي ، وهو الله العليم الخبير ، ليس هو مجرد العلم أو الأدب ، فليس العلم عبارةً عن النقوش الجميلة المزخرفة ، والدُّمى المزيَّنة المكسوَّة ، ليس العلم عبارةً

www.abulhasanalinadwi.org

عن وسائل الترفيه والتسلية ، أو سبباً للتحريش بين الناس ، وإلقاء العداوة بين القلوب ، ليس العلم ما يثير شعباً على شعبٍ ، ويورث بينهما الصراع الدائم ، أو ما يعلِّم كيف الطريق إلى ملء «خندق المعدة» أو يعلِّم استخدام اللسان ، واللباقة في الكلام ، بل العلم ما يقرأ باسم الله :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

ذلك الربُّ الأكرم كيف لا يعرف جميع حاجات الناس وضروراتهم ، ثم يتكفَّل بها ، هل هناك من رفع مكانة القلم ، وأشاد بها هذه الإشادة العظيمة ، حتى لم تغفل الحلقة الأولى من الوحي الإلهي في غار حراء ذكر هذا القلم ، الذي قد لا يعثر عليه في أيِّ بيتٍ من بيوت مكة بعد بحثٍ طويل وتفتيشٍ دقيق ، اللهمَّ إلا في بيت ورقة بن نوفل ، وأمثاله من الكتبة الذين تعلموا شيئاً من الكتابة في بلدٍ عجمي ، ونقلوه إلى الجزيرة العربية .

ثم ذكرت هذه الآية الكريمة حقيقةً مثيرةً خالدةً ، وهي أنَّ العلم لا نهاية له ولا حدود . ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٥] ما هو العلم الحديث؟ وما هي التكنولوجيا؟ وكيف وصول الإنسان إلى القمر؟ وكيف تسخيرنا للفضاء؟ وكيف طويت الدنيا وقربت المسافات؟ كلُّ ذلك من آثار هذا الإعلان الخالد : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٥] .

سادتي! اسمحوا لي أن أنتهز هذه الفرصة السعيدة كطالبٍ يقطع سفره في أودية العلم ، فأتقدَّم ببعض الاقتراحات والمشورات .

إنَّ المهمة الأساسية للجامعات هي : تكوين السيرة الإنسانية المثالية ، فينبغي أن تضع الجامعة شاباً لا يرضى أبداً ببيع ضميره إزاء عرضٍ من الدنيا قليلٍ ، فإنَّ الفلسفات والنظم المعاصرة تعتقد بأنَّ كلَّ شخصٍ له ثمنٌ مقدرٌ معلومٌ ، فإذا لم تستطع أن تشتريه بثمنٍ بخسٍ ، فلتشتره بثمنٍ مناسب ، ولا تعتبر الجامعة ناجحةً في دورها إلا إذا أعدَّت شباباً كفؤاً في خُلقه وعِلمه ، لا يساوم ، ولا يبيع مبادئه ، ولا تستطيع أيُّ فلسفةٍ هدَّامةٍ ،

www.abulhasanalinadwi.org

أو حركةٍ منحرفة ، أو دعوةٍ مضلِّلة أن تشتري ضميره ، ويقدر أن يقول في ثقةٍ ، واعتمادٍ ، وصراحةٍ ، وجراءة في كلمات الدكتور إقبال :

«لك الحمد يا رب! إذ لست من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراسةً ، ولكني أحمدك على أنني لم أبعهما لملكٍ من الملوك» .

والمهمة الثانية : أن يتخرَّج من جامعاتنا شبابٌ مستعدون ليهبوا حياتهم للحقِّ والصِّدق ، والعلم والهداية ، شبابٌ يجدون في الجوع لذة لا يجدها النَّهم في الأكل اللذيذ ، والشبع المزيد ، ويجدون متعةً في الفقد والحرمان لا يجدها المحظوظون ، والمكثرون ، ويوجهون عظيم صلاحياتهم ، وطاقاتهم ، وأفضل مواهبهم وكفاءاتهم ، التي شحنتهم بها جامعتهم لحماية الإنسانية ، وصيانتها من الدَّمار الرهيب .

ينبغي أن تراجع الجامعات حساباتها ، فتنظر كم تخرَّج من أبنائها من الشباب الأكفاء؟ إنَّني أصارحكم بأنه لم يعد شيءٌ في أيامنا هذه على بلدٍ من البلدان ، ويشاد بذكره نظراً إلى عدد جامعاته ، ومعاهده ، إنَّ هذا قصورٌ في النظر ، وفكرةٌ متخلِّفةٌ لم تعد صالحةً للقبول ، إنَّ القضية هي قضية عدد أولئك الشباب الجامعيين الذين يقضون حياتهم في الشوق إلى العلم ، والبحث والتحقيق ، ونشر العلم النافع والخلق الفاضل ، ومقاومة المنكرات ، والفوضى الخلقية ، ويقفون في وجه الوحشية السفَّاكة للدماء ، وعبادة القوة والمنفعة والمال ، كم عدد الشباب الذين نذروا نفوسهم لرفع مستوى شعوبهم علماً ، وخلقاً ، وتربيتهم وتوعيتهم ، ولكي ينفخوا فيهم روح العزَّة والإباء ، الذين ينسون حظوظهم العاجلة ، ويطبقون أعينهم عن مصالحهم الشخصية ، والمنافع المادِّية ، ويهبون أنفسهم لخدمة القضية العامَّة ، إنَّ المقياس الصحيح في ذلك أن نرى كم من الشباب عكفوا على العلوم ، والدراسات النافعة ، تاركين وراءهم راحة الدنيا ونعيمها ، ورقيها ليخرجوا إلى أمتهم بأعمال بناءةٍ خالدةٍ .

www.abulhasanalinadwi.org

والحقُّ أنَّ الغرض الأساسيَّ من كلٍّ من الأدب والشعر ، والحكمة والفلسفة ، والتصنيف والتأليف بعث حياةٍ جديدةٍ ، ونفخ روحٍ جديدة ، لا أن يكون لمعانٍ سرابٍ ، والتهاب شعلةٍ لا تلبث أن تنطفىء ، وأتمثل هنا ببعض أبيات الشاعر الإسلامي محمد إقبال الذي قالها مخاطباً لأحد الأدباء والشعراء ، ولكنها تصدق على العلم ، والأدب ، والفلسفة ، والحكمة ، يقول ما معناه :

« يا أهل الـذوق و النظر العميق ، أنـعم وأكـرم بنظركم ، ولكن أيُّ قيمةٍ للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر ، ولا في صوت مغنٍّ إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، ولا بارك الله في نسيم السَّحر ، إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور ، والخمول ، والذويُّ والذبول ، إنَّ غاية الإحسان في فنٍ من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة ، ما قيمة شرارةٍ تلتهب سريعاً وتنطفىء سريعاً» .

سادتي! واسمحوا لي أخيراً أن أوجِّه بعض النصائح إلى هؤلاء الشباب الخريجين الذين يحملون من هنا شهادات العلم ، ويستحقُّون التهنئة عليها ، والسعداء الذين لا يزالون يقتطفون من أزهار العلم في رحاب هذه الجامعة ، وسوف أستعين في حديثي هذا ـ الذي قد يكون جادًّا وثقيلاً ـ بقصة طريفةٍ لعلَّها تملح المجلس ، وتمتع الأسماع .

يُحكى أنَّ فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينةً للنزهة في البحر ، أو للوصول إلى البرِّ ، وكان في النفس نشاطٌ ، وفي الوقت سعةٌ ، وكان الملاح المجدف الأميُّ خير موضوع للدعابة والتندُّر ، وخير وسيلة للتلهِّي وترويح النفس ، وخاطبه تلميذٌ ذكيٌّ جريءٌ ، وقال : يا عم! ماذا درست من العلوم؟ قال : ولا شيء يا عزيزي! قال : أما درست العلوم الطبيعية يا عمي؟! قال : كلا ، ولا سمعت بها! وتكلم أحد زملائه ، وقال : ولكنَّك درست علم الإقليدس والجبر والمقابلة! قال : وهذا أغرب ، وتصدقون أنِّي أول مرَّةٍ أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة! وتكلَّم ثالث «شاطر» فقال : ولكني متأكِّدٌ بأنك درست الجغرافية والتاريخ ، فقال : وهل هما اسمان

www.abulhasanalinadwi.org

لبلدين ، أو علمان لشخصين؟ وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة ، وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا: ما سنك يا عم؟! قال: أنا في الأربعين من سنِّي! قالوا لقد ضيعت نصف عمرك يا عمَّنا! وسكت الملاَّح الأميُّ على غصصٍ ومضضٍ ، وبقي ينتظر دوره ، والزمان دوَّار.

وهاج البحر ، وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب والأمواج فاغرةٌ أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب في السفينة ، وكانت أول تجربتهم في البحر وأشرفت السفينة على الغرق ، وجاء دور الملاح الأميِّ ، فقال في هدوء ووقار: ما هي العلوم التي درستموها يا شباب؟! وبدأ الشباب يتلون قائمةً طويلةً للعلوم والآداب التي درسوها في الكلية ، ويتوسَّعون فيها في الجامعة من غير أن يفطنوا لغرض الملاَّح الجاهل الحكيم ، ولما انتهوا من عدِّ العلوم المرعبة أسماؤها؛ قال في وقارٍ تمزجه نشوة الانتصار: لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة ، فهل درستم علم السباحة؟ وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة ـ لا قدر الله ـ كيف تسبحون ، وتصلون إلى الساحل بسلام؟ قالوا: لا والله يا عم! هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والإلمام به! هنالك ضحك الملاَّح ، وقال: إذا كنت قد ضيعت نصف عمري ، فقد أتلفتم عمركم كله ، لأنَّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان ، إنما كان ينجدكم العلم الوحيد ، هو علم السباحة الذين تجهلونه[(١)].

ولا يزال الوضع ـ في أيامنا هذه ـ في بلدان العالم الراقية المتحضِّرة التي تبدو كأنها تملك مقادير الأمم ، حيث ارتطمت سفينة الحياة في ورطةٍ لجية وتعصف بها الأمواج العاتية كالتماسيح الهائلة الضارية فاغرة أفواهها لتبتلعها ، والشاطىء بعيدٌ ، والخطر محدقٌ قريبٌ ، ويحمل ركاب السفينة المحترمون كلَّ شيءٍ إلا فنَّ السباحة ، وبتعبيرٍ أفصح وأوضح ، تعلَّموا كلَّ علمٍ وفنٍّ ، ولكنهم لم يتعلموا كيف يعيشون حياة الإنسان الكريم الذي يخشى ربه ، ويرحم خلقه ، ويتوجَّع لما أصابهم من ويلاتٍ

---

(١) من محاضرة العلامة الندوي «النبوة والأنبياء» ص ٣٣ ـ ٣٤.

www.abulhasanalinadwi.org

ونكباتٍ ، لقد صور الدكتور إقبال هذا الوضع الخطير ، وهذا التناقض العجيب الذي أصيب به أبناء القرن العشرين ، بل المجتمعات البشرية كلها ، يقول:

«من الغريب أنَّ من اقتنص أشعة الشمس ، لم يعرف كيف ينير ليله ، وكيف يصبح ، وأنَّ من بحث عن مسالك النجوم وطرقها ، لم يستطع أن يسافر في بيداء أفكاره ، ومن عكف على الألغاز يحلُّها ، ويشرحها لم يستطع أن يميز النَّفع من الضَّرر».

إنَّ الشروط الأساسية للحياة الكريمة الناجحة المأمونة من الخطر والضرر هي معرفة الطريق إلى حياةٍ إنسانيةٍ نبيلةٍ ، والخشية لله الواحد ، وحبُّ الناس ، وصلاحية ضبط النفس وقسرها ، وصفة إيثار المصلحة الجماعية على المصلحة الفردية ، واحترام الإنسانية ، والعواطف الكريمة للحفاظ على الأنفس والأعراض والأموال ، وإيثار أداء الحقوق لأهلها على المطالبة بها ، وحماية المضطهدين المظلومين ونصرة الضعفاء المساكين ، وجراءة مواجهة الطغاة الجبارين ، وعدم الخوف من الناس الذين لا يحملون إلا الثروة والجاه ، وعدم الخضوع أمامهم ، والصَّراحة بقوله الحقِّ دائماً ، والشهادة على نفسه وجماعته ، والتمسُّك بالعدل لنفسه ولغيره ، وإقامة القسطاس المستقيم ، والإيمان الجازم بإلهٍ قادرٍ شاهدٍ بصيرٍ ، والتفكير في المسؤولية أمامه ، والخوف من حسابه ، هذه هي الشروط الأساسية للحياة الشريفة المحترمة ، وهذه هي الضمانات اللازمة لوجود المجتمع الصالح الرَّشيد والحكومة القوية المحروسة ، وإن تربية هذا المجتمع ، وتهيئة الجوِّ المناسب له من أولى فرائض الجامعات ، والمؤسسات العلمية ، وإيجاد هؤلآء الشباب من أهمِّ مسؤوليات المثقَّفين والمفكِّرين ، والمسؤولين في البلاد.

ويلزمنا في مثل هذه المناسبات أن نراجع أنفسنا ، وننظر إلى أيِّ مدىً نجحت مؤسساتنا وجامعاتنا؟ وكم من شبابها الخريجين وأبنائها العاملين يستحقون أن يهنَّؤوا ويبارك لهم؟ وما هي محاولاتنا للحصول على هذه

www.abulhasanalinadwi.org

الأهداف والمقاصد العظيمة في المستقبل؟ وماذا أعددنا له ، وجهَّزنا ، إنها قضيةٌ تستحقُّ أكبر قسطٍ من التأمُّل ، والتفكير.

وختاماً أشكركم على هذا التكريم ، والثقة التي وضعتموها فيَّ ، وعواطف الحبِّ والاحترام ، التي أبديتموها عن طريق هذا التكريم.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

لمحةٌ عن المدرسة
الأدبيَّة الإسلاميَّة الهنديَّة ، كيف نشأت ،
وتكوَّنت ، وبماذا تتميَّز؟

هذه الكلمة ألقاها العلامة الندوي في المؤتمر الأول للأدب الإسلامي الّذي عقدته رابطة الأدب الإسلامي العالمية في رحاب ندوة العلماء بقاعة مكتبة شبلي العامَّة في ٢٦/ ٤/ ١٤٠٦ هـ الموافق ٨/ يناير ١٩٨٦ م .

www.abulhasanalinadwi.org

سادتي، وإخواني! فكَّرت طويلاً في الحديث الذي أتقدَّم به إليكم في هذا المؤتمر الأول لرابطة الأدب الإسلاميِّ الذي ينعقد في رحاب ندوة العلماء في مدينةٍ كانت لها القيادة الأدبيَّة الشعرية زمناً طويلاً، ومنها انبثق منهجٌ تعليميٌّ طبق الهند، وتخطَّى إلى حدود أفغانستان، وتركستان، وكانت ولا تزال مدرسةً مستقلَّةً مميَّزة في اللغة الأردية، والشعر الأرديِّ، يحتجُّ بها، ويرجع إليها في صحة التعبير، ونقاء اللغة، وكانت تلي مدرسة دهلي العاصمة، ثم أصبحت في القرن الثالث عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) تضارع مدرسة دهلي وتنافسها، ثم تغلَّبت عليها حين نبغ فيها شعراء مبتكرون في كثيرٍ من ضروب الشعر، وسلَّمت لهم الزعامة في الشعر، وحكموا على كثيرٍ من التعبيرات القديمة، والكلمات التي جاءت في شعر فحول الشعراء، بأنها أصبحت من الكلمات المهجورة، واستبدلوا بها تعبيراتٍ وكلماتٍ حديثةً.

وينعقد هذا المؤتمر في الهند التي استقلَّت، وانفردت في كثيرٍ من أنواع الثقافة الإسلاميَّة والعلوم الدينية، وأساليب الحكم، والإدارة، واللغة والأدب والشعر حتى أصبحت ذات شخصيةٍ إسلاميَّةٍ متميِّزة، ففضَّلْتُ أن يكون حديثي اليوم عن المدرسة الأدبيَّة الإسلامية التي تكونت في الهند، وهي خليقةٌ بأن تذكر مع المدرسة الأدبية الإسلاميَّة الأندلسيَّة، ومع المدرسة الأدبيَّة الإسلامية المغربيَّة، ومع المدرسة الأدبية الإسلامية الإيرانيَّة، وقد كانت لذلك أسبابٌ طبعيَّةٌ تاريخيَّة، نذكر بعضها على سبيل الإجمال:

لقد تفاعلت في الهند عوامل ثقافيَّةٌ، وعنصريَّةٌ، وحضاريَّةٌ، وسياسيَّةٌ، وقد كانت مهد اللغات، والثقافات، والفلسفات القديمة، وكان من الطبيعيِّ أن يتأثرَّ الشعب المسلم بكلِّ هذا في قليلٍ أو كثير، فتكوَّنت مدرسةٌ مستقلَّةٌ ذات نفسيَّةٍ خاصَّةٍ وطابعٍ خاصٍّ في الأدب الإسلاميِّ، تمتاز بقوة العاطفة، ورقَّة الشعور، والدَّفق، والعمق،

www.abulhasanalinadwi.org

والقدرة على الضرب على أوتار القلب ، وإثارة الحبِّ والحنان ، والتفنُّن في الأنغام والألحان ، والحماس الإسلاميِّ ، وشدَّة التعلُّق بشخص النَّبيِّ ﷺ ، وبَلَدَيْهِ المشرَّفين ، والجزيرة العربية الحبيبة ، وابتكار معانٍ وأخيلةٍ وتعبيراتٍ لم يسبق إليها .

وقد أفاد هذه المدرسة الأدبيَّة كون المسلمين في هذه البلاد في قلةٍ دائماً ، وكونهم قد حكموا هذه البلاد ثمانية قرون على الرَّغم من كثرة عدد المحكومين من غير دينهم ، واعتزاز هؤلاء المحكومين الزائد بفلسفاتهم ، وعلومهم التي لا يعدلون بها علماً وفلسفةً ، وحضارتهم القديمة التي يعتبرونها في قمَّة الحضارات القديمة ، وساعدت على ذلك أيضاً عنصرية أهل الهند المتطرِّفة ، التي تنظر إلى المسلمين دائماً أنجاساً أجانب ، وتميِّز ـ حتى في المجتمع الهندوسيِّ ـ بين طبقةٍ وطبقةٍ ، وإنسانٍ وإنسانٍ ، كالتمييز بين أشرف إنسان وأخسِّ حيوانٍ .

أفاد هذا الواقع المسلمين بصفةٍ عامَّةٍ ، والشعراء والأدباء منهم بصفةٍ خاصَّةٍ مميزاتٍ نفسيةً عميقةً ، في مقدمتها قوة الصمود أمام الهجمات والتحدِّيات ـ سياسيةً كانت ، أم فكريَّةً ، وفلسفيةً ، أو أدبيَّةً ـ لأنهم بغير ذلك لا يستطيعون أن يحافظوا على إسلاميَّتهم وبقائهم كأمَّةٍ ذات عقيدةٍ خاصَّة ، وشريعةٍ معيَّنةٍ ، وشخصيةٍ متميِّزة ، وأفادهم ذلك الولاء الزائد للإسلام ، وافتخارهم به ، والتغنِّي بأمجاده ، وأبطاله ، وعظمائه ، وألهمهم ذلك توجيه القريحة الشعرية الأدبيَّة والكتابية ؛ والمقدرة البيانيَّة ، إلى شعر الملاحم الإسلاميَّة ، فنظمت أقوىٰ ملاحم إسلاميَّةٍ شعريَّةٍ[١]

---

(١) من أكبرها «صمصام الإسلام» للسيد عبد الرزاق الحسني ، نظم فيها «فتوح الشام» للواقدي ، في أردو ، وهي منظومةٌ طويلةٌ تشتمل على خمسة وعشرين ألف (٢٥٠٠٠) بيت ، وهي في غاية القوة ، والعذوبة ، وصدق التصوير ، وبراعة التعبير ، كانت تنشد بمناسبات مختلفة في الأسر الإسلامية ، فتحرِّك الحمية الدينية ، وتلهب العاطفة الإسلامية ، راجع مقال «الكتب التي عشت فيها» .

ومنها مزدوجة مدِّ الإسلام وجزره ، المعروف بـ «مسدس حالي» للشاعر الإسلامي الكبير ألطاف حسين «حالي» ، وفيها تصوير العصر الجاهليِّ ، ووصف البعثة =

www.abulhasanalinadwi.org

وأطولها وأجملها في أردو لغة المسلمين ولغة الهند الشعبية الأرقى ، وانتشرت في ربوع الهند انتشاراً لم يعرف لأيِّ منظومةٍ تاريخيَّةٍ ، أو قصصيَّةٍ في بلدٍ من بلاد الإسلام ، وكان لها فضلٌ كبيرٌ ، ودورٌ حاسمٌ في إثارة العاطفة الإسلاميَّة وتنمية النخوة الدِّينيَّة ، وتحمُّل الصدمات العنيفة ، والحوادث العائلية ، والكوارث الفردية في إيمانٍ واحتسابٍ ، فإنَّها تذكر بحكايات البطولات الإسلامية الأولى ، واستماتة المسلمين في سبيل الله ، وما ظهر من البطولات من السيدات المسلمات في بعض المواقف ، ثم تحمُّل المجاهدين الغزاة ، والأسر ، والبيوتات شهادة إخوانهم ، وأبنائهم ، والسيدات بمصاب أزواجهن ، وأبنائهن في صبرٍ ، وشكرٍ ، وإيمانٍ ، واحتسابٍ.

ومن أسباب هذا الواقع الجغرافيِّ التاريخيِّ السياسيِّ تدفّق شعر المديح النبويِّ ، وقوَّته ، وتأثيره ، ورقَّته ، وعذوبته ، فقد ابتكر هؤلاء الشعراء معاني وأخيلةً ، وجاؤوا بنبويَّات لا مثيل لها في الأدب العربيِّ عبر القرون ، فقد ضعف هذا الصنف في الشعر العربيِّ ـ بعد قصيدة بوصيري الميمية ، وبعد نبويَّات سيدي عبد الرحيم البرعي ـ ضعفاً شديداً ، ولا يزال سرُّ هذا موضوع تفكير الباحثين ، وعلماء الأدب ، وعلله بعضهم بالبعد والهجر ، فلها تأثير كبير في تفجير ينابيع القلب والحبِّ ، وتوليد المعاني الغريبة ، وإثارة الكنوز الدفينة ، وقد استعاض كثيرٌ منهم عن الرحلة الطويلة المملوءة بالأخطار في أطول مدَّة قضاها المسلمون ، فقد كان الزمن زمن القراصنة البحريين ، وزمن السفن الشراعية ، والطرق غير آمنة ، والانتقال من مكَّة إلى المدينة لم يكن مأموناً ، وقوافل الحجاج تتعرَّض للخطر والغارة ،

= المحمَّدية ، ووصف صحابة الرسول ﷺ ، وما قاموا به ، وقام به أتباعهم من دورٍ إصلاحيٍّ ثوريٍّ بنَّاءٍ رائعٍ في التاريخ الإنسانيِّ ، وما اتصف به الجيل الإسلاميُّ الأول ، مع ذكر ما أصيب به المسلمون أخيراً في تقهقر وانحطاطٍ ، والمجتمع الإسلاميُّ من تدهورٍ وانتكاس في أسلوب شعريٍّ ساحر.

ومنها «شاهنامه إسلام» للشاعر حفيظ الجالندهري ، وهو في قمة الملاحم الإسلامية المشهورة في شبه القارة الهندية ، وهنَّ الدواوين الشعرية المقبولة الشعبية.

www.abulhasanalinadwi.org

استعاضوا عن كلٍّ ذلك بالشعر والتعبير عن حنينهم ، وأشواقهم ، ولم يزل الشعر بريد القلب والشوق ، وهو الحمام الزاجل الذي لا يزاحمه شيءٌ ، ولا يعوقه شيءٌ ، وإذا امتلأت الكأس طفحت ، وإذا طفحت فاضت ، ولا بدَّ أن يعقب الريَّ السكر ، ولا بدَّ أن يعقب السكر التغني ، وما أجمل ما قاله الشاعر العربيُّ :

سقوني وقالوا لا تغنِّ ولو سقوا جبال سليمى ما سُقِيْتُ لغنَّت

ثم جاء دور الحكم الإنجليزيِّ الغاشم الحاقد على المسلمين ، فقد كانوا منافسهم الأكبر في قيادة الركب الإنسانيِّ وتوجيهه الفكريِّ والحضاريِّ ، وهم الذين قادوا الثورة عليهم سنة ١٨٥٧ م وتولوا كبرها ، وزاد الطِّين بلَّةً والطنبور غنةً الشعور بالحاجة إلى مواجهة الغزو الثقافيِّ العقائديِّ الخلقيِّ والحضاريِّ ، والاستعمار الداخليِّ الباطنيِّ وهو أضرُّ بكثيرٍ من الاستعمار السياسيِّ والإداريِّ ، فنبغ جيلٌ جديدٌ من الأدباء ، والكتَّاب ، والشعراء ، والمؤلفين ، يقبلون هذا التحدِّي ، ويعارضون الحكم الإنجليزيَّ ، وما يحمله من مخططاتٍ رهيبةٍ دقيقةٍ؛ لإنشاء جيلٍ جديدٍ من المثقَّفين ، يحقق مآربهم ، وينفِّذ مخططاتهم ، منسلخٌ عن الإسلام ، بل ثائرٌ عليه مزدرٍ به .

هنالك نهض شعراء عصاميُّون عبقريُّون مثل لسان العصر السيد أكبر حسين «أكبر» الإله آبادي ، والعلامة الدكتور محمد إقبال ، والشاعر المبتكر ظفر علي خان ، فلم ينشؤوا في الجيل المثقف الجديد نخوةً إسلامية فحسب ، بل قوَّة المقاومة للتحدِّيات الجديدة ، وكراهةً للحضارة الوافدة الدخيلة المستعبدة ، وتارةً في أسلوب شعر لاذع متهكِّم ، وتنكيتٍ قارصٍ ، كما فعل أكبر الإله آبادي(١) وطوراً في أسلوبٍ جدِّيٍّ وشعر بليغٍ

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتاب العلامة الندوي «الحضارة الغربية الوافدة ، وأثرها في الجيل المثقف ، كما يراها شاعر الهند الكبير لسان العصر السيد أكبر حسين الإله آبادي» طبع مكتبة الصحوة في القاهرة ومطبعة ندوة العلماء في الهند ، ودار ابن كثير في دمشق ـ بيروت .

www.abulhasanalinadwi.org

يتدفَّق قوةً وحماساً ، ويسيل رقَّةً وعذوبةً ، وقد أحدثت فيهم الثقافة الغربية موجة ردٍّ فعلٍ عنيفةٍ في مشاعرهم وتفكيرهم ، حوَّلت شعرهم إلى شلَّال يتدفَّق بقوَّةٍ ، وينحدر بقوَّةٍ.

وحقيقةٌ تاريخيَّةٌ غريبةٌ أخرى تحتاج إلى دراسةٍ أمينةٍ محايدةٍ ، وتحليلٍ نفسيٍّ تربويٍّ ، أنَّ عدداً كبيراً من الشباب المسلم الذكيِّ من العواصم العربية ذات المركز القياديِّ في العلوم الدينية والآداب الإسلامية يمَّم الغرب ، ومكث في الجامعات الغربية الرئيسية خصوصاً في إنجلترا ، وفرنسا ، لم يرجعوا إلى أوطانهم بالروح الحرَّة المنتقدة الثائرة على أسس الحضارة الغربية ، ومثلها ، وقيمها ، الواعية لأهداف الاستعمار الغربيِّ البعيدة ، ومخططاته الدَّقيقة الرهيبة ، لصياغة الشرق الإسلاميِّ صياغةً غربيةً إلحاديةً ، متنكِّرةً للإسلام ومع ثقة بصلاحية الإسلام لا للبقاء فحسب ، بل للقيادة العالميَّة ، ومع الحماس الزائد للإسلام ، كما كان الشأن مع فيلسوف الشرق وشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، وزعيم حركة الخلافة الأكبر ، وزعيم حركة التحرير الكبير مولانا محمد علي دفين القدس ، ولا أزيد على ذلك بتسمية طائفة من كتاب مصر وسورية والمغرب العربي ، والأدباء والمؤلفين منهم ، والذين كادوا يحتكرون القيادة الفكرية والأدبية في الشرق العربي الإسلامي فترةً غير قصيرةٍ ، وكانوا القدوة والمثل الكامل ، ليس للشباب الجامعي فحسب ، بل للشادين في اللغة العربية ، والنقَّاد والأساتذة ، فإنَّهم معلومون لدى السادة الحاضرين.

أما الدكتور محمد إقبال فاسمحوا لي أن أنقل هنا قطعةً من مقدمتي لـ «روائع إقبال» فإنَّها تصوِّر في قوَّةٍ وإيجازٍ أعظم ما اتصف به من سماتٍ ومميِّزات :

«إنَّ أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو : الطموح ، والحبُّ ، والإيمان ، وقد تجلَّى هذا المزيج الجميل في شعره ، وفي رسالته ، أعظم مما تجلى في شعرٍ معاصرٍ ، ورأيت نفسي قد طبعت على الطموح والحبِّ ، والإيمان ، وهي تندفع اندفاعاً قويّاً إلى كلِّ أدبٍ ورسالةٍ يبعثان الطموح ،

www.abulhasanalinadwi.org

وسموّ النفس ، وبعد النظر ، والحرص على سيادة الإسلام ، وتسخير هذا الكون لصالحه ، والسيطرة على النفس والآفاق ، ويغذيان الحبَّ والعاطفة ، ويبعثان الإيمان بالله ، والإيمان بمحمَّد ﷺ ، وبعبقرية سيرته ، وخلود رسالته ، وعموم إمامته للأجيال البشرية كلِّها .

إنني أحببته ، وشغلت به كشاعر الطموح ، والحبِّ ، والإيمان ، وكشاعرٍ له عقيدةٌ ، ودعوةٌ ورسالةٌ ، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادِّيَّةِ ، وأعظم ناقدٍ لها ، وحاقدٍ عليها ، وكداعية إلى المجد الإسلاميِّ ، وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية ، والقومية الضيقتين ، وأعظم الدُّعاة إلى النزعة الإنسانية ، والجامعة الإسلامية .

وأشهد على نفسي أنِّي كلما قرأت شعره جاش خاطري ، وثارت عواطفي ، وشعرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي ، وبحركةٍ للحماسة الإسلامية في عروقي ، وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري[(١)] .

أما محمَّد علي فقد تجلت عبقريته في مقالاته الإنجليزية التي كان يحلِّي بها صدر صحيفته الأسبوعية الإنجليزية (Lomrade) والتي كانت تعتبر مثالاً بليغاً رائعاً للأدب الإنجليزي المتهكِّم اللاذع ، الذي لا يقدر عليه إلا من تذوَّق اللغة كأبنائها وأدبائها ، فنوع التهكُّم والتنكيت في لغة ، من أدق أنواع الأدب التي يصعب تقليدها ، وكانت مقالاتٌ ملتهبةٌ بالحماس الإسلاميِّ ، والنقد اللاذع للحكم الإنجليزي ، يحرص على قراءتها الحكام الإنجليز ، ويتلقَّفون كلَّ عددٍ بلهفٍ وشوقٍ ، وكذلك افتتاحياته لصحيفة «همدرد» الأردية ؛ التي خلفت «كومريد» فكانت قويَّةً جريئةً ، وله شعرٌ قويٌّ في أردو أبدى فيه عواطفه الإسلامية ، وميوله الجهادية ، والحبَّ للنَّبيِّ ﷺ ، وحبَّ الموت للإسلام ، والشهادة في سبيله ، حفظته الصدور ، وفاضت به الألسنة ، والأقلام .

---

(١) انظر : «روائع إقبال» طبع دار القلم الكويتية ، والمجمع الإسلامي العلمي بندوة العلماء الهند ، وطبع دار ابن كثير بدمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

أما ظفر علي خان منشىء صحيفة «زميندار» السيارة ، فكان من كبار شعراء عصره ، ينظم القصائد الطوال عفو السَّاعة ، فيض الخاطر ، وله اقتدارٌ عجيبٌ على القوافي الصعبة والبحور العويصة ، وشعره حداءٌ مثيرٌ للركب الإسلامي الناعس ، ورجزٌ مطربٌ للجيش الإسلاميِّ المرابط ، يمتاز بجزالة اللفظ ، وحلاوة الجرس ، وتدفُّقٍ كتدفق العين المتفجرة ، وما قاله من شعرٍ في المديح النَّبويِّ من أقوى وأبلغ ما قيل فيه في العصر الذي أدركته ، وقد كانت أعداد صحيفته تُصادر ، وتُمنع بين آونةٍ وأخرى ، وكانت صحيفته تغرم بغراماتٍ باهظةٍ ، وهو لا يمتنع عن النقد اللاذع للحكومة وللهندوس المتطرِّفين المهاجمين للإسلام والمسلمين .

لقد كان للحرب الكونية الثانية (١٩١٤ م ـ ١٩١٨ م) وحملات الحلفاء ، وتضعضع الخلافة العثمانية آثارٌ سيِّئةٌ على البلاد الإسلامية لا سيما الهند الإسلامية التي هبَّ شعبها المسلم يداً واحدةً لمناصرة الخلافة العثمانية ، وتأييد قضيتها ، وجعلها قضية الموت والحياة ، وشغله الشاغل ، وكادت الخلافة العثمانية تنهار أمام الحملات الشرسة التي كان يشنُّها الحلفاء ، دبَّ الحماس في قلوب مسلمي الهند ، واشتعلت العاطفة الإسلامية والجذوة الإيمانية بصفةٍ عامَّة .

هنالك طلع على أفق القيادة الإسلاميَّة ـ فضلاً عن الصَّحافة الإسلاميَّة ـ هلالٌ جديدٌ أصبح بدراً في مدةٍ قريبةٍ ، وهو صحيفة «الهلال» لمولانا أبي كلام آزاد ، زعيم حركة الخلافة الكبير ، ورئيس المؤتمر الوطني العام ، ووزير التربية الأول في الجمهورية الهندية المستقلة ، فكانت مقالاته في هذه الصحيفة في غاية القوة والبلاغة الأدبية ، كأنها تكتب بقلمٍ من نارٍ ، وهو الذي أدخل في اللغة الأردية الكلمات والتعبيرات القرآنية ، فامتزجت بها ، وزادت في قوة اللغة والبيان ، وألفها الأدباء والكتاب ، ويصحُّ أن يقال إنَّه انتهج أسلوباً إسلاميَّاً قرآنيَّاً أدبيَّاً أرديَّاً جديداً ، فكان أدب «الهلال» السحر الحلال ، والماء الزلال ، وفي القوة الشلال النازل من مكانٍ عالٍ .

www.abulhasanalinadwi.org

وكان من حسن حظ الشعب الهنديِّ ، ومن تيسير الله تعالى للدَّعوة الإسلاميَّة والأدب الإسلاميِّ: أنه لم يتجه الشعراء في تلك الفترة اتجاهاً سلبياً ساخراً من الإسلام ، هازئاً بقيمه ، ومثله ، بل كان فحول الشعراء ، وأصحاب المدارس الشعرية المتميِّزة غلب عليهم الإيمان بالله والحبُّ للرسول ، فكان الأئمة للشعر الأرديِّ في الزمن الأخير شعراء مسلمين محتشمين ، عددٌ منهم يلتزمون التزاماً إسلامياً ، في مقدمتهم ، وعلى رأسهم الشاعر فضل الحسن حسرت موهاني ، وشوكت علي فاني بدايوني ، وأصغر كوندوي ، وسيد علي سكندر جكر مراد آبادي ، وخواجه عزيز الحسن مجذوب ، وأمجد الحيدر آبادي ، وحفيظ جالندهري ، وإقبال أحمد سهيل ، وماهر القادري ، وعلي سكندر وجد الأورنك آبادي ، ونشور واحدي[١] وآخرون يطول ذكر أسمائهم ، فلم يبتل الأدب في الهند ما ابتلي به في الشرق العربي بالفوضى الفكرية ، والتحرُّر من جميع القيود والآداب[٢] .

ونبغ بجوارهم كتابٌ في أردو يُعتبرون منشئي مدارس أدبيةً ممتازةً ، وأساليب مرموقةً نموذجيةً ، كلهم إسلاميُّون في فكرهم ، وعقيدتهم ، يجمعون بين الدراسات العميقة الواسعة ، والأفكار الناضجة المختمرة ، والأهداف المعينة الصالحة ، والأقلام الرشيقة البليغة ، نخصُّ بالذكر منهم العلامة السيد سليمان الندوي ، ومولانا عبد السلام الندوي ، والأديب الكبير مولانا عبد الماجد الدريابادي ، ومولانا مناظر أحسن الكيلاني ، ومولانا عبد الباري الندوي ، والشيخ معين الدين الندوي ، والأستاذ خليق أحمد النظامي ، والأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي ، والسيد صباح الدين عبد الرحمن ، وذلك على سبيل المثال والإجمال ، لا الاستيعاب والتقصِّي .

---

(١) الكلمات الأخيرة في الأسماء يتلقبون بها في الشعر على طريقة شعراء الفارسية .

(٢) يستثنى من هذه الكلمة شاعران متحرران من ربقة الدين ، هما : شبير حسن جوش ، وفيض أحمد فيض .

www.abulhasanalinadwi.org

هذا فيما يختصُّ بالكتابة الإسلامية والبحوث العلمية ، أمَّا في مجال التحقيق والدراسات ، والتحليل العلميِّ ، والدراسات المقارنة ، التي قد يكون لها من التأثير على الناشئة ، والشباب المثقف ، ما لا يكون في أكثر الأحيان للأدب والشعر ، فخضوع الفكر والعقلية يكون أكثر عمقاً وأبعد أثراً من خضوع الشعور ، والعاطفة ، والحاسَّة الأدبية ، فقد نبغ في الهند في آخر القرن التاسع عشر المسيحي ، وأوائل القرن العشرين كتَّابٌ محقِّقون ، ومؤرِّخون نوابغ ، دوَّنوا التاريخ الإسلاميَّ ، وأبرزوا السيرة النبوية ، وعرضوا الحضارة الإسلاميَّة ، وأرَّخوا لعددٍ من نوابغ المسلمين ، ومفكريهم ، وقادتهم في أسلوبٍ جذابٍ ، وفي دراسةٍ تاريخيَّةٍ دقيقةٍ واسعةٍ ، وفي تحليلٍ علميٍّ موضوعيٍّ ، وألبسوا كلَّ ذلك ثوباً قشيباً براقاً ، وعنوا بصفةٍ خاصَّةٍ بما وجهه المستشرقون من مطاعن في الإسلام ، واتهاماتهم للمسلمين وما أثاروه من شكوكٍ ، وريبٍ في الشريعة الإسلامية ، وحضارة الإسلام ، وتدوين العلوم الإسلامية ، وتاريخها ، وحول حكام المسلمين ، وسياستهم ، ومواقفهم ، في مقدمتهم وعلى رأسهم العلامة شبلي النعماني صاحب السيرة النبوية المعروفة في مجلدين ضخمين ، وصاحب كتاب «الفاروق» الذي هو من أقوى الكتب التي ألفت في سيرة الخليفة الراشد والحاكم الإسلامي العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، بل عن بطل من أبطال أيِّ أمَّة في أيِّ بلادٍ ، هذا عدا مؤلفاته القيمة عن سيرة الإمام أبي حنيفة النعمان ، وعن سيرة الإمام الغزاليِّ ، ومولانا جلال الدين الروميِّ ، والمأمون الخليفة العباسي ، أما كتاباه: «مكتبة الإسكندرية» و«الجزية في الإسلام» فقد كان لهما فضلٌ كبيرٌ في إزالة مركب النقص عن النفوس الناشئة المسلمة ، وفي إنشاء الاعتزاز بتاريخهم في نفوسهم ، وكذلك كتاب «الانتقاد للتمدُّن الإسلامي» للكاتب المسيحي المعروف جرجي زيدان ، وقد أدى بذلك فرض كفاية عن العلماء المسلمين في العالم الإسلاميِّ ، ليس عن علماء مصر فقط الذين كانوا أحقَّ بذلك ، واعترف بذلك العلامة السيد رشيد رضا الذي نشر هذا الكتاب في مصر.

وقد أكمل هذه السلسلة في البحث الإسلاميِّ وتوَّجها بكتبٍ لا يوجد

www.abulhasanalinadwi.org

نظيرها في المكتبة الإسلامية المعاصرة تلميذه النابغة العلامة السيد سليمان الندوي الذي أكمل السيرة النبوية لأستاذه ، وضمَّ إليها خمسة مجلدات ، أصبحت بها موسوعةً في السيرة النبوية ، وفي علم التوحيد ، والعقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والسياسة ، والمعاملات ، وكتابه الفريد «خطبات مدارس» الذي نقل إلى العربية بعنوان : «الرسالة المحمدية» ، وكتابه «أرض القرآن» يعني أرض النبوات ، و«صلات الهند بالعرب» و«الخيام» و«سيرة أم المؤمنين عائشة» و«الإمام مالك» و«الملاحة عند العرب» ، نموذجٌ من الطراز الأول في التحقيق ، والدراسات الطويلة المضنية ، والمجهود العلميِّ المستنفد للطاقة ، وكلُّه في أسلوبٍ أدبيٍّ بليغٍ ، وكتابةٍ عاليةٍ رشيقةٍ.

ويضاف إلى هذه القائمة المشرقة ، اسم الكاتب الإسلامي الكبير والداعية الشهير الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي ، منشىء الجماعة الإسلامية ، وصاحب الكتابات الإسلامية القوية ، والكتب القيمة ، ككتاب «الجهاد في الإسلام» و«تنقيحات» و«تفهيمات» ورسائل كثيرة أخرى في القضايا الإسلامية المعاصرة ، وهو رئيس تحرير مجلة «ترجمان القرآن» التي كانت مدرسةً فكريَّةً إسلاميَّةً مستقلةً ، وهو صاحب أسلوب خاص يخلو عن الاعتذار والدفاع ، ويمتاز بالثقة ، والاعتزاز مع سلاسةٍ وانسجام ، وتعبيرٍ أدبيٍّ علميٍّ ، هذا مع الاحتفاظ ببعض نقط الخلاف التي لا محلَّ لها هنا.

ومن صنع الله تعالى بالجيل المسلم الصَّاعد بأنَّه قيَّض له في هذه الفترة الحالكة من الحكم الإنجليزي ـ الذي كان يحمل معه منهجاً تعليميَّاً يصوغ الجيل الجديد صياغةً غربيَّةً ـ مؤلفين للكتب الدراسية لتعليم اللغة الأردية ـ المعترف بها رسميَّاً ـ حاذقين ، لبقين ، مسلمين في العقيدة والسلوك ، كان لهم فضلٌ في وقاية الجيل الجديد من الإفلاس الإسلاميِّ الثقافيِّ ، والانحراف الدينيِّ العلميِّ ، وقد أسندت وزارة التربية ولجنة المقررات الدراسية تأليف سلسلة من الكتب لتعليم لغة أردو إلى الأستاذ محمد إسماعيل الميرتهي ، وهو من كبار الأدباء والمؤلفين والشعراء الذين يراعون نفسية الأطفال ، ومداركهم ، ويستطيعون تطعيم اللغة بالدين ، وحبِّ

www.abulhasanalinadwi.org

الأخلاق الفاضلة ، ويقتدرون على الشعر السلس البليغ المحبب للأطفال ، فألَّف سلسلةً من الكتب يبلغ عدد أجزائها إلى سبعة كتب ، كانت كما يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في تاريخ شعراء أردو «كل رعنا» أنه لم توفق وزارة التربية بالهند لتأليف كتبٍ أفضل منها للأطفال ، ولا يزال كثيرٌ من الكتّاب والأدباء والأساتذة في مثل سنِّي ، يحفظون الشيء الكثير من الشعر البليغ المنسجم الذي جاء في هذه السلسلة ، والذي يغرس الإيمان وإجلال الله تعالى وتقدير نعمه ، وحبَّ الأخلاق القويمة في قلوب القرَّاء.

زد إلى ذلك أنَّ أبناء البيوتات ، وكثيراً من أطفال الهنادك في الطبقات الإرستقراطية والمثقفة ، كانوا يدرسون اللغة الفارسية ، وكان من الكتب المقررة للدراسة ، والعمود الفقري في هذا المنهج كتاب «كريما ما مقيمان» و«كلستان» و«بوستان» للشيخ مصلح الدين الشيرازي الملقَّب في الشعر بـ «سعدى» ، وهما من الأدب العالميِّ لتعليم الأطفال ، وتعليم الأخلاق ، والحكم ، وتجارب الحياة في القمة ، وقلَّما ألفت كتبٌ في لغاتٍ أخرى ـ في حد معلوماتنا ـ أرقى أسلوباً ولغةً ، وأكثر تأثيراً في النفوس من الكتابين المذكورين ، وكان لكلِّ ذلك أثرٌ عميقٌ ، باقٍ في نفسية المتعلمين ، أقلُّ مظاهره الاحترام للدين ، ولأهل الفضل ، والاحتشام ، والتماسك.

ويلي كلَّ ذلك مجال الروايات التاريخيَّة ، والقصص الأدبية ، وكلٌّ منا يعرف تأثيرها ، وسحرها على العقول والقلوب ، وقدرتها على قلب الحقائق ، وتصوير القبيح جميلاً ، والجميل قبيحاً ، وقد وفق الله عدداً من الكتاب القديرين والمنشئين المترسلين لتأليف كتبٍ في الروايات التاريخيَّة الإسلامية ، وفي التعليم للسلوك الإنساني الشريف ، والحياة العائلية الكريمة ، وحسن العشرة ، كان في مقدمة كتاب الروايات التاريخية الأديب الكبير الشيخ عبد الحليم «شرر» اللكهنوي ، ومن رؤساء الطبقة الثانية (الكتاب في الحياة العائلية الكريمة وحسن العشرة) الأديب الكبير والعالم الضليع الشيخ نذير أحمد الدهلوي وبعده الأستاذ راشد الخيري ، وكانت لكتبهم رواجٌ كبيرٌ في الأسر المسلمة الواعية.

www.abulhasanalinadwi.org

وهنالك حقيقةٌ تاريخيَّةٌ أخرى لا يمنع الحياء عن تقريرها وتسجيلها ، فإنَّها أمانةٌ تاريخية ، وهي أن من سمات علماء الهند البارزة ، أنَّهم قادوا الحركة الأدبية الإنشائية في شبه القارة الهندية ، وكانوا من الدعائم القوية السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع ، والنثر الفنيِّ بعد ثورة ١٨٥٧ م ، وكان كلُّ واحد منهم مؤسس مدرسةٍ أدبيَّةٍ خاصَّةٍ لا يزال لها أنصارٌ وأتباعٌ ومقلِّدون ، وكان كثيرٌ منهم رائد نشاط جديدٍ في الإنشاء ، والتحرير ، والنقد ، وتاريخ الأدب ، والشعر ، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل ، والعمدة في هذا الموضوع ، فلم يكن في الهند ذلك الفصام النكد بين علوم الدين ، والأدب العصري ، ولغة البلاد ، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء الدين والشادين بالأدب والشِّعر ، والهائمين بهما ، الفجوة التي جنت على الدين والأدب في وقتٍ واحد .

في ضوء هذه الخلفيات والمراحل التي مرَّ بها الشعب المسلم الهنديُّ ، والعوامل التاريخية والنفسية التي خضع لها بحكم الطبيعة وسنة الله تعالى في خلقه ، تكوَّنت مدرسةٌ إسلاميَّةٌ أدبيَّةٌ هنديَّةٌ لها مميزاتها ، وطابعها ، لا يسوغ لمؤلف في تاريخ الأدب العربيِّ والثقافة الإسلاميَّة العامة أن يغضَّ الطرف عنها ، ويبخس حقها ، وبسبب كل ذلك اختلفت نظرة المعنيِّين بالآداب واللغات ، والمدرِّسين والدارسين للغة العربية وآدابها ـ بصفة خاصَّةٍ ـ إلى الأدب العربي وتقويمه ، فلا يستطيعون ـ بحكم ارتباطهم بالإسلام ونظرهم إلى اللغة العربية كلغة القرآن ، والحديث ، والسيرة ، ومفتاح مكتبة الإسلام ـ أن يفصلوا بين الأدب العربيِّ والدِّين ، بل إنهم أصبحوا يعتقدون بعد دراستهم الأمينة المخلصة لثروة اللغة العربية وكنوزها الأدبية : أنَّ الأدب العربيَّ يستمدُّ من الدين القوة ، والحيوية ، والجمال ، والتأثير ، وكما قلت في مقدمة كتابي «مختارات من أدب العرب» :

«وقد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرةٌ أو عقيدةٌ ، ويكتبون لأنفسهم يكتبون إجابةً لنداء ضميرهم ، وعقيدتهم ، مندفعين

www.abulhasanalinadwi.org

منبعثين ، فتشتعل مواهبهم ، ويفيض خاطرهم ، ويتحرَّق قلبهم ، فتنثال عليهم المعاني ، وتطاوعهم الألفاظ ، وتؤثِّر كتابتهم في نفوس قرائهم؛ لأنها خرجت من قلبٍ ، فلا تستقرُّ إلا في قلبٍ»[١] .

كلُّ هذا حمل أبناء هذه الدار التي تلتقون فيها ـ أيها السادة ـ على أن يؤلِّفوا لأطفال المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية في المدارس الهندية مقرراتٍ دراسيةً على هذا المنهج التربوي الإسلامي ، من المرحلة الأولى إلى المرحلة الأخيرة ، من قصصٍ للأطفال ، إلى سلسلةٍ من القراءة العربية ، إلى مجموعات «منثوراتٍ» و«مختاراتٍ» إلى رسائل عرضٍ ونقدٍ ، للأدب العربيِّ ، إلى كتابٍ في تاريخ الأدب العربيِّ (مع إشادة بالمدرسة العربية الهندية) لا يزال في دور التكوين والتأليف .

وبذلك نادى الكتَّاب والباحثون في هذه المؤسسة بالنظر الجديِّ ، والتأمُّل الفاحص في هذا الموضوع ، واستعراض المكتبة العربية من جديدٍ ، ذلك مع عدم إنكار قيمة أدب الفن وأدب التسلية ، والترفيه ، وأدب الغزل ، والمدح ، والذي ظهر لتحقيق أغراضٍ مؤقَّتةٍ شخصيَّةٍ وجماعيَّةٍ ، فلكلٍّ قيمته ، ومكانه الفسيح في مكتبة الأدب وفي قلوبنا ، بل نتمتع به ، ونتذوقه ، ونراه حاجةً من حاجات الحياة ، ومطلباً من مطالب الفطرة البشرية السليمة المرحة ، ولكنها محاولة لإعطاء الأدب الهادف المفيد حقَّه ، وإحلاله المحلَّ اللائق ، والاهتمام به الاهتمام الجدير به .

ونحمد الله على أنَّ هذا النداء لم يكن صيحةً في واد ، ونفخةً في رماد ، ولقد تجاوبت له الأوساط الأدبية في مهد اللغة العربية ، وكبار الأساتذة ، والنقاد في الجامعات العربية ، وقد سبق بعضهم إلى تبنِّي هذه الفكرة واحتضانها ، والدعوة إليها ، نذكر تقريراً للواقع ، واعترافاً بالفضل أساتذة أجلاء ، هم : الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ، ومعالي الشيخ السيد عبد العزيز الرفاعي ، والأستاذ محمد حسن بريغش ، فقد أنشؤوا مكتبةً

---

(١) «مختارات من أدب العرب» ص/ ١٧ ، طبع دار ابن كثير بدمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

عامرةً من قصص التَّاريخ الإسلاميِّ ، وتعريفاً بأبطال المسلمين وزعمائهم ، والمغمورين من الأدباء والشعراء من الطراز الأول ، يستحقُّون بذلك شكر علماء التربية ، وأصحاب الدعوة للفضيلة وعشَّاق الأدب.

وعلى هذه الفكرة والمبدأ ، انعقدت ندوةٌ عالميةٌ للأدب الإسلاميِّ من ١١ ـ ١٣ من جمادى الأخرى ١٤٠١ هـ (١٧ ـ ١٩ من إبريل ١٩٨١ م) في جامعة ندوة العلماء ، حضرها لفيفٌ من كبار الأدباء ، والكتاب ، وأساتذة الأدب العربيِّ في الجامعات السعودية ، والخليج العربي ، ومصر ، وعلى هذه الفكرة ، ولتمديدها ، وتوسيعها ، وترسيخها ، وتدعيمها ، تألَّفت رابطة الأدب الإسلاميِّ في شعبان عام ١٤٠٤ هـ (شهر مايو من ١٩٨٤ م) في مكَّة المكرمة بدعوةٍ من عددٍ من كبار الأساتذة في جامعة الإمام محمد بن سعود ، وجامعة الملك عبد العزيز في الرياض ، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ فها هي الندوة الأولى لهذه الرابطة الحبيبة ، ندعو الله تعالى ، ونرجوه أن تكون بداية عهدٍ جديدٍ ، وانتفاضةٍ أدبيَّةٍ إسلاميَّةٍ في فجر القرن الخامس عشر الهجري ، فيكتب المؤرخون في المستقبل: أنَّه كان قرن النهضة الأدبيَّة الإسلاميَّة ، كما كان قرن الصَّحوة الإسلاميَّة في العالم الإسلاميِّ بالمعنى العامِّ ، وبالله التوفيق.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

دور الإسلام الثوريِّ البنَّاء في مجال العلوم الإنسانيَّة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة القيِّمة في ملتقى الفكر الإسلاميِّ العشرين المنعقد في بلدة «سطيف» في الجزائر في ٢/ سبتمبر ١٩٨٦ م ، حضرها نخبةٌ ممتازةٌ من رجال الفكر والثقافة والبحث والتحقيق من العلماء وأساتذة الفنِّ في العالم الإسلاميِّ.

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله وحده ، والصَّلاة والسَّلام على من لا نبيَّ بعده .

اعتـذارٌ وتـوضـيـحٌ :

أمَّا بعد! فمعذرةً أولاً من استخدام كلمة «الثَّوريِّ» (Revolutionary) عن دور الإسلام في مجال العلوم الإنسانية ، فإنَّ هذه الكلمة قد اقترنت بها سلبيات وتشنُّجاتٌ في غالب الأحيان ، في تاريخ الحكومات ، والحضارات ، والحركات ، والنشاطات ، وهي لا تتَّفق مع إيجابية الإسلام ودوره البنائيِّ الإصلاحيِّ ولا تليق بمصدره (الوحي الإلهيِّ) الذي هو فوق ردود الفعل ، وبعيدٌ عن كلِّ عاطفيَّةٍ وحساسيَّةٍ ، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت : ٤١] .

وقد سوَّغ لنا استخدام هذه الكلمة ـ على تحفظٍ وتفصيلٍ ـ ما يتَّصف به دور الإسلام في مجال العلوم الإنسانيَّة ، والحضارة البشريَّة من القيام بانقلابٍ جذريٍّ شاملٍ ، وعطيَّة إزالة الأنقاض ، واقتلاع الجذور الفاسدة ، والحشائش الطفيليَّة ، من حقل العلم ، والفكر الإنسانيِّ ، وتصحيح المفاهيم ، وتجلية الحقائق ، والبناء الجديد مكان البناء القديم في عالم العلم والعقل .

الحاجة إلى استعراض العالم القديم عقائديَّاً ، وعقليَّاً ، وخلقيَّاً :

إنه لا يمكن تقدير قيمة دور الإسلام الثوريِّ البنَّاء حتى إلى حدٍّ محدودٍ والإنصاف له بعض الإنصاف ، والشعور بضخامة عمله بعض الشعور ، وفهم الصعوبات والعوائق التي اعترضت له في تحقيق أهدافه وإكمال مهمَّته ، إلا إذا استعرضنا العالم القديم ، الذي جاء فيه الإسلام يحمل رسالته للبشرية ، وإلا إذا ألقينا بعض الأضواء على الشعوب الرائدة العملاقة

www.abulhasanalinadwi.org

التي قادت العالم القديم علميّاً ، وعقليّاً ، وعقائدياً ، بين ٥٠٠ ق م إلى ٥٠٠ م[١] .

يونان القديمة ، ودورها القياديُّ الساحر في عالم العلم والعقل :

وفي مقدمة هذه الشعوب الرائدة ، والمدارس العلمية والفكرية الموجِّهة للعالم كلِّه ، والسيطرة على العقول في العالم المتحضِّر بين رومة في الغرب ، وباتلي بترا (بتنه) في الشرق ، هي «يونان» ، ولا نعرف في التاريخ شعباً تمتَّع بإجلالٍ وتقديرٍ ، وإخضاعٍ وتسخيرٍ في الأوساط العلميَّة والفكريَّة ، وبقي محتفظاً بالهيمنة على العقول والقرائح ، والنشاطات العلمية إلى حدِّ التقديس ، واعتقاد العصمة من الخطأ لأطول مدَّةٍ في التاريخ ، وأفسح مساحةٍ في الجغرافية ، وأوسع إطارٍ من العلوم والآداب ، بفهمٍ ووعيٍ ، أو في دهشةٍ وانهيار ، مثل ما تمتع به اليونان .

وإلى القراء بعض الشهادات التاريخية ، واعترافات بعض الباحثين والفضلاء : يقول صاحب مقال «إلى أيِّ حدٍّ يدين العالم ليونان؟» (H. A. L. Fisher في التاريخ العامِّ للعالم (Universal History of the World) .

«إنَّ منبع الحضارة الأوربية في الحقيقة هو يونان القديمة ، إنَّ مفكريها وفنَّانيها قد بحثوا عن الإنسان في روائع فنِّهم ، وحلُّوا لغزة الطبيعة ، وعبَّروا عن الجمال ، وليست هذه الحقيقة الواضحة في حاجةٍ إلى تفصيل. إنَّ جميع فروع العلم سواءً كانت ذات صلة بالعلوم الرياضية والطب ، أو بأيِّ فرعٍ من فروع الفلسفة ، أو المنطق ، أو بالأخلاق ، وعلم النفس ، أو بفرعٍ من فروع الأدب ترجع أصولها إلى اليونان ، وإن صرفنا النظر عن النظريات

---

(١) وذلك دور ازدهار الفلسفة اليونانية ، فإنَّ سقراط ولد ٤٦٩ ق م ، وعاش إلى عام ٣٩٩ ق م ، وولد أفلاطون ٤٢٧ ق م ، وأرسطو ٣٨٥ ق م ،
وبقيت المدرسة الإغريقيَّة ـ في الفلسفة ، والمنطق ، والعلوم الرياضية والطب والأدب ـ هي القدوة والموجِّهة بطريقٍ مباشر للمدارس الفكرية والأدبية في الغرب والشرق ، إلى القرن السادس المسيحي ، وبعده عن طريق التراجم قروناً متطاولةً حين تكفلَ العرب والفرس بنقل أفكارها ، وتدريس علومها ، وآدابها .

www.abulhasanalinadwi.org

التعليمية المنسوبة إلى أفلاطون وأرسطو ، فإنَّ بعض المصطلحات العلمية التي لا تزال منتشرةً إلى الآن وعليها الاعتماد ، مثل «Alphabet» (الألفباء) «School» (المدرسة) و«Pedagogy» (علم أصول التدريس) ، هي يونانية اللغة والتعبير ، تكفي للدلالة على أنَّ أهل يونان كانوا هم الأدلَّاء على العلم والفنِّ ، المنيرين لسبلها[١] .

ويقول الفاضل الغربي (W. G. De Burgh) في كتابه «تراث العالم القديم» (The legacy of the ancient world) :

«لم يفهم شعبٌ حقائق الحياة والعلم إلى هذا المدى من وضوح البصيرة ونقائها ، ولم يعبر عنها في هذه الدقة كما استطاع ذلك الشعب الإغريقي ، إنَّ ذكاءه المحيِّر للعقول مكّنه من عرض العلم والعمل عن طريق الكلمات والتعبيرات الفلسفية إلى درجةٍ اعتمدت الأجيال المتأخرة على الأسس التي أرساها اليونان ، بل أصبحت مدينةً لها ، معترفةً بفضلها في إنشاء مؤسساتها العلمية والفكرية على هذه الأسس»[٢] .

الهند القديمة ومكانتها في الفلسفة والعلوم الرياضية :

ويلي اليونان الهند القديمة ، ولو صرفنا النظر عما يدَّعيه بعض الغلاة من المؤلفين في تمجيد الهند علمياً ، وردِّ كلِّ عظمةٍ وعبقريةٍ إليها ، فيقولون : إن فلاسفة الهند ورياضييها كانوا أساتذة اليونان في الفلسفة ، والعلوم الرياضية ، والطب ، تتلمذ عليهم علماءُ يونان ، واقتبسوا عنهم العلوم ، فلا شكَّ أنَّ الهند تلي يونان في البراعة والتفوق في الفلسفة ، والعلوم الرياضية ، والطب .

يقول الفاضل (Cyril Henry Philips) (أستاذ التاريخ الشرقي في جامعة لندن) في مقالٍ له جاء في دائرة المعارف البريطانية (Encylopedia óBritannica) :

«إن مأثرة الهند الكبرى ظهرت في المجالات الفكرية والحضارية . إنَّ

(١) Universal history of the world London'vol-lllp. 1555.

(٢) The Legacy of the anccient world'London- 1947 p. 117.

www.abulhasanalinadwi.org

نظامهم الفلسفيّ ، والدِّينيّ ، والأدب السنسكريتيّ أولُ انتصارٍ للعقل الإنسانيّ . إنَّ عبقريتهم تجلَّت في ميدان قواعد الصرف ، والنحو ، والقانون ، والفنِّ المعماريِّ ، وصنع التماثيل ، والتصوير ، والموسيقا ، والفنون الجميلة ، والصنائع اليدويَّة ، وصنع المعادن ، والتطريز ، وصوغ الحلي ، واستخدام العاج والخشب في المصنوعات والزخارف ، والهند هي التي كشفت الأرقام إلى رقم ٩ ، واهتدت إلى فنِّ العدد ، والأرقام بإضافة صفر (٠) بعد رقم ٩»[١] .

وجاء في دائرة المعارف لتاريخ العالم ، للمشرف عليها William L. Langer وهو يتحدَّث عن دور الهند بين ٣٢٠ م إلى ٥٣٥ م :

«لقد نشطت الحركة الأدبيَّة ، وتضخمَّ الإنتاج الأدبيُّ في هذا العهد ، ونبغ شاعر ككالي داس ، اشتهرت قصصه ، وتمثيلياته ، ونقلت إلى عدَّة لغات .

وقد تقدَّمت فنونٌ مختلفةٌ في هذا العهد تقدُّماً كبيراً ، مثل الفنِّ المعماريِّ ، والتصوير ، والنقش ، والطبِّ ، أمَّا العلوم فقد وُضعت أصول الهيئة ، والرياضيات ، وعلم الجبر (Algebra) والهندسة ، وقد ادَّعى عالم هنديٌّ من علماء الهيئة اسمه : آرية بهت (Arya Bhat) دوران الأرض»[٢] .

إيران في سعة مملكتها وفي أوج حضارتها :

ويلي يونان والهند إيران ، فكانت أعظم من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ـ بعد انشقاقها عن الإمبراطورية الرومانية الكبرى ـ مساحةً ، وأبَّهةً ، وثروة ـ وقد تأسست على يد «أردشير» في سنة ٢٢٤ م ، وكانت تحكم حين بلغت أوجها ، أسيرية ، وخوزستان ، وميديه ، وفارس ، وآذربائيجان ، وطبرستان ، وسرخس ، وجرجان ، وكرمان ، ومرو ، وبلخ ، وسغد ، وسيستان ، وهرات ، وخراسان ، وخوارزم ، من فارس القديمة ، والعراق ، واليمن من الجزيرة العربية ، وقد دخلت بعض

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ، ج/ ١٤ ، طبع ١٩٨٥ م Encyclpedia Britannica.

(٢) An Ecyclopedia of world history, by willlam L- Langer.p. 140.

www.abulhasanalinadwi.org

ولايات الهند مثل كجه ، وكاتيهاوار ، ومالوه ، في حكمها في بعض الفترات ، وقد اتسعت هذه الإمبراطورية اتّساعاً كبيراً منذ القرن الرابع المسيحي ، وقد أوغلت في الشمال والشرق ، وبلغت إلى أقصى حدودها .

وقد كانت طيسيفون (المداين) عاصمة الإمبراطورية ومقرّ الإمبراطور الإيراني ، وكان مجموع مداين كما يبدو من اسمها العربي ، وقد بلغت أوجها في الرقيّ والمدنية والبذخ ، في القرن الخامس إلى ما بعد»[١] .

وقد كانت إيران مأخوذةً بسحر يونان في العلوم العقلية ، والرياضية ، متطفلةً عليها ، يقول الأستاذ آرتهر كرستن سين الدينماركي (Christensen, A.) في كتابه «إيران في عهد الساسانيين» :

«إنَّ الفكرة اليونانية بما فيها من عقائد ، ونظرياتٍ أحدثت توافقاً بين الديانات المختلفة في غربي إيران ، وبصفة عامَّةٍ على تخوم آسيا الغربية»[٢] .

ويقول Percy Sykes في كتابه «تاريخ فارس» (A History of Persia) وهو يتحدث عن التأثير اليوناني في إيران :

«إن نوشيروان طالع كتب أرسطو ، وأفلاطون التي نقلت بأمره إلى الفارسية وإنَّه أنشأ في جند يسابور (خوزستان) جامعةً كانت تعنى بتدريس الطبِّ عنايةً خاصَّةً ، من غير أن تصرف النظر عن الفلسفة ، والعلوم الأخرى ، ودوَّن تاريخ إيران المعلوم في كتاب بنى عليه الفردوسي ملحمته الشهيرة ، واستورد من الهند كتاب هو السابق على حكايات لقمان ، كذلك لعب الشطرنج .

---

(١) راجع للتفصيل «إيران في عهد الساسانيين» للبروفيسور آرتهر كرستن سين (Christensen' A.) .

(٢) أيضاً ، ص/ ٣٧ .

www.abulhasanalinadwi.org

لقد أصبحت إيران في هذا العهد محلاًّ رئيسياً لتبادل الأفكار بين الشرق والغرب»(١).

ويقول العلامة الدكتور محمد إقبال في كتابه «فلسفة العجم»:

«إنَّ الفلسفة اليونانية التي كانت نبتةً أجنبيةً لأرض إيران، أصبحت جزءاً لا ينفكُّ من الفكر الإيرانيِّ، وأصبح المفكرون الذين جاؤوا في العصور الأخيرة ـ بما فيهم من نقاد ـ يتكلَّمون في لغة أرسطو، وأفلاطون، وكانوا خاضعين مع ذلك للأفكار الدينيَّة القديمة»(٢).

تناقضات عجيبة في حياة الشعوب الثلاثة القائدة للعالم:

وبعد هذا الاستعراض الوجيز للوضع العقليِّ الفلسفيِّ، والعلميِّ الفنيِّ السائد على أرقى شعوب العالم القديم، في القرون التي سبقت ظهور الإسلام، وتصوير القمة التي وصلت إليها هذه الشعوب، والمدارس الفكرية القائدة للشعوب، والمجتمعات البشرية التي كانت تعيش على فتات مائدتهم، وتتناول كلَّما تقدمه إليهم هذه المدارس ـ بمعناها الواسع ـ من نظرياتٍ علميَّةٍ، ونتائج بحثٍ، وتأملاتٍ كنهاية للعلم والذكاء، وكأمورٍ بديهيَّةٍ في بعض الأحيان، لا تتَّسع للبحث والنقاش نبحث عن بعض مواضع الضعف، وعن تناقضاتٍ في حياتها العقلية، والثقافية، ونظام تفكيرها، وسلوكها، وما لا يتفق مع هذا السموِّ العقليِّ والتحليق الفكريِّ، وفتوحها العلمية البعيدة، وإنجازاتها وانتصارتها الباهرة للعقول في مجالات العلوم الإنسانيَّة.

مجموع أساطير (الميثالوجية) عند اليونان:

فمن أكبر تناقضات العقل البشريِّ، بل من أكبر تناقضات التاريخ العقائديِّ والثقافيِّ ما عرفت به يونان من التسفُّل فيما يتصل بمعرفة فاطر هذا الكون، ومدبِّره، وذاته، وصفاته، وفي العقائد الدينية، والإلهيَّات،

---

(١) Ahistory of persia by percy sykes. p. 459 London.

(٢) The Development of metaphysics in persia, p. 15.

www.abulhasanalinadwi.org

فقد تبين من تاريخ اليونان القديم ، أنَّ يونان التي منحت العالم تراثاً واسعاً من العلوم الطبيعية والرِّياضيَّة ، وتولَّت قيادة الدول العقليَّة والفكريَّة لآلافٍ من السنين ، (كما تقدم في السطور الماضية) ظلَّت تعبد الكواكب والأصنام في معظم أجزاء تاريخها ، وكانت فريسةَ الأوهام ، والخرافات الكثيرة ، وكان عندها استعدادٌ عجيبٌ ـ بجوار استقلالها الفكريِّ ، وعدم خضوعها للمسلمات القديمة من غير بحثٍ ونقاشٍ ، وعرضها على محكِّ العقل والنقد ـ لقبول كلِّ غريبٍ ومنافٍ للعقل ، وما كان من نسج الخيال ، إذا كان ذا صلةٍ بالعقيدة ، والديانة الشعبية القديمة .

إنَّ التاريخ الجديد قد أزاح الستار عن وجه علم الأصنام (Mythology) في اليونان ، ووثنيتها القديمة ، فقد تحقَّق أنَّ يونان القديمة كانت ترزح تحت نير الآلهة والإلهات ، ومعابد الكواكب ، وهياكلها[١] .

يقول الدكتور الفرد ويبر (Alfred Weber) في كتابه «تاريخ الفلسفة» وهو يتحدث عن يونان القديمة :

«وبالضبط كما أنَّ طفلاً يجعل محيطه عالماً طلسمياً ، ويعتبر لعبه التي يلعب بها ، وحصانه الخشبيَّ كائناتٍ حيَّةٍ ، كذلك يكون النوع البشري في

(١) وقد غفل عن هذه الحقيقة التاريخية كثيرٌ من المتكلمين المسلمين الذين أعطوا الفلسفة اليونانية أكثر مما تستحقُّ من التقدير والإجلال ، وصاروا يبحثون في قضاياها كقضايا علمية ، وقد نبه على هذه النكتة العلامة السيد سليمان الندوي ؛ إذ قال :
«وعلى كلِّ حالٍ فالفلسفة التي تلقاها المسلمون على أيدي الناقلين من يهود ونصارى لم تكن صافيةً محصنةً ، فإنها كانت مشوبةً بآرائهم ، وأوهن بيوت الفلسفة فلكياتها وإلهياتها ، فليست أولاهما إلا تأويل ما كان يعتقده اليونان في تأله الكواكب ، وأساطيرها ، فجعلوها فلسفةً وعبَّروها بكلماتٍ فلسفيةٍ ، ولم يجدوا لها سلطاناً من البرهان غير نزر يسير من الأوهام ، كالقول بالأفلاك وحركاتها ، وطبائعها ، ونفوسها ، وتأثيرها في القوى» (الجزء الثالث من كتاب «المعتبر في الحكمة الإلهية» لأبي البركات هبة الله بن علي البغدادي (م ٥٤٧ هـ) «مقالة العلاَّمة السيد سليمان الندوي» ص/ ٢٣١) .

www.abulhasanalinadwi.org

طفولته الطبيعة خاضعاً لتصوراته ، وأهوائه «وذلك شأن يونان في العهد القديم»[١] .

«إنَّ الفلسفة لم تخلع عنها لباس الأساطير ، والخرافات (Mythology) في وقتٍ قريبٍ. إنَّ الفلسفة ظلت تعبر عن أفكارها في لغة الشعر الغنائية ، ولم تزل محافظة على نقائص العقائد الدينية التي انبثقت عنها»[٢] .

ويقول الفاضل الألماني الدكتور ويلهم وينسل (Wilhelm Vansel) في كتابه «مختصر تاريخ فلسفة يونان» :

«إنَّ اليونانيين كانت العبادة في حياتهم أكثر من الثقافة والعقائد ، لذلك لم يكن عندهم نظامٌ معترفٌ به من العقائد ، لقد ورثوا ميثالوجية قديمةً كانت تقبل التغير ، والتطور على حسب الأزمنة والأدوار ، وكانت تخييلات الأوهام والشعراء لا تزال تغير هيئتها»[٣] .

ويقول الفاضل أدولف هولم (Adilf Holm) في كتابه «تاريخ يونان» :

«كان اليونان بطبيعتهم مغرمين بالطرافة ، وحبِّ كل شيءٍ جديدٍ ، ولم يكن في دينهم نصيبٌ للعقائد الثابتة»[٤] .

انتباه بعض كبار علماء الإسلام لهذه الحقيقة :

وقد أحسن حجّة الإسلام الإمام الغزاليُّ (م ٥٠٥ هـ) وصف هذا التناقض العجيب في مدارك العقلاء الأذكياء اليونانيين ، فيقول في حديثه عن آراء الفلاسفة اليونانيين فيما يتصل بالذّات الإلهية وصفاتها ، وما صنفوه من نسب العقول والأفلاك :

«قلنا ما ذكرتموه تحكماتٌ ، وهيَ ـ على التحقيق ـ ظلماتٌ فوق ظلماتٍ ، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستُدلَّ على سوء مزاجه ، أو لو رد

---

(١) تاريخ الفلسفة ص/ ٨.
(٢) تاريخ الفلسفة ، ص/ ١١.
(٣) أيضاً ، ص/ ١٤.
(٤) تاريخ يونان ، ج/ ٢ ، تأليف أدولف هولم ص/ ٣٧٢.

www.abulhasanalinadwi.org

جنسه في الفقهيات ـ التي قصارى المطلب فيها تخمينات ـ لقيل: إنها ترَّهاتٌ، لا تفيد غلبات الظنون»(١).

وقال في موضع آخر:

«لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع فضلاً عن العقلاء الذين يشقُّون الشعر بزعمهم في المعقولات»(٢).

وقد تفطَّن لهذه النكتة شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية (م ٧٢٨ هـ) فقال:

«وأما معرفة الله تعالى فحظُّهم (يعني اليونانيين) منها مبخوسٌ جدَّاً، وأما ملائكته، وكتبه، ورسله، فلا يعرفون ذلك البتة، ولم يتكلموا فيه لا بنفي ولا بإثباتٍ، وإنما تكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل»(٣).

السرُّ في اضطراب اليونان العقليِّ والعقديِّ:

وقد ذكر أحد العلماء المسيحيين الأدباء السرَّ في هذا الاضطراب العقلي، والتناقض في حياة اليونان، يقول جرجي زيدان:

«أخذ اليونان بأهداب الفلسفة والعلم على أثر الحروب اليونانية الداخلية فإنها توالت ٢٧ سنة، وفي نهايتها دخلت أثينا في حوزة المقدونيين، وأصبح الأثينيون بعد العزِّ أذلاَّء، فساقتهم العبرة، والمذلة إلى النظر في الوجود، فنهضوا نهضة فلسفيةً، زعيمها وواضع أساسها سقراط، والحروب يغلب أن يعقبها نهضةٌ أدبيةٌ، أو علميَّةٌ، أو سياسيَّةٌ على ما قررناه في غير هذا المكان.. وإن كانوا قد تنبهوا إلى شيءٍ من ذلك قبلاً.

فلما أصيبت أثينا بالذلِّ بعد تلك العظمة، أصاب أهلها اضطراب وانكسار، والإنسان إذا أصيب بنكبة لا حيلة له في دفعها اشتغل عنها

---

(١) تهافت الفلاسفة، ص/ ١١٥.
(٢) أيضاً، ص/ ١٢٤.
(٣) تفسير سورة الإخلاص، ص/ ٥٧.

www.abulhasanalinadwi.org

بالتعليلات الفلسفية عن الوجود ، وأصله ، ليخفِّف وطأة تلك المصيبة عليه ، وخصوصاً في مثل ما أصيبت به أثينا بعد عزِّها ، ورفعة شأنها ، وأصبح أهلها بعد سقوطها يتلفتون إلى الوراء آسفين، وينظرون إلى الأمام خائفين ، وقد ذهبت أسباب مفاخرتهم القديمة ، ولم تنتظم حكومتهم الجديدة .

فتنبهت أذهانهم ، وانصرفت قرائحهم إلى النظر في شؤون الإنسان على الجملة ، وشؤونهم على الخصوص ، فكانت وجهت تلك النهضة الأدب والفلسفة ، ودخل القرن الرابع قبل الميلاد ، والناس يتناقلون آراء بعض المتقدمين من العلماء على ما يوافق أحوالهم، ونفوسهم تشتاق إلى الزيادة»[١] .

علم الأصنام (الميثالوجية الهندية) وكثرة الآلهة والإلهات في الهند :

أما الهند التي فاقت في الفلسفة والعلوم الرياضية والطب ، وكانت تلْوَ يونان كما قدَّمنا ، فقد امتازت في ميثالوجيتها الوثنية (علم الأساطير) وأمعنت فيها ، حتى صارت فيها إماماً ، وقدوةً لما حولها من البلاد ، وامتازت بكثرة المعبودات ، والآلهة ، والإلهات ، وقد أصبح كلُّ شيءٍ رائعٌ ، وكلُّ شيءٍ هائلٌ ، وكلُّ شيءٍ نافعٌ إلهاً يعبد ، وارتقت صناعة نحت التماثيل ، وتأنق فيها المتأنقون .

يقول الأستاذ الهندوكي الفاضل L. S. S. O. Malley في كتابه «الهندوكية السائدة (دين الجماهير)» :

«إنَّ عملية خلق الآلهة ، لم تنته على هذا ، فلن تزل تنضمُّ آلهةٌ صغيرةٌ في فتراتٍ تاريخيَّةٍ مختلفةٍ إلى هذا «المجمع الإلهي» في عددٍ كبيرٍ ، حتى أصبح منهم حشدٌ يفوق الحدَّ والإحصاء ، كان كثيرٌ منهم آلهةَ سكان الهند

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ، ج/ ٢ ، لجرجي زيدان ، ص/ ٣٣٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

القدامى ، أُلحقوا بآلهة الديانة الهندوكية ، يُذكر أنَّ عدد هؤلاء الآلهة قد بلغ ٣٣٠ مليون»(١).

ويقول الأستاذ Vaidya C. V. في كتابه «تاريخ الهند الوسطى» :

«كانت الديانة الهندوكية ، والديانة البوذية ، وثنيتين سواءً بسواءٍ ، بل ربما كانت الديانة البوذية قد فاقت الديانة الهندوكية في الإغراق في الوثنية ، كان ابتداءُ هذه الديانة ـ البوذية ـ بنفي الإله ، ولكنّها بتدريجٍ جعلت بوذا الإله الأكبر ، ثم أضافت إليه آلهةً أخرى على مرِّ الزمن»(٢).

التطرف الإيراني العقائدي :

أمَّا الإيرانيون فقد دانوا بالوثنية في كلِّ عصرٍ ، وأصبح ذلك شعاراً لهم ، وآمنوا بإلهين اثنين ، أحدهما : النور ، أو إله الخير ، ويسمونه «آهورمزدا» أو «يزدان» ، والثاني : الظلام ، أو إله الشر ، وهو «أهرمن» ، ولا يزال الصراع بينهما قائماً ، والحرب دائمة(٣).

يذكر المؤرخون للديانة الإيرانية مجموعةَ أساطير متصلةً بالآلهة Mythology لا تقلُّ في غرابتها وتفاصيلها الدقيقة عن الميثولوجيا الإغريقي ، أو الهندي(٤).

وقد عُرف المجوس من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية ، أعظمها النار ، وقد عكفوا على عبادتها أخيراً ، يبنون لها هياكل ومعابد ، وانتشرت بيوت النار هذه في طول البلاد وعرضها ، وكانت لها آدابٌ وشرائع دقيقة ، وانقرضت كلُّ عقيدةٍ وديانةٍ غير عبادة النار ، وتقديس الشمس ، وأصبحت الديانة عندهم عبارةً عن طقوسٍ وتقاليد يؤدُّونها في أمكنةٍ خاصَّةٍ ، أما خارج

---

(١) L.S.S.O.,Malley, C.I E I.,I. CS., Popular H ndu Ism, The Religion of The Masses, (Cambridge, 1935) pp.6-7.

(٢) C.V. Vaidya: History Of Mediaeval India, Vol.l Poona 1921.

(٣) اقرأ كتاب «إيران في عهد الساسانيين» للبروفيسور آرتهر كرستن سين (Christensen, A.:) باب ، الدين الزرتشي ، ديانة الحكومة ، ص/ ١٨٣ ـ ٣٣٣.

(٤) أيضاً ، ص/ ٢٠٤ ـ ٢٠٩.

www.abulhasanalinadwi.org

المعابد فكانوا أحراراً ، يسيرون على هواهم ، وما تملي عليهم نفوسهم ، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين من لا دين لهم ، ولا خلاق في الأعمال والأخلاق»[١] .

ويقول الأستاذ آرتهر كرستن سين وهو يحكي عن ديانة إيران :

«إنَّ ديانة الآريين القديمة (ومنهم أهل إيران) كانت مؤسسة على عبادة العناصر والأجسام الفلكية والقوى الطبعية ، ولكن سرعان ما أضيفت آلهةٌ جديدة إلى آلهة القوى الطبعية ، كانت تمثل القوى الخلقية ، أو كانت تماثيل للتصورات الذِّهنية»[٢] .

ويذكر المؤرخون للديانة الإيرانية مجموعة أساطير متصلة بالآلهة (Mythology) لا تقل في غرابتها وتفاصيلها عن الميثالوجية الإغريقية ، أو الهندية .

وقد أحسن العلامة الدكتور محمد إقبال في وصف طبيعة الإيرانيين القلقة المضطربة؛ التي تجلت في حياتهم ، من مجال العقيدة ، والديانة ، إلى الشعر ، والأدب .

يقول :

«إن تخيُّل الإيرانيين كان كفراشةٍ دائمة الحركة والطيران ، تنتقل ـ في حالة شبيهة بسكرٍ وطرب ـ من زهرةٍ إلى زهرةٍ أخرى ، وتعجز عن تصور الحديقة تصوراً جامعاً شاملاً ، لذلك ظهرت أفكارهم الممعنة في العمق ، وعواطفهم الجيَّاشة ، في أبياتٍ لا يربطها نظام ، وتجلت في النسيب والغزل الذي ينمُّ عن الرقة والدقة»[٣] .

التفسخ الخلقي والانحلال الاجتماعي في مراكز العلوم والحكمة :

والمأخذ الثاني في حياة الشعوب والبلاد الثلاثة التي اتصفت بالعبقرية

---

(١) أيضاً ، ص/ ٣٠.

(٢) «إيران في عهد الساسانيين» ، ص/ ٣٠ .

(٣) The Development Of Metaphysics In Persia, pp.13-14.

www.abulhasanalinadwi.org

الفكريّة ، والإبداع الفنيّ ، بالنسبة إلى الأمم المعاصرة ، والبلاد المجاورة ، وقادت العالم المفتوح علميّاً وفكريّاً ، أو المأخوذ بسحرها (وهي: يونان ، والهند ، وإيران) نحو التدهور الخلقيّ ، والخضوع الزائد للغريزة الجنسية ، والدوافع الجامحة ، فكانت على طرفي نقيضٍ من السموّ العقليّ والتدنّي الخلقي ، لا تمنعها من ذلك التأملات الفلسفية ، ولا اللذة بالفتوح العلمية ، ولا المثل ، والقيم الخلقيّة .

في يونان:

أما يونان فتكفي عنها شهادة مؤرخ أخلاق أوربا الشهيرليكي (Lecky W. E. H.) يقول في كتابه الشهير «تاريخ أخلاق أوربا» (Histry Of European Morals):

«مما يقضي منه العجب (فيما يتصل بالحياة في اليونان القديمة) أنّ الخضوع للغريزة الجنسية ، والانسياق مع الأهواء والشهوات ، كان في أوجه ، وقد بلغ القمة تحت سمع حكماء الأخلاق وبصرهم ، بل الأصحُّ: أنّه قد بلغ القمّة في ظل احتضانهم ، وإشرافهم ، فإذا روى لنا أحدٌ أنّ كبار أساقفة باريس المتديّنين كانوا جالسين في غرفة المومسة الفرنسية الشهيرة «نيتادى انكلو» يشيرون عليها بما يساعدها على نجاح مهنتها وازدهارها ، فلا يوجد من يصدِّق هذه الرواية ولكن الحقيقة التاريخية أن نفس هذه الصلة (الآثمة) كانت قائمةً بين سقراط الكبير ، والمومسة اليونانية الشهيرة تهيودونا»[١] .

ويقول في موضع آخر:

«إنّ تشكيك الفلاسفة قد استأصل الديانات القديمة ، وقد اكتسح البلاد (اليونان) سيلٌ من الترف الشرقيّ ، والتدهور الخلقيّ ، وقد انتشرت في هذا

---

(١) History of Eurobean Morals By Lecky, W.E.H. Newyork-1855,pp; 175-176.

www.abulhasanalinadwi.org

الوضع وقائع البغاء، والفجور انتشاراً كبيراً، وكثر عددها إلى حدٍّ هائلٍ»[١].

ويروي التاريخ الموثوق به عن أرسطو وصلاته الأثيمة ببعض المومسات اليونانية، وكذلك عن أفلاطون وصلاته بالمومسات والغلمان، ويحكي رواياتٍ عن كبار فلاسفة اليونان مثل سقراط، وأفلاطون، من الدعارة والشذوذ الجنسيّ، وحماية البغاء الرسميّ، وتبريره ما يندى له جبين الحياء، ويحمرُّ له وجه الأدب، ويصعب على الباحث في موضوع جدّيٍّ مثل هذا الموضوع الذي له صلةٌ بالدِّيانة والأخلاق، ودور الإسلام الإصلاحي التربوي، أن ينقل هذه الشهادات، فيحيل القارىء على مصدرها الكبير[٢].

في الهند:

أما الهند فقد اتفقت كلمة المؤرخين على أنَّ المجتمع الهنديَّ كان قد بلغ درجة الانهيار الخلقيِّ في مستهل القرن السادس الميلادي[٣] فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد، وأصبحت لا عيب فيها، لأنَّ الدين قد أضفى عليها لوناً من القدس، والتعبد[٤].

ويقول فاضل هندوكي «ويديا دهر مهاجن»:

كان الجماهير في الهند (في القرن السادس المسيحي) يتهرَّبون من أعمال شاقة وكدح، وكانوا يصرفون أوقاتهم في الاستهتار، وخلع العذار، وقد راجت في تلك الفترة ديانة «واماركي» في العامة، التي كان مبدؤها: «كلوا واشربوا واقضوا حياتكم في صفاءٍ وسرور» (Eat Drink And Be Marry) فكانوا يعيشون على شرب الخمور، والتمتُّع بالغيد، والغواني.

---

(١) أيضاً، ج/ ٢، ص ١٩٢.

(٢) Hans Licht, Sexuel Life In Ancient Greece, London 1942.

(٣) راجع «الهند القديمة» ج/ ٣، لمؤلفه R.C. Dutt.

(٤) ستيارته بركاش، لديانند سرسوتي، ص/ ٣٤٤.

www.abulhasanalinadwi.org

وقد تسرَّبت هذه القبائح إلى المدارس ، وأصبحت المعابد والزوايا مسرحاً للكسل والترف ، وكان أكثر كهنتها يعيشون حياةً داعرةً ، وكان فيها عددٌ كبيرٌ من البنات والشابات اللاتي لم يتزوجن ، انتشرت بسببهن الخلاعة ، وحياة الفجور ، كذلك وجود الراهبات في المعابد اللاتي نذرن حياتهن لهذه المعابد وكهانها ، قد سبب فوضى خلقيةً هائلةً ، وفي ذلك العهد ظهر أدب خليع يسمى بـ «Tantrik» كان له أثرٌ عميقٌ في الأخلاق(١) .

فـي إيــران :

أما إيران فقد كانت مسرحاً بارزاً لتضعضع أسس الأخلاق والفضيلة وذوبانها ، وقد شاع التمتُّع بالحياة ، وانتهاب المسرَّات إلى حدٍ بعيد ، وقد ظهر مزدك في أوائل القرن الخامس المسيحي ، فدعا إلى إباحة الأموال ، والنساء ، وجعل الناس شركاء فيها ، وقد جاء في وثيقةٍ إيرانيَّةٍ تاريخيَّةٍ تعرف بـ «نامه تنسر» تصويرٌ لذلك العصر :

«وانتهكت الأعراض ، وعمَّ خلع العذار ، لقد نشأ جيلٌ لا كرامة فيه ولا عمل ، ولم يكن له رصيدٌ ولا ماضٍ مجيد»(٢) .

وانغمست إيران في الفوضى الخلقية ، وطغيان الشهوات ، وكانت تتأرجح بين أبيقورية(٣) جامحةٍ ، وتنسُّكٍ مغالٍ ، ولم تزل المحرمات النسبية التي تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلافٍ وتناقضٍ فيها .

حيــرةٌ واضطــرابٌ وفـلسفــاتٌ سلبيَّــةٌ مـتنــاقضــةٌ عنــد قــادة الفـكــر والـعلـوم :

والمأخذ الثالث ، وموضع الضعف والانتقاد في هذه الشعوب والأقطار الثلاثة التي تزعمت العلم ، والفلسفة ، والرياضيات ، والآداب ، وقادت

(١) راجع Muslim Rule in India, pp:33-34

(٢) «نامه تنسر» ، طبع مينوى ، ص/ ١٣ .

(٣) مذهب أبيقور ، الفيلسوف الإغريقي ، الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى .

www.abulhasanalinadwi.org

العالم مدّةً طويلةً ، هو أنّ هذه الرحلة الطويلة المضنية في سبيل العلم ، والفنّ ، والاكتشاف ، والاختراع ، والابتكار؛ التي تستحقُّ من المنصفين وهواة العلم كلّ إعجابٍ وتقديرٍ ، كانت بلا غايةٍ محدَّدةٍ ، وعلى غير بصيرةٍ وبيِّنةٍ ، فكانت تؤدِّي أحياناً إلى حيرة واضطرابٍ ، وأحياناً أخرى إلى فلسفاتٍ سلبيةٍ ، وقد انتهت بيونان تارةً إلى الارتياب واللاأدرية (Agnosticism) وتارة إلى أبيقوريةٍ (Epicureanism) ترى المتعة بالحياة ، واللّذة «الخير الأسمى» ، ومقياس الأخذ والعطاء ، والسلوك والأخلاق ، وتارةً إلى سوفسطائية (Sophism) تنكر إمكان الوصول إلى حقائق موضوعيةٍ ثابتةٍ ، إذاً الحقيقة عندهم ذاتيَّةٌ نسبيَّةٌ تختلف باختلاف الأفراد ، وكان من نتائج هذه التعاليم هدم المعايير الثابتة في الأخلاق ، والشكُّ في البديهيات ، والمسلمات.

وقد أدَّت هذه الرحلة المعتمدة على التأملات ، والمغامرات ، وردود الفعل ، وعلى الذكاء ، والتجرُّد ، وإجهاد الجسم بالهند مرَّة إلى الديانة «الجينية» التي ظهرت في القرن السادس قبل المسيح ، والتي تقوم على تعاليم خلقيةٍ سلبيةٍ غالباً ، وعدم امتلاك شيءٍ ، والكفِّ عن الإيذاء حتى عن قتل الحشرات ، والهوام ، ثم تدرَّجت إلى حياة العزوبة والتجرُّد ، والرهبانية المجهدة في عهد أحد قادتها «مهاوير».

وفي نفس هذا العهد (٦٠٠ ق م) ظهر بوذا ، وكانت تعاليمه ردَّ فعلٍ عنيفٍ ضدَّ النظام البرهمي ، والنظام الطبقي السائدين على الهند ، وعلى الرهبنة ، والإغراق في التأمل ، والمراقبة ، وكان ابتداء هذه الديانة ـ البوذية ـ بنفي الإله ، ولكنَّها بالتدريج جعلت بوذا الإله الأكبر ، ثم أضافت إليه آلهةً أخرى على مرِّ الزمن[١].

وأدَّت إيران إلى الزرتشتية التي خلفت المزدائية ، وكانت مؤسسةً على الحرب القائمة بين النور والظلام ، أو بين إله الخير وإله الشرِّ ، ثم جاء

---

(١) راجع للتفصيل «تاريخ الهند الوسطى» للأستاذ سي ، وي ، ويديا C.V. Vaidya History of Mediaeval Inbia,Vol. I,Poona-1921, P.101

www.abulhasanalinadwi.org

«ماني» يدعو إلى حياة العزوبة ، لحسم مادة الفساد والشرِّ من العالم ، وانتصار النور على الظلمة بقطع النسل ، وذلك في أوائل القرن الثالث المسيحي ، وظهر مزدك في أوائل القرن الخامس المسيحي ، فدعا إلى إباحة الأموال ، والنساء ، وجعل الناس شركاء فيها ، فكانت النتيجة أن انتشرت ثورات الفلاحين ، وكثر النهابون ، وأصبحت الأراضي والمزارع مقفرةً خربةً[١] ، وظلَّت إيران القديمة في أكثر عهودها تحت تأثير الدعوات المتطرفة المغالية ، وردود فعلٍ عنيفةٍ ، بين احتكارٍ سلاليٍّ أو طبقيٍّ ، أو دينيٍّ ، وشيوعيَّةٍ متطرِّفةٍ ، وفوضويةٍ مطلقةٍ ، وكلُّ ذلك نتيجة رحلةٍ على غير هدىً ، ومن غير خرِّيتٍ حاذقٍ ، وقائدٍ بصيرٍ مؤيدٍ من الله .

وحدات علمية متناثرةٌ بعيدةٌ عن واقع الحياة :

وكانت النتيجة الثانية أن أصبحت العلوم ، والفنون ، والآداب ، والمدارس المختصَّة بالفلسفة ، والمنطق ، والرياضيات ، والهندسة ، والجغرافية ، والتاريخ ، والأدب ، والشعر ، والملاحم وحداتٍ متناثرةً ، متناقضةً أحياناً ، مختلفةً في الهدف ، متفاوتةً في التأثير ، وتكوين السيرة والأخلاق ، والنظر إلى الكون والإنسان ، لا رباط بينها ، ولا تفاهم ، فضلاً عن التعاون على إسعاد البشرية ، وتكوين المجتمع الصَّالح ، والمدنيَّة الفاضلة ، وربط الخَلْق بالخالق ، والكون بالفاطر ، يعيش أئمتها وأساتذتها في عالمهم المحدود ، قد يكون خيالياً ، وقد يقع في برجٍ عاجيٍّ بعيدٍ عن الحياة العملية ، والمجتمع المائج الهائج ، والحياة المضطربة المتطورة ، وحكوماتٍ عادلةٍ حيناً ، جائرةٍ أحياناً كثيرة ، لا شأن لهم في أكثر الأحوال بمصير الإنسانية ، وأوضاع المدنيَّة .

البعد عن النبوءات وتعاليمها هو السبب الرئيسيُّ لشقاء هذه الشعوب والبلاد :

والسرُّ في تخبُّط هذه الشعوب والبلاد العملاقة العبقرية في الفنون ،

---

(١) «إيران في عهد الساسانيين» .

www.abulhasanalinadwi.org

والآداب ، والفلسفة ، والرياضيات تخبطاً شبيهاً بخبط عشواء ، أو رمي السهام في الظلماء ، وفي وجود التفاوت الفاحش ، والفجوة العميقة السحيقة بين العلم والعمل ، والنظر والسلوك ، وبين الذكاء ، والخلق ، والاستقامة ، وفي انتشار الفوضى المنهجية ، والعقائدية ، والتورُّع بين المذاهب والآراء ، وفي وجود وحداتٍ علميَّةٍ متناقضةٍ حيناً ، متناثرةٍ أحياناً ، مجردةٍ من وحدةٍ تربطها ، وتخضعها لقوةٍ قاهرة ، أو إرادةٍ قاسرةٍ ، أو غايةٍ مشتركةٍ فاضلةٍ ، هو انقطاع آخر خيطٍ كان يربط هذه الشعوب والبلاد بالنبوءات[(١)] إذ كانت هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، التي لا يشوبها جهلٌ ولا ضلالٌ ، ولا سوء فهمٍ ولا سوء تعبيرٍ ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، لا يستقلُّ بها العقل ، ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة ، وحدَّة الذِّهن ، والإغراق في القياس ، والغنى في التجارب .

فضل النبوَّة والأنبياء والحاجة إليهم :

وقد ذكر الله تعالىٰ هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ـ وهم أهل الصدق ، وأهل التجربة ـ وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق وجد كذلك :

---

(١) يقول القرآن : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [غافر : ٨٣]. يقول العلامة شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي في تفسيره : «روح المعاني» يحكي قولاً ثانياً للمفسرين في تفسير «بما عندهم من العلم» :

«إنَّ المراد به علم الفلاسفة والدهريين من بني يونان على اختلاف أنواعه ، فكانوا إذا سمعوا بوحي الله تعالى؛ دفعوه ، وصغَّروا علم الأنبياء عليهم السلام إلى ما عندهم من ذلك ، وعن سقراط : أنَّه سمع بموسى عليه الصلاة والسلام ، وقيل له : لو هاجرت إليه ، فقال : «نحن قوم مهذبون ، فلا حاجة لنا إلى من يهذِّبنا» (روح المعاني ، ج/ ٢٤ ، ص/ ٩١) ، وكذلك كان الشأن مع الهند وإيران» .

ولقد أحسن الفيلسوف الإنجليزي المشهور Roger Bacon في تعليل هذه النفسية المعوقة عن قبول الحقِّ والإذعان له ، إذ قال : «إنَّ من الأسباب الرئيسية العائقة عن التمسُّك بالحقِّ ، هو إخفاء جهلنا الشخصيِّ ، الذي يرافقه التظاهر بالعلم البراق الخادع» .

(Roger Bacon-Opus Majusjrans. R.S. Burke-1928)

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم: ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الأعراف: ٤٣] فدلَّ على أنَّ الرسل وبعثتهم هي التي تمكَّنوا بها من معرفة الله تعالى، وعلم مرضاته، وأحكامه، والعمل بها؛ الذي تمكنوا به من الدخول في الجنة، والوصول إلى دار النعيم، وقد ختم الله تعالى سورةً جليلةً من سور القرآن (وهي سورة الصافات) بهذه الحقيقة، فقد نفى فيها ضلال المشركين، وسوء اعتقادهم، ونسبتهم إلى الله ما هو منه بريء، ثم قال في آخر السورة: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢][1].

والآيات الثلاث حلقاتٌ متَّصلةٌ بعضها ببعض، فلمَّا نزَّه الله نفسه العلية عما يتفوَّه به المشركون، ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين، والوصف الصحيح البليغ، وسلَّم، وأثنى عليهم، لأنَّهم هم أهل الفضل في تعريف الخَلْق بالخالق، وفي الوصف الصحيح الصادق، وكانت بعثتهم منَّةً على الخلق، ونعمةً على الإنسانية، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة، فختم كلَّ ذلك بقوله: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٢].

أساس للعقائد والأعمال والأخلاق والمدنية:

وكان هذا العلم الذي جاء به الأنبياء أجلَّ علمٍ تتوقَّف عليه سعادة البشر؛ إذ هو الأساس للعقائد والأعمال، والأخلاق والمدنيَّة، وهو الذي يعرف به الإنسان نفسه، ويفكُّ به لغزة الكون، ويكشف عن سرِّ الحياة، وبه يعيِّن الإنسان مركزه في هذا العالم، وينظم علاقاته واتصالاته من بين بني جنسه، ويضع منهاج حياته، ويحدِّد غاياته في ثقةٍ، وبصيرةٍ، ووضوحٍ، ويقينٍ.

ثم إنَّ النبوءات ـ وعلى رأسها وفي خاتمتها النبوءة المحمَّدية ـ تربط

(١) مقتبسٌ من محاضرة العلامة الندوي «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن».

www.abulhasanalinadwi.org

العلم دائماً بالعمل ، والقول بالتطبيق ، والإيمان والاقتناع بالحقائق ، بالسلوك الفرديّ والجماعيّ ، فيقول القرآن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ ـ ٣]. ويقول ذاماً للشعراء والحكماء ناعياً عليهم : ﴿ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٦] ويقول في وصف العلماء الراسخين : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر : ٢٨].

وقد ضرب الله مثلاً للذين يعلمون ولا يعملون بما يعلمون ، من الحمار الذي يحمل وقراً من الكتب والأسفار على ظهره ولا ينتفع به ، فقال : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٥][1]. وتلك غايةٌ في الذمِّ ، والاحتقار ، والتبكيت ، والتقريع .

النَّبوءة وتهذيب الأخلاق وتزكية النفوس :

ومهمَّة تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس تشغل مكاناً كبيراً في دائرة الدعوات النَّبويَّة ، ومقاصد البعثة ، والقرآن قد أطلق لفظ الحكمة على الأخلاق والآداب بعد ما ذكر رؤوسها وأصولها في سورة الإسراء ، فقال : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ ﴾ [الإسراء : ٣٩] وقال قبل أن يذكر تعاليم لقمان الخلقية : ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴾ [لقمان : ١٢] وقال بعد ما ذكر الإنفاق في سبيل الله من غير منٍّ ولا أذى ، والتوكل على الله في عدم الخوف من الفقر : ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩].

---

(١) قال العلامة شهاب الدين محمود الآلوسي في تفسيره «روح المعاني» في تفسير كلمة «أسفار» : كتباً كباراً على ما يشعر به التنكير ، وإيثار لفظ السفر وما فيه من معنى الكشف من العلم يتعب بحملها ، ولا ينتفع بها. . . وفي الآية دليل على سوء حال العالم الذي لا يعمل بعلمه ، وتخصيص الحمار بالتشبيه به لأنه كالعلم في الجهل» (روح المعاني ، ج/٢٨ ، ص/ ٩٥).

www.abulhasanalinadwi.org

وقد ذكر النبي ﷺ هذا الغرض العظيم الذي كانت له البعثة بكلمة الحصر ، فقال : «إنما بعثت لأتـمم مكارم الأخلاق»(١) وقـد كان خير مثالٍ له وأفضل أسوةٍ فيه ، فقد قال القرآن : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

لمحـةٌ عـن الـجيـل الـذي نشـأ فـي أحـضـان الـنُّـبـوَّة الـمحمَّـديَّـة :

وقد نشأ في أحضان آخر الرُّسل ﷺ جيلٌ تحلَّى بأفضل الأخلاق ، وأكرم الصفات ، وتجرَّد عن رذائل الأخلاق ، ومهلكات العادات ، وذمائم الصفات ، وغوائل النفوس ، وبقايا الجاهلية ، ومغالطات الشيطان ، وقد شهد القرآن باستقامة قلوبهم ، وصلاح نفوسهم ، ووصولهم إلى ذروة تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس ، فقال :

﴿ وَاعْلَمُوٓا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات : ٧ ـ ٨] .

ويحلو لي أن أنقل هنا ما سبق أن قلته في الحديث عن مأثرة النبوة المحمَّدية في كتابي «النُّبوَّة والأنبياء في ضوء القرآن» :

«إنَّ كلَّ فردٍ من هؤلاء الأفراد معجزةٌ مستقلَّةٌ وآيةٌ من آيات النُّبوَّة ، ومأثرةٌ من مآثرها الخالدة ، وبرهانٌ ساطعٌ على أشرفية النوع الإنساني ، إنَّ مصوِّراً لم يصور بريشته البارعة ومخيلته السخيَّة صورةً أجمل ، وأبدع مما كان عليه هؤلاء الأفراد في عالم الحقيقة والواقع ، وفي شهادة التاريخ ، وإن شاعراً يتخيَّل بخياله الخصيب ، وقريحته الفياضة ، ومقدرته الشعرية أوصافاً أجمل ، وسيرةً أعطر ، وجمالاً أكمل مما وجد في هؤلاء الأفراد ، ولو اجتمع أدباء العالم في صعيدٍ واحدٍ ، فعرضوا نموذجاً إنسانياً رفيعاً لم يصل بهم الخيال إلى ما وصل إليه الواقع في حياة هؤلاء الأفراد ، الذين نشؤوا في حجر النُّبوَّة وحضانتها ، وتخرَّجوا في مدرستها؛ إنَّ إيمانهم الراسخ ، وعلمهم العميق ، وقلبهم البارّ ، وحياتهم البعيدة عن كلِّ تكلُّف

(١) رواه مالك في الموطَّأ .

www.abulhasanalinadwi.org

وصناعةٍ ، وعن كلِّ رياءٍ ونفاقٍ ، وتجرّدهم من الأنانية ، وخشيتهم لله ، وعفّتهم ونزاهتهم ، وعطفهم على الإنسان ، ورقّة مشاعرهم ، وشجاعتهم ، وجلادتهم ، وحرصهم على العبادة ، وحنينهم إلى الشهادة ، وفروسيتهم ، وفتوتهم ، وإحياءهم الليل ، وزهدهم في حطام الدُّنيا ، وزخارف الحياة ، وعدلهم ، وسهرهم على مصالح الرعية ، وإيثار راحتها على راحتهم ، كلٌّ ذلك لا يوجد له نظيرٌ في الأمم ، ولا سوالف في التاريخ»[١] .

«أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصَّالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدنيا ، المستهين بالمادة ، المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية ، يؤمن بأنَّ الدنيا خلقت له ، وأنه خلق للآخرة ، فإذا كان هذا الفرد تاجراً؛ فهو التاجر الصدوق الأمين ، وإذا كان فقيراً؛ فهو الرَّجل الشريف الكادح ، وإذا كان عاملاً؛ فهو العامل المجتهد الناصح ، وإذا كان غنياً؛ فهو الغني السَّخيُّ المواسي ، وإذا كان قاضياً؛ فهو القاضي العادل الفهم ، وإذا كان والياً؛ فهو الوالي المخلص الأمين ، وإذا كان سيداً رئيساً؛ فهو الرئيس المتواضع الرحيم ، وإذا كان خادماً أو أجيراً؛ فهو الرجل القويُّ الأمين ، وإذا كان أميناً للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم» .

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلاميُّ ، وتأسَّست الحكومة الإسلاميَّة في دورها[٢] .

يقول الفاضل الألماني كاتاني (Caetani) في كتابه «سنين الإسلام» :

«لقد كان هؤلاء الصحابة الكرام ممثلين صادقين لتراث رسول الله الخلقيِّ ، ودعاة الإسلام في المستقبل ، وحملة تعاليم محمد ﷺ ، التي بلَّغها إلى أهل التقوى والورع ، لقد رفع بهم اتصالهم المستمر برسول الله

(١) انظر محاضرة العلامة الندوي بعنوان : «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» .
(٢) أيضاً ص/ ١٥٣ ـ ١٥٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

وحبُّهم الخالص له ، إلى عالمٍ من الفكر والعواطف لم يشهد محيطٌ أسمى منه ، وأرقى مدنية واجتماعاً ، والواقع أنَّ هؤلاء الصحابة كان قد حدثت فيهم تحوُّلاتٌ ذات قيمةٍ كبيرةٍ من كلِّ زاوية ، وأثبتوا فيما بعد في أصعب مناسبات الحروب أنَّ مبادىء محمد ﷺ إنما بذرت في أخصب أرض أنبتت نباتاً حسناً ، وذلك عن طريق أناسٍ ذوي كفاءاتٍ عاليةٍ جداً ، كانوا حفظة الصحيفة المقدسة وأمناءها ، كانوا محافظين على كلِّ ما تلقَّوه من رسول الله من كلامٍ أو أمرٍ ، لقد كان هؤلاء قادة الإسلام السابقين الكرام الذين أنجبوا فقهاء المجتمع الإسلاميّ وعلماءه ومحدثيه الأولين»(١).

الطريق الوحيد إلى الوحدة والتوحيد :

والأثر العقليُّ الذي يترتَّب من عقيدة التوحيد على الإنسان ، هو أن العالم كلَّه تابعٌ لمركزٍ ونظامٍ واحدٍ ، ويرى الإنسان في أجزائه المنتشرة ترابطاً ظاهراً ، ووحدةً في القانون ، يستطيع الإنسان بفضله أن يأتي بتفسيرٍ كاملٍ للحياة وأن يقوم فكره وعمله في هذا الكون على حكمةٍ وبصيرة ، وعلى تعاون البر والتقوى ، وإسعاد الإنسانيَّة ، وتنظيم المجتمع ، وتوجيه المدنيَّة ، والجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتنافرة ، والمعسكرات المتحاربة .

لقد كانت وحدات العلم مبعثرةً ـ كما سبق في الحديث عن يونان ـ فقد كانت في أغلب الأحيان متناقضةً ، فعلم الطبيعة يخالف الدين ، وعلم الحكمة يحارب الدين ، حتى علوم الرياضة والطب البريئة كان يخرج منها أصحاب الاختصاص فيها أحياناً بنتائج سلبيةٍ إلحاديَّةٍ ، فكان في اليونان كما قدَّمنا علماء إمَّا مشركون ، وإمَّا ملحدون ، وقد ظلَّت علومها ، ومدارسها الفكرية في الشرق قروناً عديدةً خطراً على الدين ، ومدخل التشكيك ، والنفاق ، وتزلزل العقائد في العاكفين عليها دراسةً وتدريساً ، والمؤمنين بها المجلّين لها ، لها حكايات طويلة ليس هذا محلُّها .

---

(١) Caetani (Annali Dell Islam) Vci. Ilp. 429.
.W. Arnold: Preaching in Islam, Lonbon-1935.

www.abulhasanalinadwi.org

العثور على الوحدة في الظواهر الكونية:

وكان من أكبر معطيات النبوءات في الزمن السابق، وأكبر حسنات الإسلام في الأخير، أنَّه دلَّ على الوحدة التي تربط بين وحدات العلم، فقد تيسَّر له ذلك، لأنه بدأ رحلته في مجال العلم والمعرفة بدايةً صحيحة، بدأها بالإيمان بالله، والاستعانة به، والاعتماد عليه، عملاً بقوله تعالى لرسوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] وصحة البداية ـ في غالب الأحيان ـ كافلةٌ بصحة النهاية، فاستطاع بفضل القرآن والإيمان أن يكتنف الوحدة التي تربط الوحدات بعضها ببعض، وهي معرفة الله تبارك وتعالى، وذلك الذي مدح الله به عباده المؤمنين فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وكذلك كانت تبدو الوحدات الكونية ـ من الظواهر والحوادث والتغيُّرات ـ متناقضةً مضادةً، توقع الإنسان في حيرةٍ واضطرابٍ، وقد تؤدي إلى الكفر والإلحاد ـ كما كان الشأن في يونان، وكما كان في أوساط الفلسفة اليونانية ومدارسها في الشرق الإسلامي، وكما هو في الغرب اليوم ـ والطعن والاعتراض على الخالق، ومدبِّر الكون، فدلَّ العلم الإنساني المؤسس على الإيمان والقرآن، على الوحدة التي تجمع بين هذه الوحدات الكونية، وهي إرادة الله الغلابة، وحكمته الباهرة.

أثر عقيدة التوحيد في الحياة وفهم الكون:

وقد أشار عالمٌ غربيٌّ كبيرٌ هو «هيرالد هوفدنج» الألمانيُّ (Harold Hoffdtng) إلى أهمية العثور على هذه الوحدة ودورها الفعال في حياة الإنسان ومسيرة العلم والأخلاق.

يقول:

«إنَّ فكرة كلِّ دينٍ قائمةٌ على التوحيد، وهي تقوم على أن علة الوجود لجميع ما في الكون واحدة ـ وبغضِّ البصر عن المشاكل التي تحدث بهذه الفكرة بصورةٍ لازمةٍ ـ يخلِّف ذلك الاعتقاد أثراً نافعاً، ومهماً على الطبيعة الإنسانية، وهو أن أتباع هذا الدين يسهل لهم الاعتقاد بأن جميع الأشياء في

www.abulhasanalinadwi.org

العالم مرتبطةٌ حسب قانونٍ واحدٍ بغضِّ النظر عن الخلافات والتفاصيل، فيلزم لكون العلة واحدة أن يكون القانون واحداً، قد غرست فلسفة الأزمنة المتوسطة الدينية فكرة وجود هذه الوحدة في كثرة المشاهدة في العالم في أذهان الناس، الفكرة التي كان الإنسان غير المثقف بمعزلٍ عنها بتأثير وجود الكثرة في المظاهر الطبيعة التي كان يتيه، ويغوص فيها، فيفلت من يده حبل الوحدة الذي يربط هذه الكثرة»[١].

الدعوة إلى التفكُّر في الأنفس والآفاق وماضي الأمم والمجتمعات، وفائدته:

[وقد نوّع القرآن وسائل العلم، ومصادر الدراسة والتأمل، ودعا إلى التفكُّر في الأنفس والآفاق، وفي ماضي الأمم والمجتمعات (الذي يسمِّيه القرآن بأيام الله، وسننه في خلقه، ويسمِّيه العلم الحديث بالتاريخ) والتوصل بكل ذلك إلى نتائج ذات قيمةٍ عميقة الأثر، بعيدة المدى في المصير الإنسانيِّ.

يقول العلامة الدكتور محمد إقبال، وهو يذكر دور الإسلام في توجيه العقل البشريِّ، ووسائل العلم ومصادره إلى ميدان أوسع وأكثر إنتاجاً، يقول في محاضراته المشهورة: «تجديد الفكر الديني في الإسلام» (Reconstruction of Religious-thought in Islam).

عدَّ القرآن الكريم مصدرين آخرين للعلم، أحدهما: عالم الطبيعة، وآخرهما: عالم التاريخ، وبالاستفادة منهما ظهرت الروح الطَّيِّبة للعالم الإسلامي. إنَّ الشمس والقمر، وامتداد الظلِّ، واختلاف الليل والنَّهار، واختلاف الألسنة والألوان، وتداول الأيام بين الناس، واختلاف السعادة والشقاء، وبالجملة عالم الطبيعة كلّه، الذي نعيش فيه ونلمسه بالحواسِّ، كلُّها من نظر القرآن آيات للحقيقة المطلقة، وذلك من واجب كلِّ مسلم أن يتفكَّر ويتدبَّر في آيات الله فضلاً عن أن يصدَّ عنها صمّاً وبكماً؛ لأنَّ كلَّ مَنْ يغضُّ بصره عن هذه الآيات في الحياة كالعميان يحشر أعمى.

---

(١) History of Modern Philosophy, p.5.

www.abulhasanalinadwi.org

فلما أدرك المسلمون تدريجياً هذه الحقيقة ، وهي أن الكون متحركٌ ، وسائرٌ ، وهو متناهٍ ، وقابلٌ للتجديد ، والإضافة؛ انصرفوا في النهاية إلى رفض الفلسفة اليونانية التي كانوا قد درسوها بشغفٍ ونهامةٍ في مستهل حياتهم الذهنية ، وقد فاتهم أول الأمر أنَّ روح القرآن الكريم تتنافى مع الفلسفة اليونانية ، فدرسوا القرآن الكريم في ضوء الاعتقاد بالفلسفة اليونانية ، وبما أنَّ القرآن الكريم يؤكد على حقائق ثابتةٍ وأصيلةٍ ، وتقوم الحكمة اليونانيـة على مجرَّد النظريات لا الحقائق كان لا بدَّ من أن تخفق هذه الجهـود يوماً من الأيام ، وكذلك حدث ، وإلـى مثل تلك الجهود يرجع ظهور روح الحقيقة للحضارة الإسلاميَّة ، والثقافة الإسلاميَّة ، وإذا ألقينا نظرةً عميقةً على أهمِّ جوانب الحضارة الحديثة؛ وجدنا أنَّها هي الأخرى تدين إلى حدٍّ كبيرٍ لتلك الروح التي كانت مصدر الحضارة الإسلاميَّة»[(١)] .

ويقول في موضعٍ آخر :

«عبَّر القرآن الكريم عن التاريخ بأيام الله ، وجعله مصدراً من مصادر العلم ، ومن تعاليمه الأخرى ، إنَّ الأمم والأقوام تحاسب بطريقين: انفرادياً ، واجتماعياً ، وإنها تعاقب على سوء أعمالها في هذه الدنيا أيضاً ، واستشهد القرآن على ذلك بكثرةٍ من التاريخ ، كما أنَّ القرآن حثَّ قرّاءه على أن يفكّروا في أحوال الإنسان الحالية والماضية .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨١ ـ ١٨٣] .

---

(١) Reconstruction of religius thought in Islam p, 179.

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [يونس : ٤٩] .

إنَّ الآية الأخيرة تحمل طابع التعميم التاريخيِّ كأنها توضع بطريق حكيم للغاية أن نفكر في الأمم الإنسانيّة كالأجسام النامية بمنهجٍ علميٍّ»[١] .

الحركة العلمية العالمية الفريدة التي أنشأتها تعاليم الإسلام :

ومن هذا التنويه بشأن العلم والحثِّ عليه انبثق ذلك النشاط ، وبكلمةٍ أصحّ ، الحماس العلميُّ والتفاني في سبيل العلم في تاريخ الإسلام ، وانطلقت هذه الحركة العلمية العالمية الخالدة التي مساحتها الزمنية من أكبر المساحات الزمنية ، والمساحة المكانية من أكبر المساحات المكانية ، والمساحة المعنوية أوسع من كلتا المساحتين .

وتكفي هنا شهادةٌ لباحثٍ غربيٍّ كبيرٍ ومؤرخٍ فرنسيٍّ شهيرٍ وهو الدكتور «غوستاف لوبون» يقول في كتابه المشهور «حضارة العرب» :

«والإنسان يقضي العجب من الهمَّة التي أقدم بها العرب على البحث ، وإذا كانت هنالك أممٌ تساوت هي والعرب في ذلك ، فإنَّك لا تجد أمَّةً فاقت العرب على ما يحتمل ، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينةٍ صرفوا همهَّم إلى إنشاء مسجدٍ وإقامة مدرسةٍ فيها ، وإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة ، أسسَّوا فيها مدارس كثيرة ، ومنها المدارس العشرون التي روى «بنيامين التطيلي» المتوفى سنة ١١٧٣ م أنه شاهدها في الإسكندرية ، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد ، والقاهرة ، وطليطلة ، وقرطبة . . . الخ ، على جامعاتٍ مشتملةٍ على مختبراتٍ ومراصد ، ومكتباتٍ غنيَّةٍ ،

---

(١) ص ٢١٢ ـ ٢١٣ ، والقطع من كتاب إقبال ، نقلها إلى العربية الأستاذ واضح رشيد الندوي .

www.abulhasanalinadwi.org

وكلٍّ ما يساعد على البحث العلميِّ ، وكان للعرب في أسبانية وحدها سبعون مكتبةً عامَّةً ، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني بقرطبة ستمئة ألف كتاب ، ومنها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس ، كما روى مؤرخو العرب ، وقد قيل بسبب ذلك أنَّ «شارل الحكيم» لم يستطع بعد أربعمئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمئة (٩٠٠) مجلد يكاد ثلثها يكون خاصَّاً بعلم اللاهوت[1] .

أكبر انحرافٍ وقع في خط التقدُّم العلميِّ في أوربا :

إنَّ أكبر انحرافٍ وقع في خطِّ التقدُّم العلميِّ الذي سار عليه الغرب منذ استيقظ من سباته العميق ، وتحرَّر من هيمنة الكنيسة ، ومحاكم التفتيش في أوربا في القرون الوسطى ، واستأنف رحلته في دنيا العلم والاكتشاف ، وفي طريق تسخير الطاقات الطبيعية والكون لمآربه الفردية والجماعية : أنَّه واصل هذا العمل الذي أحدث انقلاباً هائلاً في الحضارة ككائنٍ مستقلٍ حرٍّ يحقُّ له أن يحكم هذا الكون ، ويسخره لأغراضه الشخصية ، أو الوطنية ، أو القومية ، ويتصرَّف فيه كما يشاء ، وهو غير مسؤول أمام ربه ، يعمل ما يشاء بالأصالة ، لا بالخلافة والرسالة ، وهذا هو الخطُّ الذي جرَّ على العلم وعلى الأمم التي لم تبلغ هذا الشأو البعيد من العلم والمدنية ، أو وقعت تحت رحمته وحكمه ، شقاءً طويلاً ، وعذاباً أليماً .

تعليم الأسماء لآدم كخليفةٍ ومعناه العميق البعيد :

وبالعكس ، القرآن يصف الإنسان بأنَّه خليفة الله في أرضه ، ينفذ أوامره ، ويسير في ضوء تعاليمه ورسالته ، ومستخلفٌ مفوضٌ ، متقيِّدٌ بأحكام ربِّه ، مسؤول أمامه ، مجزيٌّ على عمله ، محاسبٌ على سوء تصرفه وأنانيته ، معاقبٌ على تفريطه وإفراطه ، وعلى انخداعه بالقوَّة المحدودة ،

---

(١) «حضارة العرب» ص/ ٤٣٤ ، تأليف الدكتور غوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، بمصر .

www.abulhasanalinadwi.org

والحكم الزائل ، والحياة الغابرة ، والدنيا الفانية ، ومعاقبٌ على استعباده لبني جنسه ، واستبداده فيهم ، فقد ذكر القرآن الحوار العميق المعنى ، بعيد المدى الذي جرى بينه تبارك وتعالى وبين الملائكة عند خلق آدم: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] وقد جاء فيه: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] فدلَّ ذلك على أنَّ كلَّ ما اتصف به النسل الإنسانيُّ من صلاحيته للعلم الذي يحتاج إليه في هذا الكون ، ويستخدمه لصالحه ، وكلّ ما يربطه من صلة بهذا العالم المادي ، وكلّ ما وهب من طاقةٍ وإمكانيةٍ للانتفاع بهذا الكون والطبيعة والحياة ، إنما مصدره هي «الخلافة الإلهية» وإنَّ كل ذلك بالنيابة ، لا بالأصالة ، وكل ذلك خاضع لمنصب الاستخلاف الذي خُصَّ به دون الملائكة ، وفي القرآن إشارات غير ذلك ، فقال:

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧] وقال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤].

ويدلُّ القرآن على أنَّ خلافة الله تعالى مسؤوليةٌ عظيمةٌ تطلب العدل ، والرحمة ، والدقة ، والمحاسبة الدقيقة ، يقول الله تعالى مخاطباً لنبيه داود عليه السلام ، وكان يحكم مملكةً واسعةً: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

أعظم غفلةٍ وجهالةٍ ظهرت على مسرح التاريخ:

وشتَّان بين الخلافة والأصالة ، فالخليفة دائماً مرتبط بمن استخلفه ، خاضعٌ خاشعٌ أمامه ، أمينٌ في خلقه ، رفيقٌ بمن نصب له ، شاكرٌ لفضل مستخلفه ، رادٌّ لكلِّ فضلٍ ونعمةٍ إليه ، لا يأخذه الصَّلف والغرور ، ولا تستخفُّه القوة والسُّلطان ، وقد تناسى الغرب هذه الحقيقة ، فكانت أكبر عثرةٍ ليس في تاريخ العلم والاكتشاف ، بل في تاريخ البشرية ، ولم يكن ذلك ذهول فردٍ أو أفرادٍ معدودين ، أو مدرسةٍ فكريَّةٍ ، أو فلسفةٍ ،

www.abulhasanalinadwi.org

بل كان ذهول العلم والقيادات العالمية؛ التي أصبحت تتحكَّم في مصائر الأمم ، واتجاهات العالم ، فكان أشقى ذهول ، وأعظم غفلةٍ أو جهالةٍ ظهرت على مسرح التاريخ ، وكانت غلطة أنتجت عصراً وأجيالاً من الغلطات ، وقد قال بعض الحكماء : «ما رأيت ولوداً مثل الغلطة الواحدة» ولا يزال العالم يرزح تحت هذا الانحراف عن الخطِّ المستقيم الذي رسمه الله ، وبيَّنه القرآن عن موقف الإنسان العاقل العليم الذي استخلفه الله على هذا الكوكب ، وخوَّله العلم والطاقة ، وسلَّحه بما يحتاج إليه في القيام بعبء هذه المسؤولية العظيمة الدقيقة .

خصائص الحركة العلمية الإسلامية الخمس :

ومن خصائص الحركة العلمية التي انبثقت عن تعاليم الإسلام ، وقامت على أكتاف علماء المسلمين خمس خصائص ، نشير إليها على سبيل الاختيار والاختصار :

١ ـ العالمية والإنسانية :

عالمية هذه الحركة وإنسانيتها ، فالعلم في الإسلام حقٌّ مشاعٌ ، وثروةٌ مشتركةٌ لجميع الأمم والشعوب ، والعناصر والأجناس ، والأسر والبيوتات ، والبلاد والأوطان ، ليس فيه احتكارٌ مثل احتكار «بني لاوي» من اليهود أو «البراهمة» من الهنود ، ولا يتميَّز فيه شعبٌ عن شعبٍ ، ولا نسلٌ عن نسلٍ ، وليس الاعتماد فيه على العرق والدم ، بل الاعتماد فيه على الحرص والشوق ، وحسن التلقي ، وزيادة التقدير ، والتفوُّق في الجهاد والاجتهاد ، وقد روى الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كان العلم بالثريا لتناوله أناسٌ من أبناء فارس» .

وكفى شهادة تاريخيَّةً لذلك ، ما قاله نابغة العرب عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ هـ) في مقدمته المشهورة :

«من الغريب الواقع أنَّ حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم ،

www.abulhasanalinadwi.org

لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية ، إلا في القليل النادر ، مع أنَّ الملة عربية ، وصاحب شريعتها عربيٌّ»[١] .

٢ ـ الشعبيــة :

شعبية هذه الحركة ، فقد قامت على مجهوداتٍ شعبيةٍ ، وعلى تقدير المسلمين للعلم ، والشعور بالحاجة إليه ، وما ورد في الكتاب والسنة من فضله ، وما وعد من الأجر والثواب عليه ، والذمِّ للجهل ، والنعي عليه ، وتنافس فيه المتنافسون من المسلمين في كلِّ عصرٍ وجيل ، وقام أكثر المدارس ، وحلقاتٌ للتعليم في العالم الإسلامي الواسع على تقدير المسلمين وتمويلهم ، عدا مدارس معدودة (كالنظامية في بغداد ، ونيشابور) وما احتضنته الحكومات الإسلامية في عواصمها ومدنها الرئيسية من مدارس وجامعات .

وقد انتشر العلم انتشاراً واسعاً بفضل العلماء المتطوعين والأساتذة الزاهدين المتقشفين ، الذين زهدوا في مناصب الحكومة ، ووظائفها ، وتقدير الأغنياء والأمراء ، وقنعوا بالكفاف ، وما يقيم الصلب ويسدُّ الرَّمق ، وقد روى التاريخ الأمين حكاياتٍ من هذا القبيل ، ليس من السهل تصديقها لولا الرواة الثقات ، والاستفاضة ، والتواتر ، والعلم بقوة الإيمان ، والاحتساب ، وروح التطوع ، والإيثار المتغلغلة في أحشاء العلماء الراسخين[٢] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية ، ص/ ٤٠١ ، وراجع للتفصيل والأمثلة الكثيرة على هذه الدعوى كتاب صاحب المقال : «الإسلام وأثره في الحضارة ، وفضله على الإنسانية» .

(٢) اقرأ في ذلك كتب تراجم العلماء ، وتاريخ الثقافة الإسلامية في مختلف الأمصار ، وخاصة كتاب «صفحات من صبر العلماء» لفضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (رحمه الله) (بيروت ، دار البشائر الإسلامية بيروت ، وكتاب «نزهة الخواطر» (١ ـ ٨) بالعربية للعلامة السيد عبد الحي الحسني (طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ـ الهند) .

www.abulhasanalinadwi.org

ويكفي لذلك مثالاً ما وقع بين إمام دار الهجرة مالك بن أنس والخليفة العباسي هارون الرشيد ـ وهو خليفة المسلمين ، وأكبر حاكمٍ في عصره ـ فقد طلب الرشيد ليقرأ عليه الموطأ ، فقال مالك : «إن العلم يؤتى ولا يأتي» وقام الرشيد يمشي مع مالك إلى منزله يسمع منه الموطأ ، فأجلسه معه على المنصة ، وأراد أن يقرأ على مالك ، فقال : ليخرج الناس عني حتى أقرأه أنا عليك ، فقال : «إنَّ العلم إذا منع من العامَّة لأجل الخاصَّة لم ينفع الله به الخاصة» .

وقال مالك لهارون : «يا أمير المؤمنين! أدركت أهل العلم ببلدنا ، وإنهم ليحبون التواضع» فنزل هارون عن المنصَّة ، وجلس بين يديه ، وسمعه[١] .

وقد كانت الحركة العلمية في المسلمين حركةً شعبيةً عمَّت جميع الطبقات والمستويات ، وأصبحت الدراسة هوايةً للجميع ، يتطرَّف بها حتى أهل الحرف والمهن ، يقول A. J Hammerton في كتابه «التاريخ العام للعالم» (Uaiversal History of the World) :

«لقد أصبح كلُّ مسلم ـ من الخليفة إلى الصناع ـ ولوعاً نهماً بالعلم والسياحة ، وكان ذلك أجلَّ خدمةٍ قام بها الإسلام نحو الحضارة العالمية ، وقد تقاطر روَّاد العلم من كل صقع على مركزٍ ثقافيٍّ كبغداد ، وكذلك كان الشأن مع مراكز أخرى للعلم والأدب ، وكان ذلك يشبه تهافت فضلاء الغرب على الجامعات ، ولكن الأول كان أكثر إثارةً للحيرة ، والإعجاب .

غصَّت المساجد التي كانت جامعاتٍ إسلاميةً (ولا تزال كذلك) بحشودٍ من طلبة العلم؛ الذين كانوا يقصدون هذه المساجد لتلقي العلوم الدينية ، والفلسفة والطب والرياضيات ، من العلماء الكبار . كان هؤلاء الأساتذة ينتمون إلى الأقطار التي تتكلَّم العربية ، وكانوا يلقون دروسهم محتسبين متطوعين لا تهمُّهم الشهادات ، ولا تستهويهم الرواتب والأجور ، ليس

(١) شذرات الذهب ١/ ٢٩١ .

www.abulhasanalinadwi.org

عليهم إشرافٌ لأحدٍ ، ولا رئاسةٌ ومراقبةٌ ، فإذا كانوا بارعين متفوقين في موادهم الدراسية . انهالت عليهم جموعٌ من التلاميذ ، وكانوا يقدرون ويعظمون بمقياس براعتهم واختصاصهم في موضوعاتهم ، وينالون ما يفوتهم متطوِّعين متقلِّلين(١) .

وقد كان الإيمان والاحتساب ، وما روي واستفاض في فضل التعليم من الثواب الجزيل ، والقرب عند الله ، والتطوع في سبيله ، وإيثار حياة الزهد ، والتقشُّف لأجله على حياة الرَّخاء ، والثراء ، والرواتب الضخمة؛ التي يتقاضاها المعلمون المحترفون ، والمرتزقة من الماهرين في الفنون من الحكومات ، هو الرائد الحافز لهؤلاء العلماء المحتسبين ، حتى رويت عنهم حكاياتٌ يصعب تصديقها لولا رواية الثقات والتواتر ، وما عرف وتحقّق من معرفة نفسية هؤلاء العلماء الأفذاذ ، ورئاستهم .

نكتفي في ذلك بحكايةٍ لعالمٍ عاش في أواسط القرن الثالث عشر الهجري ، أوائل القرن التاسع عشر المسيحي ، وهو الشيخ عبد الرحيم الرامفوري :

كان الشيخ عبد الرحيم (م ١٢٤٣ هـ) يدرس في رامبور ، وعرض عليه والي منطقة روهيل كهند ، الإنجليزي المستر هاكنس منصب التدريس في كلية بريلي ، براتبٍ شهريٍّ يبلغ مئتين وخمسين روبية (تقدر قيمته الآن بأكثر من ألفي روبية) ووعده بأن راتبه سيزاد فيه ، ويرفع مستواه ، فاعتذر قائلاً بأن إمارته تدفع إليه عشر روبيات ، وستوقف هذه المنحة ، فقال له هاكنس : إنَّه عرض عليه أضعاف هذا القدر ، وما عشر روبيات أمام مئتين وخمسين روبية ، فقال : إن في بيتي شجرة سدر حلوةٍ ، وهي محببةٌ إليَّ كثيراً ، فكيف السبيل إليها في بريلي؟ ولم يتطرَّق ذهن هذا الإنكليزي إلى حقيقة الأمر؛ الذي كان يدور بخلد الشيخ ، فقال : إني سأرتب لإيصال ثمرة هذه الشجرة إليك في بريلي ، فقال : إنَّ لي تلاميذ في رامبور ، فكيف أتركهم ، وسأُحْرَم فرصة خدمتهم ، وحاول الإنكليزي إقناعه ، فقال : إنيّ

---

(١) Universal History of The World, A. J. Hammerton, London, Vol.1v, p.2533.

www.abulhasanalinadwi.org

سأقدم إليهم المنح الدراسية وسيواصلون دراستهم في بريلي ، ولم يبق في جعبة الشيخ إلا سهمه الأخير ، فأطلقه ، وقال : صحيحٌ ما تقول ، ولكن ما يكون جوابي يوم القيامة على الارتزاق بالتدريس[١] .

٣ ـ الحركية :

ومما امتازت به الحركة العلمية في تاريخ الإسلام وفي عالم الإسلام ، الحركية التي تجلَّت في تحمُّل المشقات ، وقطع المسافات للحصول على العلم ، والتوسُّع ، والاختصاص في الدراسة ، وفي سبيل رواية الحديث الصحيح ، والإسناد العالي ، والتحقيق العلميِّ ، والفحص اللغويِّ ، ثم في سبيل تبليغ الأحكام الشرعية ، ونشر العلم الدينيِّ في البلدان المختلفة ، والمسافات البعيدة ، وكتب التاريخ والتراجم مشحونةٌ بالأمثلة الرائعة ، والنماذج المحيرة ، خصوصاً ما ألف في سير المحدِّثين ، وفي تاريخ تدوين الحديث ، وجمعه ، وحفظه[٢] ، ويكفي في شهادة ما ذكره العلامة ابن خلدون (م ٨٠٨ هـ) من فوائد الرحلة في طلب العلم في مقدمته الشهيرة ، يقول رحمه الله :

«إنَّ الرحلة في طلب العلوم ، ولقاء المشيخة مزيد كمالٍ في التعليم ، والسبب في ذلك : أنَّ البشر يأخذون معارفهم ، وأخلاقهم ، وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارةً علماً ، وتعليماً ، وإلقاءً ، وتارةً محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة ، إلا أنَّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدُّ استحكاماً وأقوى رسوخاً ، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها ، والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم ، حتى لقد يظن

(١) «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» للعلامة الندوي نقلاً من «نزهة الخواطر» ص/ ٣٢٤ .

(٢) راجع «تذكرة الحفاظ» للعلامة الذهبي ، و«السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» للدكتور مصطفى السباعي ، و«رجال الفكر والدعوة» للعلامة الندوي الجزء الأول ، عنوان «حركة الجمع والتدوين في القرن الأول والثاني» و«المحدثون وعلو همتهم» ص/ ٩٩ ـ ١٠٢ .

www.abulhasanalinadwi.org

كثيرٌ منهم أنَّها جزء من العلم ، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين ، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ، فيجرد العلم عنها ويعلم أنّها أنحاء تعليمٍ وطرق توصيلٍ ، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات ويصحِّح معارفه ويميزِّها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعدُّدهم وتنوُّعهم ، وهذا لمن يسَّر الله عليه طرق العلم والهداية ، فالرحلة لا بدَّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال ، والله يهدي من يشاء إلى صراط المستقيم[1] .

٤ ـ الفتوة والعمل بالعزيمة :

وقد امتاز علماء الإسلام بعلو الهمَّة ، والشهامة والفتوة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلمة حق عند سلطانٍ جائرٍ ، والصُّمود في وجه الانحرافات والمؤامرات المحبوكة في دائرة الحكومات أو المجتمعات الإسلامية ، والكفاح والنضال ، وقيادة حركة الجهاد ، وتحرير البلاد ، ومطاردة القوى الأجنبية ، والحكومات المعادية للإسلام إذا احتيج إلى ذلك ، وإنَّ الدارس لتاريخ الجهاد والحركات الإصلاحية التجديدية من العصر الإسلامي الأول إلى عصرنا هذا ، لا يمرُّ بصفحة من صفحاتها ، وفصلٍ من فصول تاريخها الطويل الذي يكاد يكون متصلاً ، إلا ويرى على رأسها ، وفي مركز القيادة منها عالماً من علماء الدين ، أو مربياً من الشيوخ الربانيين ، هو منبع هذه الفكرة ومصدر هذه الحركة ، منها تبتدىء ، وإليها تنتهي[2] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، طبع مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ص/ ٧١٢ .

(٢) والموضوع واسعٌ مترامي الأطراف ينتظر مؤرخاً واسع النظر ، صبوراً في الدراسة والتحقيق وفي كتاب العلامة الندوي «ربانيَّة لا رهبانيَّة» بعض أضواء على بعض شخصياتٍ قياديَّةٍ في عديد من الأقطار الإسلامية العربية ، راجع «بطولةٌ وكفاحٌ ، لا بطالةٌ واستسلامٌ» ص/ ١١٣ ـ ١٣١ ، الطبعة الثامنة» طبع مؤسسة الرسالة .

www.abulhasanalinadwi.org

وهي الظاهرة المشتركة بين الأقطار الإسلامية والعربية التي تحرَّرت من نير الاحتلال الأجنبيِّ الذي يسمَّى بالاستعمار من الرباط ومراكش في الشمال الغربيِّ إلى أندونيسيا ، وماليزيا في الجنوب الشرقيِّ ، وبين الجزائر ، والتي ينعقد فيها هذا الملتقى الكبير ، وشبه القارة الهندية التي ينتمي إليها كاتبُ هذه المقالة مماثلةٌ برأسه في هذا الجانب ، فقد قاد حركة التحرير في كلا القطرين علماء الدِّين الراسخون في العلم ، المعترف بمكانتهم العلمية والدينية .

٥ ـ التركيز على العلم النافع :

التركيز على العلم النافع ، الحامل للهداية والكافل للنجاة ، والمفيد في الآخرة ، وهو العلم الذي لا سعادة للإنسان ، ولا نجاة له بغيره ، ويعرف به خالقه ، وفاطر هذا الكون ، ومدبِّر هذ العالم ، وصفاته العالية ، والصلة التي بينه وبين عبده ، وما يرضيه تبارك وتعالى ، وما يسخطه ، وما يشقي الإنسان في الدار الآخرة وما يسعده. يقول الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧] ويقول: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] ويقول: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

وقد جاء في الحديث: «اللهم إنِّي أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، ومن قلبٍ لا يخشع ، ومن نفسٍ لا تشبع ، ومن دعوةٍ لا يستجاب لها»[(١)].

حين لا تنفع العلوم والآداب ، وينفع علم يستطيع به الإنسان أن ينال النجاة والسلامة :

ونختم هذا المقال بقصَّةٍ خفيفةٍ مسلِّية تصوِّر الفرق بين العلم النافع الذي تتحقق به السلامة ، وتحصل به النَّجاة ، والعلوم التي لا تتوقف على

(١) رواه مسلم.

www.abulhasanalinadwi.org

معرفتها السلامة والنجاة ـ على ما فيها من منافع ومصالح ـ وقديماً استعان العلماء والأدباء بالقصص، ولعلَّها ـ على ما فيها من حكمةٍ وموعظةٍ ـ تخفف شيئاً من ثقل هذا البحث العلميِّ الطويل، وتزيل السآمة:

«يحكى أن فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينةً للنُّزهة في البحر أو الوصول إلى البر، وكان في النفس نشاط، وفي الوقت سعةٌ، وكان الملاَّح المجذف الأميُّ خير موضوعٍ للدعابة والتنادر، وخير وسيلةٍ للتلهِّي وترويح النفس، فخاطبه تلميذٌ ذكيٌّ جريءٌ، وقال: يا عم! ماذا درست من العلوم؟ قال: ولا شيء يا عزيزي! قال: أما درست العلوم الطبيعية يا عمي؟! قال: كلا ولا سمعت بها! وتكلَّم أحد زملائه، وقال: ولكنك لا بدَّ درست علم الإقليدس، والجبر، والمقابلة! قال: وهذا أغرب، وتصدِّقون أني أول مرَّة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة، وتكلَّم ثالثٌ «شاطرٌ» فقال: ولكنِّي متأكِّدٌ بأنك درست الجغرافية والتاريخ؟ فقال: وهل هما اسمان لبلدين، أو علمان لشخصين؟ وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة، وعلا صوتهم بالقهقهة، وقالوا: ما سنُّك يا عم؟! قال: أنا في الأربعين من سني! قالوا: لقد ضيَّعت نصف عمرك يا عمنا! وسكت الملاَّح الأميُّ على غصصٍ ومضض، وبقي ينتظر دوره، والزمان دوارٌ.

وهاج البحر وماج، وارتفعت الأمواج، وبدأت السفينة تضطرب والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها، واضطرب الشباب في السفينة ـ وكانت أول تجربتهم في البحر ـ وأشرفت السفينة على الغرق، وجاء دور الملاح الأميِّ، فقال في هدوء ووقار: ما هي العلوم التي درستموها يا شباب؟! وبدأ الشباب يتلون قائمةً طويلةً للعلوم، والآداب التي درسوها في الكلية، ويتوسَّعون فيها في الجامعة من غير أن يفطنوا لغرض الملاَّح الجاهل الحكيم، ولما انتهوا من عدِّ العلوم المرعبة أسماؤها، قال في وقارٍ تمزجه نشوة الانتصار: لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة، فهل درستم علم السباحة؟ وهل تعرفون إذا نقلبت هذه السفينة ـ لا قدر الله ـ تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام؟ قالوا: لا والله يا عم! هو العلم الوحيد الذي

www.abulhasanalinadwi.org

فاتتنا دراسته ، والإلمام به ، هنالك ضحك الملاَّح وقال: إذا كنت قد ضيعتُ نصف عمري؛ فقد أتلفتم عمركم كلَّهُ ، لأنَّ هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان ، إنما كان ينجدكم العلم الوحيد ، هو علم السباحة الذي تجهلونه.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

التوجيه الإسلاميُّ للعلوم مفهومه وأهدافه وأسسه العامَّة

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد ، فإذا كانت في التاريخ البشريِّ شخصيَّةٌ جديرةٌ بأن يقال عنها بتأكُّدٍ وثقةٍ أنَّها غيَّرت مجرى التاريخ ، ومنحت العالم حياة جديدةً ، أو صاغته صياغةً جديدةً ، وفتحت أبواب العلم ، ودفعت الإنسانية إلى كسب المعرفة ، وحملتها على الاهتمام بتحصيل العلم والتعمق في الدراسة بدلاً من أن تتسكَّع في ظلمات الجهل ، وتقع في الأوهام والأباطيل والخرافات ، وحرضتها على تنمية العقل ، وتوسيع آفاق المعرفة ، وفتح منافذ الذهن ، بدلاً من أن تكون خاضعةً للتقاليد البالية العتيقة ، وعوَّدتها على استخدام الذَّكاء والتدبُّر في الأمور ، بدلاً من التقليد الأعمى للآباء والأجداد.

إذا كانت في تاريخ العالم شخصيةٌ بهذه الصفة ، فهي شخصية نبيِّنا محمَّد ﷺ الوحيدة التي نراها على مفترق طريقين للتاريخ ، ينفصل طريق يلمع بنور الأدلَّة والبراهن ، عن طريقٍ تغشاه سحبٌ كثيفةٌ من التقليد والجمود.

جاء نبينا محمَّد ﷺ بتعاليم تقوم بتنوير عقول الناس وصقل صلاحياتهم وكفاءتهم ، وجلاء أذهانهم وقوة إدراكهم ، ويدلُّ على ذلك الوحي الأول الذي أنزله الله تعالى على رسوله الكريم ، وذكر فيه أنَّه أنعم على الإنسانية بإعطاء ثروة العلم ، واعتبر فيه القلم الذي يقود هذه الرحلة العلمية التاريخية ، ويقوم بحركةٍ عالميَّةٍ للتأليف ، والتدريس ، وينقل العلم من فردٍ إلى فردٍ ، ومن أمَّةٍ إلى أمَّةٍ ، ومن عهدٍ إلى عهدٍ ، ومن جيلٍ إلى جيلٍ وسيلة له ، ويفتخر بأنَّه نشر العلم ، وأشاعه حسب حاجات الإنسان ، وعمرت المدارس والجامعات بحركته ، ونشأت المعاهد والمكتبات.

ما كانت التنبُّؤات والتكهُّنات البشريَّة مهما تعمَّقت في التفكير تستطيع أن

www.abulhasanalinadwi.org

تتصوَّر بأن الوحي الأول يشيد بالقلم ، لأنَّ هذا الوحي كان ينزل على إنسانٍ أمِّيٍّ ، وفي منطقةٍ متخلِّفة ، وفي قوم فشا فيهم الجهل ، وعمَّت فيهم الأمِّيَّة ، وكان القلم عندهم شيئاً نادراً مستطرفاً ، ولذلك لقب العرب بالأمِّيِّين .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

بدايةٌ لا تُتوقَّع :

نزل هذا الوحي على رجلٍ لقِّب بأمِّيٍّ ، وذلك في غار حراء ، فكان المتوقَّع أنه يبدأ بالإيمان بالله ، والعبادة له ، وينهى عن عبادة الأصنام ، ويستنكر العادات الجاهلية ، والتقاليد الوثنية ، رغم أنَّ هذه الأشياء كلَّها كانت ذات أهميَّةٍ قصوى في هذا الدين ، وقد ذكرت في مواضع كثيرةٍ مختلفةٍ بإيضاحٍ وتفصيلٍ ، لكن هذا الوحي الأول بدأ بكلمة : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ .

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [العلق : ١ ـ ٤] .

وهكذا حدثت تلك الحادثة التاريخية التي منحت للمفكِّرين والمؤرخين جوانب التفكير الجديدة ، وفتحت لهم آفاقاً واسعةً حديثةً ، وتشير هذه الحادثة إلى بدء عهدٍ جديدٍ في تاريخ الإنسانية والدِّيانات ، بيد نبيٍّ أمِّيٍّ ، وتدل على أن هذا العهد سيكون عهداً راقياً ذهبياً ، ينتشر فيه العلم ، وتعم فيه القراءة ، وتتبدَّد فيه سحب الجهل ، وتكمل فيه الإنسانية ، ويكوِّنها العلم والدين تكويناً جديداً .

يلفت القرآن نظر القارئ إلى الأشياء التي يجب أن تدرس للحصول على العلم والمعرفة ، ويسترعي الانتباه إلى الأنفس والأرواح والآفاق وأحوال الأمم السابقة التي عبر عنها القرآن بأيام الله ، وسنة الله ، ونحن نسميه بالتاريخ ، وذلك لكي يفكر الإنسان فيه ويستنتج منه نتائج نافعةً ، ويصل إلى نتائج مفيدةٍ بعيدة المدى ، وتؤثر في مستقبله تأثيراً عميقاً .

www.abulhasanalinadwi.org

يقول الدكتور محمد إقبال ـ رحمه الله ـ في خطبته الشهيرة[١] وهو يذكر ما قام به الإسلام من دورٍ فعالٍ في تنمية العقل، وتوسيع المدارك، وتوفير الوسائل والمصادر للعلم، فيقول:

«لكنَّ مشاهدات الباطن وسيلةٌ لا غير للعلم الإنساني، ويبين كتاب الله تعالى مصدرين له، أحدهما عالم الطبيعة، وآخرهما عالم التاريخ، ظهرت روحٌ خيِّرةٌ للعالم الإسلامي في الاستفادة منهما».

إنَّ الشمس والقمر، وامتداد السنين والأعوام، واختلاف الليل والنهار، وفوارق اللون واللغة، والفوز في حياة الأقوام والفشل فيها، وكلَّ ما ندركه ونعرفه بالحواس، كلُّ ذلك آياتٌ للحقيقة المطلقة في تصور القرآن الكريم، ولذلك يجب على كلِّ مسلمٍ أن يفكر فيها ويتدبَّر، بدلاً من أن يعرض عنها، شأن الأصمِّ، والأبكم، والأعمى، لأنَّ الإنسان إذا أعمش عينيه، وحوَّل نظره عن هذه الأشياء، وأعرض عنها، يبقى على حاله من العمى في مراحل حياته الأخرى.

إنَّ المسلمين عندما وصلوا بدراسة القرآن الجادَّة إلى حقيقة أن الكون يتحرَّك، ويدور، ويتصاعد، ويستمرُّ في حراكه ودورانه، بالإضافة إلى ما علَّمه الله من دعوةٍ إلى لفت النظر إلى الحقائق والمحسوسات الثابتة الصلبة، انصرفوا عن الفلسفة اليونانية وأنكروها، وقد كانوا قبل ذلك مفتونين بها، وكانوا يدرسونها بشغفٍ ونهامةٍ.

إنهم لم يشعروا في بداية أمرهم بأنَّ كتاب الله وآياته تتعارض مع روح الفلسفة اليونانية، ولذلك درسوا القرآن أيضاً في ضوء الفكر اليوناني والفلسفة اليونانية؛ ثقةً واعتماداً على حكمة اليونان.

لكن القرآن الكريم يؤكد على الحقائق المحسوسة الثابتة المحكمة، وحكمة اليونان تدور حول الأفكار، والنظريات، والمفاهيم، بدلاً من الحقائق والمحسوسات، فكان من الطبيعي أن تفشل هذه المحاولات في

(١) Reconstruction of Religius Thought in Islam.

www.abulhasanalinadwi.org

يوم من الأيام ، وهكذا حدث ، فتغلَّبت الروح الأصيلة للحضارة الإسلامية ، والثقافة الإسلامية ، حتى بعض جوانب الحضارة الغربية المهمة أيضاً مدينة للحضارة الإسلامية ، واستطرد يقول :

أطلق القرآن الكريم على التاريخ اسم أيام الله ، واعتبر التاريخ صدراً مهمَّاً للعلم والمعرفة ، وذكر أنَّ محاسبة الأقوام والأمم تجري على المستوى الفرديِّ والجماعيِّ كليهما ، وإنها تعاقب في هذه الدنيا أيضاً على أعمالها السيئة ، وهذا هو الذي أثبته القرآن بالحوادث التاريخية في مواضع كثيرة .

وبالإضافة إلى ذلك دعا القارىء إلى أن يفكِّر في أحوال الأمم الماضية ، والأحوال الراهنة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨١ ـ ١٨٢] .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] .

الربط بين الوحدات العلمية المفرقة :

إنَّ ما مثلته البعثة المحمدية ـ على صاحبها ألف ألف تحيةٍ وسلام ـ من دورٍ رائدٍ في توجيه الناس إلى هدف العلم الأصيل ، وفي جعله نافعاً إيجابياً وبنائه وسيلةً لليقين؛ هو أهمُّ من دورها الذي قامت به في توسيع آفاق العلم ، وتنشيط الحركة العلمية .

www.abulhasanalinadwi.org

يوم من الأيام ، وهكذا حدث ، فتغلَّبت الروح الأصيلة للحضارة الإسلامية ، والثقافة الإسلامية ، حتى بعض جوانب الحضارة الغربية المهمة أيضاً مدينة للحضارة الإسلامية ، واستطرد يقول :

أطلق القرآن الكريم على التاريخ اسم أيام الله ، واعتبر التاريخ صدراً مهمّاً للعلم والمعرفة ، وذكر أنَّ محاسبة الأقوام والأمم تجري على المستوى الفرديِّ والجماعيِّ كليهما ، وإنها تعاقب في هذه الدنيا أيضاً على أعمالها السيئة ، وهذا هو الذي أثبته القرآن بالحوادث التاريخية في مواضع كثيرةٍ .

وبالإضافة إلى ذلك دعا القارىء إلى أن يفكِّر في أحوال الأمم الماضية ، والأحوال الراهنة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨١ ـ ١٨٢] .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] .

الربط بين الوحدات العلمية المفرقة :

إنَّ ما مثلته البعثة المحمدية ـ على صاحبها ألف ألف تحيةٍ وسلام ـ من دورٍ رائدٍ في توجيه الناس إلى هدف العلم الأصيل ، وفي جعله نافعاً إيجابياً وبنائه وسيلةً لليقين؛ هو أهمُّ من دورها الذي قامت به في توسيع آفاق العلم ، وتنشيط الحركة العلمية .

www.abulhasanalinadwi.org

كان العلم عبارةً عن معلوماتٍ مفرَّقة ، بل كانت أجزاءً مضادَّةً متباينةً ، كان علم الطبيعة يحارب علم الدين ، وكان الأطباء والرياضيون يأتون بنتائج سلبيةٍ إلحاديةٍ في بعض الأحيان.

ولذلك نجد علماء اليونان الذين كانت لهم اليد الطولى في الفلسفة والعلوم الرياضية إلى قرون طويلة ؛ إما مشركين وإمام ملحدين. وكانت المدارس اليونانية وعلومها تشكِّل خطراً على الدين وتعاليمه ، وتقدِّم شهادةً ونموذجاً للملحدين والمشركين.

كانت منَّة الإسلام الكبرى في هذه الظروف: أنَّه أنشأ وحدة بين العلوم المتنوعة ، وربط الوحدات العلمية بعضها ببعض ، وهان عليه ذلك العمل ، لأنَّ الرحلة العلمية كانت قد بدأت من منطلقٍ أصيلٍ ، ومن مبدأ حقيقيٍّ ، وبدأ الإسلام هذه الرحلة اعتماداً على الإيمان بالله ، وعلى الاستعانة به ، والثقة بتأييده ، وعلى العمل بالآية الكريمة: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] إذا كانت البداية طيبةً فتكون العاقبة طيبةً في معظم الأحيان.

كشف الإسلام القناع عن الوحدة التي تربط الوحدات كلها بفضل الإيمان ، وهذه الوحدة هي المعرفة بالله ، ومدح الله تعالى عباده المؤمنين من أجلها فقال: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] ، كان الإنسان يرى الوحدات العلمية مضادةً في الزمن الماضي ، وتدهشه ، وتذهله ، وتوقعه في القلق والاضطراب ، وحينما تضطرُّه وتبلِّغه إلى أن يعمل؛ يلوم ربه ويدينه ، وينال من مجده ، فنظراً إلى ذلك منح العلم الإسلامي الذي ينبثق من الإيمان والقرآن ، ويقوم عليهما الإنسان ، وحدة علميَّة ربطت الوحدات كلها ، وهي إرادة الله الغالبة ، وحكمته الكاملة.

يقول العالم الألماني هيرالد هوفدنغ (Herald Hoffding) وهو يذكر اكتشاف الوحدة ، وتأثيرها على الحياة الإنسانية ، وعلى الرِّحلة العلميَّة ، والخلقية ، والتاريخية ، فيقول:

www.abulhasanalinadwi.org

«إن كلَّ دينٍ يقوم على أساس عقيدة التوحيد التي تقول إنَّ علة وجود كلِّ شيءٍ في هذا الكون واحدة فريدة ، ويؤثر ذلك الاعتقاد على الإيمان والاعتقادات والطبيعة الإنسانية تأثيراً حسناً ومهمَّاً ، بصرف النظر عن المشاكل التي تحدث بهذا الفكر وجوباً ، ويسهل بذلك على جميع من يحمل هذه العقيدة الاعتقاد بأن أشياء العالم كلَّها ـ بِغَضِّ النظر عن الخلافات الفرعية وتفاصيلها ـ تنخرط في سلك وحدةٍ قانونيةٍ واحدةٍ؛ لأنَّ وحدة العلَّة تقتضي أيضاً وحدة القانون.

رسَّخت الفلسفة الدينية في القرون الوسطى تصوُّر الوحدة في الكثرة في أذهان كثيرٍ من الناس ، الذي كان يجهله الإنسان غير المثقف لكثرة المظاهر الطبيعية ، وكان حائراً بمشاهدة هذه الكثرة ، ولم يكن يعرف الطريق إلى إيجاد صلةٍ ذاتيَّةٍ بينها»[١] .

نهضة أوربا وإسهام الإسلام في عهد العلم والحضارة المعاصرة :

يقول رابرت بريفارت (Robert Briffault) في كتابه : (The Making of Humanty) «ليس هناك جانبٌ من رقيِّ أوربا إلا وعليه منَّة المدنية الإسلامية ، وطابعها العميق» .

وأضاف قائلاً : «ليست العلوم الطبيعية وحدها (التي لا تنكر منَّة الإسلام عليها) مسؤولةً عن حياة أوربا الجديدة ، ووجود روحٍ جديدةٍ فيها ، بل خلَّفت المدنية الإسلامية آثاراً عميقةً على حياة أوربا ، ويبدأ ذلك العهد من العهد الذي بدأت فيه الأشعة الأولى للمدنيَّة الإسلاميَّة والحضارة الإسلامية .

يقال كثيراً : إنَّ النشأة الثانية لأوربا هي ثمرةٌ لإحياء الفكر اليوناني ، لكن المؤرخ الشهير (H.G. Vells) يرفض أنَّ القوة والعلم قد حصل عليهما العالم عن طريق اليونان ، فيقول : «إنَّ العلم الذي كان بدأه اليونانيون ، ثم ودعوه ، وتخلوا عنه ، أقبل عليه العرب ، بحماسٍ جديدٍ ، وعاطفةٍ

(١) Historm of Modern Philssphy P.S.

www.abulhasanalinadwi.org

جديدةٍ ، وجعلوه موضوعاً لهم ، وتبنَّوه ، وقاموا بتهذيبه ، وتنقيحه .

إذا كان اليونانيُّون مبتكرين للاكتشاف العلمي للحقيقة ، كان العرب مهذبين؛ لأنَّهم قاموا بتسهيله ، وشرحوه شرحاً سائغاً ، وحلُّوه بألفاظٍ وكلماتٍ موزونةٍ وملائمةٍ ، ونقدٍ إيجابيٍّ ، إنَّهم كانوا العرب لا اللاطينيِّين ، الذين منحوا العالم الجديد هديةً غاليةً ثمينةً للعلم والقوة[١] .

تفوق المسلمين العلمي الماضي ودورهم الرائد في العلوم النافعة والتجريبية :

إنني أستطيع أن أدَّعي في ضوء دراستي للتاريخ أنَّ المسلمين لم يقوموا بتأسيس دولٍ واسعةٍ كبيرة فحسب ، بل كانوا يمتازون أيضاً عن الأمم الأخرى بالعناية بالعلوم والبراعة في الفنون ، وكانوا يتفوّقون عليها من كلِّ جانبٍ ، وقد أنجبت الأمَّة الإسلاميَّة في جميع العصور نبغاء ذاع صيتهم ، وطبقت الآفاق شهرتهم في التعمق في الدراسة ، والرغبة في العلم ، والتأليف فيه بإخلاصٍ .

وبرز في القرن الأول عددٌ كبير من أئمة الفكر من المسلمين ، بالإضافة إلى المفسرين ، والمحدثين ، والفقهاء الذين لا يوجد لهم نظيرٌ في التاريخ العلميِّ الإنسانيِّ ، كان لا يدانيهم أحدٌ من علماء الأمم الأخرى .

لم يحصر المسلمون دائرة علومهم في العلوم الدينية من التفسير ، والحديث ، والفقه ، وأصول الفقه ، والدراسة المقارنة للأديان والمذاهب فحسب ، بل أبدوا براعتهم في علومٍ حديثةٍ كثيرةٍ ، وخدموها خدمةً جليلةً كالجغرافية ، والطبيعة ، والهندسة ، والطبِّ ، والكيمياء ، والتاريخ ، والنباتات ، والمدنية ، وقاد معظمهم العالم في هذه العلوم والفنون إلى قرون طويلة ، وخلفوا آثاراً ورسوماً لا تطمس أبداً .

نذكر هنا بعض هؤلآء العلماء المسلمين ؛ لأنَّ استقصاء جهود جميع هؤلاء العلماء يحتاج إلى مجلداتٍ ضخمةٍ ، ويستغرق وقتاً طويلاً .

---

(١) The Making of Humanity P.202.

www.abulhasanalinadwi.org

أئمة العلوم وواضعو العلوم من المسلمين:

الخوارزمي (م ٨٥٠/ ٢٢٦)، هو أول من ألَّف كتاباً عن الجغرافية العالمية، ويليه محمد بن محمد الإدريسي (م ١١٥٣/ ٥٦٠) الذي بين في كتابه: «الممالك والمسالك»: الطرق التجارية للعالم الإسلامي مع عرض خريطتها الجغرافية.

ألَّف ابن الهيثم (م ١٠٣٩/ ٤٣١) حوالي مئتي كتاب، سبعة وأربعون منها ألفت حول موضوع العلم الرياضي، وثمانية وخمسون عن الهندسة، وهو أول من قدم اقتراحاً لبناء سدٍّ أسوان، واكتشف اكتشافاتٍ مفيدةٍ في علم البصارة، وعرض في كتابه: «المناظر»: نظرية عن الإدراك البصري، فقال:

«إنَّ البصارة تنحصر على الأشعة التي تعود بعد الاصطدام بها».

محمد بن موسى الخوارزمي (م ٨٥٠/ ٢٢٦) هو أول من أضاف الصفر في العدد، وقام بتعيين مكانة الأعداد، وهو الذي اخترع الجبر.

وكان البتاني (م ٩٢٩/ ٣١٧) الذي سماه الغرب بالبتيني (Albategni) أو الباطنيوس (Albatenus) كان بارعاً في الفلكيات، وهو الذي قام بتقدير عوج الخسوف تقديراً صحيحاً، وقام باكتشاف مدَّة السنة الشمسية، والفوارق في الموسم، ومحور الشمس الأوسط، ورفض اعتقاد بطليموس أنَّ محور الشمس لا يتحرك.

أبو بكر محمد الرَّازي (م ٩٣٧/ ٣١١) الذي دعاه الغرب بـ ريزز (Rhazes) كان أكبر طبيب، بالإضافة إلى أنَّه كان فيلسوفاً عظيماً، وكيمياوياً أريباً، وقدم في كتابه الشهير: «الحاوي» استعراضاً للطبِّ اليونانيِّ، والمصريِّ، والعربيِّ القديم، والهنديِّ.

كانت لابن البيطار (م ١٢٤٨/ ٦٤٦) اليد الطولى في الأدوية في عصره، وذكر في كتابيه «المغني في الأدوية» و«الجامع لمفردات الأدوية» علاماتٍ للأمراض المختلفة، وذكر أربعمئة من الحيوانات، والنباتات والمعادن

www.abulhasanalinadwi.org

بإطنابٍ وتفصيلٍ من قبل نفسه ، أو على أساس مشاهدة ١٥٠ من البارعين .

أبو علي ابن سينا (م ١٠٣٧/٤٢٨) الذي عرفه الغرب بـ آوى سينا (Avicena) ألَّف على موضوع الفلسفة كتابه الشهير «النجاة» و«الشفاء» ، وعلى موضوع الطب كتابه : «القانون في الطب» وعلى علم النفس «أحوال النفس» وقد اشتهر بمئتين وواحد وثلاثين كتاباً ، ويقال : إنَّ مئةً وعشرة كتب أخرى تنسب إلى غيره هي من تأليفه ، وتقدر مكانته في الطب أنَّ كتابه في الطب ظلَّ كتاباً منقطع النظير مدة خمسة قرون ، أي : إلى أواخر القرن السابع عشر للميلاد ، وكان حجةً في موضوعه .

ومن هؤلآء الأعلام ، أو نجوم العلم اللامعة ابن خلدون (م ١٤٠٦/٨٠٨) الذي كان أكبر عالم للعلوم الاجتماعية ، والذي لفت الانتباه إلى البحث عن القوانين التي توجه الإنسانية ، ولفت الاهتمام إلى العلوم الاجتماعية قبل الفيلسوف الغربي كومتي (Comte) بخمسين سنة .

ولمع في هذه السلسلة العلمية اسم أبي ريحان البيروني (م ١٠٥/ ٤٤٣) لسعيه المشكور ، الذي كانت له اليد الطولى في الطبيعة وما بعد الطبيعة ، والأدوية ، والكيمياء ، والجغرافية ، والتاريخ ، بصفةٍ خاصَّةٍ ، وهو والعالم المسلم الآخر ابن الهيثم أساس البحوث العلمية لأوربا المعاصرة .

كارثة علمية تاريخية :

قبل أن أنتهي من هذا البحث أريد أن ألفت نظركم إلى هذه الحقيقة الثابتة الأساسية ، ينبغي لنا ألاَّ ينسى الإنسان أنَّه خليفة الله في الأرض ، وليس بذاته مصدراً للعلم ومنبعاً له ، إنما هو خليفة الله في الأرض ، يعمل بما يرضيه ، ويمتثل أوامره ، وينتهي عن نواهيه ، وذكر القرآن الكريم تعليم الأسماء لآدم ـ عليه السلام ـ بعد أن ذكر تمكينه في الأرض ، واستخلافه فيها ، وذلك يدلُّ على أنَّه كان مأموراً باستخدام علمه كخليفة الله في الأرض .

كانت المأساة الكبرى لتاريخ العلم بل لتاريخ العالم أن نسي الإنسان أنَّه كان خليفةً لله ، وكانت مسؤولية العالم تقع على كاهله ، ولم يبعث إلى هذه

www.abulhasanalinadwi.org

الدنيا سيِّداً ومالكاً يستخدم خزائن الأرض داخلها وخارجها للمصلحة الذاتية والقومية ، والعنصرية ، والطبقية ، أو لإحراز التفوُّق السياسيِّ.

كان يوماً سيئاً مشؤوماً اختار فيه الإنسان هذا الطريق المؤدي إلى الدَّمار والهلاك.

يستطيع هذا الشعور بأنَّ الإنسان خليفة الله في الأرض ، ولم يكن خالقها ومالكها أن يسيِّره على الصراط المستقيم ، لأنَّ المعرفة بهذه الحقيقة هي التي تستطيع أن تردعه من الحرِّية المطلقة.

انقطاع صلة العلم عن مالكه فتنةٌ عظيمةٌ في الحقيقة ، وقد نال الإنسان العلم وبرع فيه ، لكنه نسي خالق العلم.

أقول لكم بكلِّ صراحةٍ وأنا أعتذر إلى العلماء والقادة السياسيين في أوربا وأمريكا ، وإلى كلِّ من يفتخر بحضارة الغرب: أنَّ الإنسان وقع في خطأ كبيرٍ عندما اعتبر نفسه مالكاً أصيلاً للعلم ، ومستقلاً وحرّاً ، لما نسي بداية أمره؛ نسي غاية حياته ، وهدفها الحقيقيَّ.

وأقول لكم بكل شعور بالمسؤولية: إن الإنسان لا ينجح في تغيير ظروف العالم وإصلاحها إذا لم يعترف بأنَّه مخلوقٌ محضٌ يقدم إلى خالقه ويسأل عن أعماله ، وعليه أن يعتقد بأنه يقوم على جانب علمه ، والله سبحانه وتعالى خالق العلم يقوم على جانبه الآخر.

فإذا انقطعت هذه الصلة؛ نسي الإنسان هدف خَلْقه ، وتحولت الدُّنيا إلى ساحة قتال ، ومجزرة للإنسانية ، وتكون فيها سيطرةٌ لإهانة الإنسانية ، وغلبةٌ لأصناف الظلم والعبودية.

وآخر دعوانا أن الحمد للهِ ربِّ العالمين.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

انقطاع صلة العلم بالإسلام
مصدر الفساد في هذا العصر

ألقى العلامة الندوي هذه الكلمة في مناسبة إرساء حجر الأساس للمعهد العالي للعلوم والتكنولوجيا بلكهنؤ ، وافتتاح قسم الكمبيوتر في المعهد في قاعة المعهد الواسعة ، التي ضمَّت عدداً وجيهاً من كبار المثقفين والمهندسين ، وخبراء التعليم ، وأساتذة الجامعات وأعضاء المؤسَّسات العلمية والتحقيقية ، ألقى العلامة هذه الكلمة في أردو مراعاةً للظروف ، نقدمها هنا نقلاً من الأردوية إلى العربية .

www.abulhasanalinadwi.org

سادتي وإخواني! يغمرني فرحٌ وسرورٌ بهذه المناسبة السعيدة أن ألاحظ روح العمل ، والعاطفة الصادقة ، والواقعية ، والذهن البنَّاء في هذه الخطوة الجريئة لفتح قسم الكمبيوتر في هذه المؤسسة الحديثة ، إنّه يبشر بتقدمٍ ملحوظٍ للمؤسسة في مدَّةٍ قصيرةٍ.

إنَّ العالم الإنسانيَّ يتعرَّض اليوم لأخطارٍ رهيبةٍ ويواجه مشاكل متنوعةً رغم انتشار العلوم وتنوعها ، ونموها ، وازدهارها ، ورغم الاختراعات الجديدة النادرة ، والإنتاجات البديعة الفائقة ، فتتَّسع العلوم ، والمعارف ، ولكن تتشابك المشاكل ، وتتفاقم الأخطار مع ذلك؛ لأنَّ العلم وحده ، والمعرفة وحدها لا تصلح لهداية البشرية؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالى ربط العلم باسمه.

ويدلُّ على هذه الحقيقة الوحي الأول حينما أوحى الله إلى رسوله محمد ﷺ ، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] فإنَّ هذا الوحي يحمل معاني كثيرةً ، ويفتح كوَّةً جديدةً أمام الإنسان للتدبر والتفكير الواسع العميق ، وتلقّي الدروس والعبر ، وإنَّه من اقتضاء النعمة التي منحها الله الإنسان في صورة العقل لكي يفكِّر في مصيره وعاقبة أمره ، ويفكِّر في عشيرته ، وبيئته ، ولكن يجب عليه أن يفكِّر في جميع هذه الأمور على منوال الربوبية ، وعلى النحو الذي علَّمه الله صريحاً واضحاً بدون التواء ، أو غموضٍ ، ويجب عليه أن يؤمن به إيماناً كاملاً واعياً ، لا يشوبه شيءٌ من الريب والشكِّ ، والضعف في العقيدة.

فالوحي الذي نزل لأوَّل مرَّةٍ على النَّبيِّ الأميِّ ﷺ الذي لم يقرأ حرفاً من أيِّ كتابٍ ، ولم تخطَّ يده على ورقٍ قطُّ ، يبدأ بهذه الألفاظ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] فإنَّ هذه الحقيقة تشير إلى هذا المعنى البليغ ، ذاك أنَّ الأمة التي ستخرج وستبعث من جديدٍ في هذه الدنيا نتيجةٌ لهذه الرسالة السماوية الجديدة ، منوطةٌ بالعلم ومتميزةٌ بها ، وعلاقتها بالعلم رصينةٌ

www.abulhasanalinadwi.org

وطيدةٌ ، إنَّها تهتمُّ بالقراءة ، والعلم باستخدام القلم ، وتتخذه لها شعاراً في حياتها للتقدُّم والازدهار ، وتحبُّه حبّاً جمّاً ، وتتعلَّق به حياتها ومماتها ، ولقد انبلج فجر النَّهضة العلميَّة في أوربا بعد قرونٍ عاشتها في غياهب الظلام ، والانقطاع عن العلم والحضارة ، فارتقت بهذه النهضة علميّاً ، واقتصادياً ، وسياسيّاً ارتقاءً عظيماً ، ولكنَّها قطعت صلتها بربوبيته تبارك وتعالى ، ووحدانيته ، ونسي حملة لواء هذه النهضة : أنَّ العلم الذي يتجرَّد من اسم الربِّ لا يجدي شيئاً ، ولم يدركوا أنَّ مثل هذا العلم لا يغني عن الناس ، بل إنَّه يحدث ويثير ثورةً في النفوس على العقيدة والقيم الخلقيَّة ، ويؤدي إلى الدَّمار والفساد ، وتنفجر منه براكين الاستغلال ، والانتهازيَّة والحبِّ الزائد للمال ، والنهامة فيه ، وإنَّ هذا العلم يقود المجتمع الإنسانيَّ إلى إنكار الربِّ ، والشهوانية الجامحة ، والخلاعة ، والفجور ، والدَّعارة ، كما نشاهد اليوم في البيئات الأوربية ، والأمريكية ، والمجتمعات التي قد قطعت صلة علمها باسم الربِّ .

لو أراد شخص أن يؤرِّخ تاريخ هذا العالم من جديد بالجدية والواقعية والعدل ، ويكتب عن انحطاط الإنسانيَّة ، فأشير عليه أن يجعل عنوان هذه الكتابة التاريخية : انقطاع صلة العلم عن اسم الربِّ ، وتحرره عن ربقته تحرراً كاملاً ، ونسيان الإنسان خالق هذا الكون ، ونكرانه لجميله بل وثورته عليه وحده .

فهيهات على الإنسان أن ينسى ربَّه ونعمه السابغة التي أسبغها عليه بدون مشقَّةٍ وجهدٍ منه ، بل بدون أن يستحقَّها ، إنَّ ربَّه هو الذي يدبِّر هذا الكون ، ويديره ، وينظِّمه تنظيماً متَّسقاً متَّزناً ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

إخواني! إن ديننا وإسلامنا يتطلب منَّا أن تقوم مؤسَّساتنا العلمية ، والتعليميَّة ، والهندسيَّة ، ومختبراتنا التقنيَّة على أساس اسم الربِّ ومعرفته ، وبهذا تستطيع مجامعنا العلمية ، والتقنيَّة ، والتحقيقيَّة أن تقوم بدورٍ نافعٍ للإنسانية جمعاء ، والحقيقة أنَّ هذا العمل الكبير الذي يؤثر على

www.abulhasanalinadwi.org

جميع نواحي الحياة لا يستطيع أحد أن يؤدِّيه إلا إذا وضع أساسه من أول يومه على اسم الربِّ تبارك وتعالى.

إنَّني رجلٌ مكبٌّ على القراءة، والدراسة، والكتابة، لم يكن لي عهدٌ قبل هذا بالكمبيوتر، وليست عندي تجربةٌ وخبرةٌ في هذا المجال، ولكنَّني اليوم لما وضعت أصابعي على أزراره إيذاناً بالافتتاح، لمحت تلك الآثار والنقوش التي كنت قصدتها، فدار بخلدي أن الله تعالى جعل الإنسان في الواقع ـ وخاصَّة المسلم ـ مثل الكمبيوتر، ففيه تتوافر جميع المؤهلات والطاقات الهائلة، ولكنه يحتاج إلى من يثير كوامن هذه المؤهلات المطمورة والطاقات المغمورة فيه، فإنَّ الأنبياء وأتباعهم قد قاموا بهذا الدور الرائع النَّبيل على مرِّ العصور والأزمان في تاريخ الإنسانية، ووضعوا أصابع النُّبوة، والرسالة على هذا الكمبيوتر الإنسانيِّ فتجلَّت مواهبه الفطريَّة، والطبيعية جليَّةً واضحةً مبهرةً.

ومن الأسف الشديد نحن المسلمين الذين ألقى الله على كواهلهم مسؤولية الدعوة إلى الله وتوجيه الإنسانية في الحياة إلى أهداف ساميةٍ قد فقدنا هذه القوة المعنوية الحيويَّة، وضيعنا هذا الوعي والشعور بالمسؤولية، فلا توجد هناك أصابع توضع على هذا الكمبيوتر الإنسانيِّ من جديد؛ لينهض لأداء تلك الواجبات والمسؤوليات، ومن هناك ترجع المسؤولية إلينا في هذه الظروف الحرجة القلقة أن نستخرج كنوزنا المطمورة المنطوية علينا، المكنونة المودعة فينا من الله، ونقدحها قدحاً لنقوم بتلك الأعمال الجسيمة التي يقوم بها اليوم جهاز الكمبيوتر، هذه الآلة المادِّيَّة، ونضع أصابع التعاليم النبوية على الإنسانية حسب المتطلبات، والمتغيِّرات، والظروف، والملابسات، وأوضاع الأمَّة، وأحوالها.

إنَّ الحاجة ماسةٌ اليوم إلى مثل هذه المؤسسات التي تفرض على نفسها أنَّها لا تعلِّم مجرد الفن والعلم، بل تعلِّم خشية الله وتقواه في السرِّ والعلن، وتعلِّم الناس علماً قائماً على معرفة الله وعرفانه، وإقرار وجوده

www.abulhasanalinadwi.org

وخالقيته ، وقدرته على كلِّ شيءٍ ، وعلماً مبنياً على احترام رسالات رسله ، وتعليمهم الصادقة .

إنَّ أسواق أوربا وأمريكا مكتظَّةٌ وحافلة بالمخترعات الغربية ، والإنتاجات البديعة التي تقود العالم كلَّه إلى الشقاء والدَّمار ، لكن الشيء الذي لا يوجد في هذه البلاد إنما هو روح تقوى الله وخشيته ، واتِّباع أوامره ، والاجتناب عن نواهيه ، واحتساب العمل ، ورجاء ثواب الله ، ولذلك قلت مرَّةً في خطبتي التي ألقيتها في واشنطن ، قلت : إنَّ أمريكا حافلةٌ معمورةٌ بكلِّ شيءٍ ، ولكن ليس هناك «ما شاء الله» وليس هناك من يقول : ما شاء الله .

نتيجة لذلك تبذل أمريكا اليوم كلَّ المحاولات في مجالات خدمات الإنسانية ، وتوفير التسهيلات ، والوسائل ، والإمكانيات ، ولكن لا تنفع هذه الوسائل الضخمة الحياة الإنسانية شيئاً ، ولا تعطيها راحة البال ، وطمأنينة القلب ، بسبب انقطاع الصلة عن اسم الربِّ ، وفقدان الإخلاص له ، وركود الشعلة الإيمانية الملتهبة ، وخمود جمرة الإيمان الوهاجة التي تغير مجرى الحياة ، وتثير ثورةً عظيمةً فيها .

إنَّه يتحتَّم على مثل هذه المؤسسات أن تؤسس بناءها العِلميَّ على اسم الربِّ ، لتكون نافعةً للإنسانيَّة ، وتخدمها خدمةً جبَّارةً .

إنَّ هذه الدنيا لا تستطيع أن تنقذ نفسها من الوقوع في هاوية الخيبة والخسران ، ومن براثن الانتحار الغاشمة ، ولا تستطيع أن تتحف النوع البشريَّ تحفة الأمن ، والأمان ، والتعاون ، والمواساة ، والتواثق ، إذا لم يكن العلم والاسم يسيران معاً في حقول الحياة المختلفة .

وإنِّي أحبُّ أن تقام مثل هذه المؤسسات العلميَّة ، والصناعية ، والتقنيَّة وتؤسس الجامعات والكليات والمعاهد في جميع أنحاء الهند وأرجائها ، وفي الجاليات الإسلاميَّة كلِّها ، لتتطوَّر حياة المسلمين ، وترتفع مستوياتها على الصَّعيد العالميِّ ، وعلى ذلك يجب على جميع هذه المؤسسات ألا تنقطع صلتها عن اسم الربِّ تبارك وتعالى ، بل لا تضعف وشائجها بالدين

www.abulhasanalinadwi.org

شيئاً ، ويجدر بها أن تضفي عليها صبغة الدين وطابعه المميَّز ، حينئذٍ تستطيع هذه المؤسسات أن تقوم بدورٍ رائعٍ ملموسٍ في الحياة ، وتقود الإنسان المعاصر إلى ساحة العزِّ والسموِّ ، وتمهد الطريق إلى غدٍ أفضل ، ومستقبلٍ أضمن .

وما ذلك على الله بعزيز .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

دور الأمَّة الإسلاميَّة
في الحركة العلميَّة والتأليفيَّة العالميَّة
وإنشاء المكتبات وخزانات الكتب

زار سماحة العلامة الندوي الإمارات العربية المتحدة في صفر ١٤٠٤ هـ (١٦ ـ ٢٧ نوفمبر ١٩٨٣ م) وحَضَرَ خلال زيارته لها افتتاح مكتبة عالم المنطقة الجليل وداعيتها الإسلامي الكبير ، المرحوم الشيخ عبد الله المحمود رحمه الله ، رئيس مركز الدعوة الإسلامية بالشارقة سابقاً ، بدعوةٍ من أنجاله الكرام ، السادة: الدكتور سالم ، وأخويه محمد وعلي عبد الله المحمود ، حفظهم الله ، وحضر حفلة افتتاح المكتبة طائفةٌ مختارةٌ من رجالات الإمارات ، وعلى رأسهم سموُّ حاكم الشارقة سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي ، وسمو الشيخ حميد بن راشد النعيمي حاكم عجمان ، وعددٌ من الوزراء والأعيان ، كما حضر المناسبة معالي الشيخ عبد الله نصيف الأمين العام الأسبق لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرَّمة ، وقد أزاح الشيخ السلطان السِّتار عن اللوحة التذكارية إيذاناً بافتتاح المكتبة ، وألقى كلمة امتدح فيها جهود الشيخ المرحوم عبد الله بن علي المحمود ، ثمَّ تحدَّث الأستاذ محمد بن عبد الله المحمود بكلمةٍ شكر فيها سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمي ، ورَحَّبَ بالعلامة الندوي ، وتقدَّم بكلمة تعريف به ، وبجهوده ومؤلفاته ، وبعد ذلك ألقى سماحة الشيخ الندوي هذه الكلمة الّتي كانت مع وجازتها كلمةً منيرةً لائقةً بالموضع والموضوع .

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النَّبيين محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعه بإحسانٍ ودعا بدعوته إلى يوم الدين ، أما بعد :

إنَّ من ألغاز التاريخ العالميَّة الكبرى؛ التي لم تحلَّ بعد هي أن أكبر حركةٍ علميةٍ تاريخيَّةٍ معترفٍ بها في التاريخ ، في العالم. . . انبثقت من أعظم أمة أمية ، هذه الأمة التي قامت بهذا الدور الكبير في توسيع آفاق العلم ، وفي الابتكار العلميِّ الممتاز الضخم ابتكاراً لا يوجد له مثيلٌ في تاريخ الديانات ، في تاريخ الأمم والشعوب التي قامت على أساس الديانات ، مع أن نبيَّ هذه الأمَّة أميٌّ ، إنَّها لغزةٌ تاريخيةٌ تطلب حلاًّ ، ولكن ليس حلُّها سهلاً إذا عللت هذه اللغزة ، فإما تعلَّل بإرادة الله القاهرة ، وبحكمة الله الباهرة.

وقد تعلَّل هذه اللغزة بأنَّ أول وحيٍ نزل على سيدنا محمَّد ﷺ وجَّه فيه إلى العلم ، ومن الغريب المستغرب الذي لا يزال قد ستر عن انتباه الفلاسفة والمفكرين في العالم: أنَّ أوَّل ما ذكر في هذا الوحي القلم. . . هذه القطعة الخشبية الهيِّنة؛ التي كانت نادرةً غريبةً في الجزيرة العربية ، فقال الله تعالى في وحيه : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] إنَّه لم يكن يتوقع إنسانٌ عاقلٌ في ذلك الحين ، إنسانٌ عرف طبع الجزيرة العربية ، لا أقول الشائن ، ولكن الغريب ، مكانة الجزيرة العربية في عالم العلم ، في عالم التأليف ، وفي العالم المتَّصل بالأقلام ، المستعين بالأقلام ، المستعين بالكتابة ، إنَّ الذي اطلَّع على هذا الوضع الغريب الذي كانت تعيشه الجزيرة العربية لم يكن يتوقع أبداً أنَّ أوَّل وحيٍ ينزل على الرسول الأمِّيِّ عليه الصلاة والسلام ، وأنَّ أوَّل اتصالٍ للأرض بالسماء ، وبالأولى اتصال السماء بالأرض ، بعد فترةٍ طالت وامتدَّت خمسة قرون على الأقل ، يذكر فيه القلم ، هذا القلم. . . هذا القلم المنسي ، هذا القلم المتروك ، هذا القلم المستهان

www.abulhasanalinadwi.org

بقيمته؛ الذي استُغني عنه حتى أصبح لقب العرب الشائع السائر «أمِّيِّين» ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ . . .﴾ [الجمعة: ٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢] ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فهذا تناقضٌ تاريخيٌّ ، وهنالك تناقضاتٌ تاريخيَّةٌ كثيرةٌ ، ولكن من أهم هذه التناقضات هو انبثاق النشاط العلمي والحماس العلميِّ؛ الذي لا أجد كلمةً تحسن التعبير عن هذا التناقض هذا الحماس ، ويحقُّ لمن لا يحبُّ هذه الأمة ، ولا يحبُّ هذه الدعاية أن يقول ، أو يسمِّي هذا جنوناً ، لكن هذا التفاني في سبيل العلم انبثق من دعوة نبيٍّ أميٍّ لم يقرأ كتاباً ، والذي سأل سيدنا علي رضي الله عنه: أين اسمي ، ووضع ﷺ أصبعه ، وتنازل لمصلحة الناس في صلح الحديبية.

كيف انبثقت هذه الحركة العلميَّة العالميَّة الخالدة الممتدَّة على الأفق ، الممتدة على الزمان والمكان. . . مساحتها الزمنيَّة مساحةٌ قويَّةٌ من أقوى المساحات الزمنية ، ومساحتها المكانية من أكبر المساحات المكانية التي عرفت في تاريخ العلم والتأليف ، ومساحتها المعنويَّة أوسع من كلتا المساحتين ، وكذلك مساحة التنوُّع والتفنُّن في العلم والموضوعات.

أذكر لكم على سبيل المثال: أنَّ عالماً هنديّاً اسمه العلامة محمود حسن التوكي ، ألَّف كتاباً في الهند في بلادٍ لا تتكلَّم اللغة العربية ، وليست اللغة العربية هي لغة الديوان «في بلده» ولا لغة السياسة ، ولا لغة الصحافة ، ولا اللغة اليومية. . . يوفقه الله إلى تأليف كتاب سمَّاه «معجم المصنفين» في ستين مجلَّداً يحتوي على عشرين ألفاً من الصفحات ، وعلى تراجم أربعين ألفاً من المصنفين ، وناهيك من سعة الكتاب واستقصائه أنَّ فيه ألفين من المؤلفين كلهم يسمون «أحمد» وقد لخَّص في كتابه نحو ألفٍ وخمسين من الكتب ، وذكر كل من ترك بالعربية كتاباً منذ بدأ العهد التأليفي في الإسلام

www.abulhasanalinadwi.org

إلى ١٣٥٠ هـ[١] ، أين هذا النشاط العلمي؟ أين هذا الانتصار العلمي؟ أين هذه الفتوح العلمية التي غمرت الآفاق ، والتي غمرت الحدود الجغرافية؟

أين هذا النشاط العلمي من هذه الأمة الأمية المباركة؟ التي وصف الله تبارك وتعالى نبيَّه الحبيب إليها ، فقال : ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف : ١٥٧].

السبب في هذا السرِّ أنَّ الوحي الأول يشيد بالعلم ، وينوِّه بالقلم ، إنَّ هناك ديانات أيها السادة! ترى حياتها في موت العلم ، وترى ازدهارها وانتصارها في انهزام العلم ، كما أنَّ هناك حكاية تقول : إنَّ بعوضةً شكت إلى سيدنا سليمان الريح الهوجاء ، قالت : إنَّ الريح الهوجاء تظلمنا كثيراً ، فإذا هبت لجأنا إلى الفرار ، قال : لا بد من إحضار المدَّعى عليه ، ودعا الريح ، فإذا بالبعوضة قد طارت ، فقال : كيف نحكم على قضيةٍ في غياب مدَّعيها! كذاك أصحاب الديانات الكثيرة ، ومن هذه الديانات ديانة البرهمية في بلادنا التي نعيش فيها ، فهي ترى سرَّ بقائها في عدم اتصال مجتمعها بالعلم ، وعدم اطلاعه على الحقائق العلمية ، بالعكس من ذلك الإسلام ، الذي يربط مصير الدين بالعلم ، ومصير العلم بالدين ، كلٌّ منهما يرتبط مصيره بالآخر ، فالدين لا يعيش إلا بالعلم ، والعلم الحقيقيُّ لا يعيش إلا بالدين ، إنَّ الإسلام قد أضاف إلى فتوح الإنسان ، لقد عثر على الوحدة التي تربط بين وحدات العلم.

كانت وحدات العلم مبعثرةً ، بل كانت في أغلب الأحيان متناقضةً ، علم الطبيعة يخالف الدين ، علم الحكمة يخالف الدين. وقد ألف علماؤنا كثيراً في الجمع بين الدين والحكمة ، فالإسلام إنَّما أضاف إلى تقدُّم العلم وإلى مقدرته على التقدُّم في كلِّ مكانٍ وزمانٍ بأنَّه اكتشف تلك الوحدة التي تربط الوحدات بعضها ببعض.

ما هي هذه الوحدات؟ إنَّها معرفة الله تبارك وتعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي

(١) ظهرت من الكتاب أربعة أجزاء طبعت في بيروت على نفقة حكومة حيدر آباد السابقة.

www.abulhasanalinadwi.org

خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١] إنه اكتشف الوحدة التي تجمع بين الوحدات الكونية ، وهي إرادة الله .

وحدة إرادة الله هي الوحدة التي تربط الوحدات الكونية بعضها ببعض والتي قد تبدو متناقضةً ، وتاريخ المكتبات في العالم تاريخ قديمٌ ، وتاريخٌ عريضٌ واسعٌ ، كان تأسيس المكتبات ، وإنشاء خزانات الكتب من هوايات علماء المسلمين وأمرائهم ورؤسائهم ، فقد روى تاريخ الأدب العربيِّ أنَّ خزانة الصَّاحب بن عبَّاد اشتملت على مئتين وستة آلاف مجلد(١) وقد ألف حبيب بن أوس الطائي المشهور بأبي تمام كتابه الخالد الحماسة ، في مكتبة الأمير أبي الوفاء بن سلمة في الجبال شرق العراق حين وقع ثلج عظيم سدَّ الطرق ، فانتهز الفرصة ، وعمل ديوان الحماسة من الدواوين الوفيرة التي كانت في مكتبة أبي الوفاء(٢) وهكذا كتبٌ كثيرة ألفت في مكتبات شخصية ، وكان ذلك شأن الأمراء والرؤساء فضلاً عن العلماء والمؤلفين في الهند(٣) وأنا أعرف بصفتي هنديّاً أنَّ كثيراً من الأقيال ، ومن الملاك في زمن الإنجليز ، وقبلهم ، وبعدهم كانوا يحتفظون بمكتباتهم الشخصيَّة الخاصَّة ، وإن كانوا لا يستطيعون أن ينتفعوا بها شخصياً ، لأنهم لم يكونوا أصحاب اختصاص ، ولم يكونوا أصحاب دراسات ، لكنَّهم كانوا يفتخرون بأنَّهم يملكون مكتبة يرجع إليها من ينزل عليهم ضيفاً من العلماء ، فلا يسأم ، ولا يضيق صدره ، بل يشغل نفسه بقراءة الكتب .

ونظرةً في الكتب التي ألفت في القديم في استعراض مؤلفات علماء المسلمين في مختلف العلوم والفنون كالفهرست لابن النَّديم في القرن الخامس الهجري ، وكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون للحجاج

(١) معجم الأدباء ٧ ص ٩٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربي للدكتور حسن الزيات .

(٣) يكفي للمثال خزانة خدابخش خان في بتنه (الهند) ، ومكتبة السري الفاضل الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني في عليكره ، ومكتبة سالارجنك في حيدر آباد .

www.abulhasanalinadwi.org

خليفة جلبي (في القرن الحادي عشرالهجري) وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، وتاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين في العصر الحديث ، تكفي للدلالة على هيام علماء الإسلام بالكتابة والتأليف ، وتفنُّنهم في مختلف مجالات العلم وموضوعاته ، يكفي لفهم عالمية هذه الحركة العلميَّة التأليفية ما كان لشبه القارة الهندية البعيدة عن مركز الإسلام ومهد العلوم الإسلامية من قسطٍ هائل ، وإسهام رائع في هذه الحركة المباركة ، ونظرة عجلى في كتاب والدنا العلامة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١ هـ) «الثقافة الإسلاميَّة في الهند» الذي طبعه المجمع العلمي العربي في دمشق وأصدر له الطبعة الثانية حالياً ، تكفي للدلالة على ما كان لعلماء الهند من إنتاجٍ كثيرٍ من أنواع الثقافة الإسلامية ، ولا أعرف في دراستي القاصرة لتاريخ العلوم والفنون ، وتاريخ الأمم والشعوب أنَّ أمَّةً شغفت بالعلم خالصاً لوجه الله وخالصاً للعلم ، ولا أعرف أمَّةً شغفت هذا الشغف العظيم للعلم كأمَّة الإسلام الأمية .

ومناسبة افتتاح مكتبة المرحوم الشيخ عبد الله بن علي المحمود رمزٌ من رموز التاريخ الثقافيِّ للمنطقة ، وهي عرفان بالجميل لفضائل الفقيد ، وأرجو أن تكون هذه المكتبة نواةً لمكتبةٍ كبيرةٍ تسهم في إنشاء جيلٍ إسلاميٍّ جديد ، وأنا أهنىء هذه الأسرة الكريمة أنجال الفقيد العظيم فقد قاموا بواجبهم ، وأحسنوا الاختيار ، وهو إنشاء هذه المكتبة .

فللمكتبات دورٌ كبيرٌ وأهميَّةٌ عظيمةٌ في تنشئة الجيل الجديد وتكوينه العقليِّ والثقافيِّ ، والتمهيد للقيام بحركاتٍ إصلاحيةٍ واعيةٍ تعتمد على فهم الإسلام والدراسات الإسلامية ، والدراسات العميقة الواسعة .

ولقد كانت الصلة التي تربطني بالشيخ صلةً دينيَّةٌ علميَّةً بعيدةً عن كلِّ اعتبارٍ دنيويٍّ ، وأكثر ما أكبرته فيه هو الغيرة على الدين والإيمان والاحتساب في الأعمال ، لقد رافقته في الهند خلال بعض جولاته الدعوية ، فوجدته كان يحتسب كلَّ خطوةٍ ، ويحتسب كلَّ حركة في سبيل الله تعالى ، وفي سبيل الدعوة الإسلامية ، وفي سبيل رفع كلمة الإسلام ،

www.abulhasanalinadwi.org

ولي الفخر الكبير أن أحضر هذه المناسبة الخالصة المخلصة وفاءً لحقٍّ عالمٍ ربانيٍّ مخلصٍ لله تعالى كما أعرفه ، وهكذا يجب أن يكون وفاء التلاميذ للأساتذة ، وهكذا يجب أن يكون حب الأبناء للآباء .

وحضور هذه المناسبة الكريمة وفاءٌ ببعض حقوقه علينا واعترافٌ بفضله ، رفع الله درجاته وتقبَّل منه صالح أعماله ، وجعل البركة في بيته وأنجاله ، وأشكركم على دعوتكم ، والسلام عليكم .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

علاقة العلم بالإسلام

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة مرتجلاً في مدينة كوالالمبور (ماليزيا) لدى زيارته لهذا البلد المسلم في شعبان ١٤٠٧ هـ الموافق إبريل ١٩٨٧ م. وذلك في مركز اللغة الماليزية بوزارة التعليم والتربية، بدعوةٍ منها، حَضَرَها نخبةٌ من رجال التعليم والتربية وخبراء الثقافة، والمعنيُّون بشؤون التعليم وأساتذة الجامعات. نُقدِّم الآن إلى القراء هذه المحاضرة القيِّمة نقلاً من الشريط المسجَّل.

www.abulhasanalinadwi.org

سادتي وإخواني! الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العظيم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

إخواني! أنا سعيدٌ جدّاً بأنني ألتقي الآن بمجموعةٍ منتقاةٍ، أستطيع أن أقول: بالمهندسين للجيل الجديد، فكما أنَّ هنالك المهندسين للمباني، كذلك أنتم رجال التربية، والمعلمون، والمخططون لسياسة التعليم والتربية، المهندسون للجيل الجديد، أنتم الذين تصوغون الجيل الجديد صياغةً، فإذا أحسنت الصياغة فنعمَّا هي، أما إذا لم تحسنوا الصياغة فهنالك تحدٍّ كبيرٌ، هنالك قضيةٌ هامَّةٌ، قضيةٌ رئيسيةٌ، جذريةٌ، ثوريةٌ، ربما تتَّجه بالأمَّة، وبالشعب، وبالبلاد الإسلامية التي لها تاريخ في الإسلام، ولها خلفياتٌ عديدةٌ، تتجه بها إلى صفةٍ لا تتفَّق مع عقيدة هذا الشعب، ومع حاجات هذا الشعب، ومع مستقبل هذا الشعب.

سادتي، إخواني، وأخواتي! إنَّ الآيات التي تلوتها عليكم إنما هي أول وحيٍ نزل على رسول الله ﷺ في غار حراء، أوّل وحيٍ نزل على محمَّد بن عبد الله ﷺ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١ ـ ٢] فورد الإسلام مع العلم، ولم يتأخَّر ظهور العلم دقيقةً واحدةً، وجاء الإسلام مع العلم، فإذا قلت: جاء الإسلام مع القلم أيضاً لا أبالغ، لأنَّ القلم لعب أكبر دورٍ في تاريخ الإنسانية، لا أقول في تاريخ العلم والثقافة، لعب أكبر دورٍ، وأمثل دورٍ في نشر العلم، ولكن ألفت نظركم إلى أنَّ أول وحيٍ نزل على النَّبيِّ ﷺ الذي اختاره الله بعد ما مضى على الوحي الذي نزل على النَّبيِّ عيسى على نبينا، وعليه الصلاة والسلام خمسة قرون تقريباً، الفترة التي وقعت بين نبوَّة سيدنا عيسى، ونبوة محمَّد عليهما الصلاة والسلام لا تقلُّ عن خمسة قرون، فكانت الصلة منقطعةً بين السماء والأرض، كانت الإنسانية تعيش من غير تعاليم السَّماء، من غير هداية السَّماء، والسَّماء لا تحتاج إلى الأرض، ولكن الأرض تحتاج إلى السماء، وإلى تعاليم

www.abulhasanalinadwi.org

السماء ، فهذا أوّل وحيٍ ينزل ، وأوّل صلةٍ تقوم بين الأرض والسماء بعد خمسة قرون ، فماذا كانَ منتظراً ، ماذا كان يتوقع؟ لو اجتمع عددٌ كبير من العقلاء والفلاسفة وقيل لهم: يا أساتذة! إن تثبت صلةٌ بعد فترة طويلةٍ بين الأرض والسماء ، ويختار نبيٌّ من أمّةٍ أمّيّةٍ لا رغبة لها في العلم ، حتى إن اليهود لقبوهم بالأميِّين ، فأخبرونا عن أول آية تنزل على نبيٍّ أميٍّ في بلادٍ أمِّيّةٍ ، وفي أمّةٍ أمّيّةٍ ، وما هو الشيء الذي سيبدأ به أول وحيٍ؟ أنا متأكدٌ أنَّ البعض يقول: يبدأ هذا الوحي بالعبادة أو بالتوحيد ، وأنا مؤمن كلَّ الإيمان بأنه لم يكن يوجد هناك أحد يقول: يبدأ هذا الوحي بـ «اقرأ» كيف يخاطب بهذا أميٌّ في بلاد أميٍّ في أمّةٍ أمّيّةٍ ، لا شأن لها بالعلم ، وكان القلم أندر من هذا ، فهل كان يتوقَّع أحدٌ أن يكون للقلم نصيبٌ في هذا الوحي؟ لأنَّ القلم كان من أندر الأشياء في ذلك الحين ، حتى إنَّ المثقفين ما كانوا يسمَّون Writers يعني: (كتَّاباً) ، وما كانوا يسمون Cultured يعني: (مثقفين) لأنَّ فن الكتابة كان شيئاً نادراً جداً بالنسبة إلى العرب.

لقد ربط الله هذا الدين الإسلاميَّ الذي جاء به محمَّد ﷺ والذي يؤمن به كلّنا ـ والحمد لله ـ وندين به ، ونعتزُّ به ، ونريد أن نعيش ، ونموت عليه ، هذا الدين ربطه الله تبارك وتعالى في أوّل ساعةٍ بالعلم ، والقلم.

وقلَّما فكَّر المفكرون فيما إذا كان الوحي الذي نزل في أمّةٍ ترتكب المنكرات ، كيف يكون ، وكيف ينزل هذا الوحي بكلمة اقرأ ، وكيف يأتي في سياق هذا الوحي ذكر القلم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤ ـ ٥] ذلك القلم الذي إذا خرج من إشراف الوحي ورقابته كان آلةً مدمِّرةً ، وكان ضرره أكبر من نفعه ، وقد جربنا هذا في التاريخ الماضي ، هذا العلم أنكر اسم الربِّ ، هذا العلم الذي اكتشفت به الطاقة الذرية (Atomic Energy) هذا العلم الذي تحرر من التعاليم السماوية ، وتحرر من الهداية الربَّانية ، هذا يخترع آلاتٍ مدمِّرة ، إنَّ قنبلةً ذريَّةً صغيرةً تستطيع أن تدمِّر العالم في دقائق ، في ثوان ، أنتم تعرفون جيداً ماذا حدث في هيروشيما وناغاساكي ، فالعلم كلَّما جهل الربَّ ، وأنكر الربَّ؛ كان خطراً على الإنسان.

www.abulhasanalinadwi.org

وأقول لكم يا سادة! ـ في بلدٍ إسلاميٍّ ـ لا يجوز ، ولا يتصوَّر أن يخرج العلم من عفته ، وأن يخرج من ظلال اسم الله تبارك وتعالى ، ومن ظلال الإيمان ، ومن ظلال القرآن ، لأنَّ هذا حقُّ الشعب المسلم ، حق أبناء المسلمين ، حق آباء ، وأبناء المسلمين ، حق هذه الأرض التي دخلها الإسلام ، وزرع ما زرع ، وصنع ما صنع من هذا الشعب المسلم ، ومن حقِّ هذه الأرض أن يكون العلم واسم الله تعالى مترابطين متلاصقين ، متوافقين متآلفين في مصلحة الإنسانيَّة .

حضرات الأساتذة والمعلمات! إنَّني قرأت كثيراً عن غاية التربية ما هو المقصود منها ، بدأت حياتي معلِّماً ، ولا أزال معلماً ، وموضوعي المفضل التعليم ، فقرأت كثيراً ، ولكن أحسن ما قرأت ، والذي خاطب ضميري وفكري ، هو ما قرأته لأحد كبار أصحاب الاختصاص في موضوع التعليم ، إنَّه كتب في دائرة المعارف البريطانية تحت عنوان: ما هي التربية ؟ وما غاية التربية ؟ يقول: إنَّ غاية التربية الأولى والأساسية أن ترسخ القيم ، والمثل ، والعقائد التي يؤمن بها الشَّخص ، هذه هي الغاية الأولى ، وهي أن تثبت القيم ، والمثل في عقول الناشئة ، وهذه هي غاية التعلم ، فإذا حقَّق النظام التعليميُّ هذه الغاية فهي تربية أمينةٌ ، أمَّا إذا أحدثت التربية فجوةً بين المثل والقيم التي يؤمن بها الشعب ، أيّ شعبٍ كان ، فإنها فقدت الغاية الأولى من التعليم والتربية ، هذا ما قاله خبيرٌ تعليميٌّ تربويٌّ عن كلِّ شعب ، يقول: إنَّ غاية التربية أن تثبِّت المثل والقيم والعقائد التي يؤمن بها الشعب ، لأنه إذا لم يتمَّ ذلك لأحدث فجوةً بين طبقات الأمة ، وبين هذه الطبقة المثقفة ، ويكون خليجٌ بين الآباء والأبناء ، خليجٌ بين العقلاء والسفهاء ، فهذا الخليج أضرُّ على الشعب من العدوِّ الخارجيِّ الذي يأتي من الخارج ، ويذهب ، هذا الخليج موجودٌ بين طبقات الأمَّة وبين الجيل الذي بيده زمام الحكم ، وبين هؤلاء الناشئة الذين يتخرَّجون من الكلِّيات ، ومن الجامعات ، هذه الفجوة أكبر خطراً ، وأكبر ضرراً من العدوِّ الخارجيِّ ، لأنَّ هذه الفجوة تحدث صراعاً بين هؤلاء الذين هم في جهةٍ ، وهؤلاء الذين هم في جهة أخرى ، فتضيع الطاقات والقوى ،

www.abulhasanalinadwi.org

هذا ما وقع في كثيرٍ من البلدان الإسلامية ، قد نشأ هناك جيلٌ جديدٌ مثقّفٌ قد تربّى وأخذ ثقافته من الجامعات الأوربية والجامعات المحلّية كذلك ، لأنَّ نظام الثقافة هو النظام المستعار من الخارج في كثير من البلاد ، فنشأ جيلٌ لا يمتثل للجماهير وللشعب امتثالاً دقيقاً شاملاً ، هؤلآء في وادٍ ، وهؤلآء في وادٍ ، هؤلآء الناشئون يريدون أن يلعبوا ، وينعموا ، ويرزقوا اللذيذ ، ولا تهمُّهم مصالح الشعب ، فلا يعرفون تقدير الشعب ، كأنهم أمّةٌ وهؤلآء أمّةٌ ، كأنهم جيلٌ ، وهؤلآء جيلٌ ، إذا كانت نتيجة التربية هذا الفراق فلا فائدة في التربية ، لو بقيت الأمّة غير مثقفةٍ بالثقافة الجامعية لكان خيراً لها ، فإنَّ التعليم والتربية التي تحدث اضطراباً عقليّاً ، وتناقضاً مادّياً ، تناقضاً اجتماعياً ، هو تعليمٌ فاشلٌ ، وكان الجهل أفضل من ذلك العلم .

العالم الإسلاميُّ في الوضع الشديد يجتاز هذه المرحلة ، مرحلة الصراع ، وذلك هو سبب الثورات ، الثورات التي تحدث في هذه البلاد لأنَّ الطبقة المثقفة هي تقدر بعقلٍ آخر ، ولها أسسٌ وقيمٌ غير جماهيرية ، أما إذا كانت البلاد مسلمةً فأهمية القضية متزايدةٌ؛ لأنَّ هذا الشعب يؤمن بقيمٍ نزلت من السماء ، وهي مقتبسة من القرآن ، وهي مستفادةٌ من النبع الإلهي ، فغاية التربية في بلدٍ إسلامي هي أدقُّ وأكثر خطورةً من قضية التربية في بلادٍ أخرى ، فأقول لكم : إنَّ أول وأهم شيءٍ للمعلمين والمعلمات والمخطِّطين والمخطِّطات أن يوفِّقوا بين المخطط التعليميِّ وبين عقائد الأمة ، وقيمها ومثلها ، فالقيم التي فيها سرُّ سعادة البشرية ، فيها سرّ الازدهار والانتصار ، يجب أن يكون المخطط التعليمي وافياً مخلصاً ، بل خادماً لتلك القيم والمثل ، والتي أخرجت لها هذه الأمة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] والقرآن يقول : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٥] .

فيجب أن يكون نظام التربية هو الذي يغرس الإيمان في القلوب ، وإذا كان موجوداً فهو الذي يثبت ، ويغرس ، ويسقي ، ويغذِّي هذه

www.abulhasanalinadwi.org

الإيمانيات ، وهذه المثل ، وهذه الأخلاق الإسلامية في قلوب الناشئة ، حتى ينشأ جيلٌ مثقفٌ يفهم الدين فهماً صحيحاً ، ويحبُّ الدين حبّاً عاطفياً ، وعقليّاً ، وهو مؤمنٌ بهذا الدِّين ، مقتنع به ؛ لأنَّه الدين الأخير الذي يعرف رسالة الأمَّة ودورها في المجتمع في كلِّ زمان ، ويعرف ما واجبها ، يفهم كلَّ ذلك ، ويؤمن به ، ويتحمَّس له ، ويحسن نقله إلى الأجيال الآتية ، هذا هو المخطط التعليميُّ العاقل الفاضل الكامل ، أما المخطط الذي يحدث الاضطراب ، والصراع في المجتمع ، ويبذر بذور ثورةٍ حتى تكون الثورات ، يثور الجيش ، يثور المثقفون ، فلا تستطيع البلاد أن تزدهر وتتقدَّم ، فذلك نظام تربويٌّ فاشل ، فيجب علينا أن نختار المخطط التعليميَّ والتربويَّ موافقاً للأمَّة ومع عقائدها ونفسيتها ، ويكون الهدف خاضعاً لعقائدها ، ويكون علم السياسية ، وعلم الاقتصاد ، والتكنولوجيا ، في كلِّ ذلك انسجامٌ ، وفيه توافقٌ ، وبينه تعاونٌ على إسعاد هذا الشعب ، التعاون على أداء رسالة هذا الشعب ، وخدمة الإنسانية جمعاء ، والدعوة إلى الدين الصحيح ، إلى دين الحكمة ، إلى دين العدل .

فالنظام التعليميُّ غايته الأولى أن يغرس القيم والمثل في هذا الشعب ، وأرجو أن يجرِّب هذا النظام رجال التربية والتعليم ، ويوفقون بينه و بين هذه الحقيقة العقائدية الإيمانية وبين الفنون التربوية والعلمية في هذه البلاد .

والله وليُّ التوفيق .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

علاقة العلم الإنساني بالاسم الرَّبانيِّ ومسؤولية المسلمين

هذه المحاضرة ارتجلها العلاَّمة الندوي في اجتماعٍ عقده «منبر رسالة الإنسانية» في مدينة «إله آباد» (الهند) يوم ١٠/ ديسمبر ١٩٨٩ م أمام حشدٍ عظيمٍ من المثقفين والطلاب والجماهير. وبما أن المحاضرة تحمل قيمةً علميَّةً وتوجيهيَّةً نقدِّمها إلى القرَّاء معرَّبةً.

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ المأساة الكبرى التي يواجهها العالم اليوم رغم تقدُّم العلم والحضارة ، وتوافر الثروة ، وارتفاع مستوى المعيشة ، ووجود الاتصالات بين مختلف الجاليات ، والطوائف والمجتمعات في العالم ، مردُّها انقطاع صلة العلم الإنساني بالاسم الرَّبانيِّ ، وقد كان يجب أن تبدأ مسيرة علم الإنسان بالبحث عن حقائق الكون ، والحياة ، والإنسان ، وتسير هذه المسيرة في نور الله ، وإرشاد التعاليم السماوية ، والتوجيه الربانيِّ ، لكن العلم قطع صلته بهذا النور ، وانفصل عن التوجيه الرَّبانيِّ ، بل تمرَّد عليه وثار ، فكانت نتيجة هذا الانفصال أن أدَّى العلم إلى الدمار والفساد ، ووجهت الوسائل التي اخترعها العلم إلى إفساد المجتمع ، وتشويه طبيعة الإنسان.

إنَّ السفر في الغابات والأدغال ، والأماكن الموحشة لا يحمل تلك الأخطار ، والمهالك ، التي يحملها سفر العلم بدون التوجيه الربانيِّ ، وكلَّما انقطع سفر الإنسان عن تعاليم خالق الكون ، ونوره ، وعن الغايات التي خُلق من أجلها ، ومسؤوليات الحياة في هذه المعمورة ، وعن الدور المعهود بالإنسان وحقوقه ، كلَّما انقطع سفر الإنسان عن هذه الغايات أو انحرف عنها ، كانت عاقبة هذا السفر الفساد والدَّمار.

لقد انتقلت قيادة العلم في هذا العصر إلى أوربا ، وتقدَّمت أوربا في العلم ، ولكن العالم اليوم يتعرض للمآسي ، والفتن ، من قتل النفس ، والطغيان ، والبغي ، كلُّ ذلك يرجع إلى انقطاع علم أوربا عن تعاليم خالق الكون ، فلا يسبب هذا التقدُّم في العلم بناء الإنسان وتثقيفه ، وإنما يسبب نشر الفساد والفوضى على أوسع نطاق.

إنَّ العلوم أقسامٌ وأنواعٌ ، مثلاً صناعة الأقفال علمٌ ، وكسر الأقفال أيضاً علمٌ ، ولكن علم كسر الأقفال يؤدِّي إلى التخريب ، وعلم صناعة الأقفال يؤدِّي إلى الجمع والحفظ ، وإذا سار العلمان معاً فإن العلم الذي

www.abulhasanalinadwi.org

يكسر ويعلم وسائل السَّرقة والنهب يقضي على ما يحقِّقه علم الصنع والبناء.

وكذلك هناك علمٌ لبناء الحياة وتعميرها ، وتوجيه خلق الإنسان وإرشاده ، وهناك علمٌ لإفساد الأخلاق ، وإثارة الغرائز السَّيِّئة ، وتخريب ذهن الإنسان وتعليمه وسائل الطغيان ، والتمرُّد ، والجموح ، فإذا وجد العلمان وترعرعا ، ونالا قوَّةً ، وجد التَّصارع ، وغلبت قوى التدمير.

إنَّ شقاء الإنسان بدأ بانحراف العلم عن طريق الإرشاد الربانيِّ ، فاتجهت حضارتنا إلى التخريب ، لأنَّ الإنسان نسي كيف خُلق ، ولماذا خُلق ، وما يترتب عليه من واجبات ، وسلوك ومناهج في حياته مع بني جلدته ، وما هي مسؤولياته؟ ونسي أنَّه عبدٌ ، وليس بمعبودٍ ، وضعيفٌ وليس بقويٍّ ، نسي أن العلم بدون سياجٍ خُلقيٍّ خطرٌ عظيمٌ.

لقد أوضحت الآية الأولى التي نزلت في القرآن الكريم الصلة القائمة بين العلم الإنسانيِّ والاسم الربانيِّ ، إنها تؤكد ارتباط العلم بالذات الإلهية ، بالخالق وخلقه للإنسان ، ونشأة الإنسان ، وموقفه إزاء العلم ، فقال القرآن الكريم مشيراً إلى هذا الارتباط : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العلق : ١ ـ ٨].

أليس من الحقيقة أنَّ الفساد الذي ينتشر في عالمنا اليوم يصدر من طبقة العلماء أكثر مما يصدر من طبقة الجهلاء ، وأنَّ مصدره العلم ، وليس مصدره الجهل ، فإنَّ العلماء يكتشفون بعلمهم مجالاتٍ للتخريب ، والتدمير ، وتلويث المجتمع الإنساني بالنزعات ، والدوافع المفسدة ، وإنَّ التقدُّم الذي حصل في الصناعة ، والتكنولوجيا ، يتَّجه إلى اختراع وسائل التَّدمير أكثر مما يوَجَّه إلى اختراع وسائل التعمير ، لأنَّ العلم انقطع عن العقيدة الصحيحة ، واستغنى عن الدين وتكاليفه ، وصرف نفسه عن عواقب الأعمال ، وخصائص الأعمال.

كان العرب أميِّين ، فكان فسادهم محدوداً ، ومقيَّداً ، ينحصر على

www.abulhasanalinadwi.org

مجتمعهم المحدود ، وبيئتهم الخاصَّة ، ولكن علماء هذا العصر سببوا بانحرافهم حروباً طاحنةً ، ومآسي عالمية النِّطاق ، ومجازر بشرية هائلةً كلفت الملايين من البشر .

لقد تقدَّم العلم في العصر الحاضر ، وأنشئت جامعاتٌ ، وانتشرت كلِّياتٌ ، وأصبح عدد العلماء يتدفَّق ، وأضحت وسائل الإعلام والتربية والتوجيه الذهني تتَّسع وتشمل المجتمعات الإنسانية في العالم كلِّه ، وتقدَّم فيها برامج يخططها ويرتبها ويعرضها أصحاب الكفاءات العلمية والفنِّيَّة ، ولكن ما هي نسبة التعمير ، وما هي نسبة التخريب في هذه الوسائل التي هي نتيجة العلم ، وما هي نسبة الجهل الناتج عن العلم الذي انحرف عن طريق العلم الرَّبانيِّ؟

إنَّ هذه الآية كلامٌ معجز ، نزلت في عصر عدم انتشار العلم ، لكنَّها تشير إلى عصر انتشار العلم ، وتوضح نتائج انفصال العلم عن الاسم الرَّبانيِّ ، كأنَّ الآية تخاطب إنسان هذا العصر ، إنسان عصر العلم المجرَّد ، وقد أثبتت التجارب أن انقطاع العلم سبب الطغيان ، والبغي .

لقد تقدَّم المسلمون في نشر العلم ، وسجَّلوا صفحات مجيدةً في البحث العلميِّ بارتباطهم بالدِّين ، فقد ترك المسلمون مكتباتٍ ضخمةً ومدارس في الأندلس ، وبغداد ، والقاهرة ، وإذا ألقينا النظر على منطقةٍ واحدةٍ؛ وجدنا الشغف بالعلم على قمَّته في أوساط العلماء الرَّبانيِّين ، فقد ألف مولانا عبد الحي اللكهنوي وحده ١١١ كتاباً ، وصنَّف الشيخ صديق حسن القنوجي ، أمير بوفال ٣٠٠ مؤلفاً ، أمَّا تأليف الشيخ أشرف علي النهاوي فتبلغ ألفاً ما بين صغيرٍ وكبيرٍ ، هذه بعض الأمثلة ، وهي لمنطقةٍ واحدةٍ ، وأمثال هؤلاء العلماء في التاريخ الإسلاميِّ كثيرةٌ .

وقد أشار الشاعر الهنديُّ الإسلاميُّ الدكتور أكبر الإله آبادي في شعره إلى هذه الحقيقة ، فقال ما معناه : «إنَّ الغوص في بحر العلوم الأوربية يثقِّف اللسان ، ولكن لا ينقِّي القلب» .

إنَّ تاريخ الغرب يدلُّ على هذه الحقيقة ، فإذا كان تقدُّم العلم المجرد ،

www.abulhasanalinadwi.org

يكفي لتقدم الإنسان وسعادته لما واجهت أوربا المشاكل والصراعات التي تواجهها ، ولما تعرَّضت للمجازر ، والمآسي التي تعرَّضت لها .

لقد ربط القرآن الكريم العلم بالرحمة والكرم فقال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن : ١ ـ ٢] و﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] فالله هو الرحيم الغفور ، الأكرم ، والعلم الذي يستنير من الاسم الرَّبانيِّ ، والاسم الرحمانيِّ لا يمكن أن يكون العلم الذي يخرِّب ، ويدمِّر ، ويفني ، وإنما يكون علم البناء ، والتعمير ، والتربية ، والتوجيه الإنسانيِّ .

كان هذا العصر عصر العلم ، وعصر القلم ، وعصر البيان ، ولم يكن عصر السيف والسِّنان؛ لأنَّه عصر الحضارة ، والمدنية ، انتشرت فيه الكتابة والقراءة ، ولكن من سوء تدبير الإنسان تحوَّل العلم إلى وظيفة السَّيف والسِّنان ، ووجِّه الإعلام إلى وظيفة السيف والسنان ، وترك البناء والتعمير ، فيخدم العلم في هذا العصر ما كان السيف يخدمه في العصر الماضي ، عصر الجهالة ، والظلام ، ولا يمكن تحويل اتجاه العالم اليوم من طريق الهدم إلا بتحويل العلم إلى الاستفادة من الاسم الرَّبانيِّ .

وأوجه في ختام الموضوع انتباهاتكم إلى أمور ثلاثة :

١ ـ تربية النشء الجديد تربيةً دينِّيةً ، وإيجاد الوعي والشعور الدِّينيِّ ، والمسؤولية الدِّينية والشعور بالانتماء إلى الأمَّة الإسلامية ذات الرسالة الإنسانية الخالدة ، والتمسك بالثقافة الإسلامية ، واعتبار كلِّ شخصٍ أنَّه مسؤول عن أسرته ، وبيئته ، فيوجه عنايته إلى إصلاح كلِّ فساد ، وإلى توجيه بيئته إلى طريق الخير والبناء ، إنه لمسؤوليةٌ يتحمَّلها كلُّ فردٍ وجماعةٍ من المسلمين باعتبارهم أفراد أمة هدايةٍ ، ولا ترجع هذه المسؤولية إلى الحكومات .

٢ ـ إنَّ اللغة الأردية[1] تحمل الثروة الغنية للثقافة الإسلامية والفكر

---

(١) ذلك لأنَّ اللغة الأردية هي لغة المسلمين في البلاد ، وقد نقلت كنوز علوم الشريعة =

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلاميِّ ، وثروةً علميَّةً قلَّما يوجد لها نظير في اللغات الأخرى ، فلا بدَّ من صيانة هذه اللغة وحفظها من الفناء.

إنَّ الله تعالى وعد المسلمين بنصره إذا بذلوا مجهودهم فقال: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢] فإذا بذل المسلمون جهداً فإنَّ الله سيزيدهم قوَّةً.

٣ ـ الأمر الثالث: التخلق بالأخلاق الإسلامية فيجب أن تتوافر في المسلمين الخصال الطيبة ، والتقدُّم إلى الخير بوسائل الخير ، ويكون سلوكهم سلوك خير أمَّة لا سلوك الأمم الأخرى ، فإذا وجدت فيهم القدوة الحسنة ، وتوافرت فيهم الخصال الطَّيبة ، فإن الأمم الأخرى ستنظر إليهم باحترامٍ ، وتجدِّد ثقتها فيهم ، وتتغيَّر الأوضاع التي يعيشون فيها ، وإذا تحققت هذه الخصال ، وتجلَّت في حياة المسلمين ، فإنَّ كثيراً من المشاكل التي يواجهها المسلمون تنحلُّ تلقائياً ، بل يعيش المسلمون بعزَّةٍ وكرامةٍ ، ويعتبر وجودهم عنصر خيرٍ وبركة.

* * *

= والثقافة الإسلامية إليها على يد علماء المسلمين منذ عهدٍ بعيدٍ ، فلا بدَّ من الحفاظ عليها في خضم عملية التذويب والقضاء على التراث الإسلاميِّ والحضارة الإسلاميَّة في هذه البلاد.

www.abulhasanalinadwi.org

فـي مهـد الإســلام

ألقى العلامة الندوي هذا الحديث في إذاعة دلهي الهند في سلسلة أحاديث تحدَّث فيها العلامة الندوي عن مشاهداته وانطباعته على أثر زيارته للشرق العربيِّ ، عام ١٩٥١ م .

www.abulhasanalinadwi.org

قالوا لي: حدثنا عن الحجاز وعهدك به قريب ، قلت: نعم:

. . . . إنَّ الحديث عن الحبيب حبيب

لا أتذكر ذلك اليوم الذي كان فيه ذكر مكة والمدينة جديداً على أذني ، وكان اليوم الأول الذي سمعت فيه عن مولد الرسول ومهد الإسلام ، وعن مدينة الرسول ومهاجره عليه الصلاة والسلام ، وقد نشأت شأن أولاد المسلمين في بيئة لا ينقطع عنها ذكر الحجاز وبلديه المشرَّفين. وكان أهل البلاد دائماً يسقطون حرف العطف في كلامهم الهندي السريع فيقولون «مكة مدينة» فكنت أتخيل وأنا طفلٌ صغيرٌ أنهما بلدٌ واحد ، وقلما ذكروا مكة إلا وذكروا المدينة ، وكذا بالعكس ، فلم أميز بينهما إلا بعد ما كبرت سني ، وصرت أعقل ، وعرفت أنهما بلدان مستقلان بينهما مسافةٌ لا يستهان بها.

لقد سمعت في صغري عن الجنة ونعميها ، وسمعت بنفس الحنين وبنفس الإجلال عن الحجاز وبلديه ، فنشأت على الحنين إلى المجموع ، نشأت على الحنين إلى الجنة والحجاز ، فلما تقدَّمت فيَّ السنُّ عرفت أنَّ الجنة لا سبيل إليها في هذه الحياة ، فصبرت ، وتجلَّدت ، وعزيت نفسي ، أما الحجاز؛ فقالوا: الوصول إليه ميسور ، وقرأت أن قوافل الحجاج غاديةٌ رائحةٌ ، فلم أجد عنه عزاءً ، ولم أجد لنفسي عذراً في عدم الوصول إليه ، ثم تقدَّمت فيَّ السن أيضاً وقرأت سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتاريخ الإسلام فتجدد الشَّوق القديم ، واشتعل الحنين في الضلوع ، وحقق الله أمنيتي ، وتشرفت بالحجِّ والزيارة.

وقفت في هذا البلد الذي تحيط به جبالٌ جرداءُ سوداء ، لا يكسوها عشبٌ ، ولا خضرةٌ ، ولا تجوس خلالها الأنهار ، المتجرِّد عن كلِّ

www.abulhasanalinadwi.org

ما يسترعي الاهتمام ، وعن كلِّ ما يشرح الصدر ، ويسرُّ النفس من فتنة المناظر ، وجمال الطبيعة ، ورقة الهواء ، وعذوبة المياة ، فقلت : ما أفقر هذا البلد في المظاهر ، وما أكبر فضله على الإنسانية والعالم المتمدن! فلولا هذا البلد الذي لا يتطاول بالمظاهر والمناظر لكان العالم قفصاً ذهبياً يبقى فيه الإنسان طائراً سجيناً ، فهذا هو البلد الذي أخرج الإنسان من ضيق الدنيا إلى سعتها ، وأعاد إلى الإنسانية حرِّيَّتها وكرامتها ، ووضع عنها إصرها ، والأغلال التي كانت عليها.

وما قلت : لولا هذا البلد إلا وخطر ببالي أن أزن عواصم العالم ومدنها الكبرى كلَّها في هذا الميزان العادل ، وأرى ماذا ينقص البشرية ، وماذا ينقص الحضارة لولا هذه المدن ، وعرضتها أمامي بلداً بلداً ، فرأيت أنَّ هذه المدينة إنما كانت تعيش لنفسها ، ولحفنةٍ من البشر ، وأنها لم تضف إلى ثروة الإنسانية شيئاً كبيراً ، وقد جنت على المدنية والإنسانية في مختلف أدوارها ، فكم أفقرت في سبيلها البلاد ، وكم شقيت أممٌ لسعادة أمَّة ، وشقيت أمَّة لسعادة أفراد ، فلا على الدنيا ولا على البشرية ولا على الحضارة إذا لم تكن هذه المدن في خريطة الأرض ، ولم تزدهر فيها المدنية ولا العمران.

أمّا لولا مكة لتجرَّدت الإنسانية من أجمل ما عندها من معانٍ وحقائق ، وعقائد وأخلاقٍ ، وعلومٍ وفضائل. هنا وجد العالم إيمانه الذي فقده منذ قرون ، ووجد العلم الصحيح الذي ضيَّعه في غياهب الجهل والظنون ، ووجد الكرامة التي أهدرها الطغاة والظالمون ، وبالإجمال هنا وجدت الإنسانية من جديد ، ووضع التاريخ من جديد.

ولكن مالي أقول : لولا مكة! أما كانت مكة بجبالها ورمالها بل ببيتها وزمزمها هذه القرون الطويلة التي تقدمت القرن السادس المسيحي لا تنكر من أمر هذه الإنسانية التائهة شيئاً ، ولا تمدُّ إليها يد المساعدة ، محصورة بين جبالها ورمالها ، تعيش في عزلةٍ عن العالم كأنها ليست من أسرة الإنسانية الشقيقة ، ولا رقعة من هذه الأرض الفسيحة؟ بل أحرى بي أن

www.abulhasanalinadwi.org

أقول: لولا ابن مكة الذي تغيَّر به مجرى التاريخ ، وانقلب به تيار الحياة ، واستأنف العالم سيراً جديداً إلى نحوٍ جديد.

وهنا تمثلت لي مناظر مختلفة ، إنّي لأرى سيد قريش يطوف بالبيت وحده وهو موضع سخريةٍ واستهزاءٍ ، وتمتد إليه أيدٍ بالإهانة والإيذاء ، وهو مقبلٌ على عمله خاشعٌ متواضعٌ ، ثم أراه بعد ما ينتهي من طوافه يحاول الدخول في البيت ، فيأبى عثمان بن طلحة سادن الكعبة ، وينال منه ، فيحلم ، ويقول: «يا عثمان! لعلَّك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت!» فيقول: لقد هلكت قريش يومئذٍ ، وذلّت! فقال: «بل عمرت وعزّت يومئذٍ»[١] ثم كأنّي أراه يوم الفتح يطوف بالبيت وحوله جمعٌ من أصحابه الذين يفدونه بالأنفس والأرواح ويطلب سادن الكعبة فيقول: «هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم برٍّ ووفاء»[٢].

لقد شهد التاريخ أنَّه لم يملك المفتاح الذي استطاع أن يفتح به الكعبة فحسب ، بل ملك المفتاح الذي فتح به أقفال البشرية المعقدة التي أعيت عقلاء العالم كلهم ، ذلك المفتاح هو القرآن الذي نزل عليه ، والرسالة التي أكرمه الله بها ، والذي لا يزال يقدم مساعدته لفضِّ مشكلاتٍ جديدةٍ ، وفتح أقفالٍ جديدة.

وتوجَّهتُ بعد الحج إلى المدينة المنورة على جناح الشَّوق يحدوني حادي الحبِّ والوفاء ، أتحمل متاعب السفر ، وأتمثَّل ذلك الراكب الأول الذي ملأ الفضاء نوراً وسكينةً ، ووصلتُ إلى المدينة المنورة ، وصلَّيتُ ركعتين في مسجد الرسول ﷺ وحمدت الله على ذلك ، ثم وقفت وأنا مثقلٌ بمننٍ لا أستطيع أن أكافئها ، ولا أستطيع أن أقضي حقَّها ، وصلَّيتُ عليه ﷺ ، وسلَّمتُ عليه ﷺ ، وشهدتُ أنَّه ﷺ قد بلَّغ الرسالة ، وأدَّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حقَّ جهاده ، وعبد الله حتى أتاه اليقين ، وسلَّمت على صاحبيه الوفيَّين الأمينين ، اللذين لم يعرف التاريخ البشريُّ

(١) سيرة ابن هشام ، فتح مكة.
(٢) سيرة ابن هشام ، فتح مكة.

www.abulhasanalinadwi.org

صاحباً أوفى لصاحبه منهما ، ولا خليفة أقوى على حمل أعباء الخلافة منهما ، رضي الله عنهما ، وأرضاهما . ثم توجَّهت إلى البقيع ، تلك القطعة الصغيرة التي تحتضن أعظم ثروة في الصدق ، والصفاء ، والخلّة ، والوفاء ، وهناك رجال آثروا الآخرة على الدنيا ، وآثروا الغربة والهجرة في سبيل الإيمان والعقيدة على البقاء في الوطن في سبيل الشهوة والراحة ، وآثروا جوار الرسول على جوار الأحبّة والأقارب ، فلم يبغوا عنه حولاً ، ولم يطلبوا له بدلاً : ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

وتوجَّهتُ إلى أحد ، تلك القطعة التي مثَّلت أروع روايةٍ وأعظمها تأثيراً على تاريخ الإنسانية . رواية الإيمان واليقين ، رواية البطولة والوفاء ، رواية الحبِّ الظاهر ، والولاء النادر ، وكأنِّي أسمع من أنس بن النضر «إني لأجد ريح الجنة من دون أُحُد»(١) ويقول سعد بن معاذ : «ماذا نصنع بالحرب بعد محمد ﷺ» وقد طار في النَّاس أنَّه قُتِل ، فيقول أنس : «ماذا نصنع بالحياة بعد محمد ﷺ؟!» ، وهنا في أُحُد ترَّس أبو دجانة على رسول الله ﷺ بظهره والنبل يقع فيه ، وهنا ترَّس طلحة بيده حتى شلَّت ، وهنا قُتل حمزة ، ومثِّل به ، وقُتل مصعب بن عمير أنعم فتيان قريش عيشاً ، ولم يجدوا ما يكفِّنونه به إلا الكساء الذي لا يغطِّي كلَّ جسده ، يا ليت أحداً أعار العالم شيئاً من هذا الحبِّ والولاء ، وأهدى للعالم شيئاً من الإيمان واليقين ، فتبدلت الأرض غير الأرض والعالم غير العالم .

قالوا لي : حدثتنا عن القاهرة والحياة فيها ، وعن دمشق ورجالها ، فحدثنا عن الحجاز ، قلت : إنَّ الحديث عن الحجاز له لونٌ خاصٌّ ، إنَّه يدور حول رجله العظيم ، ويتَّصل برسالته ، وتاريخه ، فإنَّه حديث عن مهد الإسلام ، وبلد الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام .

* * *

---

(١) سيرة ابن هشام ، فتح مكة .

www.abulhasanalinadwi.org

محمد إقبال في مدينة الرَّسول ﷺ

ألقى العلامة الندوي هذا الحديث في إذاعة دمشق لدى زيارته لدمشق عام ١٩٥٦ م.

www.abulhasanalinadwi.org

لقد عاش الدكتور محمد إقبال شاعر الإسلام وفيلسوف العصر ـ مدَّة حياته ـ في حبِّ النَّبيِّ ﷺ ، والأشواق إلى مدينته ، وتغنَّى بهما في شعره الخالد ، وقد طفحت الكأس في آخر حياته ، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عينه وانهمرت الدُّموع ، ولم يقدِّر له الحجُّ وزيارة الرسول ﷺ لجسمه الضعيف ، الذي كان من زمانٍ يعاني الأمراض والأسقام ، ولكنَّه رحل إلى الحجاز بخياله القويِّ ، وشعره الخصب العذب ، وقلبه الولوع الحنون ، وحلَّق في أجواء الحجاز ، وتحدث إلى الرسول الأعظم ﷺ بما شاء قلبه وحبُّه ، وإخلاصه ووفاؤه[1] وتحدث إليه عن نفسه ، وعن عصره ، وعن أمَّته ، وعن مجتمعه ، وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر ، وانفجرت المعاني والحقائق التي كان الشاعر يغالبها ، ويمسك بزمامها ، وينتظر فرصة إطلاقها ، وقد رأى أنَّ فرصتها قد حانت ، وهذا أوانها ومكانها ، فخاطب نفسه بقول الشاعر :

حمامةَ جرعَى حَومة الجندلِ اسجعي ... فأنت بمرأى من سعاد ومسمعِ

فكان شعره في النَّبيِّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أبلغ أشعاره وأقواها ، وكانت حشاشة نفسه ، وعصارة عمله وتجاربه ، وكان تصويراً لعصره ، وتقريراً عن أمته ، وتعبيراً عن عواطفه .

لقد قال محمد إقبال هذه الأبيات ، وهو يتخيَّل أنَّه مسافرٌ إلى مكة والمدينة ـ شرَّفهما الله ـ يهوي به العيس ، ويسير به الرَّكب على رمالٍ وعساء ، يتخيَّل بشدَّة شوقه وحبِّه أنَّها أنعم من الحرير ، وأنَّ كلَّ ذرَّةٍ من ذراتها قلبٌ يخفق ، فيطلب من السائق أن يمشي رويداً ، ويرفع بهذه القلوب الخفاقة ، ويحدو الحادي بما لا يفهمه ، فتثور أشجانه ، وتترنح أعطافه ، وتهيج شاعريته ، وتنطلق قيثارته بشعرٍ رقيق بليغٍ .

---

(١) ليس هذا الحديث من الاستعانة في شيء ، إنما هو أسلوبٌ من أساليب الشعر والحبِّ استعمله الشعراء قديماً وحديثاً .

www.abulhasanalinadwi.org

ثم يسعد بالمثول بين يدي الرسول ، فيصلِّي ، ويسلم عليه بما يفتح الله به عليه ، وينتهز الفرصة ، فيحدثه عن نفسه وبلاده ، والفترة التي يعيش بها ، وعن أمَّته ، وعن الأزمات والمشاكل التي تعانيها ، وما فعل بها الزمان وطوارق الحدَثان ، وما فعلت بها هذه الحضارة الغربية ، والفلسفات المادِّية ، وما فعلت برسالتها والأمانة التي حُمِّلتها ، وأين هي من ماضيها وخصائصها ، يرثي لها تارةً ، ويبكي ، ويشكوها مرَّةً ، ويعاتب ، ويشكو غربته في وطنه ، ووحدته في مجتمعه ، وضيعة رسالته في أمَّته ، وقد سمَّى هذه المجموعة بـ «هدية الحجاز» كأنَّها هديةٌ حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه ، ولا شكَّ أنَّها هديةٌ مباركةٌ للعالم الإسلامي ، ونفحةٌ فائحةٌ من نفحات الحجاز .

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة ، وقد أربى على الستين ، ووهنت قواه ، في سنٍّ يفضِّل فيها الناس الراحة والإقامة ، فما باله يسافر وهو شيخ ، وقد أضعفه المرض والشيب ، والسفر إلى الحجاز شاقٌّ مضنٍ ، وقد نصحه الأطباء والأحبَّة بالراحة والهدوء ، ولكنه يعصيهم ، ويطيع أمر الحبِّ ، ويلبِّي منادي الشوق ، ويقول: «لقد توجهت إلى المدينة رغم شيبي ، وكبر سني ، أغني وأنشد الأبيات في سرورٍ وحنينٍ ، ولا عجب فإنَّ الطائر يطير في الصحراء طول نهاره ، فإذا أدبر النهار ، وأقبل الليل؛ رفرف بجناحيه ، وقصد وكره ليأوي إليه ، ويبيت فيه» .

كأنه يقول: لماذا تعجبون إذا قصدت المدينة ـ وهي وكر طائر الروح ، ومأزر المؤمن ـ في أصيل حياتي ، وفي سنٍّ أشرفت فيها شمس الحياة على الغروب ، أما رأيتم الطائر إذا جنَّ الليل؛ أسرع إلى وكره؟!

بدأ محمد إقبال سفره وهو شيخٌ مريضٌ ، وسارت به الناقة بين مكة والمدينة سيراً حثيثاً ، وقد قال لها: «رويدك يا حبيبتي! فإنَّ راكبك لاغبٌ ، ومريضٌ ، وكبير السنِّ ، فمشت في نشوةٍ وطربٍ ، ولم تبال ، كأنَّ الصحراء حريرٌ تحت أرجلها» .

يسير الشاعر في هذا الركب الحجازيِّ الذي يحدو بالصَّلاة على

www.abulhasanalinadwi.org

النَّبيِّ ﷺ ، ويريد الشاعر أن يسجد سجدةً على هذه الرمضاء ، يدوم أثرها في جبهته طول حياته ، ويقترح ذلك على أصحابه وزملائه.

ويملكه الشوق ، فيحدو ، وينشد أبياتاً من شعر العراقيِّ[1] والجامي[1] فيتساءل الناس: من هذا الأعجمي الذي يغني ويحدو بلغةٍ لا نفهمها؟ ولكنها نغمة تشجي القلوب وتملؤها إيماناً وحناناً ، حتى يذهل الرَّجل في هذه الصحراء عن الغذاء والماء!.

ويلذُّ الشاعر بكلِّ ما يعتريه في الطريق ، من سهر وعناءٍ ، وقلة طعامٍ وشراب ، ولا يستطيل الطريق ولا يستبطىء الوصول ، بل يقترح على سائقه أن يأخذ طريقاً أطول حتى يعيش في هذه الأشواق ، وفي هذا الحنين مدَّةً أوسع ، وتشتدّ لوعة الفراق؛ لأنها زاد العشاق ، ونزهة المشتاق.

وهكذا يطوي محمد إقبال هذه المسافة في سرورٍ وحنينٍ ، حتى يصل إلى المدينة ، فيقول لزميله: «تعال يا صديقي! نبك سروراً ، ونتحدَّث ساعةً ، ونرسل النفس على سجيِّتها ، فإنَّ لنا شأناً مع هذا الحبيب الذي أسعدنا به الحظُّ بعد طول فراقٍ ، وشدَّة اشتياقٍ».

ويقبل على نفسه ، فيتعجَّب كيف اختص من بين أقرانه بهذه السعادة ، ثم يقول: «لا عجب ، فإن المحبين المتيَّمين أكرم هنا من الحكماء المتفلسفين ، يا سعادة الجد ، ويا حسن الطالع!! لقد سُمِحَ لصعلوكٍ مملوكٍ أن يدخل على السلاطين والملوك».

ولا يلبث محمد إقبال ـ وهو في هذا الفيض من السرور والسعادة ـ أن يذكر أمَّته المسلمة، والشعب المسلم الهنديَّ. يذكر آلامهما وآمالهما ، فيذكر كلَّ ذلك في بلاغة الشاعر ، وصدق الرائد ، وما أجملهما إذا التقيا ، يقول:

«إنَّ هذا المسلم البائس ، الذي لا تزل فيه بقيةٌ من شممٍ وإباء ، وأنفة الملوك ، وعزة الآباء ، لقد فقد مع الأيام ، يا رسول الله! لوعة القلب وإكسير الحبِّ. إنَّ قلبه حزينٌ منكسرٌ ولكنه لا يعرف سرَّ ذلك».

---

(١) شاعران فارسيَّان ، لهما قصائد وأبيات سائرة في الآفاق في مدح النبي ﷺ.

www.abulhasanalinadwi.org

«ماذا أحدِّثك به يا رسول الله! عن آلامه ورزيئته ، حسبك أنَّه هوى من قمَّةٍ عاليةٍ ، إنَّه هبط من تلك العلياء التي وصلت به إليها ، وكلما ارتفع المكان الذي يسقط منه كان ألمه شديداً ، وكانت الصَّدمة عظيمةً ، فلطف الله بهذه الأمَّة المنكوبة الهاوية من قمَّة المجد العالية».

«إنه لا يزال الزمان يعاديه ، ولا يزال ركبه تائهاً في الصحراء ، بعيداً عن غايته ومنزله ، حسبك من هذه الأمَّة ، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب ، إنها تعيش من غير إمام».

«إنَّ غمده فارغٌ ككيسه ، فهو أعزل فقير ، إنَّ الكتاب الذي فتح به العالم ، وضعه في بيته الخرب ، على طاقٍ تراكمت عليه الأتربة ، ونسج عليه العنكبوت».

«إنَّه أصبح ـ بطول عهده بالمغامرات والبطولات ـ لا يفهم لغة المغامرين ، وإهابة الشجعان المجاهدين ، وقد أَلِف نغمة المغنِّين ، وعاش بين الزفرات والأنين».

«وإنَّ عينه فقدت النُّور ، وإنَّ قلبه حُرم السُّرور ، إنَّ رزيئته أنَّه يعيش ، ولا يعرف لذة الوصال والحضور».

ثم يذكرالفرق بين ماضيه العظيم الذي كان فيه موضع رعايةٍ وعنايةٍ واحتفاء ، وحاضره القاسي الكالح ، وكيف صعب عليه أن يتقشف ، ويعتمد على نفسه ، ويكدح في الحياة ، وما أبلغ قوله:

«إنَّه طائرٌ مدلَّلٌ ، كنت تطعمه بيدك ، وقد ربَّيته بالفواكه ، فشقَّ عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء».

ويتذكَّر محمد إقبال فتنة اللادينيَّة التي توجهت إلى العالم الإسلاميِّ ، ويعرف محمد إقبال ـ وهو من كبار علماء الفلسفة والسياسة وعلم الاقتصاد ـ أنَّ سببها النظر الماديِّ البحت ، وخواء الرُّوح ، وبرودة القلب ، وباعثها هو الحياة المترفة الباذخة التي يعيشها كثيرٌ من الناس ، ويعتقد أنَّه لا سبيل إلى محاربة هذه اللادينيَّة ، والفلسفة الاقتصادية الماديَّة إلا الحياة

www.abulhasanalinadwi.org

التي تقوم على الحب والزُّهد ، والحياة التي كان يعيشها أبو بكر الصِّديق المحبُّ الزاهد ، فيتمنى للمسلمين هذه الحياة المثالية التي يسيطر عليه الحبُّ والزُّهد ، وإذا وجدت هذه الحياة اضطر الناس إلى تقديرها وإجلالها .

إنه لا يعلِّل انحطاط المسلمين بالفقر والضعف في المادة ، بل يعلِّله بانطفاء تلك الشعلة التي التهبت في صدورهم ، ويقول : «إنَّ أولئك الفقراء ـ المسلمين الأولين ـ لما عرفوا كيف يقومون أمام ربِّهم في صفٍ واحدٍ ، استطاعوا أن يمسكوا بتلابيب الملوك ، ولما انطفأت هذه الجذور في صدورهم ؛ انطووا على نفوسهم ، وأووا إلى الزوايا ، والتكايا» .

وإنَّه ليستعرض تاريخ المسلمين ، فيرى فيها ما يخجل كلَّ مسلمٍ ، يرى فيها ما لا يتَّفق مع الرسالة المحمَّدية وتعاليمها ومثلها العليا ، ويرى فيه من شركٍ وعبادةٍ لغير الله ، وخضوعٍ للجبابرة والطغاة ما يتندَّى له الجبين حياءً ، يذكر «إقبال» ذلك كلَّه ، ويطرِّق رأسه حياءً وخجلاً ، ويقول في صراحةٍ واعترافٍ ، وبلاغةٍ وإيجاز : «إنَّ جملة القول : ما كنا جديرين بك يا رسول الله !» .

يلقي نظرةً على العالم الإسلاميِّ ، وقد جال في أنحائه ، وعرف مراكزه ، فيشكو ضعفه ، وفقره المعنويَّ ، ويقول في إجمال : «إنَّ المراكز الروحية (الرباطات والزوايا) أصبحت فقيرةً لا تملك غذاء القلب ، ولا تحمل رسالة الحبِّ ، والمراكز العلمية (المدارس بمعناها الواسع) طغى عليها التقليد ، فهي تردِّد ما تلقنته في الماضي في غير إبداع وابتكارٍ ، وهي كثور الطاحون يدور في دائرةٍ واحدةٍ ، أما أندية الشعر والأدب فقد خرجت منها كئيباً حزيناً ، فليس في نغماتها وأفكارها ما يبعث الروح ، ويثير الطموح ، إنَّه شعرٌ باردٌ يخرج من قلبٍ باردٍ ، وأدبٌ ميِّتٌ يصدر عن أديب ميِّتٍ» .

ويقول : «قد ضربت في مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدت المدن

www.abulhasanalinadwi.org

تغصُّ بالمسلمين الذي يفرَقون من الموت ، أمَّا المسلم الذي يفرَق منه الموت؛ فلم أر له عيناً ، ولا أثراً».

ويذكر السرَّ في ضعف المسلمين ، وتشتُّت أهوائهم وخمودهم ، فيقول: «لقد شق عليَّ ما أراه من سوء حال المسلمين يوماً ، وشكوت إلى ربي ، فقيل: ألا تعرف أن هؤلاء يحملون القلوب ، ولا يعرفون المحبوب؟! يعني أنهم يملكون مادَّة الحبِّ ، ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به ويوجهونها إليه ، فقلوبهم تائهةٌ ، وعقولهم مضطربةٌ ، وجهدهم ضائعٌ ، وعملهم ضعيفٌ ، وحياتهم لا لذة فيها ولا سرور» وهي حياة من رُزِق القلب ، وحُرِم الحبَّ ، أو حياة من عرف الحبَّ وجهل المحبوب. إنها لا شكَّ حياة عذابٍ وشقاءٍ ، وحياة حيرةٍ وضلالٍ.

ولكنَّه رغم ذلك كلِّه غيرُ يائسٍ من المسلمين ، وغير قانطٍ من رحمة الله ، بل ينتقد رجال الدين في يأسهم من المسلمين ، وقطعهم الرَّجاء من نهضتهم ، وتعليقهم الأمل بغيرهم ، ويقول في عتابٍ وألم: «إنَّ أحوالهم وأحاديثهم تنمُّ عن أنَّهم يائسون من جميع أسباب الخير ، وأنهم متشائمون ، ينظرون إلى المسلمين وإلى الحياة بمنظارٍ أسود». ويقول: «إنَّ المسلم وإن كان قد تجرَّد عن أبهة الملك والسلطان ، ولكنَّ ضميره وتفكيره لا يزالان ضمير الملوك وتفكيرهم ، وإنَّه إن قدِّر له أن يعود إلى مركزه كان جماله جلالاً ، وكانت له سطوةٌ لا تطاق».

وهنا يقبل محمد إقبال إلى نفسه ، فيحكي حكايتها ، ويشكو ما يعانيه من أهل عصره ومجتمعه ، يقول: «إنِّي أستحقُّ العطف والعناية ، فإنِّي في صراعٍ عنيف ، وحربٍ داميةٍ مع عصري المادِّيّ».

ولا شكَّ أنَّ إقبال قضى حياته في صراع مع العصر الحاضر ، وقد كفر بالحضارة الغربية والفلسفة المادية ، وتحدَّاهما ، وانتقدهما ، وزيفهما في شجاعة وعلى بصيرة وخبرةٍ ، وقد كان مربي جيلٍ جديدٍ ، مؤمن بالله ، واثقٍ بنفسه ، معتدٍّ بشخصيته وشخصية الإسلام ، كافرٍ بالأسس المادِّيَّة والتفكير المادِّيّ؛ الذي قامت عليه الحضارة الغربية ، وحقٌّ له أن يقول:

www.abulhasanalinadwi.org

«لقد أذَّنتُ في الحرم ، كما أذَّن بالأمس جلال الدين الرومي ، فقد تعلَّمت منه أسرار الروح والحبِّ. لقد كان ثائراً على فتن عصره ، وكنت ثائراً على فتن عصري».

ويذكر تمرُّده على العلوم الغربية ، وتفلته من شباكها ، واحتفاظه بعقيدته ، وإيمانه وخصائصه ، ويقول بحقٍّ وجدارةٍ: «كنت كطائرٍ يقع على شبكة ، فيقرض الحبال ، ويأخذ الحبَّ ، ويطير بسلامٍ» وكذلك كان ، فقد ظفر بلب العلوم الغربية ولبابها ، ورمى بقشورها ، وخرج من حبائلها سالماً.

ثم يقول في افتخارٍ واعتزازٍ: «يعلم الله! أنِّي دخلت في أعماق هذه العلوم ، واكتويت بنارها من غير أن أرزأ في عقيدتي ، وخلقي ، وصلتي بك ، وقد جلست في نارها بشجاعةٍ ، وخرجت منها بسلامةٍ ، كما كان شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع نار نمرود».

وهنا يتذكَّر الشاعر حياته التي قضاها في عواصم أوربا ، بين الكتب الجافَّة ، والفلسفة الدقيقة ، والعلم الواسع ، والجمال الفاتن ، والمظاهر الخلابة ، فيقول: «لقد بقيت هذه المدة ذاهلاً عن نفسي ، جاهلاً لشخصيتي ، حتى لما وقع بصري عليَّ لم أعرف نفسي».

يقول: «لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئاً كثيراً ، وتناولت من خمر حانته كأساً دهاقاً ، يا له من صداع اشتريته! لقد عشت بين علمائه وفلاسفته ، وبين غيده الحسان ، يا لهَا من فترةٍ مظلمةٍ قضيتها من حياتي! حرمت فيها لذة الحبِّ ونعيم القلب ، إنَّ دروس الحكماء قد صدعت رأسي ، وكدرت بالي ، ذلك لأني نشأت في حضانة الحبِّ والإيمان ، فلا يناسبني ، ولا يملأ فراغ نفسي إلاَّ العاطفة والحنان».

وهنا يقبل الشاعر إلى الطبقة التي تمثِّل العلم والدين ، فينتقد فيها الجفاف ، واتساع العلم ، وتضخمه على حساب العاطفة والحبِّ ولوعة القلب ، فيقول: إنَّ العالِمَ الدِّينيَّ لا يحمل همّاً ، إنَّ عينه بصيرةٌ ، ولكنَّها

www.abulhasanalinadwi.org

جافة لا تدمع ، لقد زهدتُ في صحبته؛ لأنَّه علمٌ ولا همٌّ ، وأرضٌ مقدَّسةٌ ولا زمزم» .

لقد شبهه محمد إقبال بالحجاز ، لأنه يحمل علماً كثيراً ، وعقلاً كبيراً ، ولكنه مع الأسف رمال جافَّة ، وجبال جرداء ليس فيها زمزم ، ومكة ببيتها وزمزمها ، ليست برمالها وبطحائها وجبالها فحسب ، فما أفقر العالِمَ الدينيَّ الذي يحمل علماً جمَّاً ، ولساناً بليغاً ، وعقلاً مستنيراً ، ولا يحمل دمعةً في عينه ، ولا لوعةً في قلبه ، إنه أخذ من الأرض المقدسة خشونتها وصلابتها ، ولم يأخذ منها رطوبتها ونداها .

ثم يحكي عن نفسه ، ويقول : «إنني لم أبع نفسي وضميري لأحدٍ ، ولم أستعن بأحدٍ في حلِّ مشاكلي ، ذلك لأني اتكلت على غير الله مرَّةً واحدةً ، فسقطت عن مقامي ، وعوقبت بالهوان مئتي مرَّة» .

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه في حزنٍ وألم ، فيقول : «إني أحترق بنار شوقي وحبِّي ، وأستغرب أنِّي خُلقت في عصرٍ لا يعرف الإخلاص ، ولا يعرف سوى المادة والأغراض ، في عصرٍ لم يعرف لوعة القلبَ ، ولم يذق لذة الحبِّ ، أنا غريب في الشرق والغرب ، أعيش وحدي ، وأغني وحدي ، وقد أتحدَّث إلى نفسي ، وأخفف من أشجاني وآلامي» .

يقول : «إنَّ إخواني لم يعملوا بما قلت لهم ، إنَّهم لم يجنوا الرطب من نخل شعري ، إليك أشكو يا سيِّد الأمم! من أناس لا ينظرون إليَّ إلا كشاعر أو متغزلٍ .

لقد أمرتني يا رسول الله! أن أبلغ إليهم رسالة الحياة والخلود ، وأنشدهم بما ينفخ فيهم النشاط والروح ، ولكنَّ هؤلاء القساة يقترحون عليَّ أن أنوح الأموات في الشعر ، وأنظم تاريخ الوفاة ، فأين هذا مما أمرتني به؟!» .

ويشكو في توجع وحزنٍ عميقٍ ، زهد أبناء عصره في العلم ، الذي كان يحمله ، والرسالة التي يقوم بها في شعره ، ويقول : «عرضت قلبي عسى أن يستأسره أحدٌ ، فلم أر فيه راغباً ، ولا له طالباً ، وأبحت ثروتي ،

www.abulhasanalinadwi.org

وما يحويه صدري فلم أر لها مقدِّراً ، فليعمر حبُّك قلبي ، وليشغل حديثك لساني ، فإنِّي لا أجد في العالم من هو أشد وحدةً وأعظم غربةً مني» .

ويختم قصيدته بأبيات يوجهها إلى المرحوم عبد العزيز بن سعود ـ باعتباره ملك الحجاز في عهده ـ وهو خطابٌ موجَّهٌ إلى جميع ملوك العرب ، وزعمائهم ، وعظمائهم ، يحذره من الاستعانة بالأجانب والدول الأوربية ، ويدعوه إلى الاعتماد على الله ثم على ما عنده ، يقول : «اضرب خيمتك حيث شئت في الصحراء ، ولتكن خيمتك قائمةً على عمدك وأطنابك ، ولا تنس أنَّ استعارة الأطناب من الأجانب حرامٌ» .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

وفود الأمّة بين يدي نبيِّها ﷺ

هذا الحديث ألقاه العلامة الندوي في إذاعة المملكة العربية السعودية في جدَّة عام ١٩٦٢ م.

www.abulhasanalinadwi.org

عفا الله عن المؤرِّخين والمشتغلين بالتاريخ ، إنَّهم لا يفارقهم الشعور التاريخي والتفكير التاريخي في أقدس مكانٍ وأفضل زمانٍ. إنَّهم أينما كانوا يعيشون فيما درسوه ، ويصلون الحاضر بالماضي.

كنت أمس في الروضة في المسجد النَّبويِّ ، وحولي جمعٌ حاشدٌ من المصلين ، والمتعبدين ، بعضهم في ركوعٍ ، وبعضهم في سجودٍ ، ولتلاوة القرآن دويٌّ كدويِّ النَّحل ، كلُّ ذلك كان جديراً بأن يشغلني عن التفكير في التاريخ وفي رجال الماضي ، ولكن سحابةٌ غشيتني من الذكريات القديمة لم أستطع لها دفعاً ، ولم أملك لها قهراً.

رأيت كأنَّ عظماء هذه الأمة عاشوا من جديدٍ ، وجاؤوا وفوداً يصلُّون في هذا المسجد العظيم ، ويسلمون على هذا النَّبيِّ الكريم ، ويقومون بواجب الإجلال والتكريم ، والامتنان والاعتراف بالجميل ، يشهدون له على اختلاف طبقاتهم ، بأنَّه هو الذي أخرجهم بإذن الله من الظلمات إلى النُّور ، ومن الشَّقاء إلى السعادة ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ويشهدون على أنفسهم بأنّهم غرس الإسلام ، وزرع النُّبوَّة ، وأنَّهم ـ لا سمح الله ـ لو تجرَّدوا مما أكرمهم الله به عن طريق هذا النَّبيِّ ، وممَّا أتحفتهم به نبوته ، لعادوا أجساداً بلا روح ، وخطاً بلا وضوح ، ولعادوا إلى عهد الظلمات ، وشريعة الغابات ، وقانون العصابات ، وانطمست معالم هذه الحضارة.

حانت مني التفاتةٌ ، فرأيت فريقاً يدخل من باب جبريل ـ وهو أقرب الأبواب إليَّ ـ عليهم السكينة والوقار ، يعلوهم نور العلم ، وسيما التفكير ، وقد ملؤوا الرحاب بين باب جبريل باليسار إلى باب الرحمة باليمين ، منعت كثرتهم عن العدِّ والتشخيص ، سألت البواب عنهم ، فقال: هؤلاء أعلام الأمَّة ، وأئمة العلم ، وعباقرة الإنسانية ، ونوابغ الوجود ، كلٌّ واحدٍ منهم إمام أمَّة ، ومؤسس مكتبة ، ومبتكر علمٍ ، ومربي جيلٍ ، قد خلدت آثارهم ، فامتدت على العصور والآفاق ، وسارت في

www.abulhasanalinadwi.org

ضوء علومهم واجتهادهم وتحقيقهم الأجيال بعد الأجيال ، وقد سمَّى منهم على عجلٍ واحتشام: مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النُّعمان ، ومحمد بن إدريس الشافعيَّ ، وأبا عبد الله أحمد بن حنبل ، وليث بن سعد المصريَّ ، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعيَّ ، ومحمد بن إسماعيل البخاريَّ ، ومسلم بن حجاج القشيريَّ ، ومحمد بن محمد الغزاليَّ ، وتقيَّ الدين بن تيمية ، وموفق الدين بن قدامة ، وأبا إسحاق الشاطبيَّ ، وكمال بن الهمام ، وأحمد بن عبد الرحيم الدهلويَّ ، على تفاوتهم في الزمان والمكان ، وأصالة العلم وعلوِّ الشأن.

رأيتهم بدؤوا بتحية المسجد ، وصلُّوا ركعتين في خشوع وقنوتٍ ، ثم تقدَّموا إلى القبر الشريف في أدبٍ وتواضعٍ وسلَّموا على نبيِّهم ﷺ في كلماتٍ وجيزةِ المباني ، كثيرة المعاني ، عميقة الجذور ، سامقة الذرى ، وكأني أسمعهم يقولون ، وفي عيونهم دموعٌ ، وفي صوتهم خشوعٌ: «لولاك يا رسول الله! ولولا شريعتك السمحة الواسعة الخالدة مع الزمان ، لولا أصولها المفتِّقة للقرائح ، ووضعها الحكيم المعجز ، الباعث على التفكير والتفريع ، ولولا حاجة الإنسان إليها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، لما دون هنا هذا الفقه العظيم ، وهذا التشريع الحكيم الذي لا تحمله أمةٌ من الأمم ، ومجتمعٌ من المجتمعات البشرية ، ولما نشأت هذه المكتبة الدينية التي تتضاءل أمامها كلُّ مكتبات العالم الدِّينية ، ولولا جهادك في سبيل نشر العلم ، والحثِّ على استعمال العقل والتدبر في آيات الله؛ لما عاش العلم ، وانتشر هذا الانتشار الواسع ، ولما أطلق العقل الإنسانيُّ من إساره ، وسار العالم في آثاره».

ولم أكن قد قضيت لبانتي من هذه الجماعة حتى لفت نظري فريقٌ آخر يدخل من باب الرَّحمة ، عليهم سيما الصلاح والعبادة ، وفي وجوههم أثر التقشف والزهادة ، قيل لي: إنَّ فيهم الحسنَ البصريَّ ، وعمر بن عبد العزيز ، وسفيان الثوريَّ ، والجنيد البغداديَّ ، والفضيل بن عياض ، وداود الطائيَّ ، وابن السَّماك ، وعبد القادر الجيلانيَّ ، ونظام الدين

www.abulhasanalinadwi.org

البدايوني[١] ، وعبد الوهاب المتقي[١] ، وأضرابهم اقتدوا بالأولين ، وتقدَّموا بعد الصلاة ووقفوا أمام المدفن الشريف ، يصلون على نبيِّهم ، وإمامهم ، وقدوتهم ، ويقولون : «لولا المثل العملي الذي ضربته في حياتك ، ولولا منارك الذي أقمته لمن يأتي بعدك يا رسول الله ! ولولا قولك : «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» ووصيتك «كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل» ولولا حياتك التي وصفتها لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، «وطلوع هلالٍ بعد هلالٍ ، ومرور شهرٍ بعد شهرٍ لا توقد في بيتك نارٌ ، ولا تنصب لها قدر» لما كان لنا أن نؤثر الآخرة على الدنيا ، وأن نكتفي ببلغـةٍ من العيش ، وكفافٍ من الزاد ، ولما كان لنا أن نتمرَّد على الشهوات ، ونقاوم إغراء الأموال ، والمناصب ، والحكومات ، في غير تحريم لما أحلَّ الله من الطيبات ، ومن غير تحقيرٍ لما مَنَّ الله علينا من النعيم ، ووسع لنا في الحياة ، ولكنَّه إيمان المؤمن وإيثارٌ للآخرة ونعيمها على الحياة الدنيا وطيباتها ، وعزوفٌ عن الشهوات ، وكراهةٌ للتكالب على حطام الدُّنيا» .

ولم أستوف كلماتهم الحكيمة المرققة حتى لفت نظري فريقٌ يدخل من باب النساء في حشمةٍ وتستُّر ، بعيدٍ عن كلِّ ما ينافي الإسلام وآدابه من الزينة الظاهرة ، والتبرُّج ، وتقدم هذا الفريق من المسلمات الصَّالحات ، من شعوب مختلفةٍ ، وبلادٍ متنائيةٍ ، من عجمياتٍ ، وعربيات ، وشرقياتٍ وغربياتٍ ، وتكلمْن في صوتٍ خافتٍ ، وأدبٍ ظاهرٍ : «نصلِّي ونسلِّم عليك يا رسول الله ! تسليم من عظمت عليه منتك ، فقد أنقذتنا بإذن الله وحوله من تقاليد الجاهلية ، وظلم المجتمع ، وجور الرِّجال ، وحرمت وأد البنات ، وحذَّرت من عقوق الأمَّهات ، وقلت : «الجنة تحت أقدام الأمَّهات» وأشركتنا في الإرث ، وبيَّنت نصيبنا أمَّاً ، وأختاً ، وبنتاً ، وزوجاً ، ولم تنسنا في خطبتك العظيمة يوم عرفة ، فقلت : «فاتقوا الله في النِّساء ، فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله» إلى غير ذلك مما حثثت به الرجال على الإنصاف

---

(١) عالمان ربَّانيان ، ومن كبار الزُّهاد والمربين ، ولدا ونشأا في الهند .

www.abulhasanalinadwi.org

للنساء ، وأداء حقوقهن ، وحسن عشرتهن ، جزاك الله عن جنسنا أفضل ما يجزي الأنبياء والمرسلين ، وعباد الله المحسنين».

ولم ينقطع عن أذني هذا الصوت الرَّخيم حتى سمعت حسيس قومٍ يدخلون من باب السَّلام ، والتفت إليهم ، فإذا هم مبتكرون للعلوم ، ومدوِّنون للفنون ، أئمة النحو ، واللغة ، والبلاغة ، فيهم أبو الأسود الدؤليُّ ، والخليل بن أحمد ، وسيبويه ، والكسائيُّ ، وأبو علي الفارسيُّ ، وعبد القاهر الجرجانيُّ ، والسَّكاكيُّ ، وابن منظور ، ومجد الدين الفيروز آباديُّ ، وسيد مرتضى الزبيديُّ ، يريدون أن يبلغوا تحية علومهم ، ويدفعوا ضريبة ما عاشوا عليه واشتهروا به ، وسمت مكانتهم بفضله ، وسمعتهم يقولون في بلاغةٍ وأدبٍ: لولاك يا رسول الله! ولولا الكتاب الذي نزل عليك ، ولولا حديثك الذي نطقت به ، ولولا هذه الشريعة التي دانت بها الأمم ، واحتاجت لأجلها إلى تعلم اللغة العربية ، والتفقُّه فيها؛ لما نشأت هذه العلوم التي كتب لنا شرف الزعامة فيها ، ولما كان نحوٌ ، ولا بيانٌ ، ولا بلاغةٌ ، ولما أُلِّفت هذه المعاجم الكبيرة ، ودقّق في مفردات اللغة العربية ، ولما جاهدنا في سبيلها هذا الجهاد الطويل ، ولما خضع العجم ـ وهم في سعةٍ من لغاتهم ، وغبطة بلهجاتهم ـ لدراسة اللغة العربية والتعمُّق فيها ، ولما كان منهم هؤلاء الأعلام الذي أقرَّ بفضلهم ونبوغهم أدباءُ العرب ، وجهابذة الأدب ، فأنت الرابطة يا رسول الله! بيننا وبين هذه العلوم الناشئة في الإسلام ، النابتة في عهد رسالتك وإمامتك ، وأنت الرابطة بين العرب والعجم ، وأنت الذي ملأ الله بك هذا الفراغ ، ووصل البعيد بالقريب ، والعجميَّ بالعربيِّ ، فكم لك من فضلٍ على نبوغنا وعبقريتنا! وكم لك من فضلٍ على ثروة العلم ، ونتاج العقول ، ومحصول الأقلام!

ولولا أنت يا رسول الله! لطويت اللغة العربية فيما طوي من اللغات ، واندرس من اللهجات ، ولولا القرآن العظيم العربي المبين لتناولها المسخ والتحريف ، كما تناول اللغات الكثيرة ، وابتلعتها العجمة واللهجات المحلية ، وقضى عليها اللحن ، ولكنه هو وجودك ، وشريعتك الخالدة ، ودينك العالميُّ ، وكتاب الله المعجز الذي منعها من العَفاء والدروس ،

www.abulhasanalinadwi.org

وفرض سلطانها وسيطرتها على العالم الإسلاميِّ كلِّه وغرس حبَّها وإجلالها في قلب كلِّ مسلمٍ ، فأنت الذي خلد الله بك هذه اللغة ، وضمن بقاءها ، وانتشارها ، وسلامتها ، فلك على كلِّ من ينطق بها ، أو يكتب فيها ، أو يعيش بها ، أو ينادي إليها فضلٌ لا يُجحد» .

ولم أنتبه من مقالتهم حتى استرعى انتباهي قومٌ يدخلون من باب عبد العزيز ، خليطٌ من البشر ، ومزيجٌ من الأمم ، فيهم أعظم سلاطين العالم ، وأعظم ملوكٍ عرفهم التاريخ ، فيهم : الوليد بن عبد الملك ، وهارون الرشيد ، ومحمود الغزنوي ، وملك شاه السلجوقي ، وصلاح الدين الأيوبيُّ ، والظاهر بيبرس ، وسليمان القانونيُّ العثمانيُّ ، وأورنك زيب عالمكير التيموريُّ الهنديُّ ، وقد نحَّوا الخدم ورجال الشرطة عنهم ، وتركوهم وراء الباب ، يتقدَّمون في هيبةٍ وتواضعٍ ، غضيضةٌ أبصارهم ، خافتةٌ أصواتهم ، واستعرضت أسماءهم ، وأدوارهم ، والدنيا الواسعة التي كانوا يحكمونها ، والسيطرة العظيمة التي كانوا يتمتعون بها ، فمنهم من كان يحكم دولةً لا تقطع في أقل من خمسة أشهر على أسرع جملٍ[١] ، ومنهم من قال مرَّةً لسحابةٍ مرَّت به : «أمطري حيث شئت . . . فسيأتيني خراجك»[٢] ومنهم من اتسعت مملكته حتى استطاع أن يأمر بأن يدفع إلى أصحاب سفن جيحون أقصى الشرق أجرتهم من مالية أنطاكية في أقصى غرب المملكة ، وحضر رسول القيصر ليدفع إليه الخراج ، فما تسلَّم منه إلا على باب كاشغر[٣] ومنهم من كان يُرهب في أوربا ، وتمتنع الكنائس من ضرب الأجراس إذا دخل المسلمون في بلادهم احتراماً لدينهم ، وإشفاقاً من سلطانهم[٤] ، ومنهم ، ومنهم ، ومنهم .

رأيتهم يتقدَّمون ليصلُّوا في مسجد الرسول ، ويسلِّموا على صاحبيه ،

---

(١) المراد به الوليد بن عبد الملك .
(٢) المراد به هارون الرشيد .
(٣) هو ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقيُّ .
(٤) هو سليمان بن سليم العثماني .

www.abulhasanalinadwi.org

يعتبرون ذلك أعظم سعادةٍ لهم ، وأكبر شرفٍ ، ويتمنون لو رُفعت هذه الصلاة ، ولو قُبل هذا التسليم ويسمح لهم بالوقوف في مصلاه ، والوقوف أمام مرقد الرَّسول ، يقومون بواجب الإجلال والتكريم ، والاعتراف بالجميل ، رأيتهم يتقدَّمون إلى الأمام تقصر خطاهم ، وتتعثر أقدامهم ، والمهابة تملأ قلوبهم ، حتى وصلوا إلى الصُّفَّة ـ وهو مكان فقراء الصحابة ـ ووقفوا أمامها ينظرون إليها نظراً الإكبار والإجلال ، ونظر الحياء والاحتشام ، وصلوا بجوارها تحيةً للمسجد ، ثم تقدَّموا إلى القبر الشريف ، فسلَّموا على نبيهم كما شاء حبُّهم وإجلالهم ، وكما شاء علمهم وإيمانهم ، متأدبين بآداب الشرع ، متقيدين بشريعة التوحيد ، وسَمِعْتُهم يقولون: «لولاك يا رسول الله! ولولا جهادك ودعوتك التي وسعت الآفاق ، وفتحت البلاد ، ولولا دينك الذي آمن به آباؤنا فخرجوا به من حياة الخمول والهوان والعزلة عن العالم إلى حياة الشرف ، والطموح ، والمغامرة ، فأسَّسوا دولاً واسعةً ، وفتحوا بلاداً شاسعةً ، وجبوا الخراج من الأمم التي كانت تسوقهم بالعصا ، وترعاهم كالغنم ، فلولا هذا الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الانطواء على النفس ، والحياة القبلية الضيقة إلى غزو العالم ، وفتح الأمم؛ لما ارتفعت لنا رايةٌ ، ولا رُويت لنا روايةٌ ، ولبقينا في صحارينا القاحلة ، وفي أوديتنا الضيقة المظلمة ، نتصارع ، ونتناحر ، يأكل القويُّ منّا الضعيف ، ويظلم الكبير منّا الصَّغير ، طعامنا أفقر طعام ، وعيشنا أخسُّ عيش ، لا نفكِّر في مكانٍ أوسع من هذه القرية الصغيرة الّتي نعيش فيها ، ولا في مجموع من البشر أكبر من هذه القبيلة الصغيرة التي نرتبط بها ، أسماك بُركةٍ ، وضفادع بئرٍ ، نعيش في عالمٍ من نفوسنا وتجاربنا المحدودة ، ونغنِّي بمجد آبائنا الجهلاء السُّفهاء ، ولكنَّك يا رسول الله! ألقيت علينا ضوءاً من دينك ، تفتَّحت به عيوننا ، وتوسَّع به خيالنا ، فخرجنا إلى أرض الله الواسعة نحمل دينه الواسع ، ورابطته الجامعة ، وأشعلنا مواهبنا الخامدة الجامدة ، نحارب الشرك والوثنية ، والجهالة والظلم ، فأسَّسنا هذه الدولة العظيمة ونعمنا ، ونعم أولادنا وإخواننا في ظلِّها قروناً ، وها نحن أولاء ، نقدِّم إليك تحياتنا ، ونقدِّم إليك

www.abulhasanalinadwi.org

ضريبة الإجلال ، والتكريم ، والحبِّ ، والتعظيم ، وهي ضريبةٌ نقدِّمها طوعاً واختياراً ، ونتشرَّف بتقديمها ، ونعترف بتقصيرنا في جنب دينك الذي أسعدنا الله به ، وتطبيق أحكامه ، وتنفيذ قانونه ، ونستغفر الله تعالى ، إنَّه هو الغفور الرَّحيم» .

وقد كنتُ مصروفاً إلى هؤلاء الملوك ، أرى وجوههم الخاشعة ، وأسمع كلامهم الرَّقيق؛ الذي لم أسمعه أبداً منهم؛ إذا تقدَّم فريقٌ آخر مشى في صفوف الملوك من غير اكتراثٍ واهتمامٍ ، لا يخشى لهم سطوةً ، ولا يراعي لهم حرمةً ، فقلت: شاعرٌ أو ثائرٌ ، فإذا هو مجموعٌ من الفريقين ، فيهم: السيد جمال الدين الأفغانيُّ ، والأمير سعيد حليم ، والزعيم محمد علي الهنديُّ ، والشهيد حسن البنا ، والشاعر التُّركيُّ محمَّد عاكف ، والشاعر محمد إقبال ، وقدَّموا الأخير ترجماناً لهم يقول: «أشكو إليك يا رسول الله! من قومٍ لا يزالون يعيشون في رفدك ، ويأكلون من فتات مائدتك ، وينعمون بالحرِّية والشرف في بلادٍ أنت حرَّرتها من حكومة الظالمين ، وأخرجتها إلى ضوء الشَّمس ، إنَّهم يحاولون أن ينقضوا الأساس الذي قامت عليه هذه الأمة العظيمة ، وهذا الصَّرح العظيم ، ويريدون أن يوزعوا أمتك الواحدة في قومياتٍ ، وعصبياتٍ كثيرة ، ويحيوا ما أمته ، ويبنوا ما هدمته ، ويرجعوا بهذه الأمة إلى الجاهلية التي أخرجتها منها للأبد ، ويقلِّدوا في ذلك أوربا التائهة الحائرة المفلسة ، ويبدِّلوا نعمة الله كفراً ، ويحلُّوا قومهم دار البوار ، إنَّ الصراع بين مصباحك المنير وشرارة أبي لهب قد عاد من جديد ، وقد انضم إلى معسكر أبي لهب كثيرٌ من الناطقين بلغتك ، وعادوا يتغنون بأمجادهم الجاهلية والأصنام التي حطمتها ، إنهم المطففون الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، نالوا منك كلَّ برٍّ عاشوا به ، وكل قوة اعتزُّوا بها ، ثم إنهم يأخذون بنواصي شعوبهم التي يحكمونها ، ويريدون أن يلقوها في أحضان أوربا وفلسفاتها الجاهلية من قوميةٍ ، واشتراكيةٍ ، وشيوعيَّةٍ .

ها هي الأوثان التي أخرجتها من جوف الكعبة تعود أو تعاد إلى الشعوب المسلمة البريئة بأسماء جديدةٍ ، وبثيابٍ جديدةٍ ، إنِّي أرى في بعض أجزاء

www.abulhasanalinadwi.org

العالم العربيِّ الذي يجب أن يكون معسكرك ثورةً لا فاروق لها ، وردَّةً لا أبا بكرٍ لها. منّي ومن جميع أصحابي الذين أتشرف بتمثيلهم ، والتعبير عما في ضمائرهم إليك أفضل التحيَّات ، وأشرف التسليمات ، وأؤكِّد لك ، وأُشْهِد الله على ما أقول: إنَّنا برآء من الزعماء والعظماء الذين ولوا وجوههم شطر الغرب ، وانصرفوا عن قبلة الإسلام وشطره ، والذين لا صلة لهم بك ، ولا شأن لهم بدينك ، إنَّنا ندين لك بالولاء والوفاء ، وسنظلُّ متمسِّكين بحبل الإسلام حتى يأتي وعد الله ، ونلقى ربنا».

ولم تنته هذه الكلمة المؤمنة البليغة حتى ارتفع صوت المؤذن عالياً على منائر مسجد الرسول ﷺ ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر . وأفقت من غفوتي ، وما كنت أسبح فيه من عالم الخيال والتاريخ ، وإذا بي أمام الواقع ، رجالٌ في الصلاة ، ورجالٌ في تلاوة القرآن ، وجموعٌ من المسلمين ووفود من العالم الإسلاميِّ ، تسلّم على الرسول ﷺ ، وخليطٌ من الأصوات والانطباعات والعواطف.

❊ ❊ ❊

www.abulhasanalinadwi.org

مـن غـار حـــراء

هذا الحديث ألقاه العلامة الندوي من إذاعة المملكة العربية السعودية بمكة المكرمة عام ١٩٥٠ م عند زيارته الثانية للحجاز.

www.abulhasanalinadwi.org

طلعتُ جبل النور ، ووقفتُ على غار حراء ، وقلت لنفسي : هنا أكرم الله بالرسالة محمداً ﷺ ، ونزل عليه الوحي الأول ، فمن هنا طلعت الشمس التي أفاضت على العالم نوراً جديداً ، وحياةً جديدة . إنَّ العالم ليستقبل كلَّ يوم صباحاً جديداً ، وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً لا جدَّة فيه ولاَ طرافة ، ولاخير فيه ولا سعادة! وما أكثر ما استقبل العالم صباحاً استيقظ فيه الإنسان ولم تستيقظ فيه الإنسانية ، واستيقظت فيه الأجسام ولم تستيقظ فيه القلوب والأرواح! وما أكثر النهار المظلم والصبح الكاذب في تاريخ العالم! ولكن من هنا طلع الصبح الصادق الذي أشرق نوره على كلِّ شيءٍ ، واستيقظ فيه الكون ، وتغيَّر مجرى التاريخ .

لقد كانت الحياة كلُّها أقفالاً معقَّدة ، وأبواباً مقفلةً ، كان العقل مقفلاً أعيا فتحُه الحكماءَ والفلاسفة ، كان الضمير مقفلاً ، أعيا فتحه الوعَّاظَ والمرشدين ، كانت القلوب مقفلةً أعيا فتحُها الحوادثَ والآيات ، كانت المواهب مقفلة أعيا فتحُها التعليمَ والتربية ، والمجتمع والبيئة ، كانت المدرسة مقفلةً أعيا فتحُها العلماءَ والمعلمين ، كانت المحكمة مقفلةً أعيا فتحُها المتظلِّمين والمتحاكمين ، كانت الأسرة مقفلةً أعيا فتحُها المصلحين والمفكِّرين ، كان قصر الإمارة مقفلاً أعيا فتحهُ الشعبَ المظلومَ ، والفلاحَ المجهود ، والعاملَ المنهوك ، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلةً أعيا فتحُها جوعَ الفقراء ، وعري النساء ، وعويل الرضعاء ، لقد حاول المصلحون الكبار ، والمشترعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ، فخابوا ، وأخفقوا ، فإنَّ القفل لا يفتح بغير مفتاحه ، وقد ضيَّعوا المفتاح من قرونٍ كثيرةٍ ، وجربوا مفاتيح من صناعتهم ومعادنهم ، فإذا هي لا توافق الأقفال ، وإذا هي لا تغني عنهم شيئاً ، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال ، فجرحوا أيديهم ، وكسروا آلاتهم .

في هذا المكان المتواضع ، المنقطع عن العالم المتمدِّن على جبلٍ ليس بمخصبٍ ولا بشامخٍ تمَّ ما لم يتمَّ في عواصم العالم الكبيرة ، ومدارسه

www.abulhasanalinadwi.org

الفخمة ، ومكتباته الضخمة ، هنا مَنَّ الله على العالم برسالة محمدٍ ﷺ ، وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية ، ذلك المفتاح هو الإيمان بالله ، والرسول ، واليوم الآخر ، ففتح به هذه الأقفال المعقدة قفلاً قفلاً ، وفتح به هذه الأبواب المقفلة باباً باباً ، وضع هذا المفتاح النبويَّ على العقل الملتوي ، فتفتَّح ، ونشط ، واستطاع أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس ، ويتوصَّل من العالم إلى فاطره ، ومن الكثرة إلى الوحدة ، ويعرف شناعة الشرك ، والوثنية ، والخرافات ، والأوهام ، وكان قبل ذلك محامياً مأجوراً يدافع عن كل قضية حقّاً وباطلاً .

وضع هذا المفتاح على الضمير الإنسانيِّ النائم ، فانتبه ، وعلى شعوره الميت ، فانتعش ، وعاش ، وتحوَّلت النفس الأمَّارة بالسوء إلى نفس لوَّامة ، ثم إلى نفسٍ مطمئنَّةٍ ، لا تسيغ الباطل ، ولا تتحمَّل الإثم حتى يعترف الجاني أمام الرسول بجريمته ، ويلحَّ على العقاب الأليم الشديد ، وترجع المرأة المذنبة إلى البادية حيث لا رقابة عليها ، ثم تحضر المدينة وتعرض نفسها للعقوبة التي هي أشدُّ من القتل ، ويحمل الجندي الفقير تاج كسرى ويخفيه في لباسه ، ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ، ويدفعه إلى الأمير ؛ لأنه مال الله الذي لا تجوز الخيانة فيه ، كانت القلوب مقفلةً ، لا تعتبر ، ولا تزدجر ، ولا ترقُّ ، ولا تلين ، فأصبحت خاشعةً واعيةً ، تعتبر بالحوادث ، وتنتفع بالآيات ، وترقُّ للمظلوم ، وتحنو على الضعيف .

وضع هذا المفتاح على القوى المخنوقة والمواهب الضائعة ، فاشتعلت كاللهيب ، وتدفَّقت كالسيل ، واتجهت الاتِّجاه الصحيح ، فكان راعي الإبل راعي الأمم ، وخليفةً يحكم العالم ، وأصبح فارس قبيلة ، وبلد قاهر الدول ، وفاتح الشعوب العريقة في القوة والمجد .

وضع هذا المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المعلِّمون ، وزهد فيها المتعلِّمون ، وسقطت قيمة العلم ، وهان المعلِّم ، فذكر من شرف العلم ، وفضل العالم والمتعلِّم ، والمربِّي والمعلِّم ، وقرن الدين بالعلم ، حتى كانت له دولةٌ ونَفاقٌ ، وأصبح كلُّ مسجدٍ من المساجدِ ، وكلُّ بيتٍ من

www.abulhasanalinadwi.org

بيوت المسلمين مدرسةً ، وأصبح كلُّ مسلمٍ متعلِّماً لنفسه ، معلِّماً لغيره ، ووجد أكبرَ دافعٍ إلى طلب العلم والدين.

وضعه على المحكمة المقفلة ، فأصبح كلُّ عالم قاضياً عادلاً ، وكلُّ حاكمٍ مسلمٍ حكماً مقسطاً ، وأصبح المسلمون قوّامين لله ، شهداء بالقسط ، وجد الإيمان بالله وبيوم الدين ، فكثُر العدل ، وقلَّ الجدل ، وفُقدت شهادةُ الزُّور ، والحكم بالجَور.

وضعه على الأسرة المقفلة ، وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده ، والأخ وإخوته ، والرجل وزوجه ، وتعدَّى من الأسرة إلى المجتمع ، فظهر بين السيد وخادمه ، والرئيس والمرؤوس ، والكبير والصغير ، كلٌّ يريد أن يأخذ ما له ، ولا يدفع ما عليه ، وأصبحوا مطففين ، إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم ، أو وزنوهم يخسرون ، فغرس في الأسرة الإيمان ، وحذَّرها من عقاب الله ، وقرأ عليها قول الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء : ١] وقسم المسؤولية على الأسرة والمجتمع كلِّه ، فقال: «كلكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته»(١).

وهكذا أوجد أسرةً ، عادلةً ، متحابَّةً ، مستقيمةً ، ومجتمعاً عادلاً ، وأوجد في أعضائه شعوراً عميقاً بالأمانة ، وخوفاً شديداً من الآخرة ، حتى تورّع الأمراء وولاة الأمور ، وتقشَّفوا ، وأصبح سيِّد القوم خادمهم ، ووالي الأمة كولي اليتيم ، إن استغنى؛ استعفَّ ، وإن افتقر؛ أكل بالمعروف. وأقبل إلى الأغنياء والتُّجار، فزهَّدهم في الدنيا، ورغَّبهم في الآخرة، وأضاف الأموال إلى الله، فقرأ: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ ﴾ [الحديد : ٧] وقرأ ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ ﴾ [النور : ٣٣] وحذَّرهم من الاكتناز ، وادِّخار الأموال ، وعدم الإنفاق في سبيل الله ، فقرأ عليهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤

---

(١) حديث صحيح.

www.abulhasanalinadwi.org

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع الأمين، المؤثر للآخرة على الدُّنيا، المستهين بالمادَّة، المتغلِّب عليها بإيمانه، وقوَّته الروحية، يؤمن بأنَّ الدنيا خلقت له، وأنه خلق للآخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجراً؛ فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيراً؛ فهو الرجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملاً؛ فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنياً؛ فهو الغني السَّخيُّ المواسي، وإذا كان قاضياً؛ فهو القاضي العادل الفهم، وإذا كان والياً؛ فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيداً رئيساً فهو الرئيس المتواضع الرَّحيم، وإذا كان خادماً أو أجيراً؛ فهو الرجل القويُّ الأمين، وإذا كان أميناً للأموال العامَّة؛ فهو الخازن الحفيظ العليم. وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلاميُّ، وتأسَّست الحكومة الإسلامية في دورها، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبَّرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع مجتمعاً صالحاً، أميناً، مؤثراً للآخرة على الدُّنيا، متغلباً على المادة، غير محكومٍ لها، انتقل إليه صدق التاجر، وأمانته، وتعفف الفقير وكدحه، واجتهاد العامل، ونصحه، وسخاوة الغني، ومواساته، وعدل القاضي، وحكمته، وإخلاص الوالي، وأمانته، وتواضع الرئيس، ورحمته، وقوة الخادم، وحراسة الخازن، وكانت هذه الحكومة حكومةً راشدةً، مؤثرةً للمبادىء على المنافع، والهداية على الجباية، وبتأثير هذا المجتمع، وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياةٌ عامَّة، كلُّها إيمانٌ، وعملٌ صالحٌ، وصدقٌ، وإخلاص، وجدٌّ واجتهادٌ، وعدلٌ في الأخذ والعطاء، وإنصافٌ مع النفس والغير.

وقد ذهلت في حديثي لنفسي، وتمثَّلتْ لي الحياة الإسلامية الأولى بجمالها وتفاصيلها كأني أشاهدها، وأتنفس في جوِّها، وانقطعت الصلة بيني وبين العالم المعاصر.

www.abulhasanalinadwi.org

وحانت مني التفاتةٌ إلى هذا العصر الذي نعيش فيه فقلت: إنِّي لأرى أقفالاً جديدة على أبواب الحياة الإنسانية، وقد قطعت الحياة مراحل طويلةً، وخطت خطواتٍ واسعةً، وتعقَّدت الحياة، والتوت، وتطوَّرت المسائل، وتنوَّعت، وتساءلتُ: هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق؟ وأبيت أن أحكم بشيء حتى أختبر هذه الأقفال، وأضع عليها المفتاح، ولمست هذه الأقفال بالبنان فإذا هي الأقفال القديمة بتلوينٍ جديد، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم، وإذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذي لا يزال لبنة المجتمع، وأساس الحكومة، ووجدت أنَّ هذا الفرد قد أصبح اليوم لا يؤمن إلا بالمادة والقوَّة، ولا يعنى إلا بذاته وشهواته، وأنَّه يبالغ في تقدير هذه الحياة، ويسرف في عبادة الذات، وإرضاء الشهوات، وقد انقطعت الصِّلة بينه وبين ربه ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة، فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء المدنية، فإذا كان تاجراً؛ فهو التاجر المحتكر النَّهم الذي يحجب السِّلع أيام رخصها، ويبرزها عند غلائها، ويسبب المجاعات والأزمات، وإذا كان فقيراً؛ فهو الفقير الثائر الذي يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعبٍ، وإذا كان عاملاً؛ فهو العامل المطفف، الذي يريد أن يأخذ ما له، ولا يدفع ما عليه. وإذا كان غنياً؛ فهو الغنيُّ الشحيح القاسي الذي لا رحمة فيه، ولا عطف، وإذا كان والياً؛ فهو الوالي الغاشُّ الناهب للأموال. وإذا كان سيِّداً؛ فهو الرجل المستبد المستأثر الذي لا يرى إلا فائدته، وراحته. وإذا كان خادماً؛ فهو الضعيف الخائن. وإذا كان خازناً؛ فهو السارق المختلس للأموال. وإذا كان وزير دولة، أو رئيس وزارة، أو رئيس جمهورية، فهو الماديُّ المستأثر الذي لا يخدم إلا نفسه، وجماعته، ولا يعرف غيره. وإذا كان زعيماً، أو قائداً؛ فهو الوطنيُّ، أو القوميُّ الذي يقدِّس وطنه، ويعبد عنصره، ويدوس كرامة البلاد الأخرى، والشعوب الأخرى، وإذا كان مشترعاً؛ فهو الذي يسنُّ القوانين الجائرة، والضرائب الفادحة، وإذا كان مخترعاً، اخترع المدمِّرات، والناسفات. وإذا كان مكتشفاً؛ اكتشف الغازات المبيدة للشعوب، المخرِّبة للبلاد، والقنبلة الذرية، التي تهلك

www.abulhasanalinadwi.org

الحرث والنسل. وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ؛ لم ير بأساً بإلقاء هذه القنابل على الأمم والبلاد.

وبهؤلاء الأفراد تكوَّن المجتمع، وتأسَّست الحكومة، فكان مجتمعاً مادِّيّاً، اجتمع فيه احتكار التاجر، وثورة الفقير، وتطفيف العامل، وشحُّ الغني، وغشُّ الوالي، واستبداد السَّيِّد، وخيانة الخادم، وسرقة الخازن، ونفعية الوزراء، ووطنية الزعماء، وإجحاف المشترع، وإسراف المخترع والمكتشف، وقسوة المنفذ، وبهذه النفسيات المادية تولَّدت أزماتٌ طريفةٌ، ومشاكل معقَّدةٌ، تشكو منها الإنسانية بثَّها وحزنها، كالسوق السوداء، وفشوِّ الرشوة، والغلاء الفاحش، واختفاء الأشياء، والتضخم النقديِّ، وأصبح الماكرون والمشترعون لا يجدون حلاًّ لهذه المشاكل، وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمةً أخرى، بل إنَّ حلولهم القاصرة ومعالجاتهم المؤقتة هي التي تسبب أزماتٍ جديدة. وتنقلوا من حكومةٍ شخصيةٍ إلى ديمقراطية، إلى دكتاتورية، ثم إلى ديمقراطية، ومن نظامٍ رأسماليٍّ إلى نظام اشتراكيٍّ إلى شيوعيٍّ، وإذا الوضع لا يتغيَّر؛ لأنَّ الفردَ الذي هو الأساس لا يتغيَّر، ويجهلون، أو يتجاهلون في كلٍّ ذلك أنَّ الفرد هو الفاسد المعوجُّ، ولو عرفوا أنَّ الفرد هو الأساس، وأنَّه فاسدٌ معوجٌّ؛ لما استطاعوا إصلاحه وتقويمه، لأنهم ـ على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر ـ لا يملكون ما يصلحون به الفرد، ويقوِّمون اعوجاجه، ويحوِّلون اتجاهه من الشرِّ إلى الخير، ومن الهدم إلى البناء؛ لأنَّهم أفلسوا في الروح وتخلَّوا عن الإيمان، وفقدوا كل ما يغذي القلب ويغرس الإيمان، ويعيد الصلة بين العبد وربه، وبين هذه الحياة والحياة الأخرى، وبين المادة والروح، وبين العلم والأخلاق، وفي الأخير أدَّى بهم إفلاسهم الرُّوحيُّ، وماديَّتهم العمياء، واستكبارهم إلى استعمال آخر ما عندهم من آلات التدمير؛ التي تبيد شعباً بأسره، وتخرِّب قطراً بطوله، حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية ـ إذا تبادلت الدول المتحاربة استعمال هذه الآلات ـ للنهاية الأليمة.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

ميلاد عالمٍ جديد

هذا الحديث ألقاه العلامة الندوي من إذاعة دلهي (الهند) بدعوة من وزارة الإعلام الهندية بمناسبة شهر ربيع الأول.

www.abulhasanalinadwi.org

إذا تساءلنا: ما هو اليوم ـ من أيام التاريخ ـ الذي يستحقُّ من الإنسانية أعظم تقديرٍ وإجلالٍ ، ويستحقُّ أن يُذكر فلا يُنسى ، ويستحقُّ أن يُعتبر اليوم الخالد ، والخط الفاصل في أدوار التاريخ ، وبين عهدٍ وعهدٍ ، بل بين عالمٍ وعالمٍ؟

وإذا تساءلنا : ما هو اليوم الذي تشترك في إجلاله ، والاحتفال به ، وإبداء السُّرور فيه الإنسانية على اختلاف طبقاتها ، واختلاف أممها وشعوبها ، واختلاف نزعاتها وفلسفاتها؛ لأنها سعدت فيه بعد شقاءٍ طويلٍ ، ونهضت فيه بعد عثرةٍ دامت قروناً؟

وإذا تساءلنا: ما هو اليوم الذي يعتبر ميلاد العالم الجديد ، وفاتحة العهد السعيد ، ورمز انتصار الفضيلة على الرذيلة ، وقوى الخير على قوى الشر ، والعدل ، والمساواة ، والرحمة والمواساة على الشقاوة والقساوة ، والهمجية والضراوة ، وانتصار الحياة المنظمة والشريعة الكاملة على شريعة الغابات وقانون العصابات ، وبالاختصار انتصار العلم والإيمان على الجاهلية بأوسع معانيها انتصاراً خالداً؟

وإذا تساءلنا: ما هو اليوم الذي ولدت فيه قوَّةٌ جديدةٌ نشيطةٌ لمكافحة الشرِّ وصدِّ تيار الفساد ، لتكوين المجتمع الجديد القائم على الإيمان والعمل الصَّالح والتقوى وخدمة الإنسانية ، مؤلفة من أفضل رجال «أقلُّ النَّاس تكلُّفاً ، وأبرُّهم قلوباً ، وأعمقهم علماً[(١)]» يغامرون بحياتهم ، وإمكانياتهم ، وما هم فيه من رفاهيةٍ ، وسعة عيشٍ ، وهناء بالٍ في سبيل سعادة المجموع البشريِّ ، وإخراجه من ظلمات العصر القديم إلى نور العصر الجديد ، ومن عبادة الناس جميعاً إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ويتحمَّلون في سبيله كلَّ غائلةٍ وخسارةٍ ، وكلَّ تطوُّرٍ

(١) من كلام سيدنا عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ في وصف الصحابة.

www.abulhasanalinadwi.org

إذا تساءلنا: ما هو اليوم ـ من أيام التاريخ ـ الذي يستحقُّ من الإنسانية أعظم تقديرٍ وإجلالٍ، ويستحقُّ أن يُذكر فلا يُنسى، ويستحقُّ أن يُعتبر اليوم الخالد، والخط الفاصل في أدوار التاريخ، وبين عهدٍ وعهدٍ، بل بين عالمٍ وعالمٍ؟

وإذا تساءلنا: ما هو اليوم الذي تشترك في إجلاله، والاحتفال به، وإبداء السُّرور فيه الإنسانية على اختلاف طبقاتها، واختلاف أممها وشعوبها، واختلاف نزعاتها وفلسفاتها؛ لأنها سعدت فيه بعد شقاءٍ طويلٍ، ونهضت فيه بعد عثرةٍ دامت قروناً؟

وإذا تساءلنا: ما هو اليوم الذي يعتبر ميلاد العالم الجديد، وفاتحة العهد السعيد، ورمز انتصار الفضيلة على الرذيلة، وقوى الخير على قوى الشر، والعدل، والمساواة، والرحمة والمواساة على الشقاوة والقساوة، والهمجية والضراوة، وانتصار الحياة المنظمة والشريعة الكاملة على شريعة الغابات وقانون العصابات، وبالاختصار انتصار العلم والإيمان على الجاهلية بأوسع معانيها انتصاراً خالداً؟

وإذا تساءلنا: ما هو اليوم الذي ولدت فيه قوَّةٌ جديدةٌ نشيطةٌ لمكافحة الشرِّ وصدِّ تيار الفساد، لتكوين المجتمع الجديد القائم على الإيمان والعمل الصَّالح والتقوى وخدمة الإنسانية، مؤلفة من أفضل رجال «أقلُّ النَّاس تكلُّفاً، وأبرُّهم قلوباً، وأعمقهم علماً[1]» يغامرون بحياتهم، وإمكانياتهم، وما هم فيه من رفاهيةٍ، وسعة عيشٍ، وهناء بالٍ في سبيل سعادة المجموع البشريِّ، وإخراجه من ظلمات العصر القديم إلى نور العصر الجديد، ومن عبادة الناس جميعاً إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ويتحمَّلون في سبيله كلَّ غائلةٍ وخسارةٍ، وكلَّ تطوُّرٍ

(١) من كلام سيدنا عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ في وصف الصحابة.

www.abulhasanalinadwi.org

ميلاد عالمٍ جديد

هذا الحديث ألقاه العلامة الندوي من إذاعة دلهي (الهند) بدعوة من وزارة الإعلام الهندية بمناسبة شهر ربيع الأول.

www.abulhasanalinadwi.org

وانقلاب، لا يثنيهم عن ذلك عداءٌ، أو خلافٌ، ولا يحملهم على عكس ذلك ودادٌ أو صداقة ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]؟

وإذا تساءلنا: ما هو اليوم الذي ولدت فيه الأمَّة العربية ولادةً جديدةً، بل ولدت فيه لأول مرَّةٍ، وظهرت على مسرح التاريخ أوَّل مرة، واستحقَّت أن تسمَّى «الأمَّة» أول مرَّة، فقد عاشت قبل ذلك قبائل متشتِّتةً، وعصابات متناحرةً، وسيادات متحاربةً، وشعباً يعيش على حاشية الأمم، وفي عزلة عن العالم، لا شأن له في مجاري الأمور أو مصير الأمم، وسياسة الدول، ومناهج الحياة، وأخلاق المجتمعات، واتجاه الإنسانية وميولها، ولا سهم له في المكتبة العالمية، غير قصائد قيلت في حوادث محلِّيَّة، وأغراضٍ تافهةٍ، تجلَّت فيها عبقرية اللغوية، وحريته الفردية، وقوته في التعبير وسعة لغته، يقولها فتنتشر في باديته وحواضره، وتبلغ أوج التقدير والاحترام، فتعلَّق في الكعبة من غير أن يطلع عليها الأدباء والمثقفون في خارج الجزيرة العربية أو تنقل إلى لغات العالم المتمدن، ويعرف هذا الشعب بصدق لهجته، وقوة عارضته، وجودة خياله، وشغفه بالحرية، والمساواة، والبساطة، والتقشف في الحياة، وشدَّة القتال في الحروب، وحسن الثبات، والمحافظة على الأنساب، أفضل أخلاقٍ وسجايا ومواهب يعرف بها شعب من شعوب البادية، فإذا بهذا الشعب المنطوي على نفسه، القابع في بطون جزيرته، يصبح أمَّةً تقرِّر مصير الأمم، وتغيِّر اتجاه العالم، وتفرض على المجتمع الإنسانيِّ مدنيتها المقتبسة من الدين الجديد، المتشعبة بروح التقوى والأمانة وتصبح لغتها المحصورة في جزيرتها لغة العالم الجديد المقدَّسة، يحرص على دراستها وإتقانها والتفنن في علومها وآدابها كبار الأذكياء في العالم، وتصبح معرفتها والتفقه فيها واجباً من واجبات الدين، وشعاراً من شعائر المتدينين، لا يبلغ بغيرها رجلٌ إلى ذروة الشرف، ولا يقلّد منصباً من المناصب في القضاء والفتوى والتعليم؟

وإذا تساءلنا: ما هو اليوم الذي تجدَّد فيه الأمل في الإنسانية

ومستقبلها ، وغلب التفاؤل على التشاؤم المؤسس على المآسي والمهازل ، التي قام بها الإنسان في كلِّ بقعةٍ من بقاع البسيطة ، وفي كل أمَّةٍ من الأمم ، والمؤسس على سخافة الإنسان في العقل والعقيدة والعمل ، ومحاولته لتدمير المدنية وعبادة الإنسانية ، حتى يئس الإنسان نفسه من مستقبله ، وحرم نفسه حق البقاء وجدارة الحياة ، واستحقَّ العقوبة العاجلة ، وانقراض الجيل الإنسانيِّ ، ولكن بطلوع فجر هذا اليوم استحقَّ أن يفسح في أجله ، ويمدَّ في حياته ، ويعتمد عليه في بناء المجتمع الجديد ، وفي إحياء ما اندرس من الفضائل والمعاني السامية ، وفي إعادة كرامة الإنسان إلى الإنسان ، وفي الأخذ على يد الظالم والانتصار للمظلوم ، وفي الحياة الجديدة التي تليق بشرفه ، وتتَّفق مع غاية خلقه ، ومع أهداف هذا الكون ، وكان هذا اليوم تمديداً لحياة الإنسان على هذا الكوكب ، وفرصةً جديدةً له في البقاء والازدهار ، يدين لهذه المنَّة كلُّ من ولد بعد هذا اليوم ، وكلُّ من عاش في العصر الذي يليه؟

كان الجواب من غير نزاع ، ومن غير تردُّدٍ ، هو اليوم الذي ولد فيه محمد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم.

إنه هو اليوم الذي وجدت فيه الإنسانية الإيمان الذي فقدته ، وأفلست فيه من مدَّةٍ طويلةٍ ، الإيمان بفاطر هذا الكون ، ووحدانيته ، والإيمان بمصيرها ، وبالبعث بعد الموت بعد ما يئست من مستقبلها ، وتهالكت على هذه الحياة وعبادة الشهوات ، والإيمان بسلسلة الرُّسل ، وهداة السبل ، بعدما تسلط عليها الدجالون المحترفون ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدُّون عن سبيل الله ، والإيمان بقيمة الإنسان وكرامته بعدما أنكرتها ، وثارت عليها وامتهنتها أمام الأحجار والأشجار ، والحيوانات والأنهار ، والملوك والأمراء ، والأغنياء والأقوياء ، فأصبحت تؤمن بأنَّ الدنيا خلقت لها ، وأنها خلقت لله ، وأن لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ إلا بالتَّقوى ، كلُّ بني آدم من آدم ، وآدم من تراب ، وأصبحت تؤمن بالحقوق والواجبات ، فلكلٍّ حقٌّ وعليه واجبٌ ، وليكن

www.abulhasanalinadwi.org

رفيقاً في المطالبة بحقه ، مقتصداً في التمتُّع به ، قوياً نشيطاً في أداء واجبه «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته» والنساء شقائق الرجال ، ولهنَّ مثل الذي عليهنَّ بالمعروف ، إلى آخر ذلك من التعاليم المتَّزنة ، والتوجيهات الحكيمة؛ التي جاء بها محمد ﷺ ، وبفضلها وُجِد المجتمع الرشيد السعيد الفاضل الكامل الذي لا يوجد له نظير في التاريخ ، وعلى أساسها يقوم هذا المجتمع في كلِّ عصرٍ ومصرٍ ، وفي كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

ولم يكن هذا اليوم ظهوراً لهذه المبادىء وتعريفاً بهذه التعاليم المتزنة والتوجيهات الحكيمة ، فقد كان ذلك مراراً في فتراتٍ مختلفة من الزمان ـ وإن لم تكن في هذا الطور الكامل ـ وكانت صيحاتٌ ترتفع حيناً بعد حين ، ثم تغيب في دياجير الظَّلام ، ويبتلعها المجتمع الفاسد ، لأنَّه ليس وراءها فردٌ يجازف لأجل ذلك بحياته ، وأسرته ، وكلِّ ما يتمتع به من شرفٍ ، ومركزٍ ، ومنعةٍ ، ولم يكن وراءها جماعةٌ تراهن في سبيل ذلك بكلِّ ما تملكه من حاضرٍ ، أو تؤمل فيه من مستقبلٍ ، ولكن البعثة المحمَّدية كانت مقرونة ببعثة أُمَّةٍ جديدةٍ ، أمَّة تعيش لهذه الدعوة المقدَّسة ، وتعيش على هذا الجهاد المقدَّس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أمَّةٍ تهب نفسها لهذه الدعوة ، وتربط حياتها بحياتها.

ويتزعَّم هذه الأمة الجديدة الخالدة ـ التي نيطت بها هذه الدعوة ـ العرب الذين آمنوا بصاحب هذه الرسالة الجدية بصدقٍ وإخلاصٍ ، ووضعوا أيديهم في يده ، وحكَّموه في نفوسهم وأموالهم وأملاكهم ، وأخضعوا له رغباتهم وإراداتهم ، فكانوا أصحابه الأولين ، وجند الله المنصورين ، وحملة هذه الدعوة ، وأمناءها ، ورسلها وأصحاب النصيب الأوفر في فقهها ووعيها ، والاستماتة في سبيلها ، وتحمل الخسائر والنكبات لأجلها ، حتى ارتبط مستقبل هذه الدَّعوة بمستقبلهم ، وبقاؤها ببقائهم ، حتى استطاع الرسول وساغ له أن يقول في ساحة بدر «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد»[١].

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ، غزوة بدر.

www.abulhasanalinadwi.org

ومكّن الله لهؤلاء العرب في الأرض ، وأعزَّهم بعد الذلّ وأغناهم بعد الفقر ، وقوّاهم بعد الضعف ، ووحَّدهم بعد الفرقة ، وأسبغ على لغتهم المحصورة في جزيرتهم القدسية الدينيَّة ، وكتب لها الانتشار في العالم ، وغرس حبَّها في القلوب ، حتى امَّحت أمامها كثيرٌ من اللغات ، وكانت لغة الشرق الأوسط الوحيدة ، ونطق بها بنو آدم من ضفاف دجلة إلى الجبل الأطلس ، وأصبحت لغة الدين ، والعلم ، والتأليف في العالم الإسلامي الجديد الفسيح ، ومُنح العرب مركزاً سيبقى معهم على رغم الحركات الشعوبية في العالم الإسلاميِّ ، والقوميات المتطرفة ما داموا متديِّنين بدين الإسلام ، مؤمنين بتعاليمه ، عاملين بفرائضه ، عارفين بمحمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فضله ، ومنَّته ، مصدِّقين بأنَّه هو الذي نال به الإنسان الكرامة ، ونال به العرب الشرف والزعامة .

هذا هو العالم الجديد الذي يعيش فيه الناس ، ويغتبطون به ، ويتمتعون فيه بالحرية والمساواة ، وكثيرٍ من الحقوق التي كانت مهضومةً مهجورةً في العالم القديم ، وتتقدَّم فيه المدنية إلى الأمام ، وهذا هو العالم الذي يعيش العرب متمتِّعين بمركزٍ جديد ، وبحياةٍ جديدةٍ وبلادٍ لا صلة لهم بها إلا عن طريق الإسلام ، وطريق محمَّد عليه السلام ، ولا عهد لهم بها إلا بعد البعثة المحمَّدية على صاحبها الصلاة والتحية .

ولا نشعر في غالب الأحيان أنَّ مصدر هذا الانقلاب ، ومصدر هذه السعادة التي نتمتع بها جميعاً هو هذا الحادث السعيد الذي حدث في هذا اليوم ، ولادة محمَّد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم خاتم الرسل ، وإمام الكلِّ ، ومنير السبل .

إنَّ ذلك اليوم ، هو اليوم الذي يحقُّ أن تُنشد فيه الإنسانية في اعتزازٍ واهتزازٍ وبلاغةٍ وإيجازٍ :

وُلِـدَ الهُـدى فـالكـائِنـاتُ ضِيـاءُ وفـمُ الـزَّمـان تَبسُّـمٌ وَثَنـاءُ

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

النبيُّ الخاتم ، والدِّين الكامل ، وما لهما من أهميةٍ في تاريخ الأديان والملل

عقدت جامعة دار العلوم ـ ديوبند الإسلامية مؤتمراً في موضوع : القاديانية ، وبيان حقيقتها وخطرها أسمته «مؤتمر صيانة ختم النبوة العالمي» في ٢٤ ـ ٢٦ من صفر ١٤٠٧ هـ (٢٩ ـ ٣١ من أكتوبر ١٩٨٦ م) حضره كبار العلماء من شتَّى نواحي شبه القارة الهندية والمعنيين والمهتمين بالموضوع .

وإلى القراء هذه المحاضرة الَّتي ألقاها العلامة الندوي ، في أول احتفالاته (٢٤/ من صفر ١٤٠٧ هـ) في اللغة الأردوية ، لغة غالبية المحاضرين ولغة الشعب المسلم الهندي ، وكانت الكلمة مرتجلةً ، عفو الساعة ، وفيض الخاطر ، لم يعتمد فيها العلامة على مذكرةٍ أو نقولٍ ، إنما اعتمد على دراسته للموضوع دراسةً عميقةً مستوعبةً ، وهو صاحب كتاب «القادياني والقاديانية» الَّذي يعتبر عن المراجع الرئيسية في الموضوع في اللغات الثلاث ، العربية والأردوية والإنجليزية وصاحب كتاب «النبيُّ الخاتم» وهو من أفضل ما كتب سماحته في هذا الموضوع وأقواه. وعلى ذاكرته ، فأحال إلى المراجع ولخَّص النقول والمقتطفات التي استشهد بها ، وكان للمحاضرة أطيبُ الأثر وأعمقهُ في نفوس المستمعين الفضلاء .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين! والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أما بعد! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

أيها السادة! الذي سأتحدث عنه الآن بصفتي دارساً متواضعاً للقرآن الكريم ، وتاريخ الأديان والملل ، دراسةً مقارنةً للديانات ، إنما يكون إشاراتٍ خاطفةٍ .

يا سادة! إنَّ دراسة القرآن الكريم تدلُّ على أن هناك أمرين يحملان أهمِّيَّةً قصوى فيما يتعلق بالدِّين ، وأنَّ الله عز وجل قد وعد بتحقيقهما ، والأديان تحتاج إليهما ، وهما : «نشر الدين» و«صيانة الدين» .

أمَّا الإسلام؛ فقد جاءت له في القرآن الكريم إشاراتٌ واضحةٌ إليهما ، فقد قال الله عزَّ وجلَّ فيما يتصل بنشره :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩] .

إنَّ قوله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الدين الإسلامي سيغلب الأديان كلَّها ، ليس يغلبها سياسياً فقط ، بل بقوة الحجَّة والبرهان ، وتسخير العقل والوجدان .

وقد جاء في موضع آخر تبشيراً للنَّبي ﷺ وإنباءً بانتشار دينه انتشاراً بالغاً ، ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر : ١ ـ ٣] .

وقد تجلى منظر ﴿ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ في حياته ﷺ ، غير أنه تكرَّر ، وكثر في تاريخ الإسلام واتَّصل اتصالاً منقطع النظير .

www.abulhasanalinadwi.org

وجاء في سورة النور:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ﴾ [النور: ٥٥].

إنَّ التمكين في الأرض يتضمَّن التأكيد عن «نشر الدين» ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ﴾ [الحج: ٤١].

إنَّ هذه الكلمات زاخرةٌ بالمعاني، باعثةٌ للتفكير، وإنّ التاريخ يصدق ما انطوت عليه من الحقائق. وكذلك ضمن القرآن الكريم للإسلام بالصيانة والحفاظ، والإعلان الصَّارخ المدهش الذي شهد به التاريخ، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

إعلانٌ صريحٌ كلَّ الصراحة من الربِّ الأكرم: أنَّه هو الذي نزل القرآن، وهو الذي يضمن له الحفاظ والصيانة، شريعةً وأحكاماً، ولغةً وأدباً، وفهماً وتفسيراً، بل يضمن ببقاء شعوبٍ وبلادٍ تنطق بلغة القرآن، وتستخدمها، فلا بقاء للغة إلا ببقاء من يتكلم، ويتفاهم بها، ويغار عليها، وذلك يشمل بقاء آدابها وقواعدها، ومكتبتها، وحركة التأليف.

يا سادة! التاريخ يدلُّ ـ ولا أقول: إنَّ التاريخ تفسيرٌ للقرآن الكريم؛ لأنَّ ذلك يكون اجتراءً كبيراً، ولكنِّي أقول: إنه تصديقٌ له ـ على أنَّ الأديان الأخرى لا يُشكُّ في نجاحها فيما يتعلَّق بانتشارها، فقد فتح بعضُها في عهد قريب نصف الكرة الأرضية، وبعضها ربعها، وبعضُها عمَّ العالم من شرقه إلى غربه.

ومن بين الديانات التي تركت أثراً عميقاً على بلاد العالم، وعلى المجتمع البشري والفكر البشري، ديانتان جديرتان بالذكر ـ كما تؤكد دراسة تاريخ الديانات ـ البوذية والمسيحية.

www.abulhasanalinadwi.org

أما البوذية فقد عمَّت آسيا الوسطى كلَّها ، ونفذت إلى أفغانستان وتركستان بما فيها سمرقند وبخارى ، وتدل الحفريات والاكتشافات على أنَّ الحضارة البوذية كانت قد سيطرت على المناطق الممتدة بين «باتلي بترا» في شرق الهند ، وبين ضفاف البحر الأبيض المتوسط في الغرب ، حتى تأثر بها النظام الحضاريُّ والفنُّ المعماريُّ ، إنَّ هذه الديانة قد بسطت نفوذها في رقعةٍ كبيرةٍ في العالم ، وانتشرت في الصين ، واليابان ، ولا تزال موجودةً في الصين ، وقد تسربت في تفكير علماء دياناتٍ أخرى متأخرةٍ ، وعلماء علم التوحيد والكلام والفلاسفة فيها .

وتليها المسيحية ، وبالتاريخ أؤكد أنها حقَّقت نجاحاً كبيراً في الانتشار والسيطرة ، فقد تخطَّت حدود فلسطين في وقتٍ باكرٍ ، وغزت أوربا ، ولما تنصَّر قسطنطين ، وتربَّع على عرش القياصرة في أوائل القرن الرابع المسيحيِّ ، وتنصَّر معه الانتهازيُّون ، وروَّاد الجاه والمناصب ، وكانوا مشركين وعبَّاد الأوثان في داخلهم ، أصبحت بتأثيرهم المسيحية مزيجاً من وثنيَّةٍ ، وديانة شركية ، وشعائر مسيحيَّة[١] ، وأصبحت ديانة روما الرسمية ، ودانت بها شعوبٌ أوربية ، وبلادٌ في القارة ، كانت تحت سيطرة بيزنطية السياسية والحضارية ، وأصبحت قسطنطينية عاصمتها الدوليَّة ، وانتشرت في بلاد الشام (بما فيها سورية ، وفلسطين ، ولبنان ، والأردن الحالية) .

غير أنَّ هاتين الديانتين العالميتين ـ فيما يتعلق بصيانتهما ، وبقائهما ، واحتفاظهما بروحهما ، وأصالتهما ـ قد أخفقتا في ذلك بالقدر الذي نجحتا في الانتشار ، فإنَّهما لم تلبثا أن وقعتا فريستين للمؤامرات الداخلية والخارجية ، والتحريفات العقائدية ، والانحرافات العمليَّة .

إن تاريخ البوذية يدلُّ على أنَّ الديانة التي جاءت لإصلاح المجتمع ، والقضاء على التفرقة الطبقية والعرقية ، وثورةً على الوثنية المتطرفة ، لم

---

(١) راجع للتفصيل «الصراع بين الدين والعلم» لمؤلفه درابر .

www.abulhasanalinadwi.org

تلبث أن تورَّطت في نحت الأوثان ، وعبادة الإنسان ، ونكتفي هنا بشهادةٍ واحدةٍ لعالمٍ متخصِّصٍ في تاريخ الديانات الهندية .

يقول الأستاذ الهندوكي الفاضل (C.V.Vaidya) سي . وي . ويديا ، في كتابه : «تاريخ الهند الوسطى» وهو يتحدَّث عن عهد الملك هرش الملك البوذي (٦٠٦ ـ ٦٤٨ م) :

«كانت الديانة الهندكية ، والدِّيانة البوذية وثنيتين سواءً بسواء ، بل ربما كانت الديانة البوذية قد فاقت الديانة الهندكية في الإغراق في الوثنية ، كان ابتداء هذه الديانة ـ البوذية ـ بنفي الإله ، ولكنَّها بالتدريج جعلت «بوذا» الإله الأكبر ، ثم أضافت إليه آلهةً أخرى مثل (Bodhistavas) على مرِّ الزمن ، لاسيما رسخت الوثنية قدميها في المدرسة البوذيَّة الفكرية التي تسمَّى «مهايانا» بالتأكيد ، وقد بلغت أوجها في الهند ، حتى أصبحت كلمة «بوذا» (Buddha) مرادفة لكلمة «الوثن» أو «الصنم»[(١)] ، في بعض اللغات الشرقية»[(٢)] .

وقد رأيت بأمِّ عيني المدينة التي اكتشفت من خلال الحفريات التي تمَّت في (Taxila) «تكسلا»[(٣)] فرأيت من تماثيل «بوذا» مؤسس البوذية (حوالي ٥٦٦ ـ ٨٦ ق . م) الكثرة الكاثرة التي تجعل نفس الإنسان تعافها ، وتقلص منها ، وإنِّي أستخدم هذا التعبير عن قصد ، حيث عشت لحظة هذه الحالة من الامتعاض والقلص عندما رأيت لبوذا مئاتٍ من التماثيل الصغيرة والكبيرة ، والدقيقة ، والعريضة ، والطويلة ، والقصيرة ، والجميلة ، والدميمة .

---

(١) مثل الفارسية واللغات المشتقة عنها كالأردوية ، فهي تعبير عن الوثن أو الصنم بكلمة «بت» وهذا التعبير منتشر في الشعر والأدب ، وكلام الناس في إيران والهند ، والناس في الهند يطلقون على «بوذا» كلمة «بدها» ، فيقولون : جوتم بدها» ، وكلمة «بده» و«بت» متقاربتان نطقاً ، وكتابة (نقلاً عن السيرة النبوية) للعلامة الندوي .

(٢) HISTORY OF MEDIAEVAL HINDU INDIA: C.V.VAIDYA. VOL .1,P.101

(٣) مدينة أثرية في ضواحي روالبندي وإسلام آباد في باكستان .

www.abulhasanalinadwi.org

وعلى ذلك فإنَّ الديانة التي جاءت لمحو عبادة الأصنام ، تورَّطت هي عما قريبٍ في ذلك .

وهنا تتجلى قدرة الله عز وجل ، حيث إنَّ الحركة التي نهضت لمحو عبادة «بت» (الوثن) صارت فريسة عبادة «بده» في هذه السرعة العجيبة ، حتى صارت عبادة «بت» (الصنم) شعاراً لها ، وإنها هي التي وهبت الثروة اللغوية ، والفكر البشريَّ كلمةً جديةً هي كعملةٍ دولية ، متداولة في العالم ، وهي كلمة «بت» ، وكذلك عبادة الشخصية الخاصة ، وتقديسها ، وتركيز جميع الطاقات الفكرية ، والمراقبة على الإنسان الواحد ، إنما نشأ اتجاهها من البوذية ليس إلا . أما المسيحيَّة ، فقد اعترف المؤرخون المسيحيُّون بدورهم ، بأنها وقعت فريسة التحريف بالسُّرعة التي ينقطع نظيرها في تاريخ الديانات ومسيرتها ، فقد تورطت في القرن الأول في المؤامرة التي نسجها بولس الراهب (Saintpaul) ، في القرن المسيحي الأول ، فنشأت مسيحيةٌ جديدةٌ ، ونظامٌ عقائديٌّ واجتماعيٌّ ، ونظامُ عادةٍ جديدٍ ، لا يتّصل بسيدنا المسيح ، النبيِّ الصادق الداعي إلى التوحيد الخالص ، إلا بالاسم ، والمسيحية الجديدة هي عطاء «بولس» الراهب ، ولو قرأتم الكتب المؤلفة في هذا الموضوع حديثاً ، لعرفتم أنه لم تقع ديانةٌ ما فريسةَ المؤامرة التحريفية بالسُّرعة التي وقعت بها المسيحية ، يتحدَّث كاتبٌ مسيحيٌّ فاضلٌ عن مدى تغلغل عقيدة التثليث في المجتمع المسيحيِّ ، منذ أواخر القرن الرابع الميلاديِّ ، فيقول :

«تغلغل الاعتقاد بأنَّ الإله الواحد مركبٌ من ثلاثة أقانيم ، في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره ، منذ ربع القرن الرابع الأخير ، ودامت كعقيدةٍ رسميةٍ مسلَّمةٍ ، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحيِّ ، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرِّها ، إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي»[١] .

---

(١) ملخص ما جاء في «دائرة «المعارف الكاثوليكية الجديدة» مقال «التثليث المقدس» ج ١٤ ص٩٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

ويتحدَّث عالمٌ مسيحيٌّ (Ernest De Bunsen) فيقول:

«إنَّ العقيدة والنظام الدينيَّ الذي جاء في الإنجيل، ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله، وعمله، إنَّ مردَّ النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح، بل إلى دهاء بولس ذلك المارق اليهوديِّ والمسيحيِّ، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم والتمثيل (Essenie)، وملئه هذه الصحف بالنبوءات والأمثلة، إنَّ بولس في تقليده لاستفانوس (Stephen) داعي المذهب الإيساني، قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية.

إنَّه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم، والتي تعرض المسيح في صورةٍ لا تتَّفق مع التاريخ أصلاً، ليس المسيح، بل بولس، والذين جاؤوا بعده من الأحبار والرهبان، هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الدينيَّ الذي تلقاه العالم المسيحي كأساسٍ للعقيدة المسيحية الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً»[١].

وهنا يتجلَّى إعجاز القرآن، وإنِّي أعتقد أنَّ الكلمة الواحدة التي جاءت في القرآن الكريم تصف أبناء المسيحية، تكفي سبباً في إيمان دارسٍ منصف بالقرآن وإعجازه، وبصدق النَّبيِّ الأميِّ الذي دلَّ عليه، وكونه منزَّلاً من عند الله عز وجل، ما أروع الحقيقة التاريخية التي نطق بها القرآن الكريم على لسان أمِّيٍّ ولد في الصحراء، وعاش فيها، والتي يصدقها التاريخ في أدبٍ جمٍّ وفي خضوعٍ وانقيادٍ واستسلام، ويدهش المؤرخون عندما يفكرون في مدى صدق هذا التعبير.

وبالمناسبة أودُّ أن ألفت انتباهكم إلى أن هناك كثيراً من الألفاظ والكلمات فقدت ـ عندما انتقلت من لغتها الأصيلة التي ولدت فيها إلى لغاتٍ أخرى، كاللغة الفارسية والأردية ـ شيئاً كثيراً من قوتها، ووقع فرقٌ كبير في مفهومها الحقيقيِّ، لأنَّ الألفاظ والكلمات لها رحلةٌ تاريخيَّةٌ كرحلة

(١) ISLAM OR TRUE CHRISTIANITY P.128.

www.abulhasanalinadwi.org

القوافل البشرية ، ورحلة الحضارات ، إنَّها تفقد كثيراً من طراوتها وغضارتها عندما تقوم بهذه الرحلة ، وتتفاعل مع أشياء كثيرةٍ جديدةٍ.

وعلى ذلك فإنَّ كثيراً من الكلمات التي استعارتها الأردية من العربية يصعب على الإنسان أن يفهمها في معناها الصحيح وقوتها الدافقة ، من بينها كلمة «الضلالة» فقد يُفهم منها معاني كثيرةً ، منها: فساد العقيدة ، وفساد الجهل ، والانحراف ، والحيد عن الطريق وما إليها ، وكلها ضلال ، ولكن كلمة «الضلال» أعمق معنى ، وأقوى أثراً ، وأبعد مدىً من هذا الضلال الجزئي المحدود. إنَّ دراسة الإنسان التاريخية ، وقوته الاستنتاجية ، وقدرته على استخلاص النتائج الصحيحة تعود حائرةً ومنقادةً عندما تلاحظ أنَّ النَّبيَّ الذي لم يدرس تاريخ المسيحية قط ، ولم تكن لديه وسائل معلوماتٍ عنها ، ولم تثبت عنه زيارة بلد مسيحيٍّ إلا لساعاتٍ معدوداتٍ ، كيف أجرى الله عز وجل على لسانه الحقيقة الكبرى الصادقة ، حيث قال لليهود: «المغضوب عليهم» بينما قال بالنسبة للمسيحيين: «الضَّالِّين»[1].

إنَّ هذه الكلمات وحدها تكفي دلالةً على كون القرآن الكريم منزلاً من الله عز وجل ، وكونه وحياً إلهياً ، حيث كان بالإمكان أن تستخدم للمسيحيين عشرات من الكلمات ، واللغة العربية من سعتها بالمكان الذي كان بالإمكان فيه أن تُستخدم خمسون كلمةً تؤدي هذا المعنى ، وكان بالإمكان أن تنطبق جميعاً على المسيحيين.

غير أن الله أراد فرقاً واضحاً مكشوفاً بينهم وبين اليهود؛ إذ أطلق على اليهود: «المغضوب عليهم» ومن قرأ تاريخهم شهد في ضوء التاريخ ، وفي ضوء اعترافاتهم ، هم ، ونظراً للأثر السلبيِّ التخريبيِّ الذي تركوه على

(١) قال ابن كثير في تفسيره عن عدي بن حاتم ، قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾؟ قال: «هم اليهود» ، قلت: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: «هم النصارى ، هم الضالون» . وعن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم؟ قال: «اليهود» قلت : الضالين؟ قال: «النصارىٰ» قال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً . تفسير ابن كثير ص ٥٣ ـ ٥٤ ، ج ١ .

www.abulhasanalinadwi.org

الأخلاقيات ، والاتجاهات ، والممارسات البشرية ، والمجتمع البشري ، ونظراً لما عاملهم به الله عزَّ وجلَّ ، والعصيان والبغي اللذين تميَّزوا بهما عبر التاريخ ، وحرموا من أجله نصر الله وعونه ، بأنَّه لا تنطبق عليهم كلمةٌ انطباق «المغضوب عليهم» .

والذي يقرأ كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) أو يقرأ على الأقل كتاب (اليهودي العالمي) (The International Jew) للمليونير العالمي هنري فورد (Henry Ford) الذي جاءت فيه مقتطفات من الكتاب الأول ، تقشعر جلوده بالاطلاع على المخططات العالمية الرهيبة لتدمير الإنسانية ، وإفساد الأخلاق وتشويه المجتمع والأجيال الصاعدة في كلِّ عصرٍ ومصرٍ ، منها (بالاختيار والاختصار) :

١ ـ محاربة رجال الدين في جميع الديانات ، وتحطيم رسالتهم ، ومكانتهم(١) .

٢ ـ خلق أدبٍ قذر ، لا منطق فيه(٢) .

٣ ـ إطلاق الحروب الكونية(٣) .

٤ ـ اللعب بالحكام كلعب الشطرنج(٤) .

٥ ـ إفساد الشباب عن طريق التعليم والأدب والروايات والمسرحيات(٥) .

ويكفي اعترافٌ وشهادةٌ واحدةٌ بهذه المؤامرة العالمية ، وهو ما جاء في البروتوكول الأول ، يقول حكماء صهيون :

«وقد أصبح انتصارنا أسهل بفضل الحقيقة الواقعة ، وهي أننا في علائقنا

---

(١) اليهودي العالمي ، تعريب خيري حماد ، ص ٩٤ .
(٢) اليهودي العالمي ، تعريب خيري حماد ، ص ٦٥ .
(٣) اليهودي العالمي ، خيري الحماد ص ١٠٧ .
(٤) اليهودي العالمي ، خيري الحماد ص ١٢٩ .
(٥) اليهودي العالمي ، خيري الحماد ص ١٨٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

مع الرجال الذين نرغب في إقامة علاقاتٍ معهم ، كنا نعزف دائماً على أكثر الأوتار حساسيَّةً في العقل البشري ، كالحسابات النقدية ، والعواطف الغرامية ، والافتقار إلى الاستقرار في حاجات الإنسان المادية ، وكلٌّ مظهر ضعفٍ من هذه المظاهر يعتبر كافياً لشلِّ الحوافز؛ إذ يسلم إرادة الناس إلى ميولٍ الذي تمكن من ابتياع نشاطاتهم»(١) .

أما من درس تاريخ المسيحيين فإنَّه يشهد بأنَّه لا تنطبق عليهم كلمةٌ مثلُ انطباق «الضَّالِّين» عليهم ، فقد كان شأنهم شأن سالكٍ للطريق ، يترك الطريق المستقيم المؤدي إلى غايته ، ويأخذ طريقاً معاكساً يسلك به إلى الوراء ، ولا يزال يواصل السَّير عليه ، فيزداد بعداً على بعد عن غايته المتوخَّاة ، وكما يقول الشاعر العربيُّ :

«شتان بين مشرقٍ ومغرب»

والسبب في ذلك أنَّ الله قدر لهذه الأديان الانتشار والامتداد ، وكان ذلك مؤسساً على حكمته ، فقد اهتدى بها ملايين من البشر قبل نزول هذا الدين الأخير ، وقبل أن يبعث النَّبيُّ الخاتم سيدنا محمد ﷺ. . . غير أنها لم تنزل لتبقى إلى يوم القيامة ، فلم يضمن الله لها الحفظ والصيانة ، ولم يرد بذلك نصٌّ في القرآن الكريم ، وإنما جاء فيه في شأنها :

﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

وهنالك فرق واضح بين ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وبين ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ٤٤] حيث إنَّ الله تكفَّل الحفظ بالنسبة للإسلام ، ولم يضمن بالنسبة لهذه الأديان ، وإنما ألقى هذه المسؤولية على أبنائها .

والسبب الأساسي في ذلك هو عدم وجود عقيدة ختم النبوة فيها ، وبما أنَّه كان من المقدر أن يأتي النبيُّ الخاتم ، والنبوَّة الخاتمة ، فلم يجعل الله حصاراً لهذه النبوءات الزمنية والمحلية ، ومنعاً لإمكان المتنبئين ، فظلَّ

(١) اليهودي العالمي ، خيري الحماد ص ٢٥١ .

www.abulhasanalinadwi.org

المتنبئون يظهرون في فتراتٍ قصيرةٍ ، ومحلاتٍ قريبةٍ ، وظلت دعوتهم تفعل فعلها في الناس ، وتثير قلقاً وبلبلة نفسيةً ودينيةً .

والدارس لتاريخ اليهودية والمسيحية يعلم أنَّ كثرة المتنبئين كانت فتنةً كبرى ومأساةً كبيرةً لليهودية في دائرة نفوذها ، والمسيحية في دائرة نفوذها.

وقد لفت انتباهي إلى ذلك لأول مرّة ، الشاعر الإسلاميُّ الكبير العلامة الدكتور محمد إقبال ، فقد كان ـ فيما أعلم في دراستي ـ أول من أكَّد أنَّ ختم النبوة وسامٌ لهذه الأمَّة ، ونعمةٌ كبرى أنعم الله بها عليها ، وكأنه قال: إنَّ الإنسان لا يحتاج إلى أن يرفع رأسه بعدئذٍ مرّة بعد أخرى إلى السماء في انتظار الوحي ، ولينظر إلى الأرض ، وليستخدم طاقاته في إعمار الأرض ، وتحقيق الغرض الذي من أجله جُعل خليفة الله في الأرض ، وليصرف قواه في إعداد الوسائل والتسهيلات للإنسانية وتهيئة ما يسوق إليه السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة ، وأكَّد العلامة: أنَّ ختم النبوة نعمةٌ عظيمةٌ أنقذت الأمة من القلق والصراع النفسيِّ والتورُّط في المؤامرات[1] وهذا بالعكس من الديانتين العظيمتين اليهودية والمسيحية ، فقد تعرضت لهذه المشكلة ـ وبالأصحِّ المحنة ـ مدةً طويلة كانت لهما الشغل الشاغل ، والمستنفد لطاقاتهما وعناية علمائهما وأحبارهما .

يقول البرت إيم تائمسن (Albert M.Taymson) عضو المجمع التاريخيِّ اليهوديِّ الأمريكيِّ البريطانيِّ في «دائرة معارف الأديان والأخلاق»:

«يكثر الحديث في تاريخ اليهود عن المتزعِّمين الذين كان كلٌّ واحدٍ منهم يدَّعي أنَّه «المسيح الموعود» وذلك في الفترة التي أعقبت تجريد الحكومة اليهودية عن الحرية ، ودامت إلى عدة أجيال ، وكان هؤلاء المبشرون بالعهد الزاهر ، والغد الباسم ، لا يزالون يبعثون في اليهود ـ في أحلك

(١) راجع للتفصيل كتاب الدكتور محمد إقبال «تجديد الفكر الديني في الإسلام» ترجمه من الإنجليزية إلى العربية الأستاذ عباس محمود.

www.abulhasanalinadwi.org

عصورهم ـ أمل العودة إلى وطنهم الذي أجلي منه آباؤهم في الزمن الماضي ، وكان أكبر عددٍ من هؤلآء المتزعمين ينهض في أمكنةٍ ، وأزمنةٍ يبلغ فيها اضطهاد اليهود أوجه ، وكانت تلوح طلائع الثورة على هذا الوضع المخزي ، وكانت هذه الحركات غالباً تتَّسم بالسِّمة السياسية ، وقد غلبت الصبغة السياسية على هذه الحركات في الزمن الأخير ، ورغم أنَّ هذه الحركات لم تكن تتجرَّد عن المظهر الديني تجرداً كاملاً ، ولكنَّها كانت في غالب الأحيان تشجع على البدع ، وتوسع بذلك نفوذها ، وتقوي سلطانها ، لذلك كانت حمايتها عظيمة على التعاليم اليهودية الأصيلة ، وتنجم فرقٌ متطرفةٌ تنضمُّ أخيراً إلى المسيحية أو الإسلام»[١] .

وبذلك كان الشيء الكثير من قواهم الفكرية ينفد في تصديقه ، أو تكذيبه ، وظلَّ العالم اليهوديُّ والمسيحيُّ فريسة هذه الفتنة عبر قرون ، ولم يكونوا ليصرفوا همَّتهم إلى أغراض أخرى ، في هذا الوضع الذي منوا به .

وهنا تتجلَّى قيمة الحديث الذي نقرؤه ، وما أدركت قيمته إلا عندما أدركت قيمة ختم النبوة ، واطلعتُ على الصراع النفسيِّ والفكري الذي عاشه علماء اليهودية والمسيحية زمناً طويلاً ، جاء في الحديث الصحيح :

«جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال : يا أمير المؤمنين! إنكم تقرؤون آيةً في كتابكم ، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً! قال : وأيُّ آية؟ قال قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة : ٣] فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : والله إنِّي لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ ، عشية عرفة يوم الجمعة»[٢] .

وفي رواية : فأجابه سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ : «قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبيِّ ﷺ ، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة» .

---

(١) دائرة معارف الأديان والأخلاق ج/٨ ، ص/٥٥٨ ـ نقلاً عن كتاب «النبيِّ الخاتم للعلامة الشيخ الندوي» .

(٢) رواه البخاري ، وأصحاب الصحاح والسنن ، والإمام أحمد ، واللفظ لأحمد .

www.abulhasanalinadwi.org

أي : إنَّ ذلك اليوم كان عيداً بدوره ، فلا يحتاج إلى أن نتخذه عيداً ، ونضفي عليه اليوم قيمة ، وهو ذو قيمة كبيرةٍ عندنا من قبل.

وإني بدوري أشيد بفهم ذلك العالم اليهوديِّ ، وقد كان قوله شهادةً تاريخيَّةً ذات قيمة كبيرةٍ ، وهي موثوقٌ بها ، نظراً للقرائن ، ونظراً للرواية والدراية ، إنه أكَّد أنَّه لم يتم في اليهودية إعلانٌ بختم النُّبوة ، ولو كان ذلك العالم اليهودي أمامنا الآن لرأينا أثر الألم والتحسُّر على وجهه ، ولو أمعن أحدٌ في عمق هذه الألفاظ وقوتها؛ لأدرك إلى حدٍّ مدى ذلك الألم والحسرة اللذين كان يشعر بهما ، مما يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ مثل هذا الإعلان بختم النبوة وحفظ الدين لم يكن في دينه ، وإنما خصَّ الله هذه الأمَّة بهذه النِّعمة ، وأكرمها بها.

وقد ضمن الله حفظ الدين عن طريق العلماء الربَّانيين ، وخلفاء الرسول ﷺ ، وظلت المسؤوليتان ـ مسؤولية نشر الدين ، ومسؤولية حفظه وصيانته ـ متكافتين في تاريخ الإسلام ، غير أنَّ نشر الدين لا يحتاج إلى الصفات الدقيقة العميقة السامية التي تحتاج إليها مهمَّة صيانة الدين وحفظه ومسؤوليته ، فقد تمَّ نشر الدين عن طريق الملوك ، والسلاطين ، وفاتحي البلاد ، ومؤسسي الحكومات كذلك ، وقد أسلم في عهد خلافة الوليد بن عبد الملك الأمويِّ ـ الذي لا تعتبر خلافته مثاليةً ـ وبعض من خلفه من الخلفاء الأمويين ، ملايين ، بل ملايين الملايين من البشر ، لقد غزا الإسلام القلوب على عهد الخلفاء والسَّلاطين بالسرعة التي غزت بها جنودهم الرقعة الأرضية ، وقد وصل عقبة بن نافع فاتحاً إلى طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى ، وألقى بفرسه في المحيط الأطلسي ، وقال: «يا رب لولا هذا البحر ، لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك»(١) ، وقد زرت خلال رحلتي للمغرب ، ذلك المكان الذي وقف به

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

عقبة والذي يسمَّى لحدِّ الآن «أسفى» كأنه قال: يا أسفى! يمنعني هذا البحر من المضي إلى الأمام!!.

على كلٍّ فإنَّ فريضة نشر الإسلام ساهم فيها الملوك، والسلاطين، والدعاة، والمربُّون بنصيبٍ موفورٍ، وجزاهم الله خيراً، ولست ممن ينكرون لهم كلَّ فضلٍ في تاريخ الإسلام، ويعرضون لهم صورةً قاتمةً سوداء مجرَّدةً عن كل ما يستوجب الشُّكر والاعتراف، كما يفعل بعض الكتاب والنُّقاد، فقد تم نشر الإسلام وتمديد دعوته عن طريق ملوك بني أمية، والملوك الآخرين على نطاقٍ واسعٍ.

ولكن واجب صيانة الإسلام من التحريف، والمسلمين عن الانحراف، والحفاظ على الدين، والذبِّ عن حوزته، يحتاج المرء من أجل القيام به من الصفات الدقيقة السامية المثالية، والقوة الرُّوحية الداخليَّة، والثقة بخلود الدين، والغيرة عليه، والقدرة على التمييز الدقيق بين الجاهلية والإسلام، والإشراك والتوحيد، والسنة والبدعة، والامتياز بالاشتغال بالحديث الشريف[١] ومطالعة تاريخ المصلحين المجدِّدين للدِّين في عصورٍ مختلفة[٢] إلى ما لا يحتاج إليه بطبيعة الحال من يستعمله الله في نشره، ولذلك فإنَّ هذا الواجب وضع على عاتق العلماء، ونائبي الرسول ﷺ، وخصَّ به العلماء الربَّانيون المتفقهون في الدِّين، الغيارى عليه، المميِّزون بين الإسلام والجاهلية ـ بجميع أنواعها وألوانها ـ المطلعون على تاريخ الديانات والصحف التي تعرَّضت لتحريفات المحرفين، وأغراض المغرضين، وقد جاء في حديثٍ صحيحٍ: «يحمل هذا العلم من كلِّ خلف

(١) والتفصيل في محاضرة العلامة الندوي بعنوان «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته» الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) ليرجع إلى سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة الندوي ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ طبع دار ابن كثير، دمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين»[١] .

وما كانت لتجري هذه الكلمات العميقة المعاني ، والدقيقة الدلالات إلا على لسان نبيٍّ مرسلٍ صادقٍ مصدوقٍ ، فلو قرأت تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، والمساعي والمجهودات التي قام بها العلماء والأئمة ، والقائمون بحفظ الدِّين ، لوجدت جميع الجهود المبذولة في سبيل الحفاظ على الدين تأتي تحت هذه العناوين الثلاثة ، إنَّ للكلمات أعماقاً وآفاقاً ، هي أوسع وأعمق مما تبلغ إليه فهوم الرِّجال ، وتحدُّ بحدود النماذج والأمثال .

«ومن الحقائق التاريخية: أنَّ تاريخ الإصلاح والتجديد متَّصلٌ في الإسلام ، والمتقصِّي لهذا التاريخ لا يرى ثغرةً ولا ثلمةً في جهود الإصلاح والتجديد ، ولا فترةً لم يظهر فيها من يعارض التيَّار المنحرف ، ويكافح الفساد الشامل ، ويرفع صوت الحق ، ويتحدَّى القوى الظالمة ، أو عناصر الفساد ، ويفتح نوافذ جديدةً في التفكير ، والدارس لهذا التاريخ ، والمتتبع لحوادثه وشخصياته ، لا يعرف عهداً قصيراً ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي ، وخبت مصابيح الإصلاح ، وخفتت أصوات الحق ، ومات الضمير الإسلاميُّ ، وتبلَّد الشعور ، وأضرب الفكر الإسلامي عن العمل»[٢] .

وإنَّ الأمَّة الإسلامية ـ رغم التحديات والمؤامرات ، والثورات ، والتطورات؛ التي لم تسبق في تاريخ أمَّةٍ أو ديانة ـ لم تتعرض لانحرافٍ جماعيٍّ ، على مدى المجتمعات والبلاد والطبقات ، وإنَّ الدِّين الإسلاميَّ لم يتعرض لتحريفٍ جذريٍّ في عقائده ، وأركانه ، وفرائضه ، وفي المفاهيم الدينية ، فالعقائد هي العقائد ، والأركان هي الأركان ، والشعائر هي الشعائر ، والكتاب هو الكتاب ، والسنَّة هي السنَّة ، وكلُّ ما في الأمر

(١) مشكاة المصابيح ، الفصل الثاني ، ص ٣٦ .
(٢) نقلاً من كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة الندوي .

www.abulhasanalinadwi.org

هو غبارٌ يطرأ على جوهر الإسلام الخالص ، وبالأصح على صعيد مجتمع إسلاميٍّ ـ لعوامل قاهرةٍ طارئةٍ ـ وسرعان ما يزول ويتطاير بقوّة الإسلام الداخلية ، أو جهود عالمٍ مصلحٍ ، ويصدق قوله ﷺ: «لا تجتمع أمتي على ضلالة»[١] وقوله ﷺ: «إن الله يبعث على رأس كلِّ مئة عامٍ من يجدِّد لهذه الأمَّة أمر دينها»[٢] .

وقد كانت القاديانية على رأس الفتن التي ابتليت بها الأمَّة ، وقدر لي أن أعيش في خلال دراستي للتاريخ النواحي التي تتعلق بالفكر ، والديانات ، والأخلاق ، والعقائد ، والحركات ، فأستطيع أن أقول في ضوء دراستي أنَّه لم تكن فتنةٌ في تاريخ الإسلام منذ فجره لحدِّ الآن من الخطر والأثر والدِّقة ، بالمكان الذي احتلته القاديانية .

وأخطر نواحيها أنها دعوةٌ إلى ديانةٍ مستقلَّةٍ ، وإلى أمَّةٍ إزاء الأمَّة الإسلامية ، والعلماء الذين قاموا بالردِّ على القاديانية في البداية ، لم يطَّلعوا منها على بعض النواحي الخطرة جداً؛ لأن كتابات القادياني والقاديانية لم تكن قد ظهرت آنذاك ظهوراً كاملاً ، والمرء لا يستطيع أن يبدي رأيه في القضية التي لم تنكشف عنها أستار ، ولم تتجلَّ نواحيها كلُّها ، فكثيرٌ من علمائنا المناظرين ، والمدافعين عن الإسلام والمكافحين للقاديانية الذين كتبوا في الموضوع ، إنما نظروا إلى القاديانية كفرقة من الفرق الإسلامية ، ومن هذه الوجهة حاسبوها ، وأخذوا عليها ، وأبدوا حيالها ملاحظاتهم على حين أنَّ الأمر ليس كذلك بالتأكيد ، وإنما الحقيقة أنها دعوة إلى دين مستقلٍّ وإلى أمَّة مستقلةٍ وإلى نظامٍ مستقلٍ محلَّ النظام الإسلامي . فقد جاءت بشعائر مقابل الشعائر الإسلامية ومقدَّساتٍ إزاء المقدسات الإسلامية ومراكز روحيَّةٍ ودينيةٍ ، تجاه المراكز الدينية والروحية الإسلامية ، وقبلةٍ مكان القبلة الإسلامية ، وشخصيات جديرة بالحبِّ والاحترام مكان الشخصيات الإسلامية ، وكتبٍ مقدسةٍ مكان الكتب الإسلامية ، فجاءت ببديلٍ عن كل

---

(١) رواه ابن أبي عاصم .

(٢) رواه أبو داود وغيره .

www.abulhasanalinadwi.org

شيءٍ في الإسلام ، ولا مكان هنا للإفاضة ، والوقت لا يسمح بالتفصيل ، وقد جاء الحديث عن ذلك كله في الكتب التي ألفت في مكافحة القاديانية ، وتحدثت عن ذلك في تفصيل في كتابي : «القادياني والقاديانية» وأقمت لذلك عنواناً مستقلاً[١] .

فلا يغيبنَّ عن بالنا أنَّها محاولةٌ لتشكيل ديانةٍ مقابل الدين الإسلاميِّ ، وأبناؤها أمَّةٌ مقابل الأمَّة الإسلامية ، بل إنها فضَّلت نبيها على جميع الأنبياء .

وقد أدرك هذه الحقيقة الدكتور محمد إقبال إدراكاً كاملاً[٢] ، فإنه أكَّد في إحدى مقالاته الإنجليزية التي أجاب فيها على التساؤل الذي أثاره البندت جواهر لال نهرو رئيس وزراء الهند الأسبق ، عندما قامت حركة ختم النبوة في الباكستان ، وتساءل لماذا هذا الحماس ضد القاديانية على حين أنها في اعتقادي محاولةٌ لمثل الإصلاحات التي قام بها كمال أتاتورك؟ فردَّ عليه محمد إقبال بقوله :

«إنَّ اجتماعية الأمَّة الإسلاميَّة ووحدتها مرتبطتان بعقيدة ختم النُّبوَّة»[٣] .

وقد قال في مقاله الإنجليزي المشار إليه أعلاه : إنَّ الإسلام دينٌ منزَّلٌ من الله ، وهو قائم على شريعته وعقائده ، ولكن الإسلام كمجتمع وملَّة ، قائم

---

(١) راجع الباب الرابع من كتاب العلامة الندوي «القادياني والقاديانية» الفصل الأول دين إزاء دين وأمة إزاء أمة .

(٢) وقد كان للدكتور محمد إقبال ، وللشاعر الزعيم ظفر علي خان ، فضل كبير في حماية الجيل المثقف الجديد ، أولهما بشعره البليغ العميق والآخر بشعره المتهكم اللاذع عن الانسياق إلى الحركة القاديانية والخضوع لها ، فكرياً وعقائدياً ، وهما يستحقان من الغيارى على هذا الدين ، الدعاء ، والشكر ، والاعتراف .
أما كبار العلماء المخلصين الذين ركَّزوا على الرَّد على القاديانية وكرَّسوا جهودهم على مقاومتها وتفنيدها ، فقائمتهم طويلةٌ مشرفةٌ لا يتسع لها هذا البحث الموجز ، وليرجع إلى كتاب العلامة الندوي «القادياني والقاديانية» ص ٧ .

(٣) راجع رسالة الدكتور محمد إقبال Islam And Ahmadism طبع المجمع الإسلامي العلمي لكهنؤ ، الهند .

www.abulhasanalinadwi.org

على عقيدة ختم النبوة. إنَّ الإسلام سيظل قائماً ما دامت شريعته إلا أنَّ الأمَّة اجتماعيتها، وترابطها، وبقاؤها، واتصالها برسولها ومعلمها، إنما ترتبط كلياً بعقيدة ختم النبوة[١].

والأمر الآخر الذي اكتشفه محمد إقبال، هو أنَّ هذه الفتنة كان غرس الحكومة البريطانية، والسلطة الغربية، وهي من مخططاتها العميقة الأثر، البعيدة المدى، يقول المرزا غلام أحمد بنفسه:

«لقد نشرت خمسين ألف كتاب، ورسالة وإعلاناً في هذه البلاد، وفي البلاد الإسلامية، تفيد أنَّ الحكومة الإنجليزية صاحبة الفضل والمنَّة على المسلمين، فيجب على كلِّ مسلمٍ أن يطيع هذه الحكومة إطاعةً صادقةً، وقد ألفت هذه الكتب في اللغات الأردوية، والعربية، والفارسية، وأذعتها من أقطار العالم الإسلاميِّ حتى وصلت وذاعت في البلدين المقدسين مكَّة والمدينة، وفي الآستانة، وبلاد الشام، ومصر، وأفغانستان، وكان نتيجة ذلك أن أقلع ألوف من الناس عن فكرة الجهاد التي كانت من وحي العلماء الجامدين، وهذه مأثرةٌ أتباهى بها يعجز المسلمون في الهند أن ينافسوني فيها»[٢].

وقد سمى غلام أحمد أسرته ونفسه بقلمه «غرس الإنجليز» يقول:

«والمأمول من الحكومة أن تعامل هذه الأسرة التي هي من غرس الإنجليز أنفسهم ومن صنائعهم، بكلِّ حزمٍ واحتياطٍ وتحقيقٍ ورعايةٍ، وتوصي رجال حكومتها أن تعاملني وجماعتي بعطفٍ خاصٍّ، ورعايةٍ فائقة[٣].

وأبدى محمد إقبال رأيه فيما يتعلق بالإمامة والنُّبوة، (وقد ادَّعاهما غلام أحمد) يقول وهو يتحدَّث عن الإمامة في أبياته الأردية البليغة:

---

(١) المصدر السابق، و«حرف إقبال» ص ١٣٦.
(٢) «شارة قيصرة» تأليف المرزا غلام أحمد.
(٣) تبليغ رسالة، المجلد السابع ص ١٩ ـ ٢٥.

www.abulhasanalinadwi.org

«إنَّك سألتني عن حقيقة الإمامة ، إنَّ الإمام الحقَّ في عصرك ـ جعلك الله مدركاً للأسرار مثلي ـ مَنْ يرغِّبك عن الحاضر الموجود ، ويريك وجه الحبيب في مرآة الموت ، فيجعل حياتك أشقَّ عليك من ذي قبل ويهبك شعوراً بالخسارة ، فيجعل حماسك ثائراً ، ودمك فائراً ، ويشحذ فقرك ، فيحوله سيفاً صارماً ، والإمامة فتنةٌ للملَّة البيضاء إذا كان صاحبها يدعو المسلم للعبودية للسلاطين» .

وقال وهو يتحدث عن النُّبوَّة :

«إنِّي لست عارفاً ولا مجدِّداً ، ولا محدِّثاً ولا فقيهاً ، فلا أعلم ما هي مكانة النبوة ، إلا أنِّي مطَّلع على العالم الإسلاميِّ ، وأعلم ما يضمره الفلك الأزرق ، فرأيت ليل العصر الحاضر الأحلك ، الحقيقة المستنيرة استنارة البدر : أنَّ النبوة سمٌّ نافع للمسلمين : إذا لم تكن تحمل لهم رسالة القوَّة والشَّوكة» .

أيها السادة العلماء ، والطلاب ، والشباب الأعزَّاء ، والضيوف الأجلاء! أريد أن أؤكِّد أن مسؤولية الحفاظ على الدين تعود كالسَّابق على العلماء ، وعلى خريجي المدارس والمعاهد الإسلامية ، وعلى طلاب العلوم الدينية ، وقد جاء هذا المؤتمر في أوانه ومكانه ، وقد أسلفت أنَّ القيام بواجب الحفاظ على الدين يحتاج إلى الفهم العميق للدِّين ، والتعمُّق في الأسرار والحقائق الدينية ، وتلقي التربية على الأساتذة الراسخين في العلم ، ورجال الفن الأخصَّائيين ، ودراسة الدين ، واللغة العربية ، والتضلُّع منها مباشرةً ، والدراسة الموسَّعة ، وفوق ذلك إلى الضمير الحيِّ النابض ، والحمية الدِّينيَّة الدفَّاقة ، والغيرة الدِّينيَّة الفوَّارة ، وقد كان ذلك كله من ميزات سلفكم الصَّالح من علماء الهند بين علماء عصرهم ، وأستطيع أن أقول في ضوء اطِّلاعي على العالم الإسلامي : إنَّ هذه المزايا يستأثر بها العلماء الهنود على الأقل منذ القرن الحادي عشر الهجري لحدِّ الآن ، وكان في طليعتهم الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي ؛ الذي يندر نظيره في العالم الإسلاميِّ بعد شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية ، ثمَّ حكيم

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي صاحب «حجة الله البالغة» ، وتلقَّى لواء الحفاظ على الدين العلماء المجاهدون الذين خلفوه ، حتى جاء عهد الإمام محمد قاسم النانوتوي ـ مؤسس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند ـ والشيخ السيد محمد علي المونكيري ـ مؤسس ندوة العلماء ـ وخلفهما تلاميذهما ، وأتباعها ، والمدارس الإسلامية التي أسسوها ، ثم العلماء المتخرِّجون فيها ، والمنسوبون إليها .

ومن واجب هذه المدارس الإسلامية الأوجب الآن ، أن تحتفظ بالدِّين بكل أجزائه ، حتى لا يقع هناك خللٌ في فهمه ، وفي تعبيره ، وفي تصوُّره ، وحتى لا تهتزَّ جذوره . إنَّ ذلك هو واجبنا نحن خريجي المدارس العربية الإسلامية وحدها ، فقد يمكن أن يشاطرنا غيرنا في المجالات الأخرى ، ولكن مجال صيانة الدين والحفاظ عليها لا يشاركنا فيه أحد ، وإنما المسؤولية في ذلك علينا وحدنا .

وأريد أن أركز على نقطةٍ أخرى هامَّة ، وهي أنَّك إذا درست القاديانية علمت الأسباب التي مكنتها من الانتشار ـ وقد تحدَّثت عنها في كتابي : «القاديانية» ـ كان من بينها القلقُ النفسيُّ ، والاضطراب الفكريُّ ، وادِّعاء الروحانية الباطلة ، والهيام بأخبار الأفهام والمبشرات[١] ، وإنكم ملزمون في المستقبل أن تعيدوا إلى الجيل الجديد الثقة بالإسلام ، وبقدرته على الإنتاج ، وصنع الرجال ، وتخريج الأبطال ، ودوام هداية القرآن الكريم ، وقدرة هذه الأمَّة على أن تعسل خليتها في كل زمانٍ ومكانٍ ، وأنَّ الشريعة الإسلامية تصلح لكلِّ عصرٍ ومصر ، ولا أقول : إنها تساير الزَّمان (لأنَّ هذا التعبير بالنسبة للإسلام غير لائق) بل تقوده ، وتوجِّهه حيثما شاءت ، فيجب أن تعرضوا الدين عرضاً يفهمه الجيل الجديد ، حتى تعود ثقته بالإسلام ، وبقدرته على قيادته المدنية والحضارية .

(١) راجع الفصل الأول «القرن التاسع عشر المسيحي» .

www.abulhasanalinadwi.org

وقد ثارت قضايا كثيرةٌ في سبيل الحفاظ على شخصية الأمَّة الإسلامية الهندية اليوم ، مثل قضية «توحيد قانون الأحوال الشخصية لجميع الطوائف» وقضية التعليم الدينيِّ للنشء الإسلاميِّ ، وقد أصبحت القضيتان قضيتين حاسمتين مصيريتين في حياة الشعب الإسلامي الهنديِّ ، مقرِّرتين مصيره كشعبٍ مسلمٍ محتفظٍ بشخصيته الإسلامية المميَّزة ، وحاملٍ للرسالة والدعوة المنبثقتين من تعاليم الإسلام ، وأهدافه ، ومثله .

وقد نشط في نشر الإسلام والدعوة إليه في شبه القارة الهندية من العصر الأول دعاةٌ مخلصون من الطراز الأول من الدعاة والمربين في تاريخ الدَّعوة الإسلامية ، في طليعتهم وعلى رأسهم الشيخ معين الدين الجشتي الذي أسلم على يده مئات ألوفٍ من البشر[١] ومن جاء بعده كالسيد علي الهجويري ، والشيخ إسماعيل اللاهوري ، والأمير الكبير السيد علي الهمداني الكشميري ، وفريد الدين الأجودهني[٢] وأسلم على يد السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ) وحده أربعون ألفاً من غير المسلمين[٣] .

وقد رويت هذه الأرض بدماء كثيرٍ من الشهداء والمجاهدين في سبيل الله ، وأنهض الله من أرضها كبار المجددين والأئمة الأعلام ، والذين نفخوا حياةً جديةً في العالم الإسلاميِّ كلِّه .

ولكن هناك بلاداً في أرض الله كتركستان ، البلاد التي أنجبت الإمام البخاري ، ولا يزال يرنُّ في أذني صوت شيخ الإسلام الشيخ حسين أحمد المدني ـ وهو يقرىء الجامع الصحيح للبخاري ـ الصوت الحلو المعسول ، الباعث للإيمان واليقين ، الذي كان يدوي في قاعة دار الحديث هذه في هذه

(١) راجع «آنين أكبري» للمؤرخ العلماني الكبير أبو الفضل بن مبارك ، وكتباً أخرى .
(٢) اقرأ للتفصيل كتاب Preaching of Islam لصاحبه T.W Arnold وتعريبه «الدعوة إلى الإسلام» .
(٣) اقرأ «الإمام الَّذي لم يوف حقَّه من الإنصاف» للعلامة الندوي .

www.abulhasanalinadwi.org

الجامعة ـ دار العلوم ديوبند ـ وهو يقول بعد تلاوة الخطبة المسنونة قبل أن يبدأ تدريس صحيح البخاريِّ كلَّ يوم:

«وبالسند الصحيح المتصل عن أمير المؤمنين في حديث رسول الله ﷺ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبه الجعفي البخاريِّ، قال: حدثنا».

قلت: إنَّ هناك بلاداً دون درجة أسبانيا في نكران الإسلام، وبالقياس إلى غربته فيها، ومن بينها الصين، وبلغاريا، وألبانيا، وتليها بعض البلاد التي يحرج المرء أن ينادي فيها باسم الله، أو يعلن انتماءه الكثير إلى الإسلام، رغم أنَّ المسلمين يشكلون فيها أغلبيةً، وفي يوليو الماضية ١٩٨٦م، كنت قد سافرت إلى تركيا مع ابن أختي العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي، حضرنا في مؤتمر «رابطة الأدب الإسلاميِّ» ولما حضرنا قاعة الحفل، برز أديب تركيٌّ ليخطب، وبدأ خطبته ببسم الله الرحمن الرحيم، وقال:

«إني لمَّا استهللت خطبتي منذ أعوام ببسم الله الرحمن الرحيم في بلدي هذا، تعرضت للحرج والصعوبة الشديدة، وواجهت مصاعب، غير أنني عدت اليوم أستهلُّ كلمتي «بسم الله الرحمن الرحيم» دونما خوفٍ أو وجلٍ.

على كلٍّ فإنَّ قليلاً من الغفلة والتقصير قد يغيِّر اتجاه البلاد، ويصبغها بصبغةٍ أخرى. فأرجوكم أن تهتمُّوا بتعليم الجيل الجديد وتربيته تربيةً إسلاميَّةً، وأودُّ أن تقيموا شبكة المدارس والكتاتيب في كلِّ قريةٍ ومدينةٍ، يجب أن تكون هناك كتاتيب صغيرةٌ بجنب المدارس الكبيرة والجامعات، تعلم النشء القرآن، وتعرفه بالإسلام، وتنفخ في قلبه منذ البدء الروح الدينية».

وختاماً أحمد الله على هذه الفرصة الطيبة للحديث في هذا الموضوع الهام، وأشكر الذين أتاحوا لي هذه الفرصة، وأدعو لكم بالتوفيق والاستقامة، وعلوِّ الهمَّة.

والحمد لله وحده، والصَّلاة والسلام على مَنْ لا نبيَّ بعده.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

محمَّـدٌ رسـول الله ـ ﷺ ـ الرسول الأعظم وصاحب المنَّة الكبرى على العالم ومسؤوليـة العالـم المتمدِّن المنصف الأدبية والخافية نحوه

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة القيمة في المؤتمر الإسلاميِّ الَّذي عقده المركز الإسلاميّ بأوكسفورد في ٢٣/ أغسطس ١٩٨٩ م.

www.abulhasanalinadwi.org

سادتي! إنَّ هذا العالم الذي نعيش فيه، ونقوم فيه بأداء واجباتنا ومسؤولياتنا المنوطة بنا وفق عقائدنا وأذواقنا، وصلاحياتنا ووسائلنا، وإمكانياتنا بكل حريةٍ وانطلاقٍ، ونتعايش فيه مع المواطنين، بل فوق ذلك مع جميع المعاصرين معايشةً كريمةً، هادئةً، مطمئنةً، رخيَّةً، ونسهم بالإضافة إلى ذلك حسب ما أوتينا من مواهب، وصلاحياتٍ، وعزائم في المجالات التعليمية والدراسية، وفي ميادين التأليف والبحث والتحقيق، والتجارب العلمية والكشوف والاختراعات، ونتمنَّى أن تكون حياتنا وبيئتنا أسلم وآمن، وأفضل وأرقى، وأكثر طمأنينة ورفاهية، وأعلى مستوىً، وأرفع مكاناً.

لم تكن هذه الكرة الأرضية التي نسكنها، ونعيش فيها مستعدة ومتهيِّئةً ـ دائماً ـ لحياةٍ متزنةٍ، هادئةٍ، وقورة، ولم يكن يتسع صدرها ـ دائماً ـ للقيام بإنجازاتٍ علميةٍ وفكريةٍ، ومشاريعٍ بنائيةٍ، وحياةٍ كريمةٍ نعيشها وفق معتقداتنا ومذاهبنا والاحترام المتبادلٍ فيما بيننا، والتعايش السلمي (Co-Existence) بين جميع أفراد البشر.

فقد شهد التاريخ هذا الجيل البشري على هذه الكوكبة الأرضية مراراً وتكراراً مشمراً عن ساقه تهيُّؤاً للانتحار، والدمار، والاحتراق بالنار، ومرَّت عهودٌ وأدوار في تاريخ هذا العالم فقدت فيها السلالة البشرية جدارتها للبقاء والحياة، وتحوَّلت مكان أفراد يتميزون بالعقل والتفكير، والضمير الحيِّ البصير، إلى حيوانات ومواشٍ وسباعٍ ضواري، وأناسٍ في صورة ذئابٍ يفترسون أبناء جنسهم وبني جلدتهم.

واحتضرت الحضارة والمدنية، والثقافة والفنون، والأخلاق، والمثل، والأنظمة، والقوانين، والأصول والضوابط الإنسانية، وغشيتها سكرة الموت.

ومعلومٌ أنَّ عملية تدوين التاريخ البشريِّ تأخَّرت قروناً، وقروناً، وأنَّ

www.abulhasanalinadwi.org

عهد ما قبل التاريخ أطول وأوسع وأبعد مدى من عهد ما بعد التاريخ ، ثم إنَّ قصة انحطاط الإنسانية وسقوطها ، وعهود الوحشية والهمجية ، لم تكن فيها من المتعة وأسباب الفخر والاعتزاز ما يدفع المؤلفين والكتاب والمؤرخين ليبذلوا مواهبهم الإنشائية في عرضها وتقديمها .

ولذلك فإننا نجد خلال فتراتٍ طويلةٍ وأحقابٍ متباعدةٍ شهاداتٍ ووثائق تاريخية عن سقوط المجتمع البشريِّ ، وانهيار الحضارات والمدنيات ، وزوال الحكومات ، والدول ، والأنظمة السياسية ، مبعثرةً منشورةً في صفحات التاريخ العلميِّ ، وتبدأ سلسلة هذه القصة السوداء أكثر من ذي قبل من القرن الخامس المسيحي ، وأكتفي هنا بذكر بعض الفترات منها :

لقد أحسن المؤلف الإنجليزي المعروف هـ - ج ولس (H.G.Wells) تصوير هذا العصر ، فقال وهو يبحث في الظروف السائدة في عهد الحكومتين الساسانية والبيزنطية ، في القرن السادس للميلاد :

«كانت العلوم والفلسفة والسياسة في حالة احتضار في عهد هذين النظامين المتحاربين والمتجهين إلى الانحطاط ، فقد كان الجيل الأخير من فلاسفة «أثينا» (Athens) عاضّاً على المؤلفات الأدبية العتيقة بالنواجذ ، بكل احترام وحب ، ولو بدون فهمٍ لها ، فلما انقرض هذا الجيل لم تبق طبقة ولا أفراد أحرارٌ وشجعانٌ ، يتزعمون حرية الفكر ، وحرِّية التعبير ، ولا الذين يحتفظون على الأقل بتراث فكرٍ حرٍّ ، وبحثٍ نزيهٍ جدِّيٍّ ، على دأب القدماء السابقين ، وبجانب ما كان للفوضى السياسية والاجتماعية من دور كبير في القضاء على مثل هذه الطبقة ، كان من العوامل التي ساعدت على شلل الفكر الإنسانيِّ ، وتجمُّد القرائح البشرية . إنَّ هذا العصر كان عصر العصبية وعدم التسامح في ظلال الحكومتين الإيرانية والبيزنطية ، فقد كانت هاتان الحكومتان دينيتين نوعاً ما ، وقد كانتا فرضتا قيوداً على العقل البشري»[١] .

---

(١) H.G. Wells, A. Short History of The World (Lodon, 1924) pp. 140 - 41.

www.abulhasanalinadwi.org

وبعد ما قصَّ الكاتب قصة زحف الإمبراطورية الإيرانية على الإمبراطورية البيزنطينية ، ثم انتصار البيزنطيين على الإيرانيين في شيء من التوسُّع ، عاد إلى وصف التدهور الاجتماعي ، والخلقي السائد في أواخر القرن السادس المسيحي فقال :

«كان يسوغ لمتتبع ـ غير محنك ناضج الفكر ـ للأوضاع السائدة في أوائل القرن السابع المسيحي أن يتنبأ بسهولةٍ ، وبثقةٍ بأنَّ أوربا وآسيا ستقعان تحت رحمة المغول الوحوش في غضون بضعة قرونٍ قادمة ، فلم تكن في أوربا الغربية أمارات للأمن والنظام وحكم القانون ، وقد كانت المملكتان البيزنطينية والإيرانية ، مشغولتين في حرب إبادةٍ وتدمير ، بينما كانت الهند في حالة توزُّعٍ وبؤس[١] .

ويقول Robert Briffault :

«لقد أطبق على أوربا ليلٌ حالكٌ من القرن الخامس إلى القرن العاشر ، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً ، وقد كانت همجية ذلك العهد أشدَّ هولاً ، وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنَّها كانت أشبه بجثة حضارةٍ كبيرةٍ قد تفتت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة ، وقضى عليها بالزوال ، وقد كانت الأفكار الكبيرة ازدهرت فيها هذه الحضارة ، وبلغت أوجها في الماضي ، كإيطاليا ، وفرنسا ، فريسة الدَّمار ، والفوضى ، والخراب»[٢] .

ويقول J.H.Denison عن سقوط الحضارة التي تمَّت ، وترعرعت في أحضان الديانات القديمة :

«لقد أشرف العالم المتحضر في القرنين الخامس والسادس المسيحي على فوهة الفوضى والدمار ، وكان يخيل لكلِّ راءٍ أنَّ الحضارة التي نمت وازدهرت وأثمرت في ظرف أربعة آلاف سنة تكاد تنتهي وتزول ، ويرجع

---

(١) H.G. Wells, A. Short History of The World (Lodon, 1924) p. 241.

(٢) Robert Briffault, The Making Of Humanity (Lsndon - 1919), P. 164

www.abulhasanalinadwi.org

الإنسان مرَّةً ثانية إلى تلك الوحشية والبربرية التي تتناحر فيها القبائل ، وتشتعل الحرب بين الفرق والأحزاب ، ويفقد الأمن والسلام بتاتاً ، لقد كانت الأنظمة القبلية القديمة انتهت قوتها ، وزالت سلطتها ، وكانت التقاليد والطقوس التي تبنتها المسيحية ، وحافظت عليها ، تؤدي إلى التشتُّت ، والتمزُّق ، والهلاك ، بدل الوحدة والتماسك والنظام ، كان ذلك العصر محزناً مؤلماً ، فقد كانت الحضارة التي أظلت العالم كشجرةٍ باسقةٍ وارفة الظلال ، والتي أثمرت أغصانها العلوم والفنون والآداب كادت تلفظ نفسها الأخير ؛ لأنَّها كانت منخورةً متآكلةً»(١) .

فحين كان الجيل البشريُّ ، والحضارة والمدنية في هذه الحالة من الاحتضار والإشراف على الدَّمار ؛ إذا بمالك هذا الكون يسعد جزيرة العرب بكائن إنسانيٍّ عظيم ، ووكل إليه ليس مهمة الحفاظ على الجيل البشري فحسب ، بل مهمة الوصول بالإنسانية إلى أعلى قمَّةٍ متصورَّة ، وهي مهمةٌ صعبةٌ دقيقة ، لم تتناولها تجارب المؤرخين الواسعة ، ولا أخيلة الشعراء والأدباء الخصبة ، ولولا وجود وثائق وشهادات تاريخية موثوقٌ بها لا يمكن جحودها ، ولولا التواتر في نقلها وروايتها ، لما كان لنا إلى اليقين والقطع بها من سبيل .

لقد كانت هذه الشخصية محمد ـ ﷺ ـ التي ظهرت في القرن السادس المسيحي ، وكان أول مآثره ـ ﷺ ـ أنَّه رفع ذلك السيف المصلت على رقبة الجيل البشريِّ التي كانت كلُّ لحظةٍ تنذر بفنائه وانقراضه ، ووهبه الرسول ـ ﷺ ـ هدايا غالية وتحفاً ثمينةً أعادت إليه حياةً جديدةً ، وشحنة بهمَّة عاليةٍ ، وقوَّةٍ فتيةٍ ، وعزَّةٍ كريمةٍ ، ومنحته هدفاً عالياً جديداً لرحلته الشاقة الطويلة ، وبدأ بعهده الميمون السعيد دورٌ جديدٌ للإنسانية ، والحضارة ، والمدنية ، والعلوم ، والفنون ، والإخلاص ، والروحانية ، وبناء الإنسان من جديد ، إنه قدم للمجتمع البشريِّ ثروةً عظيمةً تعتمد عليها

(١) J. H. Denison, Emotion As The Basis of Civilization (London - 1928 p. 265.

www.abulhasanalinadwi.org

الإنسانية لخيرها ، ورشدها ، وبركتها ، وتستفيد منها المدنية لازدهارها ، ورقيها .

وهذه الثروة الغالية هي ثروة عاطفة حبِّ الخير ، وكراهة الشر ، العاطفة المقدسة الجليلة ، والعزيمة الصارمة ، لمقاومة قوى الشرك وتحطيم مراكزه ، والتضحية بكل غالٍ ونفيسٍ لنشر الخير ، وتقويته ، ورفع مناره . إنَّ هذه العاطفة النبيلة المقدسة ، وهذه الهمة العالية والطموح الذي لا يعرف الكسل والتواني ، هو أساس كلِّ أنواع رقي الإنسان ، ورفعته ، وكرامته ، ومآثره العظيمة الخالدة ؛ وذلك لأنَّ جميع الوسائل ، والإمكانيات المادِّية ، والعدَّة والعتاد ، ومؤسسات البحث والدراسة والتحقيق تابعةٌ لإرادة الإنسان وعزيمته ، فقد بدَّل القسوة والبهيمية برحمةٍ ، ورأفةٍ ، وإنسانيَّةٍ ، ونشر تعاليمه السامية ، وبذل في سبيلها الجهود العظيمة المتواصلة ، ولم يبال في طريقها بأيِّ تعبٍ ، وجهدٍ ، ومشقَّةٍ ، وضحَّى في سبيلها براحته ، وعافيته ، وحياته ، وكرامته .

ونتيجةً لهذه الجهود المستمرة المضنية وُجِد من بين الحيوانات العرية عن العواطف البشرية والسباع المفترسة الضارية ، أفراد طيبون صالحون ، تعطرت الدنيا بأنفاسهم الزكية ، واكتست من جمالهم وروائهم الرونق والبهاء ، فاقوا الملائكة في سموهم ، وارتفاعهم ، ونالت الحياة التي أشرفت على الهلاك والدمار قسطاً جديداً من البقاء والاستمرار ، وانتشر العدل والرَّخاء ، وانتصف الضعفاء من الأقوياء الظالمين ، وأصبحت الذئاب تحرس الغنم ، وتحافظ عليها ، وهبت النسائم العليلة البليلة ، وفاحت روائح الحبِّ والحنان ، وقامت سوق السعادة واليقين ، وازدانت الدنيا بمشاهد الجنة الرائعة الجميلة ، وهبَّت رياح الإيمان ونفحات اليقين ، وتحرَّرت النفوس البشرية من أغلال الأهواء والشهوات ، وانجذبت القلوب إلى الخير والمعروف كما تنجذب القطع الحديدية إلى المغناطيس .

ويحلو لي هنا أن أذكر ـ بشيءٍ من الاختصار والإيجاز ـ تلك المنح

www.abulhasanalinadwi.org

الأساسية الغالية التي كان لها دورٌ كبيرٌ بارزٌ في قيادة الجيل البشريِّ ، وإصلاحه وإرشاده ، وازدهاره ، والتي ولدت عالماً مشرقاً جديداً رائعاً ، ما يشبه العالم الشاحب القديم في شيءٍ ، وهي كما يلي :

١ ـ عقيدة التوحيد النقية الواضحة .

٢ ـ مبدأ الوحدة الإنسانية ، والمساواة البشريَّة .

٣ ـ إعلان كرامة الإنسان ، وسموّه .

٤ ـ رد الاعتبار إلى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها .

٥ ـ محاربة اليأس والتشاؤم ، وبعث الأمل ، والرجاء ، والثقة ، والاعتزاز في نفس الإنسان .

٦ ـ الجمع بين الدين والدنيا ، وتوحيد الصفوف المتناحرة والمعسكرات المتحاربة .

٧ ـ إيجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم ، وربط مصير أحدهما بالآخر ، وتفخيم شأن العلم ، والحث عليه ، وتوجيهه إلى علمٍ هادفٍ نافعٍ موصلٍ إلى الله .

٨ ـ استخدام العقل والانتفاع به حتى في القضايا الدينية ، والحث على النظر في الأنفس والآفاق .

٩ ـ حمل الأمة الإسلامية على قبول مسؤولية الوصاية على العالم والحسبة على الأخلاق ، والاتجاهات ، وسلوك الأفراد والأمم ، وتحمل مسؤولية القيام بالقسط ، والشهادة لله .

١٠ ـ الوحدة العقائدية الحضارية العالمية .

وهنا يتسنى لنا أن نقدِّم شيئاً من انطباعات المؤلفين ، والمفكرين ، والأدباء ، والمؤرخين الغربيين ، واعترافاتهم ، وشهاداتهم بدلاً من أن نقول من عند أنفسنا شيئاً .

إن قوام هذا العالم وبقاءه ، وقيمة الحضارة والتاريخ والأخلاق والآداب ، والشعر والفن ، ليست إلا بالاعتراف بالحقائق الثابتة ، والتسليم

www.abulhasanalinadwi.org

بالواقع ، وإظهاره ، والتعبير عنه ، وتقدير الفضل والكمال ، والإشادة بهما وشكر المحسنين ، وأصحاب الفضل والعطاء ، والاعتراف بمنتهم ، وحين يتجرَّد هذا العالم ، وتتجرَّد الآداب ، والأخلاق ، وكفاءاتنا الأدبية والفنية وحرية التعبير التي نملكها عن هذا العنصر الكريم ، وتحرمه بتاتاً ، فلا لذة في العيش في هذا العالم ، ولا كرامة ، وتتحوَّل الدنيا إلى حظيرةٍ للوحوش والأنعام السائمة ، حيث لا يبقى من الدوافع والقوى المحركة إلا شهوة ملء البطون وقضاء المآرب الجنسية ، والأهواء والنزعات الحيوانية ، ولا تبقى أيُّ صلةٍ بين الأستاذ والتلميذ ، والمعطي والآخذ ، والمريض والطبيب ، حتى بين الأبناء والآباء والأمهات ، ولا يبقى أيُّ شعورٍ بالفارق بين السارق والحارس ، والخائن والأمين .

ونقدم هنا مقتطفاً من مقال الأستاذ وليم داويدسن William H. Davidson أحد الباحثين الكتاب في موسوعة الأخلاق والديانات حول عاطفة الشكر والاعتراف بالمنَّة المركوزة في فطرة الإنسان ، وهو يدلُّ دلالةً واضحةً على أن هذا العنصر في الإنسان عنصرٌ فطريٌّ عالميٌّ لا بدَّ أن يبقى في كل عصر .

يقول الباحث :

«إنَّ عاطفة الشكر والتقدير حسب ما يقول توماس براون Thomas Brown في عاطفة الحبِّ المريحة المنعشة التي نشعر بها إذا حصلنا على فوائد ومنافع من أحد الأفراد ، وإنَّ هذه العاطفة هي نفسها جزء من تلك المنافع التي ينالها المرء .

إنَّ الشكر والاعتراف بالمنَّة إنما هو ردُّ فعلٍ إيجابيٍّ تجاه معاملةٍ كريمةٍ يحمل في نفسه الإخلاص الكامل ، والبشاشة ، والفرح ، ويكون ردُّ الفعل هذا عاجلاً وفطريّـاً ، ويدلُّ ذلك على أنَّ فطرة الإنسان قد أنشئت ، وكُوِّنت تكويناً خاصاً تحتل فيه خصلة التحاب والانسجام فيما بين الناس كصفةٍ أساسية ، وإنَّ العداوة والبغضاء ـ بجميع علائمها وأسبابها ـ منافيةٌ للفطرة

www.abulhasanalinadwi.org

البشرية ، ومفسدةٌ للأخلاق الإنسانية»[١].

وإنَّ أكبر مظهر للتسفُّل الخلقي واللؤم الفطري وموت الضمير ، وحمل الخزي والعار ، والحرمان من أي أثرٍ من آثار الشرف الإنساني حتى الرمق الأخير منه ، هو التنكر والجحود للقادة الدينيين ، وبناة الإنسانية ، وأصحاب المنَّة والفضل على العالم البشري كله ، والبلادة في القول ، وسلاطة اللسان ، واستخدام الأسلوب الشائن الرزي بأهله؛ الذي لا يليق بأدنى شخص ، وأرذل إنسان ، والذي لا يجرح شعور مئات الملايين من البشر من أتباعهم ، ومحبيهم ، والمستميتين دونهم والذين يؤثرونهم على أنفسهم ، وأهليهم ، وأموالهم ، ويكلم عواطفهم الإيمانية الجياشة فحسب ، بل يقتل الحقائق ، ويذرُّ الرَّماد في العيون ، ويحاول طمس الواقع ، ولا يجوز لأيِّ مجتمعٍ كريمٍ يعرف قيمته ومكانته ، ولا لأيِّ بلدٍ متحضرٍ لا يريد أن يعيش في الجهل والنكران للجميل أن يصبر على وجود هؤلاء الأنذال ، واللؤماء الذين باعوا ضمائرهم ، وتخلوا عن إنسانيتهم ، وتنكروا للجميل والمعروف ، إنَّهم رجسٌ يجب أن تتطهَّر الأرض منهم.

بالعكس من هذا الجانب المظلم الأسود ، يمكننا أن نعرض نماذج رائعة من انطباعات كبار المؤلفين المحقِّقين المنصفين ، والأدباء الفضلاء الواقعيين ، وأفكارهم وآرائهم ، من عددٍ من البلدان الراقية.

يقول أديب فرنسا الشهير لامارتين (Lamartine) وهو يعترف بعظمة محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ونجاحه المنقطع النظير في مهمته الجليلة : «إن إنساناً لم ينهض أبداً ـ متطوعاً أو غير متطوع ـ لمثل هذا الهدف الأسمى ، لأنَّ الهدف كان فوق طاقة البشر ، لقد كان تحطيم تلك الحواجز من الأوهام والأحلام؛ التي حالت بين الإنسان وخالقه ، والأخذ بيد الإنسان إلى عتبة ربه ، وتحقيق عقيدة التوحيد النقية المعقولة ، الساطعة في ضباب هذه الوثنية السائدة ، والآلهة المادية ، هو ذلك الهدف الأسمى والأعلى ، إنَّه لم يحمل إنسانٌ مثل هذه المسؤولية الضخمة ، والمهمة

---

(١) Encyclopaedia of relgions and (Endinburqm 1913) voi-6 p. 391.

www.abulhasanalinadwi.org

العظيمة الجليلة ، التي تخرج عن طوق البشر ، بمثل هذه الوسائل الحقيرة الضئيلة» .

إلى أن قال :

«وأروع من ذلك أنَّه هزَّ تلك الأصنام ، والآلهة ، والأديان ، والتصوُّرات ، والعقائد ، والنفوس الإنسانية هزَّةً عنيفةً ، إنه بني على أساس ذلك الكتاب الذي يعتبر كل كلمة منه مصدر التشريع ، قوميةً ربَّانيَّةً ، آلفت بين أفراد كل جيلٍ ، وسلالةٍ ، ولغةٍ. إنَّ الميزة الخالدة لهذه الأمة ، التي كونها لنا محمد - ﷺ - أنها شديدة المقت والتقزز من الآلهة الباطلة ، شديدة الحب لله الواحد الذي يتنزه عن المادة وشوائبها ، وهذا هو الحب الذي يدفعه إلى الثأر والانتصاف من كل إهانة توجه إلى الذات الإلهية ، وهذا الحبُّ يعتبر أساس سائر الفضائل عند هذه الأمَّة .

لقد كان إخضاع ثلث العالم لهذه العقيدة الجديدة من مأثرته بلا ريبٍ ، لكنَّ الأصحَّ أنَّه كان معجزة العقل ، لا معجزة فردٍ واحدٍ ، إنَّ الإعلان بعقيدة التوحيد في زمنٍ كانت تئن فيه الدنيا تحت وطأة أصنام لا حصر لها ، كان معجزةً مستقلةً بذاتها .

ما لبث محمد - ﷺ - أن أعلن هذه العقيدة أمام الملأ ، حتى أقفرت المعابد القديمة من عبادها ، فلا داعٍ فيها ولا مجيب ، وتكهرب ثلث العالم بحرارة الإيمان[(١)] .

ويقول جان وليم دريبر (Johan William Draper) وهو بصدد تاريخ أوربا الفكري والعالمي :

«لقد ولد في مكة إحدى مدن جزيرة العرب عام ٥٦٩ م بعد أربعة أعوام من موت جستينين (Justinian) شخصٌ عظيمٌ كان له أكبر تأثير على الجيل البشري كله»[(٢)] .

---

(١) Lamartine, Histoire De La Turquie, Paris-1854, Vol. 2,pp. 276-277.

(٢) John Willim Draper, AHistory of the intellectual Development of Europe, (London, 1875) Vol. lp.229.

www.abulhasanalinadwi.org

ويزيد قائلاً :

«إنَّه قد كانت اجتمعت في محمَّد ـ ﷺ ـ من الخلال والصفات التي غيَّرت مصاير الشعوب والأمم والحكومات والدول ، إنَّه أكَّد على الحقائق الثابتة الدائمة بدلاً من الخوض في بحوث ما وراء الطبيعة ، ونذر نفسه عن طريق العناية والأمر بالنظافة ، والطهرة ، والجدِّ والصوم ، والصلاة لترقية الحياة الاجتماعية للناس»(١) .

ويقول المؤرخ الفيلسوف (A,Toynbee) في كتابه «الحضارة في الامتحان» (Civilization on Trial) :

«إنَّ القضاء على الفوارق السلالية والعصبيات الجنسية والدموية من أعظم مآثر الإسلام ومفاخره ، أما العصر الحالي الذي نعيش فيه فإنَّ هذه الفضيلة هي كبرى حاجات هذا العصر ، إنَّه ممَّا لا شك فيه أنَّ الشعوب الناطقة باللغة الإنكليزية قد حققت بعض النجاح في ربط الشعوب بعضها ببعض ، وعادت على العالم الإنسانيِّ بخيرٍ ورحمةٍ ، ولكنَّ الحقيقة الراهنة التي يجب الاعتراف بها ، أنَّها أخفقت فيما يتصل بالعواطف السُّلالية والجنسية»(٢) .

وإنَّ من عجيب المصادفات أن توماس كارلائل (Thomas Carlyl) قبل مئتي سنة اختار محمداً ـ ﷺ ـ من بين الأنبياء جميعاً كبطل أعظم ، والآن في آخر القرن العشرين وضع مائكيل هـ هارت (Michael .H.Hart) اسم محمد ـ ﷺ ـ برأس القائمة لأسماء أولئك العظماء الذين تركوا آثاراً عظيمة في تاريخ العالم البشري(٣) .

ونقدِّم فيما يلي تلك المنن العظيمة الجسيمة التي لا ينساها التاريخ لمحمَّد ـ ﷺ ـ وأتباعه وأمته التي ربَّاها ، وخرَّجها في مدرسته على الجيل

---

(١) John Wilijam Draper. AHistory of the intellectual Development of Europ, (London 1875) Vol lp 330.

(٢) A. J. Toynbee, civilization on Trial, (New york-1949) p. 205.

(٣) Hart Michael H, The 100- Aranking of the Most influencial persons in History-New-york-1978, p. 26.

www.abulhasanalinadwi.org

البشريِّ بأجمعه ، وما قامت به من دورٍ فعَّالٍ كبيرٍ في ترقية الحضارة والمدنية واستمرارها وتسلسلها ، نختصر الحديث في صورة واقعين تاريخيين معروفين .

لا يخفى على دارسي التاريخ البشريِّ أنَّه واجهت البلادُ الراقية ، والحضارة والمدنية ، والثقافة ، والعلوم ، والأخلاق ، والإنسانية ، والديانتان العظيمتان المؤثرتان : الإسلام ، والمسيحية وأتباعها ، وحكوماتهما الواسعة الأطراف الراقية المتحضرة الخصبة بل ومستقبل الإنسانية بأسرها في القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر المسيحي) أزمة شديدة مرديةً ، كانت قد قضت على الأخضر واليابس ، وذهبت بجهود الماضي كلِّها أدراج الرياح ، ونسخت كل حسنٍ وجمالٍ ، وكلَّ فضلٍ ، وكمالٍ ، وصيَّرت المستقبل وجميع إمكانياته النيرة شاحبةً ضئيلةً لا يوثق بها ، ولا يعتمد عليها ، كانت هي حملة المغول التتار الوحشية المفاجئة بقيادة قائدهم العبقري النادر جنكيز خان (تموجن) على العالم الغربيِّ والشماليِّ المتحضِّر ، التي بدأت عام ٦١٦ هـ الموافق ١٢١٩ م .

ويمكن أن يقدَّر هولُ هذه الهجمة الشرسة ، والدهشة التي أثارتها ، والرُّعب الذي ألقته في القلوب ، وصلاحيتها للقضاء على التراث الحضاريِّ ، والمدنيِّ ، والدينيِّ ، والعلميِّ ، والعقليِّ ، والفكريِّ ، والبنائيِّ ، والصناعيِّ ، وآثارها ، ونتائجها التي ظهرت على مسرح التاريخ الإنسانيِّ من هذه المقتطفات التي اقتبسناها من كتاب «جنكيز خان» لمؤرخه الثقة المؤلف الأستاذ هيرالد ليمب (Haroldlamb) ، يقول المؤلف :

«إنَّه محا في طريقه كلَّ مدينةٍ من الوجود ، غيَّر مجرى الأنهار ، وملأ الصحارى باللاجئين المذعورين المشرفين على الموت ، وإنه لم يكن يبقى بعد مروره بالمناطق التي كانت آهلةً بالسكان في يوم ما من الأيام أيُّ حيٍّ من الأحياء إلاَّ الكلاب ، والذئاب ، والحدأة ، والنسور»[1] .

---

(١) Harold Lamb, Ganghis Khan, (London 1928) p. 11-12.

www.abulhasanalinadwi.org

وقد كان العالم المسيحيُّ بعد موت جنكيز خان[١] في دهشةٍ ، وحيرةٍ ، وفزعٍ تجاه جيل المغول التالي ، على حين كان الفرسان المغول المفترسون يعيشون في أوربا يدوسونها بأقدامهم ، وقد فرَّ منهم بول سلاس ملك بولندا ، وبيلا ملك النمسا منهزمين من ساحة القتال ، وقد قتل[٢] ديوك هينري من سائي ليسيا مع فرسانه في ليك نتز (Liegnitz)[٣] .

كانت هذه حرباً ضروساً تجاوزت كلَّ الحدود ، بلغت إلى حد الحرب العالمية الثانية ، لقد كانت هي مقتلةٌ عامَّةٌ لنوع البشر ، لم يكن هدفها إلا إبادة الناس والقضاء عليهم[٤] .

لم يكن في وسع الإنسان أن يسدَّ سيل المغول ، فقد تغلبوا على جميع أخطار الصحارى والغابات ، ولم يقف في وجههم أيُّ شيءٍ من الجبال والبحار ، وشدائد الطقوس والفصول ، والقحط والأوبئة ، ولم يكونوا يخافون أيَّ خطرٍ ولا مانع ، ولا هناك قلعةٌ ترد هجومهم ، ولا كانت تؤثر فيهم استغاثةٌ من مظلوم[٥] .

إنَّ أعداءه من المؤرخين ذكروا فتوحه وانتصاره أكثر من غيرهم ، لقد كانت غارته على الحضارة ، والمدنية بلغت من الهول والتدمير والإبادة أن عادت نصف الكرة الأرضية كأن لم تغن بالأمس ، وبدأت الحياة من جديد ، لقد دمرت حكومات بريسترجان ، وختا ، وقراختائى ، وخوارزم ، ثم بعد موته حكومة بغداد ، ودول روسية ، وبولندا ، وكلما فتح هذا الوحش الضاري الذي لم يلق هزيمةً في حياته شعباً من الشعوب انتهت جميع الحروب والمعارك الداخلية ، وتغير مثار الأوضاع والظروف

---

(١) عام ٦٢٤ سنة هـ.

(٢) Harold Lamb, Genghis Khan, p. 12 (London 1928).

(٣) ليك نتز (Liegnitz) تقع في مديرية (Wroclaw) في بولندا قرب حدود ألمانيا الشرقية واسمها الجديد لكنيكا (Legnica) .

(٤) Harold Lamb-Genghis Khan, p. 166. (London, 1928).

(٥) Harold Lamb-Genghis Knan, (London, 1928) p. 210.

www.abulhasanalinadwi.org

سواء كان صالحاً ، أو غير صالحٍ . ويبقى الأمن مدة طويلةً بين أناس يبقون أحياء بعد انتصار المغول[١] .

وقد تصدَّى المؤلفون لتاريخ العهد المتوسط الصادر من كمبرج بذكر صدام المغول الشديد الذي كان سببه جنكيز خان بما يلي :

«إن ظهور هذه القوة الجديدة في تاريخ العالم ، أعني قدرة رجلٍ واحدٍ على تغيير حضارة النوع البشريِّ ، يبتدىء من جنكيز خان ، وينتهي إلى حفيده قوبيلائي خان الذي بدت في عهده آثار الفرقة والانشقاق في مملكة المغول المتَّحدة المتماسكة ، والحقيقة أنَّ التاريخ لم يشهد إلى الآن قوَّةً تشبه قوة هؤلاء المغول»[٢] .

ولم يكن العالم الإسلاميُّ وحده فريسة هذه الفتنة التتارية ، وإنما العالم المتمدِّن كله كان متوجلاً من هذه الغارة ، وقد تغشَّى الذعر والخوف في الأمكنة التي لم يكن يرجى فيها وصول التتار ، يقول جبون في كتابه الشهير «تاريخ انحطاط وسقوط روما» :

«حينما اطلع سكان السويد على أخبار غارة التتار عن طريق روسيا تسلَّط عليهم من الذعر والخوف ما منعهم عن الخروج إلى سواحل إنجلترا لصيد الأسماك وقد كان ذلك عادةً متبعةً لديهم»[٣] .

وقد ابتدأ التتار ببخارى ، وأتوا عليها من كلِّ جانبٍ ، فدمَّروها حتى عادت كومةً من ترابٍ ، ثم توجهوا إلى سمرقند وأحرقوها ، وأبادوا أهلها ، ولقيت نفس المصير المدن الشهيرة للعالم الإسلاميِّ ، وقد كان من المتوقع أن يتوجَّه التتار بعد تدويخ القوَّة الإسلامية الموحدة الأخيرة في هذه المنطقة مملكة خوارزم شاه والقضاء عليها وتحويل المدن الإسلامية المركزية المعمورة الكبرى إلى خراب يباب ، نحو التسرُّب المسيحي ـ وقد كانت

---

(١) Harold Lamb-Genghis Knan, (London, 1928) p. 206.

(٢) Harold Lamb-Genghis Knan, (London, 1928) p. 210.

(٣) Edward Gibbon-The Decline and fall of the Roman, Empire, Vol. New-york, n. d, p. 634.

www.abulhasanalinadwi.org

حالة أوربا الخلقية والفوضى السياسية وانحراف المجتمع ، وفساده ، وانحطاطه فيها ـ وقد تعرضنا لذكرها في ضوء أقوال الباحثين والمؤلفين الغربيين المنصفين يدعو إلى هذه الحملة ، ويمهد لها السبيل ، ثم يلقى الغرب المسيحي كذلك نفس المصير المشؤوم الذي لقيه الشرق الإسلاميُّ .

وقد كنا ذكرنا قول هـ ، ج ، ويلز (H,G, Wells) :

«كان يسوغ لمتتبع ـ غير محنكٍ ناضج الفكر ـ للأوضاع السائدة في أوائل القرن السابع المسيحي أن يتنبّأ بسهولة وبثقةٍ بأنَّ أوربا وآسيا ستقعان تحت رحمة المغول الوحوش في غضون بضعة قرونٍ قادمةٍ»[١] .

ويقول هيرالد ليمب (Harold Lamb) :

«إنَّ حملة جنكيز خان وغارته الشعواء المدمِّرة ألحقت بالمدنية خسائر فادحةً عظيمةً ، فقد قضى على الحضارة والثقافة في نصف الكرة الأرضية ثم عادتا بعد موتهما إلى الحياة من جديد» . . . وقد محيت سلطنة خوارزم شاه ، وخلافة بغداد ، ومملكة روسيا ، ودولة بولندا لمدة لا بأس بها من الوجود»[٢] .

«وإنَّ جيوش ألمانيا ، وبولندا لم تتحمل صدمة الهجمة الطاغية التي قام بها المغول الذين أبادوها ، ودمَّروها تدميراً»[٣] .

ولكن فاجأ العالم حادث لا يقلُّ عن معجزةٍ غيَّر مجرى التاريخ ، وأعطى العالم المتمدِّن المعمور فرصةً ليس لأن يتنفس بطمأنينةٍ وراحةٍ فحسب ، بل ليخدم من جديد المدنية والحضارة ، والعلم والفكر ، وينال القوة والاستقرار والرقي والازدهار ، وهو أن هذا الشعب الفاتح الذي لم تلحقه هزيمةٌ ، والذي استعصى على الشعوب والأمم اعتنق ديانة الشعب المغزو المفتوح ، المضطهد المظلوم ، الذي فقد قوته السياسية والمادية ، والذي كان ينظر إليه نظرة احتقارٍ وازدراءٍ ، يقول البروفيسور آرنلد في كتابه

---

(١) AShort History of the World-op. cit, p. 144.

(٢) Genghis Khan-op cit, p. 206

(٣) Genghis Khan-op, cit, p. 231

www.abulhasanalinadwi.org

«الدعوة إلى الإسلام» (Proaching of islam) وهو يبدي حيرته ، واستغرابه من هذا الحادث :

«ولكن الإسلام نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده التالد ، واستطاع بواسطة الدعاة المسلمين أن يجذب أولئك الفاتحين الذين قد أنقذوا جمعيتهم في اضطهاد المسلمين ويحملهم على اعتناقه»[١] .

إنَّ هذا الحدث مثار دهشةٍ وعجبٍ ، ولكن استغرابنا يشتدُّ حينما لا نجد تفاصيله وافيةً في بطون التاريخ ، إننا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حققوا هذه المأثرة ، وأدخلوا هذا الشعب الهمج في حظيرة الإسلام ، مع أن هذه المأثرة لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن أيِّ مأثرةٍ إسلاميَّةٍ في التاريخ ، ولهم فضلٌ لا ينكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الإنسانية كلِّها ، إلى أن يأذن الله لها بالفناء ، فإنَّهم أنقذوا العالم من دمار محتومٍ ، وهمجيةٍ مجنونةٍ ، وحالة رعبٍ ، ودهشةٍ ، وهلع إلى جوٍّ الإيمان واليقين ، والأمن والسلام والاجتماع والنظام ، وحبِّ العلم وتشجيعه ، وتنمية وتقدير أهل الفضل والكمال ، وبدأ العلم ، والفكر ، والتأليف ، والبحث ، والتدريس ، والتحقيق والأدب ، والفنُّ رحلته من جديد ، في جوٍّ معتدلٍ متَّزنٍ ، وفي ظلِّ المقدرين بجهود أصحاب الفضل والنبوغ ، والمعترفين لدورهم ، ومِنَّتهم ، والمشجعين لهم على أعمالهم العلميَّة والفكريَّة .

لقد توزعت دولة جنكيز خان بعد وفاته إلى أربعة فروع ، وبدأ الإسلام ينتشر في هذه الفروع الأربعة ، وأصبح التتر يعتنقون الإسلام بجهود الخاقان حتى دخلوا في ظرف مئة سنةٍ في دين الله[٢] .

إنَّ قصص هؤلآء الدعاة المسلمين ، والمشايخ الصالحين ، والأمراء

---

(١) T. W. Arnold, The preaching of Islam, (London-1953) p. 227

(٢) يرجع للتفصيل في هذا الموضوع إلى فصل «انتشار الإسلام في التتار» في كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة» ج/ ١١ ص/ ٣٠٦ ـ ٢٢١ .

www.abulhasanalinadwi.org

المخلصين الذين أثرت أخلاقهم الكريمة العالية ، وسيرتهم المخلصة النزيهة ، وربَّانيَّتهم الصادقة ، وإشراقهم وجاذبيتهم في هؤلاء الهمج المغول المقاتلين الظامئين للدماء ، فتحولوا إلى اعتناق الدين الإسلامي ، لقصصٌ حيَّةٌ مثيرةٌ ، لا تزال تشعل مجامر القلوب ، وتهزُّ النفوس ، وتجذب القلوب(١) .

إنَّ التتار لم يدخلوا الإسلام رسمياً كشعبٍ يعتنق هذا الدين بأسره فحسب ، بل برز فيهم عددٌ كبيرٌ من العلماء ، والفقهاء ، والمجاهدين ، والدعاة ، والربانيِّين ، وأهل الصدق واليقين ، وأدّوا دورهم الثمين في حماية حمى الإسلام في ظروفٍ دقيقة ، ولحظاتٍ عصيبةٍ من التاريخ .

إنَّ حادث دخول التتار في الإسلام الذي غيَّر طبيعتهم ، وذوقهم ، وميولهم ، ونظرتهم إلى المدنية والإنسانية ، ليس منَّةً على الشرق الإسلامي فحسب ، بل هي منَّةٌ عظيمةٌ على الغرب المسيحيِّ ، وشبه القارة الهندية أيضاً ، التي حملوا عليها في نفس القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر المسيحي) تسع أو عشر مرات ، ولكن الملوك الأتراك المسلمين وعلى رأسهم السلطان علاء الدين الخلجي (م ٧١٦ هـ ـ الموافق ١٣١٦ م) وقائد جيوشه الغازي غياث الدين تغلق شاه (م ٧٢٥ هـ ـ الموافق ١٣٢٤ م) ردُّوا هجماتهم على وجوههم ، وهزموهم ، وهكذا استطاعوا أن يحموا هذه البلاد القديمة المخصبة ، وتراثها العلميَّ والحضاريَّ ، وديانتيها الكبيرتين الإسلام والهندوسية ـ بفروعها الكثيرة ـ من غارة التتار الوحشية .

لقد كانت هذه المأثرة العظيمة منَّةً للإسلام على عالم البشرية بصفةٍ عامَّةٍ وعلى الغرب المسيحي بصفةٍ خاصَّة ـ الذي كان قد قُدِّر له في مستقبل الأيام أن يلعب دوراً هاماً في الكشوف العلمية ، والمخترعات المادية ، والبحث عن الوسائل والآلات التي تيسر سبل الحياة ، وطرق تبادل العلم ، والثقافات ويهيِّيء للعالم مرافق الحياة ، كانت هذه المنَّة على الغرب منَّة

(١) انظر لنماذج منها كتاب البروفيسور آرنلد «الدعوة إلى الإسلام» ، وكتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة» ج/ ١ طبع دار ابن كثير بدمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

الحماية والصيانة له من الدمار المتوقع ، والغزو الشرس الذي لا يعرف الرحمة .

هذا ، وبجانبٍ آخر كانت للإسلام مأثرةٌ عظيمةٌ خالدةٌ ، ومنَّةٌ أخرى جسيمة على الغرب عن طريق تعريفه للغرب بمصادر العلم والمعرفة الجديدة ، ومنابع الثقافة الأصيلة ، بل إمتاعه بها ، وفتح الأبواب أمامه للاستفادة منها ، فقد كانت هذه العلوم والثقافات الإسلامية هي التي أضاءت للغرب الطريق في غياهب قرونه المظلمة (Dark Ages) ووهبته نوراً جديداً مهَّد له السبيل لنهضته العملاقة الحديثة (Renaissance) التي لم تغيِّر عالم الغرب رأساً على عقب فحسب ، بل أفادت العالم كله بحقائق ومعلوماتٍ جديدةٍ ، وبدأ بها عهدٌ جديد للعلوم التجريبية (Science) التي أحدثت في هذه الدنيا انقلاباً مدهشاً وثورةً كبيرةً ، وإنَّ أكبر منحةٍ وهديَّةٍ قدَّمتها الأندلس الإسلاميَّة (Muslim Spain) التي انتقلت عن طريقها إلى الغرب العلوم ، والآدابُ ، والفلسفة ، والحكمة ، والطبُّ ، والرياضيات هي الواقعية والمنطق الاستقرائيُّ (Inductive Logic) الذي حلَّ محلَّ القياس والاستنباط (Deductive Logic)والذي غيَّر مجرى الفكر في الغرب ، والذي لم يسبب رقي التكنولوجيا الحديثة والعلوم الجديدة ، وازدهارها فحسب ، بل إنهما مدينتان له في وجودهما ، وظهورهما ، في جميع بحوث الغرب وتحقيقاته المفيدة النافعة ، والتجارب العملية الحديثة ، والانتصارات المحدودة ، والجزئية في تسخير هذا الكون ، وإزالة العوائق من طريق رسالة محمد ـ ﷺ ـ للعالم ، ولا نجد نظيرها في تاريخ الإصلاح والديانات وحياة النوابغ والأبطال :

«اكتست صحراء العرب بفضل هذا النَّبيِّ حُلَّةً أنيقةً ، وأنبتت زهرة يانعة ، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النَّبيِّ ، بل ترعرعت ، ونمت في حجره ، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمسه .

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة .

www.abulhasanalinadwi.org

هزم كلَّ طاغوتٍ ، وحطَّم كلَّ صنم ، وأورق به كلُّ غصنٍ يابسٍ وأزهر ، وأثمر ، إنَّه روح معركة بدر وحنين ، وإنَّه مربي الصِّدِّيق ، والفاروق ، والحسين.

أذان صلاة الحرب ، وجرس سورة الصافات غيضٌ من فيضه.

جعل سيف صلاح الدين البتار ، ونظرة بايزيد النافذة ، مفتاح كنوز الدنيا والآخرة.

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب ، والتقى بها روح الروميِّ بفكر الرازيِّ ، واجتمع بها العلم ، والحكمة ، والدين ، والشرع ، والإدارة ، والحكم مع قلوبٍ مخبتةٍ منيبةٍ في الصدور.

إنَّ جمال قصر الحمراء ، والتاج ، الذي نال خراج الملائكة ، وإعجاب القدسيين هو نفحةٌ من نفحاته ، ولمحةٌ قصيرةٌ من لمحاته ، وومضةٌ من أنواره وبركاته.

ظاهره تلك التجليات والنفحات ، وباطنه درٌّ مكنونٌ ، لم يطلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون.

فلا ريب أنَّه يستحقُّ ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب».

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

رسالة سيرة النَّبيِّ الأمين
إلى إنسان القرن العشرين

هذا البحث قدَّمه العلامة الندوي في المؤتمر العالمي للسيرة والسنَّة النَّبوية الَّذي عقد في الدوحة في الفترة ما بين ٥ ـ ١٠ محرَّم ١٤٠٥ هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

كلَّما قرعت آذاننا كلمةُ «الجاهلية» تمثَّل أمامنا عفواً عهدُ القرن السادس المسيحيِّ المظلم ، الذي بعث فيه النبيُّ الأعظم سيدنا محمد ﷺ ، وظهرت أولى معجزات تعاليمه ، وتربيته ، وتوجيهه. . . . فما أن نسمع كلمة «الجاهلية» إلا وتتمثَّل أمام أعيننا الأمة العربية بخصائصها ومزاياها ، وملامحها وقسماتها الجاهلية ، تلك التي صورها كتابنا في موضوع السيرة.

لكن «الجاهلية» لا تختصُّ بذلك العهد ، فكلُّ عهدٍ عهدُ الجاهلية لدى الإسلام إذا حُرم هداية الوحي الإلهيِّ ، ونور النبوة ، وتغاضى عن تعاليم الأنبياء ، وتنكَّر لها بعد أن تبين له الهدى ، أو لم يحظ به بتاتاً ، ولا فرق في ذلك بين جاهلية القرن السادس المسيحيِّ العالمية ، أو القرون الوسطى في تاريخ أوربا ، التي تُعرف في الأغلب بالقرون المظلمة (العصور المظلمة) أو عهد الحضارة والرقي الزاهر الزاهي في القرن العشرين الذي نجتازه.

يصرح القرآن الكريم أنَّ النور فرد ، ومشكاته واحدة ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور: ٣٥] والظلمات لا حدَّ لها ، ولا نهاية ، ولو لم يتجلَّ النُّور الإلهيُّ (الذي يأتي عن طريق الأنبياء والرسلِ وحدهم) لخيَّم على العالم من الظلمات المتراكمة ما لا يُحصى ، ولا يُقاس ، ولأظلمت كلَّ مرحلةٍ من مراحل الحياة ، وعمَّت الظلمة ، وطمت ، وتراكمت ، وتكاثفت.

﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

وكلَّما يذكر القرآن الكريم النور والظلمة متقارنين؛ يذكر النور فرداً ، والظلمة جمعاً ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الظلمة أنواع وأشكال ، وأما النور فهو واحد ، ولو لم يسطع هذا النور الإلهيُّ لما استطاع نورٌ صناعيٌّ أن يشقَّ هذه

www.abulhasanalinadwi.org

الظلمات الحالكة المطبقة ، ولكان العالم البشريُّ كمقبرةٍ مظلمةٍ ، مترامية الأطراف ، ليس فيها منفذ نورٍ ، ولم يكن ليستضيء مهما أوقد الموقدون «شموعاً صناعية» ذات أضواء قويَّةٍ قاهرةٍ ساطعةٍ باهرةٍ» .

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

يبدو كأنَّ أرض الغرب ـ التي لا تطلع منها الشمس ، وإنما تغرب فيها ـ قلَّما حظيت بنور النبوة ، وحاول أهلها أن يستعيضوا عنه النور البشريَّ الصناعيَّ . إنَّ عهد اليونان والروم الذهبيَّ لهو العهد الزاهر الرائع جداً في التاريخ البشريِّ بالنسبة إلى ازدهار العلوم والفنون البشرية ، لكنَّه أحلك العهود ـ كأحلك العهود الجاهلية ـ بالنسبة إلى تعاليم الأنبياء ، وقد خبطوا خبط عشواء فيما يتعلق بذات الله وصفاته ، وكان عمادهم في ذلك الظَّنُّ ، والتخمين ، والخرصُ ، والترجيمُ دون استنادٍ إلى توجيهٍ سديدٍ ، وإشراقةٍ مستقيمةٍ ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف : ٢٠] ولا تقلُّ فلسفتهم وإلهياتهم التي دوَّنها حكماؤهم وفلاسفتهم طرافةً وخرافةً من أساطير الشرق وألاعيبها وأعاجيبها ، وقد تلمع في أقوال سقراط وأفلاطون ـ دون أرسطو ـ وتعليمات فلاسفة الأخلاق أثارةٌ من تعاليم الأنبياء لمعان البراعة في الليلة المطيرة الشاتية ، مما يدلُّ على أن تعاليم الأنبياء قد طرقت آذانهم في حينٍ من الأحيان ، لكن هذا النور لم يكن من السطوع والثبات بحيث يمكنهم أن يعوِّلوا عليه في دياجير الحياة ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة : ٢٠] .

وممَّا يبعث العجب أنَّ مصباح الهداية الذي أوقده سيدنا المسيح عليه السلام ظلَّ يسطع ، وينير في الشرق طوال مدَّة قرنين ، رغم العواصف الهوجاء ، لكنَّه خبا في الغرب في حضانة المعنيين به والحارسين عليه ، فقد فقدت تعاليم المسيح عليه السلام أصالتها في الغرب ، حيث حظيت المسيحية لأوَّل مرة بالحكم والسيادة وانصبَّ تيار الوثنية والشرك في نهر المسيحية ، وربما لم تشق ديانة في العالم البشريِّ بمتبعيها الجدد ، كما

www.abulhasanalinadwi.org

شقيت المسيحية بالإمبراطور قسطنطين ، و«بولس القديس» (القديس بولس) وبعد ما انطفأ هذا المصباح الإلهامي الإلهي ، بقي رجال الكنيسة يخدعون العالم المسيحيَّ الغر المفتون بحسن الظن ، بمصابيح صناعية من عند أنفسهم ، وحاولوا أن يؤكِّدوا للناس أنَّهم لا يزالون يحتفظون بالنور الكريم الوهاج الذي جاء به المسيح عليه السلام من عند ربه ، والواقع أنَّه كان قد توارى في الظلمات المتراكمة المترامية منذ قرون ، وابتلعته الوثنية الرومية المتطرفة :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : ١٧] .

وعلى الرغم من ذلك كلِّه يجب الاعتراف بأنَّ الغرب ظلَّ يسعد بالاعتقاد بالإله ، والإيمان بالآخرة بفضل المسيحية ، وذلك لأنَّ الدِّين السماويَّ مهما تغيَّر وتبدَّل ؛ فإنَّه يجعل الإيمان بالله وبالآخرة يجري في المؤمنين به مجرى الدم ، ويتغلغل في أحشائهم ، بحيث لا يمكن نزعه من القلوب نزعاً تاماً . . . هبت في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر المسيحيِّ في أوربا ريح العقلانية ، بل المادية العاتية ؛ التي وضعت الغرب على طريق المادية الجامحة في صورةٍ جوفاء ، وعلى طريقةٍ عمياء ، ودرج عليه الغرب وقطع أشواطاً بعيدةً ، فعاد أسلوبه للحياة والتفكير لا يقبل الإله والآخرة ، إنَّ الغرب كله لم يعلن كفره بالإله ، أو رفضه لعقيدة الآخرة نهاراً وجهاراً ، لكن أسلوب حياته الذي يعيشه لا ينمُّ عن الإيمان بالإله والآخرة ، ويصح اليوم أن نقول : إنَّ أوربا لا تدين بالمسيحية ، وإنما تدين بالمادية ، وقد ظلت الوثنية ديانة أوربا قروناً ، وتدَّعي الآن منذ مدَّةٍ طويلةٍ أنَّها تدين بالمسيحية ، لكنها لم تخلص لها ، ولم تحرص عليها ، ولم تبذل لها حبَّها ، وودها ، كما صنعت هذه «الديانة» (المادية) وكنائس هذه «الديانة» الجديدة ومعابدها ، والمصانع ، ومراكز الصناعة ، والتجارة ، والمنتزهات ـ غنَّيةٌ ليل نهار ، آهلةٌ في كلِّ حينٍ وآن . ورجال هذه الديانة هم أصحاب رؤوس الأموال والصناع ، والمليونيرون ، يُنظر إليهم نظرة

www.abulhasanalinadwi.org

الإجلال والإكبار ، بل يُقدَّسون ويُعبدون ، وبالعكس من ذلك أصبحت المسيحيَّةُ في الغرب ظلاًّ شاحباً.

وقد ظهر ـ ولا يزال ـ في الغرب جميع ما هو نتيجة منطقية لهذا التناسي للذات ، ولهذا الأسلوب من الحياة ، وأولى هذه النتائج الوخيمة: أنَّ الإنسان الغربيَّ تنكَّر للإله الأحد الصمد ، وعاد يتضرَّع إلى مئات الآلهة ، قد رفع جبهته من عتبةٍ واحدةٍ ـ كان فيها له غنى عن كل العتبات ـ وبدأ يطرح على كلِّ عتبةٍ ، وتلك هي عاقبةٌ محتومةٌ لكلِّ من تنكَّر للإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وهؤلآء الأرباب من دون الله قد تسلطوا على الغرب في عددٍ لا يحصيه إلا الله ، وغلبوا على الغرب أمره ، فلا يجد من دونهم موئلاً ، وهذه الأصنام أشكالٌ وألوانٌ ، تتمثَّل حيناً في الزعيم السياسيِّ ، وحيناً آخر في إله الاقتصاد ، وفي مكان هي التزاماتٌ وقيودٌ ، ومستوى الحياة التي افترضها الإنسان ، وتبنَّاها ، وفي مكانٍ آخر واجباتٌ وضرورياتٌ ، التزمها الإنسان بنفسه ، وهذه الأصنام بمجموعها قد ضيَّقت الخناق على عبادها ، وأرغمتهم على عبادةٍ ، تجعل عبادة الله مقابلها أيسر وأحلى منها آلاف المرَّات ، وتعاملهم معاملةً شاقَّةً قاسيةً ، دونها معاملة الإنسان مع العجماوات ، والآلات الصماء ، وتضطرهم إلى تضحياتٍ هائلةٍ ما قام بها أحد من قبل لصنمٍ أو إله ، وهناك صراعٌ مريرٌ بين أغراض هؤلآء الأرباب من دون الله ، ومطامعهم ، وأهوائهم ، جعل العالم يقوم ويقعد ، ومن بين هؤلآء الأصنام الكثيرة المتنوعة صنم «الوطنية» الذي يتطلب لنفسه قرابين النفوس البشرية والدماء الإنسانية ، ومن بينها صنم «المعدة» الذي عكف على عبادته إنسان القرن العشرين ، ولا يبرحها ، ولا يتحوَّل عنها ، ولكنه لا يكاد يرضى عنه بأيِّ كميَّةٍ من التضحية والعبادة ، وقد أجاد المستر «آليورلاج» حيث قال قبل مدَّةٍ في محاضرته:

«أصبحت بساطة الحياة حلماً من الأحلام ، ولا يهمُّ أحداً غرضٌ كريم وفكرةٌ سامية ، وأصبح كلٌّ من الناس يدور حول مصنعه ، أو مكتبة ليل نهار كثور الطاحون ، ويخدمه خدمة العبيد ، وأدَّى اختراع المراكب السريعة إلى أن أصبح إنسان القرن العشرين دوَّامةً لا هدوء لها ، ولا قرار».

www.abulhasanalinadwi.org

وأدى تقصير الإنسان في جنب الله إلى أنَّه وقع فريسة التناسي للذات ، وقد صرح القرآن أنَّ ذلك عاقبةٌ محتومةٌ لمن نسي الله ، وطوى عنه كشحاً:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : ١٩].

حقّاً إنَّ إنسان القرن العشرين هو نموذجٌ كاملٌ لتناسي اللذات ، قد نسي حقيقته ، وخصائصه الإنسانية ، وغرضه من هذه الحياة ، ومقصده من وجوده ، وعاد يعيش عيشة البهائم والجمادات ، وصار ماكينةً تصوغ الدولارات التي لا تستطيع هي أن تنفع بها في قليلٍ أو كثيرٍ ، وبلغ إلى أن الراحة البدنية ، والطمأنينة القلبية التي قد تكون بعض قيمة هذه الجهود والجهاد ، أصبح لا ينالها في حياته ، ولا يفكِّر فيها ، ولا ينتبه إليها ، وقد صدق البروفيسور «جود» حينما قال:

«يقول د. زرائيلي: إنَّ المجتمع في عصره يعتقد أنَّ الحضارة هي الراحة ، أمَّا نحن ، فنعتقد أنَّ الحضارة عبارةٌ عن السرعة ، فالسرعة هي إله الشباب العصريِّ ، وأنه يضحِّي على نصيبه بالهدوء ، والراحة ، والسلام ، والعطف على الآخرين من غير رحمة».

وقد تغيَّرت وظيفة الإنسان بفعل التناسي للذات ، وبحكم إهماله لحقيقته وحقيقة نفسه ، فتقدَّم أشواطاً بعيدةً في مجال الرُّقي في غير دائرته الطبيعية ، ولم يخط خطوة في دائرته الإنسانية ، ولا تزال خصائصه ، وأخلاقه ، وصفاته الإنسانية في انحطاطٍ ، وإذا رحت تحلِّل الرقيَّ أحرزه الإنسان العصريُّ ، فسوف لا تجد إلا أنَّه عبارةٌ عن بعض فضائل السِّباع الضواري ، والطيور والأسماك ، وقد اعترف الكتاب الأوربيون بهذه الحقائق ، وقد جاء الكثير من شهاداتهم واعترافاتهم في كتابنا «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

كيف يرجى من الغرب أن يتضرَّع إلى الله ، ويلجأ إلى كنفه ، ويطَّرح على عتبته ، وقد بلغ إلى هذا الحد من التناسي للذات ، إنَّه مصداقٌ صحيحٌ لما قاله الفيلسوف والشاعر الإسلاميُّ الدكتور محمد إقبال في بيته الفارسي: «إذا نسيت ذاتك ، وتنكرت لنفسك ، فلماذا تبحث عن محبٍّ لك ، عارفٍ

www.abulhasanalinadwi.org

بك ، إذا لم تتعرف على الإنسان وحقيقته ، فأنَّى لك أن تتوصل إلى الله خالق الإنسان وفاطر الكون».

أما نسيان الغرب للآخرة ، فأولى نتائجه الطبيعية أنَّه فتن بالمادية ، وأمعن إلى الحياة الدنيا ، وأخلد إليها ، ونشأ في قلبه الحرص المجنون الجامح على التمتُّع بلذائذ الحياة ، وأصبح كل ذلك غايةً عليا ، ومقصداً أسمى ، وهدفاً أسنى في حياته ، فتتسامع اليوم من كل جوانب الغرب نداء قوياً عالياً إلى الحصول على الخبز ولقمة العيش ، والاهتمام بالمعدة ، والتلذذ بالحياة الدنيا ، والولوع بمظاهرها الجوفاء ، والتمسك بأسبابها ، والحصول على وسائلها ، ولا يصرف فرصة حياته إلا في التنافس في إحراز قصب السبق في هذا المجال ، وقد جعلت هذه المسابقة والتنافس الحياة في الغرب مضمار الرهان الذي لا نهاية له ، فهم في سكرةٍ من الحياة الدنيا ، لديهم منها عليلٌ لا يُشفى ، وغليلٌ لا يُروى ، وكلٌّ يتطلع إلى الجديد المزيد ، ويردِّد «هل من مزيد» وتتجدَّد كلَّ يوم ضروريات الحياة ، وتتنوع ، وتتكاثر وسائل إشباع متطلبات الحياة ، وتتكشف ، وقد ولد كلُّ ذلك مشكلاتٍ مستعصيةً ، وقضايا معقدةً ، وقد أمدها وزاد في حدتها وشدتها ، التنافس التجاريُّ ، ولا يزال مستوى الحياة يترفَّع مع الأيام ، وكلٌّ يرى الغاية بعيدةً ، والمسافة شاسعةً ، فأصبحت الحياة قلقةً متبلبلةً ، فقدت هدوءها ، وطمأنينتها من أجل انصراف الهمَّة كلياً إلى اتخاذ الوسائل للحصول على هذه الأمور ، وأضحى الإنسان الأوربيُّ في عذابٍ من الحرص والطمع والجشع لا ينتهي ، ورهيناً للجهد والسعي للحياة الدنيا الذي لا يكاد يقف عند حدٍّ ، وأصبح الصبر والقناعة ـ اللذان هما أكسير يضفي على القلب طمأنينةً وسكينةً ـ كالعنقاء التي يسمع عنها الإنسان ولا يراها.

وهذا الحرص على التمتُّع بالحياة الدُّنيا ـ الذي نراه نحن المسلمين جنوناً وهوساً ـ هو كلُّ السعادة والنجاح ، وتمام الحظ لدى المنكرين للآخرة ، وذلك أمرٌ طبيعيٌّ ، لأنَّ الذي أنكر الآخرة ، وأخلد إلى هواه ، واطمأنَّ إلى الحياة الدنيا ، ما الذي يمنعه من التمتُّع بها والفوز بأكبر حظٍّ من اللَّذة ، وإشباع كلِّ نهمةٍ وتلبية كلِّ حاجةٍ ، ولماذا يقصر فيما يمكنه من

www.abulhasanalinadwi.org

التنعُّم ، والتمتُّع ، والمرح ، والطرب ، ومن أن يشهد اللذات ، ويبادرها بما ملكته يداه :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : ١٢]
﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر : ٣].

والنتيجة الثانية المشؤومة التي تترتب على إنكار الآخرة ، هي أنَّ هذه الحياة الدنيا ومطامعها ، وأمتعتها ، وزخارفها ، والوسائل التي تسعف الإنسان فيها ، تتزيَّن في القلوب ، وتتجمَّل في الأعين ، وتتحسن لدى العقول :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل : ٤].

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٥].

ومن نتيجة ذلك ، أنَّ الحياة أصبحت تتميَّز باللهو واللعب ، وبدأت تفقد عناصر الجدِّ والحقيقة ، وعادت تشغلها وسائل اللهو والطرب والتسلية والسرور ، ولا يغير في وضعهم هذا تغييراً ما ، أخطر الساعات العصيبة ، ولا يحدُّ من غلوائهم أدهى الأوقات وأمرُّها :

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأنعام : ٧٠].

ومن نتيجته ، أنَّهم لا يعللون الحوادث والوقائع إلا بالعلل المادية الظاهرة المحسوسة المشهودة ، ولا يتوصَّلون إلى الأسباب الحقيقية ، ولا يدركون حقيقة الأمر ، ولا يمسُّون صميم الواقع ، فلا يقع خلل في إمعانهم في وسائل التنعم والتسلية واللهو ، في أدقِّ الساعات وأحرجها ، ويعلِّلون الحوادث بما يشاؤون ، ويسترسلون إلى العلل الجوفاء التي يفترضونها ، ولا يقع تغيُّر ما في موقفهم وأسلوب حياتهم :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ

www.abulhasanalinadwi.org

جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ ـ ٤٣].

ومن خصائص إنكار الآخرة وجزائها: العلوُّ والاستكبار، فمنكر الآخرة لا يمنعه شيءٌ من الأنانيَّة، والتكبُّر، والخيلاء، لأنَّ الذي لا يؤمن بقوَّة فوق قوَّته، وبحياةٍ بعد هذه الحياة، وبيوم يحاسب فيه العبد على كل صغيرةٍ وكبيرةٍ أتاها في الحياة الدنيا، لا يحولُ بينه وبين أن يكون فرساً جامحاً حبله على غاربه، إنساناً سادراً في غلوائه، يصنع ما يشاء، ويسير على الأهواء، ويركب العمياء، ومن ثمَّ قد شفع القرآن الكريم في أكثر مواضعه ذكر إنكار الآخرة بذكر التكبُّر، فكأنها يلزم أحدهما الآخر:

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وجاء في معرض الحديث عن فرعون وجنوده:

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

ومثل هذه الأمة، المنكرة للآخرة، المؤمنة بالمادِّيَّة، يكون بطشها شديداً، وضربها موجعاً أليماً، وفتحها إذلالاً للعباد، وتدميراً وإفساداً للبلاد:

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠] ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٣٤].

وكذل بقي الغرب محروماً من الإيمان بالرسالة والنبوَّة، وقد آمن بالمسيح عليه السلام ابناً لله، ولكنه لم يؤمن به ـ في الواقع العملي ـ رسولاً مطاعاً، وهادياً في الحياة، وقائداً لسفينة النجاة، كان الأمر الأول شيئاً اعتقادياً نظرياً، لا يؤثر على الحياة، ولا يغير في الأعمال والأخلاق، والسلوك والعادات، أمَّا الأمر الثاني ـ وهو الإيمان به كهادٍ في الحياة، وداعٍ إلى الفلاح والنجاة والاستضاءة بسيرته وحياته في ظلمات الحياة، واعتباره نَموذجاً كاملاً للسلوك الأمثل ـ فكان شيئاً يغيِّر مجرى الحياة، لكن الغرب لم يصنع ذلك، ولم يكن له ذلك سهلاً ميسوراً، فلم يكن يعرف إلا أحوال خمسين (٥٠) يوماً من حياة المسيح عليه السلام، وهي نبذات متبعثرة لا تعطي صورةً واضحةً

www.abulhasanalinadwi.org

للنَّبيِّ المبعوث من الله ، فلا تمكن الإنسان من الاقتداء ، ولا تيسِّر له الائتساء ، يقول القسُّ الفاضل الدكتور شارلس اندرسن اسكات في مقالٍ له في دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة الرابعة عشرة ج ١٣ ص ١٧١٠ :

«ينبغي أن يتنازل الإنسان عن محاولة وضع كتابٍ في سيرة المسيح بكلِّ صراحةٍ ، فإنَّه لا وجود للمادة والمعلومات التي تساعد على تحقيق هذا الغرض ، والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات لا يزيد عددها على خمسين يوماً» .

وعلى ذلك فلو أراد الغرب أن يهتدي هدي المسيح عليه السلام ، وأن يجعل أقواله ، وأفعاله ، وتعاليمه ، وإرشاداته منارة نورٍ في طريق الحياة ، لواجهته صعوباتٌ عمليَّة ، ولم يكن عند قادة المسيحية رصيدٌ موثوقٌ به من التراث الدينيِّ يستندون إليه في قيادة أمَّةٍ بأسرها ، وتوجيهها ، ولا كانوا يحملون من الألمعية ، والفراسة الدينية ، والحكمة الربانَّية ما يستطيعون به أن يحصروا الأمم الأوربية الفتية المتوثبة في نطاق الدين مع التقدم الدنيويِّ ، والرقيِّ الماديِّ ، فكانت نتيجة ذلك أنَّ الأمم المسيحية تحرَّرت ـ في حياتها العملية ـ من قيادة المسيح عليه السلام ، ومراقبة الكنيسة ، وحطَّمت كلَّ الحدود والقيود التي كانت تمنعها من الانطلاق بحرية ، وبدأت تعيش الحياة كأنها ليست من أمَّة نبيٍّ ؛ وذلك لأنَّه لم تؤثر تعاليم المسيح الساذجة في عقولها وقلوبها تأثيراً قويَّاً عميقاً ، ولم تتفاعل هي الأخرى معها تفاعلاً مطلوباً ، ولم تحظ بالتربية الخلقية ، والتزكية العقلية والنفسية ، التي يتلقَّاها أتباع الأنبياء والرسل ، فنشأ من ذلك أنها وفَّرت الوسائل أشكالاً وألواناً ولكنها بقيت مجردةً عن عاطفة الصَّلاح . ونزعة الخير والرشد ، لأنها لا تتأتَّى إلا عن طريق تعاليم الأنبياء وتربيتهم وإصلاحهم ، ولا تولدها العلوم والاختراعات والاكتشافات ، فعادت هذه الوسائل والآلات البريئة ـ التي كان لها أن تكون طريقاً إلى سعادة البشرية بنيَّة الخير وحسن استخدامها ـ وبالاً على النوع البشريِّ ، وطريقاً إلى العلو والاستكبار ، والعبث والإفساد ، والتدمير والهدم ؛ لأن الذين يستخدمونها لا عهد لهم بالتوجيه الربانيِّ : القرآن الحكيم :

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص : ٨٣].

وهذا الاستغناء عن الله ، والإعراض عن تعاليم الأنبياء ، ورفض الآخرة ، كلُّ ذلك أدى إلى أنَّ الغرب بينما هو منور مستضيء حتى أصبح ليله نهاراً ، إذا هو مظلمٌ حالكٌ حتى إن نهاره ليل ، ويقع في عهد الرقيِّ والنور كل ما كان من خصائص عهد الوحشية والبربرية ، وكان كما قال الشاعر الإسلاميُّ الكبير المرحوم أكبر حسين الإله آبادي في بيته الأردي :

سجَّل القلم (قلم المؤرخ) بكلِّ أسفٍ ودهشةٍ : أنَّ «الظلمات» كانت سائدة في «ضوء الكهرباء».

هذا الوضع المزري هو الذي اضطر وزير بريطانيا الأسبق المستر لويد جون أن يقول لدى وضع الحرب العالمية أوزارها :

«لو بعث المسيح عليه السلام في هذه الدنيا مرَّةً ثانية ، لما استطاع أن يعيش مدَّة طويلة ، لأنه سيلاحظ أنَّ الإنسان لا يزال ـ بعد ألف عام ـ على حاله من الفتنة والفساد ، والقتل والنهب ، وإراقة الدماء والإغارة ، أما اليوم فإنَّ جسم الإنسان لا يزال يتقطَّر دماً بعضّة أكبر حروب التاريخ ، وخربت الأرض حتى عمَّت المجاعة ، وما عسى أن يراه سيدنا المسيح؟ هل يرى أنَّ الإنسان يصافح بعضه بعضاً بدافع من الأخوة والمساواة ، أو يرى ـ عكس ذلك ـ عكوفاً على إعدادٍ واستعدادٍ لحربٍ أكثر تدميراً وهدماً وإبادةً ، والتفكير في أحدث أساليب التعذيب ؟!»(١) .

* * *

(١) نقلاً من جريدة «سج» الأردية لصاحبها المرحوم الأستاذ الكبير عبد الماجد الدريابادي .

www.abulhasanalinadwi.org

فــي ظـلال الـبعثـة الـمحمَّـديـة

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مؤتمر للسيرة والسنَّة النَّبويَّة العلمي الثالث ، عقدته حكومة قطر عام ١٤٠٠ هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أمَّا بعد فلي الشرف العظيم في أن أنوب عن العلماء الكبار ، وعن الشخصيات الجليلة التي تمثل الأقطار العربية ، والأقطار الإسلامية ، وألقي كلمة الوفود في هذا المؤتمر الشريف ، لأنَّ هذا المؤتمر ينتمي إلى سيِّد الرُّسل ﷺ ، وهذا تطبيقٌ لمبدأ المساواة الإنسانية والأخوَّة الإسلامية الذي نادى به الإسلام ، وطبَّقه تطبيقاً دقيقاً لا مثيل له في تاريخ الإنسانية ، وعملٌ بقول الرسول ـ ﷺ ـ : «يسعى بذمتهم أدناهم» .

سادتي وإخواني!

إنَّ من أكرم الأخلاق التي قرَّرتها الشرائع السماوية ، والتعاليم الخلقية هو شكر النِّعمة ، وعرفان الجميل ، كما أن من أخسِّ الأخلاق التي اتفقت عليها الشرائع السَّماوية ، والفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، هو كفران النِّعمة ، ونكران الجميل ، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] ويقول فيما يتَّصل بنكران الجميل ، والكنود :

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] .

لقد انعقد مؤتمر السيرة النبوية الأول في باكستان ، وكان ذلك رمزاً لعرفان الجميل ، ولشكر النِّعمة ، لأنَّ البعثة المحمَّدية هي التي أخرجت الشعب المولود في شبه القارة الهندية ـ وأنا فردٌ من أفراده ـ أخرجت هذه البعثة المحمَّدية هذا الشعب الذي قدَّر الله أن يولد ، ويوجد في شبه القارة الهندية من الظلمات إلى النور ، ومن الخرافات والأوهام والأباطيل ، ومن الوثنية الشنيعة ، واسمحوا لي أن أصرح وأنا أشهد على شعبي ، فلي كلُّ حق ، وأن أحمد الله تعالى على ذلك . . إنَّ البعثة المحمدية أنقذتنا نحن

www.abulhasanalinadwi.org

المسلمين في شبه القارة الهندية من عبادة البقر ، ومن تقديس الروث ، ومن عبادة الأحجار ، والأشجار ، والأنهار ، فكانت منّة هذه البعثة المحمَّدية عظيمةً وجسيمةً على هذا الشعب ، فكان عليه ـ قياماً بواجب الشكر ، وتظاهراً بسلامة فطرته ، والشعور بواجبه ـ أن يعقد هذا المؤتمر في بلدٍ من بلاد القارة الهندية .

وعقد المؤتمر الثاني في تركيا ، فكان رمزاً لهذا العرفان الجميل والشكر للنعمة ، فإنَّ البعثة المحمدية هي التي أنقذت الشعب التركيَّ من عبادة الذئب الأبيض ، وأخرجت هذا الشعب الباسل الموهوب ، الكريم الأصيل ، من نطاقٍ ضيِّقٍ ، من بُركةٍ صغيرةٍ كان يعيش فيها كالسَّمك بعيداً عن العالم ، بعيداً عن مصير الإنسانية ، بعيداً عن مجاري الأمور ، بعيداً عن السياسة ، بعيداً عن الفلسفة والتفكير السامي ، بعيداً عن التألُّم للإنسانية إلى هذه الواحة الواسعة ، إلى هذه المنطقة المشرفة ، إلى هذا المرصد الرفيع للقيادة والسِّيادة والرِّيادة ، يوم ساد هذا الشعب بإذن الله تبارك وتعالى في القرن العاشر الهجري العالم الإسلاميَّ كلَّه تقريباً ، وكان له شرف خدمة الحرمين الشريفين ، كما روي عن السلطان العثماني سليم الأول أنَّه لما ذكر إمام جامع من جوامع دمشق ، وهو يخطب في الجمعة فقال عن السلطان: ملك الحرمين الشريفين ، فرفع السجادة ، وحسر الأرض ، وسجد ، وقال: لا بل خادم الحرمين الشريفين .

فكان حقاً على الشعب التُّركيِّ المسلم المؤمن الذي لم تستطع قوَّةٌ أن تحول بينه وبين إيمانه برسالة محمد عليه الصلاة والسلام وبالتعاليم التي جاء بها ، كان له حقٌّ أن يُعقد هذا المؤتمر في البلد الإسلامي الحبيب العريق في الإسلام .

وقد جاء هذا المؤتمر الثالث في خير أوانٍ ، وفي خير مكانٍ ، جاء في أوانه ، وفي مكانه ، أمَّا الأوان؛ فهو استهلال القرن الخامس عشر الهجريِّ ، وأما المكان فهو جزيرة العرب .

إنَّ هذه الجزيرة يجب أن تعرف نعمة الإسلام ، وأن لا تكون كنوداً .

www.abulhasanalinadwi.org

اسمحوا لي أن أقول بكلٍّ صراحةٍ ألا تكون كنوداً أمام هذه النعمة الجسيمة التي أخرجت جزيرة العرب من عالم الخمول ، ومن عالم التناحر ، ومن الجاهلية الشنعاء الرذيلة الخسيسة ، الموغلة في السفالة والجهالة ، أخرجت هذه البعثة المحمدية هذه الجزيرة العربية من لا شيء إلى كلِّ شيءٍ ، أذكر قول هارون الرشيد الخليفة العباسيِّ أمير المؤمنين ، يوم مرَّت به قطعةٌ من سحابةٍ ، فرفع رأسه ، ونظر إليها ، وقال بعد أن عرف أنها لا تمطر في بغداد : «أمطري حيث شئت ، فسيأتيني خراجك» إنَّ هارون لو عمّر عمر نوح ، ولو عاش ألف سنة إلا خمسين عاماً ، لما كان له أن يملك بغداد ، ما كان له أن يملك العراق ، فضلاً عن هذه الإمبراطورية الإسلامية العظيمة التي لا أرجاء لها ، بل أتحمس وأقول وأتوكل على الله ، لو عاش عبد الله بن عباس ـ على ما أكرمه الله به من علمٍ ولقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «اللهم علِّمه الكتاب ، وفقهه في الدين» .

وأتقدم خطوة أخرى وأقول: لو عاش سيدنا العباس عمُّ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما جاءت البعثة المحمدية ـ لا سمح الله بذلك ـ لما كان له أن يملك مكَّة ، ما كان له أن يرفع رأسه في مكة فضلاً عن هذا العالم الفسيح ، العالم الإسلاميِّ ، فكل ما جاء في هذه الجزيرة هو من فضل البعثة المحمَّدية ، وأنني أستحضر الآن بيتاً لشاعرنا شاعر الإسلام الذي أصبح ترجماناً للفتوة الإسلاميَّة ، وللشهامة الإسلاميَّة ، الدكتور محمد إقبال ، اسمحوا لي أن أنشد أولاً بلغته التي قال فيها هذا الشعر ، فإنَّ هناك عدداً من إخواننا الباكستانيين :

ازم دم سيـــراب آن أمـــى لقـــب لاله رست درربك صحرائي عرب

يقول: لقد هبت نفحةٌ من نفحات محمد ، النَّبيِّ الأميِّ عليه الصَّلاة والسَّلام ، وفاضت قطرةٌ من ماء الحياة من فمه الذي لم يكن ينطق إلا بالوحي ، فنشأت جناتٌ وحدائق ، وفاحت روائح عبير من صحراء العرب.

قدروا أيُّها الإخوان! ارجعوا إلى الماضي السحيق وليس سحيقاً ، ارجعوا إلى الماضي القريب ، وما يوم حليمة بسر ، وما قضية أربعة عشر

www.abulhasanalinadwi.org

قرناً بقضيةٍ كبيرةٍ معقدة ، ارجعوا إلى الماضي القريب ، أين كانت الجزيرة العربية؟ أين كانت الأمَّة العربية؟ أين كانت هذه الإمارات ـ رغم دعائي وتقديري لها ـ أين كانت المملكة العربية السعودية؟ حفظها الله وصانها من الفتن[١]. أين كانت باكستان ؟ وأين كانت إيران؟ وأين كنا نلتقي نحن في هذا الملتقى الكريم ، ملتقى السيرة النَّبويَّة ، ملتقى السنَّة النَّبويَّة ، لا والله لو مرَّت الآلاف من السنين ولو حلم الحالمون ، وتغنَّى الشعراء ، وكتب الأدباء ، وتكهَّن الكهَّان ، لما قُدِّر لهذه الأمة العربية ، ولما قدِّر لهذه الجزيرة العربية أن ترتفع لها رايةٌ وأن تُسمع لها كلمةٌ .

هذا كله جاءنا من فضل البعثة المحمَّدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ، فلنكن عارفين للجميل ، ولنكن شاكرين لهذا الفضل ، ولنكن معترفين بهذه الحقيقة الناصعة ، الحقيقة الخالدة ، الحقيقة التاريخية التي لا تُجحد .

نحن كلنا نعيش في ظلال البعثة المحمَّدية ، نحن كلُّنا نأكل من رفد المائدة التي بسطت للإنسانية عامَّةً ، التي بسطها سيدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام ، والتي لولاها لما كان لأبي الحسن أن يتكلم ، وأن يجلس في هذا المجلس الشريف إلى جوار ولي العهد المعظم[٢] والعلماء الكبار ، والله ما كان لي ، وما كان لأكبر ، ولا أعلم منِّي أن يتحدَّث بهذه اللغة القرآنية ، هذه اللغة المعجزة ، هذا كله من فضل البعثة المحمَّدية ، فلا تنسوا هذه الحقيقة الناصعة .

هذه رسالة هذا المؤتمر ، ولنكن معترفين بكلِّ ما جاءنا بإذن الله تبارك وتعالى ، وبكل ما يجيئنا عن طريق محمَّد عليه الصلاة والسلام ، عن طريق البعثة المحمدية ، عن طريق القرآن الكريم والسنَّة المطهرة ، عن طريق الشريعة السمحة ، فلنقرر هذه الحقيقة ، نقررها تطبيقاً ، وتسليماً ، وتقريراً ، وتنفيذاً ، ونقول لكم أيها الإخوان : إنَّ من رسالة هذا المؤتمر

---

(١) كانت هذه الكلمة على أثر حادثة الحرم المشؤومة بأربعة أيام .

(٢) رأس الحفلة سمو ولي العهد المعظم الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني .

www.abulhasanalinadwi.org

الشريف ـ إذا كان لهذا المؤتمر رسالة ، إزالة التناقض من هذا المجتمع الإسلاميِّ العربيِّ ، إنَّ داءنا ، اسمحوا لي أن أقول ، وأتكلم بلسان المؤتمر ، أن أتكلم بلسان الوفود الموقرة ، أن أتكلم بلسان الدعوة الإسلامية التي لا تهاب أحداً ، وأقول لكم :

إن داءنا اليوم ليس الكفر ، والحمد لله ، ليس الشرك ، والحمد لله ، إن داءنا «النفاق» أزيلوا هذا التناقض الذي جثم على صدر هذا المجتمع ، ومنعه من التحرك ، منعه من أن يحمل رسالة الإسلام إلى العالم ، منعه من أن يمثل الإسلام تمثيلاً حقيقياً يجذب إليه العدد الكبير الذي يعيش الآن ، ويتسكَّع في الجهالات والخرافات .

إخواني :

إنني استشهدت بكلمةٍ قالها هارون الرشيد ، ووالله إن الإسلام ، إذا لم يستطع ـ وأعاذه الله من ذلك ـ أن يملك شبراً من الأرض ، فإنَّ العقيدة الصحيحة الحنيفية التي جاء بها الإسلام ، العقيدة النقيَّة التي ما عرف البشر أنقى منها ، ولا أسلم منها ، ولا أوضح منها ، عقيدة التوحيد ، وعقيدة الإيمان بالله تبارك وتعالى ، وعقيدة الإيمان بالآخرة ، الإيمان بالمثل العليا والقيم الشريفة ، هي الثروة التي يعتزُّ بها المسلم ، لو لم يملك الإسلام شبراً من الأرض ، فإنه يمتلك هذا الكنز المرصود ، عنده هذه الثروة التي لا تنتهي ، صلة العبد بربه ، إنَّه يعتزُّ بهذه العقيدة ، فالعقيدة هي أول مواهب الإسلام ، والإسلام هو الذي نعتزُّ به ونتنصر .

فلنبدأ هذا القرن بالإخلاص لله تبارك وتعالى ، والصدق ، إنَّه لا ينجينا إلا الصدق . . فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه . . . قلت هذا لملوك العرب ، قلت هذا لرؤساء الجمهوريات ، كتبت ، وخطبت ، وقلت ، وسأكتب ، وسأخطب ، وسأقول : إنه لا ينجي في هذه الساعة الرهيبة التي تقشعر منها الجلود ، لا ينقذنا من هذه الورطة التي تورطنا فيها إلا الصدق مع الله تبارك وتعالى . . لا المؤتمرات ، مع تقديري لها ، ولا المحاضرات ، ولا النوادي ، ولا الصحف ، ولا الدعايات ، ولا التمويلات ، ولا شيءٌ . .

www.abulhasanalinadwi.org

إنما ينجي الصدق مع الله تبارك وتعالى ، فلنكن صادقين مع الله ، قبل أن نكون صادقين مع أحد ، ولنكن صادقين مع نفوسنا وضمائرنا ، إنَّ علينا رقيباً في داخل أنفسنا ، والله تبارك وتعالى ينزل النصر من فوق سبع سموات ، وترون كيف ينزل النصر ، وكيف ينقشع هذا السحاب المتراكم ، وكيف يتبدد هذا الظلام الدامس ، وكيف يطلع النور في بداية القرن الخامس عشر الهجري .

والله سبحانه وتعالى ينصركم ، ويؤيِّدكم بروحٍ منه ، ويقيكم الفتن ما ظهر منها وما بطن ، والحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

جـوانـب الـسِّيـرة الـمضيئـة
فـي المدائـح الـنَّبويَّـة الفارسيَّـة والأردوية

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندوي في الندوة العلمية التي عقدتها رابطة الأدب الإسلاميِّ العالميَّة في أورنغ آباد الهند ، حول المدائح النَّبويَّة ، في الفترة ما بين ٢٥ ـ ٢٧/ صفر ١٤٠٩ هـ. الموافق ٧ ـ ٩ أكتوبر ١٩٨٨ م.

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أمَّا بعد! فإنَّ الملمَّ بلغات العالم ، وآدابها ، وثروتها الأدبية ، ومكتبتها الشعرية ، والمشتغل بالدراسات الأدبية المقارنة ، يعرف أنَّ صنف المديح النَّبويِّ أو «النبويات» ثروةٌ أدبيةٌ معنويةٌ من أغنى الثروات الأدبية والإنتاج الشعريِّ ، وفيض القريحة ورشحاتها ، وتوليد المعاني والانطلاق في عرصاتها ، من بين لغات البشر المحفوظ تراثها ، الباقية آثارها ، وذلك لعمق تأثير البعثة المحمَّدية في العالم ، وفي الأجيال والنفوس البشرية ، ولكون سيرة سيِّد الأنبياء وخاتمهم ، معلومةٌ محفوظةٌ ، ومتداولةٌ ، متناقلةٌ ، على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، والأمم والبلاد ، وأخيراً لا آخراً لتعلُّق قلوب هذه الأمَّة وارتباطها عقدياً ، وعقلياً ، ونفسياً ، وعاطفياً ـ بنبيها ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ تعلقاً لم يعرف في تاريخ الديانات وفي واقع الأمم لأيِّ أمَّةٍ بنبيها رغم ما عرفت من تخطٍّ للحدود الفارقة بين التوحيد والشرك ، وتأليهها له في بعض الأحيان ، أو اعتقاد الأبنية أو التبني على الأقل.

وذلك شأن المديح النبوي أو «النبويات» مع ثروة المدائح البشرية وشعرالمديح في تاريخ الأدب والشعر ، فإنَّ الأول (المديح النبويّ) يفوق شعر المديح والوصف ، وقصائد المدح والرثاء ، كمَّاً وكيفاً ، وقامةً وقيمةً ، ذلك لأسبابٍ نفسيةٍ واقعيةٍ ، تحليليةٍ طبيعيةٍ وعقلية ، فإنَّ الأول تقترن به العقيدة المتغلغلة في الأحشاء ، المسيطرة على الأعصاب ، وقوى الفكر ، والشعور العميق بالسعادة والتوفيق ، والأمل في النَّجاة والمغفرة في بعض الأحيان ، والزلفى عند الله ، والرَّجاء في الشفاعة ، وكلُّ ذلك كافلٌ بإثارة المواهب الدفينة ، وتدفيق القريحة الخامدة ، وإثارة المعاني ، والحماس البيانيِّ ، مع رقة الشعور الإنسانيِّ ، فإنَّ الشاعر إذا كان مدفوعاً من داخل نفسه ، مسوقاً من إيمانه ، متجرداً عن الأغراض الخسيسة ،

www.abulhasanalinadwi.org

والمنافع المادية ، متجاوباً لقلبه وروحه ، غرف من بحرٍ لا ساحل له ، واقتنص نجوماً كانت فوق متناول يده .

هذا بالعكس من المدائح التي قيلت في ملكٍ أو أمير ، أو فاتحٍ أو غنيٍّ ، فقد ارتبطت به مطامع وآمال في بعض الأحيان ، أو مخاوف وتوجسات في أحيان أخرى ، وصدرت عن اقتراحٍ وطلب ، وأملاها مقتضى الوقت ، ومصلحة الزمان ، وشتَّان بين هتاف الخارج ونداء الضمير ، وبين تحقيق رغبات المتملقين المقترحين ، أو الوصول إلى غاياتٍ اقتصاديةٍ ، أو سياسيةٍ ، أو اجتماعيةٍ ، وبين تحقيق رغبة الضمير المؤمن القاهرة (من غير عنفٍ أو قسوةٍ) وبين شكرٍ واعترافٍ بجميلٍ ناله هذا الشاعر من الممدوح ، أو أمَّل فيه في المستقبل ، وبين شكرٍ واعترافٍ ـ بكلِّ شعرةٍ من شعرات جسمه ، وبكلِّ جارحةٍ من جوارحه ـ بما أنعم الله به عليه عن طريق هذا النَّبيِّ من نعمة الإيمان ، وكرامة الإنسان ، ولم يزل ولا يزال بين الجمال والكمال وبين الإشادة به ، والتغني والاهتزاز لهما داخلياً ، والإعلان لهما خارجياً ، صلةٌ قويةٌ عميقة خالدةٌ ، وتفاهم ـ من غير مخططٍ أو مؤامرةٍ مصطنعةٍ مدبرةٍ ـ فأينما كان الجمال والكمال الساحران سحراً حلالاً ، وأينما كان الفضل والإحسان ـ من غير عوضٍ أو أملٍ في مردود ـ كان الشعر البليغ ، والمديح الرقيق ، والبيان السَّاحر ، والأدب الخالد ، وذلك هو الباعث الأساسيُّ الأقوى على وجود الشعر الذي طربت له الآذان ، وصفَّق له الزمان ، ونقل الإنسان من عالم الهموم والأحزان ، إلى عالمٍ فسيحٍ تهبُّ فيه نفحات الإيمان والوجدان .

ومن الفوارق الكبيرة بين شعر المديح العام وشعر المديح النبويِّ والنبويات : أنَّ انطباع شاعر المديح لممدوحه ، وتعبيره عن مظاهر عظمته ومحاسنه وحبه لمن يرثيه من الملوك والأجواد ، والشجعان والفاتحين ، والقادة والنابغين من الحكام أو العلماء ، والصَّالحين ، يبقى محصوراً في نطاق حياته ، وفي حدِّ ذاته ، لا شأن له ، ولا دافع إليه بعد وفاته ، أو بعد ما انتهى هذا الشاعر الراثي من رثائه ، ولا شأن له ببلده الذي ولد فيه ، أو مات فيه ودفن ، وقضى فيه حياته ، وعاش ، فقد كان هذا الممدوح أو

www.abulhasanalinadwi.org

المرثي بشراً من البشر ، كانت كل الفضائل التي امتاز بها مقرونة مرتبطةً بذاته وحياته ، وانتهت بحياته ، ولم يكن لبلده ـ مولده ومهجره ـ دورٌ في تاريخ تغيير مسيرة الإنسانية ، وإنقاذ البشرية ، ولم تقترن به ذكريات الدعوة ، والإصلاح ، والجهاد ، والكفاح ، والإيثار على النفس ، والفداء ، والأخوة الصادقة ، والإنسانية السَّامية ، وآيات البطولة والاستماتة في سبيل الله ، والشوق إلى الجنة ، والحنين إلى الشهادة ، وإيثار النَّبيِّ ـ ﷺ ـ على النفس والأولاد ، وبالعكس قد خصَّ الله بلدي الرسول بعبير الإيمان وأريج الحبِّ والحنان ، فأحدهما مولد الرسول ومبعثه ، وثانيهما مهجره ومدفنه ، لذلك كان الحنين إلى هذين البلدين ، والحرص على الوصول إليهما مشياً على الرأس والعين ، وكنس أرضهما بالأهداب ، وغسلهما بالدموع ، أمنيةَ العشاق ، والمتيمين ، وأصحاب النبويات ، والشوقيات من الشعراء والناظمين .

وكان ذلك أبرز وأقوى عنصرٍ شعريٍّ في هذا الصنف في الشعر الفارسيِّ والأرديِّ لبعد هذه البيئات التي نبغ فيها هؤلاء الشعراء عن مركز الإسلام ومدينتي الرسول عليه الصلاة والسلام ، لذلك جاء في شعر شعراء إيران وشبه القارة الهندية من شعر الحنين والشوق ، والشعور بالبعد والهجران ، وشوق الوصول إلى البلدين الطيبين المباركين على جناح الشوق والحبِّ ، كما يقول الشاعر العربي في ممدوحٍ بعيدٍ غائب عنه :

فيا غائباً لو وجدنا له سبيلاً مشينا على الأرؤس
على ذلك الوجه مني السَّلام ولا أوحش الله من مؤنسي

ويمكن أن يقال بكلِّ ثقةٍ وبيِّنة : إنَّ الشعر الذي قيل في اللغة الفارسية والأردية في الحنين إلى المدينة المنورة وتمثيلها في المخيِّلة ، وتصوير وصول الشاعر إلى أرضها ـ إذا قدِّرت له هذه السعادة ـ وسروره بذلك ، واعتداده بهذه الكرامة وانتهازه لهذه الفرصة التي لم تتحقق لكثيرٍ من الأولياء الكبار ، وعباد الله الأبرار ، يمكن أن يعتبر من أرقِّ الشعر العاطفيِّ وأقواه في الشعر العالمي الغزليِّ ، فإنَّه لا يزال يثير الأشواق ، ويدمع الآماق ، وينزل إلى الأعماق ، ويثير الكوامن في نفوس العشاق .

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ الحديث عن مكانة المديح النبويِّ أو النبويات في الشعر العالمي واستعراضه بوجه عام ، مهما كان بإيجازٍ واختصارٍ ، لا يتَّسع له هذا البحث القصير ، فإنَّه موضوع كتابٍ ، أو سلسلة كتبٍ ، وقد تكلَّم كاتب هذه السطور في الموضوع بإيجازٍ في كتابه: «الطريق إلى المدينة المنورة» في مقاله: «شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم» (ص ٩٧ ـ ١٢٠) ، ولكنِّي أحدِّد موضوعي في عنوان «جوانب السيرة المضيئة ، في المدائح النبوية الفارسية والأردية» في هذه المناسبة الكريمة الطيبة من جلسات الرابطة العالمية للأدب الإسلامي المنعقدة في مدينة أورنك آباد «البلد الإسلامي الذي قضى فيه الإمبراطور المغوليُّ المجاهد في سبيل الله ، المحبُّ لرسول الله ، المطبق لشريعته في مملكته الواسعة ، المدينة التي قضى فيها شطراً من عمره ، وبوفاته تزعزعت الإمبراطورية المغولية الإسلامية الأخيرة ، فهي تستحقُّ أن تسمَّى غرناطة الهند ، وكانت مدفنه.

وقد ازداد شعر المديح بتناوله جوانب السيرة قيمةً وإفادةً ، وقد كانت لفتاتٌ تاريخيةٌ تضيء جوانب السيرة ، وتعرض حقائق تاريخيَّةً في بلاغةٍ وإيجاز ، يقصر عنها التاريخ المطوَّل مع قيمته العلمية ـ ويترك في نفس القارىء انطباعاتٍ نفسيةً عميقةً غلاَّبةً ليست في متناول المؤرخين المسهبين ، ونختار في عرض هذه النماذج اللغتين الفارسية والأردية ، اللتين تزخر فيهما هذه الثروة ، واللتين كان الناطقون بهما أكثر حاجةً إلى هذه الإيضاءات ، وتلخيص التاريخ الطويل المشرق في أبياتٍ معدودةٍ ، ولفظٍ قليلٍ ، ومعنى عميقٍ.

ونعرض من هذه النماذج مع رعاية الأدوار والعهود ، ونبدأ بالشيخ مصلح الدين السعدي الشيرازي (المتوفى ٦٩١ هـ) ونبدأ بشعره الذي معناه:

«إنَّ اليتيم الذي نشأ أمياً ، وعاش أمياً ولم يقرأ القرآن في كتابٍ ، استطاع أن ينسخ مكتبات شعوبٍ كثيرةٍ ، فتفقد قيمتها ، وحيويتها ،

www.abulhasanalinadwi.org

وينشيء مكتبةً جديدةً كانت مصدر العلم والعرفان ، ومنهل كلِّ رائدٍ وظمآن .

إنَّه لغز من ألغاز التاريخ أنَّ الحركة العلمية الكبرى في العالم الإنسانِّي والحركة التأليفية والكتابية الكبرى في النوع البشريِّ نبعتا من نبيٍّ أميٍّ . إنَّ ارتباط هذه الحركة العلمية ، وهذه الخدمة الهائلة للعلم والثقافة التي كانت هذه الأمَّة حاملةً لواءها ، بهذه الأمِّيَّة ، يثير تساؤلاً تاريخياً يتطلب من عقلاء العالم ورجالات فلسفة التاريخ إجابةً مقنعةً عليه ، فإنَّ اليتيم الذي لم يتلقن مبادىء العلم ، استطاع أن ينسخ مكتبات الأديان ، ويجعلها لا تغني غناءً ، ولا تحمل معنىً .

ولكنَّ المرء قد يفهم من هذا البيت أنَّ معجزة النَّبيِّ ﷺ في هذا الصدد كانت سلبيةً ، حيث إنه قد نسخ المكتبات والذخائر العلمية القديمة التي كانت قد تجرَّدت عن رسالتها ودورها الإيجابيِّ ، وبدأت تمثِّل دور التضليل ، وتنشر الأباطيل . لكنَّ الواقع أنَّ هذه المعجزة كانت إيجابيةً بناءةً أكثر من أن تكون سلبيةً . إنَّه نسخ ذخيرة كتبٍ محدودةٍ لكنَّه حبا الإنسانية مكتباتٍ واسعةً زاخرةً ، انقطع نظيرها في تاريخ الأمم .

لقد انبثق من النُّبوَّة المحمَّدية وتعاليمها الحماس والتفاني في سبيل العلم ، وانطلقت حركةٌ علميَّةٌ خالدةٌ ، مساحتها الزَّمنيَّة من أكبر المساحات الزمنية ، ومساحتها المكانية من أكبر المساحات المكانية ، والمساحة المعنوية أوسع من كلتا المساحتين(١) .

ونكتفي هنا بشهادةٍ لباحثٍ غربيٍّ كبيرٍ ، ومؤرخٍ فرنسيٍّ شهيرٍ ، وهو الدكتور غوستاف لوبون ، يقول في كتابه المشهور «حضارة العرب» :

«والإنسان يقضي العجب من المهمَّة التي أقدم بها العرب على البحث ،

---

(١) ليرجع لمعرفة هذه المساحات ، ولمعرفة التنوع ، والتفنن في الموضوعات ، إلى كتبٍ وضعت في ذكر المؤلفات التي ألفها علماء الإسلام في عصورٍ وأنحاء مختلفةً ، والفضلاء الغربيون المستشرقون في العصر الأخير ، راجع هامش «الإسلام ، أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية» (طبع دار ابن كثير ، ص/ ٨٣) «دمشق» .

www.abulhasanalinadwi.org

وإذا كانت هنالك أممٌ تساوت هي والعرب في ذلك ، فإنَّك لا تجد أمَّةً فاقت العرب على ما يحتمل ، والعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همَّهم إلى إنشاء مسجدٍ وإقامة مدرسةٍ فيها ، وإذا ما كانت تلك المدنية كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرةً ، ومنها المدارس العشرون التي روى «بنيامين التطيلي» (المتوفى ١١٧٣ م) ، أنه شاهدها في الإسكندرية ، هذا عدا اشتمال المدن الكبرى كبغداد ، والقاهرة ، وطليطلة ، وقرطبة. . . إلخ على جامعاتٍ مشتملة على مختبراتٍ ومراصد ومكتباتٍ ، وكلٍّ ما يساعد على البحث العلميِّ ، وكان للعرب في أسبانيا وحدها سبعون مكتبةً عامَّةً ، وكان في مكتبة الخليفة الحكم الثاني[١] بقرطبة ستمئة ألف كتاب ، منها أربعة وأربعون مجلداً من الفهارس ، كما روى مؤرخو العرب ، وقد قيل بسبب ذلك : إنَّ «شارل الحكيم» لم يستطيع بعد أربعمئة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمئة مجلد ، يكاد ثلثها خاصاً بعلم اللاهوت»[٢] .

ويلي سعدي الشيرازي شاعر الهند بالفارسية الأمير «خسرو» الذي سلم له شعراء إيران بالزعامة ، والإمامة ، وشهدوا له بالإجادة ، والإبداع في الشعر الفارسيِّ ، يقول في مقطوعةٍ شعرية :

«إنَّ أنفاس النَّبيِّ ـ ﷺ ـ وأخلاقه قد نفخت الحياة في العرب الذين كانوا في احتضار ، وأطفأت في وقتٍ واحد شعلة أبي لهبٍ[٣] الوهاجة التي كادت تأتي على الأخضر واليابس ، إنه وصل في خطوتين من هذا العالم إلى ذلك العالم[٤] ، وفي جولةٍ من العالم المادِّيِّ إلى العالم الروحيِّ» .

---

(١) ولد في سنة ٣٠٢ وتوفي ٣٦٦ ـ (٩١٤ ـ ٩٧٦) فكان هذا التقدُّم في العلم والعناية بالمكتبات في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر المسيحي) فكيف بعد ذلك؟

(٢) حضارة العرب ، ص/ ٤٣٤ ، تأليف الدكتور غوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ عادل زعتير (مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه في مصر) .

(٣) يعني به الشاعر زعيم الكفر والجاهلية ، وقد اتخذ شخصية أبي لهب ، ممثلاً لهذا الاتجاه.

(٤) يشير إلى الإسراء والمعراج .

www.abulhasanalinadwi.org

ويقول مولانا عبد الرحمن الجامي (المتوفى ٨٩٨ هـ):

«يا من نسبه عربيٌّ ولقبه أميٌّ ، لقد دان بولائك ، وخضع لسيادتك العرب والعجم سواءً. إنَّ فصاحتك استأسرت العرب ، وإنَّ ملاحتك ملكت قلوب العجم ، ما ضرَّك ألاَّ تقرأ ، ولا تكتب! فبفضل جهودك وبعثتك تعلم الأمِّيُّون ، ونبغ الجاهلون ، بك ابيضت صحيفة الأعمال ، وأشرق نورك في الظلمات ، فلا ضير ألاَّ تخطَّ سواداً على بياض ، أم تضم سواداً إلى سواد».

يقول أسد الله خان (غالب) الدهلوي أشهر شعراء أردو الغزلين وأحظاهم بالقبول (المتوفي ١٢٨٥ هـ):

«إن بنانه لم يمسك القلم ، لكنه سطَّر ما عجزت عنه أقلام التاريخ ، ما وضع قدمه على الصحراء إلا وتحوَّلت إلى جنةٍ خضراء ، وما تكلَّم مع كافرٍ إلا حوله مسلماً مؤمناً ، يؤمن بربِّ الأرض والسماء ، أنار الدنيا بنور الدِّين ، وأنقذ المؤمنين من عذاب ربِّ العالمين ، حصاة عتبته تذيب الحديد ، وتلين الشَّديد ، عاكفٌ في المحراب ، وقلبه معلَّقٌ بخلق الله».

ويليه زعيم الشعر الإسلاميِّ الحديث الشيخ ألطاف حسين الملقب في شعره بـ«حالي» (المتوفى ١٣٣٣ هـ) صاحب المنظومة ، أو الملحمة الإسلامية المشهورة المقبولة:

«نزل من غار حراء ، وفي يده إكسيرٌ من السماء ، حوَّل التراب تبراً ، والحصى دراً وجوهراً ، أقبل إلى الأمة العربية التي كان يخيم عليها الجهل من قرون ، فأحدث فيها ثورةً جذريةً انقلبت بها أوضاعها ، وتغيَّر بها مجرى التاريخ. إنَّ الحجر الذي رفضه كلُّ بناء ، وزهد فيه كل معمار ، تناوله بيده الكريمة ، وجعله حجر الزاوية ، لقد هاجت سحابةٌ من بطحاء مكة ، ملأت سمع الزمان وبصره ، وشرَّق وغرَّب رعدها وبرقها ، فبينما رعدت على نهر «تاجه» في أسبانيا أمطرت على نهر «كنج» في شبه القارة الهندية ، لقد أحيا غيثها مزرعة الإنسانية القاحلة ، وعمَّ برها البرَّ والبحر ، فما ترى في العالم من رواءٍ وبهاءٍ ونورٍ وسناءٍ إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمَّدية».

www.abulhasanalinadwi.org

ويقول الشاعر حفيظ الجالندمري صاحب الملحمة المشهورة بـ«شاهنامه إسلام» :

«إنَّه ردَّ إلى الإنسانية كرامتها واعتبارها ، وإلى أفراد النوع الإنسانيِّ حقَّهم في الحياة ، نكس الباطل ، وقلب عروش الملوك الجبابرة ، رفع رأس كلِّ إنسانٍ صابر ، وشرف قدر الأجير ، وأهان المثري المتأثر ، لقد كان الفقر فخره ، ولكنه كانت سطوة كسرى وقيصر تحت قدمه ، إنَّه كسر سلاسل الظلم والباطل النارية التي يصعب كسرها ، وجبر القلوب المنكسرة المتهافتة التي يصعب جبرها ، فصلوات الله عليك يا من كان كسره معجزةً وجبره معجزةً» .

نختم هذا الباب بنموذجين من شعر شاعر الإسلام الأكبر الدكتور محمد إقبال ، فهو مسك الختام ، وخير ما نختم به الكلام ، يقول الدكتور محمد إقبال :

«إنَّ قلب المسلم عامرٌ بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم . إنَّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السيد نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم ، لقد لبث في غار حراءٍ ليالي ذوات العدد ، فكان أن وُجدت أمَّة ووُجد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً .

لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ـ بأبي هو وأمي ـ لم تلد مثله أمٌّ ، ولم تنجب مثله الإنسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، يأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنت حاتم أسيرةٌ مقيَّدةً سافرة الوجه ، خجلةً مطرقةً رأسها ، فاستحيا النبيُّ ﷺ وألقى عليها رداءه ، نحن أعرى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم .

لطفه وقهره كلُّه رحمةٌ ، هذا بأعدائه وذاك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال : لا تثريب عليكم اليوم! نحن المسلمين من

www.abulhasanalinadwi.org

الحجاز والصين وإيران وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ ، نحن أزهارٌ كثيرةُ العدد متَّحدة الطيب والرائحة ، لِمَ لا أحبُّه ، ولا أحنُّ إليه وأنا إنسانٌ ، وقد بكى لفراقه الجذع ، وحنَّت إليه سارية المسجد؟ إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كلِّه ، أنعم بمدينةٍ فيها الحبيب!».

ويقول في قصيدةٍ أخرى:

«اكتست صحراء العرب بفضل هذا النَّبيِّ الأميِّ حلةً أنيقةً ، وأنبتت زهرةً يانعةً ، إنَّ عاطفة الحرية نشأت في ظلِّ هذا النَّبيِّ ، بل ترعرعت ، ونمت في حجره وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمسه.

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة.

هزم كلَّ طاغوتٍ ، وحطَّم كلَّ صنمٍ ، وأورق كلُّ غصنٍ يابس ، وأزهر وأثمر ، إنَّه روح معركة بدرٍ وحنين ، وإنَّه مربي الصِّدِّيق ، والفاروق ، والحسين.

أذان صلاة الحرب وجَرْسٌ سورة الصَّافات غيضٌ من فيضه ، جعل سيف صلاح الدين البتار ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة.

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب ، والتقى بها روح الروميِّ بفكر الرازيِّ ، واجتمع بها العلم والحكمة ، والدين والشرع ، والإدارة والحكم ، مع قلوب أوَّاهةٍ مخبتةٍ منيبةٍ في الصدور.

إنَّ جمال قصر الحمراء ، والتاج ، الذي نال خراج الملائكة وإعجاب القديسين هو نفحةٌ من نفحاته ، ولمحةٌ قصيرة من لمحاته ، وومضةٌ من أنواره وبركاته.

ظاهره تلك التجليّات والنفحات ، وباطنه درٌّ مكنونٌ لم يطَّلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون.

فلا ريب أنَّه يستحقُّ ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنَّه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب.

www.abulhasanalinadwi.org

وأخيراً لا آخراً: من أبرز الجوانب المضيئة في المدائح النبوية وأكثر سماتها أصالةً وأهمية إبراز أكبر مآثر النبوَّة المحمَّدية وأهدافها ، هي الدعوة إلى عقيدة التوحيد الخالصة النقية ، ونبذ الوثنية والثنوية ، والإشراك بالله بجميع أنواعه ومظاهره ، وممكناته ومفترضاته ، وقد وردت هذه المعاني في عددٍ من القصائد التي قيلت في المديح النبويِّ ، فإن البعثة المحمدية قد اقترنت بالدَّعوة إلى التوحيد السافر اقتراناً بحيث لا يمكن تصور أحدهما إلاَّ بالآخر ، ولا يمكن الإنصاف ـ إذا كان الإنصاف ممكناً ـ لموضوع المديح النبويِّ ، إلا إذا أبرزت هذه الناحية الأساسية في الحديث عن فضل البعثة النبوية ومنِّها على العالم ، ومعطياتها ومُنْجزاتها .

ومن الإنصاف للموضوع أن يقال: إنَّه قد تورط عددٌ من أصحاب المدائح في بعض المزالق ، بتأثير بعض البيئات الموبوءة ، أو ضعف الثقافة الدينية ، أو بسبب الاتجاه إلى الغلو والمبالغة التي اعتبرت من سمات الشعر ومحاسنه في كثيرٍ من الآداب واللغات والعهود والأدوار ، وقد أبدى العارفون لروح الدين والغيارى على الإسلام في كلِّ زمانٍ ومكانٍ استنكارهم لذلك ، واعتبروه شيئاً دخيلاً طارئاً على المديح النبويِّ .

وهنا نعرض نموذجاً واحداً للإشادة بعقيدة التوحيد الخالص عند أحد أئمة شعر المديح النبويِّ ، وهو الشيخ ألطاف حسين حالي ، صاحب المزدوجة المشهورة المعروفة بـ«مسدس حالي» يقول الشاعر :

«لقد وقعت رجةٌ في المحيط ، واهتزَّ المجتمع العربيُّ ، حين نادى الرسول ، وقال بأعلى صوته: إنه لا يليق بالعبادة ، ولا بشهادة القلب ، واللسان بالوحدانية إلا ذلك الواحد الصَّمد الذي يستحقُّ وحده الطاعة والخضوع ، وامتثال الأوامر مطلقاً ، فإذا كنتم مطرقين رؤوسكم فأطرقوه أمامه ، وإذا كنتم خاضعين فاخضعوا له ، وإذا كنتم معتمدين على شيء فاعتمدوا عليه ، وإذا كنتم خائفين وجلين من أحد فاخشوا غضبه ، عيشوا على حبِّه ، وموتوا في طلبه ، إنه مبرءٌ من كل مشاركة ، ولا عظمة أمام عظمته ، إنَّ العقل والذكاء كليلان في إدراك كنهه وصفاته ، وإنَّ الشمس

www.abulhasanalinadwi.org

والقمر خاضعان ذليلان لأوامره ، ولا قيمة لملوك وفاتحين في مملكته التي وسعت الأرض والسماء ، ولا قدرة لنبيٍّ وصديقٍ على نقض ما أبرم ، ولا على إبرام ما نقض ، وليس للرهبان والأحبار ، ولا للأبرار والأحرار دالةٌ عليه حتى يستطيعوا أن يحققوا ما أرادوا ، ويشفعوا لمن ارتضوا ، فلا تغتروا كما اغترت أممٌ قبلكم ، ولا تدعوا لله ولداً ، ولا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، ولا تبالغوا في شأني فتسيئوا إليَّ ، ولا تتخذوا قبري مسجداً» .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية

أعَدَّ العلامة الندوي هذه المحاضرة للإلقاء في الملتقى السَّابع عشر للفكر الإسلاميِّ حول موضوع «الاجتهاد» المنعقد في مدينة قسنطينة بالجزائر عام ١٩٨٣ م ، ولم يتمكن سماحة الشيخ الندوي من الحضور في الملتقى ، فطبعت هذه المحاضرة ووُزِّعت في الملتقى.

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله وحده ، والصَّلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده ، سادتي الأفاضل! يحلو لي أن أبدأ مقالتي هذه بما سطره قلبي في مقدمة مجموع محاضرات «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» :

الحيوية الكامنة في وضع الإسلام وجدارته لقيادة الركب البشري :

«من الحقائق الأولية أنَّ الحياة متحركةٌ ومتطورةٌ ، دائمة الشباب ، مستمرَّة النُّموِّ ، تنتقل من طورٍ إلى طورٍ ومن لونٍ إلى لونٍ ، لا تعرف الوقوف ، ولا الركود ، ولا تصاب بالهرم والتعطُّل ، فلا يسايرها في رحلتها الطويلة المتواصلة إلا دينٌ حافلٌ بالحركة والنشاط ، لا يتخلَّف عن ركب الحياة ، ولا يعجز عن مسايرته وزمالته ، ولا تقصر عنه خطواته ، ولا تنفد حيويته ونشاطه .

وذلك شأن الإسلام ، فإنَّه ـ وإن كان مؤسساً على عقائد ثابتةٍ ، وحقائق خالدةٍ ـ زاخرٌ بالحياة ، حافلٌ بالنَّشاط ، له من الحيوية معينٌ لا ينضب ، ومادَّةٌ لا تنفد ، صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وعنده لكلِّ طورٍ جديدٍ من أطوار الحياة ، ولكلِّ جيلٍ جديدٍ من أجيال البشرية ، ولكلِّ عهدٍ مستأنفٍ من عهود التاريخ ، ولكلِّ مجتمعٍ عصريٍّ من مجتمعات البشر ، مددٌ لا يقصر عن الحاجة ، ولا يتأخَّر عن الأوان .

إنَّ الإسلام ـ بخلاف ما يعتقده كثيرٌ من المسلمين ، وبعكس ما يصوره أكثر المستشرقين والمؤرخين الغربيِّين ـ ليس حضارة عهدٍ خاصٍّ ، ولا فنَّ فترةٍ من فترات التاريخ ، تمثله آثار ذلك العهد ومبانيه ، ويعيش في الأحجار والرسوم والصور ، لا في واقع الحياة ، وقد فقد صلاحيته للحياة وأدَّى رسالته ، كالذي نتحدَّث عن الحضارة اليونانية والرومية ، أو الفنِّ التُّركيِّ والمغوليِّ. إنَّه دينٌ حيٌّ ، ورسالةٌ خالدةٌ. إنَّه حيٌّ كالحياة نفسها ، وخالدٌ كخلود الحقائق الطبيعية ونواميس الحياة. إنَّه تقدير العزيز العليم ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل : ٨٨] وقد ظهر في شكله النهائيِّ ، وطوره الكامل ، وأعلن يوم عرفة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى

www.abulhasanalinadwi.org

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣] فهو يجمع بين الكمال الذي لا انتظار بعدهِ لدينٍ آخر، ولا حاجة معه إلى رسالةٍ جديدة. وبين الحيويَّة التي لا نفاد لها، والنشاط الذي لا آخر له، ولذلك استطاع أن يساير الحياة، ويراقبها في وقتٍ واحد، ويتابعها في صلاحها واستقامتها، وينكر عليها في انحرافها وزيغها، فلا هو مسايرٌ مائعٌ ككثيرٍ من الأديان المحرَّفة، ولا هو مراقبٌ جامدٌ ككثيرٍ من الفلسفات النظرية، وذلك مثل الدِّين الكامل، ومثل الدِّين الحيِّ للإنسان الحيِّ؛ الذي يشعر بشعوره، ويعترف بحاجاته، ويرشده في مشاكله، ويعارضه في اتجاهاته الفاسدة.

كيف استطاعت الأمَّة أن تساير الحياة، وتقودها بالشريعة:

وقد استطاعت الأمَّة الإسلاميَّة أن تواجه التقلُّبات التي لا تكاد تنتهي، والقضايا التي لا يأتي عليها الحصر، ولا يحدُّها قياس، واختلاف الزمان والمكان، وتنوُّع البيئات والملابسات، وقد أمكن ذلك بقوتين:

القوة الأولى: هي الحيوية في وضع الإسلام نفسه، وصلاحيته للحياة والإرشاد في كلِّ بيئةٍ، وفي كلِّ محيطٍ، وفي كلِّ عهدٍ من عهود التاريخ، فقد خصَّ الله محمداً ﷺ برسالةٍ وتعاليم كاملةٍ للإنسان، صالحةٍ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وتستطيع أن تواجه ما يتجدَّد من الشؤون وأطوار الحياة، وتحلَّ كل ما يعتري من المشكلات والمعضلات، والدراسة العميقة الشاملة للقرآن الكريم، والحديث النبويِّ الصحيح، ومصادر الإسلام كافلةٌ بالاقتناع بما أقول.

والقوَّة الثانية: هي أنَّ الله قد تكفل بأن يمنح هذه الأمَّة التي قضى ببقائها وخلودها رجالاً أحياء أقوياء في كلِّ عصرٍ، ينقلون هذه التعاليم الإسلامية إلى الحياة، ويطبِّقونها على العصر، ويحلُّون في ضوء الأصول والنصوص التي وهبتهم إيَّاها الشريعة الإسلامية، وفي ضوء مقاصد الشريعة وروحها المشاكل الطريفة، والمسائل المعقَّدة، والقضايا المتجدِّدة، فلم تعدم هذه الأمة في عصرٍ من عصورها أئمةً في العلم، وعماليق في الفكر، لا يوجد نظيرهم ـ لا في الكمِّيَّة، ولا في الكيفيَّة ـ في أمَّةٍ من الأمم.

الاجتهاد والمجتهدون في القرنين الثاني والثالث:

خرج الإسلام من الجزيرة العربية ـ حيث الحياة بسيطةٌ والمدنية محدودةٌ ـ إلى بلادٍ مخصبةٍ واسعةٍ، ذات المدنيات القديمة، والآفاق الواسعة، كالشام، والعراق، ومصر، وإيران، وقد توسَّعت الحياة الاجتماعية، وتعقَّد نظام التجارة والإدارة، والزراعة والريِّ، والحياة والمحاصل، وكانت مهمة تطبيق أصول الإسلام على هذه المسائل والحوادث، وإخضاع الحياة المدنية لروح الإسلام وأسسه، يطلب ذكاءً فائقاً، وفهماً دقيقاً، واطِّلاعاً واسعاً على المجتمع العصري الذي كان المسلمون يعيشون فيه، وإلماماً كافياً بعلم النفس، والطبيعة البشرية، وخبرةً واسعةً بطبقات الأمَّة، ونواحي الحياة العامة، يضاف إلى ذلك الاطِّلاع الواسع على الثروة الدينية الفقهية في الكتاب والسنَّة، والوقوف على مصادر العلم الأولي، وأصول التشريع الإسلامي الأساسية، مع الرسوخ والتضلُّع في اللُّغة العربية التي نزل بها القرآن، ونطق بها الرسول ﷺ.

لقد كان من لطف الله بهذه الأمَّة، وكان من التيسير، أن قيَّض لهذه المهمَّة الجليلة رجالاً يعدُّون من الأفذاذ والنوابغ الذين أنجبتهم الإنسانية، فقهاً وأمانةً، وإخلاصاً وكفايةً، وكان منهم هؤلاء الأربعة (أبو حنيفة م ١٥٠ هـ، ومالك م ١٧٩ هـ، والشافعيُّ م ٢٠٤ هـ، وأحمد بن حنبل م ٢٤١ هـ) الذي قُدِّر لفقههم أن يعيش إلى هذا اليوم، ويخضع له العالم الإسلاميُّ، وقد فاق هؤلاء في فهمهم الدقيق الواسع، ووقفوا حياتهم، واستعملوا مواهبهم بسخاءٍ في تكوين هذه الثروة الفقهية والقانونية، التي لا تعادلها ذخيرةٌ فقهيَّةٌ في العالم، والتي لا تزال مرجعاً ومادَّةً واسعةً للتشريع لهذا العصر، وقد توفَّر هؤلاء على هذه الخدمة التي تدين لها الأمَّة، ويدين لها العالم، وآثروها على كلِّ راحةٍ ولذَّةٍ، وجاهٍ، ومنصبٍ في الحياة، وقد أنتج كلُّ واحدٍ منهم ثروةً علميَّةً، وخلَّف تراثاً فقهياً، ينوء

www.abulhasanalinadwi.org

بالمجامع العلمية ، والمؤسسات الكبيرة في هذا العصر[١] ، وقد رزق الله هؤلآء الأئمة الفقهاء تلاميذ نجباء ، قاموا بعلمهم ، وزادوا في ثروته ، وظلُّوا يشتغلون بتنقيحه وتهذيبه ، حتى استطاع أن يساير العصور بعد عصرهم ، والبلاد غير بلادهم[٢] .

فضل الاجتهاد في حياة الأمَّة الإسلاميَّة :

لقد كان وجود هؤلآء الأئمة المجتهدين والفقهاء المشرعين في قرون الإسلام الأولى ، برهاناً ساطعاً على صلاحية هذه الأمَّة للبقاء والانتشار ، وقد وجدت بفضل مساعيهم ونبوغهم وحدة الأمة العمليَّة ، في اجتماعها ، ومعاملاتها ، وسياستها المالية ، وفي عباداتها ، وفي نظامها الأسري ، وفي الأحوال الشخصية ، وهذه الوحدة عاملٌ مهمٌّ من عوامل الوحدة الدينية والفكرية ، وبذلك أمنت هذه الأمَّة من تلك الفوضى الاجتماعية والتشريعية التي أصيبت بها الأمم ، والديانات في عهدها الأول ، والتي تدرَّجت بها إلى حياةٍ لا دينيَّةٍ تسير فيها على النظم اللادينية ، أو تقتبس التشريع الأجنبيَّ الثائر على روح دينها ومبادئه وألجأتها إلى التمسُّك بمبدأ «فصل الدين عن السياسة» الذي تمسك بها أوربا المسيحية لظروفها الخاصَّة ، وتاريخها الخاص ، ولوضع الديانة المسيحية المختصِّ بها .

فإذا كان العلماء الأقدمون تكاسلوا في الاجتهاد والاستنباط في العصور الأولى ، وآثروا الراحة على العمل والكدح ، أو ضعف إنتاجهم ، وجمدت قريحتهم ، التجأت الحكومة ـ تحت وطأة حاجات الحياة ومطالبها ـ إلى أن تقتبس النظم الروميَّة والفارسيَّة ، وتطبق القانون الرومانيَّ ، والإيرانيَّ على المملكة الإسلامية ، لأنَّ الجهاز الإداريَّ لا يمكن إيقافه عن السير وتعطيله عن الحركة في انتظار التشريع ، وكذلك لا يمكن تأجيل المعاملات التجارية

---

(١) راجع لمعرفة حجم هذا الإنتاج وعدد المسائل الاجتهادية التي توصلوا إليها خلال حياتهم كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج ١ ، ص ١١٢ ، أو «ضحى الإسلام» ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، ج ١ ، ص ١١٢ ـ ١١٣ .

www.abulhasanalinadwi.org

والفرائض الدينية في انتظار تأمُّلات العلماء ، والوصول إلى نتيجةٍ قطعيَّةٍ ، فكان ذلك يجرُّ على هذه الأمَّة شقاءً طويلاً ، لأنَّها تحرم سعادة القانون الإسلاميِّ ، وبركات المجتمع الإسلاميِّ ، والسير في ضوء الشريعة الإسلاميَّة ، والسنَّة النَّبويَّة ، ويكتب عليها أن تعيش مسلمةً متديِّنةً في مساجدها لوقتٍ قصير ، وجاهليةٍ أو لا دينيةٍ في بيوتها ، وأسواقها ، ومحاكمها مدَّة طويلةً ، كما هو الواقع في البلاد والدول التي ديانتها الرسمية النَّصرانية ، وليس عندها تشريعٌ مسيحيٌّ ، وكما هو واقع ـ مع الأسف والخجل ـ في البلاد والدول التي تدين بالإسلام في العقيدة والعبادة ، ولا تدين به في التشريع والقانون ، وإذا ساغ ذلك في النصرانية التي لا تملك الثروة الدستورية ، ولا تلحُّ على تطبيق الدِّين على الحياة ، فإنَّه لا يسوغ في الإسلام الذي هو دينٌ ودولةٌ ، وعقيدةٌ وسياسةٌ ، وعبادةٌ واجتماعٌ ، فكانت الأمة تجتاز مرحلةً خطيرةً دقيقةً في حياتها ، قد وقفت على مفترق الطرق ، وكانت الغلطة الواحدة ، أو العثرة الخفيفة كافيةً لقطع صلتها عن الحياة الإسلاميَّة ، والاجتماع والنظم الإسلاميَّة ، وتفرض على الأجيال القادمة أن تعيش حياةً ليس للدين فيها إلاَّ نصيبٌ ضئيلٌ .

وكذلك الأحكام التفصيلية في العبادات وما يتخللها من قضايا ونوازل ، وأخطاء ونقائص ، بحكم الفطرة البشرية ، وما جبلت عليه من سهوٍ ، ونسيانٍ ، وغفلة ، أو ما يعتري المتلبِّسين بها ، المباشرين لها ، من جهلٍ بالشريعة ، وما يتفاوتون فيه من علمٍ وثقافةٍ دينيةٍ ، وتربيةٍ إسلامية ، وحدوث عهدٍ بالإسلام ، أو قدمه ، وبيئاتٍ عريقةٍ في الإسلام وبيئاتٍ حديثة العهد به ، أو بيئاتٍ مخضرمةٍ ، وكل ذلك يطلب الجواب الحاسم والحلَّ السَّريع ، فذلك انصرف عن الصلاة وقد سها فيها ، وهذا صائم قد احتار في أمره ، وهذا يطلب فتيا فيما تفرض عليها الزكاة ومقدارها ومصارفها ، وشأن الحجِّ الفريضة الطويلة الواسعة التي تستغرق الوقت الطويل والمساحة الواسعة والانتقال من نسكٍ إلى نسكٍ ، ومكان إلى مكانٍ أكثر دقةً وأعظم تعقداً ، وأحوج إلى الإرشاد والحكم الشرعيِّ ، والسنة المأثورة ، والأسوة النَّبويَّة ، ولا شيء من ذلك يحتمل التأجيل ، أو الإحالة

www.abulhasanalinadwi.org

على مصادر التشريع الأولى بطريقٍ مباشرٍ لكلِّ من يواجه هذه المشكلة ، ويتورَّط في غلطةٍ ، فكان لا بدَّ من وجودِ أحكامٍ ، وجزئياتٍ ، وثروةٍ فقهيَّةٍ ميسورةٍ ميسَّرةٍ ، ووجود علماء متضلِّعين من علوم الشريعة ، متهيئين للإرشاد والتوجيه ، وبذلك أمن المجتمع الإسلاميُّ من أن يكون في عباداته متحفاً ، فيه كل أنواع العبادات ، وألوان التصرُّفات ، والحركات ، كما هو الشأن في معابد دياناتٍ كثيرةٍ ، ومناسباتٍ دينيَّةٍ شهرية ، أو سنويَّة ، لا تربط بين المشتركين فيها ـ من أتباع ديانةٍ واحدة ـ وحدةٌ عمليةٌ ، ولا تغشاها غاشيةٌ من سكينةٍ ، أو صبغةٌ إلهيةٌ ، بخلاف مساجد المسلمين ، ومراكز الحجِّ والمناسك التي تنخرط في سلكٍ واحدٍ من الوحدة والانسجام ، والتشابه والالتحام ، وتتجلى فيها وحدة العقيدة والعبادة ، والخضوع لشريعةٍ واحدةٍ ، ويرجع الفضل في ذلك إلى أصالة التعاليم الدينية ووحدتها ، ثم إلى جهود المحدِّثين والفقهاء الذين حفظوا على هذه الأمة الثروة التشريعية وربطوها بالمنبع الأصيل ، والنظام الدِّينيِّ الموحد .

وقد جاء هذا الاجتهاد ، وتدوين الفقه ، واستنباط الأحكام الشرعية في أوانه ومكانه ، لم يكن سابقاً للزَّمن ، ولا متأخراً عنه ، وذلك ما كان تقتضيه طبائع الأشياء ، وسنة الكون ، وطبيعة هذا الدين الإنسانيِّ العالميِّ العام للأزمنة ، والأمكنة ، فكان شيئاً طبيعياً منطقياً ، كما هو الشأن في نشوء علم الصَّرف والنحو ، وقواعد اللغة العربية ، وعلوم البلاغة والبيان مؤسساً كلٌّ ذلك على كلام العرب الأولين ، واستقراء القرآن العربيِّ المبين ، وشعر العرب ، بل كان تدوين الفقه ألزم من تدوين العلوم العربية لشموله للعرب والعجم ، وكل مكلَّف في الإسلام ، ولاحتوائه على حياة المسلم كلها ، ولصلته الوثيقة بالعقيدة والعبادة ، ولأثره في الحياة الأخروية ، وما يترتب عليه من ثوابٍ وعقابٍ ، وسعادةٍ وشقاءٍ ونجاةٍ وهلاك .

كيف كان حال الناس قبل القرن الرابع؟

ولكن لا يُفهم من ذلك أنَّ الناس المعاصرين لنشوء هذه المذاهب المتميزة ، والمناهج العملية المدونة انخرطوا في سلكٍ واحدٍ من هذه

www.abulhasanalinadwi.org

المذاهب الفقهية ، وارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بأحد المذاهب ، لا يعدلون عنه قيد شعرة ، وقد أصبح المجتمع المسلم المعاصر موزعاً بين هذه المذاهب ، كان كلُّ عنصرٍ منه واقفاً تحت لواء واحدٍ ، فذلك لا يشهد به تاريخ الفقه والعلم ، ولا يتَّفق مع الطبيعة البشرية وواقع حياة المسلمين في ذلك العصر ، وإنما حدث ذلك في زمنٍ متأخر بعض التأخر ، إذا أردنا تحديده بالتقويم الإسلامي ، نستطيع أن نقول : إنَّه وقع في القرن الرابع بعد ما بلغت هذه المذاهب نضجها واكتمالها وانتشرت في مناطق خاصَّةٍ ، وساعدت على ذلك عوامل سياسيةٌ ، وإداريةٌ ، وتربويةٌ ، واقتضى ذلك واقع حياة المسلمين في هذه الأصقاع .

لندع علماً من أعلام الإسلام في القرون المتأخرة قد رزق الإنصاف ، والاتزان الفكريَّ ، وسعة آفاق النظر ، ورحابة الصَّدر ، والغوص في أعماق الحديث والفقه ، وهو حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) المشهور بالشيخ ولي الله الدهلوي ، صاحب الكتاب الفريد «حجة الله البالغة» يتحدَّث عن الوضع في الزمن السابق على القرن الرابع ، وكيف كان الناس يعملون فيما يعرض لهم من مسائل ومشاكل في حياتهم الدِّينية ، يقول في باب «حكاية حال الناس قبل المئة الرابعة وبعدها» :

«اعلم أنَّ الناس كانوا قبل المئة الرابعة غير مجمعين على التقليد الخالص لمذهبٍ واحدٍ بعينه ، قال أبو طالب المكي في «قوت القلوب» : إنَّ الكتب والمجموعات محدثةٌ ، والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد من الناس ، واتخاذ قوله ، والحكاية له من كل شيءٍ ، والتفقه على مذهبه لم يكن الناس قديماً على ذلك في القرنين الأول والثاني» «انتهى» .

أقول : وبعد القرنين حدث فيهم شيء من التخريج ، غير أنَّ أهل المئة الرابعة لم يكونوا مجمعين على التقليد الخالص على مذهبٍ واحد ، والتفقُّه له ، والحكاية لقوله ؛ كما يظهر من التتبُّع ، بل كان فيهم العلماء والعامَّة .

وكان من خبر العامة أنهم كانوا في المسائل الإجماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشَّرع ،

www.abulhasanalinadwi.org

كانوا يتعلَّمون صفة الوضوء ، والغسل ، والصلاة ، والزَّكاة ، ونحو ذلك من آبائهم أو معلمي بلدانهم ، فيمشون حسب ذلك ، وإذا وقعت لهم واقعةٌ استفتوا فيها أيَّ مفتٍ وجدوا من غير تعيين مذهب.

وكان من خبر الخاصَّة أنَّه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث ، فيخلص إليهم من أحاديث النَّبيِّ ﷺ وآثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شيءٍ آخر في المسألة من حديث مستفيضٍ ، أو صحيحٍ قد عمل به بعض الفقهاء ، ولا عذر لتارك العمل به ، أو أقوال متظاهرةٍ لجمهور الصحابة والتابعين ممَّا لا يحسن مخالفتها ، فإن لم يجد أحدهم في المسألة ما يطمئن به قلبه لتعارض النقل ، وعدم وضوح الترجيح ، ونحو ذلك رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء ، فإن وجد قولين؛ اختار أوثقهما ، سواءٌ كان من أهل المدينة ، أو من أهل الكوفة ، وكان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصرحاً ويجتهدون في المذهب ، وكان هؤلاء ينسبون إلى مذهب أصحابهم ، فيقال: فلانٌ شافعيٌّ ، وفلانٌ حنفيٌّ ، وكان أصحاب الحديث أيضاً قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له ، كالنَّسائيِّ ، والبيهقيِّ ينسبان إلى الشافعيِّ ، فكان لا يتولى القضاء ولا الإفتاء إلا مجتهدٌ ، ولا يسمَّى الفقيه إلا مجتهداً ، ثم بعد هذه القرون كان ناسٌ آخرون ذهبوا يميناً وشمالاً»[1].

القول العادل الوسط في المقلِّد الذي يقصد اتباع الرسول ﷺ أصلاً:

وينصف الإمام أحمد بن عبد الرحيم القول في مقلد أي مذهبٍ إذا كان يقصد اتباع الرسول ﷺ أصلاً ، ولكنَّه لا يستطيع أن يتوصل إلى الحكم الشرعي والثابت من الكتاب والسنة بطريقٍ مباشر لعاميَّته ، أو لانشغاله بأمور أخرى ، أو عدم توفر وسائل الاهتداء إلى النصوص ، أو القدرة على الاستنباط منها ، فقال بعد ما نقل كلام العلامة ابن حزم في الردِّ على التقليد

---

(١) حجة الله البالغة ص: ١٥ ، ١٥٣.

www.abulhasanalinadwi.org

مطلقاً ، فقال: «التقليد حرامٌ ، ولا يحلُّ لأحدٍ أن يأخذ قول أحدٍ غير رسول الله ﷺ بلا برهان:

«ليس محل قول ابن حزم فيمن لا يدين إلا بقول النَّبيِّ ﷺ ، ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحلَّه الله ورسوله ، ولا حراماً إلا ما حرَّمه الله ورسوله ، لكن لما لم يكن له علم بما قاله النَّبيُّ ﷺ ، ولا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه ، ولا بطريق الاستنباط من كلامه ، اتَّبع عالماً راشداً على أنه مصيب فيما يقول ، ويفتي ظاهراً ، متَّبعٌ سنة رسول الله ﷺ ، فإنْ ظهر خلاف ما يظنُّه؛ أقلع من ساعته من غير جدالٍ ولا إصرارٍ ، فهذا كيف ينكره أحدٌ مع أنَّ الاستفتاء والإفتاء لم يزالا بين المسلمين من عهد النَّبيِّ ﷺ ، ولا فرق بين أن يستفتي هذا دائماً ، أو يستفتي هذا حيناً ، وذلك حيناً ، بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه ، كيف لا ، ولم نؤمن بفقيهٍ أيّاً كان أنَّه أوحى الله إليه الفقه ، وفرض علينا طاعته ، وأنَّه معصوم ، فإن اقتدينا بواحدٍ منهم؛ فذلك لعلمنا بأنَّه عالمٌ بكتاب الله وسنَّة رسوله ، فلا يخلو قوله إما أن يكون من صريح الكتاب والسنة ، أو مستنبطاً عنهما بنحوٍ من الاستنباط ، أو عرف بالقرائن أنَّ الحكم في صورة ما منوطٌ بعلَّة كذا ، واطمأن قلبه بتلك المعرفة ، فقاس غير المنصوص على المنصوص ، فكأنه يقول: ظننت أنَّ رسول الله ﷺ قال: كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا ـ والمقيس مندرجٌ في هذا العموم ، فهذا أيضاً معزوٌّ إلى النَّبيِّ ﷺ ، ولكن في طريقه ظنونٌ ، ولولا ذلك لما قلد مؤمن لمجتهد ، فإن بلغنا حديثٌ من الرسول المعصوم الذي فرض الله علينا طاعته بسندٍ صالحٍ يدلُّ على خلاف مذهبه ، وتركنا حديثه ، واتبعنا ذلك التخمين ، فمن أظلَم منا ، وما عذرنا يوم يقوم الناس لربِّ العالمين؟!»[1].

مـزيـة الـمـذاهـب الأربـعــة:

ويقول الإمام في المذاهب الأربعة في رسالته الصغيرة قامةً والكبيرة قيمةً

---

(١) حجة الله البالغة ، ص ١٥٥ ، ١٦٥.

www.abulhasanalinadwi.org

أسماها «عِقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد»:

«اعلم أنَّ في الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحة عظيمةٌ ، وفي الإعراض عنها كلِّها مفسدةٌ كبيرةٌ ، نحن نبين ذلك بوجوه: أحدها أنَّ الأمَّة اجتمعت على أن يعتمدوا على السلف في معرفة الشريعة ، فالتابعون اعتمدوا في ذلك على الصحابة ، وتَـبَع التابعين اعتمدوا على التابعين ، وهكذا في كلِّ طبقة اعتمد العلماء على مَنْ قبلهم ، والعقل يدلُّ على حسن ذلك؛ لأنَّ الشريعة لا تعرف إلا بالنقل والاستنباط ، والنقل لا يستقيم إلا بأن تأخذ كلُّ طبقةٍ عمَّن قبلها بالاتصال ، ولا بدَّ في الاستنباط أنْ يعرف مذاهب المتقدمين لئلا يخرج من أقوالهم ، فيخرق الإجماع ، ويبني عليه ، ويستعين في ذلك بمن يسبقه؛ لأنَّ جميع الصناعات كالصَّرف ، والنحو ، والطبِّ ، والشعر ، والحدادة ، والنجارة ، والصياغة ، لم يتيسر لأحدٍ إلا بملازمة أهلها ، وغير ذلك نادرٌ بعيدٌ لم يقع وإن كان جائزاً في العقل ، وإذا تعيَّن الاعتماد على أقاويل السَّلف ، فلا بدَّ من أن تكون أقوالهم التي يعتمد عليها مرويةً بالإسناد الصحيح ، أو مدوَّنةً في كتبٍ مشهورةٍ ، وأن تكون مخدومةً بأن يبيَّن الراجح من محتملاتها ، ويخصص عمومها في بعض المواضع ، ويقيد مطلقها في بعض المواضع ، ويجمع المختلف منها ، ويبيَّن علل أحكامها ، وإلا لم يصح الاعتماد عليها ، وليس مذهب في هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة إلا هذه المذاهب الأربعة»[1].

الحاجة إلى الاجتهاد الفقهي وتقصير الجيل الجديد في القيام بواجبه:

وقد كثر الحديث في هذا الزمان عن الحاجة إلى الاجتهاد حتى أصبح هتافاً ، وشعاراً للتقدُّمية ، ولا شكَّ أنَّه حاجة العصر ، ومن ضرورات هذا الدِّين الذي يواكب الحياة ويقودها ، لا سيَّما وقد تقدمت المدنية ، والصناعة ، والتِّجارة تقدُّماً لم يكن يخطر بالبال ، وحدثت أساليب

(١) عقد الجيد ، ص ٢٦ ـ ٣٨.

www.abulhasanalinadwi.org

جديدةٌ ، ومعاملاتٌ تجاريَّةٌ ، وعقود تطلب حكماً فقهياً مبنياً على الأصول الإسلامية وأصول الفقه ، وفي ضوء مقاصد الشريعة الإسلاميَّة .

ولكن هؤلآء الذين ينادون بالاجتهاد في المسائل الشرعية والمستحدثات العصرية ، من قادة الفكر ، ورجال الإدارة والسياسة في الأقطار الإسلامية ، والمتخرِّجين من الجامعات الأجنبية في الغرب ، والجامعات المدنية في البلاد ، لم تثبت براعتهم ، وذكاؤهم ، وقوة إرادتهم في مواجهة الحضارة الغربية بشجاعةٍ ، وإيمانٍ ، وذكاءٍ ، وشقِّ الطريق بين مناهجها ومذاهبها ، وبين فضائلها ورذائلها ، ومعاملتها كمواد خام يصوغون منها حضارةً تتَّفق مع تعاليم الدين ، وحاجة العصر ، وطبيعة الشعوب المسلمة الشرقية ، ويركِّبون منها جهازاً يخدم الغايات التي بعثت لها هذه الأمَّة ، وينير السبيل للشعوب التي وقعت فريسةً مادِّيَّةً رعناء ، وينفضون عن كلِّ ما يأخذونه من الغرب غباراً لصق به في القرون المظلمة ، وفي حالة توتر أعصابٍ ، وقلق نفوسٍ ، ولا لزوم له في الاستفادة من هذه العلوم في هذا العصر ، إنَّهم لم يقوموا في مجال اختصاصهم بالدور الذي نيط بهم ، وفي صياغة النظام التربويِّ صياغة إسلاميَّةً حرَّةً ـ وهو عملٌ يشبه «الاجتهاد» ـ بدورهم القياديِّ والفكريِّ ، ولكن من طبيعة الإنسان القديمة التخلِّي عن تبعته ، ومطالبة الآخر بالقيام بواجبه ودوره .

رغماً عن هذه الملاحظة السريعة التي أرجو عدم المؤاخذة عليها فإنَّ الحاجة إلى الاجتهاد في المسائل الشرعية ، والمستحدثات العصرية حقيقةٌ لا غبار عليها ، ولا مجال للجدال فيها وعلى أصحاب الاختصاص في علوم الشريعة أن يقوموا بدورهم التوجيهيِّ والقياديِّ في هذا المجال ، ويستخدموا هذا الكنز الثمين ـ الذي يسمَّى أصول الفقه ، وليس له نظيرٌ في ثروات الأمم والشعوب العلمية ـ في استنباط الأحكام ، واستخراج المسائل ، فقد أصبح من زمانٍ تاريخاً فحسب ، يعرف منه طرق المجتهدين الأوائل في استنباط المسائل لا أقلَّ ولا أكثر ، ومعلومٌ أنَّ ساعة الزَّمان لا يمكن إيقافها ، ولا تعطيلها ، ولا إرجاعها إلى الماضي ، والإسلام الآن

www.abulhasanalinadwi.org

دين شعوبٍ ومجتمعاتٍ تعاصر هذه القضايا ، وتواجهها وجهاً لوجهٍ.

سبب تعطيل الاجتهاد في بعض المناطق والأدوار :

وقد درجت على الاجتهاد الأمَّة ، وعمل به العلماء في عصورٍ مختلفة ، وأمصارٍ مختلفة ، وأمثلته ونماذجه تطفح به كتب الفقه في المذاهب الأربعة ، إلا ما اعترى هذه المؤسسة (بمعناها العصري) شيءٌ من الذبول والضعف بعد الهجوم التتاريِّ الذي جفف منابع الذكاء ، والثقة بالنفس ، والصمود أمام الزحف المسلَّح وغير المسلح في نفس الشعوب التي وقعت تحت نفوذ الحكم التتاريِّ المغوليِّ ، فرأى علماء المسلمين (خصوصاً في القسم الشرقي من العالم الإسلاميِّ) الحدَّ من نشاط الاجتهاد في هذه الحقبة من الزمن ، مخافة أن يكون في صالح الحكام ، خاضعاً لمصالح سياسيَّةً وفرديَّةً ، فيضرُّ أكثر مما ينفع ، وقد يكون سبباً لتحريفٍ في الدِّين ، أو انحرافٍ جماعيٍّ في سير هذه الأمة ، وقد كان ذلك مؤقتاً ، ومؤسساً على مبدأ تقديم «دفع الضرر على جلب المنفعة» .

وقد لزم الآن فتح هذا الباب ، ولكن بشروطه المبينة في كتب أصول الفقه ، ويستحسن ألاَّ يكون فردياً (إلا إذا اقتضت الضرورة) وأن يكون جماعياً وعملاً مجمعياً «أكاديمياً» وعن تبادل الرأي في أهل الاختصاص والتأمُّل الطويل ، ونخل القضية ، وغربلتها في ضوء الكتاب والسنَّة ، واستعراض الثروة الفقهية ، والأصولية استعراضاً كاملاً حتى لا يكون في ذلك افتئاتٌ أو مؤامرةٌ ، أو خضوعٌ لقوةٍ سياسيَّةٍ ، أو حكومةٍ أنانيَّةٍ .

حدود الاجتهاد ومجالها :

وقد يبدو من كلام بعض المنادين بضرورة الاجتهاد في الطبقة المثقفة الثقافة الحديثة ، والمتحمِّسين من الشباب الجامعيِّ ، أو بعض ولاة الأمور في البلاد الإسلامية ، الدعوة إلى الاجتهاد المطلق في كلِّ قضيَّةٍ ، والأخذ بالقيم الغربية والمقاييس العصرية برمَّتها ، كأنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الإسلام ، وانقلب المجتمع البشريُّ رأساً على عقب ، وفقد كلَّ ما وصل إليه المجتهدون والفقهاء في العصر الماضي من آراءٍ ، وحصيلة

www.abulhasanalinadwi.org

دراسة ، قيمته وغناءه ، ولا يتَّفق وطبيعة هذا العصر وواقع الحياة ، وهذه وجهة نظر تغلب عليها السطحية ، والتهوُّر ، والخضوع الزائد لما نشره الأدب العصريُّ من الدعاية للتطور والتقدُّمية ، وتصوير الزَّمان تصويراً يخيِّل للشباب كأنَّه ولد من جديدٍ ، وليس شيءٌ فيه يشبه ما كان بالأمس ، وهو تصويرٌ مؤسسٌ على التخيُّل أكثر من الواقع ، وعلى تجسيم القضية ، وتفخيمها بأسلوبٍ عاطفيٍّ أكثر من منطقيٍّ واقعيٍّ .

الإسلام في عالم متغيِّر :

ويطيب لي أخيراً أن أنقل هنا ما قلته في كلمتي التي افتتحت بها ندوةً انعقدت في جامعة عليكره الإسلامية بعنوان «الإسلام في عالم متغيِّر» : Islam in Changing World .

«يفترض عموماً أنه ليس للزمن ثباتٌ أو دوامٌ ، بل إنه اسمٌ آخر للتغيُّر والتحوُّل ، ولكن ليس الأمر كذلك ، إنَّ الزمن مركبٌ من الاثنين ـ التغيُّر والاستمرار ، وإذا اختل هذا التوازن كأن يتحكم الاستمرار بالتغيُّر ، أو يتسلَّط التغيُّر على الاستمرار ، فإنَّ ذلك سينتج آثاراً خطيرةً تنعكس على المجتمع والحضارة ، وأنَّ التوازن بحاجةٍ إلى التناسب حتى أكثر من أيِّ مركَّبٍ كيميائيٍّ .

إنَّ الزمن له القدرة على التغيُّر ، ويجب أن يتغيَّر ، وذلك ليس علامة ضعفٍ ، أو نقصٍ ، إنما هو قانون الحياة ، وكما قال «إقبال» :

«إنَّ الحياة دائمة الحركة ، دائمة الانسياب ، دائمة الشباب ، وإنَّ الحياة الخالية من القدرة على النموِّ ، والتطوُّر يمكن أن تكون أيَّ شيءٍ آخر إلا الحياة» .

إلى جانب ذلك فإنَّ مقاومة التغيُّر هي ـ أيضاً ـ صفةٌ متأصِّلةٌ في الزمن ، وإنَّ مظاهر التغيُّر تبدو لنا بوضوحٍ . . وكلنا نشعركم تحول الزَّمن بشكلٍ كبير ، إنَّنا في مجريات الأمور العادية لا نوفق في الإدراك إدراكاً تامَّاً للصِّراع الذي يقوم به الزمن ، فشاهدوا ليحافظ على خواصه الجيدة والسليمة وطبيعته وصفته الحقيقية ، وإنَّ ذلك يتطلَّب مجهراً خاصاً .

www.abulhasanalinadwi.org

خذ النهر الذي يمثل نموذجاً مثالياً للحركة. . ما من موجتين من أمواجه متماثلتان على الإطلاق ، وبالرَّغم من أمواجه العابرة ، فإنَّه موجودٌ مكانه منذ آلاف السنين ، محتفظاً بكلِّ خصائصه ، واسمه ، واتجاهه ، فأنهار دجلة والفرات ، والكنج Ganga ، وجمنا[١] كلُّها هي نفسها منذ أن كانت في العصور الغابرة.

إنَّ الزمن ساكنٌ بالإضافة إلى كونه متحركاً. . . كلا هاتين الصفتين جوهريتان بالنسبة له ، فهو ـ بدون أيٍّ منهما ـ لا يستطيع الاحتفاظ بفائدته بنفس الطريقة ، لأنَّ القوى السالبة والموجبة تعمل عملها في الأشياء الحيَّة وغير الحيَّة ، الموجودة في العالم ، وعن طريق أفعالها وردود فعلها تحقق هذه الأشياء قدرها».

الدِّين هو حارس الحياة:

باعتباري مؤمناً وتابعاً للدين الإسلاميِّ لا يمكنني ـ أبداً ـ أن أقبل وضعاً يستجيب فيه هذا الدين لكلِّ تغيُّرٍ ، ولا يمكن أن توافقوا أنتم على ذلك أيضاً؛ لأنَّ الدين ليس مقياس حرارة يقتصر عمله على تسجيل درجة الحرارة ، ولا هو بالأداة التي ترصد اتجاه هبوب الرياح. لا يمكن تعريف الدين بهذه العبارات ، ولا يمكن أن يصير إلى أداةٍ آليَّةٍ غريبةٍ ، وليس بيننا واحدٌ يريد من الدِّين أن يعمل كسجلٍ لتغيرات الأزمنة ، وإنَّ ديناً وضعياً مزعوماً لا يمكن أن يتحمَّل هذا الوضع ، فكيف بدين منزَّلٍ من السَّماء؟!

إنَّ الدين يقرُّ التغيُّر كحقيقةٍ واقعةٍ ، ويعطي أكمل مجالٍ لسير الأمور من أجل تحولٍ صحيحٍ سليم.

الدين يتقدَّم مع الحياة يداً بيدٍ ، ولا يواكبها فقط كتابع لها. . ووظيفته هو أيضاً أن يميِّز بين تغيُّرٍ سليمٍ ، وآخر غير سليمٍ ، وبين نزعةٍ هدَّامةٍ وأخرى بناءةٍ. ويجب أن يقرر الدِّين فيما إذا كان التحوُّل نافعاً ، أو ضاراً بالبشرية ، أو بأتباعه على الأقلِّ.

---

(١) نهران عظيمان من أنهار الهند.

www.abulhasanalinadwi.org

وبينما يتمشَّى الدِّين مع الحياة الديناميكية جنباً إلى جنبٍ من جهةٍ ، فإنَّه يعمل حارساً ، وحامياً لها من جهةٍ أخرى ، وتجب عليه مهمة المراقبة ، والضبط أيضاً .

وليس من مهمة الوصي أن يدعم كلَّ ما يفعله القاصر الموضوع تحت وصايته ، ويؤيد كلَّ ميوله الجيِّدة منها والسَّيِّئة ، أو أن يصادق بختم الموافقة على كل شيءٍ يسعى وراءه . . . بل إنَّ الدِّين يمتلك ختماً واحداً ، وحبراً واحداً ، ويداً واحدةً فقط . . . وليس من شأنه أن يلصق طابعه على أيِّ وثيقةٍ ، أو صكٍّ .

بل يجب عليه أن يميِّز ويختار ، أجل إنَّه يفحص (الوثيقة) أولاً ثم يصدر حكمه . . فإن وجد فيها خطأً ، أو ضرراً حاول الدين أن يتركها برفقٍ ـ إذا أمكن ـ أو بقوَّةٍ إذا اقتضى الأمر ذلك ، وإذا عُرضت عليه وثيقةٌ واعتبرها ضارةً بالجنس البشريِّ ؛ فهو لا يمتنع عن تصديقها وختمها فقط ، بل يكافح لمقاومتها ، وهنا يكمن الفرق بين الدِّين والأخلاق ، فالدِّين يرى من واجبه ومسؤوليته ضبط النزعة الخاطئة وردَّها ، بينما تكتفي الأخلاق بالإشارة إليها وإظهارها .

وبهذه الدِّقة والعمق ، والشعور بالأمانة والمسؤولية ، والاطِّلاع على طبيعة هذا الدين ورسالته ، وطبيعة العصر الذي نعيش فيه ، وتركيبه الدقيق ، وجمعه بين النموِّ والتطوُّر والاختلاف والتغيُّر ، وبين الثبات والصمود ، والاحتفاظ بالقديم الصَّالح ، يمكننا أن نفي بحاجة الفقه الإسلاميِّ ـ بمعناه الواسع العام ـ إلى التطوير والتوسيع ـ لا إلى التمطيط والتمزيق ـ ونفي بحاجة المجتمع الإسلاميِّ إلى العمل بأحكام الإسلام ، وتعاليم الدين في عصرٍ حضاريٍّ منظَّمٍ متوسع كهذا العصر ، وحياةٍ تتطوَّر بسرعةٍ ، وتتقدَّم بسرعةٍ كهذه الحياة ، وعلى الله قصد السبيل .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلام والعلم الحديث

هذه المحاضرة ألقاها العلامة النَّدوي في جامعة التكنالوجيا بمدينة كوالالمبور بماليزيا ، أمام نخبةٍ من علماء وأساتذة العلم والحديث ، ومجموعةٍ كبيرةٍ من أساتذة الجامعة وطلابها ، وذلك في اليوم ٧/ من شهر أبريل سنة ١٩٨٧ م.

تقدِّم هذه المحاضرة نقلاً من الشَّريط المسجَّل.

www.abulhasanalinadwi.org

إخواني أساتذة الجامعة وطلبتها والدارسين فيها! تعلمون جميعاً ، بل يؤمن كلُّكم أن القرآن هو كتاب الله المنزَّل من السماء ، وهو كتاب عقيدةٍ وعبادةٍ ، وهو الكتاب الذي يربط الخلق بالخالق ، ويبيِّن للخلق كيف يُرضون الخالق ، وكيف يتقرَّبون إليه ، وكيف ينالون رضاه ، ويستحقون رحمته ، لذلك فإنَّ القرآن ليس كتاب هندسةٍ ، ولا كتاب صناعةٍ يعلم الصناعات ، أو يشير إلى العلوم التكنالوجية ، إنَّه لا يذكر فقط أنَّ الله خلق الزجاج ، وخلق الحديد ، لا بل يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ إنَّ هذا التعبير ، ونسبة الفعل إلى الله تبارك وتعالى تدلُّ على أنَّ للحديد أهميةً ومكانةً ، ثم من المعلوم أنَّ الحديد يستخرج من المعادن ، ويولد ، ويتكوَّن في طبقات الأرض ، ويستخرج من المعادن ، فكيف قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] معنى ذلك أن قدرة الله تناولت الحديد ، واتجهت إلى الحديد ، فخلقه الله في كميَّةٍ كبيرة ، وفي قوَّةٍ عظيمة ، ولفائدة جليلة ، وفي نفعٍ عامٍّ ، فإنَّ الله سبحانه يضيف صيغة الإنزال إلى الكتب السماوية وإلى النِّعمة الكبيرة ، ولكن نفس التعبير جاء للحديد ، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] يعني: كان وجود الحديد بإرادة الله تعالى ، وإرادته عاليةٌ قاهرةٌ غالبةٌ ، وقادرةٌ على كل شيءٍ ، فالتعبير يدلُّ على أنَّ للحديد أهميةً ، ومكانةً ، وأنَّه شيء قد اتجهت إليه إرادة الله تبارك وتعالى ، فخلقه كأنه أنزله من السماء ، فيقول: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وهذا تعبيرٌ قرآنيٌّ ، ولي مشاركةٌ باللغة العربية ، كما أشار إلى ذلك الذي تولى تعريفي ، وذكر أساتذي ، وأكثرهم من العرب ، ولكنِّي أقول بسبب معرفتي للغة العربية وشغفي بها: إنَّ التعبير: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] هذا تعبير قرآنيٌّ معجزٌ ، ومهما قيل: فيه بأس شديد تصنع منه الأسلحة ، تصنع منه الآلات ، تصنع منه المفاتيح ، ولكن لم يُفدْ شيئاً من هذا المعنى الذي في قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] لأن كلمة البأس بليغةٌ جدّاً ، وجامعةٌ ، تشمل الحروب ،

www.abulhasanalinadwi.org

وتشمل الدفاع ، وتشمل ما يمنع ، وما فيه شوكة ، وصولةٌ ، وقوةٌ ، ولذلك قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد: ٢٥] ثم قال: ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد : ٢٥] فجعلها نكرةً ولم يذكر منافع خاصَّة ، ولو ذكر منافع خاصَّة كان خاصَّة بعصرٍ دون عصرٍ ، وبلدٍ دون بلدٍ ، ولكن مهما تقدَّم علم التكنالوجيا ، ومهما تقدَّم علم الصناعة ، ومهما تقدَّم فنُّ الحرب والاستراتيجية ، فإنَّ الآية تشمل كلَّ هذا؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد: ٢٥] لأنَّ الفوائد لم يحصرها الله تعالى ، ولم يعدَّها عدَّاً ، فهذه قطعة قرآنيةٌ رائعةٌ تستحق التأمل ، ونحن نعرف ما نشتغل به ، فإذا كانت بيئتنا حسنةً ، وإذا كانت جامعة تكنالوجية في أيِّ بلدٍ أنشأها المسلمون ليكونوا أقوياء ، ليكونوا علماء ، ليكونوا عارفين بأسرار الله تبارك وتعالى ، أسرار قدرة الله تعالى ، ويستعملوها لصالح الإنسانية ، ويستخدموها لسعادة البشرية ، فيكون ذلك في محلِّه.

لقد كان موقف رسول الله ﷺ نفس موقف القرآن من العلوم ، ومن الطَّاقات ، ومن الوسائل والآلات ، وهو أوَّل نبيٍّ وآخر نبيٍّ كان يعرف قيمة العلم ، وكان حريصاً على أن يتعلم الناس ، ويقرؤوا ، ويكتبوا مع أنه كان أمِّيّاً ، ولكنه كان حريصاً على أن يتعلَّم المسلمون ، فقد جاء في السيرة النَّبويَّة والتاريخ الإسلاميِّ أنَّ أسارى بدر منهم من كان لا يملك ما يفتدي به ، فجعل الرَّسول ﷺ فديته أن يعلِّم الكتابة عشرةً من الأطفال ، ويعلم عشرةً من المسلمين ، يعلمهم الكتابة والقراءة ، وكان يعرف قيمة الأسلحة الحربية ، وقيمة ما يدافع به الإنسان عن نفسه ، وقد جاء في حديثٍ معناه أنَّ الرسول ﷺ قال: «ارموا بني إسماعيل فإنَّ أباكم كان رامياً». وقال: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا» أو قال: «قد عصى».

فليس من الدين ، وليس من الزهادة ، وليس من التقدُّم الروحيِّ ، وليس من الصلاح والتقوى أن يكون المسلم جاهلاً ، وأن يكون المسلم عازلاً ضعيفاً ، وقد جاء في حديث: «المؤمن القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خير». ولكن القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف.

www.abulhasanalinadwi.org

أنا مسرور جداً أنَّ في هذا البلد المسلم ، وفي هذا الشعب المسلم تقوم مثل هذه الجامعة التي تعنى بالعلوم التكنالوجية ، ولكن المهم يا إخواني أن نتعلم ذلك بنيّــةٍ صالحةٍ ، أن نكون مخلصين في تعلُّمنا ، حتى يكون لنا أجر تعلم العلوم النافعة التي تنفع الناس في الدنيا والآخرة ، فالذي ينوي أن يتعلم هذا العلم ، ويدرس في هذه الجامعة ليخدم المسلمين ، ويخدم الإسلام ربما يكون أفضل من ذلك الذي يتعلَّم في جامعةٍ دينيَّةٍ خالصة ، ولكن نيته أن يباري بعلمه العلماء والسفهاء ، ومن الأحاديث المشهورة: «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله؛ فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأةٍ ينكحها ، أو يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». وإن الإمام البخاريَّ أمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل افتتح كتابه بهذا الحديث ، فأول شيءٍ : النِّيَّة ، يعني: أن تكون نيتكم ألا تتعلموا هذه العلوم لتملؤوا بطونكم ، وتتهيأ لكم بها وسيلة المعاش ، أو تولوا وظيفة فقط ، هذا صحيحٌ جائزٌ مباح ، ربما يكون فيه الثواب ، ولكن انووا أنكم ستنفعون بهذه العلوم التكنالوجية المسلمين والنظام الإسلامي والمجتمع الإسلامي ، فالشيء الأول والمهمُّ: النِّيَّة. كان المسلمون أساتذةً في جميع العلوم ، كانوا أساتذةً العالم في علم الطبيعة ، وفي علوم الرياضيات ، وفي الكيمياء ، وكان منهم حكماء ، وفلاسفةٌ مثل الشيخ أبي علي ابن سينا ، وابن الهيثم ، هؤلاء كلهم كانوا أساتذة الغرب ، ومن الأندلس الإسلامية العربية التي يسمُّونها الآن أسبانيا ، من أسبانيا المسلمة العربية انتقلت العلوم والتيار العلميُّ والفكريُّ إلى الغرب كلِّه ، والمسلمون هم الذين قدموا للعالم علم الاستقراء كما اعترف به علماء الغرب ، كلُّهم يعترفون أن «باكون Bacon» الذي ينسب إليه أنَّه هو الداعي إلى الاستقراء كان تلميذاً على الذين خرجوا من أسبانيا ، والذين درسوا في أسبانيا ، وعلم الاستقراء خلق هذا التيار العلميَّ ، فأقبل الناس على الاطلاع على الجزئيات وبالاستقراء تقدَّمت أوربا ، ووصلت إلى ما وصلت ، وقد اعترف بذلك خبراء التاريخ وخبراء العلم ، وقالوا: إنَّ أوربا إنما حدثت فيها ثورةٌ عقليةٌ

www.abulhasanalinadwi.org

علميةٌ بعد ما أخذت علم الاستقراء من الأساتذة العرب ، فكان المسلمون الأساتذة ، وبقي العالم عالةً عليهم قروناً كثيرة ، كان علماء الغرب عالةً على المسلمين يقتبسون منهم العلوم ويتلقون منهم التجارب والخبرات ، ولكن بعد ذلك حدث غير ذلك ، يعني : انقلب التيار ، وأصبح المسلمون سرى فيهم الكسل ، ودبَّ إليهم النوم ، دبَّت إليهم الغفلة ، وصاروا ملوكاً مترفين ، وأغنياء وأمراء ، فانتقلت الإمامة في العلوم النافعة المفيدة من الشرق المسلم المؤمن بالله تبارك وتعالى إلى الغرب الملحد ، وهذا كان شؤماً في حقِّ الإنسانية ، ولما تولَّى الغرب الرئاسة في العلوم كان من واجب المسلمين أن يتَّجهوا إلى هذه العلوم ، فإنَّ الحكمة ضالة المؤمن ، حيث وجدها فهو أحقُّ بها ، كما جاء في الحديث ، فالمسلمون أحقُّ بهذه الحكمة ؛ لأن يستخدموها لسعادةِ الإنسانية ، ولصالح العالم كلِّه ، ليس لصالح أوربا ، ولا لصالح المعسكر الشرقيِّ والمعسكر الغربيِّ فقط .

فلما انتقلت الإمامة إلى الغرب كان من واجب المسلمين في البلاد الإسلامية المجاورة لأوربا أن يتعلموا من الغرب ما ينفعهم ويصبغوه بصبغةٍ إسلامية ، فيخضعوه لصالح المسلمين ، ولغاياتٍ صالحةٍ ، لا ليتنعَّموا ، ويربحوا ، ويجلبوا أموالاً كثيرةً ، وكان لا بدَّ أن تكون لهم شخصيةٌ مستقلةٌ في مجال هذه العلوم كذلك ، فيجب أن يكون عندنا بارعون أصحاب اختصاص ، يجب أن يكون عندنا من يصنع القنبلة الذرِّية ، لأنَّ هذا يعدُّ من قبيل ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] فيجب علينا أن نعدَّ للأعداء ما يرهبون به ، ولا يجرؤوا علينا ، فأنا مسرور جداً بقيام مثل هذه الجامعات في العالم الإسلامي إذا كانت في باكستان ، إذا كانت في مصر ، إذا كانت في السعودية فعشر مرات أهلاً وسهلاً ، وإذا كانت في بلدنا المسلم هذا ، في ماليزيا فمرحباً ، وأنا مسرور كذلك ممن قد انتسبوا إلى هذه الجامعة ، وهم يأتون إلى الجامع أيضاً ، جمعوا بين الجامعة والجامع ، وقلَّما يوجد من يجمع بين الجامعة والجامع ، والذين يجمعون بين الجامعة والجامع هم الذين يعملون بقول الله تعالى : ﴿ يَقُولُ

www.abulhasanalinadwi.org

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] فنعم هذا ، حينما دخلت هذا المسجد في صلاة المغرب وجدت هنالك أن أكثر المصلين من طلبة الجامعة ، فما أحسن إذا اجتمع الدين والدنيا معاً !

وأرجو أن يوجد هنا في هذه الجامعة التعاون للجامعة مع الجامع ، فأنا مسرورٌ بهذه الرؤية ، وأرجو أن تكونوا بارعين فائقين حتى تنالوا «جائزة نوبل» وهذا يكون بشارةً للمؤمنين ، ويفرح المسلمون في أنحاء العالم على أن ينال المسلم الجائزة ، ولا نعرف في هذا إلا اسماً واحداً ، أو اثنين ، فيجب أن يناله عشرات من المسلمين في العلوم الرياضية ، في الطاقة الذرِّية ، وفي العلوم الكيمياوية ، وأنا أحثكم يا أبنائي! يا تلاميذ الجامعة على أن تخترعوا شيئاً جديداً ، وأن تفتحوا منفذاً جديداً في العلوم ، فيكون لكم مركزٌ عالٍ ممتازٌ حتى يستحقَّ بعض زملائكم أن ينالوا هذه الجائزة .

هنالك في العالم الإسلاميِّ مؤلفون ، هنالك أدباء يعرف فضلهم العلماء الكبار في أوربا وأمريكا ، هنالك علماء الدين ، هنالك الفقهاء ، ولكنَّ العباقرة المجتهدين في العلوم العصرية قليلون نادرون ، فأرجوا أن تتخرجوا من هذه الجامعة حتى تشرفوا العالم الإسلاميَّ والمسلمين في شبه القارة الهندية ، إذا سمع غير المسلمين في بلادنا مثلاً أنَّ شاباً مسلماً في ماليزيا نال جائزة نوبل ، فهم ينظرون إلى المسلمين في الهند باحترامٍ وتقديرٍ ، لأنَّه فردٌ من أفراد هذه الأمَّة ، فلا تستهينوا بقيمتكم ولا بنيتكم ، فإنَّ العبرة بالنية ، والإخلاص ، فإذا كنتم مخلصين في دراستكم لهذه العلوم تنالون من الله تبارك وتعالى في هذه الدنيا وفي الآخرة من الأجر ما يناله كثيرٌ من العلماء والزُّهاد .

أكتفي بهذا ، وأدعو الله لكم بالنجاح ، وأن يشرف بكم الإسلام ، وأن يبيض وجه المسلمين ، وهم قد فقدوا الشيء الكثير مما كانوا يتمتعون به من شرفٍ ومكانةٍ وعزَّةٍ ، فالله على كل شيءٍ قديرٌ ، والنية الخالصة مع بذل المجهودات سرُّ النجاح ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ

www.abulhasanalinadwi.org

سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤١] يعني: ثلاثة أشياء ليس للإنسان إلا ما سعى، فالموئل الأول هو السعي، ثم لم يقل إنَّ سعيه سيرى، بل قال: سوف، وسوف للتأكيد، فإذا لم يكن النجاح في وقتٍ قريبٍ فلا تيأسوا، ثم قال: إنه سيجزيهم الجزاء الأوفى ولم يقل الجزاء فقط بل الجزاء الأوفى، فتدبَّروا.

أكرمنا الله بالتوفيق والإخلاص والسَّداد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الإمام مالك، وكتابه الموَطَّأ!

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في مؤتمر الإمام مالك الّذي عقد في مدينة أبو ظبي بإشراف سماحة القاضي الشيخ أحمد عبد العزيز آل مبارك رئيس القضاء الشَّرعيِّ في أبو ظبي.

نقدِّم هذه المحاضرة هنا نقلاً من الشريط المسجَّل.

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسلام على سيِّد المرسلين وخاتم النَّبيِّين ، محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

حضرة صاحب السعادة القاضي أحمد بن عبد العزيز المبارك حفظه الله :

حضرات السادة الفضلاء ، الأساتذة الأجلاَّء ، والإخوان الأعزاء :

يسعدني ، ويشرِّفني أن أكتب هذه العجالة لإحراز شرف الإسهام في المؤتمر الذي يتشرف بالنسبة إلى إمام دار الهجرة ، الإمام الجليل مالك بن أنس عليه رحمة الله ورضوانه ، ويزيدني شرفاً وسعادةً أن أقوم بهذه المهمَّة الشريفة في مدينة الرَّسول ﷺ ، ودار هجرته ، ووفاته ، وفي بلد الإمام مالك نفسه ، فيكون ذلك نوراً على نور ، ويزيدني سروراً على سرور ، وإن كان ذلك في حالة الارتجال ، وعلى تشتُّت بالٍ ، وتزاحم أشغال .

اسمحوا لي أيها السَّادة أن أبدأ هذا الحديث بمقتطفاتٍ من الجزء الأول من سلسلة كتابي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لأنَّها تلقي أضواء على أهمِّيَّة العمل الذي تمَّ على أيدي مدوني الحديث الشريف ، ومدوني الفقه الإسلاميِّ في فجر الإسلام ، وفي مقدِّمتهم ، وعلى رأسهم الأئمة الأربعة والمجتهدون ـ وفي طليعتهم الإمام مالك ـ وعلىٰ الأخطار التي كانت تهدِّد بقاء الإسلام ، كدينٍ عمليٍّ وتشريعٍ خالدٍ عالميٍّ ، وقانونٍ واضحٍ مرسومٍ للعبادات والمعاملات ، ونظامٍ منسَّقٍ للعلاقات ، والمدنية ، والحياة الاجتماعية ، أخطارٍ تعرضت لها أممٌ وديانات ، فقد فيها تدوين تعليمات أنبيائهم ، وسيرهم ، وحديثهم ، أو تأخرت فيها عملية تدوين الفقه والأحكام في ضوء الكتب السماوية ، والتعليمات النبوية ، كما كان الشأن في الديانة الإسرائيلية ، والديانة المسيحية ، فضلاً عن الديانات التي فقدت الكتب السماوية وتعليمات الأنبياء الموثوق بها في عهدها الأول ، وجُهِل

www.abulhasanalinadwi.org

تاريخها ، وأحاطت بها هالاتٌ من الأساطير والافتراضات ، والشائعات والخرافات ، وإليكم ما سبق في بيانه باختصار :

«لقد خرجت هذه الأمَّة ـ بفضل الدعوة الإسلامية التي عمَّت الآفاق ، وتخطَّت الحدود ، وبفضل الجهاد الذي أخضع نصف المعمورة للإسلام ـ من طور البداوة والبساطة والانحصار في دائرةٍ ضيِّقةٍ جغرافيةٍ ، ومجتمعٍ صغيرٍ ، إلى طور الإمبراطورية العظيمة .

وقد كانت قارة إفريقية تحت وصاية الإسلام وإدارته ، وتدخل في هذه الإمبراطورية الإسلامية أقطارٌ وبلادٌ من أرقى البلاد في العالم ، وأعرقها في المدنية والعلوم .

وكانت هذه الحكومة العظيمة تواجه بطبيعة الحال تطوراتٍ كثيرةً سريعةً بحكم الاختلاط بالعناصر المختلفة ، والمدنيات الكثيرة ، وتواجه شؤوناً جديدةً ، ومشاكل عديدةً في التجارة ، والزراعة ، والجزية ، والخراج ، وتواجه من مسائل البلدان ، والأقطار التي يفتحها الإسلام ، ويحكمها المسلمون الشيء الكثير ، وتجد من عادات أهلها ، وتقاليدهم ، واجتماعهم ما يتنافى مع الإسلام كثيراً ، ويتَّفق معه قليلاً ، وكان الحكم في كلٍّ ذلك ممَّا لا يمكن تأخيره ، أو الإعراض عنه ، وكانت هذه النواحي كلُّها تتطلب الحلَّ الحاسم السريع ، وتمتحن كفاية هذه الأمَّة الفكرية ، وصلاحية التشريع الإسلاميِّ لمسايرة العصر ، والمدنية ، وشؤون الاجتماع البشريِّ ، وكانت الحكومة في حاجةٍ ملحَّةٍ إلى دستورٍ شاملٍ كاملٍ ، وكان الجهاز الإداري لا يمكن إيقافه عن السَّير ، أو تعطيله عن الحركة في انتظار التشريع .

فإذا تكاسل العلماء في الاجتهاد والاستنباط ، وآثروا الراحة على العمل والكدح ، أو ضعف إنتاجهم ، وجمدت قريحتهم ، التجأت الحكومة ـ تحت وطأة حاجات الحياة العملية ومطالبها ـ إلى أن تقتبس النظم الرومية والفارسية ، وتطبق القانون الرومانيَّ ، والإيرانيَّ على المملكة الإسلامية : فكان ذلك يجرُّ على هذه الأمة شقاء طويلاً ، لأنَّها تُحرَم سعادة القانون

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلاميِّ ، وبركات المجتمع الإسلامي ، ويُكتب عليها أن تعيش مسلمةً متديِّنـةً في مساجدها ، جاهليةً ، أو لا دينيَّةً في بيوتها ، وأسواقها ، ومحاكمها ، كما هو الواقع في البلاد والدول التي ديانتها الرَّسمية النصرانية ، وليس عندها تشريعٌ مسيحيٌّ ، وكما هو واقعٌ ـ مع الأسف والخجل ـ في البلاد والدول التي تدين بالإسلام في العقيدة والعبادة ، ولا تدين به في التشريع والقانون ، وإذا ساغ ذلك في النصرانية التي لا تملك الثروة الدستورية ، ولا تلحُّ على تطبيق الدين على الحياة ، فإنَّه لا يسوغ في الإسلام الذي هو دينٌ ودولةٌ ، وعقيدةٌ وسياسةٌ ، وعبادةٌ واجتماعٌ ، فكانت الأمَّة تجتاز مرحلةً خطيرةً دقيقةً في حياتها ، وقد وقفت على مفترق الطرق ، وكانت الغلطة الواحدة ، أو العثرة الخفيفة ، كافيةً لقطع صلتها عن الحياة الإسلامية ، والاجتماع ، والنظم الإسلامية ، وتفرض على الأجيال القادمة أن تعيش حياةً ليس فيها إلا نصيبٌ ضئيلٌ.

وكانت الأمَّة لا تستطيع أن تتفادى هذا المصير المؤلم المظلم ، إلا إذا كانت مصادر التشريع ، ومنابع الفقه الإسلاميِّ ، محفوظةً من الضياع ، ميسورةً للانتفاع ، وأهم هذه المصادر ـ بعد القرآن الذي لا يخاف عليه من الضياع والتحريف ـ هو «الحديث» الذي هو مصدرٌ منظمٌ ، وثروةٌ زاخرةٌ لاستنباط الأحكام ، ولا يعرف التاريخ سيرةً نبويَّةً أوثق من هذه السيرة ، وأحراها بالاعتماد والتعويل ، ويصحُّ أن يسمَّى سجلّ الوقائع اليومية ، وشبه (مذكرات) ـ إذا صحَّ هذا التعبير ـ لمدة ثلاثٍ وعشرين سنةً قضاها النَّبيُّ ﷺ بعدما أكرمه الله بالنُّبوَّة على ظهر الأرض ، ترينا كيف كان الرسول ﷺ يعيش في هذه الحياة ، وكيف يقضي نهاره ، وليله.

ثم إنَّ الحديث ميزانٌ عـادلٌ يستطيع المصلحون فـي كلِّ عصرٍ أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث ، الذي هو يملأ هذا الفراغ ، الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لابدَّ منها في السنن الإلهية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ

www.abulhasanalinadwi.org

وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] فلولا الحديث الذي يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتَّزنة ، ولولا التوجيهات النَّبويَّة الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلاميَّ لوقعت هذه الأمَّة في إفراطٍ وتفريطٍ ، واختلَّ الاتزان ، وفقد المثال العمليُّ الذي حثَّ الله على الاقتداء به ، بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وبقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] والذي يطلبه الإنسان ، ويستمدُّ منه الثقة والقوَّة في الحياة ، ويقتنع بأنَّ تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسورٌ وواقعٌ.

كذلك كانت الأمَّة في حاجةٍ ملحَّةٍ إلى حركة تدوين الفقه ، وقد اضطرت التطورات التي طرأت على المجتمع الإسلاميِّ ، واتساع رقعة المملكة الإسلاميَّة ، وتعقد المدنية ، وطرافة المسائل ، والحوادث ، وانشعاب الحياة إلى استنباط المسائل ، واستخراج النتائج ، وترتيب الجزئيات والفتاوى.

وقد خرج الإسلام من الجزيرة العربية ـ حيث الحياة بسيطة والمدنية محدودة ـ إلى بلادٍ مخصبةٍ واسعةٍ ذات المدنيات القديمة ، والآفاق الواسعة ، كالشام والعراق ، ومصر ، وإيران ، وقد توسَّعت الحياة الاجتماعية ، وتعقَّد نظام التجارة والإدارة ، وقد كانت مهمَّة تطبيق أصول الإسلام على هذه المسائل والحوادث ، وإخضاع الحياة المدنية لروح الإسلام وأسسه تطلب ذكاءً فائقاً ، وفهماً دقيقاً ، واطِّلاعاً واسعاً على المجتمع العصري الذي كان المسلمون يعيشون فيه ، وإلماماً كافياً بعلم النفس ، والطبيعة البشرية ، وخبرةً واسعة بطبقات الأمَّة ونواحي الحياة العامَّة ، يضاف إلى ذلك الاطِّلاع الواسع على تاريخ الإسلام ، والوقوف على مصادره وأصول التشريع الإسلاميِّ ، مع الرسوخ والتضلُّع في اللغة العربية التي نزل بها القرآن ونطق بها الرَّسول.

لقد كان من لطف الله بهذه الأمة ، وكان من التيسير ، أن قيَّض لهذه المهمة الجليلة رجالاً يُعدُّون من الأفذاذ والنوابغ الذين أنجبتهم الإنسانية ،

www.abulhasanalinadwi.org

فقهاً وأمانةً ، وإخلاصاً ، وكفايةً ، كان منهم هؤلاء الأئمة الأربعة (أبـو حنيفـة م ١٥٠ هـ ، ومـالـك م ١٧٩ هـ ، والشّـافعـي م ٢٠٤ هـ ، وأحمد بن حنبل م ٢٤١ هـ) الذي قدِّر لفقههم أن يعيش إلى هذا اليوم ، ويخضع له العالم الإسلاميُّ ، وقد فاق في فهمهم الدقيق الواسع ، ووقفوا حياتهم ، واستعملوا مواهبهم بسخاءٍ في تكوين هذه الثروة الفقهية والقانونية ، التي لا تعادلها ذخيرةٌ فقهيَّةٌ في العالم ، والتي لا تزال مرجعاً ومادةً واسعةً للتشريع لهذا العصر ، وقد توفَّر هؤلآء على هذه الخدمة التي تدين لها الأمة ، ويدين لها العالم ، وآثروها على كلِّ راحةٍ ولذةٍ وجاهٍ ومنصبٍ في الحياة ، وقد خاب ملوك عصرهم وأمراؤه ، وخابت الأطماع ، والإغراءات أن تشغل قلوبهم ، أو تتوزع عقولهم ، وأوقاتهم ، وقد عُرِض على أبي حنيفة منصب القضاء الذي كان منصباً كبيراً ، وشرفاً عظيماً مرَّتين ، فرفض ، وامتنع ، ومات في السجن ، وقد ضرب مالك مئتي سوط لأجل مسألة جهر بها ، وخلعت كتفاه ، وهي أنَّ طلاق المكره ليس بشيءٍ ، وقد قضى الشافعيُّ معظم حياته في عسر وضنكٍ ، وبذل صحته وقوَّته في استنباط الأحكام وتدوين الفقه ، وعارض أحمد بن حنبل اتجاه حكومة هي كبرى الحكومات ، وأقواها على ظهر الأرض في عصره ، ودافع عن السنَّة والفكر الصحيح حتى عُوقب ، وعُذِّب ، وضُرب ، وسُجن .

وقد أنتج كلُّ واحدٍ منهم ثروةً علميَّـةً ، وخلَّف تراثاً فقهياً ينوء بالمجامع العلمية ، والمؤسسات الكبيرة في هذا العصر ، فقد روي أنَّ أبا حنيفة قال ستين ألف مسألة ، وقال بعضهم : ثلاثة وثمانين ألفاً : ثمانية وثلاثين ألفاً في العبادات ، وخمسةً وأربعين ألفاً في المعاملات ، وقد ذكر شمس الأئمة الكردري : أنَّ عدد المسائل التي دونها يبلغ إلى ستمئة ألف ، ومهما كان العدد مبالغاً فيه ، فلا شكَّ أنه أنتج ثروةً فقهيةً ضخمةً ، هي أساس هذا الفقه الحنفي الذي استطاع أن يحكم المساحة الكبرى في المملكة الإسلامية أيام ازدهارها ، ويكون دستور مملكةٍ هي أرقى المملكات في عصرها ، وهي الدولة العبَّاسيَّة .

وكذلك شأن مالك في الفقه ، فكتابه (المدوَّنة) الذي هو مجموعته

www.abulhasanalinadwi.org

الفقهية ، تبلغ نحو ستةٍ وثلاثين ألف مسألة ، و«كتاب الأمِّ» الذي هو من إفادات الشافعي ، مجموعةٌ فقهيةٌ ضخمةٌ تقع في سبعة أجزاء ، وقد جمع أبو بكر الخلال (م ٣١١ هـ) مسائل الإمام أحمد في أربعين مجلداً ، سماه : «الجامع لعلوم الإمام أحمد» .

لقد كان وجود هؤلاء الفقهاء المجتهدين والمشرعين في قرون الإسلام الأولى ، برهاناً ساطعاً على صلاحية هذه الأمَّة للبقاء والانتشار ، وقد وجدت بفضل مساعيهم ونبوغهم وحدة الأمَّة العلميَّة ، في اجتماعها ، ومعاملاتها ، وسياستها المالية ، وهذه الوحدة عاملٌ مهمٌّ من عوامل الوحدة الدينيَّة والفكريَّة ، وبذلك أمنت هذه الأمة من تلك الفوضى الاجتماعية والتشريعية التي أصيبت بها الأمم والديانات في عهدها الأول ، والتي تدرَّجت بها إلى حياةٍ لا دينِّيةٍ ، تسير فيها على النظم اللادينية ، أو تقتبس التشريع الأجنبيَّ الثائر على روح دينها ومبادئه ، وألجأتها إلى التمسُّك بمبدأ «فصل الدين عن السياسة» الذي هو الخطوة الأولى الحاسمة إلى الإلحاد والارتداد[1] .

أما كتاب الموطَّأ للإمام مالك ، فنكتفي في بيان فضله ومنزلته في مجاميعِ الحديث الشريف ، ومصادر الفقه ، وما يمتاز به من قبولٍ من الله ، وإقبالٍ من أهل الصناعة والاختصاص في فنَّي الحديث والفقه ، بما قاله حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ وليِّ الله الدهلويِّ (م ١١٧٦ هـ) الذي انتهت إليه رئاسةٍ تدريس الحديث الشريف ، ونشره في ربوع الهند ، وليست المدارس التي ظلَّت معنيةً بخدمة الحديث تدريساً وتخريجاً وتربيةً لحملته وناشريه ، وحركة التأليف والشرح ، وحركات الإصلاح والتجديد ، ونشر السنَّة السنية ، والردِّ على البدع ، وتقاليد الجاهلية الهندية ، والقيام بالجهاد الإسلامي والنهوض

(١) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول مقتبساً من ص ٩٤ إلى ص ١١٣

www.abulhasanalinadwi.org

بالمسلمين ، إلا امتداداً لدوره في تاريخ الهند والعالم الإسلاميِّ في عصره[١] .

يقول رحمة الله عليه في مقدمة كتاب المصفى شرح الموطأ ، أما بعد : فيقول الفقير إلى رحمة الله الكريم (ولي الله بن عبد الرحيم) العمريُّ نسباً ، الدهلويُّ وطناً ، أنَّه قد حصل لي تشويشٌ في القلب بسبب اختلاف مذاهب الفقهاء وكثرة أحزاب العلماء وتجاذبهم ، كلٌّ واحدٍ عن الآخر إلى جانب ، وذلك لأنَّه لابدَّ من تعيين طريقٍ للعمل ، والتعيين بلا مرجع سفسطةٍ ، ووجوه الترجيح كثيرةٌ ، والعلماء قد اختلفوا في تقريرها إجمالاً وتفصيلاً ، اختلافاً فاحشاً ، فتشبَّثتُ ذات اليمين وذات اليسار بلا طائل ، واستعنتُ بكلِّ أحدٍ بلا جدوى ، فبعد ذلك توجَّهتُ إلى الله سبحانه وتعالى متضرعاً ، وقلت : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام : ٧٧] ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ٧٩] فألهمت الإشارة إلى كتاب (الموطأ) تأليف الإمام الهمام حجَّة الإسلام ، مالك بن أنس ، وعظم ذلك الخاطر رويداً فرويداً .

وتيقَّنْتُ أنه لا يوجد الآن كتابٌ ما في الفقه أقوى من موطأ الإمام مالك؛ لأنَّ الكتب تتفاضل فيما بينها ، إمَّا من جهة فضل المصنف ، أو من جهة التزام الصِّحَّة ، أو من شهرة أحاديثها ، أو من جهة القبول لها من عامة المسلمين ، أو من جهة حسن الترتيب ، واستيعاب المقاصد المهمَّة ونحوها ، وهذه الأمور كلُّها موجودةٌ في الموطأ على وجه الكمال ، بالنسبة إلى جميع الكتب الموجودة على وجه الأرض الآن[٢] .

لقد انشرح صدري ، وحصل لي اليقين بأنَّ الموطَّأ أصحُّ كتابٍ يوجد على وجه الأرض بعد كتاب الله ، وكذلك تيقَّنت أنَّ طريق الاجتهاد ،

---

(١) راجع كتاب العلامة الندوي «الإمام الدهلوي» الصادر من دار القلم الكويت (وهو الجزء الرابع من سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام) صدر مصحَّحاً ومنقحاً من دار ابن كثير بدمشق.

(٢) المسوى ص ١٧ .

www.abulhasanalinadwi.org

وتحصيل الفقه (بمعنى معرفة الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية) مسدودٌ اليوم (على من رام التحقيق) إلا من وجهٍ واحدٍ ، وهو أن يجعل (المحقق) الموطأ نصب عينيه ، ويجتهد في وصل مراسيله ، ومعرفة مآخذ أقوال الصحابة والتابعين (يتتبَّع كتب أئمة المحدِّثين) ثم يسلك طريق الفقهاء المجتهدين (في المذاهب) من تحديد مفهوم الألفاظ ، وتطبيق الدلائل ، وتبيين الركن ، والشرط ، والآداب ، واستخلاص القواعد الكلِّية الجامعة المانعة ، ومعرفة علل الأحكام ، وتعميمها ، وتخصيصها ، وفقاً لعموم العلَّة وخصوصها ، وأمثال ذلك ، ويجتهد في فهم تعقبات الإمام الشافعي وغيره (كتعقبات الإمام محمد في موطئه وكتاب الحجج).

ثم يجتهد (في تطبيق المختلفات أو ترجيح الأحسن منها) ويتمكَّن من تحصيل اليقين بدلالة الدلائل على تلك المسائل ، أو يغلِّب الظنَّ والرأي بمعرفة أحكام الله تعالى(١).

وما قلناه: إنَّ طريق الاجتهاد مسدودةٌ إلا من هذه الجهة ، الباعث على ذلك ، أنَّ الأحاديث المرفوعة وحدها لا تكفي جميع الأحكام ، بل لابدَّ لها من آثار الصحابة والتابعين ، ولا يوجد كتابٌ جامعٌ لهذا وذاك الآن ، ويكون مع ذلك مخدوعاً من العلماء ونظر فيه نظر المجتهدين طبقةً بعد طبقة غير الموطأ ، وهذا أمرٌ لا يحتاج إلى دليلٍ عند من عرف الكتب المأثورة التي هي أصول الشرع ، وعلم أيضاً كلام أهل العلم فيها ، وأنظار المجتهدين في شرحها ، أما المغفلون من أبناء هذا العصر الذين هم معرضون عن هذا الأمر بالكليَّة ، ومسوقون مثل الإبل المخطومة لا يدرون إلى أين يذهبون ، فهؤلاء في وادٍ آخر ، ولا يمكن تكليفهم بفهم هذه الأمور.

خلق الله للحروب رجالاً ورجالاً لقصعةٍ وثريد(٢)

ويقول في (وصاياه):

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٩.

(٢) ص ٣٠.

www.abulhasanalinadwi.org

«عندما يحصل التمكُّن من العربية ، فليدرس الموطأ برواية يحيىٰ بن يحيىٰ المصمودي ، ولا يعرض عنه أبداً ، فإنَّه أصل علم الحديث ، وتدريسه يحمل فوائد جمَّةً ، وقد حصل لنا سماع الموطأ كلِّه بالرواية المتَّصلة»[١] .

ولا تتصدَّى بعد ذلك للحديث عن جوانب أخرى من عظمة الإمام مالك الاجتهادية والفقهية ، والمكتبة الغنيَّة العملاقة التي تكونت في شرح كتابه «الموطأ» في الحديث و«المدوَّنة» في الفقه ، ومن نهض في المدرسة الفقهية والأصولية والحديثية من نوابغ وأعلامٍ في المشرق والمغرب ، وخصوصاً في الحزام الغربيِّ الشَّمالي من قارة إفريقية ، الممتدِّ من ليبيا إلى الغرب الأقصى ، إلى بلاد الأندلس في أوربا ، الذي خصَّه الله وأخضعه ـ لحكمةٍ يعلمها ـ للمذهب المالكيِّ ، وما دُوِّن هنا من كتبٍ فريدةٍ في المكتبة الإسلامية العالمية ، فمن المتوقع المؤكَّد أن يتحدَّث عنها أصحاب الاختصاص في هذا المذهب وفي تاريخ تدوين العلوم ، وأقتصر على ما كان لعلماء الهند المشتغلين بالحديث والفقه من قسطٍ وافرٍ ونصيبٍ غير منقوص في شرح «الموطأ» في شبه القارة الهندية ، وأنقل هنا ما جاء في كتاب سيِّدي الوالد العلامة السيد عبد الحي الحسني (المتوفى ١٣٤١ هـ) (الثقافة الإسلامية في الهند) إذ هو المصدر الأكبر فيما يتعلَّق بالخدمات العلمية ، والمؤلَّفات الكبيرة والصغيرة لعلماء الهند ، منذ دخل الإسلام في الهند إلى وفاة المؤلف ، أضيف إلى ذلك ما تمَّ بعد وفاة المؤلف من التأليف في هذا الموضوع ، يقول المؤلف رحمه الله وهو يذكر شروح «الموطأ» التي تحقَّق تأليفها ووصفها في شرح الموطأ ، يقول رحمه الله تعالىٰ :

«فمن ذلك المصفى شرح الموطأ بالعربيِّ للشيخ يعقوب أبي يوسف البيانيِّ اللاهوري ، والمحلَّى شرح الموطأ بالعربيِّ للشيخ سلام الله بن شيخ الإسلام البخاريِّ الدهلوي ، والمسوَّى شرح الموطأ بالعربي للشيخ الأجل

(١) الوصايا بالفارسية ص ١١ .

www.abulhasanalinadwi.org

ولي الله بن عبد الرحيم العمريِّ الدهلويِّ ، اقتصر فيه على شرح الغريب وبيان المذاهب ، والمصفى شرح الموطأ بالفارسيِّ للشيخ ولي الله المذكور ، صنفه على وجه الاجتهاد والتحقيق ، وصحَّحه وهذَّبه بعد وفاته صاحبه الشيخ محمد أمين الولي اللاهي ، وفرغ من تهذيبه في الثامن عشر من شوال سنة ١١٧٩ هـ ، وهداية السالك إلى موطأ الإمام مالك للمفتي صبغة الله بن محمد غوث الشافعي المدراسي ، والتعليق الممجَّد على موطأ الإمام محمد المولوي عبد الحي بن عبد الحليم الأنصاري اللكهنوي ، وشرح جزء من أجزاء الموطأ للقاضي بشير الدين العثماني القنُّوجي ، وكشف الموطأ ، شرحه بالأردو ، للمولوي وحدي الزمان اللكهنوي»[١] .

أما الكتب التي ظهرت بعد وفاة مؤلف «الثقافة الإسلامية في الهند» فمن أهمها «أوجز المسالك في شرح الموطأ الإمام مالك» في خمسة أجزاء للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ، وهو كتاب موسوعيٌّ معترفٌ به في أوساط العلماء ، وعند علماء المذهب المالكيِّ بصفةٍ عامَّة ، وكتاب «دليل السالك إلى أطراف مالك» للشيخ محمد حليم آل عطا السَّلوني شيخ الحديث بدار العلوم ندوة العلماء سابقاً ، لم يطبع بعد ، و«اليواقيت الثمينة في أطراف عالم المدينة» للمؤلف المذكور ، لم يطبع بعد ، ومنها «حياة الإمام مالك» للعلامة السيد سليمان الندوي ، وهو خير ما ألف في حياة إمام دار الهجرة وخصائصه ، وخصائص مدرسته الفقهية وكتابه الموطأ ، صدر من دار المصنفين «أعظم كره» في «أردو» عرف به كثيرٌ من أهل الهند منزلة الإمام بين أئمة الإسلام .

وصلى الله على خير خلقه ، سيدنا ، ومولانا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

* * *

(١) «الثقافة الإسلامية في الهند» ص ١٥٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

البحث العلميُّ والفقهيُّ والتحقيق والاجتهاد
الحاجة إلى ذلك وآدابه

ألقى العلامة الندويُّ هذا البحث في ملتقى مجمع الفقه الإسلاميِّ الهند الندوة الثالثة المنعقدة في بنغلور ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ـ ١٧ من ذي القعدة ١٤١٠ هـ وقد عُرض وتُلي في ١٤ من ذي الحجَّة.

www.abulhasanalinadwi.org

أيها السادة!

إنَّه لمن أعظم دواعي سروري أن أرى العلماء وأصحاب الدراسات الواسعة العميقة ، قد بدؤوا يهتمُّون بالقضايا المعاصرة ، الفقهية الاجتهادية ، والمنتدى الحالي هو البرهان على ذلك.

لم تكن كنوز المعرفة والمصادر العلمية في يوم ما احتكاراً لطبقةٍ اجتماعيةٍ دون أخرى ، وما كان يجب ذلك ، أما فيماً يتعلق بالإسلام ، فإنَّكم تعلمون أنَّه ليس هناك طبقة تتوارث الكهنوت أباً عن جدٍّ ، إنَّ مفاهيم الكهنوت هي من صلب العالم النَّصرانيِّ ، وغريبةٌ في عالم الإسلام ، وإذا ما وجدت عبارات أو تعابير كهذه في كتابات بعض العلماء فمردُّ ذلك فقط إلى التقليد الأعمى للغرب ، أصبحت عبارة «رجال الدين» في أيامنا هذه شائعة ـ حتى بين الكتاب العرب!! ـ وبدؤوا يستعملونها بنفس المفهوم الذي تعنيه كلمة «الكهنة» في العالم النصرانيِّ ، أما الكتاب الحذرون المتمسِّكون بالدِّين ، والذين يريدون التعريف الصحيح بالفكر والروح الإسلاميين ، فقد اجتنبوا بحذر شديد استعمال عباراتٍ كهذه.

وفي الوقت الذي أعبِّر فيه عن شعوري بالغبطة للاهتمام المتزايد من قبل المراكز العلمية بالعلوم الإسلامية ، وبالفقه الإسلاميِّ ، والقضايا الإسلامية المعاصرة ، أودُّ أن أضيف إلى أنَّه على الرَّغم من أنَّه لا مكان للقساوسة والكهنوت في الإسلام ، . . . إلا أنَّه كان دائماً لدينا علماء ذوو خبرةٍ واختصاصٍ ، ولم يعد بإمكان المرء أن يضطلع في كل شيءٍ نظراً للتوسُّع الطارىء المحسوس الذي حدث في شتَّى فروع المعرفة . . . ففي أوربا بدأت عملية التقدُّم عندما كرَّس الناس أنفسهم للتخصُّص في فروع خاصةٍ من الدراسات ، ولم يعد علماؤها يسيطرون على كافة فروع المعرفة ، وأعتقد أنَّ هذا المبدأ ـ وحتى في وقتنا الحاليِّ ـ متَّبعٌ في أوربا أكثر منه في الشرق ، وهناك يعترف الخبراء في أيِّ مجالٍ كان ـ وبدون تردُّدٍ ـ بمهنة أو بمجال

www.abulhasanalinadwi.org

دراسةٍ أنَّه لا يدخل ضمن مجال اختصاصهم ، والآن علينا نحن أيضاً أن نصمِّم لتحديد مساعينا العلمية ، والفكرية ، لنقتصر على موضوعٍ أو فرعٍ دراسيٍّ خاصٍّ بمفرده .

مستوى الثقافات :

إنَّني فخورٌ بأن أكون رفيق دربٍ . . وأنتهز ذلك لأتجرَّأ ، فأقدم بعض الاقتراحات :

ربما توافقون معي على أنَّ مستوى الثقافة يتدنَّى في وسطنا ، ولقد لمست ذلك في الغرب أيضاً ، وقد قال لي بعض العلماء هناك : إنَّ الفساد تسرَّب إلى دراسة العلوم الشرقية أيضاً . . . إنَّ الجليل الحاليَّ من العلماء يفتقر إلى المثابرة والانكباب ، وذلك لأسباب عديدةٍ ، بعضها سياسيَّة ، وأخرى اقتصاديَّة .

السرُّ في نموِّ الاستشراق :

هناك بعض البواعث وراء كلِّ فرع من فروع المعرفة ، ولقد رفعت هذه العوامل الاستشراق في يومٍ من الأيام إلى القمَّة ، وباستثناء القليل من العلوم الطبيعية والاجتماعية ، فقد كانت الدراسات الشرقية تحظى بشرفٍ عظيمٍ ، وكان المستشرقون بكتاباتهم يتمتَّعون بأهميةٍ بارزةٍ؛ إذ كان العامل القويُّ الذي يعمل عمله وراء ذلك هو عامل الإمبريالية Imperialism[1] ونحن مسرورون على أنَّ ذلك العالم لم يعد فعَّالاً ، وقد كانت أغنى بلدان الشرق تحت حكم المسلمين ، وكان الغرب ينظر إليهم نظرة غيرةٍ وحسدٍ لما عندهم من خيرات .

أرادت الامبريالية الغربية إقامة مستعمراتٍ جديدةٍ ، لذا كان من الضروريِّ لها : دراسة الخصائص القومية لتلك البلدان ، وإحداث التشكُّك في مصادر شعوبها العلمية ، والدينية ، وعدم الثِّقة بها ، لإنشاء «مركّب

---

(١) المقصود بها : بسط النفوذ عن طريق الشركات والمؤسسات الاقتصادية ، والنفوذ السياسي .

www.abulhasanalinadwi.org

النقص» في نفوس الدارسين ، والباحثين ، والشباب المثقف في تلك البلاد ، فيكون ذلك مساعداً على بسط النفوذ الأجنبيِّ في هذه البلاد ، لأنَّ النفوذ الثقافيَّ والخضوع العقليَّ والعلميَّ يسبقان النفوذ السياسيَّ ، وعلى الأقل يساعدان عليه ، ويمهِّدان الطريق له.

ولقد كان هؤلاء المستشرقون هم طلائع المستعمرين ، فقد لقوا رعاية الجهات الرَّسمية ، ووضعت أموال طائلةٌ تحت تصرُّفهم ، وكانوا يستقبلون بحفاوةٍ وتقديرٍ في بلاط الملوك ، ورؤساء الدول . . . لقد زال هذا العامل من الوجود ، أما الدافع الآخر ، فقد كان الكسب الاقتصاديُّ الذي فقد فعاليته هو أيضاً ، فقد خضعت البنية الاقتصادية للتحوُّل ، بحيث لم تعد مواصلة الدراسات الشرقية تدرُّ النفع الماديَّ كما كانت من قبل.

التفرُّغ:

إنَّ روح التكريس قد ضعفت بين علماء عصرنا ومثقفيه ، فقد ضعف حبُّ المعرفة ، ونضب معه معين القدرة على الجدِّ والاجتهاد ، وإنَّني لا أشير بذلك إلى أيِّ مدرسةٍ أو مركزٍ علميٍّ دون آخر ، إنما هي ملاحظة عامَّةٌ كما وجدتها ، ويلمس في كل مكان ـ تقريباً ـ أنَّ التكريس الكامل الذي كان يتميَّز به علماء الماضي لم يعد له وجودٌ في وقتنا الحاضر.

إنَّ الأسباب تتعلَّق بالسياسة والاقتصاد ، والآداب والأخلاق ، سواء بسواء ، وليس من الممكن ـ أو من الضروريِّ مناقشتها هنا . . . والأمر الواضح جداً ، هو أنَّ حبَّ المعرفة الذي يسمو فوق كلِّ شيءٍ ، ويجعل الإنسان لا يبالي حتى بالحاجة إلى الطعام والملبس ، قد أصبح ذلك الحبُّ نادراً إن لم نقل قد همد.

المعرفة من أجل المعرفة:

كان عالمٌ بمفرده ـ فيما مضى ـ يقوم بعمل أكاديميات (مجامع) علمية بكاملها ، أمَّا الآن فقد أقيمت الجمعيات ، والمؤسسات الضخمة ، لكنَّ مردودها ـ إجمالاً ـ غير مشجِّعٍ ، وقليلاً ما تقوم بأعمال أصيلةٍ مبتكرةٍ.

إنَّ ما نحتاجه هو رفع مستوى الثقافة والرسوخ العلميِّ والتضلُّع

www.abulhasanalinadwi.org

الفقهيِّ ، وما المعرفة إلا كدٌّ وجني ثمرته ، وعطشٌ ، وارتواءٌ ، وجوعٌ ، وشبعٌ.

على المرء أن يكرِّس كامل جهده لعمله ، وأن يعتبره مكافأةً في حدِّ ذاته ، لا رئاسة فرعٍ معيَّنٍ في هذه الجامعة أو تلك.

إنَّ علماء عصرنا الحاضر يستعجلون لجمع المحصول ، وينصبُّ اهتمامهم الأكبر على الشهرة ، والترفيع في الخدمة ، وزيادة التعويض ، وإنَّ قسماً كبيراً من طاقتهم يصرف في السعي وراء هذه الأغراض ، وإنَّ الرِّبح الماديَّ هو الأساس في نظرهم ، ولابدَّ أنَّكم سمعتم بمبادىء كثيرةٍ ، والمبدأ الجديد الذي ينتشر في مؤسساتنا الثقافية ، ألا وهو المهنية (Careerism).

الظمأ للمعرفة يجب ألا يكون حالة عابرة:

وشيءٌ آخر هو: ألا يكون الاهتمام بالنشاطات الثقافية اهتماماً عابراً ، فنختار موضوعاً للبحث فيه ، ثم نجترُّه بسرعةٍ فنلقيه خارجاً ، كحيوان يجترُّ ، فلا يكون هناك التزامٌ بالموضوع ، ولا تعلُّقٌ ثابتٌ به ، فإذا ما انتهى البحث نفضنا أيدينا من الأمر كلِّه ، ولنذكر قول إقبال:

مقصود هنر سوز حيات أبدي ہے   يه ايك نفس يا دو نفس مثل شرر كيا

«إنَّ هدف الفنِّ هو لهب الحياة الخالدة ، وليس فورة نشاطٍ أو اثنين تختفيان كالشرارة».

منابع الدراسة الإسلامية تكمن في الإيمان:

ربما تقرؤون بالطبع في بعض البحوث عن الحاجة إلى الاجتهاد في العلوم الإسلامية ، وفي القضايا الدينية المعاصرة ، وكلنا نوافق على ذلك ، لكن لماذا أغلق بابه ، وما أسباب ذلك ، وما مدى صحته؟ فتلك قضيةٌ أخرى ، وسوف أشير إلى أنَّ أصول العلوم الإسلامية تكمن في الدين ، إنَّه المصدر الرئيسيُّ لها ، لذا يجب أن نختلف في موقفنا حيالها عن المستشرقين ، وألاَّ يكون هذا الموقف أكاديمياً ، بأن نقوم بمناقشتها فقط دون أيِّ شعور بالالتزام ، وينبغي لنا أن نعتقد بها شريطة أن تكون مرتبطةً بأركان الإيمان وتهذيبها في حياتنا العملية ، ولقد سمعت في طفولتي أنَّ

www.abulhasanalinadwi.org

عشرة أرطالٍ من الحكمة ضروريةٌ لرطلٍ واحدٍ من المعرفة (براى يك من علم ده من عقل بايد) وإلا لا يتمكَّن المرء من استنتاج فائدةٍ حقيقيةٍ من المعرفة ، ولا استعمالها بشكلٍ ملائمٍ ، وسأدخل تحسيناً على ذلك وأقول: إنَّ التقوى يجب أن تكون موجودةً أيضاً بشكلٍ متناسب مع البحث ، لأنَّ القضية هي قضية العلوم الإسلامية ذات الصلة الوثيقة بالدين ، ولا نستطيع أن نخضعها للتشريح Pustmortem كجثةٍ ، أجل: ليس من العدالة أن يكون كذلك ، فيجب أن يكون النقد خالياً من الازدراء والسخرية.

إنَّ أولئك الذين هم على وعي بمسؤوليات الدراسة والبحث ، وتغيُّر الأفكار والآراء ، لا يقدمون آراءهم وأحكامهم بطريقةٍ جازمةٍ موثوقةٍ ، ولا يفسرون نظريةً كما لو أنها كانت آخر كلمةٍ في الموضوع ، وينبغي أن يكون موقفهم كمن توصل إلى نتيجةٍ ظهرت بأنَّها صحيحةٌ في تلك اللحظة ، يجب علينا أن نمارس الكبح في تفكيرنا ، وأن نتعلَّم إبداء الاحترام والتقدير للعلم ، وللشخص الذي كرَّس حياته ، وطاقاته له.

تجنَّبوا إحداث الفوضى:

يتسرَّع بعض الناس في التعبير عن آرائهم ، ثم لا يلبثون بعد فترةٍ أن يتراجعوا عنها!!... لاشكَّ بأنَّهم يؤدُّون واجبهم ، ولكن ماذا عن أولئك الذين كان عليهم أن يغادروا هذه الدنيا وهم على ضلالٍ من جراء اتِّباع أولئك الناس؟! وتصبح المشكلة خطيرةً عندما تتعلَّق هذه الآراء بالعقيدة والدين ، لذا ينبغي ألا ينفد الصبر في التعبير عن آرائنا ، وخاصةً عندما تخصُّ عالم الدِّين ، وعلينا أن نفكر فيها ملياً ، ونتفحَّصها ، ونعرضها على أهل الخبرة وننتظر حكمهم.. حينذاك فقط يمكن أن تنشر.

إنَّ عصرنا هو عصر الفوضى ، والإنسان هادئٌ يميل إلى الإهمال بطبيعته ، لحضارة العصر ، والخطوات السريعة للتقدُّم العلميِّ ، والارتفاع المستمرُّ في مستوى المعيشة ، يفضي به إلى أن يكون أكثر حباً للرَّاحة ، وتعرضاً للفوضى ، وعلينا ـ والحال هذه ـ أن نحجم عن قول أشياء يمكن أن تزيد في الاضطراب الفكريِّ عند الناس.

www.abulhasanalinadwi.org

التغير والثبات للزَّمان :

يفترض عموماً : أنَّه ليس للزمن ثباتٌ أو دوامٌ ، بل إنَّه اسم آخر للتغيُّر والتحوُّل ، ولكن ليس الأمر كذلك ، إنَّ الزَّمن مركبٌ من الاثنين ـ التغيُّر والاستمرار ، وإذا اختلَّ هذا التوازن كأن يتحكَّم الاستمرار بالتغيُّر ، أو يتسلَّط التغيُّر على الاستمرار ، فإنَّ ذلك سينتج آثاراً خطيرةً تنعكس على المجتمع والحضارة ، إنَّ المجتمع البشريَّ بحاجةٍ إلى التناسب حتى أكثر من أيِّ مركبٍ كيميائي .

إنَّ الزمن له القدرة على التغيُّر ، ويجب أن يتغيَّر ، وذلك ليس علامة ضعفٍ أو نقصٍ ، إنما هو قانون الحياة ، وكما قال إقبال : إنَّ الحياة دائمة الحركة ، دائمة الانسياب ، دائمة الشباب ، وإنَّ الحياة الخالية من القدرة على النموِّ والتطوُّر ، يمكن أن تكون أيَّ شيءٍ آخر إلا الحياة .

إلى جانب ذلك فإنَّ مقاومة التغيُّر هي ـ أيضاً ـ صفةٌ متأصِّلةٌ في الزمن ، وإنَّ مظاهر التغيُّرِ تبدو لنا بوضوحٍ . . . وكلُّنا نشعر كم تحوَّل الزَّمن بشكلٍ كبير .

إنَّنا في مجريات الأمور العادية لا نوفق في الإدراك إدراكاً تاماً للصراع الذي يقوم به الزمن ليحافظ على خواصه الجيدة والسليمة ، وطبيعته وصفته الحقيقية ، وإنَّ ذلك يتطلَّب مجهراً خاصَّاً .

خذوا النهر الذي يمثل نموذجاً مثالياً للحركة . . ما من موجتين من أمواجه متماثلتان على الإطلاق ، وبالرَّغم من أمواجه العابرة فإنَّه موجودٌ مكانه منذ آلاف السنين ، محتفظاً بكلِّ خصائصه ، واسمه ، واتجاهه ، فأنهار دجلة ، والفرات ، والنيل ، والغانج (Ganga) وجامونا كلها هي نفسها منذ أن كانت في العصور الغابرة .

إنَّ الزمن ساكنٌ بالإضافة إلى كونه متحركاً . . . كلا هاتين الصفتين جوهريتان بالنسبة له ، فهو ـ بدون أيٍّ منهما ـ لا يستطيع الاحتفاظ بفائدته بنفس الطريقة ، لأنَّ القوى السلبية والموجبة تعمل عملها في الأشياء الحيَّة

www.abulhasanalinadwi.org

وغير الحيَّة الموجودة في العالم ، وعن طريق أفعالها وردود فعلها تحقِّق هذه الأشياء قدرها .

الـديـن هـو حـارس الـحيـاة :

لا يمكنني ـ أبداً ـ أن أقبل وضعاً يستجيب فيه هذا الدين لكلِّ تغيُّرٍ ، ولا يمكن أن توافقوا أنتم على ذلك أيضاً ، لأنَّ الدين ليس مقياس حرارة (Thermametor) يقتصر عمله على تسجيل درجة الحرارة ، ولا هو بالأداة التي ترصد اتجاه هبوب الرياح . . لا يمكن تعريف الدين بهذه العبارات ولا يمكن أن يصير إلى أداةٍ آلية غريبةٍ ، وليس بيننا واحدٌ يريد من الدينِ أن يعمل كسجلٍّ لتغيرات الأزمنة ، وإنَّ ديناً وضعياً مزعوماً لا يمكن أن يتحمَّل هذا الوضع فكيف بدين منزلٍ؟! .

إنَّ الدين يقر التغيُّر كحقيقةٍ واقعةٍ ويعطي أكمل مجالٍ لسير الأمور من أجل تحوُّلٍ صحيح سليم ، الدين يتقدَّم مع الحياة يداً بيد ، ولا يواكبها فقط كتابعٍ لها ، بل إن وظيفته أن يميز بين تغيُّرٍ سليمٍ وآخر غير سليمٍ ، وبين نزعةٍ هدَّامةٍ وأخرى بناءةٍ ، ويجب أن يقرر الدين فيما إذا كان التحوُّل نافعاً ، أو ضاراً بالبشرية ، أو بأتباعه على الأقلِّ .

وبينما يتمشَّى الدين مع الحياة الديناميكية جنباً إلى جنب من جهةٍ ، فإنَّه يعمل حارساً وحامياً لها من جهةٍ أخرى ، وتجب عليه مهمة المراقبة والضبط أيضاً ، وليس من مهمة الوصي أن يدعم كل ما يفعله القاصر الموضوع تحت وصايته ، ويؤيد كلَّ ميوله الجيدة منها والسيئة ، أو أن يصادق بختم الموافقة على كلِّ شيءٍ يسعى وراءه ، فهو يمتلك ختماً واحداً ، وحبراً واحداً ، ويداً واحدةً فقط ، وليس من شأنه أن يلصق طابعه على أيِّ وثيقةٍ أو صكٍّ ، بل يجب عليه أن يميِّز ويختار ، أجل إنَّه يفحص (الوثيقة) أولاً ثم يصدر حكمه . . فإن وجد فيها خطأً أو ضرراً حاول الدين أن يتركها برفقٍ ـ إذا أمكن ـ أو بقوَّةٍ إذا اقتضى الأمر ذلك ، وإذا عرضت عليه وثيقةٌ واعتبرها ضارةً بالجنس البشريِّ فهو لا يمتنع عن تصديقها وختمها فقط ، بل يكافع لمقاومتها ، وهنا يكمن الفرق بين الدين

www.abulhasanalinadwi.org

والأخلاق ، فالدين يرى من واجبه ومسؤوليته ضبط النزعة الخاطئة وردُّها ، بينما تكتفي الأخلاق بالإشارة إليها ، وإظهارها .

عبقرية علماء الفقه في الجمع بين ما يقتضيه التطور العصري وخلود مقاصد الشريعة الإسلاميَّة وتقديمها :

وقد تجلَّت عبقرية فقهائنا وعلمائنا الراسخين المتبصرين ، في إعطاء التطور العصري ، وتقدُّم المدنية ، وتغيُّر الأعراف والمقاييس ، وحدوث الآلات ، والوسائل الحديثة ، ونشوء المشكلات والأزمات ، والتجارب الجديدة حقَّها في الدراسة والبحث ، وإصدار الحكم الشرعيِّ ومراعاتها في الفتاوى والأحكام الشرعية ، وفي المحافظة على مقاصد الشريعة ، والإيمان بخلود الدين الإسلاميِّ ، وكونه هو الدين الأخير المرتضى الذي لا يُقبل سواه ، والإيمان الجازم الواعي بقوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] يحتاج ذلك إلى استعراضٍ تاريخيٍّ واسعٍ دقيقٍ للمكتبة الفقهية العالمية الممتدَّة على مدى التاريخ الطويل ، ومساحة العالم الإسلاميِّ الواسعة ، إذا تمَّ ذلك العمل بأمانة ودقَّةٍ ، وأناةٍ وصبرٍ ، وحيادٍ وإنصافٍ ، تجلَّى نوعٌ من العبقرية العلمَّية الدينية ، والذكاء التشريعيِّ النادر ، كان موضع إعجابٍ واستغرابٍ ، وكان في صالح البحث الفقهيِّ والاجتهاد الذي يحتاج إليه هذا العصر ، والمجتمع الإسلاميُّ الواسع .

نظرة عجلى على الإنتاج الفقهي في شبه القارة الهندية في العصر الأخير :

ولا بأس بإلقاء نظرةٍ عجلى على الإنتاج الفقهي الهادف في شبه القارَّة الهندية في الماضي القريب ، أما قائمة المؤلفات والموسوعات العلمية الفقهية ، ومجموعات الفتاوى ، والبحوث الحديثية والفقهية المقارنة ؛ فهي أطول من أن أسرد أسماءها في هذا الحديث المستعجل القصير ، وليرجع في ذلك إلى كتاب الثقافة الإسلامية في الهند ، لوالدنا العلامة

www.abulhasanalinadwi.org

السيد عبد الحي الحسني (رحمه الله تعالى) طبع ونشر مجمع اللغة العربية في دمشق.

وأكتفي هنا بالإشارة إلى كتاب «إعلاء السنن» في فقه الحديث تأليف العلامة الشيخ ظفر أحمد العثماني بتوجيه المربي الكبير، والعالم الجليل سماحة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى، وقد تمَّ هذا العمل التأليفي في ٢١ مجلداً ضخماً، وقد كانت محاولاتٌ علميَّةٌ جدِّيةٌ للبحث عن الحلول الفقهية لبعض القضايا الشاغلة المعقَّدة في الحياة الاجتماعية والزوجية، نذكر منها على سبيل المثال «الحيلة الناجزة للحلية العاجزة» للمربي الكبير العالم الجليل الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله تعالى و«بوادر النوادر» له كذلك، و«جواهر الفقه» للعالم الكبير مفتي باكستان الأكبر الشيخ محمد شفيع الديوبندي في ثلاثة مجلدات، وأحكام القرآن له، وعلم الفقه للمصلح الكبير الشيخ عبد الشكور اللكهنوي.

وأضيف إلى هذه القائمة التي تشمل مؤلفات علماء المذهب الحنفي، كتابين لكبار علماء الحديث، وهما: الفتاوى النذيرية للعالم الكبير ومدرس الحديث الشهير الشيخ السيد نذير حسين الدهلوي، والفتاوى الثنائية للعالم المناظر الكبير الشيخ ثناء الله الأمر تسري، لإيتاء كل ذي حقٍّ حقَّه، وحرصاً على الجمع والشمول.

هذا عدا مجموعاتٍ كبيرةٍ للفتاوى مثل «عزيز الفتاوى» للمفتي عزيز الرحمن رحمه الله تعالى المفتي الأكبر في دار العلوم ديوبند، في اثني عشر مجلداً، و«إمداد الفتاوى» للشيخ التهانوي في ستة مجلدات كبار، و«الفتاوى الرحيمية» للمفتي عبد الرحيم اللاجوري في ستة مجلدات أيضاً.

لفت نظر إلى علم الحديث والعناية الزائدة به، والاستفادة من تحقيقات شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي:

وألفت نظركم الكريم إلى العناية الزائدة بالحديث الشريف دراسةً واهتماماً وعملاً وتطبيقاً، وقد أصبحت الهند أكبر مركزٍ لفنِّ الحديث

www.abulhasanalinadwi.org

الشريف تدريساً ، وشرحاً ، وتأليفاً ، ونشراً ، وتحقيقاً بعد القرن الحادي عشر الهجري ، ونبغ فيها علماء ، وأئمةٌ ، ومحققون يقلُّ نظيرهم في العالم الإسلاميِّ العربيِّ وغير العربيِّ يطول ذكر أسمائهم ، وطبعت ، ونشرت هنا من كتبٍ في فنون الحديث والرجال والأصول ما كان العلماء يتسامعون بأسمائها ، ويحنُّون إلى رؤيتها ، فمن اللائق المحافظة على هذه الميِّزة والشرف ، هذا عدا ما في الاشتغال بالحديث الشريف من البركة ، والسعادة ، والثواب.

وأرجو كذلك الاهتمام الزائد بتحقيقات وعلوم شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيمية الحرَّاني ، والإفادة من مكتبته الواسعة الزاخرة التي طبعت بعنوان «فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» وكان الأحرى أن تسمَّى موسوعة شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد احتوت على مادةٍ غزيرةٍ في الحديث ، والفقه ، والأصول ، وتحقيقاتٍ عميقةٍ نادرةٍ ، وجاءت في ٣٧ مجلداً ضخماً تحتوي ١٨٨٤٩ صفحة.

كذلك الاعتناء بمؤلفات حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي ، وخاصةً بكتابه «حجة الله البالغة» الذي لا يوجد له نظير في حدٍّ علمي واطِّلاعي في المكتبة الإسلامية الدينيَّة العالمية الزاخرة عمقاً ، ودقَّةً في شرح مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرارها ، شرحاً مرتبطاً ، منظماً ، متَّصلاً بالحياة الاجتماعية ، والمجتمع الإسلاميِّ الحيِّ النامي.

تنويه بمجمع الفقه الإسلامي الهند:

ولا يفتني في هذه المناسبة الكريمة التاريخية أن أنوِّه في تقديرٍ ، واعترافٍ ، وإعجاب بتكون مجمع الفقه الإسلامي الهند ، فكان خطوةً مباركةً جاءت في أوانها ومكانها ، وكان انتصاراً كبيراً للاتِّجاه العلميِّ الفقهيِّ الجادِّ البنَّاء ، فتح آفاقاً جديدةً واسعةً مفسرةً في مجال تكوين مكتبةٍ فقهيَّةٍ جديدةٍ ، وإنتاج علميٍّ في هذا العصر المتطور المتوثب ، وحجةً على من يرمي أصحاب الاختصاص في الموضوعات الفقهية بالتواني والكسل ،

www.abulhasanalinadwi.org

وعدم الالتقاء والتعاون العلمي ، وكانت له لقاءات ومنتديات ناجحةٌ مثمرةٌ نرجو أن تدوم ، وتتصل بإذن الله .

عمل مجمعي في تأليف كتاب في قانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين :

ونختم بالإشارة - في اعتزازٍ وشكر - إلى العمل الفقهي المجمعي المركز الذي قامت به لجنةٌ من العلماء البارزين في الفقه ، في تأليف كتاب في قانون الأحوال الشخصية الخاصِّ بالمسلمين ، يكون دستوراً للأسر الإسلاميَّة في هذه البلاد ، ومرجعاً ، وحجَّةً للمحاكم الحكومية في فصل الخصومات ، وإصدار الحكم القضائيِّ في قضايا النكاح ، والطلاق ، والارث ، وغير ذلك ، فقد كانت الحكومة والمحاكم التابعة لها ، تستغلُّ عدم وجود كتابٍ جامعٍ موثوقٍ به عند المسلمين يتَّسم بالتنقيح ، ويتمتع بالثقة والاعتراف عند طبَقات المسلمين المختلفة .

وقد تمَّ هذا العمل الإيجابيُّ التدوينيُّ تحت رعاية منظمة الدفاع عن قانون الأحوال الشخصية للمسلمين ، وإشراف سماحة الأستاذ الكبير فضيلة الشيخ منَّة الله الرحماني أمير الشريعة في ولايتي بهار وأريسه ، والأمين العام لمنظمة الدفاع عن قانون الأحوال الشخصية في الهند (All India Muslim Personal Law Bcard) .

وبذلك تتمُّ الحجَّة ، وتنقطع الألسنة في الاحتجاج بعدم وجود كتابٍ موثوقٍ مجمعٍ عليه ، والتشبُّث به ، والاستغناء عما أُلِّف في القانون الإسلامي بالإنجليزية وسمي Mohammadan Law .

والحمد لله الذي بعزته وجلاله تتمُّ الصالحات ، والصَّلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، وأصحابه وأهل بيته ، ومن تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الإمامُ محمد بن إسماعيل البخاريُّ
وكتابه صحيح البخاريِّ
«الحديث والسنَّة
ودورها في الصيانة عن التحريف والانحراف»

هذه المحاضرة ألقاها العلامة الندويُّ في مؤتمرٍ عقده مركز إكسفورد للدراسات الإسلاميَّة في مدينة سمرقند من بلاد ما وراء النهر ، موطن إمام المحدِّثين أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاريِّ ، صاحب أصحِّ كتابٍ في الحديث بعد كتاب الله تعالىٰ ، في ٢٣/ من شهر أكتوبر ١٩٩٢ م الموافق ٧/ جمادى الأولىٰ عام ١٤١٤ هـ.

وقد حضَرَ في هذا المؤتمر بدعوةٍ من المركز الإسلامي ، وكبار المسؤولين والعلماء والقادة من جميع أنحاء العالم ، ومن بينهم كان المحدث الكبير الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـ رحمه الله ـ وسعادة الدكتور يوسف القرضاوي ، وعدد وجيه من العلماء الأجلاَّء .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسلام على سيِّد الأنبياء والمرسلين وخاتم النبيين محمدٍ وآله وأصحابه أجمعين ، ومَنْ تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

ميزة الرسول الأعظم ـ ﷺ ـ وقيمة الحديث ، ودوره في إبراز هذه الميزة :

أما بعد! فإنَّ الرسول الأعظم ـ ﷺ ـ هو الشخصية الفريدة ـ من بين الرسل والعظماء ـ التي نعرف عنها كلَّ دقيقٍ وجليلٍ ، ونعرف عنه من دقائق الأخلاق والعادات ، والميول والرغبات ، والقول والعمل ما لا نعرفه عن كثيرٍ من الشخصيات التي مضت قريباً . بل عن الشخصيات المعاصرة أحياناً ، وذلك كلُّه بفضل «الحديث» الذي سجَّل لنا هذه الحياة المباركة العظيمة .

لقد اعتادت الأمم القديمة والدِّيانات أن تصوِّر أنبياءها ، وأن تنحت لها تماثيل وأصناماً للأجيال القديمة ، وتجدِّد ذكراهم . ونشأت من ذلك الوثنية ، وعبادة التماثيل التي يعرفها الجميع ، ونشأت من ذلك آفاتٌ لم تزل الأمم والديانات تعانيها . وقد لطف الله بهذه الأمَّة وبالإنسانيَّة ؛ إذ حرَّم عليها تصوير الأنبياء والعظماء ، ونحت تماثيلهم ، وأبدلها بهذا الحديث النبويِّ ، الذي هو مجموع صورٍ ناطقةٍ يتعرَّف بها الإنسان بنبيِّه ، ويسعد بصحبته ، وكأنه حضر مجلسه ، واستمع لحديثه ، وقضى معه مدَّةً من الزمان ، يسمع كلامه ، ويشاهد فعله ، ويدرس سيرته ، فكان ضياع هذه الثروة ـ لا سمح الله بذلك ـ كارثةً لا تقدَّر ، وخسارةً لا تعوَّض .

حركة جمع الحديث وتدوينه التي لا نظير لها :

قد قيَّض الله لهذا العمل الجليل فوجاً من طلبة العلم يعدُّون بالآلاف ، ويمتازون بعلوِّ همَّتهم ، وشدَّة نشاطهم ، وقوَّة احتمالهم وصبرهم ، وقوَّة ذاكرتهم وحفظهم ، وقد تدفَّق سيلهم في بلاد العجم ، وقد ملكت قلوبهم وعقولهم الرغبةُ الشديدة في جمع الحديث ، وشغفوا به شغفاً حال بينهم

www.abulhasanalinadwi.org

وبين الشهوات ، فطاروا في الآفاق ، ونقَّبوا في البلاد في البحث عن الروايات المختلفة ، والأسانيد الصَّحيحة ، وكان لهم في ذلك هيامٌ وغرامٌ لم يعرفا عن أمةٍ من الأمم للعلم في التاريخ . يدلُّ على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدِّثين من التجوُّل في البلاد ، والسفر في العالم الإسلاميِّ من أقصاه إلى أقصاه(١) .

دور الحديث في تقويم الأمة وبقائها على المنهج المطلوب :

ثمَّ إنَّ الحديث ميزانٌ عادلٌ يستطيع المصلحون في كل عصرٍ أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمَّة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتَّى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث ؛ الذي هو يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول ـ ﷺ ـ إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لا بدَّ منها في السنن الإلهية : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] فلولا الحديث الذي يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولا التوجيهات النبويَّة الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلاميَّ لوقعت هذه الأمة في إفراطٍ وتفريطٍ ، واختلَّ الاتزان ، وفقد المثال العمليُّ الذي حثَّ الله على الاقتداء به ، بقوله : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] وبقوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأحزاب : ٣١] والذي يطلبه الإنسان ويستمدُّ منه الثقة والقوة في الحياة ، ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع .

مصدر قوَّةٍ وميزانُ عدلٍ :

ثم إنَّ الحديث زاخرٌ بالحياة والقوَّة والتأثير الذي لم يزل يبعث على الإنتاج ، والزهد ، والتَّقوى ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ،

(١) ليرجع في ذلك إلى كتب التاريخ والسير ، والكتب التي ألفت في تاريخ تدوين الحديث .

www.abulhasanalinadwi.org

وحسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره في كلِّ عصرٍ وبلد ، من رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحارب البدع والخرافات ، والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدِّين الخالص ، والإسلام الصحيح ، لذلك كلِّه كان الحديث من حاجات هذه الأمَّة الأساسيَّة ، وكان لا بدَّ من تقييده ، وتسجيله ، وحفظه ، ونشره.

منزلة الإمام محمد بن إسماعيل البخاريِّ في فنِّ الحديث وعبقريته:

من أعجب ما روي في ذلك هو ما يرويه أبو أحمد بن عدي الحافظ ، عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، صاحب الجامع الصحيح ، قال: سمعت عدَّةً من مشايخ بغداد يقولون: إنَّ محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا ، وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مئة حديثٍ ، فقلبوا متونها وأحاديثها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسنادٍ آخر ، وإسناد هذا المتن لمتنٍ آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفسٍ ، لكلِّ رجلٍ عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاريِّ ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعةٌ من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين ، فلمَّا اطمأنَّ المجلس بأهله؛ انتدب رجلٌ من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال: «لا أعرفه» فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ ، والبخاريُّ يقول: «لا أعرفه» وكان العلماء ممَّن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى البعض ، ويقولون: «فهم الرجل» ومن كان لم يدر القصَّة ، يقضي على البخاري بالعجز ، والتقصير ، وقلّة الحفظ ، ثم انتدب رجلٌ من العشرة أيضاً ، فسأله عن حديثٍ من تلك الأحاديث المقلوبة ، فقال: «لا أعرفه» فسأله عن آخر ، فقال: «لا أعرفه» فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول: «لا أعرفه» ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلُّهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاريُّ لا يزيدهم على أن يقول: «لا أعرفه» فلمَّا علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول ، فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا ، وصوابه كذا ،

www.abulhasanalinadwi.org

وحديثك الثاني كذا ، وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة ، فردَّ كلَّ متنٍ إلى إسناده ، وكل إسنادٍ إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقرَّ الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل .

قال الحافظ ابن حجر بعد ما حكى هذه القصَّة «قلت : هنا يُخْضَع للبخاريِّ ، فما العجب من ردِّه الخطأ إلى الصَّواب ، فإنَّه كان حافظاً ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرَّةٍ واحدةٍ» .

مزية الجامع الصحيح للبخاريِّ وفضله ، وعناية الأمَّة به تلقياً وروايةً ، وشرحاً وتدريساً :

ولا نعرف كتاباً من كتب البشر ـ في المكتبة الدينيَّة العالمية ـ تناوله العلماء والمؤلفون بالشَّرح والتَّحشية ، والتعليق مثل ما تناولوا كتاب هذا الإمام الجليل الذي هو أصحُّ الكتب بعد كتاب الله . وقد كان الشرح والتعليق هو المجال العلميُّ الذي تظهر فيه عناية العلماء والمؤلفين في العصور القديمة ، ومقياس اهتمامهم بأثرٍ علمي ، فكان أكثر الكتب شروحاً وتعليقاتٍ هو أعظم المؤلفات تقديراً ، وأعلاها منزلةً ، وأكثرها شهرةً ، وكان أقل الكتب شروحاً وتعليقاً أخملها ذكراً ، وأقعدِها شهرةً ، وصيتاً ، فيبقى مطموراً مغموراً ، لا يسترعي انتباهاً ، ولا يثير اهتماماً ، فإذا أُخذ هذا المقياس ـ وهو المقياس الوحيد لنجاح كتاب في عهدنا العلميِّ الماضي ، والدليل القاطع على احتلاله للصَّدارة في المجلس العلمي ـ حكمنا بأنَّ «الجامع الصحيح» للبخاريِّ قد فاز بالقدح المعلَّى في هذا الميدان ، واحتلَّ الصدارة في مكتبتنا الإسلاميَّة التي انبثقت عن القرآن ودعوة الإسلام ، وامتدَّت على مشارق الأرض ومغاربها في المساحة الأرضية المكانية ، وعلى القرن الأول إلى القرن الثالث عشر ـ على الأقلِّ ـ في مساحتها التاريخية الزمانية ، فقد بلغ عدد شروحه والتعليقات عليه إلى مئةٍ وواحد وثلاثين كتاباً [١٣١] وقد يكون العدد أكثر من هذا ، فقد كان هذا الاستقصاء مؤسَّساً على «كشف الظنون» للجلبي . و«مفتاح السعادة» لطاش كبرى زاده ، و«إتحاف النبلاء» و«الديباج المذهب» و«نيل الابتهاج»

www.abulhasanalinadwi.org

ومقدمات الشروح المشهورة التي كانت في متناول يده ، و«الثقافة الإسلامية في الهند»[١] للعلامة عبد الحي الحسني مدير ندوة العلماء الأسبق ، (م ١٣٤١ هـ) وبعض دراساته وتتبعاته الفردية ، ولاشكَّ أنَّ العالم الإسلامي أوسع مما تخيَّله الجغرافيون ، والتاريخ الإسلاميُّ العلمي أغنى، مما دونه المؤرخون ، وفي الزوايا خبايا لم تقع عليها عين ولم تطلع عليها الشَّمس.

وإن كتاب «فتح الباري» للعلامة ابن حجر العسقلاني الذي يقع في ثلاثة عشر مجلداً ضخماً ، ومقدمةً مبسوطة تكاد تكون مكتبةً مستقلَّةً في علوم الحديث ، كتابٌ لا يوجد له نظيرٌ في مكتبات الديانات والملل ، وإن لهذه الأمَّة الإسلامية أن تفتخر بهذا الأثر العلميِّ الخالد ، وتقدِّمه إلى علماء الديانات والفلسفات ، وروَّاد الحضارات والثقافات ، كبرهان ساطع على جهاد هذه الأمَّة العلميِّ ونبوغها الفكريِّ ، وولوعها بآثار نبيِّها ، والغوص فيها إلى أعماقٍ ليست بعدها أعماقٌ ، والوصول فيها إلى آفاقٍ ليست وراءها آفاقٌ. هذا مع عدم الحطِّ من قيمة الشروح الأخرى ـ وفي مقدمتها «عمدة القاري» للعلامة بدر الدين العيني ، التي هي مكتبةٌ حافلةٌ في النحو والعربية ، وعلوم البلاغة ، والأحكام المستخرجة ، والفوائد المستنبطة من الأحاديث.

ثم يلي هذا المقياس شدَّة العكوف على دراسة الكتاب ، والتهافت على روايته ، ونقله ، والتنافس في حمله ، ونشره ، وضمِّه إلى الصدور ، والعضِّ عليه بالنواجذ ، وتوارث الأجيال في تلقِّيه جيلاً بعد جيلٍ ، وكابراً عن كابرٍ ، وتلميذاً عن أستاذٍ ، وطبقةً عن طبقةٍ ؛ حتى لا تعرف فترةٌ من الزمان نسج فيها عليه العنكبوت ، وساد عليه الظلام ، وانقطعت روايته ، وتوقفت دراسته ، وعبث به العابثون ، وتصرَّف فيه الخائنون المحرِّفون ، وقد تفرَّد الجامع الصحيح بهذه الميزة بعد كتاب الله ، فقد أخذ هذا الكتاب عن مؤلفه تسعون ألفاً من الرواة والحفاظ ، وتسلسل نقله ، وروايته حتى

---

(١) صدرت له طبعتان من مجمع اللغة العربية بدمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

انتهى هذا الكتاب إلى مؤلفه ، وبلغ حدَّ التواتر في شهرته وصحَّة نقله ، ونسبته إلى المؤلف ، لا ينكر ذلك ، ولا يتشكَّك فيه إلا من تشكَّك في المتواترات والحقائق العلمية التي تثبت بالضرورة ، ولا يزال هذا الكتاب موضع الاهتمام والعناية ، وموضوع التأمُّل والدراسة في الحلقات العلمية في العالم الإسلاميِّ .

مـزيـة الأبـواب والـتـراجـم ودقـائـقـهـا :

ومما تقرَّر عند المشتغلين بصناعة الحديث تدريساً ، وتصنيفاً ، وشرحاً ، وتحقيقاً أنَّ الأبواب والتراجم في هذا الكتاب من أدقِّ البحوث والمطالب ، ومن أعمقها غوراً ، وأبعدها مدىً ، حتى اشتهر بين العلماء أنَّ فقه البخاري في تراجمه ، وأصبح ذلك شعاراً لهذا الكتاب يتميَّز به عن أقرانه الصِّحاح على جلالة قدرها ، وفخامة شأنها ، وأصبح مقياساً لفطنة العلماء ، وتوقُّد ذكائهم ، وسيلان ذهنهم ، وبعد غورهم واقتدارهم على فهم هذا الكتاب الجليل ، وحلِّ غوامضه ، وفتح أغلاقه ، والتوصُّل إلى مقاصد المؤلف ، لا يشهد لمؤلف أو مدرس ببراعةٍ في العلم وتفوقٍ في التدريس ، وسعة اطِّلاع على الشروح والحواشي وأقوال الأئمة والفحول من المحدِّثين ، وطول ممارَسةٍ لتدريس هذا الكتاب الشريف ، وإضناء القوى وإفناء العمر في ذلك حتى يجتمع له الشيء الكثير من هذا الباب ، وينفرد بتوجيهاتٍ وتعليلاتٍ تنحلُّ بها الألغاز ، وتتفتح بها الأقفال ، وتخلو عنها بطون الأسفار .

ولذلك عُني بهذا الموضوع العلماء قديماً وحديثاً ، وأجالوا فيه قداحهم ، وأركضوا في هذا السباق جيادهم ، واعتصروا في ذلك عقولهم الراجحة ، وعلومهم الراسخة ، ولا نعرف أديباً ، أو لغويّاً تعمَّق في فهم بيت من الأبيات ، ومعرفة معنى من المعاني الشعرية والوصول إلى غايةٍ من غايات الشعراء مثل تعمُّق شرَّاح الجامع الصحيح ، والمشتغلين بتدريسه في فهم مقاصد المؤلف ، وشرح كلامه .

ولا نعرف ـ على طول اشتغالنا بالتاريخ العلميِّ ـ مؤلفاً من مؤلفات

www.abulhasanalinadwi.org

العلماء أو الحكماء عُني به رجال ذلك الفنِّ ، وعكفوا على حلِّ غوامضه ، وفكِّ مشكلاته حتى شقوا فيه الشعرة مثل ما عُني علماء الحديث بالجامع الصحيح ، وماذلك إلا لإخلاص مؤلفه لعلم الحديث الشريف ، وانقطاعه إليه ، وجهاده في سبيله ، وتفانيه في ذلك[١].

وسرُّ الغموض في هذه الأبواب والتراجم تنوُّع مقاصد المؤلف الإمام ، وبعد مراميه ، وفرط ذكائه ، وحدَّة ذهنه ، وتعمُّقه في فهم الحديث ، وحرصه على الاستفادة والإفادة منه أكبر استفادةٍ ممكنةٍ ، فهو كنحلةٍ حريصةٍ توَّاقةٍ تجتهد أن تتشرب من الزهرة آخر قطرة من الرحيق ، ثم تحوِّلها إلى عسلٍ مصفًّى فيه شفاءٌ للناس.

شأن الإمام البخاري مع الحديث النبويِّ:

وشأن الإمام البخاريِّ مع الحديث النبويِّ الصحيح شأن العاشق الصادق ، والمحبِّ الوامق مع الحبيب الذي أسبغ الله عليه نعمة الجمال والكمال ، وكساه ثوباً من الروعة والجلال ، فهو لا يكاد يملأ عينيه منه ، وهو كلما نظر إليه اكتشف جديداً من آيات جماله ، فازداد افتتاناً وهياماً ، ورأى جماله يتجدَّد في كلِّ حينٍ ، وإذا الوجه غير الوجه ، والجمال غير الجمال ، فلا قديم في الحبِّ ، ولا إعادة عند المحبِّ ، وصدق الشاعر:

يزيدك وجهُه حسناً إذا ما زِدْتَهُ نظرا

ولذلك ترى الإمام البخاريَّ لا يكاد يشبع من استخراج المسائل ، واستنباط الفوائد ، والنزول إلى أعماق الحديث ، والتقاط الدُّرر منه ، والخروج على قرائه بها حتى يذكر حديثاً واحداً أكثر من عشرين مرَّة ، ويستخرج أحكاماً وفوائد جديدةً.

روى حديث جابر قال: كنت مع النبي ﷺ في غزوةٍ فأبطأ بي جملي وأعيا . . . الحديث. أكثر من عشرين مرَّةً.

---

(١) من المؤلفات الحديثة في هذا الموضوع «الأبواب والتراجم للبخاريِّ» للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا السهارنفوري (م ١٤٠٢ هـ).

www.abulhasanalinadwi.org

فكأنه تأخذه النشوة والطرب عند رواية الحديث ، فلا يملُّ من إعادته ، وينشد بلسان الحال:

أعِدْ ذكرَ نعمان لنا إنَّ ذكرهَ   هو المسكُ ما كررته يتضوَّعُ

وكأنه يتمثل ببيت الشاعر:

وحدَّثتنا يا سعدُ عنهم فزدْتنا   شجوناً فزدْنا من حديثكَ يا سعدُ

ثم يشتعل ذكاؤه ـ الذي ضرب فيه بسهمٍ وافرٍ ـ ويتوقَّد ذهنه ، وتسيل قريحته ، فيفلت زمام التأليف ، ويرسل النفس على سجيتها ، ويستخرج من حديثٍ واحدٍ نتائج ، وفوائد لا تدور بخلد كثير من الأذكياء ، وما ذلك إلا لحدَّة ذهنه ، وإفراط حبِّه. ولم يزل الحبُّ ملهماً للبدائع ، ملهباً للقرائح ، والمحبُّ يقع على ما لا يقع عليه المتأمِّل المرهق لجسمه ، المتعب لعقله.

حاجة الأمَّة إلى الحديث ودوره في حسبة الأمة ، وحركات التجديد والبحث الجديد:

من استعرض التاريخ الإسلاميَّ عرف أنَّه لولا السنَّةُ المحفوظة ، والحديث المأثور ، لما أمكنت الحسبة على المجتمع الإسلاميِّ ، ولما قام المصلحون والمجدِّدون في كلِّ عصرٍ ومصر ، يميزون بين السنَّة والبدعة ، والحقِّ والباطل ، والمعروف والمنكر.

فالحديث مدرسةٌ دائمةٌ خالدةٌ ، يتخرَّج فيها مصلحون ومجدِّدون ، وقوةٌ دافعةٌ إلى الأمام وإلى الاضطلاع بأعباء الدَّعوة والحسبة.

وقد علَّل العالم الفرنسيُّ المهتدي محمد أسد (ليوبولد ويس سابقاً) التنصُّل من السنة ونزعة إنكار الحديث ـ التي ظهرت طلائعها في الفترة الأخيرة ـ في ضوء معرفته لنفسية الجيل الجديد ، وقوَّة سيطرة الحضارة الغربية بصعوبة التطبيق بين موازين الحضارة الغربية وقيمها وأساليب حياتها و«موضاتها» وبين السنة والجمع بين الحياة التي تقوم على الحبِّ العميق والثِّقة التامَّة بصاحب الرسالة الإسلاميَّة ، ومصدر السنة النَّبويَّة ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين تقديس الحضارة الغربية ، والنظر إليها كآخر

www.abulhasanalinadwi.org

ما وصل إليه العلم الإنسانيُّ ، ولعلَّ هذا هو السبب الذي يحثُّ بعض القادة السياسيين والحكام في بعض الشعوب الإسلاميَّة والأقطار العربية على الهجوم على السنَّة ، وإنكار الحديث.

وأخيراً ـ لا آخراً ـ أضمُّ إلى هذه الكلمة التي سطرت على عجلٍ من فضل الإمام محمد بن إسماعيل البخاريِّ في فنِّ الحديث ومكانة كتابه الفريد الجامع الصحيح ؛ أنَّه يجب أن يكون الغرض الأساسيُّ من هذا الالتقاء الجامع الفريد الذي جاء في أوانه وفي مكانه ، بعدما انقطعت الآمال ، وطالت الأجيال ، وحالت الأوضاع السياسية ، والمسافات الجغرافية انتهاز هذه الفرصة التي قلما يجود بها الزمان لتجديد ما خصَّ الله به الإمام البخاريّ ، ووقف له حياته ، ومواهبه ، وطاقاته من جمع الحديث الصحيح ، وإتحاف الأمَّة به ، وإتمام الحجَّة عليها ، وتبيين منهج النُّبوة الصادقة الأخيرة ، والتشبُّث بالكتاب والسنة ، والتجنُّب عن البدع والمحدثات بدلاً من الاحتفال بذكراه ، كذكرى زعيمٍ من الزعماء ، أو فاتحٍ من الفاتحين ، أو كأديبٍ وشاعرٍ يكون مفخرة البلاد ، فيستعان في ذلك بما ما أنزل الله به من سلطان ، ولا ثبت من مراجع الدين الصحيحة ، ولا ظهر في خير العصور من إقامة تذكار بنائيٍّ شامخٍ ، أو تجصيص ضريحٍ وتشييده ، يرحل إليه من آفاقٍ بعيدةٍ ، ويجتمع عليه الجمُّ الغفير ، ويؤتى عليه بأعمال ومظاهرات تكريمية تبلغ إلى حد التقديس الذي انتهت إليه الأمم السابقة قبل الإسلام.

وقد حذَّر منه رسول الله ﷺ إذ قال : «اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١) وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ «لا تجعلوا قبري عيداً»(٢) وكلمة العيد كلمةٌ بليغةٌ واسعةُ الآفاق ، متنوعة المظاهر ، لا يقولها إلا نبيٌّ شرفه الله بالوحي ، وأطلعه على ماضي الأمم السابقة ، وانحرافاتها ، وإنما نكتفي بالدعاء لصاحب القبر ، وبرفع الدرجات والجزاء

(١) الموطَّأ للإمام مالك بن أنس.

(٢) سنن أبي داود.

www.abulhasanalinadwi.org

الأوفى على جهاده العلميِّ والبلاغيِّ ، ومنحه فضل الأجر والشكر من هذه الأمة والعزم الصادق قبل العودة على العناية بالحديث الشريف والعمل بالسنة ، ودراسة الجامع الصحيح دراسةً عميقةً دقيقةً ، والعزم على نشر ما جاء فيه ، والدعوة إلى التمسُّك بالحديث والسنَّة في ضوء هذا الكتاب العظيم والسفر الجليل ، ومحاربة الشِّرك والبدع في نطاق نفوذنا ، وبأقصى جهدنا .

هذا مع تكوين مكتبةٍ تختصُّ بالحديث الشريف ، وإنشاء مدرسة خاصَّةٍ بالعلوم الدينية ، والتضلُّع من مصادر الدين الصحيح ، والتشبُّع بروح الدعوة إلى الدين الحنيف والإسلام الخالص ، وبذلك ترجع إلى هذا المكان التاريخيِّ العظيم؛ الذي أكرمه الله بظهور النوابغ والعباقرة في العلوم الدِّينيَّة ، والمحدِّثين الكبار الذين كان ولا يزال في مقدمتهم وعلى رأسهم الإمام محمد بن إسماعيل البخاريُّ ، الذي اجتمعنا لإحياء ذكراه ، والاعتراف بفضله ، والاغتراف من بحره؛ مكانتُه في تاريخ الدين والعلم ، وفضلُه ، وشرفُه ، وتعود إليه البركات ، وتشدُّ إليه الرحال .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

دور الحديث في تكوين المناخ الإسلاميِّ

هذه المحاضرةُ أعدَّها العلامة الندوي على اقتراح من الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلاميِّ بمكَّة المكرمة ، افتتح بها موسم المَحاضرات لعام ١٤٠١ هـ الذي نظمته الرابطة ، وألقيت في ليلة الثلاثاء ١٦ من ذي القعدة الحرام سنة ١٤٠١ هـ (المصادف ١٣/ من سبتمبر ١٩٨١ م) في قاعة المحاضرات في مقرِّ الرابطة بمكة المكرَّمة ، وقد حضَرها عددٌ وجيهٌ من العلماء ، والأساتذة ، والمثقَّفين ، وأعيان الحجَّاج .

والمحاضرة تبحث ـ بأسلوبٍ جديدٍ ـ عن مكانة الحديث في حياة المسلمين ، وحاجة الأمَّة إلى السنَّة ، ومدى الخطر والضَّرر على الكيان الإسلاميِّ ، وضخامة الخسارة للأمَّة الإسلاميَّة ، إذا انقطعت صلة هذه الأمة ـ لا سمح الله ـ عن السنَّة المطهَّرة ، أو حيل بينها وبين الحديث النبويِّ الشريف .

ومدى دقة المؤامرة وأبعادها التي تهدِف إلى إنكار حجيَّة الحديث ، أو الاستهانة بقيمته وجدواه ، والتشكيك في صحته وتدوينه .

وقد تجنَّب المحاضر إعادة ما قيل ، وكتب في هذا الموضوع قديماً وحديثاً ، فقد أشبع بحثاً وتحقيقاً ، وتكونت فيه مكتبةٌ غنيَّةٌ ، لعلَّ أحسن ما ألف ـ أخيراً ـ في هذا الموضوع ، كتاب الأستاذ الكبير الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ الذي أسماه «السنة ومكانتها في التشريع الإسلاميِّ» .

وقد راعى العلامة في هذه المحاضرة نفسية الطبقة المثقفة الثقافة

www.abulhasanalinadwi.org

الغربية ، والطبقة التي لم تتعمَّق في الدراسات الإسلامية ، وهي منصرفةٌ عن البحوث العلمية التي تتَّسم بالدقَّة والعمق والاختصاص العلميِّ ، ويكثر تساؤلها: ما قيمة الحديث العمليَّة؟ وما غناؤه ، وجدواه؟ وما هو الفراغ الواقع في حياة المسلم ، وما ينقص المجتمع الإسلاميُّ إذا لم يتمسك بالسنَّة ولم يعرها الاهتمام ، أو إذا فقد الحديثَ بتاتاً ـ لا قدر الله ـ؟ .

وقد حاول العلامة أن يواجه هذه التساؤلات التي قد يجري بها قلم الكاتب ، وينطق بها اللسان ، وقد تجول في الخاطر ، وتساور النفوس .

ويرجو بذلك أن يطمئنَّ «العقل الرياضيُّ» الذي لا يذعن إلا للواقع ، ولا يقيم وزناً إلا لما كانت له قيمةٌ عمليةٌ واقعية ، وقد أثبت أنَّ معرفة سيرة الأنبياء ومن يقتدى به في الديانات والتشريعات ، وأقوالهم وتوجيهاتهم ، والبحثَ عنها ، والشغفَ بها سجيَّةٌ بشريةٌ ، وحاجةٌ فطرِّيةٌ ، إذا لم يوجد الأصل الصحيح الأصيل مليءٌ بالزائف الدَّخيل .

وهنا أشاد بخصيصة هذه الأمة التي حفظ لها حديث رسول الله ﷺ وأخباره وأقواله ، ودُوِّنت تدويناً لا نظير له في تاريخ الأمم والديانات ، ولا يُحمل على مجرَّد مصادفة .

ثم استعرض التاريخ الإسلاميَّ فبيَّن أنَّه لولا السنة المحفوظة والحديث المأثور ، لما أمكنت الحسبة على المجتمع الإسلاميِّ ، ولما قام المصلحون والمجدِّدون في كلِّ عصرٍ ومصر ، يميزون بين السنَّة والبدعة ، والحقِّ والباطل ، والمعروف والمنكر .

فالحديث مدرسةٌ دائمةٌ خالدةٌ ، يتخرَّج فيها مصلحون ومجدِّدون ، وقوةٌ دافعةٌ إلى الأمام وإلى الاضطلاع بأعباء الدعوة والحسبة ، وكذلك أشار إلى بعض الدوافع الحديثة إلى إنكار الحديث ، والتشكيك فيه ، وما ستؤول إليه هذه الحملة المغرضة من الخيبة والإخفاق .

والمحاضرة ـ على وَجازتها وعلى أنَّها ليست كتاباً ولا بحثاً موسَّعاً في الموضوع ـ فيها مادةٌ كافية لإقناع المثقفين المسلمين الذين رُزقوا حسنَ النِّيَّة وسلامة الفكر والإنصاف ، بضرورة السنة والحديث النبوي ، وقيامهما ، بمهمَّةٍ جذريةٍ حاسمةٍ في حياة هذه الأمَّة وبقائها كأمَّة ذات شخصيةٍ فريدة ،

www.abulhasanalinadwi.org

وصاحبة رسالةٍ سماويةٍ خالدةٍ ، وسماتٍ لا تشاركها فيها أمَّةٌ من الأمم ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النَّبيِّين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومنْ تبعهم بإحسانٍ ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين.

العناصر التي كونت المجتمع الجديد ، وأنشأت الأمَّة الجديدة :

أما بعد! فقد كانت بعثة النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، مصدرَ كلِّ خيرٍ ، ومنبع كلِّ سعادةٍ ، وبفضل ذلك وحده نشأ هذا المناخ الدِّينيُّ الفذُّ ، والمجتمع الإسلاميُّ الفريدُ ، لكنَّنا لو استعرضنا المنهج العمليَّ في هذا الشأن ، والوسائل التي استخدمت في هذا الغرض ، لعلمنا أنَّ مفتاح هذا الانقلاب الذي دُهِشَتْ منه العقول ، وتحيَّرت فيه الألباب ، والعناصر التي تكوَّن منها هذا المجتمع الجديد ، ونشأت منها هذه الأمَّة الجديدة ، إنَّما هي الأمور الثلاثة :

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ شخصية النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وحياته ، وسيرته ، وأخلاقه.

٣ ـ تعليمات النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام وإرشادتهُ ، وتوجيهاتهُ ، وأعماله التي يسمى مجموعها بالسنَّة ، ويحتوي عليه الحديث النَّبويُّ.

ولو تأمَّلنا؛ لعلمنا أنَّ هذه العناصر الثلاثة بمجموعها ، قد تعاملت في تحقيق الأغراض والفوائد المنشودة من البعثة ، وإيجاد أمَّةٍ جديدةٍ ، والحقُّ أنَّه لا يمكن أن يوجد بدونها مجتمعٌ مثاليٌّ ، وحياةٌ مثاليَّةٌ ، وهيكلٌ اجتماعيٌّ تتجلَّى فيه العقائد ، والأعمال ، والأخلاق ، والسلوك ، والعواطف ، والرغبات ، والميول ، والأذواق ، والأواصر ، والعلاقات . إنَّ الحياة شرطٌ للوجود ، ومن سنة الحياة والكون أنَّ السِّراج إنما يستنير من السِّراج.

وما نجده في حياة الصحابة الكرام ، والتابعين لهم بإحسانٍ بجانب

www.abulhasanalinadwi.org

العقائد والأعمال ـ من الخلق الإسلاميِّ ، والذوق السَّامي ، والعواطف الدِّينيَّة العميقة ، والكيفيات الإيمانية العجيبة ـ لم يكن نتيجة تلاوة الكتاب وحدها ، وإنما كانت ـ بجانب ذلك ـ فيها يدٌ لتلك الحياة المثلى المؤثرة ، الحبيبة الأثيرة ، التي كانوا يتفيؤون[1] ظلالَهَا ، ويتذوَّقون جمالها ، ولتلك السيرة والأخلاق الفاضلة التي كانوا يشاهدونها ، ولتلك المجالس والصحبة ، والإرشادات والتعليمات التي ظلُّوا يستفيدون منها ، ويسعَدون بها ، على عهد صاحب النُّبوَّة عليه الصلاة والسلام .

كيف عاش الصحابة الإسلام ، ذوقاً ومشاهدةً وعملاً؟ :

وهذه العوامل بمجموعها شكَّلت ذلك الذوق الإسلاميَّ الممتاز الذي لا يقتصر على التقيد الرسميِّ بالقواعد المقرَّرة ، والضوابط المرسومة ، وإنما كان مشحوناً بالحوافز والدوافع الطبيعية ، والكيفيَّات العملية ، وروح العبادة الخالصة ، ويتَّسم ـ بجانب الوقوف عند الحدود ، وأداء الحقوق ـ بالمشاعر اللطيفة ، والأحاسيس الرقيقة ، ودقائق مكارم الأخلاق .

إنَّهم وجدوا القرآن الكريم ، يأمر بإقامة الصلاة ، ووجدوه يلهج بذكر ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢] ، ولكنَّهم لم يتوصَّلوا إلى كيفيتها الصحيحة إلا حينما صلّوا مع الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ فعلاً ، وشاهدوا هيئة ركوعه ، وسجوده ، الأمر الذي عبَّروا عنه بقولهم : «وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»[2] ، إنَّهم علموا من القرآن الكريم أنَّ الصَّلاة شغل المؤمن المفضَّل ، ووظيفته الحبيبة الأثيرة ، ولكنّهم لم يتمكنوا من تقدير مدى شغف المؤمن بها ، وحنينه إليها ، ورغبته فيها ، ما داموا لم يسمعوا لسان النبوة ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ بقوله : «وجعل قرة عيني في الصلاة»[3] ويقول بلهجة ملؤها الحبُّ والحنين والولوع الزائد والهيام البالغ : «يا بلال! أقم الصلاة ، أرحنا

(١) تفيأ الشجرة وفي الشجرة : استظل بها ، وتتبَّع الظلال .
(٢) رواه أبو داود ، والترمذيُّ .
(٣) رواه النَّسائيُّ .

www.abulhasanalinadwi.org

بها!» ، وكذلك لم يتمكَّنوا من إدراك عمق الصلة بين المسجد وقلب المؤمن ، حتى سمعوا في شأن صالحي الأمة: «ورجلٌ قلبهُ مُعلَّقٌ في المساجد»[١] ، قد وجدوا القرآن الكريم يرغِّب في الدعاء ، ويدعو إلى الابتهال ، والتضرُّع إلى الله ، مرَّةً بعد أخرى ، ووجدوه يبدي لومه وعتابه على الذين يستكبرون عن الدُّعاء ، وكانوا يعرفون مفهوم التضرُّع والابتهال ، لكنَّهم لم يكتنهوا هذه الحقيقة كلَّها إلا عندما شهدوا النَّبيَّ ﷺ يقول وقد وضع في «بدرٍ» جبهته على الأرض: «اللهمَّ أنشد عهدك ووعدك ، اللهمَّ إنْ شئت لم تُعبد»[٢] ، وشهدوا كيفية القلق والاضطراب التي لم يسع أبا بكر أن يتحمَّل رؤيتها ، حتى قال له: «حسبك» ، إنَّهم كانوا يعرفون جيداً أنَّ لبَّ الدعاء وجوهره هو التضرُّعُ ، والاعترافُ بعبوديته ، وعجزِه وفقرِه ، وضعفِه وقلةِ حيلته ، وكلَّما كان الدُّعاء حاملاً لهذه الروح ، زاخراً بهذه الحقيقة ، كان أكثر قيمةً وأهميَّةً ، لكنّهم لم يعرفوا حقيقة الاعتراف بالعبودية ، والعجز ، والتضرُّع ، والاطِّراح على عَتَبة المولى الكريم ، ما لم يسمعوه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول في عرفات:

«اللهمَّ إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرِّي وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيءٌ من أمري ، وأنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجِلُ المُشفِقُ ، المقرُّ المعترفُ بذنبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذَّليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضَّرير ، ودعاء من خضعت لك رقبتهُ ، وفاضت لك عبرتُه ، وذلَّ لك جسمُه ، ورَغم لك أنفُه ، اللهمّ لا تجعلني بدعائك شقياً! وكن لي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين! ويا خير المعطين!»[٣] .

كان خُلقه القرآن:

---

(١) متَّفق عليه.

(٢) صحيح البخاريّ، كتاب المغازي.

(٣) «كنز العمال» عن ابن عباس رضي الله عنهما.

www.abulhasanalinadwi.org

إنهم رأوا القرآن الكريم يقرِّر أنَّ الدنيا ظلٌّ زائلٌ ، وأنَّ الآخرة هي دار القرار ، وكانوا يحفظون ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] إلا أنَّهم إنَّما عرفوا حقيقة ذلك ، وتفسيره بالواقع العمليِّ من حياته صلى الله عليه وآله وسلم ، وفهموا ـ من أسلوب حياته وحياة أهل بيته ـ معنى كون الآخرة هي خيراً وأبقى ، وأنه كيف ينبغي أن تكون عيشة المؤثرين للآخرة على العاجلة ، والمؤمنين بـ ـ «اللهمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة» وحياتهم العائلية ، وحينما كانوا يسمعون ـ بجانب شهودهم هذا المنهج للحياة وهذا الموقف في الدنيا ، وهذا الترغيب المجمل ـ أقوالَ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، عن مصائب جهنَّم وشدائدها ، وعن نعم الجنة ، ولذائذها؛ كان ينشأ فيه مزيجٌ من الخوف والشوق ، وتتمثَّل الجنةُ وجهنمُ أمامهم كلَّ وقتٍ ، وكأنَّهم يشاهدونهما بأمِّ أعينهم.

وكذلك كانوا يعرفون معنى أمثال كلمات الرحمة ، والتواضع ، والرفق والخلق ، وما إليها من التعليمات والتوجيهات ، فقد كانوا أبناء اللغة ، وكانوا متعمِّقين في القرآن ، لكنَّهم لم يعرفوا مدى سعة هذه الكلمات ، وطريق تطبيقها في الحياة العملية والعمل بها في واقع الحياة عملاً صحيحاً ، إلا عندما شهدوا النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يعامل الضعفاء والعجزةَ ، والأطفال ، والنساء ، واليتامى ، والفقراء ، والشيوخ ، وعامة رفاقه ، وأصحابه ، وخدمه ، وأهل بيته ، وسمعوا أقواله ، ووصاياه بهذا الخصوص ، قد عرفوا تعاليم القرآن في صدد أداء حقوق عامَّة المسلمين ، لكن هناك أشكالاً وصوراً لهذه الحقيقة قد لا تخطر من كثير من الناس على بالٍ ـ مثل عيادة المريض ، وتشييع الجنائز ، وتشميت العاطس ـ ولو خطرت لما عرفوا لها قيمةً ، وكذلك جاء في القرآن الكريم تعاليمُ مؤكَّدةٌ فيما يتعلَّق بالإحسان وحسن السلوك مع أهل الحقوق ، والبرِّ بالوالدين ، ولكنِّي أتساءل كم من أساتذة الأخلاق وعلماء النفس والتربية كان لهم أن يهتدوا إلى هذه المكانة السامية الفذَّة ـ في شأن البر بالوالدين ، والإحسان إلى أهل الحقوق ـ التي أشار إليها الحديث النَّبويُّ في تنويهٍ وإشادةٍ: «إن من

www.abulhasanalinadwi.org

أبر البرِّ صلة الرجل أهل ودِّ أبيه بعد أن يولي»[١] ، وكم من أذهانٍ كان لها أن تتوصل إلى تلك المعاني السامية للوفاء والكرم؛ التي تكشف عنها هذه الرواية:

«وربما ذبح الشاة ثم يقطِّعها أعضاء ، ثم يبعثها في صدائق خديجة»[٢] .

هذا قليل جداً من كثيرٍ من أمثلة قسم الاجتماع والأخلاق في الحديث النَّبويِّ الشريف ، تدلُّ على مدى اهتمام الحديث بشتَّى شعب الحياة ، والتعاليم الجديدة الطريفة فيما يتَّصل بها ، وبذلك فهو «حجر الفلاسفة» للإنسانية ـ إن لم يكن في هذا التعبير إساءةُ أدبٍ ـ، ونعمةٌ لا تقدَّر بثمن ، ولا تُشترى بمالٍ .

لابدَّ من مناخٍ مناسبٍ وبيئةٍ متهيئةٍ للأحكام :

إنَّ التجارب الطويلة المتَّصلة التي مرَّ بها تاريخ الأديان والأقوام ، تؤكد أن مجرد الأمر القانوني ، والضابطة الرسمية ليسا بكفيلين بأن يضفيا على عملٍ أو نشاطٍ مسحة من الرُّوح والكيفيات المطلوبة ، ولا تستطيعان أن تنشئا المناخ الذي لابدَّ منه ، حتى يجيء العمل مؤثراً مثمراً منتجاً . فمثلاً : إنَّ مجرَّد الأمر المجمل بإقامة الصَّلاة لا ينشىء تلك النفسية المؤمنة ، ولا توجد تلك البيئة المناسبة من أجل صيانة روح الصَّلاة وهيكلها ، والحفاظ عليها ، ومن أجل ظهور آثارها الروحانية والنفسية ، والعقلية والاجتماعية ، والخلقية والدينية ، إنَّ ذلك يستوجب مبادىء وأصولاً ، وإرشاداتٍ وتعليماتٍ تضفي على العمل روعةً ، وقيمةً ، وتهبه تأثيراً ووقعاً ، ولذلك فتطلَّب القرآن الكريم بدوره للصلاة الوضوءَ ، والطهارة ، والشعور والتعقُّل، والخشوع والخضوع، والسكوت والقنوت ، والجماعة .

غير أنَّه لا يخفى على العاقل الواعي أنَّه كلما كانت الصلاة مستوفيةً ـ بقدر ضروريٍّ وعلى صورةٍ ممكنةِ التطبيق ـ للآداب والفضائل وإعداد الأرضية والتمهيدات الخارجية؛ كان ذلك أقوى على إيجاد جوٍّ تستطيع فيه

(١) رواه مسلم في صحيحه .
(٢) متفق عليه .

www.abulhasanalinadwi.org

الصلاة أن تجيء بخصائصها ونتائجها الروحانية والاجتماعية والخلقية ، وإنَّ الدارسين للحديث والسيرة والراسخين فيها يعلمون أنَّ عمل النَّبيِّ ﷺ ، وتعليماته وإرشاداته قد زادت في هذه الناحية زياداتٍ قيِّمةً وجيهةً عادت بها الصلاة وسيلةً أمضى إلى تزكية النفس ، وتربية الأخلاق ، والإنابة إلى الله ، والانقطاع عن الدنيا إلى الآخرة ، وإلى تعليم الأمة وتربيتها وتوعيتها ، وتوحيدها ، وتنسيقها ، وجمع شملها.

مثلاً: التركيز على نية الوضوء والإشادة بفضلها ، واستحضارها ، وفضل الخطوات الماضية إلى المساجد ، والدعاء الذي يدعى به في الطريق ، وأدب الدخول في المسجد ، وتحية المسجد ، والسنن الراتبة ، وفضل انتظار الصَّلاة ، وثواب الصلاة مع الجماعة ، وثواب الأذان والإقامة ، وفضل الإمامة وعظمتها ، ومكانتها وأحكامها ، والتأكيد على اتِّباع الإمام في أعمال الصلاة ، وتسوية الصفوف ، وفضل الحلق المنصرفة إلى التعليم والتعلم في المسجد ، وحلق الذكر والعبادة ، وآداب الخروج من المسجد ، وحلق الذكر والعبادة ، وآداب الخروج من المسجد ، والدُّعاء الذي يُدعى به عند ذاك ، وما إلى ذلك ، ومن الواضح أنَّ الصلاة تأتي ـ بعد الأخذ بهذه الآداب والفضائل والتعليمات ـ أقوى ذريعة إلى التزكية والإصلاح ، والتعليم والتربية ، والإنابة والانقطاع إلى الله ، وأضف إلى ذلك كلِّه ما ذكره الحديث ـ في اهتمامٍ أيِّ اهتمام ـ من قصَّة كيفية صلاة النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وهيامه بالصلوات النافلة ، وانهماكه عند تلاوة القرآن الكريم ، وانظر إلى أيِّ درجةٍ تبلغ صلاة الأمَّة بهذه المجموعة الكريمة ، من الآداب والتعليمات ، وأنَّ أيَّ جوٍّ نفسيٍّ روحانيٍّ ينشأ ، وقس على ذلك الصوم ، والزكاة ، والحجَّ ، وانظر في آدابها وفضائلها ، وما أُثر من أقوال النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ووقائع حياته في شأنها ، وإلى أي مدىً تبقى فعاليتها ، وقوتها إذا جردت عن هاتي الآداب والفضائل ، وفصلت عن الجوِّ الذي يكونه له الحديث ، وإلى أيِّ مدى تبقى صالحةً لإثارة العواطف ، وإشعال الشوق ، وإيقاد جمرة الذوق ، وبعث الرُّوح ، وشحن بطارية القلب ، وشحذ العقول والأذهان ، وإعطاء قوَّة التماسك

www.abulhasanalinadwi.org

والاستقامة ، وإيجاد مجتمعٍ جديدٍ صالحٍ تسري فيه روح العبادة والتقوى ، والخشية والإنابة؟!.

والواقع أنَّ وقائع حياة النَّبيِّ ﷺ المباركة، وإرشاداته وتعاليمه تخلق ذلك الجوَّ الذي تخضرُّ فيه شجرة الدين ، وتورق وتثمر ، إنَّ الدين ليس مجموعةً من الضوابط الخلقية الجافَّة ، إنَّه لا يبقى حيَّاً بدون العواطف ، والروح ، والوقائع ، والأمثلة العمليَّة ، وخيرُ مجموعةٍ موثوق بها لهذه العواطف والوقائع والأمثلة العملية هي مجموعة الحديث النَّبويِّ الذي أصبحت من خصائص الأمَّة الإسلاميَّة التي لا يشاركها فيها أمَّةٌ من أمم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأصحاب ديانةٍ من الديانات السماوية التي لا يزال بقايا أتباعها والمنتمين إليها ـ على اختلاف أنواعهم ومستوياتهم ـ على وجه الأرض.

الديانات القديمة ضيَّعت أخبار حياة أنبيائها ، وسيرهم ، وأقوالهم الصحيحة ، وملأت الفراغ بقصص عظمائها :

وهذه الديانات ـ من يهوديةٍ ، ومسيحيةٍ ، ومجوسيةٍ ، وبوذيةٍ ، وبرهمية ـ لم تلبث أن فقدت روحها ، وقوتها ، وصلاحيتها للحياة والبقاء ، فضلاً عن النموِّ والازدهار ، لأنها لم تعد تحتفظ بأخبار حياة أنبيائها الموثوق بها ، التي تجدِّد الإيمان واليقين ، وتبعث الروح ، وتنفخ الحياة ، ولم يتيسَّر لهذه الديانات ذلك الجوُّ النفسيُّ الروحانيُّ ، الذي يتقدَّم فيه أتباعها روحياً ، ودينياً ، ويقاومون به المغريات المادِّية ، وغوائل الشيطان والنفس.

وأخيراً إنَّهم شعروا بالحاجة إلى ذلك فإنَّها حاجةٌ فطريةٌ ، فملؤوا هذا الفراغ بقصص حياة كبار أتباع الديانات ، وأخبار «أحبارها ورهبانها» وبما دار في مجالسهم من حديثٍ وحوار ، وما روي عنهم من أحاديث وأخبار ، وأُثر عنهم من أقوالٍ وآثار.

www.abulhasanalinadwi.org

وهنا تألفت لنفس هذا الغرض صحف من تلمود[١] ، عكف عليها اليهود تلاوةً ، وشرحاً ، ومطالعةً ، ودراسةً ، حتى غطَّت على التوراة نفسها ، ونقل من أقوال علماء اليهود ما يرجحها على صحف العهد القديم ، وقد جاء فيها ـ بطبيعة الحال ـ وبتأثير العقلية اليهودية الضعيفة ، والمجتمع اليهوديِّ المنحطِّ الخاضع للتأثيرات الأجنبية الشيء الكثير من نسج الخيال ، وضعف الاعتقاد وما ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام : ٩١] .

ولجأ المسيحيون بدورهم إلى تأليف كتبٍ وإضافتها إلى صحف العهد الجديد ، ككتاب «أعمال الحواريين» و«رسائل بولس» و«رسائل بطرس» و«رسائل يوحنا» ، وككتاب «مشاهدات يوحنا» .

وهام البراهمة وأتباع الديانة الهندية القديمة ، بكتاب «كيتا» (GEETA) الذي يحتوي على أقوال أحد عظمائهم ، «سري كرشن» (SRIKRISHNA) ورامائن (RAMAYANA) حكايات إلههم راما (RAMA) وملحمة «مها بهارت» وغيرها من كتب القصص والملحمات ، وكذلك كان شأن المجوس الفرس بشرح «أوستا» الذي يسمى «رندا فيست» .

وقد عجزت هذه الكتب كلُّها عن العودة بهذه الشعوب المتدينة والديانات القديمة إلى تعاليم دعاتها الأولين ، وتصوير حياتهم ، وسلوكهم ، واتجاهاتهم الأصيلة ، وعن إثارة عاطفة التقليد لحياتهم والتأسِّي بأسوتهم ، والغيرة على دعوتهم ، وعقيدتهم ، بل أساءت إليها أكثر مما أحسنت ، وكان السبب الرئيسيُّ في اعتلال ذوقها الدينيِّ ، وانحراف فطرتها ، وإغراقها في التقديس والتأليه ، والخضوع الزائد لما كان أمعن في الخيال ، وأبعد عن الحقيقة ، وأشدَّ منافاةٍ للفطرة السليمة ، وكان أثرها بعيداً وعميقاً ، ولا يزال في آداب هذه الأمم وعقليتها ، واجتماعها ، وميولها ، ورغباتها ، وحوَّلت هذه الديانات بالتدريج

(١) اسم عام للمثنا والجيمارة .

www.abulhasanalinadwi.org

مجموعةً من البدع والخرافات والتأويلات الباردة ، والتفسيرات الجديدة المتطرفة ، تلاشت فيها تعاليم هذه الديانات الأصيلة ، كما تتلاشى قطرةٌ من خلٍّ في اليمِّ.

مقارنةٌ سريعةٌ بين سير الأنبياء السابقين ومؤسسي الديانات ، وبين الحديث والسِّيرة:

وقد أصبح إفلاس هذه الأمم والديانات في سيرة أنبيائها ، وأخبار حياتها الصحيحة حقيقة مقرَّرة لا يختلف فيها اثنان(١) ، وإذا قارن الإنسان بين السِّيرة النَّبويَّة ومجموعة السنة ودواوين الحديث النَّبويِّ وبين سير الأنبياء السابقين ، وما نقل في حياتهم؛ رأى العجب العجاب ، وما تتحيَّر منه الألباب ، فأكثرها توارث في ظلمات الجهل والإهمال ، والحوادث التاريخية الدَّامية ، وقد أدَّت هذه الديانات رسالتها في فترةٍ زمنَّيةٍ خاصَّةٍ ، ومشى في ضوئها الجيل الذي كلف اتِّباعهم ، ثم لم تبق حاجة إلى الاحتفاظ بها ، وإلى أن تتوارثها الأجيال ، ويكفينا أن نستعرض حياة سيِّدنا المسيح عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاة والسَّلام ، فكان آخر الأنبياء قبل محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ، وتنتسب إليه أمَّةٌ عُرف شغفُها بالعلم والتأليف ، وإفراطها في حبِّ نبيها ، وإطراؤها له إطراءً بلغ حدَّ التأليه والتقديس ، ولكنَّها لم تستطع أن تعرض على العالم إلا نتفاً من أخباره وأقواله التي لا تكون هيكلاً من حياةٍ بشريَّةٍ كاملةٍ يقلده الإنسان في حياته الفردية ، أو يسير في ضوئه مجتمعٌ فاضلٌ ، وقد كان الاعتقاد السائد في العالم المسيحيِّ قبل أيام أن «العهد الجديد» يتضمَّن أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرة المسيح وأخباره ، فانتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص في الموضوع في الزمن الأخير إلى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوماً من حياته ، لا أكثر ، ولا أقلَّ.

يقول القس الفاضل الدكتور شارلس اندرسن اسكات (CHARLES

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى «الرسالة المحمدية» للعلامة الكبير السيد سليمان الندوي ، طبع بعناية وتحقيق المحقق في دار ابن كثير بدمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

ANDERSON SCOTT) في مقالٍ له في دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ، ج/ ١٣ ص/ ١٧١٠):

«ينبغي أن يتنازل الإنسان عن محاولة وضع كتابٍ في سيرة المسيح بكلِّ صراحةٍ ، فإنَّه لا وجود للمادَّة والمعلومات التي تساعد على تحقيق هذا الغرض ، والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات ، لا يزيد عددها على الخمسين (٥٠) يوماً».

أما الأنبياء الآخرون ، وعظماء الملل ، والديانات السَّابقة ، فيصحُّ القول بأنَّ أخبارهم وصور حياتهم مطمورةٌ في ركام الماضي ، وهناك حلقاتٌ رئيسيَّةٌ لا يكمل بغيرها التاريخ ، ولا يتسنىٰ بدونها الاقتداء والتقليد مفقودةٌ لا يمكن البحث عنها ، والاهتداء إليها من هذا العصر المتأخر ، وهذا عين ما تقتضيه الحكمة الإلهية ومنطق الأشياء ، فالمثل الإنسانية لها أعمارٌ طبيعيةٌ ، وحيويَّةٌ محدودةٌ ، فإذا انتهت لم تكن مصلحةٌ في تناقلها ، أما ما كانت الحاجة إليه قائمةً دائمةً ، فبقي على اختلاف الزَّمان والمكان واستمرَّ ، وانتشر ، وأورق ، وأثمر.

أمَّا الإسلامُ وحياةُ صاحب رسالته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيختلف شأنهما عن شأن الديانات السَّابقة وأصحاب رسالاتها الأولين اختلافاً لا مزيد عليه ، فقد جاء فيها من الوضوح ، والتفصيل ، والدِّقَّة ما لا يتصور فوقه العقل الإنسانيُّ ، ولا تؤيدها التجربة الطويلة لتدوين تاريخ العظماء ، وتسجيل وقائعهم ، وحوادث حياتهم ـ بما فيهم الأنبياء وأصحاب الرسالات ـ ونظرة عجلى في كتب الحديث والشمائل ـ فضلاً عن كتب السيرة والمغازي ـ تدلُّ على صدق ما قلناه ، وحسب القارىء أن يستعرض الأحاديث الواردة في حجَّة الوداع في كتب الصحاح ، فيعرف كيف تطيَّب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند إحرامه ، ومن باشر هذا التطيب ، ويعرف نوع هذا الطيب ، وطريقة إشعار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هديه ، ويعرف تفصيله وتحديده ، هل كان في الجانب الأيمن أو الأيسر ، وكيف سلت عنها الدم ، ويعرف كيف احتجم ، ويستطيع أن يحدِّد مكانه

www.abulhasanalinadwi.org

من الجسد الشريف ، وموضعه من الطريق ، ويستطيع أن يحدِّد المنازل بين المدينة ومكة ، ويعدَّ أيامه في السفر ، وذلك في زمانٍ لم يعرف الناس فيه كتابة اليوميات ، وتدوين المذكرات ، ولا تفوته شاردةٌ ولا نادرةٌ ، حتى يعرف قصَّة خروج حيَّةٍ في هذا المشهد الحافل ، وإفلاتها من القتل ، ويعرف كلَّ من كان رديف رسول الله عليه وآله وسلم في هذه الرحلة(١) ، ويعرف اسم الحلاق ، وكيف قسم شعره ، ومن خصَّهم بالشقِّ الأيمن ، ومن خصَّهم بالشقِّ الأيسر ، هذا فضلاً عن خطبه صلى الله عليه وآله وسلم يوم عرفة ، وفي منى ، ووصاياه التي حفظت ، وبلغت ، وعملاً بقوله ﷺ: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلَّغٍ أوعى من سامع»(٢) .

وقد اعترف بهذه الحقيقة الكتَّاب المنصفون من الغرب ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ يقول «جون ديون بورت» في كتابه «السيرة المحمدية» عنوانه : «اعتذارٌ من محمَّدٍ والقرآن APOIOGY FOR MOHAMM AND QURAN» :

«لا ريب أنَّه لا يوجد في الفاتحين والمشرِّعين ، والذين سنُّوا السنن من يعرف الناس حياته ، وأحواله ، بأكثر تفصيلاً ، وأشمل بياناً مما يعرفون من سيرة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأحواله»(٣) .

قد ألقى ريورند باسورت اسمت (BOSWORTH SMITH) عضو كلية التثليت في أوكسفورد سنة ١٨٧٤ م محاضراتٍ عن «محمَّد والمحمَّدية» في الجمعية الملكية في بريطانيا العظمى ، قال فيها :

«أمَّا الإسلام فأمره واضحٌ كلُّه ، ليس فيه سرٌّ مكتومٌ عن أحدٍ ، ولا غمَّةٌ يبهم أمرها على التاريخ ، ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون

(١) قد استوعب صاحب ، نسيم الرياض ، أسماء كل من أردفهم رسول الله ﷺ في حياته فذكر نحو ثمانية وثلاثين (٣٨) .

(٢) تقديم العلامة الندوي لكتب «حجَّة الوداع وعمرات النبي صلى الله عليه وسلّم» للعَّلامة المحدِّث للشيخ محمد زكريا السهارنفوري طبع في دار ابن كثير بدمشق .

(٣) نقلاً من «الرسالة المحمدية» للعلامة السيد سليمان الندوي ، ص/ ١٨ .

www.abulhasanalinadwi.org

من أمر محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ، كالذي يعلمونه من أمر لوثر وملتن ، وإنَّك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخين الأولون أساطير ، ولا أوهاماً ، ولا مستحيلاتٍ ، وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحدٍ هنا أن يخدع نفسه ، أو يخدع غيره ، والأمر كلُّه واضحٌ وضوح النَّهار ، كأنَّه الشمس رأد الضحى ، يتبين تحت أشعة نورها كلُّ شيء»[1] .

الحديث ميزانٌ عادلٌ لوزن حياة المسلمين وواقعهم ، والحكم عليه في كلِّ عصر :

ثم إنَّ الحديث ميزانٌ عادل يستطيع المصلحون في كل عصرٍ أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمَّة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتَّى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث ، الذي هو يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لابدَّ منها في السنن الإلهية ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] فلولا الحديث الذي يمثِّل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتَّزنة ، فلولا التوجيهات النَّبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلاميَّ ، لوقعت هذه الأمة في إفراطٍ وتفريطٍ ، واختلَّ الاتزان ، وفقد المثال العملي الذي حثَّ الله على الاقتداء به ، بقوله : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، وبقوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، والذي يطلبه الإنسان ، ويستمدُّ منه الثقة ، والقوة في الحياة ، ويقتنع بأنَّ تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسورٌ وواقعٌ .

الحديث وسيلةٌ قويةٌ للحسبة على المجتمع الإسلاميِّ ومدرسةٌ دائمةٌ يتخرَّج فيها المصلحون والمجدِّدون :

«ثم إنَّ الحديث زاخرٌ بالحياة ، والقوَّة ، والتأثير الذي لم يزل يبعث

---

(١) الرسالة المحمدية ، ص/ ١٠٠ .

www.abulhasanalinadwi.org

على الإصلاح والتجديد ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ، وحسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره في كلِّ عصرٍ وبلد ، من رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحارب البدع والخرافات ، والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح ، لذلك كلِّه كان الحديث من حاجات هذه الأمَّة الأساسية ، وكان لابدَّ من تقييده ، وتسجيله ، وحفظه ، ونشره»[١] .

وقد ظلَّت كتب السنَّة والحديث ـ ولا تزال ـ مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد ، والتفكير الإسلاميِّ الصحيح في الأمَّة الإسلامية ، تلقَّى منه المصلحون في عصورهم العلم الدينيَّ الصحيح ، والفكر الإسلامي النَّقي ، واحتجوا بأحاديثه ، واستندوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح ، وفي محاربتهم للبدع ، والفتن ، والفساد ، ولا يستغني عن هذا المصدر كلُّ من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص ، والإسلام الكامل ، ويريد أن يوجد صلةً بينهم وبين الحياة النَّبويَّة ، والأسوة الكاملة ، وكل من تلجئه الحاجة وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة .

شهادة التاريخ لتأثير الحديث وكتب السنة في الإصلاح والتجديد :

ويشهد بهذه الحقيقة تاريخ الإسلام والمسلمين نفسه ، فكلَّما ضعفت صلتهم بكتب الحديث والسنة ومعرفتهم بها ، على كثرة وجود الدُّعاة إلى الله ، والمشتغلين بتزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، والزهد في الدنيا والعمل بالسنَّة ، وطالت هذه الفترة؛ وغزت المجتمع الإسلاميَّ الزاخر بأصحاب الاختصاص في العلوم الإسلامية ، المتبحرين في العلوم الحكمية والأدبية ، وفي عهد غلبة الإسلام ، وحكم المسلمين بدعٌ طريفةٌ وتقاليد عجميَّةٌ ، وأعراف دخيلةٌ ، حتى كاد يكون نسخةً من مجتمعٍ جاهليٍّ ،

(١) مقتبسٌ من كتاب العلامة الندوي «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج/١ ص/٩٨ الطبعة الرابعة ٢٩٤ .

www.abulhasanalinadwi.org

وصدقت النُّبوَّة المحمَّدية والحديث الصحيح: «لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ»[١] وخفت صوت الإصلاح وخبا مصباح العلم.

ومن شاء فليستعرض الموضع الديني وواقع حياة المسلمين في القرن العاشر الهجري في الهند، القرن الذي كادت صِلة الأوساط الدينية والعلمية في شبه القارة الهندية تنقطع عن علم الحديث الشريف، ومصادر السنَّة الصحيحة، وكانت تعيش في عزلةٍ عن مراكز العلم الدينيِّ، وتدريس الحديث الشريف في الحجاز واليمن، ومصر والشام، وأصبحت مقتصرةً على كتب المذهب، وشروحها، وتدقيقاتها، وكتب الأصول، والحكمة، كيف فشت فيها البدع، وعمَّت المنكرات، واستحدثت أشكال متنوعةٌ للعبادات والقربات، وراجت سجدة التحية، واتُّخذت القبور مساجد، وأوقدت عليها السُّرج، وكثرت الأعياد الدينية والاحتفالات في أيام وفاة الأولياء والصالحين، وعمرت المشاهد، وأصبحت كعبةَ القاصدين، حتى قيَّض الله لهذه البلاد أئمةً مصلحين، وعلماء ربانيين، كالإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م ١٠٣٤ هـ) الذي أنكر على شعائر الشرك، والتقاليد غير الإسلامية الهندية إنكاراً شديداً، وأنكر وجود البدعة الحسنة بالإطلاق، وأنكر على وحدة الوجود، ودعا إلى التمسُّك بالسنَّة، ومحاربة البدعة دعوةً واضحةً مجلجلةً، وقال كلمته التاريخية المأثورة:

«نحن في حاجةٍ إلى كلام محمَّدٍ العربيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، لسنا في حاجةٍ إلى كلام الشيخ محيي الدين ابن عربي، أو صدر الدين القونوي، والشيخ عبد الرزاق الكاشي، وإلى «النصوص» لا إلى «الفصوص»[٢]، إنَّ

---

(١) رواه الحاكم.

(٢) إشارة إلى كتاب الشيخ ابن عربي المشهور «فصوص الحكم» مقتبس من رسالة رقم ١٠٠/٢. مجموع رسائل للشيخ المجدِّد.

www.abulhasanalinadwi.org

الفتوحات المدنية أغنتنا عن «الفتوحات المكيَّة»[١].

وشمَّر معاصره العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخاريُّ الدهلوي (م ١٠٥٢ هـ) عن ساق الجدِّ في نشر الحديث الشريف، وشرحه، وتدريسه، وتلاهما شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي صاحب «حجة الله البالغة» (م ١١٧٦ هـ) وأبناؤه النجباء، وتلاميذه النبغاء، وقاموا بتعليم كتاب الله وسنة رسوله، وشرح العقيدة الإسلامية الحنفية، ونادوا بالدين الخالص، وقاموا بتدريس الصحاح الستَّة، ونشرها، وتقريرها في المناهج الدراسية، حتى نفقت سوق السنَّة، وقامت دولة الحديث في هذه الربوع البعيدة عن مركز الإسلام، حتى أصبحت منتجعاً لروَّاد علم الحديث، ومنهلاً عذباً لطالبي التوسُّع والتحقيق، وقامت حركاتٌ إصلاحيةٌ من أقوى حركات الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي كلِّه في القرن الثالث عشر، وحسب القارىء أن يقرأ تاريخ حركة الإمامين الشهيدين: السيد أحمد بن عرفان الشهيد، والشيخ محمد إسماعيل الشهيد (١٢٤٦ هـ) الإصلاحية الشاملة[٢]، التي جعلت البلاد غير البلاد، والشَّعب غير الشَّعب، وهبَّت بها رياح الإيمان والحماس الإسلاميِّ، والغيرة على دين الله، وعلى عقيدته الصَّافية، قويةً جدَّدت ذكريات القرون المشهود لها بالخير، وأخبار الأولين، وقد أحيت هذه الحركة الإصلاحية والدَّعوة إلى الدين الخالص كثيراً من السنن التي أميتت، وقضت على كثيرٍ من البدع والمحدثات والعادات الجاهلية التي كانت لها جولةٌ وصولةٌ، وذلك كلُّه بفضل ظهور آثار السنَّة، ونشر الحديث، وإنَّني واثقٌ بأنَّه إذا لم يكن وجودٌ لكتب السنَّة ودواوين الحديث، ولم يكن سبيل إلى معرفة السنن، والتمييز بينها، وبين البدع، لم يكن وجود لهؤلاء

---

(١) إشارة إلى كتاب الشيخ ابن عربي المشهور «الفتوحات المكِّيَّة» مقتبس من رسالة رقم ١٠٠/٢ مجموع رسائل للشيخ المجدِّد.

(٢) يرجع للتفصيل إلى كتاب العلامة الندوي «إذا هبت ريح الإيمان» طبع بيروت، ورسالة «الإمام الّذي لم يوف حقَّه من الإنصاف والاعتراف» طبع لكهنؤ، والقاهرة.

www.abulhasanalinadwi.org

المصلحين الكبار ، والأئمة الأعلام ، الذين يتجمَّل بهم تاريخ الإسلام ، من عهد شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية (م ٧٢٨ هـ) إلى عهد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (م ١٢٠٦ هـ) ومعاصريه من المصلحين والمربِّين ، ومن نبغ بعده من رجال الدعوة والاصلاح ، كالعلامة محمد بن علي الشوكانيِّ (م ١٢٥٥ هـ) والأمير محمد بن إسماعيل الصنعانيِّ (م ١١٨٢ هـ) وأحمد بن عبد الله بن إدريس الحسنيِّ (م ١٢٩٣ هـ) ، والسيد عبد الله الغزنويِّ الأمر تسري (الشيخ محمد أعظم الكابلي) (م ١٢٩٨ هـ) والشيخ حسين علي الواني (م ١٣٦٣ هـ) والشيخ غلام رسول القلعوي (م ١٢٩١ هـ) وغيرهم[1] ، وهي قصَّة كثيرٍ من الأقطار العربية كالعراق ، والشام ، ومصر ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى والبلاد العجمية ، كأفغانستان ، وتركستان ، إلا أننا اقتصرنا على الحديث عن الهند ، رغبةً في الاختصار ، ولأنَّ المحاضر يعرفها عن كثبٍ ، لا عن كتبٍ .

الحديث سجَّل الجو الإيماني الأول وخلَّده للأجيال القادمة :

ومن دلائل كون الإسلام هو الدين الإلهي الأخير ، والرسالة الإلهية الخالدة ، الباقية ، أنَّه لم يمن المسلمون بالعزلة الفكرية ، والارتجال العملي والسلوكي الذي منيت به أتباع الديانات القديمة ، لعدم وجود الرَّصيد الدِّينيِّ ، والركيزة العلمية ، أما المسلمون؛ فقد سجَّل الحديث النَّبويُّ الشريف لهم للأبد ذلك الجوَّ الإيمانيَّ والروحانيَّ الذي عاش فيه وتربَّى الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، والكيفيات النفسية ، والروحية التي لابست حياتهم ، وواكبتها طول الطريق ، وبذلك فقد أمكن للأجيال المتلاحقة القادمة من المسلمين أن تصل بقفزةٍ واحدةٍ إلى الجوِّ الذي تنوَّر بوجود شخصية النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، يتكلَّم والصحابة كلُّهم آذانٌ صاغيةٌ ، وقلوبٌ واعيةٌ ، كأنَّ على رؤوسهم الطير ، تتجلَّى فيه مواقف

---

(١) اقرأ تراجم أعلام الهند في كتاب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» للعلامة عبد الحي الحسني ج/ ٧ و٨ طبع دائرة المعارف ، حيدر آباد (الهند) .

www.abulhasanalinadwi.org

العمل بجانب الأحكام ، وبجانب أشكال العمل تتمثَّل مشاهد العواطف والكيفيات ، يستطيع فيه المرء أن يقدِّر بدوره أنَّ أيَّ نوع من الأعمال والأخلاق يخلقه الإيمان ، وأنَّ أيَّ نوع من الحياة يوجده اليقين في الآخرة؟ إنَّها نافذةٌ يستطيع المرء أن يطلَّ منها على حياة النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم العائلية ، ومشهد الحياة في بيته ، وأشغاله في الليالي ، وعيشة أهل بيته ، ويمكنه أن يرى مشهد سجوده بعينيه ، ويسمع دعاءه ومناجاته بأذنيه ، وهنالك هل يمكن العيون ـ التي ترى عينيه مستعبرتين وقدميه متورِّمتين ـ والآذان التي تسمع «أفلا أحبُّ أن أكون عبداً شكوراً»(١) ، أن تمنى بالغفلة والتقصير ، إنَّ العيون التي شهدت أن يمضي هلالٌ بعد هلالٍ ، ولا توقد نارٌ في بيت النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ورأت بطنه معصوباً بحجرين ، وإنَّ الحصير قد أثَّر في ظهره ، ورأت أنَّه لا يقصد فراشه في الليل حتى يفرِّق الذهب والفضة المتبقيين ، ولا يقرُّ له قرارٌ حتى ينتهي من ذلك ، ورأت عند مرض وفاته أنَّ الزيت لإنارة السراج يستقرض من بيت الجار ، وكيف تغيب عنها حقيقة الدنيا ، إنَّ الذي شهد أنَّه كيف يخدم أهل بيته ، ويحنو على صغاره ويتسامح مع خدمه ، ويعطف على رفاقه ، ويرحم أصحابه ، ويرفق بأعدائه أنَّى يقصد سواء ليتلقى درس الإنسانية الكاملة ، ويتعلَّم مكارم الأخلاق؟!

المجتمع الإسلاميُّ بألوانه المختلفة والحياة بحقائقها المتنوعة في مرآة الحديث:

وإنَّ هذا الجوَّ لا يستفيد فيه المرء من شخصية النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وحدها ، وإنما سيجد أبواب بيوت الصحابة مفتوحةً على مصراعيها ، وسيشهد دون ما عسرٍ وكلفة حياة بيوتهم ، وأوساطها ، يراهم رهباناً في الليل ، فرساناً بالنهار ، ويرى مشاغلهم في الأسواق ، وتفرّغهم في المساجد ، ويرى فيهم التواضع والإيثار ، والانشغال بالله عن النفس ، وإغراء النفس الأمَّارة بالسُّوء ، وطاعتهم الكاملة غالباً ، وسقطاتهم البشرية

(١) متفق عليه.

www.abulhasanalinadwi.org

أحياناً ، هناك تتمثَّل أمام العين قصة إيثار أبي طلحة الأنصاري ، وقصة تخلُّف سيدنا كعب بن مالك من غزوة تبوك ، وامتحان حبِّه للرَّسول ، ووفائه للإسلام ، وشهادته على نفسه ، واستقامته في هذه المحنة ، ثم توبة الله عليه ، توبةً مقرونةً بالتوبة على الرُّسول والخارجين في الغزوة ، تكريماً له ، وتطبيقاً لقلبه ، ووقايته من «مركّب النقص» ، وكذلك قصة أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وموقفها الحسَّاس الدقيق في قصَّة الإفك ، وإيمانها ، وغيرتها ، وعزَّة نفسها ، ثم نزول براءتها من فوق سبع سماوات ، وموقف أبي بكرٍ الصديق في هذا الموقف الحسَّاس الدقيق المثير للغيرة والطبيعة البشرية ، وصدقه واستقامته فيه ، وعودته إلى البرِّ بمن آذاه في أعزِّ شيءٍ إليه ، وبالجملة فإنَّ ذلك جوٌّ طبيعيٌّ تتجلَّى فيه الحياة بحقائقها المتنوعة ، وألوانها المختلفة ، والطبيعة البشرية بمظاهرها ، وخصائصها ، وحواها الحديث النَّبويُّ الشريف ، وسجَّلها باقيةً إلى يوم القيامة .

وبقاءُ صورة العهد النَّبويِّ ـ بجانب القرآن الكريم ـ مسجلةً ، وبقاء حديث صاحب النُّبوَّة ، وصورة جوِّ عهدها ، معجزةٌ من معجزات الإسلام ، ومزيَّةٌ من مزاياه؛ التي لا تشاركه فيها ديانةٌ ، إنَّ الدِّين الذي جاء ليبقى إلى يوم القيامة ، ويقدِّم للأجيال القادمة نماذج عمليةً ، ويوفر دواعي العمل ونوازعه ، ويغذِّي العقل ، والقلب في وقتٍ واحدٍ لا يمكنه أن يعيش بدون الجوِّ ، وهذ الجوُّ قد بات مصوناً محفوظاً بفضل الحديث .

عناية المسلمين بتدوين الحديث وخدمته ، تقدير العزيز العليم :

إنَّ دراسة تاريخ تدوين الحديث تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ ذلك لم يكن صدفةً ، أو بدعةً أحدثها النَّاس في العصور الأخيرة ، إنَّ عناية الصحابة بكتابة الحديث على العهد النَّبويِّ ، وتقييد عددٍ وجيهٍ من الحديث ، ثم عناية التابعين ـ منذ أواخر عهد الصحابة بالذات ـ بتدوين الحديث وترتيبه ، وتقاطر طلاب العلم من خراسان ، وتركستان ، وهيامهم بجمع الحديث ، وشغفهم باستظهاره ، وحفظه ، وذاكرتهم القويَّة المدهشة ، وعزيمتهم وعلوِّ همتهم ، ثمَّ وجود المجتهدين في فنِّ أسماء الرجال ، وفنِّ الرواية؛

www.abulhasanalinadwi.org

الذين كانت لهم قدمٌ راسخةٌ ، وملكةٌ قويةٌ ، ونظرٌ ثاقبٌ في هذه الناحية ، ثم تفرغهم لذلك ، وانقطاعهم إليه ، وانشغالهم به عن نفوسهم وملذَّاتهم ، ثمَّ إقبال الأمَّة على الحديث إقبالاً كلِّياً ، وشغفها بحديث رسولها شغفاً لا يوجد له نظير في تاريخ الأمم ، وقيامها بحفظه ، ودراسته ، ونشره قياماً لا مزيد عليه ، واشتغالها به من نواحٍ شتَّى(١) إنَّ ذلك كلَّه دليلٌ واضحٌ على أنَّ الله تعالى كان يريد ـ كجمع القرآن ـ صيانة «صحيفة هذه الحياة» ، وبفضل ذلك بقي امتداد الحياة المباركة ـ على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ وظلَّت الأمَّة في كلِّ دورٍ من أدوارها تتمتَّع بذلك التراث الروحانيِّ والطبيعيِّ ، والعلميِّ ، والإيمانيِّ ، الذي سعد به الصحابة رضي الله عنهم مباشرةً .

تـوارث الأمـة للـذوق الـدينـيِّ والـمـزاج الإسـلامـيِّ :

وعلى ذلك فلم يجر التوارث في خصوص العقائد والأحكام ، إنما جرى كذلك في الذَّوق والمزاج ، والعقلية والنفسية ، وبفعل الحديث ظلَّ ذوق الصحابة ينتقل من جيل إلى جيلٍ ، ومن عهدٍ إلى عهدٍ ، ومن طبقةٍ إلى طبقة ، ولم يأت في تاريخ الأمَّة الطويلة حينٌ من الدهر فقد فيه هذا الذوق كلِّيّاً ، فقد وجد في كلِّ عصرٍ رجالٌ يُعبدون بحقٍّ من حاملي ذوق الصحابة ، رغبةً في العبادة ، وتقوىً من الله ، وخشيةً منه ، واستقامةً ، وعزيمةً ، وتواضعاً ، واحتسابَ نفسٍ ، وحنيناً إلى الآخرة ، ورغبةً عن الدنيا ، وعنايةً زائدةً بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وكراهيةً شديدة للبدع ، ونزعةً قويةً إلى اتِّباع السُّنَّة ، الأمر الذي لا يحصل إلا بالانشغال بدراسة الحديث والعكوف عليه ، تعلماً ، وفهماً ، وتعليماً ، وتدريساً ، وشرحاً ، وتدريباً ، أو بملازمة أولئك الذين اقتبسوا من مشكاة النُّبوَّة ، وكان لهم نصيبٌ غير منقوصٍ من هذا التراث النَّبويِّ ، وظلَّت الأمَّة تتوارث

(١) راجع للتفصيل كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة الندوي ج/ص/ ١٠٢ ، ١٠٣ ، وكتاب «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» للدكتور مصطفىٰ السباعي . ص/ ١٢١ ـ ١٢٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

هذا الذوق عبر عصورها منذ القرن الأول إلى هذا القرن الرابع عشر الهجري ، رغم طابع المادية والتدهور الذي يتَّسم به هذا العهد ، ولا تزال هذه الثروة القيِّمة باقيةً ، والاستفادة منها قائمةً .

دافعٌ جديدٌ إلى إنكار الحديث والسنة :

وقد علل العالم الغربي المهتدي محمَّد أسد (ليو بولد ويس سابقاً) التنصُّل من السنَّة ، ونزعة إنكار الحديث ـ التي ظهرت طلائعها في الفترة الأخيرة ـ في ضوء معرفته لنفسية الجيل الجديد ، وقوة سيطرة الحضارة الغربية ، بصعوبة التطبيق بين موازين الحضارة الغربية ، وقيمها ، وأساليب حياتها و«موضاتها» ، وبين السنَّة والجمع بين الحياة التي تقوم على الحبِّ العميق والثقة التامَّة بصاحب الرسالة الإسلامية ، ومصدر السنَّة النبويَّة ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وبين تقديس الحضارة الغربية والنظر إليها كآخر ما وصل إليه العلم الإنسانيُّ ، ولعلَّ هذا هو السبب الذي يحث بعض القادة السياسيين والحكَّام ، في بعض الشعوب الإسلامية والأقطار العربية ، على الهجوم على السنَّة ، وإنكار الحديث ، يقول محمد أسد :

«وفي هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدنيَّة الغربية في البلاد الإسلامية نجد سبباً جديداً يضاف إلى الموقف المستغرب الذي يقفه مَنْ نسمِّيهم «متنوري المسلمين» من هذه القضية ، ذلك هو قولهم : إنَّه من المستحيل أن نعيش على سنَّة النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن تتبَّع الطريقة الغربية في الحياة في آنٍ واحدٍ ، ثم إنَّ الجيل المسلم الحاضر مستعدٌّ لأن يكبر كل شيءٍ غربيٍّ ، وأن يتعبَّد لكلِّ مدنيةٍ أجنبيةٍ ، لأنَّها أجنبيةٌ ، ولأنَّها قويَّةٌ وبرَّاقةٌ من الناحية المادِّية ، هذا التفرنج كان أقوى الأسباب التي جعلت أحاديث النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام ، وجعلت جميع نظام السنَّة معها لا تجد قبولاً في يومنا هذا . إنَّ السنة تعارض الآراء الأساسية التي تقوم عليها المدنية الغربيَّة معارضة صريحةً ، حتى إنَّ أولئك الذين خلبتهم الثانية (المدنية الغربية) ، لا يجدون مخرجاً من مأزقهم هذا إلا برفض السّنة ، على أنها غير واجبةِ الاتِّباع على المسلمين ، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها ، وبعد

www.abulhasanalinadwi.org

هذه المحاكمة الوجيزة يصبح تحريف تعاليم القرآن الكريم ، لكي تظهر موافقةً لروح المدنية الغربيَّة ، وأكثر سهولة»[١] .

التشكيك في حجية الحديث وإنكار السنة ، مؤامرةٌ على الإسلام ، ستبوء بالخيبة والإخفاق:

والذين يحاولون أن يحرموا الأمَّة هذا المنبع الفيَّاض للحياة ، والهداية ، والقوة بإثارة الشكِّ والارتياب في حجِّيَّة الحديث وقيمته ، وزحزحة ثقتها به ، إنَّهم لا يدرون مدى الضَّرر والخسارة التي يلحقونها بها ، إنَّهم لا يدرون أنَّهم يكونون بذلك قد جعلوا أمَّتهم «محرومة الإرث» محذوفة الصَّدر «مقطوعة الأصل» حائرةً ، تائهةً ، كما صنع أعداء اليهوديَّة والمسيحيَّة ، أو حدثان الدهر معهما ، فلو أنَّهم يصنعون ذلك عن شعور ووعيٍ ، لما كان لهذه الأمَّة ودينها عدوٌّ ألدّ منهم وأحنق ، لأنَّه لا تعود إذاً هناك وسيلةٌ إلى إنشاء هذا الذوق الدِّينيِّ من جديدٍ ، الذوق الذي كان يمتاز به الصَّحابة رضي الله عنهم ، والذي لا يمكن أن يوجد إلا بصحبة النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم مباشرةً ، أو بواسطة الحديث الذي هو صورةٌ حيَّةٌ لذلك العهد ، ومذكِّرةٌ ناطقةٌ للحياة النَّبويَّة تزخر بكيفيات العهد النَّبويِّ ، وتتعطَّر بأريجه ، وتفوح بريَّاه .

وقد أحسن الأستاذ محمد أسد في كتابه القيِّم «الإسلام على مفترق الطرق» تشخيص هذا العداء للإسلام ومدى خطر هذه المؤامرة التي تحاول تجريد المجتمع الإسلاميِّ من هذه القوَّة التي لا عوض عنها ، وهذه الثروة التي لا مثيل لها ، فيقول:

«لقد كانت السنَّة الهيكل الحديديَّ الذي قام عليه صرح الإسلام ، وإنَّك إذا أزلت هيكل بناءٍ ما ، أفيدهشك بعدئذٍ أن يقوَّض ذلك البناء ، كأنَّه بيتٌ من ورق»[٢] .

---

(١) «الإسلام على مفترق الطرق» ص/ ٩٥ ـ ٩٦ .
(٢) الإسلام على مفترق الطرق ص/ ٨٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

ويتحدَّث عن تأثير إنكار الحديث وضرورة اتِّباع السنَّة ، فيذكر نتيجة ذلك ، ويقول :

«ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للإسلام ـ على أنه نظامٌ خلقيٌّ وعمليٌّ ، ونظامٌ شخصيٌّ واجتماعيٌّ ـ تنتهي بهذه الطريقة (يعني بإنكار الحديث وضرورة اتباع السنة) إلى التهافت والاندثار»[١] .

وبالرَّغم من هذه المحاولات الطائشة للتشكيك في حجِّيَّة الحديث ، والدعوة إلى إنكار السنَّة التي ظهرت على مستوياتٍ مختلقةٍ ، وبدوافع متنوعةٍ ، عقائديةٍ ، وسياسيةٍ ، وشخصيةٍ ، وللهروب من مسؤولية العمل بالأحكام الشَّرعية ، والالتزام الدِّينيِّ في فتراتٍ مختلفةٍ لم يزل شعار السنة عالياً ، والدعوة إليها قائمةً ، وقد عجنت بها طينة المجتمع الإسلاميِّ ، وتغلغلت في أحشائه ، وجرت منه مجرى الرُّوح والدَّم ، حتى أصبح من المستحيل تجريده منها ، وإقامة مجتمعٍ جديدٍ على مجرَّد الدَّعوة إلى القرآن الذي اقترن بعمل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وشرحه له ، وتفصيل ما جاء فيه مجملاً ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤] ، ولا يزال الحديث النبويُّ الشريف معتنىً به ، دراسةً ، وتفهُّماً ، وتحقيقاً ، ونشراً لمصادره التي لم تر ضوء الشمس بعد ، ولا تزال الحسبة قائمةً على المجتمع الإسلاميِّ ، والأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، والردِّ على البدع ، والمحدثات على قدمٍ وساقٍ ، بما في ذلك من تقليد الحضارة الغربية التقليد الأعمى ، والردَّة العقائدية ، والفكرية والحضاريَّة ، وقبول المدنية الغربية برمَّتها وبحذافيرها ، وعلى علاَّتها ، ومخالفاتها للحياة الإسلامية ، بفضل الاحتكام إلى السنَّة والرجوع إلى الحديث ، تحقيقاً لما أخبر به النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تزال طائفةٌ من أمتي قوامةً على أمر الله لا يضرُّها من خالفها» ، وفي حديثٍ آخر : «لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحقِّ حتى تقوم الساعة» .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق . ص/ ٩٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ شأن المشكِّكين في حجِّيَّة الحديث ، والحاملين للواء إنكار السنَّة مع الحديث النبوي والسنة المطهرة ، كما حكاه الشاعر العربي القديم :

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنَها فلمْ يَضُرْها ، وأوهى قرنَه الوعلُ

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

شاعر الإسلام: الدكتور محمَّد إقبال
حياته، وثقافته
شاعريته، وإنتاجه

ألقى العلامة النَّدويّ هذا الحديث في إذاعة المملكة العربية السعودية عام ١٩٥١ م بدعوةٍ من وزارة الإعلام السعودية.

www.abulhasanalinadwi.org

ولد محمد إقبال في «سيالكوت» مدينةٌ في بنجاب سنة ١٨٧٧ م ، وهو سليل بيتٍ معروف من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، أسلم جدُّه الأعلى قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوُّف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً يغلب عليه التصوُّف .

تعلَّم محمد إقبال في مدرسةٍ إنجليزية في بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكليةٍ في ذلك البلد ، حيث تعرَّف بالأستاذ السيد مير حسن ، أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلِّية ، وكان من رواد المعلمين الذين يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثر في الشاب الذكي كلَّ تأثير ، وغرس فيه حبَّ الثقافة والآداب الإسلاميَّة ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره في الكلية سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب .

وانضمَّ إلى كلِّية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة وبرز في اللغة العربية والانجليزية ونال وسامين ، وأخذ شهادة (B. A.)[١] بامتياز ، وفي لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير «سيرتامس أرنولد» صاحب كتاب «الدعوة إلى الإسلام ، The preaching of Islam» وعميد الكلية الإسلامية في علي كره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي والأديب الشهير قاضي محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشىء أول مجلة علمية أدبية في لغة أردو ، اسمها «مخزن» وكان إقبال قد نظم قصيدته الأولى البديعة «جبل هماله» وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١ م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد في مجموع شعره الأول . وكان لها

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنجليزي الهندي تعادل ليسانس في مصر وغيرها .

www.abulhasanalinadwi.org

دويٌّ في أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر الشاب المبدع .

وفي هذه المدة أخذ محمد إقبال درجة[١] (M. A) في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً وعيِّن على أنَّه أستاذ للتاريخ والفلسفة والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية والفلسفة في الكلية الحكومة التي تخرَّج منها ، وشهد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥ م حيث التحق بجامعة «كامبردج» وأخذ شهادة عامةً في الفلسفة ، وعلم الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضراتٍ في موضوعاتٍ إسلامية أكسبته الشهرة والثِّقة ، وتولى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه أرنولد ، ثمَّ سافر إلى ألمانيا ، وأخذ من جامعة «ميونخ» الدكتوراة في الفلسفة ، ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائيَّ في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصَّص في المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨ م سالماً غانماً ، ولما مرَّ بصقلية في طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدة افتتحها بقول: «ما بك أيُّها الرجل أدمعاً لا دمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية» .

ومن دواعي العجب أنَّ كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لا يتجاوز اثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير ، والسياسي الحاذق في عدَّة لغات بالمحاماة ، لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته وجلَّ همِّه في تأليف الكتب ، وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية «حماية الإسلام» السنوية وينشر فيها قصائده ، ومنها «العتاب والشَّكوى» التي اشتكى فيها إلى الله على لسان

(١) وهي تعادل «الماجستير» في مصر .

www.abulhasanalinadwi.org

المسلمين ما حلَّ بهم ، وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدةً أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بيَّن فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدين ، وعدم اتقائهم أمر الدنيا ، تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنَّى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرِّجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من «قفا نبك» وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب والمعاني والعرض ، وهما «النشيد الوطني» و«أنشودة المسلم» كلاهما سار مسير النهار ، وصار الأوَّل النشيد الوطنيَّ الوحيد الذي لا تزال ترتجُّ به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية أنشودة المسلم التي تفتتح بها اجتماعات المسلمين.

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠ ، وما يوم حليمة بسرٍّ ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثرٍ ، جرحت عواطفه ، وقلبه ، فتحرَّك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدوّاً لدوداً للحضارة الغربية ، والإمبراطورية الأوربية ، وأملاه حزنه ووجده قصائد كلُّها دموعٌ حارةٌ في سبيل المسلمين ، وسهامٌ مسمومةٌ في صدور الأوروبيين ، وتتجلَّى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده «البلاد الإسلامية» ردٌّ على الوطنية ، ودعوةٌ إلى الجامعة الإسلامية ، و«يا هلال العيد» و«المسلم» وفاطمة بنت عبد الله (وهي فتاةٌ مسلمةٌ استشهدت في جهاد طرابلس) ، و«محاضرة أدرنة» و«الصِّدِّيق» و«بلال» و«الحضارة الحديثة» و«الدين» و«شكوى إلى الرسول» وقد نوَّه في هذه القصيدة على الزعماء والقادة ، الذين يتزعَّمون المسلمين وليست عندهم صلةٌ روحية بالنَّبيِّ ﷺ ، يقول: «أنا بريء من أولئك الذين يحجُون إلى أوربا ويشدُّون إليها الرحال مرَّةً بعد مرَّةٍ ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ، ولا يعرفونك» و«هدية إلى رسول» وقد قال فيها: «إنَّه حضر عند النبي ﷺ ، فقال له النبيُّ ﷺ: ماذا حملت إلينا من هدية؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا ، وقال: إنها لا تليق بمقامكم الكريم ولكنِّي جئت بهديةٍ ، في زجاجةٍ يتجلَّى فيها شرف أمتك ، وهو دم شهداء طرابلس».

www.abulhasanalinadwi.org

ثمَّ انفجر البركان الأوروبيُّ سنة ١٩١٤ م ، وحدث ما حدث فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهَّن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشب من حماسته نيراناً ويفجّرُ بإيمانه وثقته أنهاراً ، وجاش صدره ، وفاض خاطره ، وسالت قريحته ، وفي تلك المدَّة نظم غرَّ قصائده منها: «خضر الطريق» وفيها قطع ، منها: «الشاعر والتجوُّل في الصحراء» ، و«الحياة» و«الحكومة» و«الرأسمالية» ، و«الأجير» و«عالم الإسلام» و«طلوع الإسلام» وكلُّها آيةٌ في الشعر ، والحكمة ، والحماسة ، وحقائق الحياة ، أما «طلوع الإسلام» فهي بيت القصيد في شعره ، لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلامي في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤ م أول مجموع شعره باسم «بانك درا» يعني: جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شاعرٌ ، وأعيد طبعه مراراً بعددٍ كبيرٍ.

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته وقد ازداد فكرهُ نضجاً ، وأفقُ معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته واتَّضحت رسالته ، فنشر له عدة كتبٍ فارسية ، وقد آثر اللغة الفارسية لشعره لأنَّها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الإسلامية التي تلي اللغة العربية في الأهمِّيَّة والانتشار في العالم الإسلاميِّ ويتكلَّم بها قطران مهمَّان: إيران وأفغانستان ، و«تفهم في الهند ويحذقها كثير من أهلها ، وأهل تركستان ، وروسيا ، وتركيا ، ونشر مجموعتين بالأردية ، فأمَّا الدواوين الفارسية فهي «أسرار خودي» يعني: (أسرار معرفة الذات) و«رموز بيخودي» (أسرار نداء الذات) و«بيام مشرق» (رسالة الشرق) في جواب كتاب «جوته» «تحية الغرب» و«زبور عجم» و«جاويد نامه» و«بس جه بايد كرد أي أقوام شرق» (ماذا ينبغي أن تعمله الشعوب الشرقية) و«مسافر» و«أرمغان حجاز» (هدية الحجاز) وبالأردية «بال جبريل» (جناح جبريل) و«ضرب كليم» (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة «مدراس» طبعت باسم:

Reconsrtuction or Religious Thought in Islam.

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات

www.abulhasanalinadwi.org

المستشرقون ، وعلماء الفلسفة ، والدين اعتناء عظيماً ، وعلَّقوا عليها أهميَّةً كبيرةً ، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والطليانية ، والروسية ، وممَّن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالإنجليزية «أسرار خودي» و«رموز بيخودي» وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره ، وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ٩٣٠ م في «إله آباد» ، وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرَّة ، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٠ م ـ ١٩٣١ م .

وجاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا وأسبانيا وإيطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى في «مجريط» محاضرات في الفن الإسلاميِّ ، وزار مسجد قرطبة ، وصلى فيه لأول مرَّة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف على تربته دموعاً غزاراً ، وتذكَّر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوِّه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأنَّ هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجوُّ قرطبة يشكو إليه بُعْدَ عهده من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعدُّ من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدةً من أبدع قصائده[١] .

وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوةٍ نادرةٍ وإكرامٍ بالغٍ ، وقابله السنيور موسوليني ، وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدَّث معه طويلاً ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال أفريقية ، ولكن الشاعر الإسلاميَّ الغيور رفض دعوتها ، وأبى أيضاً أن يزور جامع باريز ، وقال: إنَّ هذا ثمنٌ بخس لتدمير دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته

(١) تظهر هذه القصيدة في المجموعة «انظر في جامعة قرطبة» في كتاب العلامة الندوي «روائع إقبال» طبع دار ابن كثير بدمشق .

www.abulhasanalinadwi.org

بأوروبا أقيمت له عدَّة حفلات تكريم أقامها لها أصدقاؤه وأساتذته في جامعة كامبردج ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما ، وفي طريقه إلى الهند عرَّج على القدس واشترك في المؤتمر الإسلامي الشهير ، وقال في أثناء الطريق قصيدته البديعة «ذوق وشوق»[(١)].

وفي سنة ١٩٣٢ م لبَّى دعوة السلطان الشهيد نادر خان ملك أفغانستان في بعثةٍ تتألف من فقيد العلم والشرف سر رأس مسعود حفيد سر سيد أحمد خان ورئيس جامعة عليكره الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدَّث إليه الملك الفقيد طويلاً ، وأفضى إليه بذات صدره ، وبكيا طويلاً ، ولمَّا زار قبر السلطان محمود الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه وافتضح باكياً ، وقال قصيدةً حكيمةً بديعةً ، وعلى إثر رجوعه من كابل نظم منظومته «مسافر».

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحَّته أخيراً ، وظلَّ أياماً طويلةً رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ويملي الكتب والمقالات ، ويقابل الأصدقاء والزوَّار والعوَّاد ويحادثهم في شؤون إسلاميةٍ وعلميَّةٍ ، ومما نشر له في هذه الأثناء مقالة مستفيضة في الرد على القومية ، تناقلتها الصحف وتحدث بها الناس ، وممَّا قال قبل وفاته بأيام: «جنة لأرباب الهمم ، وجنة للعباد والزهَّاد ، قل للمسلم الهنديِّ: أبشر ، فإنَّ في سبيل الله جنةً أيضاً» وقال قبل وفاته بعشر دقائق: «ليت شعري! هل تعود النغمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازيَّة ، قد أظلني موتي وحضرتني الوفاة فليت شعري! هل حكيم يخلفني. . .؟» ، وقال وهو يجود بنفسه: «أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلمٌ ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً».

وكان ذلك آخر برهانٍ أقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم

---

(١) ظهرت هذه القصيدة في المجموعة بعنوان «في فلسطين» في كتاب العلامة الندوي «روائع إقبال» طبع دار ابن كثير دمشق.

www.abulhasanalinadwi.org

ويقينه ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه القديم على حين غفلةٍ من العوَّاد ، والأصدقاء ، والتلاميذ ، والإخوان في سائر أنحاء العالم الإسلاميِّ ، وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارةً ونوراً قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨ م .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

أدب الحديث النبوي الشريف

ألقى العلامة الندوي هذه المحاضرة في الندوة العالمية لرابطة الأدب الإسلامي المنعقدة في الجامعة السلفية بنارس في ٢١ ـ ٢٢ أبريل ١٩٩٤م .

www.abulhasanalinadwi.org

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

وبعد! فإني أصالة مني ونيابة عن زملائي ـ أعضاء رابطة الأدب الإسلامي العالمية ـ أرحب بكم أيها السادة! وأنتهز هذه الفرصة النادرة للحديث وتبادل الفكر في موضوع جدي له قيمة علمية أدبية خطيرة ، وفائدة دينية تاريخية كبيرة ، اتجه بإغفاله الأدب العربي ، والقدرة البيانية الكتابية في اللغة العربية ، اتجاهاً غير سليم ، وفقد ثروة كبيرة ، ومنبعاً فياضاً للتعبير والتأثير في مجال الدعوة والكتابة والخطابة ، والتأثير والإقناع ، وأصبح متطفلاً على أساليب صناعية متكلفة أسيرة للسجع والقوافي ، أو الصنائع والبدائع ، لا يبرأ من تبعة هذه الجناية الجامعون للمثل والنماذج الأدبية ، ومؤرخو الأدب ونقاده إلا القليل النادر .

وقبل أن أتكلم عن خصائص مدرسة الحديث النبوي الأدبية والبيانية ، في إطار واسع ، وفي ضوء نماذج أدبية بيانية تعبيرية ، جاءت فيما أثر عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فيما رووه عن وقائع شهدوها ، ومحن ابتلوا بها ، وروائع رأوها ورووها ، عن السيرة النبوية وتاريخ الإسلام الأول ، أريد أن أبدأ وأتبرك بالحديث عن الأدب النبوي الصميم المباشر ، وكلام الرسول الكريم ، وما خصه الله به من القدرة البيانية والمعجزات اللسانية ، وما أثر في وصفه عن كبار النقاد ، وصيارفة الكلام والبيان ، ومؤرخي الأدب النقاد ، فأقول :

ما ظنك؟ ببشر ذل بالقرآن لسانه ، امتزج القرآن بلحمه ودمه ، وجرى فيه مجرى الروح وأخذ بقلبه واستأثر بلبه ، بل أشرب في قلبه القرآن الكريم ، وتمكن منه ما الله أعلم به ، فإن لم يكن كلامه بعد ذلك من الوحي ، فكما قال الكاتب الشاعر مصطفى صادق الرافعي :

www.abulhasanalinadwi.org

«قد جاء من سبيله ، وإن لم يكن له منه دليل ، فقد كان هو من دليله ، قد عبد له الوحي طريق الكلام وذلله ، كما كان بعد السيل مجراه مرتعاً.

ما ظنك؟ بمولود من بني هاشم ولدته أم القرى، نشأ في بني سعد بن بكر وعاش في قريش ، أخواله بنو زهرة ، تزوج في بني أسد ، وهاجر إلى بني عمرو، ما ظنك؟ ببشر يقول فيه ناعته: «متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه. . . ويتكلم بجوامع الكلم، فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير».

اقرأ فصلاً للجاحظ في بيان أفضل الكلام ، والقول ما قالت حذام ، قال ـ رحمه الله ـ:

«أفضل الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه ظاهراً في لفظه، وكأن الله قد ألبسه من ثياب الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه منزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. . . وحتى فصلت الكلمة ، على هذه الشريطة ونفدت من قائلها على هذه الصفة كساها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة».

ثم انظر إلى قول النبي الكريم ـ ﷺ ـ:

«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ، ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه من دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأساً. ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

«الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في

www.abulhasanalinadwi.org

الحرام؛ كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب».

«إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض ، قيل: وما بركات الأرض ، قال: زهرة الدنيا ، لا يأتي الخير إلا بالخير. إن هذا المال خضرة حلوة ، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضرة ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها ، استقبلت الشمس فاجترت وثلطت وبالت ثم عادت ، فأكلت ، وإن هذا المال حلوة من أخذه بحقه ، ووضعه في حقه فنعم العون هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبعه». «لو أن لابن آدم مثل واد مالاً لأحب أن له إليه مثله ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب».

«سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله» الحديث ، وفيه «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه». «إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيراً فنفخ فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه وعمل فيه خيراً».

«سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن ، ماذا أنزل من الخزائن ، من يوقظ صواحب الحجرات ، يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة».

«قيل: يا رسول الله! ما الجسر؟ قال: دحض مزلة فيها خطاطيف وكلاليب، وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مسلم ومخدوش مرسل ، ومكدوس في نار جهنم» ومن جوامع كلمه - في معنى الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وقوله: «إنما الناس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها راحلة» «بعثت في نفس الساعة فسبقتها كما سبقت هذه هذه» «إنما الأعمال بالنيات» «اليد العليا خير من اليد السفلى» «لا تجن يمينك على شمالك» «المضعف أمير الراكب» «إياكم وخضراء الدمن» «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»

www.abulhasanalinadwi.org

«الإثم ما حاك في صدرك» «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» «الدين النصيحة».

هل ترى الجاحظ يعني غير كلام النبي الكريم ـ ﷺ ـ:

حاش لله وأي كلام أحق بأن يلبسه الله من ثياب الجلالة ويغشيه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله، ويكسوه من التوفيق ويمنحه من التأييد، ما لا يمتنع من تعظيمه به صدور الجبابرة، من كلام نبيه ـ ﷺ ـ.

وهو مع إعجازه إذا سمعه الجاهل ربما ظن أنه يحسن مثله، وهذا هو الكلام البليغ، كما قال ابن المقفع، والسهل الممتنع.

ثم أنشأ الجاحظ يصف كلام النبي الكريم ـ ﷺ ـ وحسبك به وصافاً وناعتاً ونكتفي به.

«هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزه عن التكلف، استعمل المبسوط في موضع البسط والمقصود في موضع القصر وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة، وشدّ بالتأييد ويسر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا تحيج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يخمر ولا يلمز ولا يبطىء ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلام النبي الكريم ـ ﷺ ـ.

وكذلك الأدعية المأثورة تحتل ـ بالإضافة إلى قيمتها الروحية وحقيقتها

www.abulhasanalinadwi.org

المعنوية ـ أعلى مكانة أدبية وأرفعها ، وإنها درر الأدب اليتيمة ، وآثاره النادرة الخالدة التي ينقطع نظيرها في المكتبات الأدبية البشرية بأسرها .

هناك رسائل شخصية قد نالت من نقاد الأدب مكانة كبيرة ، لأنها تحمل سذاجة وتتنزه عن التصنع ، وتعبر عن عواطف القلب تعبيراً صادقاً .

بيد أنه قد فاتهم أن يدركوا أن هناك نوعاً من الأدب يحمل من السذاجة والحقيقة ما لا تحمله الرسائل والكتابات ، وتصبح هناك المصطلحات اللغوية بأنواعها هباءً منثوراً ، حينما يصب فيها المتكلم عصارة قلبه ، ويعبر لسانه عن القلب بأصح ما يكون ، وأصدق ما يتصور ، ويستغني المتكلم عن الترحيب والتحبيذ ، والإشادة والتقدير ، ولا يحسب حساباً للسامع ، بل يخاطب قلبه ، ويتناجى مع مشاعره ويتحدث مع عواطفه ، هذا النوع من الأدب الرفيع هو «الدعاء» و«المناجاة» .

وأصحابه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اقتبسوا من هذا النور ـ رضي الله عنهم ـ ومعشر الأنبياء قوم لا يشقى بهم جليسهم ، وهم حملة هذا العلم وأحق عباد الله بالانتفاع به ، وأولى به من غيرهم ـ والله أعلم حيث يجعل الفضل ـ فإن كان غيثاً ـ ولا جرم ـ فقد وجد تربة كريمة وأصاب أرضاً نقية ، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير» .

وما هو إلا أنهم جلسو إليه وغشوه وخالطوه ، وعاشروه وصحبوه وأحبوه ، وتضلعوا من كلامه ، وحفظوا أحكان منطقه ، واقتفوا آثاره في كل شيء .

ونأخذ كتب الحديث والسيرة ، فنقول : إنها اشتملت على معجزات بيانية ، وقطع أدبية ساحرة ، تخلو منها مكتبة الأدب العربي ـ على سعتها وغناها ـ وهو دليل على صحة هذه اللغة ومرونتها ، واقتدارها على التعبير الدقيق عن خواطر ومشاعر ووجدانات كيفيات نفسية عميقة دقيقة ، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة ، وهي الكتب التي حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين وأساليب بيانهم ، ولئن صح ما قاله الرقاشي :

www.abulhasanalinadwi.org

«إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور ، أكثر مما تكلمت به من جيد المنظوم ، فلم يحفظ من النثر عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره» فكتب الحديث النبوي تسد هذا الفراغ الواقع في تاريخ الأدب العربي ، وتنقل إلينا هذا الذخر الأدبي الذي اعتقد أنه قد ضاع ، وتمتاز أنها قد اتصل سندها وصحت رواياتها. فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة؛ التي كانت سائدة في عهدها الذهبي الأول وللأدب العربي الذي كان منتشراً في جزيرة العرب.

إن هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة وطويلة ، وكلها أمثلة جميلة للغة العرب العرباء التي كانوا يتكلمون بها ويعبرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم ، ويجد دارس الأدب العربي فيها من البلاغة العربية ، والقدرة البيانية ، والوصف الدقيق ، والتعبير الرقيق ، وعدم التكلف والصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرواة بالبلاغة والتحري في صحة النقل والرواية ، وللغة العربية بالسعة والجمال.

أما الروايات الطويلة فهي ثورة أدبية ذات قيمة فنية عظيمة ، وهي التي تجلت فيها بلاغة الراوي العربي واقتداره على الوصف والتعبير والتصوير ، وهي التي يطول فيها نفسه فيحكي حكاية يعبر فيها عن معان كثيرة ، وأحاسيس دقيقة ، ومناظر متنوعة ، فلا يخذله اللسان ولا يخونه البيان ولا يتخلف عنه مدد اللغة ، وكأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة قد أبدع فيها فنان ، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصور كل الإحسان.

اقرأ معي حديث كعب بن مالك عن تخلفه عن غزوة تبوك ، وهو موضوع دقيق محرج. يطلب منه الصراحة والاعتراف بالتقصير ، والشهادة على النفس ، ويطلب منه تصوير ذلك الجو القاتم العابس الذي عاش فيه خمسين ليلة ، ويطلب منه تصوير الخواطر التي كانت تجيش في صدره ، وتساور نفسه وهو يعيش في جفاء وعتاب ، ممن يحبهم وتربطه بهم العقيدة والعاطفة ، لا يجد لذة في فراقهم ولا يرى في الدنيا عوضاً عنهم ، وتصوير تلك الصلة الروحية والحب العميق الذي يربطه بالنبي الكريم ـ ﷺ ـ ربطاً وثيقاً محكماً ، لا يحله العتاب والعقاب ، ولا يضعفه إقبال الملوك عليه

www.abulhasanalinadwi.org

وتوددهم إليه ، وتصوير ذلك السرور الذي غمره على إثر قبول توبته ، ما أصعب هذا الموضوع ، وما أكثره تعقداً ودقة ، ولكنه ببلاغته العربية يتغلب على هذه المشاكل النفسية والأدبية ، ويترك لنا ثروة نعتز بها .

اقرأ معي هذه القطعة الصغيرة التي اقتبسها من حديثه الطويل ، وهو يحكي ما أحاط بهذه الغزوة العظيمة من ظروف وأجواء ، ويصور تلك الحالة النفسية التي تخلف فيها عن هذه الغزوة وما انتابه من التردد ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من سيرته وعادته ، وتمتع بما احتوت عليه هذه القطعة من القوة والجمال ، وصدق التصوير وبراعة التعبير :

«وغزا رسول الله ـ ﷺ ـ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً . فأقول في نفسي وأنا قادر عليه . فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد الجد ، فأصبح رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم . فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً . فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت! فلم يقدر لي ذلك ، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ـ ﷺ ـ فطفت فيهم ، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله من الضعفاء» .

ثم انظر كيف يصور حالته وقد هجره المسلمون ونهوا عن كلامه ، وكيف يعبر عن حالة المحب الذي هجره الحبيب ـ عقوبة وتأديباً ـ وهو يطمع في وده ويتسلى بنظراته ، والذي لم يزده هذا العتاب إلا رسوخاً في المحبة ولوعة وجوى ، دعه يقص قصته بلسانه البليغ :

«ونهى رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت

www.abulhasanalinadwi.org

أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ـ ﷺ ـ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر. فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي ، وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسوّرتُ جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلمت عليه فو الله ما رد علي السلام ، فقلت: يا أبا قتادة! أنشئك بالله! هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت ، فعدت له فنشدته ، فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال: الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناني وتوليت حتى تسورت الجدار».

واقرأ معي كذلك حديث الإفك الذي ظهرت فيه براعة السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ الأدبية وقوتها البيانية ، وحسن تصويرها ووصفها للعواطف والمشاعر النسوية اللطيفة الدقيقة ، وقد تجلت في هذه القطعة رقة عاطفة المرأة المحبة لزوجها ، مع إباء الحرة الواثقة بعفافها وطهارتها ، المؤمنة بربها ، وقد أضفى هذا المزيج الغريب من الرقة والشدة ، والعاطفة والعقل ، زد إلى ذلك بيان عائشة التي تقلبت في أعطاف البلاغة العربية وانتقلت فيها من بيت إلى بيت ، قد أضفى كل ذلك على هذه الرواية من الجمال الفني ما يجعلها من القطع الأدبية الخالدة في الأدب.

انظر كيف تصف ما تقوّله الناس وتحدّثوا به ، وما شعرت به من تغير في وجه الرسول الكريم ـ ﷺ ـ. تذكر كل ذلك في حياء المرأة وأدبها من غير إبهام أو عيّ:

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً ، والناس يفيضون في أصحاب الإفك ، لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ـ ﷺ ـ اللطف الذي كنتُ أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخلُ عليَّ رسول الله ﷺ فيسلم ، ثم يقول: كيف تيكم؟ ثم ينصرف ، فذلك يريبني ولا أشعر بالشر».

وتذكر توجعها من الخبر المشاع ، فتقول: «فبكيت يومي ذلك كله ،

www.abulhasanalinadwi.org

لا يرقأ دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي» .

وتتقدم في الحكاية وتذكر كيف يسألها رسول الله ـ ﷺ ـ عما قيل عنها ويعزم عليها الصدق ، فلا تلبث أن تعتريها حمية المرأة العفيفة الفاضلة. يقلص دمعها حتى لا تحس منها بقطرة ، وترجو أباها وأمها أن يجيبا عنها رسول الله ـ ﷺ ـ فيمتنعان ويُفضّلان السكوت حياءً من رسول الله ﷺ واستحياءً من الدفاع عن قضية بنتهما ، وهو الدفاع عن النفس ، فتنبري للكلام القوي الصريح المبين ـ وهي البليغة الأدبية ـ وتتمثل بقول سيدنا يعقوب ، وتفوض أمرها إلى الله ، وتنزل براءتها من السماء فتطلب منها أمها أن تشكر رسول الله ـ ﷺ ـ وتقوم إليه فتأبى ـ في دلال العفائف وأنفة المؤمن ـ أن تحمد إلا الله الذي أنزل براءتها من فوق سبع سموات ، وخلد طهارتها إلى آخر يوم يقرأ فيه القرآن ويؤمن به .

واقرأ كذلك حكايتها للهجرة النبوية وذكرها لتفاصيلها وما وقع لرسول الله ـ ﷺ ـ وصاحبه ـ رضي الله عنه ـ في الطريق ، ووصولهما إلى المدينة ، وكيف تلقاهما الأنصار وفرحوا بقدوم رسول الله ـ ﷺ ـ.

وكل ذلك مثال رائع للوصف الدقيق البليغ ، والبيان القادر الوصاف.

وهنالك روايات أخرى طويلة النفس ، ضافية البيان ، تشتمل على غرر الكلام وبدائعه الحسان ومناهج العرب الأولين في كلامهم ، كحديث صلح الحديبية ، وحديث الإيلاء ، وحديث حليمة السعدية في رضاعة النبي الكريم ـ ﷺ ـ ، والمدة التي قضاها في بني سعد وغير ذلك ، كانت تستحق أن تكون في المكانة الأولى في دراساتنا الأدبية ، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين والناقدين ، لأنها لم تدخل في دواوين الأدب ، ولأن تصورهم للأدب كان تصوراً محدوداً جامداً لا يعدو الصناعة .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

العوامل التي كوّنت شخصيَّة محمد إقبال

هذه المحاضرة ألقاها العلامة النَّدويُّ في كلية دار العلوم بالقاهرة في ١٩/ من جمادى الآخرة ١٣٧٠ هـ الموافق ٢٨/ ٣/ ١٩٥١ ، لدى زيارته الأولى لمصر.

www.abulhasanalinadwi.org

سادتي وإخواني! يسرُّني جدّاً أن أتحدث إليكم عن شاعر الإسلام العظيم ، وحكيم الشرق الدكتور محمد إقبال ويزيدني سروراً واغتباطاً أن يكون هذا الحديث في مركزٍ تعليميٍّ وأدبيٍّ كبيرٍ كدار العلوم ، وبهذه المناسبة سيدور حديثي اليوم حول دراسة هذا الرَّجل العظيم والمدارس التي تخرَّج منها ، والعوامل التي كوَّنت شخصيته .

المدارس الأولى الَّتي تخرَّج فيها محمد إقبال :

لقد تخرَّج محمد إقبال من مدرستين ، أما المدرسة الأولى فهي مدرسة الثقافة العصرية ، والدراسات الغربية ، فلم يزل يتقلَّب في فصولها ، ودروسها ما بين الهند ، وإنجلترا ، وألمانيا ، ويقرأ على أساتذتها البارعين ، ويرتوي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الإسلاميِّ في ثقافته الغربية ، أخذ من علوم الغرب ، وثقافته ، وحضارته ، من فلسفةٍ واجتماعٍ ، وأخلاقٍ ، واقتصادٍ ، وسياسةٍ ، ومدنيةٍ ، غاية ما يمكن لغربيٍّ متخصصٍ فضلاً عن شرقيٍّ متطفل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسعٍ في الآداب الإنجليزية ، والألمانية ، والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره ، ودراسة الفكر الغربيِّ في مختلف أطواره ومراحل حياته .

المدرسة الثانية :

ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحدِّ ، واكتفى بثمار هذه المدرسة لما كان موضوع حديث اليوم ، ولما اشتغل الأدب الإسلاميُّ والتاريخ الإسلاميُّ بالتغنِّي بآثاره ، ولما فسحا له محلَّ الصدارة العلمية ، والزعامة الفكرية العبقرية والإسلاميَّة ، ولكلٍّ منها شروطٌ دقيقةٌ ، ومستوىً عالٍ ، لا يحتلُّه الإنسان بمجرد الدراسة والتفنُّن في العلوم ، وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول : لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة ، واقتصر على ثقافتها ودراستها ، لما زاد على أن يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة ، أو علم

www.abulhasanalinadwi.org

الاقتصاد أو في الآداب أو التاريخ ، أو مؤلفاً كبيراً ، أو محاضراً بارعاً في العلوم العصرية ، أو أديباً صاحب أسلوبٍ ، أو شاعراً مجيداً ، أو محامياً ناجحاً في مهنته ، أو قاضياً في محكمةٍ ، أو وزيراً في دولة .

وصدقوني أيها الإخوان! أن لو كان ذلك لطواه الزَّمان فيمن طوى من كبار العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤلفين ، والقضاة ، والوزراء ، إنَّ الفضل في عبقرية إقبال ، وخلود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع إلى المدرسة الثانية التي تخرَّج فيها .

إنَّني لأراكم أيها الإخوان! تذهبون كلَّ مذهبٍ في تشخيص هذه المدرسة ، والاهتداء إلى موقعها ، وإنِّي لأراكم تتطلَّعون إلى معرفة أخبارها ، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد؟ ومن المعلمون فيها؟ لا شكَّ أنَّهم من كبار المربِّين ، وأعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير ، وما هي شروط هذه المدرسة وما تكاليفها؟ وأظنُّ أن لو علمتم وجودها ومحلَّها لأسرع كثيرٌ منكم إليها ، والتحق بها .

إنَّها مدرسةٌ ما خاب مَنْ تعلَّم فيها ، وما ضاعَ مَنْ تخرَّج منها ، إنها مدرسة لم تخرج إلا أئمة الفنِّ المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين وقمة الفكر والإصلاح المجدِّدين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألَّفوا ، وتأييد ما أثبتوا ، وتفصيل ما أجملوا ، فيتكون من كلمتهم كتابٌ ، ومن كتابهم مكتبةٌ .

إنها مدرسةٌ ما تُعلِّم التاريخ ، بل تلد التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار ، بل تنتج الآثار ، إنَّها مدرسة توجد في كلِّ زمانٍ ، وهي أقدم مدرسةٍ على وجه الأرض .

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوان طويلاً! إنَّها مدرسةٌ داخليةٌ تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه في كلِّ مكان ، هي مدرسة القلب

www.abulhasanalinadwi.org

والوجدان ، هي مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية ، وتمدُّها القوَّة الروحية .

قد تخرج محمد إقبال في هذه المدرسة ، كما تخرج كثيرٌ من الرجال الموهوبين ، وحدَّث عنها كثيرٌ في شعره ، ورد إليها الفضل في تكوين سيرته ، وعقليته ، وأخلاقه ، وشخصيته ، وصرَّح مراراً بأنه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنَّه لولا هذه المدرسة ، وتربيتها لما ظهرت شخصيته ، ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ، وقد حدَّث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً ، وذكر فضلهم عليه .

العـامـل الأول :

فممَّن يردُّ الفضل إليه في هذه المدرسة «الإيمان» الذي لم يزل مربياً له ومرشداً ، ولم يزل مصدر قوتـه ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب الـذي هو مجرَّد عقيدةٍ أو تصديـقٍ بسيط ، بل هو مزيج اعتقادٍ وحبٍّ ، يملك عليه القلب والمشاعر ، والعقل والتفكير ، والإرادة والتصرف ، والحبَّ والبغض ، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته ، قويَّ العاطفة ، شديد الإخلاص ، والإجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حُبِّه ، مقتنعاً بأنَّ الإسلام هو الدين الخالد الـذي لا تسعد الإنسانية إلا به ، وأنَّ النبي ﷺ هو خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكلِّ .

ويُرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته ، وتماسكه أمام المادة ومغرياتها وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الرُّوحي بالنَّبيِّ ﷺ ، وحبِّه العميق له ، ولاشكَّ أنَّ الحبَّ هو خير حاجزٍ للقلب ، وخير حارسٍ له ، إذا احتلَّ قلباً وشغله ، منعه من أن يغزوه غيره ، أو يكون كريشةٍ في فلاةٍ ، أو يعبث به العابثون ، يقول :

«لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبِّي ، ويعشي بصري ، وذلك لأني اكتحلت بإثمد المدينة» ويقول : «مكثت في أتون التعليم الغربيِّ

www.abulhasanalinadwi.org

وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود» ويقول: «لم يزل ، ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ، يكمنون لي ، ولكني لا أخافهم ، فإني أحمل اليد البيضاء. إنَّ الرجل إذا رزق الحبَّ الصادق عرف نفسه ، واحتفظ بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النُّجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فإنِّي من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النُّجوم ، وجرى في إثره الغبار فصار أعبق من العبير».

وفي كتاب «أسرار خودي» ذكر الشاعر مقومات حياة الأمة الإسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها اتصالها الدائم بنبيِّها ﷺ ، والتشبُّع بتعاليمه ، والتفاني في حبِّه ، ولما ذُكِر النَّبيُّ ﷺ اندفع الشاعر يمدحه ، وأرسل النفس على سجيتها ، فقال أبياتاً لا تزال تعدُّ من غرر المدائح النبوية ، والشعر الوجداني ، يقول: «إنَّ قلب المسلم عامرٌ بحبِّ المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إنَّ هذا السيِّد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إنَّ هذا السَّيِّد الذي نام عبيده على أسرَّة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنومٍ ، قد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وجدت أمَّة ، ووجد دستور ، ووجدت دولة ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ، بأبي هو وأمي! لم تلد مثله أمٌّ ، ولم تنجب مثله الإنسانية افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوانٍ واحدٍ ، جاءته بنت حاتم أسيرةً مقيَّدةً سافرة الوجه ، خجلةً مطرقة رأسها ، فاستحيا النبيُّ ﷺ ، وألقى عليها رداءه.

نحن أعرى من السيده الطائية ، نحن عراةٌ أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كلُّه رحمةٌ ، هذا بأعدائه وذلك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال: لا تثريب عليكم اليوم نحن المسلمين من الحجاز ، والصين ، وإيران ، وأقطار مختلفة ، نحن غيضٌ من فيضٍ واحدٍ ، نحن أزهارٌ كثيرةُ العدد ، واحدة الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبُّه ولا أحنُّ إليه

www.abulhasanalinadwi.org

وأنا إنسانٌ ، وقد بكى لفراقه الجذع ، وحنَّت إليه سارية المسجد ، إنَّ تربة المدينة أحبُّ إليَّ من العالم كلِّه ، أنعم بمدينة فيها الحبيب!».

ولم يزل حبُّ النَّبيِّ ﷺ يزيد ، ويقوى مع الأيام ، حتى كان في آخر عمره إذا جرى ذكر النَّبيِّ ﷺ في مجلسه ، أو ذكرت المدينة ـ على منوِّرها ألف سلام ـ فاضت عينه ، ولم يملك دمعه ، وقد ألهمه هذا الحبُّ العميق معاني شعريةً عجيبةً ، منها قوله وهو يخاطب الله سبحانه وتعالى : «أنت غنيٌّ عن العالمين ، وأنا عبدك الفقير ، فاقبل معذرتي يوم الحشر ، وإن كان لابدَّ من حسابي فأرجوك يا ربِّ! أن تحاسبني بنجوةٍ من المصطفى ﷺ ، فإني أستحِي أن أنتسب إليه ، وأكون في أمته ، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي».

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنَّه هو قوَّته ، وميزته ، وذخره ، وثروته ، وأنَّ أعظم مقدارٍ من العلم والعقل ، وأكبر كميَّةٍ من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيتٍ: «إنَّ الفقير المتمرِّد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره ، وعقيدته ، وهما:

«لا إله إلا الله ، محمَّد رسول الله» ، وهناك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروةً ضخمةً من كلمات اللغة الحجازيَّة ، ولكنّه قارون لا ينتفع بكنوزه.

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة! وحبُّه ، من تتبَّع التاريخ عرف أنَّ الحب هو مصدر الشعر الرقيق ، والعلم العميق ، والحكمة الرائعة ، والمعاني البديعة ، والبطولة الفائقة ، والشخصيَّة الفذَّة ، والعبقرية النادرة ، إليه يرجع الفضل في غالب عجائب الإنسانية ، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، وإذا تجرَّد منه شخصٌ؛ كان صورةً من لحمٍ ودمٍ ، وإذا تجردت منه أمَّةٌ؛ كانت قطيعاً من غنم ، وإذا تجرَّد منه شِعْرٌ؛ كان كلاماً موزوناً مقفًّى فحسب ، وإذا تجرَّد منه كتابٌ؛ كان مجموع أوراق وحبراً على

www.abulhasanalinadwi.org

ورقٍ ، وإذا تجرَّدت منه عبادةٌ؛ كانت طقساً من الطقوس ، وهيكلاً بلا روح ، وإذا تجرَّدت منه مدنيَّةٌ؛ أصبحت تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجرَّدت منه مدرسةٌ أو نظام تعليم؛ أصبح تقليداً ، أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز له ، وإذا تجردت منه حياة؛ كلَّت الطبائع ، وجمدت القرائح ، وأجدبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب ، هذا هو الحبُّ الصَّادق الذي يتجلَّى على الرَّجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشَّجاعة والقوَّة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحبّ الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشهوات ، وبريق المادة ، فتمرَّد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحبُّ الذي يدخل بين الطِّين والماء والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدةً ، وتحفةً فنيةً ، كمسجد قرطبة ، وقصر الزَّهراء ، والتَّاج محل ، وما مِنْ أثرٍ من الآثار الباقية في الأدب والفن والتأليف والبطولة ، إلا ووراءه عاطفةٌ قويةٌ من الحبِّ.

لقد ضلَّ مَنْ زعم أنَّ العلماء يتفاضلون بقوَّة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذَّكاء ، وأنَّ الشعراء يتفاضلون بقوَّة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقَّة المعاني ، وأنَّ المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة ، والمطالعة ، وكثرة التأليف ، والإنتاج ، وأنَّ المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادَّة الدراسية وكثرة المراجع ، وأنَّ المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة وأساليب السياسة ، والحكمة ، واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوَّة الحبِّ والإخلاص لغايتهم ، إذا فاق أحدهم الآخر؛ فإنَّما يفوقه لأنَّ الغاية أو الموضوع حلَّ في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الرُّوح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهوته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلَّم تكلَّم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بقلمه ، وإذا فكَّر فكَّر بعقله ، وإذا أحبَّ أو أبغض؛ فبقلبه.

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة! على الإنسانية جنايةً عظيمةً؛ إذ قضت على هذه العاطفة التي كانت قوَّةً كبرى ، ومنبعاً فيَّاضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية ، والمادية أو الحبِّ الجسمي ، والغرام الماديِّ ،

www.abulhasanalinadwi.org

ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيره ، أن تفهم أنَّ هناك حبّاً للمعاني السَّامية ، وجمالاً معنوياً هو أقوى من هذا الحبِّ ، وأساءت المدرسة العصرية ـ وأعني بها نظام التعليم الحديث ـ إلى الجيل الجديد؛ إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصريُّ أشبه بجماد متحرِّكٍ دائرٍ لا حياة فيه ، ولا روح ، ولا قلب له ولا شعور ، ولا ألم عنده ، ولا أمل ، إنما هو دوامةٌ جامدةٌ ، تديرها يدٌ قاهرةٌ ، أو إرادةٌ قاسرة.

فإذا رأيتم أيها السادة! أنَّ شعر إقبال من نوع آخر غير النوع الذي عرفناه ، وجرَّبناه في شعرائنا المتقدِّمين والمتأخِّرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ، هذا شعر تهتُّز له المشاعر ، وتتوتَّر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النَّفس ، حتَّى تكاد تحطِّم السلاسل ، وتفكُّ الأغلال ، وتتمرَّد على المجتمع الآسر ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخف بالقوة الهائلة ، شعرٌ إذا قرأه الإنسان في لغة الشاعر ، أحسَّ بأنَّه قد مرَّ به تيَّارٌ ربانيٌّ فهزَّه هزّاً عنيفاً ، إذا وجدتم ذلك أيها السادة! فاعلموا أنَّه ليس إلا لأنَّ الشاعر قويَّ الإيمان ، قويَّ العاطفة ، جيَّاش الصدر ، فيَّاض الخاطر ، ملتهب الرُّوح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدثت عنها تربيته ، قد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة وتنميتها وإشعالها فيه.

العامل الثاني:

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته؛ فهو أستاذٌ كريمٌ لا يخلو منه بيتٌ من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ ، وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنما الشأن في معرفته ، وتقديره ، وإجلاله ، والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ، ورجال الأسرة ، وأهل الحي أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من ذلك ، رأينا أنَّ العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف

www.abulhasanalinadwi.org

ورقٍ ، وإذا تجرَّدت منه عبادةٌ؛ كانت طقساً من الطقوس ، وهيكلاً بلا روح ، وإذا تجرَّدت منه مدنيَّةٌ؛ أصبحت تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجرَّدت منه مدرسةٌ أو نظام تعليم؛ أصبح تقليداً ، أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز له ، وإذا تجردت منه حياة؛ كلَّت الطبائع ، وجمدت القرائح ، وأجدبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب ، هذا هو الحبُّ الصَّادق الذي يتجلَّى على الرَّجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشَّجاعة والقوَّة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحبّ الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشهوات ، وبريق المادة ، فتمرَّد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحبُّ الذي يدخل بين الطِّين والماء والحجارة والآجر ، فيجعل منها آثاراً خالدةً ، وتحفةً فنيةً ، كمسجد قرطبة ، وقصر الزَّهراء ، والتَّاج محل ، وما مِنْ أثرٍ من الآثار الباقية في الأدب والفن والتأليف والبطولة ، إلا ووراءه عاطفةٌ قويةٌ من الحبِّ.

لقد ضلَّ مَنْ زعم أنَّ العلماء يتفاضلون بقوَّة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذَّكاء ، وأنَّ الشعراء يتفاضلون بقوَّة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ، ودقَّة المعاني ، وأنَّ المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة ، والمطالعة ، وكثرة التأليف ، والإنتاج ، وأنَّ المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادَّة الدراسية وكثرة المراجع ، وأنَّ المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة وأساليب السياسة ، والحكمة ، واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوَّة الحبِّ والإخلاص لغايتهم ، إذا فاق أحدهم الآخر؛ فإنَّما يفوقه لأنَّ الغاية أو الموضوع حلَّ في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الرُّوح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهوته ، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلَّم تكلَّم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بقلمه ، وإذا فكَّر فكَّر بعقله ، وإذا أحبَّ أو أبغض؛ فبقلبه.

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة! على الإنسانية جنايةً عظيمةً؛ إذ قضت على هذه العاطفة التي كانت قوَّةً كبرى ، ومنبعاً فيَّاضاً للحياة ، وملأت فراغها بالنفعية ، والمادية أو الحبِّ الجسمي ، والغرام الماديِّ ،

www.abulhasanalinadwi.org

ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيره ، أن تفهم أنَّ هناك حبّاً للمعاني السَّامية ، وجمالاً معنوياً هو أقوى من هذا الحبِّ ، وأساءت المدرسة العصرية ـ وأعني بها نظام التعليم الحديث ـ إلى الجيل الجديد؛ إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصريُّ أشبه بجماد متحرِّكٍ دائرٍ لا حياة فيه ، ولا روح ، ولا قلب له ولا شعور ، ولا ألم عنده ، ولا أمل ، إنما هو دوامةٌ جامدةٌ ، تديرها يدٌ قاهرةٌ ، أو إرادةٌ قاسرة .

فإذا رأيتم أيها السادة! أنَّ شعر إقبال من نوع آخر غير النوع الذي عرفناه ، وجرَّبناه في شعرائنا المتقدِّمين والمتأخِّرين ، وغير الشعر الذي ندرسه في مدارسنا ، هذا شعر تهتُّز له المشاعر ، وتتوتَّر له الأعصاب ، ويجيش له القلب ، وتثور له النَّفس ، حتَّى تكاد تحطِّم السلاسل ، وتفكُّ الأغلال ، وتتمرَّد على المجتمع الآسر ، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخف بالقوة الهائلة ، شعرٌ إذا قرأه الإنسان في لغة الشاعر ، أحسَّ بأنَّه قد مرَّ به تيَّارٌ ربانيٌّ فهزَّه هزّاً عنيفاً ، إذا وجدتم ذلك أيها السادة! فاعلموا أنَّه ليس إلا لأنَّ الشاعر قويَّ الإيمان ، قويَّ العاطفة ، جيَّاش الصدر ، فيَّاض الخاطر ، ملتهب الرُّوح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدثت عنها تربيته ، قد أحسن أساتذتها تثقيفه ، وتغذيته بهذه العاطفة وتنميتها وإشعالها فيه .

العامل الثاني :

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته؛ فهو أستاذٌ كريمٌ لا يخلو منه بيتٌ من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ ، وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنما الشأن في معرفته ، وتقديره ، وإجلاله ، والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ، ورجال الأسرة ، وأهل الحي أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من ذلك ، رأينا أنَّ العالم الكبير ، والحكيم الشهير ، والمؤلف

www.abulhasanalinadwi.org

العظيم ، ضائعٌ في بيته ، مهجورٌ في داره ، يزهد فيه أولاده ، ويستهين بقيمته أفراد أسرته ، ويأتي رجلٌ من أقصى العالم ، فيغترف من بحر علمه ، ويتضلَّع من حكمته.

لا تذهب بكم الظنون ، ولا يبعد بكم القياس أيها الإخوان! فذلك الأستاذ العظيم هو القرآن الكريم ، الذي أثرَّ في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتابٌ ولا شخصيَّةٌ ، ولكنَّه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجلٍ حديث العهد بالإسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوُّق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مالٍ ومتاع ودارٍ ، وعقارٍ ، وقد وصل هذا المهتدي إليه بشقِّ النَّفس ، وعلى جسرٍ من الجهاد والتَّعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور «كولمبس» لما اكتشف العالم الجديد ، ونزل على شاطئه ، أمَّا الذين ولدوا ، ونشؤُوا في هذا العالم الجديد فكانوا ينظرون إلى «كولمبس» وأصحابه باستغرابٍ ودهشةٍ ، ولا يفهمون معنىً لما كان يخامره من سرورٍ وفرحٍ ، فإنَّهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً.

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس ، ولهذه القراءة الخاصَّة فضلٌ كبيرةٌ في تذوقه للقرآن ، واستطعامه إيَّاه ، وقد حكى قصته لقراءة القرآن ، قال: «قد كنت تعوَّدت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصُّبح كلَّ يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني ماذا أصنع؟ فأجيبه أقرأ القرآن ، وظلَّ على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله ، فأجيبه جوابي ، وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبي! تسألني نفس السؤال ، وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غدٍ؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك يا ولدي! اقرأ القرآن كأنما نزل عليك! ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهَّم القرآن ، وأقبل عليه ، فكان من أنواره ما اقتبست ، ومن درره ما نظمت».

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن ، ويطير في أجوائه ، ويجوب في آفاقه ، فيخرج بعلمٍ جديدٍ ، وإيمانٍ جديدٍ ، وإشراقٍ جديدٍ ، وقوَّةٍ جديدةٍ ، ولكما تقدَّمت دراسته ، واتَّسعت

www.abulhasanalinadwi.org

آفاق فكره؛ ازداد إيماناً بأنَّ القرآن هو الكتاب الخالد ، والعلم الأبديُّ ، وأساس السعادة ، ومفتاح الأقفال المعقَّدة ، وجواب الأسئلة المحيِّرة ، وأنَّه دستور الحياة ، ونبراس الظلمات ، ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبُّر في هذا الكتاب العجيب ، وفهمه ودراسته ، والاهتداء به في مشكلات العصر ، واستفتائه في أزمات المدنيَّة ، وتحكيمه في الحياة والحكم ، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً ، ويضع به آخرين ، يقول في مقطوعة شعريَّة: «إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعِّمين للدين ، والمحتكرين للعلم ، ولا تستمدُّ حياتك من حكمة القرآن رأساً ، إنَّ الكتاب الذي هو مصدر حياتك ، ومنبع قوتك لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة ، فتقرأ عليك سورة «يس» لتموت بسهولةٍ ، فواعجباً! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة ، يتلى الآن لتموت براحةٍ وسهولة»[١].

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبُّر ، لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به منفعة وهديَّةً ، لأغنى رجلٍ في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ، ونزل ضيفاً عليه ، أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخةً من القرآن ، وقدمها إليه قائلاً: «إنَّ هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كلِّ بداية ، وبقوَّته كان علي رضي الله عنه فاتح خيبر» فبكى الملك ، وقال: «لقد أتى على نادر خان زمانٌ وما له أنيسٌ سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوته كل باب»[٢].

العامل الثالث:

والرُّكن الثالث أيها السادة! في نظام تربيته ، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس ، والغوص في أعماقها ، والاعتداد بقيمتها ، والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره في قصيدة يقول فيها: «انزل في أعماق

(١) أرمغان حجاز.

(٢) مثنوي مسافر.

www.abulhasanalinadwi.org

قلبك ، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سرَّ الحياة ، ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني ، لكن أنصف نفسك يا هذا! واعرفها ، وكن لها وفياً.

ما ظنك بعالم القلب ، هو كله حرارةٌ وشكر ، وحنان وشوق ، أما عالم الجسم فتجارةٌ وزورٌ واحتيال «إنَّ ثروة القلب لا تعدو صاحبها ، أمَّا ثروة الجسم فظلٌّ زائلٌ ونعيمٌ راحلٌ. إنَّ عالم القلب لم أر فيه سلطة الأفرنج ، ولا اختلاف الطبقات ، لقد كدت أذوب حياءً وتندى جبيني عرقاً ، إذ قال لي حكيمٌ: إذا خضعت لغيرك أصبحت لا تملك قلبك ، ولا جسمك»[١].

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أنَّ العبد يسمو بها إلى درجة الملوك ، بل يعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً ، يقول في قصيدة: «إنَّ الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحبِّ الصادق ، وتمسَّك بآداب هذه المعرفة ، انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك ، إنَّ ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله ، أفضل من أكبر ملوك العالم».

إنَّ الصراحة والجرأة من أخلاق الفتيان ، وإنَّ عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب ، وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقاً إذا قيَّد حريته ، يقول في نفس القصيدة: «يا صاح! إنَّ الموت أفضل من رزق يقصُّ من قوادمي ، ويمنعني من حرية الطيران»[٢].

وكان إقبال يعرف قيمته ويعرف مكانته ، في غير صلفٍ ولا غرورٍ يضنُّ بحريته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول في مقطوعةٍ: «لك الحمد يا رب! إذ لست من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين ، لقد رزقتني حكمةً وفراسةً ، ولكني أحمدك على أني لم أبعهما لملكٍ من الملوك»[٣] ، ويقول مفتخراً: «إني من غير شكٍّ فقيرٌ قاعدٌ على قارعة الطريق ، ولكنِّي غنيُّ النفس أبيٌّ» ، وكان عمله بما يخاطب به

---

(١) بال جبرئيل.
(٢) بال جبرئيل.
(٣) بال جبرئيل.

www.abulhasanalinadwi.org

غيره في قصيدة يقول فيها: «إذا لم تعرف رازقك كنت فقيراً إلى الملوك، وإذا عرفته افتقر إليك كبار الملوك، إنَّ الاستغناء ملوكيةٌ، وعبادة البطن قتلٌ للروح، وأنت مخيَّرٌ بينهما، إذا شئت اخترت القلب، وإذا شئت اخترت البطن»[١]، ولا شكَّ أنَّ محمد إقبال اختار القلب.

لذلك كان يثور إذا جرحت كرامته، وامتحنت عفته، قدَّم إليه رئيس وزارة في دولة، في عيد ميلاد محمد إقبال، هديَّةً محترمة من النقود فرفضها، وقال: «إن كرامة الفقير تأبى عليَّ أن أقبل صدقة الأغنياء»، وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أنَّ حرم نائب الملك تكون سافرة، تستقبل الضيوف في الولائم الرسمية، وتكون مع زوجها في الحفلات، فرفضها، وقال: «ما دام شرطاً لقبول الوظيفة فلا أقبله؛ لأنَّه إهانةُ ديني، ومساومة كرامتي».

وكان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوَّته ومواهبه، يعتقد أنَّه صاحب رسالةٍ ومهمَّة في هذه الحياة، وليس له أن يضع نفسه محلَّ الشاعر الذي ليست له رسالة، والنظَّامين الذين ينظمون في كلِّ مناسبة، فإذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه، يقول في أبياتٍ وجهها إلى رسول الله ﷺ: «إني لأشكو إليك يا سيِّد الأمم! أنَّ أصدقائي يعتقدون أنِّي شاعرٌ نظَّامُ، فيقترحون علي اقتراحات»، ويقول في بيتٍ آخر: «أنا حائرٌ في أمري يا سيِّدي رسول الله! إنَّك تأمرني أن أبلغ أمَّتك رسالة الحياة، والقوة، وهؤلاء يقولون: أرِّخ لموت فلان، وفلان، فماذا أفعل؟».

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته، وممَّا انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكريِّ، والهيام الأدبيِّ؛ اللَّذان يصاب بهما أدباؤنا، وشعراؤنا، وكتَّابنا، وعلماؤنا، فينتجعون كلَّ كلأ، ويهيمون في كلِّ واد، ويكتبون في كلِّ موضوعٍ وفق

(١) بال جبرئيل.

www.abulhasanalinadwi.org

عقيدتهم أم لا ، ويمدحون كلَّ شخصٍ ، ويظلون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم ، ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد إقبال فكان من توفيق الله تعالى ، ومن حسن حظ الإسلام والمسلمين في الهند؛ أنَّه عرف نفسه في أول يوم ، وقدَّر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركز فكره وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والإيمان برسالتهم ، والطموح إلى القوَّة والحرية والسيادة ، كان شاعراً مطبوعاً ، حتى لو أراد أو أريد ألاَّ يكون شاعراً ، لما استطاع ، ولقهره الشِّعر ، وغلبه ، كان سائل القريحة ، فيَّاض الخاطر ، ملهم المعاني ، مطاع اللفظ ، وكان مبدعاً يوم كان شاعراً ، وكان فناناً ، وصنَّاعاً ماهراً ، سلَّم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز ، وتأثر بشعره الجوُّ ، فما من شاعرٍ ولا أديبٍ في عصره إلا تأثر به في اللغة ، أو التراكيب ، والمعاني ، والأفكار ، والأغراض ، وهو من أفذاذ شعراء العالم في التفنُّن والإبداع ، وابتكار المعاني ، وجدَّة التشبيه ، والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزي والألماني ، فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كل ما يمتاز به محمد إقبال ، فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنه امتاز بأنه أخضع شاعريته القويَّة ، وقوته الأدبية وعبقريته الفنّيَّة لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر ملكٍ ، ولا شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ، بل كان صاحب رسالةٍ إسلاميَّة ، استخدم لها الشعر ، كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء فتكون أسرع وصولاً ، ولطيب الأزهار نفحاتُ الهواء فيكونُ أكثر انتشاراً ، فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد حكمته ، يسبقها ويوطِّىء لها أكنافاً ، ويذلل لها صعاباً؛ ويفتح أبواباً ، وكان شعره من جنود الإسلام ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفتح : ٤] ولا أعرف أحداً يستخدم شعره لغرضٍ أسمى ، وغايةٍ أجدى منه ، فأيقظ أمَّة ، وأشعل قلوبها إيماناً ، وحماسةً ، وطموحاً إلى حياةِ الشرف ، والاستقلال ، والسيادة ، والحكم الإسلاميِّ ، حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولةٍ تحكمها ، وتدير دفَّتها ، أوجد بشعره القوي الهزاز القلق

www.abulhasanalinadwi.org

الفكريَّ ، والاضطراب النفسيَّ ، الذي عمَّ هذا الشعب المسلم ، وسائر الشباب الإسلامي بصفة خاصَّةٍ ، فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية والذلة وحكم الأجانب ، حتى أصبحت في يوم من الأيام الدولة المسلمة الحرة حقيقةً راهنةً وواقعاً ملموساً .

ولا تعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولةٍ وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلامي ، وتعلمون جميعاً أنَّ الدولة تسبقها الثورات الفكرية ، والتذمُّر من الحاضر ، والتطلُّع إلى المستقبل ، والقلق النفسي ، فإذا تم هذا كلُّه ونضج؛ قامت دولةٌ ، فإن كان شعرٌ قد أقام دولةً ، وأحدث ثورةً فكريةً ، كانت سبب الانتقال من حياةٍ إلى حياةٍ ، ومن وضعٍ إلى وضعٍ ، فهو من غير شك شعر إقبال ، وما ذاك أيها الإخوان! إلا بمعرفة الرجلِ نفسه وتقديره لمواهبه وقوته ، ووضعها في محلِّها ، والغيرة عليها من أن تضيع في موضوعاتٍ تافهةٍ ، وألفاظٍ فارغةٍ ، وألوانٍ زاهيةٍ ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجالٌ من العبقريين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم ، فباعوا أنفسهم وعلمهم بالمناداة ، أو باللغة المصرية ، «بالمزاد العلني» ، وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١١٧] .

العـامـل الـرابــع :

والمربِّي الرابع أيها السادة! الذي يرجع إليه الفضل في تكوين سيرته وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدَّة المعاني ، وتدفق الأفكار ، هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتَّصل بالطبيعة من غير حجابٍ ، ويتعرَّض للنفحات السِّحرية ، ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربَّه ، ويشكو بثَّه وحزنه إليه ، ويتزوَّد بنشاطٍ روحيٍّ جديدٍ ، وإشراقٍ قلبيٍّ جديدٍ ، وغذاء فكريّ جديدٍ ، فيطلع على أصدقائه وقرَّائه بشعرٍ جديد ويلمس الإنسان فيه قوَّةً جديدةً ، وحياةً جديدةً ، ونوراً جديداً ، لأنَّه يتجدَّد كلَّ يومٍ فيتجدد شعره وتتجدد معانيه .

www.abulhasanalinadwi.org

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السَّحر ، ويعتقد أنها رأس ماله ، ورأس مال كلِّ عالمٍ ومفكِّر ، لا يستغني عنها أكبر عالمٍ أو زاهدٍ ، يقول في بيت: «كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في حرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شئت في العلم والحكمة ، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنَّةٌ في السَّحر» ، وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة: «رغم أنَّ شتاء إنجلترا كان قارساً جدَّاً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السَّيف ، ولكنِّي لم أترك في لندن التبكير في القيام» ، وكان لا يبغي به بدلاً ، ولا يعدل به شيئاً ، يقول في بيتٍ: «خذ مني ما شئت يا رب! ولكن لا تسلبني اللذة بأنَّه السحر ، ولا تحرمني نعيمها» ، بل كان يتمنَّى على الله أن تتعدَّى هذه الأنة السِّحرية والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعِّمين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة: «اللهم! جرِّح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية ، وأيقظ الآمال والأماني النائمة في صدورهم ، بنجوم سمواتك التي لا تزال ساهرةً ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنومٍ ، ارزق الشباب الإسلاميَّ لوعة القلب ، وارزقهم حبِّي وفراستي» ويقول في قصيدةٍ:

«اللهم ارزق الشباب أنَّتي في السَّحر ، وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي ، التي تطير بها وتصطاد ، وليست لي أمنيةٌ يا رب! إلا أن تنتشر فراستي ، ويعمَّ نور بصيرتي في المسلمين» .

العامل الخامس:

والعامل الأخير والمؤثر الكبير في تكوين عقيدته وتوجيه رسالته أيها السادة! هو «المثنوي المعنوي» بالفارسية ، وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورةٍ وجدانيةٍ ونفسيةٍ شديدةٍ ضد الموجة العقلية الإغريقية التي اجتاحت العالم الإسلاميَّ في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب والروح والعاطفة والحب الصَّادق والمعاني

www.abulhasanalinadwi.org

الرُّوحية ، من المباحث الكلامية الجافَّة ، والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين والمدارس الدينية والأوساط العلمية في الشرق الإسلاميِّ ، والكتاب متدفقٌ قوةً وحياةً ، زاخرٌ بالأدب العالي والمعاني الجديدة ، والأمثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القويَّة ، والطبع الرَّيان الذي يملي هذه المنظومة التي لا تزال فريدةً في موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القويُّ في تحرير الفكر من رقِّ العقل ، والتقديس الزائد للقيم العقلية ، والخضوع للمادِّية الرعناء ، ويبعث التمرُّد على عالم المادِّية الضيق ، والتطلُّع إلى أجواء الروح الفسيحة ، وكان العالم في عصر محمد إقبال يواجه التيار العقليَّ الأوربيَّ الذي جرف جميع القيم الروحية والخلقية ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الرُّوحية ، والمبادىء الخلقية ، وما بعد الطبيعة ، فأصبحت حضارةً عقليةً ميكانيكيةً ، وقد قضى محمد إقبال فترةً من الزمن ينازعه عاملان: عامل العقل ، وعامل القلب ، وقام صراعٌ بين عقله المتمرِّد وعلمه المتجدِّد ، وقلبه الحارِّ الفائض بالإيمان ، وفي هذا الاصطراع الفكريِّ والاضطراب النفسيِّ ، ساعده المثنوي مساعدةً غاليةً ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحلَّ به كثيراً من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكر في كثيرٍ من أبياته ، ويعزو إليه كثيراً من الحقائق والحكم ، يقول في بيتٍ يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب: «قد سحر عقلك سحر الأفرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الروميِّ ، وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بحراً من العلوم» ، ويقول في بيت: «لقد أفدت من صحبة شيخ الرُّوم أنَّ كليماً واحداً ـ يشير إلى سيدنا موسى ـ هامته على راحته يغلب ألف حكيمٍ قد أحنوا رؤوسهم للتفكير» ، وكان محمد إقبال يرجو أن يجدد عليه رسالته في القرن العشرين ، ويخلفه في مهمته العلمية والروحية ، وكان يشعر أن الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الرُّوحيِّ ، وقد أشار إلى ذلك إشارةً لطيفةً ، يقول في قصيدةٍ:

«لم ينهض روميٌّ آخر من ربوع العجم مع أنَّ أرض إيران لا تزال على

www.abulhasanalinadwi.org

طبيعتها ، ولا تزال تبريز[١] كما كانت ، إلا أنَّ إقبال ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدموع نبتت نباتاً حسناً ، وأتت بحاصلٍ كبير».

هذا هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال ، وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرَّج فيها ، ولا شك أنَّها أقوىٰ من آثار المدرسة الأولى ، وكمياتٍ من المعلومات وافرةٍ ، فقد علمته المدرسة الثانية المتعددة الجوانب ، كيف يستعمل هذه المعلومات ، وكيف يخدم بها نفسه وأمَّته ، وقد منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والإيمان القويَّ ، والخلق المستقيم ، والتفكير السَّليم ، والرسالة الفاضلة.

* * *

(١) مدينة في إيران ، منها شمس الدين التبريزي ، شيخ الروميِّ في التصوُّف.

www.abulhasanalinadwi.org

نظرة محمد إقبال إلى نظام التَّعليم العصريِّ ومراكزه

ألقى العلامة النَّدويُّ هذه المحاضرة في كلية دار العلوم بالقاهرة لدى زيارته الأولىٰ لمصر عام ١٩٥١ م.

www.abulhasanalinadwi.org

نقده لنظام التعليم :

نظر محمد إقبال إلى نظام التعليم الحديث ، فرأى فيه مواضع ضعفٍ كثيرة ، وجوانب نقصٍ عظيمة ، فتناولها بالانتقاد في صراحةٍ وشجاعةٍ ، ولفت إليها أنظار الرجال القائمين عليها ، وذكر من جنايات المدرسة ـ ويقصد بها نظام التعليم الحديث ـ على هذا الجيل شيئاً كثيراً تفيض به دواوين شعره ، يقول في بيت : «لقد خرجت من المدرسة والزاوية حزيناً ، لم أجد فيها الحياة ، ولا الحبَّ ، ولا الحكمة ، ولا البصيرة» ، ويقولٍ في بيتٍ آخر :

«أمَّا رجال المدرسة ففاقدو البصر ، وميِّتو الذوق ، وأما شيوخ الزاوية فقاصرو الهمَّة ، ضعيفو الطلب ، قليلو البضاعة» .

جنايات المدرسة :

وَمِنْ رأي محمد إقبال أنَّ التعليم الحديث قد جنى على هذا الجيل جنايةً عظيمةً؛ إذ اعتنت بتربية عقله ، وتثقيف لسانه ، ولم تعتن شيئاً بتغذية قلبه ، وإشعال عاطفته ، وتقويم أخلاقه ، وتهذيب نفسه ، فنشأ جيلٌ غير متوازن القوى ، غير متناسب النشأة ، لقد تضخم وكبر بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب بعض ، وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه ، وعقله وقلبه ، وعلمه وعقيدته ، مسافةً شاسعةً ، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً ، فالأول ضخمٌ كبيرٌ ، والثاني ضعيفٌ ناعمٌ ، وهو إذا وصف هذا الجيل الذي عاش فيه ، وعرفه عن كثب واتصال؛ صوَّره تصويراً صادقاً ، ينطبق تمام الانطباق على أبناء المدارس والشباب الجديد ، يقول :

«إنَّ الشباب المثقف فارغُ الأكواب ، ظمآنُ الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الروح ، مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، لم يشاهد في هذا العالم شيئاً ، هؤلاء الشبان أشباه الرجال ، ولا رجال ، ينكرون نفوسهم ، ويؤمنون بغيرهم ، يبني الأجانب من ترابهم الإسلامي

www.abulhasanalinadwi.org

كنائس وأدياراً ، شبابٌ ناعمٌ ، رخوٌ ، رقيقٌ في الشباب كالحرير ، يموت الأمل في مهده في صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا في الحرية ، إنَّ المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينيَّة ، وأصبحوا خبر كان ، أجهل الناس لنفوسهم ، وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية ، فيمدون أكفهم إلى الأجانب ليتصدَّقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيعون أرواحهم في ذلك ، إنَّ المعلم لا يعرف قيمتهم ، فلم يخبرهم بشرفهم ، ولم يعرفهم بشخصيتهم ، مؤمنون ، ولكن لا يعرفون سرَّ الموت ، ولا يؤمنون بأنَّه لا غالب إلا الله ، يشترون من الإفرنج اللَّات ، ومناة ، مسلمون لكن عقولهم تطوف حول الأصنام ، إنَّ الإفرنج قد قتلوه من غير حربٍ وضربٍ ، عقولٌ وقحة ، وقلوبٌ قاسية ، وعيونٌ لا تعفُّ عن المحارم ، وقلوبٌ لا تذوب بالقوارع ، كلُّ ما عندهم من علمٍ وفنٍّ ، ودينٍ وسياسةٍ ، وعقلٍ وقلبٍ يطوف حول المادِّيات ، قلوبهم لا تتلقى الخواطر المتجدِّدة ، وأفكارهم لا تساوي شيئاً ، حياتهم جامدةٌ ، واقفةٌ متعطِّلةٌ».

ويذكر محمد إقبال أنَّ السبب في جبن هذا الجيل وضعفه الخلقيُّ ؛ الوضع التعليمي الحاضر ، وإهماله للجانب الخُلُقيِّ ، ونشأة الشباب المتحلِّلة ، يقول في قصيدة: «لا أستغرب أيها الشباب المتعلم! إنك سيِّىءٌ جبان ، فإنَّ قلبك باردٌ لا لوعة فيه ، ولا حرارة ، ونظرك غير عفيفٍ ، إنَّ الشباب المثقَّف الذي استنارت عينه بنور الإفرنج قد يكون لبقاً في الحديث ، متشدِّقاً في الكلام ، ولكن عينيه لا تعرف الدموع ، وقلبه لا يعرف الخشوع».

ورأى محمد إقبال أنَّ المدرسة هي المسؤولة عن هذا المسخ الخُلُقيّ ، وهي التي نزلت بالشباب المسلم عن مقامه الرفيع إلى المحلِّ الوضيع ، يقول في بيتٍ : «أشكو إليك يا رب! من ولاة التعليم الحديث ، وأنهم يربُّون فراخ الصقور تربية بغاث الطيور ، وأشبال الأسود تربية الخروف». ومن أسباب هذا الضعف النفسيِّ هو العقل المثبّط؛ الذي يمنع من المغامرات والمخاطرة بالنفس ، ويحذر من سوء العاقبة ، ويكبر الأخطاء ، يقول في بيتٍ: «إنَّ التعليم قد باعدك من الجنون الذي كان ينزع العقل» ،

www.abulhasanalinadwi.org

ويقول له: «لا تعلل ولا تثبط عن المغامرة، إنَّ الأسرار التي حجبتها عنك المدرسة لا تزال مكشوفة في خلوات الجبال والصحارى»، ومن أكبر أسباب هذا الضعف، الذُّلُّ والتقدير الزائد للمادَّة، والنظر إلى الوظيفة والمرتب كغاية للتعليم، يقول في بيتٍ: «إنَّ ذلك العلم سمٌّ ناقعٌ للأفراد الذين ليست لهم غايةٌ إلا حفنتان من شعيرٍ» (يعني الراتب الذي يتقاضاه الموظف).

مآخذه على التعليم:

ومن أكبر مآخذه على هذا التعليم أنَّه يبعثُ على التعطُّل وحبّ الهدوء والراحة، ويجعل المتعلم كالمحيط الهادىء، لا حركة فيه، ولا اضطراب، يقول في بيت: «رماك الله أيُّها المتعلم بطوفان، فإنَّ بحرك هادىء لا اضطراب في موجه»، وكذلك يبعث هذا التعليم في الشباب المسلم «تفرنجاً» وحبَّ الزينة، يقول في قصيدةٍ: «إنَّ مقاعدك أيها الشباب المسلم! إفرنجيةٌ وزرابيك إيرانيَّةٌ، وإني أكاد أبكي دماً إذا رأيتك في هذا الترقي والبذخ لا خير فيك ولو أصبحت ملك الدنيا ما دمت متجرِّداً من قوة عليٍّ رضي الله عنه، واستغناء سلمان رضي الله عنه».

ومن مآخذه على هذا التعليم أنَّه يحدث الفوضى الفكرية، يقول في بيت: «إنَّ المدرسة تحرِّر العقل بلا شك، ولكنَّها تترك الأفكار بغير نظامٍ وارتباطٍ».

ومن مآخذه على نظام التعليم العصريِّ، والمدرسة التي تمثله، وتؤدي رسالته أنَّها مصابةٌ بالتقليد والجمود، ومجردةٌ من الابتكار والاجتهاد، يقول في قصيدة: «إنَّ العالم أسير التقاليد والأوضاع، وإنَّ المدرسة منحصرةٌ في نطاقٍ ضيقٍ، يا للأسف! إنَّ الرِّجال الذين كانوا يستطيعون أن يكونوا أئمةَ زمانهم أصبحت عقولهم باليةً، وفقدت كلَّ نشاطٍ وجدَّة، فاقتنعوا بتقليد عصرهم».

إنَّ الدكتور محمد إقبال لا يرى أنَّ هذا الجيل حيٌّ قائمٌ بنفسه، ويفكر بعقله، إنَّه يعتقد أنَّه ظلٌّ لأوروبا، وأنَّ حياته عاريةٌ من الغرب، يقول في

www.abulhasanalinadwi.org

بيت: «يتراءى لك أنَّ الشباب المتعلِّم حيٌّ يرزق، ولكنَّه في الحقيقة ميِّتٌ، استعار حياته من الغرب».

ويخاطب المتفرنج، ويقول: «ليس وجودك إلا تجلي الإفرنج، لأنَّك بناءٌ قد بنوه، هذا الجسم العنصريُّ فارغٌ من معرفة النفس، فأنت غمدٌ محلَّى بغير سيف، وجود الله غير ثابتٍ في نظرك، ووجودك أنت غير ثابتٍ في نظري».

ومن رأيه: أنَّ نظام التعليم الغربيّ قد ضعف الروح المعنوية في الشباب المسلم، وجنى على رجولته جنايةً عظيمةً، فأصبح شباباً رخواً رقيقاً مائعاً، لا يستطيع الجهاد، ولا يتحمل المكروه، يقول في قصيدة يخاطب فيها بعض المربِّين: «حيا الله شبيبتك، يا مربي الجيل الجديد! ألق عليهم درس التواضع، وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية، علِّمهم كيف يشقُّون الصخور، ويدكُّون الجبال، فإنَّ الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج. إنَّ عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم، وأوهنت قلوبهم، فانظر كيف تعيد الثقة إلى نفوسهم، وتحارب الفوضى الفكرية»، وكان لا يغتفر هذه الجريمة، يقول في موضع آخر: «أنا لا أقيم لذلك العلم وتلك الحكمة وزناً، الحكمة التي تجرِّد المجاهد من سلاحه، وتجعله أعزل ضعيفاً».

آراؤه في العلوم والآداب:

للدكتور محمد إقبال آراءٌ حصيفةٌ في العلوم والآداب والشعر، هي عصارة تفكيره وتجاربه، ومنها: أنَّ الأدب موهبةٌ كبيرةٌ من مواهب الله، وقوَّةٌ عظيمةٌ، يحدث به صاحبه انقلاباً في المجتمع، وثورةً فكرَّيةً، يضرب به الأوضاع الفاسدة الضربة القاضية، ويشعل القلوب حماسةً وغضباً، ويشعل البلاد ناراً وثورةً، ويملأ النفوس قلقاً واضطراباً، وتذمراً من الشرِّ، وتطلعاً إلى الخير، فلابدَّ أن يكون في قلم الأديب والشاعر التأثير الذي كان في عصا موسى، وأن يؤدِّي رسالته في العالم، وكلُّ أدبٍ استغل لجمع المادة أو لإرضاء الأغنياء والأثرياء، أو إثارة الشهوات، أو

www.abulhasanalinadwi.org

على الأقل كان أداةً للَّهو والتسلية ، والتذوُّق بالجمال والتغنِّي به ، فهو أدبٌ ضائعٌ مظلومٌ ، استعمل لغير ما خلق له ، ولغير ما وهب له ، يقول في بيت :

«أنا لا أعارض التذوُّق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعيٌّ ، ولكن أيُّ فائدةٍ للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر» .

ويعتقد محمد إقبال أنَّ الأدب لا يصل إلى حدِّ الإعجاز ، حتى يستمدَّ حياته وقوته من أعمال القلب الحيِّ ، ويسقى بدمه ، ويصف مهمَّة الأدب والشعر ورسالتهما ، ويقول :

«يا أهل الذوق والنظر العميق ، أنعم وأكرم بنظركم! ولكن أيُّ قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعرٍ ، ولا في صوت مغنٍ ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله في نسيم السَّحر ، إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول ، والذوق والذبول ، إنَّ غاية الإحسان في فنٍّ من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة ، ما قيمة شرارة تلتهب سريعاً ، وتنطفىء سريعاً ، وما قيمة لؤلؤةٍ كريمةٍ ، وصدفةٍ لامعةٍ لا تحدث اصطراعاً في الأمواج ولا اضطراباً في البحار؟ ولا نهضةً للأمم إلا بمعجزةٍ ، ولا خير في أدبٍ ، ولا شعرٍ ما تجردا عن تأثير عصا موسى .

يقول محمد إقبال هذا ، ويرى بالعكس أنَّ الأدب في الشرق الإسلاميِّ قد أصبح تتحكَّم فيه المرأة ، فأصبح لا يتحدَّث إلا عنها ، ولا يتغنَّى إلا بها ، ولا يبحث إلا فيها ، ولا يصوِّر إلا إياها ، ولا يرى في الكون إلا ظلَّها وجمالها ، وهذه عقيدة جديدةٌ في «وحدة الوجود» التي يمكن أن تسمَّى «الوجودية الأدبية» كأن الأدب العصريَّ ينادي بلسان حاله «لا موجود إلا المرأة» أو «لا موجود إلا الفتاة» ، يقول محمد إقبال : «أسفاً للشعراء والرسامين ، وكتَّاب القصَّة في بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم المرأة» ، ولا شكَّ أنَّه تصويرٌ صادق للاتِّجاه الأدبيِّ العام في الشرق

www.abulhasanalinadwi.org

الإسلاميِّ ، واندفاع الأدب المتهوِّر وراء المرأة وهيامه بها ، وإعراضه عمَّا سواها .

وله في الفلسفة وعلوم الحكمة كذلك رأي خاصٌّ ، فهو يرى أنَّ الفلسفة لا تعيش إلا بالجهاد والتضحية ، وأنَّ الفلسفة التي تقصر على الدراسات والبحوث العلمية ، وتتلهَّى بالمناقشات اللفظية ومباحث ما بعد الطبيعة ، ولا تدخل في صميم الحياة ولا تتعرض للمجتمع ، وتعيش في العزلة عن العالم ، إنما هي فلسفةٌ منهارةٌ لا تستطيع أن تعيش ، يقول في بيتٍ: «إنَّ الفلسفة التي لم تكتب بدم القلب فلسفةٌ ميِّتةٌ ، أو محتضرةٌ» .

وقد انتهت به دراسته للفلسفة ، وتوفره على مطالعتها ومقاساتها ، والتفكير الطويل العميق إلى إخفاق الفلسفة في حلِّ مشكلات الحياة ، وأنَّها صدَفةٌ لامعةٌ خاليةٌ من اللؤلؤ ، وهي بمعزلٍ عن الحياة والكفاح ، لا تساعد البشر ، ولا تمنحهم دستوراً للحياة ، وأنَّ الدين هو الذي ينظم المجتمع ، وينوِّر الطريق ، ويقدِّم دستوراً للحياة ، وأنَّ سيدنا محمداً ﷺ هو المصدر الوحيد الذي يستفاد منه هذا العلم .

عرف الشاعر صديقاً له من الهاشميين قد أثرت فيه الفلسفة تأثيراً كبيراً ، وتزلزلت عقيدته الإسلامية ، فكتب إليه محمد إقبال قصيدةً يقول فيها : «أنا رجل كما تعرف أنتهي في أصلي إلى سومنات[(١)] ، وكان أبي من عباد اللات ومناة ، وإن أسرتي عريقةٌ في البرهمية ، ولكن يجري في عروقك دم الهاشميين ، وتنتمي إلى سيِّد الأولين والآخرين ، وقد امتزجت الفلسفة بلحمي ودمي ، وجرت منّي مجرى الروح ، أنا وإن كنت لا أحسن شيئاً فلا شك أني نزلت في أعماق هذه الفلسفة ، وتغلغلت في أحشائها ، وبعد ذلك أقول : إنَّ الحكمة الفلسفية ليست إلا حجاباً للحقيقة ، وإنَّها لا تزيد صاحبها إلا بعداً عن صميم الحياة ، وإنَّ بحوثها وتدقيقاتها تقضي على روح العمل ، هذا «هيجل» الذي تبالغ في تقديره ، إنَّ صدفته خالية من اللؤلؤة ،

(١) المعبد الوثني المعروف في الهند ، الّذي فتحه السلطان محمود الغزنوي ، وحطَّم صنمه الأكبرَ .

www.abulhasanalinadwi.org

وإن نظامه ليس إلا وهماً من الأوهام ، لقد انطفأت شعلة القلب في حياتك أيها السيد : وفقدت شخصيتك ، فأصبحت أسيراً «لبرجسان» .

إنّ البشرية تريد أن تعلم : كيف تتقن حياتها ، وكيف تخلد شخصيتها ، إنَّ بني آدم يطلبون الثبات ، ويطلبون دستوراً للحياة ، ولكن الفلسفة لا تساعدهم في ذلك ، بالعكس من ذلك ، إنَّ المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه؛ أشرق العالم ، واستيقظ الكون ، إنَّ الدين هو الذي ينظم الحياة ، وإنَّه لا يكتسب إلا من إبراهيم ومحمد ﷺ ، فعليك أيها السيد! بتعاليم جدِّك ﷺ ، إلى متى يا بن علي! (رضي الله عنه) تقلِّد أبا علي (ابن سينا) ، إذا لم تكن بصيراً بالطريق فالقائد القرشيُّ (يعني : رسول الله ﷺ) خيرٌ لك من القائد البخاري (يعني : ابن سينا)» .

وبالإجمال إنَّ الدكتور محمد إقبال يرى أنَّ نظام التعليم الحديث قد أخفق في أداء رسالته ، وأخفق في إنتاج جيلٍ جديدٍ ، يحسن الانتفاع بمعلوماته ، ويحسن استعمال مادَّته العلمية ، وثروته الثقافية ، ويضع كلَّ شيءٍ في محلِّه ، ويعيش حياةً سعيدةً مطمئنة ، وبالعكس من ذلك وجد جيلٌ مثقَّفٌ ثقافةً عالية ، يعرف عن مجاهل إفريقية والقطب الشمالي ، وعن حياة الحيوان والنبات شيئاً كثيراً ، ولا يعرف عن نفسه إلا قليلاً ، ويسخِّر البخار والكهرباء ، ويسخِّر الطاقة الذرِّية في الزمن الأخير ، ولا يملك نفسه وقوته ، ويطير في الهواء كالطير ، ويسبح في البحار كالسَّمك ، ولا يحسن أن يمشي على الأرض ، وما ذلك إلا لأنَّ التعليم قد اختلَّ ميزانه ، وفسد مزاجه ، وكيف يستقيم الظلُّ والعود أعوج! يقول في قصيدة : «من الغريب أنَّ من اقتنص أشعة الشمس ، لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح ، وأنَّ من بحث عن مسالك النجوم وطرقها ، لم يستطع أن يسافر في بيداء أفكاره ، ومن عكف على الألغاز يحلُّها ، ويشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضَّرر» .

تصويرٌ للشَّباب المسلم :

وفي الأخير إنَّ الدكتور محمد إقبال يتمنَّى للإسلام جيلاً جديداً ، شبابه طاهرٌ نقيٌّ ، وضربه موجعٌ قويٌّ ، إذا كانت الحرب في صولته كأسد

www.abulhasanalinadwi.org

الشَّرى ، وإن كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى ، يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ، هذا مع الأعداء وذاك مع الأولياء ، إذا تكلَّم كان رقيقاً رفيقاً ، وإذا جدَّ في الطلب كان شديداً حفيَّاً ، وكان في حالتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً ، آماله قليلةٌ ، ومقاصده جليلةٌ ، غنيُّ القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى ، غيورٌ في العسر ، رؤوفٌ كريمٌ عند اليسر ، يظمأ إن أبدى له الماء منَّةً ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلةً ، إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً في النعومة ، وإن كان بين الأعداء كان حديداً في الصلابة ، كان طلاًّ وندىً ، تتفتح به الأزهار ، وترفُّ به الأشجار ، وكان طوفانه تصطرع به الأمواج ، وترتعد له البحار ، إذا عارض في سيره صخوراً وجبالاً ؛ كان زلالاً ، وإنْ مرَّ في طريقه بحدائق كان ماءً سلسالاً ، يجمع بين جلال إيمان الصِّدِّيق ، وقوَّة عليٍّ ، وفقر أبي ذرٍّ ، وصدق سلمان ، ينبه على أوهام العصر كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء ، يُعرف في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السَّحر . الشهادة في سبيل الله أحبُّ إليه من الحكومات ، والغنائم ، يقتنص النُّجوم ، ويصطاد الأسود ، ويباري الملائكة ، ويتحدَّى الكفر والباطل أينما كان ، يرفع قيمته ، ويزيد في سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربِّه ، شغلته مآربه الجليلة ، وحياةُ الجدِّ والجهاد عن زينة الجسم والتأنُّق في اللباس ، وشعر بإنسانيته ، فترفَّع عن تقليد الطاووس في لونه ، والعندليب في حسن صوته .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الإنسـان الـكـامـل فـي نظـر مـحمَّـد إقـبـال

هذه المحاضرة أعدَّها العلامة النَّدويُّ لجامعة فؤاد الأوّل (جامعة القاهرة حالياً)، وقدمها العلامة الندوي في ٥/ رجب سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ١٠/ إبريل ١٩٥١ م في احتفالٍ كبيرٍ أمام باب الجامعة وجماعةٍ من الأساتذة.

www.abulhasanalinadwi.org

بحثٌ عن إنسان:

قال مولانا جلال الدِّين الروميُّ في بعض مقطوعاته: «رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة، وقد حمل مشعلاً، كأنَّه يبحث عن شيءٍ، قلت له: يا سيدي! تبحث عمَّاذا؟ قال: قد مللت معاشرة السباع والدَّواب، وضقت بها ذرعاً، وخرجت أبحث عن إنسانٍ في هذا العالم، لقد ضاق صدري من هؤلآء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي، فخرجت أبحث عن عملاقٍ من الرجال، وبطلٍ من الأبطال، يملأ عيني برجولته وشخصيته، ويروِّح نفسي، قلت له: لقد غرَّتك نفسك يا هذا! فخرجت تقتنص العنقاء بالله! لا تتعب نفسك، وارجع أدراجك، فقد أجهدتُ نفسي، وأنضيتُ ركابي، ونقَّبت في البلاد، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً! قال الشيخ: إليك عني أيها الرجل فأحبُّ شيءٍ إلى نفسي، أعزُّه وجوداً، وأبعده منالاً».

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه الخالد «أسرار خودي»، ولا أظنُّ أنَّ محمد إقبال اختار هذه المقطوعة، وحلى بها صدر كتابه إلا لأنَّها تصور نفسيته، وتعبِّر عن شعوره، فقد كان يحكم دراسته الفلسفية من كبار الرواد الباحثين عن «الإنسان الكامل» فهل وجد محمد إقبال ضالته يا ترى! وظفر بمطلوبه، أم قطع منه الرجاء؟.

وإذا كان الجواب: نعم، لقد وجد محمد إقبال ضالته من الناس، وظفر بوطره من الرِّجال، فتأكَّدوا أنه فتحٌ أعظم من فتح «كولمبس»، واكتشافٌ أجلُّ خطراً وأعظم قدراً من اكتشاف العالم الجديد؛ لأنه اكتشاف الإنسان وعثور علىٰ الإنسانية الضائعة، ولا خير في العالم ـ قديمه وجديده ـ إذا فقد الإنسان، وضاعت الإنسانية، وحاجة العالم إلى إنسانٍ أشدُّ اليوم من حاجته إلى القارات الجديدة، والبحار المجهولة.

www.abulhasanalinadwi.org

المسلم هو الإنسان الكامل:

إنَّ محمَّد إقبال يحدثنا في شعره بأنه وجد هذا الإنسان المنشود، وعرفه، واتَّصل به، ونراه قد هام به هياماً، وتغنَّى في شعره بإنسانيته وشخصيته، فأين وجده محمد إقبال، وكيف السبيل إلى هذا الإنسان الرفيع؟.

أخاف أن أفاجئكم بما لا تقدِّرونه، ولا تنتظرونه إذا أخبرتكم أنَّ الإنسان الكامل الذي وجده محمد إقبال، فوجد فيه ما كان ينشده من معاني الإنسانية، والقوة، والحياة، والجمال، والكمال، هو «المسلم» لا أقلَّ ولا أكثر.

إنَّ هذا الجواب مفاجأةٌ للذين يحملون للمسلم صورةً قاتمةً هزيلةً لا تتَّفق أبداً مع هذا التصوير الرائع، الذي قدمَّه الشاعر للإنسان الكامل، ولكنَّ محمد إقبال بالعكس من ذلك يرى في المسلم الضَّالة المنشودة، والصورة الكاملة للإنسانية.

المسلم المثالي:

ولكنَّه يعني ذلك المسلم المثالي، الذي يمتاز بين أهل الشكِّ والظنِّ بإيمانه ويقينه، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية، وبين عبَّاد الرِّجال، والأموال، والأصنام، والملوك بالتوحيد الخالص، وبين عبَّاد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقياته وإنسانيته، وبين عبَّاد الشهوات والأهواء والمنافع، بتجرُّده من الشهوات، وتمرُّده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده، وإيثاره، وكبر نفسه، ويعيش برسالته ولرسالته، ذلك المسلم الحقُّ الذي مهما اختلفت الأوضاع، وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التي لا تتغيَّر ولا تتحوَّل، وأما ما عداه فزبدٌ يذهب جفاءً، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابتٌ وفرعها في السَّماء، أما ما عداه فشجرةٌ اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، يقول في بيتٍ: «إنَّك أيها المسلم في العالم وحدك، وما عداك سرابٌ خادعٌ، ودرهمٌ زائف»، ويقول في بيت آخر:

www.abulhasanalinadwi.org

«إنَّ إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحقِّ ، وكلُّ ما عداه في هذا العالم ماديٌّ ووهمٌ ، وطلسمٌ ، ومجازٌ».

المسلم له وجودان:

إنَّ المسلم له وجودان: الوجود الإنسانيُّ ، والوجود الإيمانيُّ ، أما الوجود الإنسانيُّ: فهو الوجود الذي يشاركه فيه كل إنسان ، يولد كعامَّة الناس ، وينشأ ، ويكبر كعامَّة الناس ، ويجوع ، ويظمأ ، ويشعر بالبرد والحر ، ويأكل ، ويشرب ، ويصحُّ ، ويمرض ، ويموت ، ويحيا ، ويفتقر ، ويغنى ، ويزرع ، ويتجر ، ويعول العيال ، ويربي الأطفال ، ويقتني الأموال ، ويحكم البلاد والرجال ، فهو في هذا الوجود خاضعٌ للسنن الطبيعية ، تجري عليه كما تجري على غيره ، وتنفذ فيه كما تنفذ في أيِّ إنسانٍ آخر ، وتقسو عليه كما تقسو على غيره ، ولا تتسامح معه لأنَّه يحمل اسماً خاصَّاً ، وينتمي إلى جنسٍ خاصٍّ ، يلبس لباساً خاصاً ، وهو ذرةٌ حقيرةٌ في صحراء الوجود المترامية ، وموجةٌ عاديةٌ تأتي وتذهب في بحر الكون الزاخر ، من غير أن يشعر بها أحد ، فإذا اقتصر المسلم على هذا الوجود البشريِّ العام ، وعاش كإنسانٍ لا أقلَّ ولا أكثر ، كان كائناً ضعيفاً فانياً ليست له قيمةٌ كبيرةٌ في نظر الضمير في الوجود ، إذا مات في وقته ما بكت عليه السماء والأرض ، وما خسر فيه العالم شيئاً كبيراً.

أما الوجود الإيمانيُّ فهو أنَّه يحمل رسالةً خاصَّةً ، رسالة الأنبياء والمرسلين ، ويؤمن بمبادىء خاصَّةٍ ، ويعتقد اعتقاداً خاصاً ، ويعيش لغاية خاصةٍ ، فهو من هذه الناحية سرٌّ من أسرار الحقِّ ، ودعامةٌ من دعائم العالم ، وحاجةٌ من حاجات البشر ، يستحقُّ أن يعيش ، ويستحقُّ أن ينتصر ، ويستحقُّ أن يزدهر ، بل يجب أن يعيش ويجب أن يزدهر ، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون ، فحاجة البشرية ، وحاجة الكون إليه ليست أقلَّ من حاجتهما إلى الماء ، والهواء والنور والحرارة ، كانت معاني الحياة وحقائقها مرتبطةً بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق التي تتكفل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها ، ويتكفَّل المسلم بإعلانها ، والقيام بها ، والجهاد

www.abulhasanalinadwi.org

في سبيلها ، فلولا هو لضاعت هذه الغايات والرسالات وأصبحت سرّاً مكتوماً ، إذاً فمركزه في العالم ، وبقاؤه كبقاء الشمس والكواكب النَّيِّرة ، تنقرض الأجيال والأمم ، وتحوِّل الأنهار مجراها ، وتخرب عمائر وتعمر خرائب ، وتقوم حكومات ، وتتقلَّص حكومات ، وتأتي مدنيات ، وهو قائم لا يزول ولا يحول .

المسلم حيٌّ خالدٌ :

يعتقد محمد إقبال أنَّ المسلم حيٌّ خالدٌ ، لأنَّه يحمل رسالةً خالدةً ، ويحتضن أمانةً خالدةً ، ويعيش لغايةٍ خالدةٍ ، يقول في بيت : «لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم ، لأنَّ وجوده رمزٌ لرسالات الأنبياء ، وإنَّ أذانه إعلانٌ للحقيقة التي جاء بها إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمَّد ﷺ» ، ويقول في بيتٍ آخر : «المسلم رسالة الله الأخيرة ، فلا يعتريها النسخ والتبديل» ، ولا يعني محمد إقبال أنَّ كلَّ فرد من أفراد الأمة الإسلامية حيٌّ خالدٌ ، يفلت من الموت ، ويتمرَّد على القانون الطبيعيِّ ، كيف ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] وقال : ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] ، ولكنَّ محمد إقبال يرى أنَّ المسلم موجٌ من أمواج بحر الإسلام الخضم ، يأتي موجٌ ويذهب موجٌ ، وتترامى الأمواج في أحضان البحر وتتلاشى في وجوده .

والبحر لا يتغيَّر ، فالبحر امتدادٌ دائمٌ ، وتسلسلٌ قائمٌ لأجزاء متغيرةٍ ، كبحر الحياة ، وبحر الوجود ، تتبدَّل أمواجه ـ وهي أفراد البشر ـ ولا يتبدَّل كيانه .

خلق العالم للمسلم :

ويتقدم محمد إقبال خطوةً أخرى ، فيعتقد أنَّ المسلم هو غاية هذا الكون ، خُلق العالم له ، وخُلق هو لله ، لقد كان العلماء يتباحثون في صحة حديث : «لولاك لما خلقت الأفلاك» ، ولكن محمد إقبال لا تهمُّه صحَّة هذا الحديث لفظاً وروايةً ، إنَّه يفهم من القرآن ، ومن دراسة الإسلام ، وطبيعة المسلم ، ورسالته السَّامية ، ويفهم من دراسة التاريخ الإنسانيِّ الواسعة

www.abulhasanalinadwi.org

العميقة ، والاطِّلاع الواسع على أوضاع العالم ، وطبائع الأشياء: أنَّ المسلم الذي هو جارحةٌ لرسول الله ﷺ وخادمه ، هو مصداق معنى الحديث ، فضلاً عن الرسول عليه الصلاة والتسليم ، فهو خليفة الله في أرضه ، خلق لأجله العالم ، وعلَّمه الأسماء ، وحكَّمه في الأرض ، وأورثه خيراتها ، وخزائنها ، وألقى إليه بمقاليدها ، فيجب عليه أن يعتقد ، ويقتنع بأنَّ العالم خلق له ، ويجاهد ويجتهد لتطبيق هذه العقيدة ، وتحقيق هذه الفكرة ، يقول في بيت: «إن العالم تراثٌ للمؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا أعدُّ مؤمناً كاملاً من لا يعتقد أنَّ العالم خُلق له».

مقام المسلم مقام الإمامة والتوجيه:

ويعتقد محمد إقبال: أنَّ المسلم لم يُخلق ليندفع مع التيار ، وليساير الركب البشري حيث اتَّجه ، وسار ، بل خُلق ليوجّه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملي عليها إرادته ، لأنَّه صاحب الرسالة ، وصاحب العلم واليقين ، ولأنَّه المسؤول عن هذا العالم ، وسيره ، واتجاهاته ، فليس مقامه مقام التقليد والاتِّباع ، إنَّ مقامه مقام الإمامة والقيادة ، ومقام الإرشاد والتوجيه ، ومقام الآمر والناهي ، إذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع ، وانحرف عن الجادَّة ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ، ويضع أوزاره ، ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ، ويظلُّ في صراع معه وعراكٍ ، حتى يقضي الله في أمره ، يقول في بيت: «يقول من لا خلاقَ له: در مع الدَّهر حيث دار ، وإذا لم يسالمك الزمان؛ فسالمه ، وأنا أقول: «إذا لم يسالمك الزمان؛ فصارعه ، وحاربه ، حتى يفيء إلى أمر الله» ، ويرى أنَّ المؤمن غير مأذونٍ بمجاراة الأوضاع ، بل هو مكلَّفٌ بمصادمة الأوضاع الفاسدة ، يردُّ الأمر إلى نصابه ، ويقيم سالفة الدَّهر الغشوم ، ويقيم العوج ، ويصلح الفاسد ، وإن كلفه ذلك عملية الهدم والنقض ، والعملية الجراحية ، فإنَّ كل ذلك في سبيل البناء والعمارة والإصلاح ، يقول في بيت: «على المسلم أن يزن في نفسه الروح ، وينشىء في هيكله الحياة ، ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ، ووهج حياته ، وينشىء عالماً جديداً» ، يقول متمثلاً: «سألني

www.abulhasanalinadwi.org

ربِّي: هل ناسبك هذا العصر، وانسجم مع عقيدتك ورسالتك؟ قلت: لا يا ربي! قال: فحطِّمه، ولا تبال».

ويرى محمَّد إقبال: أنَّ الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة، والأوضاع القاهرة، والاعتذار بالقضاء والقدر، من شأن الضعفاء والأقزام، يقول في بيتٍ: «المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر، أما المؤمن القويُّ فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يُردُّ» ويقول: «إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته، وعرف قيمة نفسه؛ لم يقع في العالم إلا ما يرضاه ويحبُّه».

المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة:

ويرى محمد إقبال: أنَّ المسلم هو مصدر الانقلاب الصَّالح في التاريخ، ومطلع فجر السَّعادة في العالم، وأنَّه لم يزل ولا يزال رائد الانقلاب، ورسول الحياة، ومؤذن الفجر في الليل البهيم، وإنَّ أذانه لا يزال صيحةً تدوِّي في هدوء الليل وسكون الموت، فيعيد إلى هذا العالم النائم الناعس المتعب حياته ونشاطه، ويؤذن بطلوع الصبح الصَّادق، وانصرام الليل الغاسق، وعلى هذا الأذان الصارخ والنداء العالي الذي ارتفع من جبل «أبو قبيس» قبل ثلاثة عشر قرناً، استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق، الذي غطَّ فيه خمسة قرون وأكثر، وكان نفخة صورٍ للإنسانية الميتة والعالم المحتضر، وهو الكفيل الآن لإيقاظ الإنسانية، وإحياء الضمير البشريِّ، يقول في بيتٍ: «إنَّ المؤمن إذا نادى بالآفاق بأذانه، أشرق العالم واستيقظ الكون»، ويقول في قصيدةٍ: «لست أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح الذي يطلع على هذا العالم كلَّ يوم، ولست أعلم سرَّه، ولكنِّي أعلم أنَّ السحر الذي يهتزُّ له هذا العالم المظَّلم، ويولي به ليل الإنسانية الحالك، إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق».

قوة المؤمن مستمدةٌ من رسالته:

ويعتقد محمد إقبال بحقٍّ أنَّ قوة المؤمن الخارقة للعادة، المحيِّرة للعقول، المعجزة للبشر مستمدةٌ من رسالته وإيمانه، وباندماجه واضمحلاله في إرادة الله، هنالك يتحوَّل جارحةً للقدرة الإلهية، وقوةً

www.abulhasanalinadwi.org

قاهرةً لا تصدُّها الجبال ، ولا تقف في سبيلها البحار ، يقول في قصيدة أنشأها في قرطبة : «إنَّ يد المؤمن جارحة القدرة الإلهية ، فهي غلابةٌ ، حلاَّلةٌ للعقد والمشكلات ، فتَّاحةٌ للأبواب المقفلة ، لبقةٌ ، صناعٌ ، حاذقةٌ ، إنَّ المؤمن جسمه من تراب وفطرته من نور ، عبدٌ متخلِّق بأخلاق مولاه ، قلبه غني عن العالمين» ، ويقول على لسان القائد الإسلامي الكبير طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وهو يدعو لأصحابه العرب بالنصر ، ويناجي ربَّه ، يقول : «إنَّ الغزاة المجاهدين عبيدك الغامضون ، الذين لا يعرفهم غيرك ، وقد أصبحوا اليوم يطمحون إلى فتح العالم وإخضاعه ، إذا ركلوا برجلهم الصحراء؛ انشقت ، وإذا ركلوا برجلهم البحر ، انفلق ، انكمشت الجبال ، وتقبضت بمهابتهم ، إنَّهم عرفوك ، وأحبوك ، فزهدوا في العالم ، واستغنوا عن الدنيا ، لا يطلبون إلا الشهادة في سبيلك ، ولا يهدفون بجهادهم إلى الفتح والغنائم ، لقد أفردت رعاة الإبل بنعمتك ، وميَّزتهم بين أقرانهم في الخبر والنظر ، وأذان السَّحر ، لم يزل العالم يعوزه لوعة القلب ، والتوجه للإنسانية المظلومة ، وفي قلوب هؤلاء الجريحة ، وفي أكبادهم المتَّقدة وجد العالم مآربه» ، بل إنَّ الشاعر يتقدَّم خطوةً ويقول :

«ما ظنُّك بقوة ساعد المؤمن! وهو بنظرته يقلب الأوضاع ، وبدعوته يردُّ القضاء» ، والمطَّلع على التاريخ يصدِّق ما قاله محمد إقبال ، فقد هزىء المسلمون المؤمنون في عصرهم الأول من الجبال والبحار ، وشقُّوا طريقهم غير محتفلين بما يعترضهم من أشواك وعقبات . قصص سعد بن أبي وقاص ، وخالد بن الوليد ، والمثنى بن حارثة الشيباني ، وعقبة بن نافع ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد شاهدةٌ على صدق ما قاله محمد إقبال .

المسلم لا ينحصر في الأوطان والشعوب :

ويرى محمد إقبال أنَّ المسلم حقيقةٌ عالميَّةٌ لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيِّقة ، بل تتخطَّى حدود المكان والزمان ، وتفيض كالطبيعة البشرية ، وكالإنسانية العامَّة في مساحةٍ زمانيةٍ شاسعةٍ ، كمساحة

www.abulhasanalinadwi.org

التاريخ الإسلاميِّ، وفي مساحة مكانيةٍ واسعةٍ كمساحة العالم الإسلاميِّ، يقول في قصيدة قرطبة: «إنَّ المسلم لا تعرف أرضه الحدود، ولا يعرف أفقه الثغور، ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجاً صغيرةً في بحره المتلاطم، عصوره عجيبةٌ، وأخباره غريبةٌ، نسخ العهد العتيق، وغيَّر مجرى التاريخ، هو في كلِّ عصرٍ ساقي أهل الذوق، وفي كلِّ مكانٍ فارس ميدان الشوق، شرابه رحيقٌ دائماً، وسيفه ماضٍ في كلِّ معركةٍ»، ويعتقد محمد إقبال: أنَّ العالم كله وطنٌ للمسلم، يقول في بيتٍ:

«المسلم الربانيُّ ليس بشرقيٍّ ولا غربيٍّ، ليس وطني دهلي، ولا أصفهان، ولا سمرقند، إنما وطني العالم كله».

ويعتقد محمد إقبال أنَّ المسلم يعتبر كلَّ ملك الله وطناً له، يقول:

«لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت، فجاءه رجالٌ من الجيش، ولاموه على فعله، وقالوا له: لقد قطعت بنا الحبال، فكيف نرجع إلى بلادنا؟ فوضع طارق يده على السيف، وقال: أنا لا أفكر في الرجوع، وسنبقى هنا، ونتخذه وطناً، فإنَّ كلَّ ما كان لله من أرضٍ وبلادٍ وطنٌ لنا، لا فرق في ذلك بين العجم والعرب، والشرق والغرب».

المسلم متخلِّق بأخلاق الله:

ويعتقد محمد إقبال أنَّ المسلم يجمع بين المتناقضات من الأخلاق والصفات، وما هي بمتناقضات، ولكنَّها ظلال صفات الله، ومظاهر أخلاق الله، فهو في تسامحه، ورحابة صدره، وكثرة صفحه قد تخلق بخلق «الغفار»، وفي شدته في الدِّين، وغضبه للحقِّ، وثورته على الباطل قد تخلق بخلق «القهَّار»، وهو في نزاهته، وعفَّته، وطهارة ضميره قد تخلق بخلق «القدُّوس»، وفي صلابته إذا تصلَّب وشدَّة شكيمته إذا أبى، وشدة بطشه إذا حارب تخلق بخلق «الجبَّار»، ولا يكون المثل الكامل لدينه، وصورةً صادقةً للإسلام حتى يجمع بين هذه الأخلاق المتنوعة، فيجمع بين الشدَّة واللِّين، والغضب والرحمة، والصلابة والمرونة،

www.abulhasanalinadwi.org

والعفَّة والنزاهة ، ويكون في ذلك آيةً من آيات الله ، ومعجزةً من معجزات الرَّسول ، ثم يقول الشاعر :

«إنَّ المؤمن هو الميزان العادل ، والقسطاس المستقيم ، به يُعلم رضا الله وسخطه ، وبه يُعرف الحسن من القبيح ، فما راق في نظره؛ فهو حسنٌ ، وما استقبحه ، فهو طائش ، وفي عزائمه تتجلَّى إرادات الله ، وهو القرآن الناطق ، وهو الدِّين يسعى على قدميه . ثم إنَّ حياته متوافقةٌ متشابهةٌ كالطبيعة ، فالصبح يطلع كلَّ يومٍ والليل يتبع النَّهار ، لا تخلف فيه ولا تناقض ، وهو صاحب معانٍ كثيرةٍ ، ونغمةٍ واحدة ، فهو كسورة الرحمن في القرآن تتجدَّد معانيه ، وتتكرَّر فيه آية ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣] وقد صدق الشاعر ، فالمسلم لم يزل يتحف كل عصر بعلومه وتوجيهاته ، وينير ظلمات كلِّ عصرٍ بنوره ، وضيائه ، ويضرب على وترٍ واحدٍ .

ويكرِّر رسالة الأنبياء ، ويقول لكلِّ جيلٍ : ﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩] فهو كالصبح جديدٌ ، وقديمٌ ، فهو في جدَّته ليس أجدَّ منه ، وهو في قدمه ليس شيءٌ أقدم منه ، هو قديمٌ لكنه يتجدَّد به العالم ، وتتجدَّد به الكائنات ، وتنتعش به القوى ، وتستيقظ به الأجسام والقلوب والعقول ، ثم هو جديدٌ بنفسه تتجدَّد قواه ويتجدَّد نشاطه ، وتتفتَّح قريحته ، مع العصور ، علمه سيَّارٌ ، وعقله مبتكرٌ ، ونفسه طموحٌ ، وهمَّته وثابةٌ ، وهو كالمطر كلُّ قطرة غير الأولى ، ولكنَّها قطرات مطر ، كلُّها تحيي الأرض ، وكلُّها تنبت النبات ، وكلُّها تسقي المزارع والأشجار ، وكلُّها تفتح الأزهار ، وكلُّها تكوِّن الأنهار ، وهو معنى قول النَّبيِّ ﷺ: «أمتي كالمطر لا يدرى أوله خيرٌ أم آخره» .

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقاً:

ويقول محمد إقبال : «إنَّ المسلم كالشمس ، إذا غربت في جهةٍ طلعت في جهةٍ أخرى ، فلا تزال طالعةً» ، وقد صدق ، فإنَّ الإسلام لم ينكب في ناحيةٍ من نواحي العالم ، ولم يخسر في جانب دولة إلا وقامت له دولةٌ في

www.abulhasanalinadwi.org

جانبٍ آخر ، ولم تسقط له رايةٌ إلا وخفقت له رايةٌ أخرى ، ولم يغب له نجمٌ إلا وطلع له نجمٌ آخر ، لقد كانت خسارة الأندلس الإسلامية كارثةً كبيرةً ، ومصاباً عظيماً ، ولكن عوَّض الإسلام بها بدولةٍ فتيةٍ من أعظم دول العالم ، هي دولة آل عثمان في تركيا ، قامت في نفس القارة الأوربية ، وجثمت على صدر الدول والأمم التي انتزعت الأندلس الإسلامية وأجلت المسلمين من وطنهم العربيِّ الإسلاميِّ ، وكان سقوط غرناطة وأوج الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني حادثين في عصرٍ واحدٍ ، ونُكِبَ العالم الإسلاميُّ ، ونُكِبَتْ بغداد بغارة التتار ، وانطمست معالم الحضارة الإسلامية ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، ولكن في نفس الفترة كانت الدولة المسلمة في الهند تتَّسع وتزدهر ، وأصيب العالم الإسلامي بهزاتٍ عنيفةٍ وقواصم مؤلمةٍ في فجر هذا القرن المسيحي على أيدى الأوربيين ، فقد اقتسمت الدول الأوربية تراث الدولة العثمانية كمالٍ سائب ، واغتصبت مملكتها في إفريقية ، وتقاسم الحلفاء سورية ، وفلسطين ، والعراق ، ولكن تبع هذا كلَّه اليقظةُ الإسلامية الهائلة ، والوعي السياسيُّ القويم ، والطموح إلى الاستقلال وحرية الحركات الإسلامية المختلفة التي كان يجيش بها العالم الإسلاميُّ من أقصاه إلى أقصاه .

ونُكِبَ المسلمون في العهد الأخير بنكباتٍ عظيمةٍ في الشرق الأقصى والأوسط ، وخسرت الدول العربية فلسطين العربية الإسلامية ، ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتان فتيتان في الشرق ، إحداهما دولة باكستان والأخرى إندونيسيا .

وهكذا لم يزل التاريخ الإسلاميُّ متأرجحاً بين الأسفل والأعلى ، فما تسفَّل منه جانبٌ إلا وترفَّع جانبٌ آخر ، كالأرجوحة تماماً ، ولم تتوار شمسه في أفقٍ إلا وبزغت في أفقٍ آخر ، وذلك لأنَّ الإسلام رسالة الله الأخيرة التي لا رسالة بعدها ، والمسلمون هم الأمَّة الأخيرة التي لا أمَّة بعدهم ، فإذا ضاعوا؛ فقد ضاعت الرسالة ، وإذا هلكوا؛ فقد غرقت السفينة التي تحمل الذخيرة .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

الحقائق التاريخيّة في شعر محمّد إقبال

ألقى العلامة الندويُّ هذه المحاضرة في ندوة علميّةٍ في مدينة «شيكاغو» (الولايات المتحدة الأمريكية) في أغسطس ١٩٧٥ م ، وكانت المحاضرة في الأردوية ، نقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ محمَّد الحسني رئيس تحرير مجلّة «البعث الإسلاميّ» .

www.abulhasanalinadwi.org

لم يكن إقبال أخصَّائياً في مادَّة التاريخ ، ولم يزعم لنفسه امتلاكاً للموضوع ، وتعمُّقاً فيه ، واطلاعاً على أسراره وخفاياه ، وإذا طلب منه في مناسبة من المناسبات أن يتناول كتاباً يدور حول هذا الموضوع ويتَّصل به من بعيدٍ أو قريبٍ بالنقد والتعريف ، أحجم عن الكتابة ، واعتذر عنها ببساطةٍ وتواضع ، وقال : «إنه لم يختصَّ في هذه المادَّة ، إنه كان عالم الفلسفة ، أو عالم القرآن» ، ولكن من البديهيِّ المعروف أن دراسته كانت واسعةً منوَّعةً عميقةً ، وأنَّه تأمَّل خلال بحثه العلميِّ المتواصل ، ودراسته الطويلة الواسعة في تاريخ الأمم والشعوب والدول والحكومات ، وفي الأديان وفي الأخلاق ، وفي مجتمعات البشريَّة ، والحضارات الإسلامية المختلفة بنظرٍ ثاقبٍ ، ونزل في أغوارها ، واهتدى إلى أسرارها ، ورغم أنَّ التاريخ ـ كما قلنا ـ لم يكن محور دراساته ، إلا أنه اعتنى بالموضوع عنايةً لائقةً شأن كلِّ باحثٍ يهمُّه مصير الإنسان ، ونهضة الإنسانية ، وانحطاطها ، والقضايا البشرية المصيرية .

وكان الوجه الثاني أنَّ الفلسفة تثير في الإنسان تطلُّعاً قوياً إلى الحقيقة المجهولة ، وتحدث فيه ملكةً خاصَّة في ربط الوحدات الضائعة ، والأجزاء المتناثرة ، والتوصُّل من المقدمات إلى النتائج ، ومن الجزئيات إلى الكلِّيات ، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغييرات العابرة ، والأحداث الطارئة إلى كنه الحوادث ، وأعماقها ، لذلك نجد إقبالاً يتوصَّل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج وحقائق لا يصل إليها أولئك الباحثون ، والعلماء ، والمؤرخون ، الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية ، والذين هم طلاب مدرسة التاريخ الجامدون وأساتذتها التقليديون ، وقد دلَّه على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمُه العميق للقرآن ، ودراستُه المخلصة المتواصلة لهذا الكتاب المعجز ، الذي يحتوي على موادَّ أساسيةٍ ومبادىء واضحةٍ تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية ، وشقاؤها ، ورقيُّها ، وزوالها ، والذي يكشف الستار عن الحوادث التي ستواجهها الإنسانية في

www.abulhasanalinadwi.org

المستقبل ، وأسباب شقاء الأمم ، وهلاكها ، وازدهارها كشفاً تتحيَّر له الألباب ، ويقف عنده العقل عاجزاً مشلولاً لا يجد له التأويل ، غير أنَّ هذا الكتاب الذي نزل على «الأميِّ ابن البادية» ـ كما يقول إقبال ـ منزلٌ من الله العليم الخبير الذي فطر السموات والأرض ، وذلك ما قاله إقبال عندما قدَّم إلى الأمير الشهيد نادرخان ملك أفغانستان ، المصحف الشريف :

«إنَّ هذا القرآن سند أهل الحقِّ ، في ضميره حياةٌ وروحٌ تتدَّرج في بداية النهاية ، به فتح عليٌّ باب خيبر» .

ويقول في ديوان «أسرار خودي» :

«إنَّ هذا الكتاب كتابٌ خالد ، حكمته غارقةٌ في الأزل ، سارية إلى الأبد ، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة ، ويثبِّت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه بالقول الثابت» .

إنَّ دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلوماتٍ وحقائق جديدةٍ إذا فتّشنا في غضون دراساته التاريخية ، ورأينا إلى أيِّ مدىً تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحيِّ ، أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث ؛ الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية ، وإنه ليس أقلَّ من «اكتشاف» إذا قلنا : «إنَّ شعر إقبال يتضمَّن بعض إشاراتٍ تاريخيَّةٍ دقيقةٍ تتكَّون منها مؤلفاتٌ تاريخيَّةٌ إذا شرحناها شرحاً وافياً ، فقد جمع في بعض أبياته ومقطوعاته أحياناً ، وفي بيتٍ واحدٍ بعض الحين عصارة دراساتٍ عميقةٍ ، ومحصول تأمُّلاتٍ طويلةٍ ، ولبابِ مكتباتٍ كاملةٍ تكونت في التاريخ وفلسفة التاريخ ، وهنالك التقى إيجازه بالإعجاز ، ويمكن إذا شرحنا شعره في نثرٍ وسقنا له شواهد تاريخيَّةً ودلائل (وهي كثيرةٌ) أن يأتي رائعاً أخَّاذاً ، كما هو الحال في شعره الحلو ، وبيانه الجميل ، وكلامه الجزل ، ولا يمكن أن يقدر قيمة هذه الإشارات العلمية والتاريخيَّة وصدق نتائجها وعواقبها التي جاءت في شعره تقديراً صحيحاً دقيقاً ، إلا من كان له اطلاعٌ واسعٌ عميقٌ على التاريخ الإنسانيِّ والتاريخ الإسلاميِّ وعلى علوم القرآن ، وخبرةٌ دقيقةٌ

www.abulhasanalinadwi.org

باليهودية والمسيحيَّة، والأديان الهندية القديمة، والفلسفات العجمية وآدابها، وتاريخ القرون الوسطى التي يسميها المؤرخون الغربيون بحقٍّ بالقرون المظلمة .(Dark Ages)

ونقدِّم هنا نماذج من فراسته التاريخية وحكمته القرآنية التي تجلَّت في شعره، من غير تدقيقٍ وتمحيص كبيرٍ، واستيعابٍ شامل، لكلٍّ ما ورد في هذا الموضوع، وإنما اخترنا من أبياته ما أعانت عليه الذاكرة، وانطلق به اللسان، واعتمدنا على شرحه وتصويره، وإبرازه في صورته الواضحة المتكاملة على المعلومات العامة لدى القارىء ودراسته للتاريخ الذي يحظى به عادةً كلُّ متعلمٍ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك عظمة هذه الحقائق، وأن نصدِّق تلك الأفكار والآراء التي قدمها إقبال إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخيَّة، والمجتمع الذي تدور حوله هذه الأبيات.

ولذلك نستعرض قبل أن نقدِّم هذه الأبيات الأجواء التي أنشدت فيها، والظروف التي دفعت إليها.

قد وزَّعت الديانات القديمة ـ وخاصَّة المسيحية ـ الحياة الإنسانية في قسمين: قسمٍ للدين وقسمٍ للدنيا، ووزعت هذا الكوكب الأرضيَّ في معسكرين، معسكر رجال الدين، ومعسكر رجال الدنيا، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب، بل حال بينهما خليجٌ كبيرٌ، أو وقف دونهما حاجزٌ سميكٌ، وظلا متشاكسين متحاربين، وكانا يعتقدان بأنَّ هناك خصومةً وعداءً بين الدين والدنيا، فإذا أراد إنسانٌ أن يتَّصل بأحدهما؛ لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر، بل يعلن الحرب عليه، فلا يمكن له ـ على حدِّ قولهم ـ أن يركب سفينتين في وقتٍ واحدٍ، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصاديّ ورخائه من غير غفلةٍ عن الدار الآخرة، وإعراضٍ عن فاطر السموات والأرض، ولا بقاء لحكمٍ أو سلطةٍ من غير إعمال التعاليم الدينية والخلقية، والتجرُّد عن خشية الله، ولا إمكان للتديُّن من غير الرهبانية وقطع الصلة عن الدنيا وما فيها.

ومن المعلوم المقرَّر أن الإنسان محبٌّ لليسر، مجبولٌ عليه، وكلُّ فكرةٍ

www.abulhasanalinadwi.org

عن الدِّين لا تسمح بالاستمتاع المباح والنهضة والاستعلاء والحصول على الفوز والحكم ، لا تصلح للنوع البشريِّ في الغالب ، إنه صراعٌ مع الفطرة السليمة ، وكبتٌ للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان ، وكان نتيجة هذا الصراع أنَّ عدداً كبيراً من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم ، ورضوا بها ـ كحاجةٍ اجتماعيةٍ وواقعٍ حيٍّ ـ واطمأنوا إليها ، وعكفوا على تحسين هذه الحياة والحصول على ملَذاتها ، ولم يبق لهم أملٌ في الدين.

وأكثر الذين هجروا الدين بصورةٍ عامَّةٍ هجروه على أساس هذا التناقض الذي حسبوه حقيقةً بديهيَّةً مُسَلَّمةً ، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الدنيوي على الكنيسة التي كانت تمثِّل الدين ، وتتجرَّد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات ـ بطبيعة المنطق ـ كفيلٍ هائجٍ مائجٍ تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجملٍ هائمٍ حبلُه على غاربه ، هذا الانفصال بين الدين والدنيا ، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا ، لم يضع حدّاً على الدين والأخلاق ، ولم يحرمه من بركات السماء والأرض فحسب ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللاَّدينيَّة ، وكانت فريسته الغرب أولاً ، والأمم التي دانت لها في الفكر ، والعلم ، والثقافة ، أو عاشت تحت رايتها ثانياً ، وزاد الطين بلَّةً دعاةُ المسيحية المتطرفون ، والمفرطون الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائقٍ في التزكية الرُّوحية ، والاتصال بالسَّماء ، والذين لم يدَّخروا وسعاً في إذلالها ، وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية ، والتعاليم الجائرة ، وقدَّموا وحشيةً كالحةً مفزعةً للدين تقشعرُّ منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في النهاية إلى تقلُّص ظلِّ الدِّين ، وبلغت عبادة النفس والهوى ـ في أوسع معناها ـ إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيضٍ ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الدِّينيّ ، أو فقدان الحاسَّة الدينيَّة في هوَّةٍ عميقةٍ من اللادينيَّة ، والفوضى الخلقية العامة.

وأعظمُ هديةٍ للبعثة المحمَّديَّة ، ومنَّتها العظيمة ، هو نداؤها الذي روَّت به الآفاق أنَّ أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء الذي عبَّر عنه الشارع بلفظٍ مفردٍ بسيطٍ ، ولكنه واسعٌ عميقٌ «النية».

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّه لا يؤمن بأن هذا مجرَّد دنيا ، وذاك مجرَّد دين ، إنَّه يعتقد أن كل عملٍ يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص ، وامتثال أمره وطاعته ، هو وسيلةٌ إلى التقرُّب إلى الله والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دينٌ خالص لا تشوبه شائبةٌ ، ولو كان هذا العمل جهاداً ، أو قتالاً ، أو حكماً ، أو إدارةً أو تمتُّعاً بطلبات الأرض وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكلٌّ عبادةٌ وخدمةٌ دينيَّةٌ ـ بالعكس من ذلك ـ تعتبر دنيا إذا تجرَّدت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرةً وجهاداً وذكراً وتسبيحاً ، وقتالاً في سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل ، والعالم ، والمجاهد ، والدَّاعي ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالاً ، وتكون بينه وبين الله حجاباً.

وإنَّها مأثرةٌ عظيمة من مآثر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنَّته العامَّة الخالدة على الإنسانية : أنَّه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا في خصامٍ دائمٍ وعداءٍ سافرٍ ، وحقدٍ مستمرٍ ، يتعانقان في ألفٍ وَودٍّ ، ويتعايشان في سلامٍ ووئام ، إنَّه ﷺ رسول الوحدة ، وبشيرٌ ونذيرٌ في الوقت ذاته ، إنَّه أخذَ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهةٍ موحَّدةٍ من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله ، وعلَّمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع :

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١].

إنَّه أعلن بالآية التَّالية ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] أنَّ حياة المؤمن ليست مجموعة وحداتٍ متفرقةٍ مضادَّةٍ ، فالعبودية والعبادة وحدةٌ شاملةٌ ، وصورةٌ جامعةٌ ، قد ترى فيها رجال الله في زي الأمراء ومعيشة أصحاب الثراء والجاه ، وترى فيها أمراء ، وأغنياء في

www.abulhasanalinadwi.org

مستوى العبَّاد والزهَّاد ، جمعوا بين السيف والمصحف ، عبادُ ليلٍ ، وأحلاس خيلٍ ، من غير أن يروا في ذلك تناقضاً ، ومن غير أن يجدوا فيه مشقَّةً وحرجاً.

واقرأ بعد هذا التمهيد أبيات شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي أنشدها تحت عنوان «الدين والسياسة» ، وتأمَّل كيف قيَّد هذا التاريخ الحافل للإسلام والمسيحية والقرون المتوسطة ، والعصر الحديث ، وتعاليم هاتين الديانتين ، ووضع كلَّ هذه الحقائق ، والمعلومات والمعارف في إطارٍ صغيرٍ ، أو زجاجةٍ رائقةٍ من أبيات ، تتراءى لنا بحلاوتها وسهولتها ، وعذوبة جرسها إلى جانب طابعها العلمي الرزين ، وجلالها الفنيِّ البديع ، كأنها كأسٌ من الزلال ، أو جزءٌ من السحر الحلال :

«قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها ـ بالطبع ـ القيادة ، والسيادة ، والحكم ، والإدارة ، فقد كان هناك عداءٌ قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوعٌ واستسلامٌ ، وذلك استعلاء كاملٌ واستيلاء.

حتى خلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ، ومرقت منه ، كما يمرق السهم من الرَّميَّة ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرون على شيءٍ ، فلما انفصل الدين عن الدولة ، جاءت الشهوة ، وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شؤمٌ على الدولة والدين ، وهو لا يدلُّ على ضعف بصر هذه الحضارة ، وفساد ذوقها.

ولكنَّه إعجاز رجلٍ من رجال البادية ، الذي كان بشيراً ونذيراً بذات الوقت ، يتجلَّى في بشارته الإنذار ، وفي إنذاره البشارة.

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهَّاد والعبَّاد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد.

إنَّ التاريخ الإنساني الطويل ـ الذي أثخن بالجراح ، وطفح كأسه بالدماء والدموع ، وأحاط بجزئه الأكبر حروبٌ طاحنةٌ ، ومعارك ضاربةٌ ، ومغامرات أفرادٍ وجماعاتٍ وشعوبٍ ـ يشهد بأنَّ تجمُّع القوة والحكم في

www.abulhasanalinadwi.org

فردٍ أو جماعةٍ لم يضرَّ النوع البشري مثل ما ضرَّه ، وجرَّ الشقاء عليه شهوةُ الحكم ، ونشوة القوة ، والشعور بالتفوق والعظمة ، فكلما يستولي هذا الشعور على فردٍ أو جماعة ، ويحسُّ بأنَّه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه ، وأنَّه سيلٌ جارفٌ لا يمنعه شيءٌ ، وقضاء الله المبرم الذي لا رادَّ له ، والشعوب المجاورة كلُّها ، والإنسانية برمَّتها عالةٌ عليه ، وتحت رحمته ، ورهن إشارته ، والحقيقة الباقية والشريعة السائدة هي القوة ، أمَّا الإنسانية ، والعدالة الاجتماعية ، والرحمة ، والأخلاق ، والضمير ، والحسنُ والقبيح ، والخبيث والطيِّب ، فهي كلماتٌ فارغةٌ لا تحمل معنىً ، ومنطقٌ انهزاميٌّ ، منطق العبيد ، والضعفاء ، والمساكين ، والأمم المستضعفة التي لا تملك حولاً ولا طولاً ، وكلما يصبح شعار (Meght is Right) «القوة هو الحقُّ» مقياس الحقِّ والباطل ، وتمدُّ هذه الفلسفة أجنحتها على شُعَبِ الحياة كلِّها ، وتصبح خشية الله ، والعطف على الإنسانية ، والورع ، واتِّقاء المحارم ، والصبر عنها ، والحياء وشعبه آية الجبن ، وسمة الضعف ، والتخاذل ، وتتحوَّل الوسائط غاياتٍ ، وتصبح الغايات ممتدةً إلى ما لا نهاية لها ، فهنالك ينقلب هذا الفرد ، وتنقلب هذه الفئة والجماعة قوَّةً مدمِّرةً عمياء أو بركاناً ناريّاً هائلاً يتفجَّر على الإنسانية ، فلا تقف في زحفه الجهنميِّ وَسَيْلِهِ النَّاريِّ حكوماتٌ مستقرةٌ ، وإمبراطورياتٌ عظيمةٌ ، ولا قلعة حضارات الإنسانية ، أو تعاليم خلقية ، ولا نتائج جهود المعلمين ، والمصلحين من أهل الدين ، ولا مؤسساتهم التي كانت تغيث الإنسانية منذ قرونٍ طويلةٍ ، وتسعفها في محنها ورزاياها ، وتخفف آلامها ، وتمسح دموعها .

هذا السيل الناريُّ الجارف يأتي بين عشيةٍ وضحاها على سائر الجهود المعمارية ، والإنشائية ، والإنمائية ، وكنوز الآباء والأجداد ، وذخائر العلم والأدب ، وعلى كلِّ ما بناه الأوائل ، بل يقطع الأمل في بناء الإنسانية ونهضتها وصحوتها من جديدٍ إلى قرون طويلةٍ ، وتحوِّل المدن العامرة إلى أنقاض مدمَّرةٍ ، ومستعمراتٍ زاهرةٍ إلى أراضٍ قاحلةٍ ، تحوِّل العواصم الكبرى إلى مقابر عامَّة ، والمساجد والمعابد إلى حاناتٍ وخاناتٍ ، ونوادي الخمر والقمار ، ومؤسسات العلم ومراكز الثقافة ، إلى مراكز اللهو

www.abulhasanalinadwi.org

والترويح والفسق والدَّعارة ، وينقلب المجتمع كلُّه رأساً على عقب ، ويصبح عاليه سافله ، وعزيزه رذيله ، وقد صور القرآن ببلاغته المعجزة هذا التغيير الهائل على لسان ملكة سبأ ، فصدق عليه في كتابه الخالد قائلاً :

﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النَّمل : ٣٤] .

وكانت فريسة هذه الشهوة ـ شهوة الأنانية والحكم والشعور المفرط بالتفوُّق ـ أممٌ قديمةٌ ذكرها القرآن ، أممٌ لم تعرف شيئاً ، ولم تحس شيئاً غير الإبادة والتدمير ، وزحفت كالفيل الهائج المائج ، فأهلكت الحرث والنسل ، وداست شعوبها الشقيقة كما يدوس أحدنا أرض مزرعته ، ولا يبالي ، وكان من بينها قوم عاد ، وقد وصفها القرآن بهذا الداء ، داء الاستكبار :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] .

وظهرت نتيجة هذا الذهول ـ الذهول عن الله ـ والابتعاد عنه ، وعبادة النفس وتقديسها ، واستعمال وسائل القوَّة استعمالاً حراماً ، لا يبالي بأيِّ قيد ، ولا يقف عند حدٍّ ، ولا يقيم للعاقبة والمصير أيَّ وزن ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أيَّ حساب ، وقد حكى القرآن على لسان سيدنا هود الذي بعث في قوم عادٍ ، هذه الحالة النفسية ، فقال :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣٠] .

فحين يتسلَّم فردٌ أو جماعة مقاليد الحكم المطلق ، ويتسنَّى له قوةٌ تحقِّق له ما أراد ، هنالك يعبث الفرد أو هذا الطاغية بتلك الشعوب البريئة المغلوبة المنكوبة كما يعبث اللاعب بكرة القدم ، أوكما يعبث الطفل بجانب القرطاسٍ ، فإنَّه يتصرَّف فيها كذرات رملٍ وقصاصات ورقٍ ، ويعتبر أنَّه على حقٍّ في العبث بمصائرها ، والحكم عليها بالموت أو الحياة ، أو التخفيف عنها ، والتضييق عليها ، أو بسطها بسطاً ، أو قطعها إرباً إرباً .

ويقصُّ علينا القرآن قصة فرعون الذي ظنَّ نفسه رباً وحاكماً ، وتقلَّد هذا

www.abulhasanalinadwi.org

الحكم الأناني المطلق ، فيقول : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤].

ثم يصور القرآن في موضع آخر فرداً من أفراد هذه الطبقة يمثل الأنانية والأغراض ويملك لساناً سليطاً ، وبياناً ساحراً ، إنه ليس صورة فردٍ معيَّن ، بل إنه تصوير سلوكٍ خاصٍّ ونمطٍ خاصٍّ من العقلية والتفكير والاتجاه :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

إنَّ التاريخ الإنساني زاخرٌ بهذه النماذج البشرية التي تمثل هذا الطراز وهذه العقلية ، مثلها في مختلف أدوار التاريخ الروم ، والفرس ، وقد أنشأ فيهم هذا السُّكر : سكر القوَّة والحكم والشُّعور بالتفوق على غيرهم رغبةً عنيفةً في القتل ، والتدمير ، والإبادة ، وإذلال الكرامة الإنسانية ، تجلَّت في حروبهم ، ومعاركهم ، وفي عبادة القوَّة ، وقهر النفوس واضحةً جليَّةً ، يقول الدكتور درابر (Drapper) في كتابه «الصراع بين الدين والعلم» : (Conflict Between Retigion and Science)

«لما بلغت الدولة الروُّمية في القوَّة الحربيَّة والنفوذ السياسيِّ أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، واستهتروا استهتاراً . وكان مبدؤهم : أنَّ الحياة إنما هي فرصة التمتُّع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيمٍ إلى ترفٍ ، ومن لهوٍ إلى لذَّةٍ ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللَّذة ، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذَّهب والفضة مرصعةً بالجواهر ، ويحتفي بهم خدام في ملابس جميلةٍ خلابةٍ ، وغاداتٍ روميَّةٍ حسانٍ ، وغوانٍ عارياتٍ كاسياتٍ غير

www.abulhasanalinadwi.org

متعففاتٍ تدلُّ دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حماماتٌ باذخةٌ ، وميادين للَّهو واسعةٌ ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخرَّ الواحد منهم صريعاً يتشحَّط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنَّه إن كان هنالك شيءٌ يستحقُّ العبادة ، فهو القوة ، لأنَّه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين ، وكدِّ اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده؛ فحينئذٍ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعيِّن إيرادات الأقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوَّة القاهرة ، فكان نظام رومة المدنيِّ يشف عن أبهة الملك ، ولكنَّه كان طلاءً خدَّاعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها».

ثم اقرأ غزو التتار الوحوش في القرن السادس الهجري في كتب التاريخ : «إنَّ الذين أحسُّوا في أول صدام بأنَّه ليس هنا في البلاد المجاورة قوَّةً تمنع هذا السيل العرم ، وكانت مأساةً إنسانيةً عامَّةً ، لا تستطيع أن تقرأ تفاصيلها إلا بقلوب واجفةٍ ، وعيونٍ باكيةٍ ، إنَّها كانت فتنةً عمياء سوداء ، أحاطت بالعالم الإسلاميِّ كله ، وقوضت بنيان العالم المتمدِّن المعاصر وأركانه ، كان الجيل الإنسانيُّ كلُّه في هذه الفترة المهيبة المروِّعة من الزمن في وحشةٍ وغربةٍ ، وهلعٍ ، وفزعٍ ، وبأسٍ قاتلٍ ، ظهرت آثاره لا في كتب التاريخ فحسب بل في كتب الشِّعر ، والأدب ، والأخلاق ، والتصوُّف أيضاً» ، هذا الجراد المنتشر من الهمج لم يدمِّر البلاد العامرة المعمورة والمدن الزاهرة ، والأقاليم الخصبة الغنية المنتجة للرجال والنوابغ فحسب ، وجعلها خراباً يباباً ، وقاعاً صفصفاً ، بل إنَّه اكتسح الحضارة الإنسانية برمَّتها ، وتأخَّر تقدم العالم العلميُّ والمدنيُّ ومسيرته الحضارية لعدة قرون ، وغشيت سماءَ العالم الإسلاميِّ الذي حمل لواء الدِّين والأخلاق والعلم والحكمة في هذه الحقبة من الزَّمن ، سحابةٌ داكنةٌ قاتمةٌ من الانحطاط العلميِّ والإعياء الفكريِّ والعقليِّ ، ونضبت فيه منابع النبوغ والذكاء ، وهاجرت أسرٌ علميَّةٌ دينيَّةٌ عريقةٌ من إيران وتركستان ـ وهما كانتا محاضن العلوم الإسلامية إذ ذاك ـ تفرُّ بدينها ، وحرمتها ، وتراثها إلى الهند

www.abulhasanalinadwi.org

التي كانت تقع في أقصى بلاد العالم الإسلاميّ، وكانت تحكمها أسرٌ ذات قوَّةٍ وشكيمةٍ تواجه العاصفة بالإعصار، وتملكُ القدرة على مواجهة التتر الوحوش، ودحرهم إلى الوراء، وأصاب العالم الإسلاميَّ نوعٌ من العقم الفكريّ، والجدب العلمي حتى سدَّت بعض الأوساط العلمية أبواب الاجتهاد ومنافذه، وابتغت العافية في التقليد، والنقل، وتطبيق الفعل بالفعل».

إنَّ قيصر، والإسكندر، وجنكيز، وهولاكو، وتيمورلنك، ونادرشاه أفشار، لم يكونوا إلا مرضى هذا الداء العضال، داء السُّكر بالقوَّة المادية ونشوة الحكم والتفوق بالعظمة، وكانوا يقنصون الإنسانية، ويصطادون النوع البشريَّ، ويدوِّخون الأسرة الإنسانية مرَّةً بعد مرَّةٍ بأسنتهم ورماحهم، وبأقدامهم، ونعالهم، اقرأ تفاصيل ملاحمهم، وصيدهم وقنصهم، وعبثهم بالرؤوس، والجماجم، والأشلاء، والأنفس، والأرواح، ثم تأمَّل كيف قدَّم شاعر الإسلام محمد إقبال عصارة دراساتٍ طويلةٍ، وآلافاً من الصفحات في ثلاثة أبيات:

«انظر كيف مزَّق جنكيز وإسكندر رداء الإنسانية، وهتكا ستر الحشمة، ولباس الكرامة ففضحا الإنسان مراراً وتكراراً.

إنَّ تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أنَّ سُكْر القوَّة، ونشوة الحكم خطرٌ في خطر، ومصيبةٌ على مصيبةٍ، إنَّه سيلٌ جارفٌ يكتسح العقل، والفكر، والعلم، والمعرفة، والفنَّ، والصناعة كحشائش ونباتاتٍ حقيرةٍ، ويجعلها هباءً منثوراً».

لقد رأى كثير من رجال الفكر في الشرق أنَّ أوربا (بمعسكريها الشرقيِّ والغربيِّ) وأمريكا أصابتهما هذه العقدةُ النفسية، وصرعهما هذا الدَّاء القديم، إنهم اعتبروا نفوسهم أوصياء (Gaurdians) على الشعوب والأمم، والحاكمين على مصائرهم، وهم يزنون كلَّ شيءٍ بميزان القوَّة، أو الربح والخسارة، ولا يرضون بقيادةٍ صالحةٍ أمينةٍ في أيِّ بقعةٍ من بقاع العالم، ويحاولون أن يجتثُّوها حالاً إذا نشأت، بل يرى كثيرٌ من المفكرين

www.abulhasanalinadwi.org

والخبراء في الشرق أن القيادة الغربية هي المسؤولة عن ذلك التدهور الخلقيِّ والفوضى الفكريَّة العامَّة في البلاد الآسيوية بوجهٍ عام ، وفي البلاد الإسلامية بوجهٍ خاصٍّ .

هذا المنطق النفعيُّ المجرَّد عن الحقِّ والنزاهة لا يسمح للقيادة الغربية أن تفكر في أيِّ قضيةٍ بحيادٍ تامٍّ ، ورغبةٍ مخلصةٍ في التوصل إلى كنه الأمر ، وإيجاد حلِّها العادل ، بل إنَّها تخالف ـ بالعكس ـ الظالم القويَّ في وجه المظلوم الضعيف الذي له الحق .

ولذلك خابت المؤسسات العالمية النافعة مثل جمعية الأمم المتحدة ومجلس الأمن في مقاصدها ، وصارت لا تمنع صداماً ولا تلمُّ شعثاً ولا تحقِّق أملاً ، ولا تقدر على إسعاف الإنسانية والأخذ بيدها خالصةً مجرَّدةً من الأغراض المادية .

وقد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الأكبر (الإخلاص والحياد) تأثير معونات الغرب السخيَّة في المشاريع العمرانيَّة والغذائية في الشرق ، ولم تحقق كثيراً من مطالب الغرب ، ولم تكسب احترامه مقابل هذه المساعدات السخيَّة ، والدعم القويِّ .

أمَّا إذا اقترنت هذه القوة ، وامتزجت بغايةٍ نبيلةٍ ساميةٍ ، وصارت تحت توجيه قائدٍ مصلحٍ راشدٍ؛ فلا تتخبَّط كالفيل الهائج الذي أُطلق من قيوده ، وتكون مركباً ذلولاً لقائدٍ عارفٍ خبيرٍ لا راكباً ، تابعاً لا متبوعاً ، وسيلةً لا غايةً ، وتتحول إلى نعمةٍ ورحمةٍ بدلاً من عذابٍ ونقمةٍ ، وحياةً لا موت ، وأداة بناءٍ لا معول هدمٍ ، يُستنجد بها في إغاثة الملهوف ، ونصرة المظلوم ، وتحرير الإنسان من سلاسل العبودية ، وردِّ الحقوق إلى أصحابها ، والمياه إلى مجاريها ، وردِّ اعتبار الإنسانية وكرامتها ومكانتها اللائقة في هذه الأرض ، هنالك يفتتح عهدٌ سعيدٌ ، وبينى هذا العالم المنهار المتداعي من جديدٍ .

يقول إقبال : «إذا تخلَّت السياسة عن الدِّين؛ صارت سمّاً ناقعاً ، وإذا كانت في خدمته صارت ترياقاً واقياً» .

www.abulhasanalinadwi.org

ويعتقد إقبال أنَّ أروع نموذجٍ وأجمل مثالٍ لهذه القوَّة الممتزجة بالغايات النبيلة والمقاصد الصَّالحة ، هيَ الفتوح المباركة ، والمغامرات التي قام بها العرب الأوَّلون الذين اعتنقوا الإسلام ، وحملوا رسالته ودعوته في الآفاق ، واستعمالهم للقوَّة التي آتاهم الله استعمالاً صحيحاً لائقاً ، والذي عبَّروا عنه على لسان سفيرهم بإخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

إنه خاطب في الأبيات الرائعة الأمَّة العربية ، وشرح دورهم القياديَّ الرائع البنَّاء في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات ، وأشاد بهذه العقيدة والإيمان والدَّعوة والرسالة التي كانت مصدر هذا الانقلاب ، ومنبع هذا التحوُّل العظيم في سير الإنسانية واتجاهها ، وحركتها ومصيرها ، وهي من غرر كلامه وعيون شعره باللغة الفارسيَّة :

«اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبيِّ الأميِّ حلةً أنيقةً ، وأنبتت زهرةً يانعةً ، إنَّ عاطفة الحرية نشأت في ظلِّ هذا النَّبيِّ بل ترعرت ونمت في حجره ، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مدنيَّةً لأمسه .

لقد وضع قلباً نابضاً خفَّاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة .

هزم كلَّ طاغوتٍ ، وحطَّم كلَّ صنم ، وأورق به كلُّ غصنٍ يابسٍ وأزهر وأثمر ، إنَّه روح معركة بدر وحنين ، وإنه مربِّي الصِّدِّيق ، والفاروق ، والحسين .

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيضٌ من فيضه ، جعل سيف صلاح الدين البتار ، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة .

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب ، والتقى بها روح الروميِّ بفكر الرازيِّ .

واجتمع بها العلم والحكمة والدِّين والشَّرع ، والإدارة ، والحكم مع قلوبٍ أوَّاهةٍ مخبتةٍ منيبةٍ في الصدور .

www.abulhasanalinadwi.org

إنَّ جمال قصر الحمراء ، والتاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب القديسين هو نفحةٌ من نفحاته ، ولمحةٌ قصيرة من لمحاته ، وومضةٌ من أنواره وبركاته .

ظاهره تلك التجلِّيات والنفحات ، وباطنه درٌّ مكنونٌ لم يطَّلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كُنهه السالكون .

فلا ريب أنه يستحقُّ ثناء الجميع ، وشكرهم ، وحمدهم ، لأنَّه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التُّراب» .

من المفارقات العجيبة في هذا الكون أنَّ الأشخاص الذين أنشؤوا إمبراطوريات عظمى ، ودخلت بهم الأمم المستضعفة الذليلة المهانة في دور النهضة والرُّقي ، والعظمة والكمال ، والنجاح والازدهار ، كانوا متقشِّفين صابرين مغامرين ، زاهدين في الدنيا وزهرتها ، أغنياء عن التنعُّم والعيش الرغيد ، وكانت معيشتهم بسيطةً ومرهقةً ، ولكنَّهم نجحوا بفضل مغامراتهم وطموحهم ، وعلوِّ همَّتهم ، وجهادهم ، واجتهادهم ، وصبرهم على المكاره في تأسيس تلك الحكومات التي ثبتت كالجبال الراسيات لقرونٍ طويلةٍ ، ولكن توفُّرُ وسائل الهناء والرَّخاء ، والبيئة الفاسدة ، ووجود طبقةٍ من المتزلِّفين وهواة المناصب أثَّر في أخلاقهم وأعقابهم بصورةٍ تدريجيَّة فشلت قواهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، وتمرَّغوا في النَّعيم والتَّرف ، وصاروا أبناء مطاعم ومشارب ، وسهراتٍ ومآرب ، وعزَّ عليهم الحياة من غير كأسٍ ومزمار ، وطنبورٍ وعودٍ ، وارتكز ذكاؤهم ، ونبوغهم ، وإبداعهم على نقطةٍ واحدةٍ ، ولم تكن بالطبع نقطة الفتوح وحراسة الحدود ، وتوطيد أركان الدولة ، إنما هي تصميمات أزياء ، وأقسام أطباق ، والتنافس في الطرب والمجون ، والاستمتاع بلذَّات الدنيا ومباهجها ، ووصلوا في ذلك إلى حدود لا يتطرق إليها خيالُ ابنٍ من أبناء البلد ، وفردٍ من أفراد الشعب .

إنَّه مبدأٌ عام جرى به التاريخ الإنسانيُّ منذ القدم ، وأخذ به من غير استثناءٍ ، ويبدو لنا أنَّها سنَّةٌ من سنن الكون ، ونتيجةٌ طبيعيَّةٌ منطقيَّة للمال ،

www.abulhasanalinadwi.org

والثراء ، والمنصب ، والجاه ، وتوفُّر أسباب الراحة والرخاء ، وقد كشف القرآن عن وجه هذه الحقيقة بإيجازه المعلوم وبلاغته المعجزة فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ ـ ٧].

اقرأ تاريخ شعبٍ من الشعوب في أيِّ دورٍ من أدوار التاريخ وحكومةٍ من الحكومات التي قامت على وجه الأرض قديماً وحديثاً ، ترى هذا التفاوت واضحاً بين الأول والآخر ، بين الأوائل والأواخر ، في السِّير والأخلاق وأنماط الحياة ، وفي الأقدار والمقاييس.

ونكتفي هنا بمثالين ونموذجين من هذه الأمَّة التي سبقت قريناتها في حمل لواء التعاليم الخلقيَّة في هذا العالم ، وهي أمَّةُ نبيٍّ جعل الفقر شعار فخره ، وربط الأحجار على بطنه ، والتي قامت به من أول يومها على الزُّهد والقناعة ، ومراقبة النفس والعطف على الخلق ، فإنَّ أمثلتها ونظائرها تكثر ـ طبعاً ـ في الفرس والروم ، ومصر واليونان ، وفي حكوماتٍ وحضاراتٍ أخرى.

الواضح المعلوم لدى الجميع أنَّ العرب حين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام في العالم ، وإجراء شريعة السماء في الأرض كانوا فقراء ، غرباء عن حواشي الحضارة ومستلزماتها ، وكان حياتهم حياة شكيمةٍ وفتوَّةٍ ، وصبرٍ وجلادٍ ، وزهدٍ وشظف ، ولكنَّهم بفضل القوَّة الذاتية في الإسلام وبحياتهم البسيطة الزاهدة التي فقدتها سائر الشعوب في العالم ، نجحوا في إنشاء دولٍ عظيمةٍ مرهوبة الجانب ، من بينها الدولة العباسية التي حكمت باسم الخلافة خمسمئة سنة حكماً مستقلاًّ ذاتياً ، ودان لها نصف العام المتمدِّن المعاصر على أقلِّ تقدير ، ولقد كان مؤسسو هذه الدولة الأوائل مثل هارون الرشيد والمأمون (مع مطامعهما الملوكية وعيشتهما الفارهة وترفهما المعلوم) من رجال الفتوَّة والمغامرة والإقدام ، متعوِّدين على حياة الجندية والفروسية ، ولكن أصاب هذه الدولة أخيراً داء التَّرف والتنعُّم ، وأصبح ولاة أمورها الذين حملوا عبء الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدَّةً من الزمن ، عالةً على نفوسهم وأهوائهم ، ينساقون معها ،

www.abulhasanalinadwi.org

ويدورون في فلكها ، ويصيرون فريسة الحكم الطويل ، والمدنية الناعمة المترفة ، وتكدَّست عندهم أسباب الرّاحة ، والهناء ، وفاضت عاصمتهما بغداد بسيلٍ جارفٍ من الغفلة عن الله ، والتهالك على الدُّنيا ، عبثت بكثيرٍ من رجال العلم والفضل ، وضرب حبُّ الدنيا وحبُّ ما فيها أطنابه على العاصمة ، وما جاورها من البلاد والأقاليم .

وظهرت نتيجة هذا الإغراق في الترف والتمرُّغ في النعيم ، والتهالك على حطام الدنيا ، والانصراف عن معالي الأمور في غارة التتر الوحشية في زمن الخليفة العباسي المعتصم بالله ، وتحوَّلت عاصمة العلم والمدنية إلى مجزرةٍ وحشيةٍ هائلةٍ ينتكس عند ذكرها قلم المؤرِّخين .

وقد صوَّر مؤرخٌ أوضاع بغداد قبل غارة التتر ، فأحسن ، وأجاد ، يقول المفتي قطب الدين النهرواليُّ المكيُّ (وهو أحد المؤرخين والعلماء في القرن العاشر الهجري) يصف ما كان عليه أهل العاصمة في هذه الفترة من الزمن :

«مرفهون بلين المهاد ، ساكنون على شطٍّ بغداد في ظلٍ ثخينٍ ، وماءٍ معين ، وفاكهةٍ وشراب ، واجتماع أحبابٍ وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ، ولا دافعوا طعناً ، ولا ضرباً» .

ونقدم المثل الثاني من الدولة المغوليَّة في الهند التي أسسها ظهير الدين بابر التيموريُّ (١٤٨٢ م ـ ١٥٣٠ م) على التوبة والإنابة ، وإرادة الإصلاح ، والتغيير ، والتضحية ، والفداء ، والعزم الصادق ، فلما رأى بابر أنَّه لا يملك غير عشرين ألف جنديٍّ مقابل مئة ألف مقاتل تحت راية «رانا سانجا» وأن لا أمل هناك ولا مدد ، سلك طريقاً جديداً للفتح ، يحكي المؤرخ الهنديُّ الشهير محمد قاسم البيجابوري المعروف بفرشته في تاريخه :

«إن رانا سانجا توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقابل من أهل البلاد ، وساد الذُّعر في جيش بابر ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهَّن منجم البلاط محمد شريف بأنَّ الهزيمة محتومةٌ ، ولكن بابر صمَّم على القتال وقال : إذاً ينبغي أن نتهيَّأ للشهادة في سبيل الله ،

www.abulhasanalinadwi.org

وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنَّهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كلِّ جانبٍ من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقتٍ من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية ، وقاوم «رانا سانجا» بعشرين ألف مقاتل ، وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣ هـ.

ولكن تدرجت هذه الدولة الفتيَّة التي قامت على مثل هذا العزم والحزم ، والتضحية والفداء ، وميثاقٍ مع الله ، والتي تجمَّلت وافتخرت بوجود عصاميِّين ونوابغ وعباقرة من بين أبنائها مثل «همايون» و«أكبر» و«أورنك زيب» إلى حمأة الرذيلة والإسفاف ، والشهوة ، واتباع الهوى ، واتباع الرغبات وإتيان المنكرات ، تجلَّى أخيراً بصورةٍ واضحةٍ مؤسفة في حياة «محمد شاه» (١٧١٩ م ـ ١٧٤٨ م) وما جرى في قصره حتى سُمي باسمٍ معناه: «الماجن» واشتهر به.

وإليك ما جاء عنه في التاريخ مستنداً إلى شهادةٍ علميَّةٍ:

«إن الملك محمد شاه لم يغير دينه ، ولكنه غير ديدنه ، فصار الغيم نقيبه ورائده ، إنَّه أمر بأن يؤذَّن بالرحيل كلَّما مرَّت سحابة على هملايا وأومض برق ، ويغادر الخليفة وركبه القصر إلى الصحراء. . . ولذلك سمي المسكين في الأخير ، «رنكبلا» يعين «الماجن» وهجره وزيره آصف جاه عندما رأى حالته ، فانصرف إلى جبال الدَّكن وغاباتها».

وجاء في بيان الشيخ الكبير عبد العزيز الدهلويِّ ما يلقي الضوء على تلك الأوضاع الفاسدة:

«كانت النساء في بيت قمر الدين خان (وزير محمد شاه) يغتسلن الغسل الأخير بماء الورد ، وكان يرسل إلى بيت أحد أمرائه كميَّةً من الورود والأزهار والبان (التنبول) يساوي ثمنها ثلاثمئة روبية كل يوم.

تأمَّل في غابر هذه الحكومات ومصيرها ، وماضي الأمم وحاضرها ، وما بينهما من تفاوتٍ عظيم ، وبونٍ شاسعٍ ، ثم انظر كيف صوَّر محمد إقبال

www.abulhasanalinadwi.org

هذا التاريخ الطويل العريض ، وأزاح الستار عن نهضة الأمم وتأخُّرها ، ورقيِّها وانحطاطها في بيتٍ واحدٍ:

«تعال أنبئك عن مصير الأمم وعاقبتها ، سنانٌ ورماحٌ أولاً ، ولهوٌ وغناءٌ آخراً».

ولكن هذا المقال لا يتمُّ إلا إذا قلنا: إنَّ هذه الأمم حين تدخل مرحلة اللهو والغناء ، والترف ، والمجون ، وتصيبها نوبةٌ عصبيَّةٌ من التمتُّع بكلِّ لونٍ من ألوان التنعم ، والإحاطة بكل نعمةٍ من نعم الدنيا ، وتتخطَّى سائر الحدود الخلقية ، والاعتبارات الإنسانية ، وتتجاهل كلَّ حقيقةٍ ، هنالك تتدخَّل الرحمة الإلهية وتتناولها بعمليةٍ جراحيَّةٍ ، ويختار لهذه الجراحة جنكيزاً وتيموراً ، أو هولاكو أو نادراً ، فيقطع هذا الناسور ، أو هذا السرطان من غير رحمةٍ ، ولا هوادة ، إنَّه يقول:

«الملوكية تتحوَّل بين يومٍ وليلةٍ إلى جنونٍ أو مجونٍ ، وليس التيمور أو جنكير إلا آلاتٍ جراحيةً تستعملها ـ في حينها ـ القدرة الإلهية».

ولكن انتهى الآن دور الملوكية القديمة ، وحكوماتٌ شخصية مستبدةٌ إلى حدٍّ كبير ، وجاء دور الديمقراطية والجمهورية ، تكدست قوى العالم وثرواتها في أيدي القيادة الغربية (أمريكا وأوربا) وهي تجتاز في هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار ، بعد أن وصلت إلى آخر نقطةٍ من النهضة والرقيِّ والازدهار ، وهي مرحلةٌ مرَّت بها حكوماتٌ شخصيَّةٌ قديمةٌ ، وحضاراتٌ بائدةٌ في أوانها ، فلا ترى عندها الآن إلا معاداة الحقائق ، وإذلال الشعوب وهضم الحقوق ، وظلم المستعمرات والجاليات ، وحالةً هستيريةً عصبيةً من عبادة النفس ، وتقديس الشَّهوة ، وعبادة الهوى ، والإغراق في حياة اللهو والعبث والمجون ، والسآمة من الحياة ، والشذوذ الخلقي ، والجنسي ، والتهالك على كلِّ عاجلٍ وطريفٍ ، وردِّ فعل عنيفٍ عند الاجتماع ، والغرام بالذاتية والأنانية ، والذُّهول التامِّ عن العاقبة والمصير ، وإنكار كل ما يتعدَّى إطار اللذة والمنفعة ، وكلُّ ذلك يدل على أنَّ هذه

www.abulhasanalinadwi.org

القيادة فقدت معنويتها ، وضرورتها وصلاحيتها للبقاء ، وأنَّ هذه الحضارة دخلت دور الاحتضار .

إنَّ تجربة التاريخ تدلُّنا على أنَّ قيادةً فتيَّةً شابَّةً كانت تظهر على مسرح العالم في مثل هذه الظروف ، فتقوم بعمليةٍ جراحيةٍ على هذا السرطان ، وتنقذ الإنسان من الهلاك ، وتجري في عروقها الميتة دماً فائراً جديداً ، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على ظهر الأرض قيادةً أو قوَّةً ، ثم ليس هنا أمل في ظهور قيادةٍ جديدةٍ ، أو بروز حضارةٍ شابَّةٍ قويَّةٍ في الميدان ، لأنَّ القوى العالمية اليوم متطفلة على مائدة الغرب ، وتعيش على هامشها ، وتتبَّع طريقها ، والحضارات المعاصرة بأسرها مستسلمةٌ خاضعةٌ أمامها ، لا تبغي بها بديلاً ، ولا تجد عنها محيصاً ، لذلك يبدو لنا أنَّ هذه العملية الجراحية لا تتمُّ على يد قوَّةٍ أجنبيةٍ من الخارج ، وهي ليست في حاجة إليها لأنَّها ـ على ما يقول إقبال ـ مثخنةٌ بجروحها الداخلية الغائرة .

إنَّ الطريق الذي اختارته الحضارة الغربية ، والقوَّة الهائلة من التدمير ، والإبادة ، والقتل ، والفتك التي زودت بها أناساً لا يخافون الله ، ولا يستحيون من الناس ، أوشكت أن تقضي على نفسها ، ويأتي حتفها بيدها .

يقول إقبال :

«إنَّ هذا الفكر الجريء الذي فضح قوى الطبيعة ، وأفشى أسرار الكون انقلب اليوم برقاً خاطفاً ، ورعداً قاصفاً ، يهدد عشَّ الغرب ووكره ، وحصنه ومعقله» .

* * *

www.abulhasanalinadwi.org

دور محمَّد إقبال في توجيه الأدب والشِّعر

ألقى سماحة العلامة النَّدويُّ هذه المحاضرة في المدينة المنوَّرة في قاعة مكتبة الملك عبد العزيز في احتفالٍ عقده النَّادي الثقافيُّ ، ليلة الثلاثاء في ٢٤/ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٥ هـ ، ما بين المغرب والعشاء ، وقد غصت القاعة على سعتها بالمستمعين .

www.abulhasanalinadwi.org

سادتي وإخواني! إنَّني أستحيي أمام الله تبارك وتعالى ، ومن حضر من الإخوان أن أذكر في جوار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي ظلِّ جدار مسجده العظيم ، شخصاً غير شخص الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن أشيد به ، وقد قال الشاعر العربي القديم:

ولمـا نـزلنـا منـزلاً طلَّـه النَّـدى   أنيقـاً وبستـانـاً مـن النَّـور حـاليـا
أجـدّ لنـا طيـبُ المكـان وحسنُـه   مُنـىً فتمنَّينـا فكنـتَ الأمـانيـا

وهذا هو المكان الذي طلَّه النَّدى ، طلّه ندى الرسالة السَّماوية الأخيرة ، والصحبة النبوية العطرة ، فلا يجوز إلاَّ ذكر من نالت به هذه المدينة الشرف ، ونالت به الإنسانية الحياة الجديدة ، والمعنوية الحقيقية ، ولكني سأتحدث عن رجلٍ كان قوي الصلة عميقها بالنَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا هو المُبرِّر الوحيد للحديث عنه في هذا الجوار الكريم ، ونحن على غَلْوةٍ سهمٍ ـ كما يقول العرب ـ من المسجد الشريف.

إنَّ شاعرنا العظيم محمَّد إقبال كان ـ وقد شهدتُ ذلك بعيني وأشهدُ بذلك بجوار المسجد ـ إذا ذكرت المدينة ـ فضلاً عن الرسول نفسه صلى الله عليه وآله وسلم ـ دمعت عينه ، ولم يتمالك ، وقد قال بيتين من الشعر بالفارسية معناهما:

(لقد لامني إخواني واستغربوا توجُّهي إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على كبر سنِّي ، وأنا في سرورٍ وحنينٍ ، ونشيدٍ ورنينٍ ، وقالوا: هذا إرهاقٌ وتكليفٌ بما لا يطاق ، فقلت لهم: يا إخواني! ألا تعرفون أنَّ الطائر يهيم على وجهه في الصحراء ويحلق في الفضاء ، فإذا أدبرالنهار ، وأقبل الليل ، تذكَّر وكره ، ورفرف بجناحيه إلى وكره ، يطير إليه ليأوي فيه ، والمدينة وكر الرُّوح ، ووكر العقيدة ، ووكر الإيمان بالنسبة إلى المسلم ، فكيف لا أطير إلى وكري حين دنا أصيل حياتي ؟!).

إخواني وسادتي ، إنَّني أتصوَّر الأدب كائناً حيّاً له قلبٌ حنونٌ ، وله

www.abulhasanalinadwi.org

ضميرٌ واعٍ ، وله نفسٌ مرهفةُ الحسِّ ، وله عقيدةٌ جازمة ، وله هدفٌ معيَّنٌ ، يتألَّم بما يُسبِّب الألم ، ويفرح بما يثير السرور ، فإذا لم يكن الأدب كذلك فإنَّه أدبٌ خشيبٌ جامدٌ ، أدبٌ ميت خامد ، أشبه بالحركات البهلوانية ، والرياضات الجمبازية ، فالأدب ليس أداة تسليةٍ ، وإلهاء نفسٍ ، وإزجاء وقتٍ (أو قتل وقت كما يقول بعض الأدباء) فحسب ، وإنَّ الأدب من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة ، وللتأثير في النفس الإنسانية ، واسمحوا لي أن أقرأ أمامكم سطوراً تدلُّ على ما كان يعتقده شاعرنا العظيم محمد إقبال ، وهي تدلُّ على نظرته إلى الأدب ، وعليها بنى أدبه ، وعلى ذلك قامت مدرسته الشعرية ، الفكريَّة ، الفلسفية الهادفة .

يعتقد محمد إقبال أنَّ الأدب لا يصل إلى حدِّ الإعجاز حتى يستمدّ حياته وقوته من أعماق القلب الحيِّ ، ويسقى بدمه .

نقلت هذا المعنى في كتابي : «روائع إقبال» إلى العربية ، ومنه أقتبس هذه السطور :

(يا أهل الذوق والنَّظر العميق ، أنعِم وأكرِم بنظركم! ولكن أيُّ قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعرٍ ، ولا في صوت مغنٍّ ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس) .

أنتم تعرفون أيها السادة! قيمة نسيم السَّحر عند الشعراء والأدباء ، وأهل القلوب الواعية الحية ، ولكنَّه يقول :

(لا بارك الله في نسيم السَّحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلاّ الفتور والخمول ، والذويَّ والذُّبول ، إنَّ غاية الإحسان في فنٍّ من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة ، ما قيمة شرارةٍ تلتهب سريعاً ، وتنطفىء سريعاً؟ وما قيمة لؤلؤةٍ كريمةٍ ، أو صدفةٍ لامعةٍ لا تُحدِث اضطراباً في الأمواج ، ولا اضطراباً في البحار ، لا نهضة للأمم إلاّ بمعجزةٍ ، ولا خير في أدبٍ ولا شعرٍ إذا تجرَّدا عن تأثير عصا موسى)[١] .

---

(١) انظر : «روائع إقبال» للعلامة الندوي ، ص/ ٧٤ ، طبع المجمع الإسلامي العلمي ندوة العلماء ، لكهنؤ ـ الهند .

www.abulhasanalinadwi.org

هذه هي نظرة إقبال إلى الشعر والأدب ، وقد كان ذلك في الحقيقة ثورةً في تاريخ الأدب وفي تاريخ الشعر ، وفي عالم الأدب والشعر ، إن الله سبحانه وتعالى قد قيّض في هذا العصر الأخير رجلاً جمع بين دراساتٍ عميقةٍ دقيقةٍ ، للفلسفات القديمة والفلسفات الحديثة ، وللفنون والآداب ، فقد عاش محمد إقبال في أوربا فترةً طويلةً في كبرى جامعاتها ، وقدّم رسالاتٍ علميةً ذات قيمة ، وعاش بين كبار النوابغ وكبار المفكرين في أوربا ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى اختاره لرسالةٍ إسلاميَّةٍ إنسانيَّةٍ عالميَّة ، واختار هو لتبليغ رسالته لسان الأدب ولسان الشعر ، ولسان الأدب هو لسان الضمير ، ولسان الذوق ، ولسان النفس المضطرمة المضطربة ، وقام برسالته خير قيام ، وأحدث تأثيراً من أعمق ما عُرِف من التأثير في الأدب والشعر ، إنه أنشأ مدرسةً جديدةً في الشِّعر ، وأثر في تفكير الشعراء والأدباء ، وأحدث تراكيب جديدةً ، وأخيلةً جديدةً ، ومعاني جديدةً .

ويرجع الفضل في ذلك إلى عدَّة عوامل ، أولاً : قوة العقيدة ، وقد كان قويَّ العقيدة ، ولا أعني بذلك أنه كان قوي العقيدة في صحة الإسلام ، هذا والحمد لله يسعد به كثيرٌ من الناس ، وكلُّنا نرجو الله أن نكون عند هذا الحدِّ ، ولكنَّه كان قوي العقيدة في صلاحية الإسلام للخلود ، وأنَّه هو الرسالة الأخيرة المختارة ، الرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تجذِّف سفينة الحياة ، وهو الذي يستطيع أن يُنقِذ العالم من براثن الجاهلية والوثنية ، وعبادة الإنسان ، وعبادة الأوثان ، وعبادة الشهوات ، وعبادة البطون والمعدات ، إنَّه كان قويَّ الإعجاب بشخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وبمكانته المنيرة للسبل ، وخاتم الرسل ، ومُقْتَدى الجميع وإمام الكل؛ الذي رفع من قيمة غبار الأرض فجعله إثمداً للعيون ، وصيقلاً للقلوب [1] ، لقد قام كشاعرٍ وأديبٍ بدورٍ فريد ، وأثَّر في الجيل المثقف

(١) إشارة إلى الأمة التي لم يكن يحسب لها حساب فأصبحت قائدةً للأمم، وصاحبة وصايةٍ وإشرافٍ على العالم .

www.abulhasanalinadwi.org

الجديد في شبه القارة الهندية تأثيراً لا يعرف لأحدٍ من أقطاب الفكر ، ومن نوابغ هذا العصر ، وما من شاعرٍ ، ولا أديبٍ ، حتى ولا كاتب جاء بعده ، إلّا وقد تأثر به في قليلٍ أو كثيرٍ ، أقول ذلك وتاريخ الأدب هوايتي وموضوعي ، ما من أديبٍ وشاعرٍ في شبه القارة الهندية إلّا وقد تأثر بإقبال في الألفاظ ، وفي التعبير ، وفي التراكيب ، وفي الأخيلة ، وفي الاستعارات ، والمجازات ، وليس لأحدٍ أن يدَّعي أنه قد تحرّر من هذا الأثر ، وأنَّه لم يتأثّر بإقبال ، حتى الذين كان اتجاههم غير اتجاهه ، أو عكس اتجاهه، إنهم خضعوا له من حيث يشعرون ، ومن حيث لا يشعرون .

وهذا هو سرُّ الشخصية القويَّة ، فإنَّ الأدب لا يقدر على التأثير حتى يكون وراءه شخصيةٌ قويَّةٌ ، تفرض أثرها ، وتفرض فكرها ومدرستها ومنهج تفكيرها على هذه اللغة ، وعلى الشعراء والكتّاب ، وقد كان ذلك في العصر القديم من مولانا جلال الدِّين الرومي (م ٦٧٢ هـ) ، الذي فرض شخصيته الفكرية الأدبية على مدارس العجم كلِّها الأدبية والشعرية ، فبقي تأثيره يعمل في مجال الأدب والشعر ، والتفكير والبحث طيلة قرون ، وكذلك بعض المعدودين مثل الشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي (م ٦٩١ هـ) وغيره ، وقد أحصيت الكتب والرسائل التي كتبت عن إقبال ، فبلغ عددها ألفين (٢٠٠٠) ، ويعتقد بعض الثقات الدقيقين الذين لا يلقون القول جزافاً ، أنَّه ما نال شاعرٌ أوروبيٌّ في اللغات الحيَّة ـ مثل اللغة الإنجليزية ، والألمانية ، والفرنسية ، والفارسية ، والعربية ـ مثل هذا الاهتمام ـ سواءٌ بسيرته ، أو شاعريته ، أو مدرسته الفكرية ـ كما نال إقبال ، لا شكسبير (SHAKESPEARE) ولا ملتون (MILTON) ، ويرجع السبب في ذلك لقوة شخصيته أولاً ، وقوة العقيدة ثانياً ، وقوة العاطفة ثالثاً ، إنَّ الأدب إذا تجرَّد من العاطفة القويَّة كان محاكاةً أو مضاهاةً ، وكان أشبه بمسرحيَّة تمثَّل ، ودورٍ تقليدي يُعمل ، فقوة العاطفة هي التي تضفي على الأدب القوة والخلود ، وصلاحية الانتشار ، والحلول في قرارة النفوس ، والأديبُ إذا لم تكن عنده العاطفة فإنَّه أشبه بممثِّل ـ ولا مؤاخذة ـ وكان محمَّد إقبال قد أكرمه الله بقوَّة العاطفة .

www.abulhasanalinadwi.org

كذلك لا بدَّ أن يكون للأديب والشاعر ـ بل أتوسَّع في القول ، فأقول : لابدَّ أن يكون للأمَّة ـ هدفٌ معيَّنٌ ، وأن يكون لها مثلٌ كاملٌ يقول إقبال : (إنني رجعت إلى الله تبارك وتعالى ، وشكوت إليه ما تنال هذه الأمَّة الإسلامية في هذا العصر من الهوان والذل ، فكان الجواب : ألا تعلم أنَّ هذه الأمة تملك القلوب ، ولا تعرف المحبوب ، تملك الحبَّ ولا تعرف إلى أين توجه هذا الحب). أجل لابدَّ للأديب والشاعر ، ولابدَّ لصاحب الرسالة للجيل وللمجتمع وللمدرسة ، لابدَّ أن يكون لهؤلاء مركز حبٍّ يوجهون إليه حبَّهم الدافق ، ومن النعم التي أكرم الله بها شاعرنا محمد إقبال أن جعل الإسلام مركز حبِّه ، فكانت لديه قوة العقيدة ، وقوة الاعتزاز بهذا الدِّين ، إنَّه مع دراساته الفلسفية الواسعة العميقة ، كان يرى أنَّ الإسلام هو دين الإنسانية ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو المثل الكامل للإنسانية ، فإذا ذكره ترنَّحت عواطفه ، وجاشت نفسه ، وفاضت عينه.

إنَّني أذكر شاهداً على ذلك ، كان أحد كبار الأمراء وأصحاب الولايات في الهند زمن الحكم الإنجليزي قد دعاه لدراسة بعض الصكوك والوثائق القديمة التي أعطاها الملوك المغول لآبائه ، وليترجمها إلى الإنجليزية ، فقد كان محمد إقبال محامياً كبيراً ، ودارساً للحقوق فهيَّأ له مكاناً من أحسن ما يمكن ، وأثَّثه أحسن تأثيثٍ يقدر عليه أميرٌ وصاحب ولاية وحكم ، وهيَّأ له كل ما تقع إليه الحاجة من أسباب الراحة ، ثم تخوَّف أن يكون هنالك نقصٌ أو فراغٌ ، فدخل غرفته فجأةً ، فرآه مستلقياً على الفراش في الأرض ، ولم ينم على السرير الذي قد هُيِّىء له ، فقال : سامحني يا معالي الدكتورَ لماذا تنام على هذا الفراش ، وتترك السرير؟! فتوقف قليلاً ، فلما ألحّ؛ قال : والله تذكّرت أنَّ سيدي الذي أنتمي إليه ، والذي يؤول إليه كلُّ الشرف وكلُّ السعادة في حياتي كان ينام على بساطٍ متواضعٍ على الأرض ، فكيف يطيب لي النوم على هذا السرير الأثير ، والفراش النَّاعم ، ودمعت عينه ، وأثّر ذلك على الأمير وإن كان هندوسياً ، ومحمَّد إقبال نفسه يقول في شعره :

www.abulhasanalinadwi.org

(إن السيِّد الذي داست أمته تاج كسرى كان يرقد على الحصير ، إنَّ السيد الذي نام عبيده على أسرَّة الملوك كان يبيت الليالي لا يكتحل بنومٍ ، لقد لبثت في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وُجدت أمَّةٌ ، ووجِد دستورٌ ، ووُجدت دولةٌ)[1] .

هذه قوة العاطفة التي فقدناها يا إخواني ، إننا نقرأ لأديبٍ وكاتبٍ ـ ولا مؤاخذة ـ فيبدو لنا من وراء الستار ممثّلاً قديراً . . . إنَّه يعبر عن نفسه بكلماتٍ بليغةٍ ، وبأسلوبٍ رفيع ، ولكن لا تؤثر هذه الكلمات في النفس ، ولا يبقى أثرها طويلاً ، فننفض الأيدي من هذه الكلمات بسرعةٍ ، أما الشِّعر الحيُّ الذي يبقى أثره عميقاً طويلاً ، ويسيطر على التفكير والمشاعر ، فهو الشعر الذي يخرج من القلب ، فيصل إلى القلب ، وكلُّ ما خرج من القلب وصل إلى القلب ، أمَّا ما خرج من العقل فيصل إلى العقل ، والذي خرج من المخِّ يصل إلى المخِّ ، وهو كثيرٌ ، ولكن الشيء الذي يخرج من أعماق القلب يصل إلى أعماق القلب ، ويبقى فيها ، هذا هو الأدب الحقيقيُّ ، هذا هو الأدب الذي يحتاج إليه ، لا أقول العالم الإسلامي فقط ، بل يحتاج إليه العالم الإنسانيُّ كلُّه ، أتخمنا يا إخواني من هذا الأدب الطامي الذي يطلع علينا صباحاً ومساء ، والذي نرى فيه صوراً وتماثيل لا حياة فيها ، إنَّنا نحتاج الآن إلى أدبٍ ينفخ في نفوسنا حياةً جديدةً ، وروحاً جديدةً ، هذا هو الأدب الحيُّ ، وقد أشاد القرآن بقيمة اللسان البليغ ، وقوته ، فوصف نفسه بأنَّه قرآنٌ عربيٌّ مبين ، إنَّ القرآن لم يكن يحتاج إلى شيءٍ خارجيٍّ أبداً ، إنَّه سبحانه وتعالى غنيٌّ عن العالمين ، ولكنَّه يصف القرآن بأنَّه قرآنٌ عربيٌّ مبينٌ ، ويقول: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤] ليس معنى ذلك أنَّه أرسل الرسل بلسان قومهم الذي يفهمونه فحسب ، بل معنى ذلك أنَّه أرسلهم بأبلغ بيان ، هذا هو اللسان المعنيُّ في القرآن ، أما اللسان الذي يعبِّر به الطفل ، والإنسان الذين لا يكاد يبين ، فليس هو المقصود ، وكذلك الرسول ﷺ قال: «أنا أعربكم ، أنا قرشيٌّ

---

(١) «أسرار خودي» (الفارسية)، «روائع إقبال» ص/ ٤٥ .

www.abulhasanalinadwi.org

واسترضعت في بني سعد بن بكر»[١]، إنَّ الرسول ﷺ يعطي للأدب قيمته ويقول: «إنَّ من البيان لسحراً، وإنَّ من الشعر حكمةً»[٢]، وكان أفضل أفراد هذه الأمَّة أبلغُهم، ترون في خطب أبي بكر الصديق المعاني الحيَّة، وترون فيها قطعاً بيانيَّةً فيَّاضةً مشرقةً، وكذلك خطب الخلفاء الراشدين، وكبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وفي مقدمتهم سيدنا عليٌّ رضي الله عنه، على ما هنالك من كلامٍ منحولٍ في «نهج البلاغة»، ولكنَّ الذي صحّ منه لا يزال في قمَّة الأدب، وكذلك كان كبار الدعاة عندنا في تاريخ الإسلام الإصلاحيِّ والعلميِّ، كانوا من كبار البلغاء، هذا سيدنا عبد القادر الجيلي (م ٥٦١ هـ) كان من العبَّاد الزُّهَّاد، وكبار المخلصين المنقطعين إلى الله، ولكن تقرؤون خطبه المحفوظة التي يوثق بها، فتشعرون أنَّ هنالك رعوداً تقصف وصواعق تنزل، وبحاراً تزبد وتقذف، وهذا ما نحتاج إليه.

إنَّ محمد إقبال له فضلٌ كبيرٌ في أنَّه استخدم شاعريته الموهوبة السليقية لصالح الإنسانية، واستخدمها لصالح الإسلام، إنَّه كان يستطيع أن يتصدَّر دست الأدباء والشعراء، فيسلِّمون له الزعامة والرئاسة، وقد نال ذلك كثيرٌ من إخوانه المعاصرين، ولكنَّه أبى إلاّ أن يستخدم كلَّ شاعريته، وكلَّ مواهبه الشعرية والأدبية لخدمة الإسلام والإنسانية، فأعاد بذلك الإيمان والثقة بالإسلام، والحبَّ للرسول عليه الصلاة والسلام، أعادهما إلى نفوس ملايين من الشباب في شبه القارة الهندية، والأقطار التي تتكلَّم الفارسية، وتفهمها مثل أفغانسنان، وإيران، ويا ليته استخدم اللغة العربية لشعره ورسالته، إنَّه كان يعرف اللغة العربية، وكان مدرّساً لها في جامعة لندن نيابةً عن أستاذه البروفسور نكلسون (NICHOLSON) مدَّةً من الزمان، ولكنه لم يكن بمكانة مَنْ يقول فيها الشعر، ولما عرضت عليه ترجمتي لبعض مقطوعاته الشعرية أعجب بها، وفهمها، وتذوَّقها،

---

(١) سيرة ابن هشام، ج/١، ص/١٦٧ رواية عن ابن إسحاق.
(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود عن ابن عباس رضي الله عنه.

www.abulhasanalinadwi.org

وأعرف أنه كان يفهم اللغة العربية ، ولكنه لم يستطع أن يستخدمها في شعره.

إنَّ العالم العربي والحمد لله غنيٌّ بكبار العلماء ، غنيٌّ بالمفكّرين ، غنيٌّ بالمؤلفين ، غنيٌّ بالجامعات ، غنيٌّ بالمكتبات ، ولكنه لم يرزق شاعراً عبقرياً مثل إقبال ، لقد كان شوقي أمير الشعراء في عصره ومصره ، وله مواقف إسلاميَّةٌ ونغمة إيمانية في الشعر العربي الحديث ، ويليه حافظ إبراهيم ، ولكنه ما جاء على أفق العالم العربي من المغرب إلى الشرق من يقوم مقام محمَّد إقبال ، فيقول الشعر الإسلاميَّ القويَّ البليغ ، المثير الذي يحرِّك أوتار القلب ، ويكهرب الجوَّ ، ويتغلغل في أحشاء المجتمع العربيِّ الإسلاميِّ وفي أحشاء الأدب العربي [1]، وهذا هو الدور القياديُّ الثوريُّ في الأدب والشعر الذي مثَّله محمد إقبال في عصره وبيئته.

إنني أنتهز هذه الفرصة الكريمة في هذا البلد الكريم وفي هذه الأمسية المباركة ، فألفت نظر المعنِّيين بالأدب ، والكتابة ، ودراسة الأدب ، وتاريخ الأدب أن يعنوا بهذا الجانب الحسَّاس الحاسم في أدبنا العربي ، الذي يستطيع أن يغيِّر الاتجاه من السقيم إلى السليم ، ومن هوى النفوس إلى الأهداف النبيلة ، إنَّ القرآن يصف الأدب السقيم بكلمةٍ لا أبلغ منها فيقول : ﴿ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ ﴾ [الأنعام : ١١٢] نحن في عهد الزخرفة ، نحن نعيش في أدب مزخرف ، ولكن حاجتنا وحاجة هذا العهد وحاجة العالم العربيِّ بصفةٍ خاصَّة ، هي الأدب الهادف السليم ، الدافق بالحيويَّة المتدفِّق

---

(١) إنَّ عدم تقدُّم الشعر في العالم العربي كما تقدم النثر والكتابة، وعدم نهوض شاعر إسلامي كبير في الشرق العربي والمغرب الإسلاميِّ، مثل ألطاف حسين حالي صاحب المنظومة التي سارت في الهند مسير الأمثال «المد والجزر في حياة المسلمين»، والسيد أكبر حسين الإله آبادي المعروف بأكبر، ومحمد إقبال، وظفر علي خان صاحب الشعر الإسلامي القوي البليغ، وحفيظ جالندهري صاحب الملحمة الإسلامية المشهورة بـ«شاهنامه إسلام»، وكلهم نبغوا في شبه القارة الهندية، إنَّ هذا الأمر موضوعٌ يجب أن يركز عليه الباحثون في الأدب، والنقد، وتاريخ الأدب في البلاد العربية، ويبحثوا عن الأسباب الدَّاعية إلى ذلك.

www.abulhasanalinadwi.org

بالقوَّة ، الذي يحمل رسالةً ساميةً سماوية ، إنسانيةً إسلاميةً عالميَّةً .

هذه كلمتي لهذه المناسبة ، أكتفي بها لأنَّ الوقت قصيرٌ ، ولابدَّ أن ندرك صلاة العشاء في المسجد الشريف إن شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * * *
* * *
* *
*

www.abulhasanalinadwi.org

فهرس الآيات الكريمة

الآية	رقمها	رقم الصفحة
(١) سورة الفاتحة		
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ... الضَّالِّينَ﴾	٦ ـ ٧	٦١
(٢) سورة البقرة		
﴿الم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ... الْمُفْلِحُونَ﴾	١ ـ ٥	٤٣
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ...﴾	١٧	٤٧٦
﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا ...﴾	٢٠	٤٧٥
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ ...﴾	٣٠	٣٤٩
﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ...﴾	٣١	٣٤٩
﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي ...﴾	٤٠	٢٣٦
﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾	٩٣	٢٣٠
﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ ...﴾	٩٧	١٠٦
﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ...﴾	١٣٦	٨٨، ٨٩
﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ...﴾	١٣٧	٨٩
﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾	١٣٨	٥٨، ١٧٥
﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾	١٨٥	٣٠، ١١٨
﴿۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ ...﴾	١٨٩	٥٠
﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ...﴾	١٩٥	٢٠٧

www.abulhasanalinadwi.org

﴿يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً . . .﴾ ٢٠١ . ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٦٤٦

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ . . . ٱلْمِهَادُ﴾ ٢٠٤_٢٠٦ .. ٦٥٠

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِي ٱلسِّلْمِ . . .﴾ ٢٠٨ . ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٢

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ ٢٠٩ ... ١٦٠ ، ١٧٢

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ ٢٤٩ .... ٧٦

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ . . .﴾ ٢٦١_٢٦٨ .. ٢٢٩

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ . . .﴾ ٢٦٩ .. ٢٢٩، ٣٤٠، ٣٤١

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ . . . وَرَسُولِهِۦ﴾ ٢٧٨_٢٧٩ .. ١٦١

(٣) سورة آل عمران

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ . . . ٱلْوَهَّابُ﴾ ٧_٨ .... ٤٦

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا . . .﴾ ١٣ .... ٧٦

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن . . .﴾ ٢٦ .... ١٦٣

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي . . .﴾ ٣١ ... ٥٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ٥٣٠ ، ٥٥١ ، ٥٧١

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ . . .﴾ ٥٠ ... ١١٧ ، ٢٧٧

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ . . .﴾ ٦٦ .... ١٧

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . .﴾ ١١٠ .. ٨٤ ، ١٠٥ ، ٣٨٧

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ١١٧ .... ٦١٧

﴿۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا . . .﴾ ١٣٣ .... ٢٢٣

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ . . .﴾ ١٣٧ .. ٧٦ ، ٣٤٧ ، ٣٦٣

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ . . .﴾ ١٤٠ ... ٣٤٧ ، ٣٦٣

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ . . . ﴾	١٤٤ .	٥٢٨، ٥٥١، ٥٧٤، ٦٣٤
﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . ﴾	١٩١ .	٣٤٤، ٣٦٤، ٣٧٩، ٣٨٠
﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ . . . ﴾	١٩٣	٢٣٩

(٤) سورة النساء

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي . . . ﴾	١	٤٢٢
﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾	١١	١١٩
﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ . . . ضَعِيفًا ﴾	٢٦_٢٨	١١٩
﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾	٢٩	٢٠٧
﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾	٧٧ ...	٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦
﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾	١٢٥	٩
﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ . . . ﴾	١٤٣	١٩٧

(٥) سورة المائدة

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ . . . ﴾	٣ ..	١١٤، ١٤٧، ٤٣٣، ٤٤٣، ٥٠٥، ٥٤٥
﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ . . . ﴾	٤٤ ...	١١٩، ٤٤١
﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾	٥٤ ...	١٠٤، ٤٢٨
﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ . . . ﴾	٦٧	٣٠
﴿ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ . . . ﴾	١١٤	٢٣٧

(٦) سورة الأنعام

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ . . . ﴾	٦	٦٩
﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ . . . ﴾	١٠	١٣٥
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم . . . ﴾	٤٢	٤٨٠

www.abulhasanalinadwi.org

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن . . .﴾	٤٣	٤٨٠ ـ ٤٨١
﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ . . .﴾	٤٥	٧٦
﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا . . .﴾	٧٠	٤٧٩
﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ . . .﴾	٧٥	٢٣
﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾	٧٧	٥٣٣
﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ . . .﴾	٧٩	٥٣٣
﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾	٨٠	١٤
﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ . . . يَعْمَلُونَ﴾	٨٣ ـ ٨٨	٩
﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ . . .﴾	٨٩	٩، ٣١، ١٠٤
﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾	٩٠	٥٧
﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾	٩١	٥٧٠
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ . . . تَزْعُمُونَ﴾	٩٣ ـ ٩٤	١٥٨
﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾	١١٢	٦٦٩
﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا . . .﴾	١٢٢	٤٧٥
﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ . . .﴾	١٢٤	٩
﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ . . .﴾	١٢٥	٤٤
﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ . . .﴾	١٦٢	٦٤٦

(٧) سورة الأعراف

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ . . .﴾	٣٢	٢٣١
﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ . . .﴾	٣٤	٣٦٣
﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ . . .﴾	٤٢	١٦
﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا . . .﴾	٤٣	١٦، ٣٣٩
﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ . . .﴾	٥٤	٣٧٢
﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ . . .﴾	٥٩	٦٣٩
﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾	٧٩	٥٤
﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ . . .﴾	١٠٤	٥٤، ٥٥
﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا . . .﴾	١٠٥	٥٥

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ ﴾ ١٣٧ . . . . ٧٥
﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ ١٣٧ . . . . ٧٢
﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى . . . ﴾ ١٤٤ . . . . ١٠
﴿ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا . . . ﴾ ١٥٧ . . ٦١ ، ١١٩ ، ٣٧٩
﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ . . . ﴾ ١٥٨ . . . . ١١٧
﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ . . . ﴾ ١٨١ . . . ٣٤٦ ، ٣٦٣
﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم . . . ﴾ ١٨٢ . ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٦٣
﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ ١٨٣ . . . . ٣٤٧

(٨) سورة الأنفال

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ . . . ﴾ ٢٦ . . . . ٧٤
﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ . . . ﴾ ٧٢ . . . . ١٠٢
﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ . . . ﴾ ٦٠ . . . . ٥٢٣
﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا . . . ﴾ ٦١ . . . . ١٦١

(٩) سورة التوبة

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ . . . ﴾ ٢٤ . . . . ٦٢
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ . . . ﴾ ٣٣ . . . . ١١٥
﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ . . . ﴾ ٣٤ . . . . ٤٢٢
﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ . . . ﴾ ٣٥ . . . . ٤٢٣
﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ٤٠ . . . . ٨٣
﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ ١١٤ . . . . ٥٩
﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم . . . ﴾ ١٢٨ . . . . ١٣٠

(١٠) سورة يونس

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ ١٤ . . . . ٣٤٩
﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ . . . ﴾ ١٥ . . . . ٢٩

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ . . . ﴾ ١٦ . . . . ٢٩
﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ . . . ﴾ ٣٩ . . . . . . ١٢ ، ٤٦
﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ . . . ﴾ ٤٩ . . . . ٣٤٧
﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن . . . ﴾ ٨٧ . . . . ٧٨

(١١) سورة هود

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ . . . ﴾ ٢٥ . . ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٠
﴿ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ . . . ﴾ ٢٦ . . . . . . ٣٣ ، ٤٠
﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ . . . ﴾ ٥٠ . . . . ٣٣
﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ . . . ﴾ ٥٢ . . . . . ٤١ ، ٣٩٤
﴿ وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ . . . ﴾ ٥٢ . . . . ٢٣٦
﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ . . . ﴾ ٦١ . . . . ٣٣
﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآ . . . ﴾ ٦٢ . . . . ٤٢
﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾ ٧٥ . . . . ٩ ، ٥٩
﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ . . . ﴾ ٨٠ . . . . ٦٨
﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ . . . ﴾ ٨٤ . . . . ٤٠
﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ . . . ﴾ ٨٤ . . . . . . ٣٣ ، ٦٩
﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ . . . ﴾ ٨٨ . . . . ٤٢
﴿ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا . . . ﴾ ٩١ . . . . ٦٨
﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ . . . ﴾ ١١٣ . . . ٥٧ ، ١٦٦
﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ . . . ﴾ ١٢٠ . . . . . ٦٨ ، ٧٥

(١٢) سورة يوسف

﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ . . . ﴾ ٣ . . . . ٧٤
﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ . . . لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ٣٧ـ٤٠ . . . . . ٣٤
﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ . . . ﴾ ٥٦ . . . . ٧٣

www.abulhasanalinadwi.org

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي . . .﴾ ٩٠ . . . . ٧٦
﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا . . .﴾ ٩١ . . . . ٧٤
﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ . . .﴾ ٩٢ . . . . ٧٤
﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي . . .﴾ ١٠١ . . . . . ٣٩، ٤٠
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ١١١ . . . . . ٦٨، ٧٤

(١٣) سورة الرعد

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ . . . يَعْقِلُونَ﴾ ٣_٤ . . . . . . ٢٥٢
﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا . . .﴾ ١٧ . . . . ٦٧
﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ . . .﴾ ٣٢ . . . . ١٣٥
﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ ٣٤ . . . . ١٥

(١٤) سورة إبراهيم

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ . . .﴾ ٤ . . . . ٦٦٧
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ . . .﴾ ٥ . . . . . ٣٤٦، ٣٦٣
﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ . . .﴾ ٧ . . . . ٤٨٥
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ . . .﴾ ٢٨ . . . . ٤٨٥
﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ٣٥ . . . . ٥٩
﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ . . .﴾ ٣٧ . . . . . . ٧٠، ٧١

(١٥) سورة الحجر

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ٩ . . . . ٣٨، ١٢٥، ٢٢٨، ٤٣٤، ٤٤١
﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ٩٩ . . . . ١٦٥

(١٦) سورة النحل

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ . . .﴾ ٢ . . . . . . ٢٩، ١٠٦
﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ . . .﴾ ٢٢ . . . . ٤٨١

www.abulhasanalinadwi.org

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ . . .﴾	٤٠	٤٤
﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ . . .﴾	٤٤	٥٨٤
﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ . . .﴾	١٠٢	١٠٦
﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا . . . الْمُشْرِكِينَ﴾	١٢٠ _ ١٢٣	٩

(١٧) سورة الإسراء

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ . . . بَصِيرًا﴾	٢٣ _ ٣٠	٢٢٨
﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ . . .﴾	٣١	٢٠٧ ، ٢٢٨
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً . . . مَكْرُوهًا﴾	٣٢ _ ٣٨	٢٢٨
﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ . . .﴾	٣٩	٢٢٩ ، ٣٤٠
﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ . . .﴾	١٠٦	٣٠

(١٨) سورة الكهف

الآية	رقمها	الصفحة
﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ . . .﴾	١٣	٢٣٦ ، ٢٤٢
﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ . . .﴾	١٤	٢٤٠ ، ٢٤١
﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾	١٥	٢٤١
﴿مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . .﴾	٥١	١٨
﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ . . . وَزْنًا﴾	١٠٣ _ ١٠٥	٣٥٦، ٣٨٧ ، ٤٧٩
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ . . .﴾	١١٠	١٤

(١٩) سورة مريم

الآية	رقمها	الصفحة
﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ . . . شَيْئًا﴾	٤١ _ ٤٢	٣٣
﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾	٥٥	١٠

(٢٠) سورة طه

الآية	رقمها	الصفحة
﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾	٥	٥٠

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ . . . ﴾ ٣٩ . . . . . . ١٠ ، ٥٦

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ ٤١ . . . . ١٠

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا . . . تَزَكَّىٰ ﴾ ٧٢ــ٧٦ . . . . . ٤١

﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ ١٢٧ . . . . ١٥

(٢١) سورة الأنبياء

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ . . . ﴾ ١٨ . . . . ٦٧

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا . . . ﴾ ٢٥ . . . . ٣٢

﴿ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ ٣٤ . . . . ٦٣٤

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ . . . ﴾ ٥١ . . . . ٩ ، ٣٣

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ . . . مُّبِينٍ ﴾ ٥٢ــ٥٤ . . . . . ٣٣

﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ . . . ﴾ ٦٨ . . . . ٧٠

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا . . . ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ ٦٩ــ٧٠ . . . . . ٧٠

﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴾ ٨٤ . . . . ٦٨

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ . . . ﴾ ٨٨ . . . . ٦٨

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ١٠٧ . . . . ١١٨

(٢٢) سورة الحج

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ . . . قَدِيرٌ ﴾ ٥ــ٦ . . . . ٨٤

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ . . . ﴾ ١١ . . . . . ٤٧ ، ١٩٧

﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ . . . ﴾ ٣٠ . . ٣٤ ، ٥٩ ، ٦٠

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ . . . ﴾ ٣١ . . . . ٣٤ ، ٦٠

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ ٤١ . . . . ٤٣٤

﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ . . . ﴾ ٧٨ . ٣٠، ١١٨، ١٤٣

(٢٣) سورة المؤمنون

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾ ٢ . . . . ٥٦٤

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا . . . ﴾ ٣٧ . . . . ٢٢٠

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ . . . ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	٣٩ ـ ٤١	١٣٥
﴿ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا . . . ﴾	٤٤	١٣٥

(٢٤) سورة النور

﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ . . . ﴾	٣٣	٤٢٢
﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ . . . ﴾	٣٥	٤٧٤
﴿ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ . . . ﴾	٤٠	٢٤ ، ٤٧٤
﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ . . . ﴾	٥٥	٤٣٤
﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ . . . ﴾	٦٣	٦١

(٢٥) سورة الفرقان

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ . . . ﴾	١	١١٨
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ . . . ﴾	٣٢	٣٠

(٢٦) سورة الشعراء

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي . . . ﴾	٢٩	٣٤
﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . . . ﴾	٤٧ ـ ٤٨	٧٢
﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ . . . يُحۡيِينِ ﴾	٦٩ ـ ٨١	٣٣
﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي . . . ﴾	٨٢	٣٣ ، ٣٩
﴿ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمًا . . . لِلۡغَاوِينَ ﴾	٨٣ ـ ٩١	٣٩
﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ . . . ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾	١٠٥ ـ ١٠٩	٥٣
﴿ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾	١١١	٦٨
﴿ كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ . . . ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾	١٢٣ ـ ١٢٧	٥٣
﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً . . . تَخۡلُدُونَ ﴾	١٢٨ ـ ١٢٩	٦٤٩
﴿ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴾	١٣٠	٤٨١ ، ٦٤٩
﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم . . . تَعۡلَمُونَ ﴾	١٣٢ ـ ١٣٣	٤٠ ، ٦٩
﴿ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴾	١٣٤	٤٠ ، ٦٩
﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾	١٣٥	٤٠

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ . . . ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ١٤١ ـ ١٤٥ . . . ٥٤
﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ . . . فَٰرِهِينَ ﴾ ١٤٦ ـ ١٤٩ . . . ٦٩
﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ . . . ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ١٦٠ ـ ١٦٤ . . . ٥٤
﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ . . . ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ١٧٦ ـ ١٨٠ . . . ٥٤
﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . . مُّبِينٍ ﴾ ١٩٢ ـ ١٩٥ . . ١٠٦
﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ ٢٠٨ . . . . ١٣٥

(٢٧) سورة النمل

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا . . . ﴾ ٤ . . . . ٤٧٩
﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً . . . ﴾ ٣٤ . . . . ٦٤٩
﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ . . . ﴾ ٦٦ . . . . . ٤٤ ، ٣٥٦
﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ . . . ﴾ ٨٨ . . . . ٥٠٤

(٢٨) سورة القصص

﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ . . . يُؤْمِنُونَ ﴾ ١ ـ ٣ . . . . ٧٥
﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا . . . ﴾ ٤ . . . . . ٧٥ ، ٦٥٠
﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ . . . يَحْذَرُونَ ﴾ ٥ ـ ٦ . . . . ٧٥
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى . . . ﴾ ٣٨ . . . . ٣٤
﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ . . . ﴾ ٣٩ . . . . ٤٨١
﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ . . . ﴾ ٥٧ . . . . ٧١
﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ . . . ﴾ ٨٣ . ٤١ ، ٦٠ ، ٤٨٣
﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ . . . ﴾ ٨٦ . . . . ٨٦

(٢٩) سورة العنكبوت

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ . . تُرْجَعُونَ ﴾ ١٦ ـ ١٧ . . . . . ٣٣
﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا . . . ﴾ ٢٥ . . . . ٣٣
﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ . . . ﴾ ٤٨ . . . . ٣٧٨
﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ . . . ﴾ ٦٤ . . . . ٥٦٦

www.abulhasanalinadwi.org

(٣٠) سورة الروم

﴿ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ . . . ﴾ ٧ .... ٣٥٦

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ . . . ﴾ ٤١ ...... ١٤ ، ٨٥

(٣١) سورة لقمان

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ . . . ﴾ ٦ .... ١٦٩

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ . . . ﴾ ١٢ ... ٢٢٩ ، ٣٤٠

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ . . . ﴾ ١٣ .... ٢٢٩

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن . . . ﴾ ١٩ .... ٢٢٩

(٣٢) سورة السجدة

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا . . . ﴾ ٢٤ .... ٧٨

(٣٣) سورة الأحزاب

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ . . . ﴾ ٦ .... ١١٣

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . . . ﴾ ٢١ ... ٦١ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ٥٣٠ ، ٥٥١ ، ٥٧٤

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ . . . ﴾ ٢٣ ... ١٤٤ ، ٣٩٩

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ . . . عَظِيمًا ﴾ ٢٨ ـ ٢٩ ..... ٤٢

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا . . . ﴾ ٣٦ .... ١٦٤

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ . . . ﴾ ٤٠ .... ١٠٧

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ . . . مُّنِيرًا ﴾ ٤٥ ـ ٤٦ .... ١٠٨

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ . . . ﴾ ٥٣ .... ٦١ ـ ٦٢

(٣٤) سورة سبأ

﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ . . . ﴾ ١٩ .... ١٦٣

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ . . . ﴾ ٢٨ .... ١١٧ ـ ١١٨

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ . . . ﴾	٤٦	١٥
﴿ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ . . . ﴾	٤٩	٦٧

(٣٥) سورة فاطر

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ . . . ٱلۡحَمِيدُ ﴾	١٣ ـ ١٥	٣٥
﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾	٢٨	٣٤٠

(٣٦) سورة يس

﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ . . . مُّهۡتَدُونَ ﴾	٢٠ ـ ٢١	٥٤

(٣٧) سورة الصافات

﴿ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴾	٩٥	٨٣
﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ . . . ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	١٠٨ ـ ١١١	٩
﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ . . . ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾	١٢٠ ـ ١٢١	٦٨
﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا . . . ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾	١٧١ ـ ١٧٣	٦٦
﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ . . . ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾	١٨٠ ـ ١٨٢	١٦٠، ٣٣٩

(٣٨) سورة ص

﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ . . . ٱخۡتِلَٰقٌ ﴾	٥ ـ ٧	٣٥
﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾	١٤	١٣٥
﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ . . . ﴾	١٧	١٠
﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾	٢٠	٣١
﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ . . . ﴾	٢٦	٣٤٩
﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾	٣٠	١٠
﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ . . . ﴾	٤٥	١٠
﴿ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾	٤٦	١٠، ٥٦
﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾	٤٧	١٠، ٥٦ ـ ٥٧
﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ . . . ﴾	٨٦	٤٨
﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾	٨٧	٤٨، ١١٨
﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ . . . ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾	١٣٠ ـ ١٣١	٦٨

www.abulhasanalinadwi.org

(٣٩) سورة الزمر

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ٣٠ .. ٥٢٨ ، ٥٥١ ، ٥٧٤

(٤٠) سورة غافر

﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ... ﴾ ٥ .... ١٣٥
﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ... ﴾ ٣٩ .... ٤٠
﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ ... ﴾ ٤٠ ..... ٤٠ ـ ٤١
﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ... ﴾ ٥١ .... ٦٦
﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ... ﴾ ٨٣ .... ٢١

(٤١) سورة فصلت

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ ١٥ .... ٦٤٩
﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ﴾ ١٦ .... ١٥
﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ ٤١ .... ١٢٥
﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ ... ﴾ ٤٢ . ٥١ ، ١٢٥ ، ٣٢١

(٤٢) سورة الشورى

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ ... ﴾ ٥١ .... ١٠٦
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا ... ﴾ ٥٢ ..... ٢٩ ، ٣٧٨

(٤٣) سورة الزخرف

﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ ... ﴾ ١٩ .... ١٨
﴿ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ ... ﴾ ٢٠ .... ٤٧٥
﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ... ﴾ ٢٨ .... ٣٦
﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ ... ﴾ ٥١ .... ٦٨
﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى ... مُقْتَرِنِينَ ﴾ ٥٢ ـ ٥٣ .. ٦٨ ـ ٦٩

(٤٧) سورة محمد

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ ... ﴾ ٧ ..... ٧٨ ، ٢٣٦

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ . . . ﴾ ١٢ .... ٤٧٩
﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ . . . ﴾ ٣٥ .... ٧٨

(٤٨) سورة الفتح

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . . . ﴾ ٤ .... ٦١٦
﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ . . . ﴾ ٩ .... ٦١
﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى . . . ﴾ ٢٨ .... ١١٥

(٤٩) سورة الحجرات

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا . . . عَظِيمٌ ﴾ ٢ـ٣ .... ٦١
﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ . . . حَكِيمٌ ﴾ ٧ـ٨ ...... ٣٤١
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ . . . ﴾ ١٣ ..... ٦٠، ١١٨

(٥٠) سورة ق

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ . . . ﴾ ٣٧ .... ٥٦٢

(٥٣) سورة النجم

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . . . ﴾ ٣ .... ٢٩، ٤٦
﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ ٤ .. ٢٩، ٤٦، ١٠٦
﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . . . الْأَعْلَى ﴾ ٥ـ٧ ...... ١٠٦
﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ ٣٩ .... ٥٢٤
﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى . . . الْأَوْفَى ﴾ ٤٠ـ٤١ .... ٤٢٥

(٥٤) سورة القمر

﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ ١٠ .... ٦٨
﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ ٣٥ .... ٦٨

(٥٥) سورة الرحمن

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ١٣ .... ٦٣٩

(٥٧) سورة الحديد

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا . . . ﴾ ٧ ..... ٣٤٩، ٤٢٢

www.abulhasanalinadwi.org

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ . . . ﴾ ٢٠ . . . . ٢٢١

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ . . . ﴾ ٢٥ . . . ٥٢٠ ، ٥٢١

(٥٨) سورة المجادلة

﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ . . . ﴾ ٢١ . . . . ٦٦

(٥٩) سورة الحشر

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ . . . ﴾ ١٩ . . . . ٤٧٨

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . . . ٱلْحَكِيمُ ﴾ ٢٢ـ٢٤ . . . . ٢٤

(٦١) سورة الصف

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ . . . تَفْعَلُونَ ﴾ ٢ـ٣ . . . . . . ٣٤٠

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ . . . ﴾ ٨ . . . . ١١٥

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ . . . ﴾ ٩ . . . . . . ٨٤ ، ٤٣٣

(٦٢) سورة الجمعة

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ . . . ﴾ ٢ ٨٣ ، ٨٤ ، ٢١٨ ،
٢٢٨ ، ٣٦١ ، ٣٧٨

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا . . . ﴾ ٥ . . . . ٣٤٠

(٦٦) سورة التحريم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ . . . ﴾ ١ . . . . ٢٣١

(٦٨) سورة القلم

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ٤ . . . . ٣٤١

﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ ٩ . . . . ٢٩

(٦٩) سورة الحاقة

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . . . حَٰجِزِينَ ﴾ ٤٣ـ٤٧ . . . . . ٢٩

(٧١) سورة نوح

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ . . . أَنْهَٰرًا ﴾ ١٠ـ١٢ . . . . . ٤١

www.abulhasanalinadwi.org

(٧٢) سورة الجن

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ . . . رَّسُولٍ﴾ ٢٦ ـ ٢٧ . . . . . ١٥

(٧٥) سورة القيامة

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ . . . بَيَانَهُۥ﴾ ١٧ ـ ١٩ . . . . . ٣٨

(٨١) سورة التكوير

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . . . رَّجِيمٍ﴾ ١٩ ـ ٢٥ . . . . ١٠٦

(٩٥) سورة التين

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ . . . سَـٰفِلِينَ﴾ ٤ ـ ٥ . . . . ٣٥

(٩٦) سورة العلق

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ ١ . . ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
٢٦٧ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٧١ ،
٣٧٧ ، ٣٨٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٣

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ٢ . . ٢٦٥ ، ٢٦٧ ،
٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٦١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٣

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ ٣ . . ٢٦٥ ، ٢٦٧ ،
٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٦١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٤ ، ٣٩١ ، ٣٩٣

﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ٤ . . ٢٦٥ ، ٢٦٧ ،
٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٦١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٣

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥ . . ٢٦٥ ، ٢٦٧ ،
٢٦٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٧٧ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٣

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ . . . ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ ٦ ـ ٧ . . ٣٩١ ، ٦٥٦

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ ٨ . . . . ٣٩١

www.abulhasanalinadwi.org

(٩٨) سورة البينة

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . . . قَيِّمَةٌ﴾ ١ ـ ٣ . . . . ٨٢

(١٠٦) سورة قريش

﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ . . . جُوعٍ﴾ ٣ ـ ٤ . . . . ٧١

(١١٠) سورة النصر

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ . . . تَوَّابًۢا﴾ ١ ـ ٣ . . . . ٤٣٣

www.abulhasanalinadwi.org

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث	رقم الصفحة
ـ أ ـ	
«أبر الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً»	٩٧
«الإثم ما حاك في صدرك»	٥٩٨
«ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً»	٥٢١
«أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر»	١٥٤
«أسالم من أسالم ، وأحارب من أحارب»	١٦١
«اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم»	٥٥٨
«أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»	٥٧٩
«ألا فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ»	٥٧٣
«أمتي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره»	٦٣٩
«إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم»	٥٩٧
«أن تعبد الله كأنك تراه»	٥٩٧
«إن الرسالة والنبوة قد انقطعت»	١٣١
«إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم»	٨٥
«إن الله يبعث على رأس كل مئة عام»	٤٤٧
«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل»	١٤٤
«إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي»	١٣١
«إن المكثرين هم المقلّون يوم القيامة»	٥٩٧
«إن من أبر البر صلة الرجل ود أهله»	٥٦٦ ـ ٥٦٧

www.abulhasanalinadwi.org

«إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر حكمة» ٦٦٨
«أنا أعربكم ، أنا قرشي واسترضعت» .... ٦٦٧ ـ ٦٦٨
«أنا محمد ، أنا أحمد ، وأنا الماحي» ١٣١
«إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى» .... ٥٢٢ ـ ٥٩٨
«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ٣٤١
«إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» .... ٣٠ ـ ٣١
«إنما الناس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها راحلة» ٥٩٧
«إياكم وخضراء الدمن» ٥٩٨
«أيها الناس إنه لا نبي بعدي» ١١٥

ـ ث ـ

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان» ٦٢

ـ ج ـ

«الجنة تحت أقدام الأمهات» ٤١٣

ـ ح ـ

«الحج يوم تحجون ، والفطر يوم تفطرون» ٥٠
«الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشتبهات» ٥٩٧

ـ خ ـ

«خرجنا مع النبي ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر» ٢٨١

ـ د ـ

«دحض مزلة فيها خطاطيف وكلاليب» ٥٩٧
«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» ٥٩٧
«دعوها فإنها منتنة» ٦٠

ـ س ـ

«سبحان الله ماذا أنزل الله من الفتن» ٥٩٧
«سبعة يظلهم الله في ظله» ٥٩٧

www.abulhasanalinadwi.org

ـ ف ـ

«فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن» ٤١٣
«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ١٤
«فضلت على الأنبياء بست أعطيت» ١٣١
«فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت» ٦٠٢

ـ ق ـ

«القبلة ما بين المشرق والمغرب» ٥٠
«قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت» ٤٤٣
«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» ٢٢٣

ـ ك ـ

«كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي ﷺ ثم يرجع» ٣١
«كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة» ٣١
«كان النبي ﷺ يحب التيمن ما استطاع» ٥٨
«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء» ١٣٠
«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» ..... ٤٢٢، ٤٢٩
«كن في الدنيا كأنك غريب» ٤١٣

ـ ل ـ

«لتتبعن سنن من كان قبلكم» ٥٧٦
«لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل» ١٠٧
«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» ٤٢
«اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» ٤٣٠
«اللهم أنشدك عهدك ووعدك» ٥٦٥
«اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني» ٥٦٥
«اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع» ٣٥٦
«اللهم الرفيق الأعلى» ١٦٥

www.abulhasanalinadwi.org

«اللهم علمه الكتاب وفقهه في الدين» ٤٨٧
«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» . . . . ٤٢ ، ٢٢٥ ، ٤١٣ ، ٥٦٦
«لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس» . . . . ١١٨ ، ٣٥٠
«لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت» ٣١
«لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري» ٨٣
«ليس منا من دعا إلى عصبية» ٦٠

- م -

«متواصل الأحزان ، دائم الفكرة» ٥٩٦
«مثل ما بعثني الله به من الهدى» ٥٩٦
«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم» ١٦٧
«المضعف أمير الراكب» ٥٩٨
«من آذى ليَ ولياً فقد آذنته بالحرب» ١٦١
«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» ٥٩٨
«من علم الرمي ثم تركه فليس منا» ٥٢١
«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» ١٦٧
«موضع سوط في الجنة خير من الدنيا» ٢٢٤
«المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف» ٥٢١

- ن -

«الناس بنو آدم ، وآدم خلق من تراب» ١١٨

- هـ -

«هي مؤمنة» ٥٠

- و -

«وجعل قرة عيني في الصلاة» ٥٦٤
«وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء» ٥٦٧
«ورجل معلق قلبه في المساجد» ٥٦٥
«وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة» ٦٠١

www.abulhasanalinadwi.org

«والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت» .... ١٤٧ ، ٤٤٣
«وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل» ٥٦٤

- لا -

«لا تجتمع أمتي على ضلالة» ٤٤٧
«لا تجن يمينك على شمالك» ٥٩٨
«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم» ٨٧
«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» .... ١٠٥ ، ٥٨٤
«لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله» ٥٨٤
«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده» .... ٦٢ ، ١١٣

- ي -

«يا أيها الناس إن منكم منفرين» ٣١
«يا بلال أقم الصلاة أرحنا» ٥٦٤
«يا بني عبد المطلب! يا بني فهر» ١٣
«اليد العليا خير من اليد السفلى» ٥٩٨
«يسِّرا ولا تعسِّرا ، بشِّرا ولا تنفِّرا» ٣٠
«يسعى بذمتهم أدناهم» ٤٨٥

www.abulhasanalinadwi.org

- ع -

يتضوعُ ـ ٥٥٧

مسمعِ ـ ٤٠١

- ل -

الوعلُ ـ ٥٨٥

- ي -

الأمانيا ـ .... ٦ ، ٦٦٢

خاليا ـ .... ٦ ، ٦٦٢

كيا محمد إقبال ٥٤١

www.abulhasanalinadwi.org

فهرس الأعلام

ـ آ ـ

آرتهر كرستن سين ٣٢٥ ، ٣٣٢
آرتلد ٤٦٨
آرية بهت ٣٢٤
آصف جاه ٦٥٨

ـ أ ـ

أ ، كي بروهي ٢٦٢
إبراهيم عليه السلام ٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٤٥ ، ٥٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٣ ، ٦٢٨
ابن البيطار ٣٦٧
ابن تيمية ١٧ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٨٧ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ٢٢٤ ، ٢٥٠ ، ٣٢٩ ، ٤٥٠ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٧٨
ابن الجوزي ١٠٤
ابن حجر ٥٥٣ ، ٥٥٤
ابن حزم ٥١١ ، ٥١٢
ابن خلدون = عبد الرحمن بن خلدون
ابن السماك ٤١٢
ابن شداد ٩٩ ، ١٠٠
ابن قيم الجوزية ١١١
ابن منظور ٤١٤
ابن النديم ٣٨٠
ابن الهيثم ٣٦٧ ، ٥٢٢
أبو أحمد بن عدي الحافظ ٥٥٢
أبو إسحاق الشاطبي ٤١٢
أبو الأسود الدؤلي ٤١٤
أبو الأعلى المودودي ٣١٥
أبو بكر ٤١٨ ، ٥٠٠ ، ٥٦٥
أبو بكر الخلال ٥٣١
أبو بكر الصديق ٦٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٤٠٥ ، ٤٧٢ ، ٥٨٠ ، ٥٨٩ ، ٦٢٩ ، ٦٥٤ ، ٦٦٨
أبو بكر محمد الرازي ٣٦٧

www.abulhasanalinadwi.org

أبو تمام ، الحبيب بن أوس ٣٨٠
أبو حامد الغزالي ٦١٨
أبو الحسن الأشعري ٢١٣
أبو الحسن الندوي ٥ ، ١٥٩ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٧ ، ٢٣٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٢٧٣ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥ ، ٣٠٥ ، ٣٢٠ ، ٣٧٠ ، ٣٧٦ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٤٠٠ ، ٤١٠ ، ٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢ ، ٤٥٤ ، ٤٧٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٤٩١ ، ٥٠٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٦ ، ٥٣٧ ، ٥٤٩ ، ٥٦٠ ، ٥٨٦ ، ٥٩٤ ، ٦٠٤ ، ٦٢١ ، ٦٣٠ ، ٦٤١ ، ٦٦١
أبو حنيفة النعمان ١٠٤ ، ٢١٣ ، ٣١٤ ، ٤١٢ ، ٥٠٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣١
أبو دجانة ٣٩٩
أبو ذر ٦٢٩
أبو ريحان البيروني ٣٦٨
أبو زيد السروجي ٢٩١
أبو طالب المكي ٥١٠
أبو طلحة الأنصاري ٥٨٠
أبو عبد الله ، محمد بن إسماعيل البخاري = البخاري
أبو عبيدة بن الجراح ٢٤٦
أبو العلاء ٢٩٢
أبو علي الفارسي ٤١٤
أبو علي بن سينا ٣٦٨ ، ٥٢٢ ، ٦٢٨
أبو عيسى الترمذي ١٠٩
أبو الكلام آزاد ٣١٢
أبو لهب ٤١٧ ، ٤٩٧
أبو موسى ٣٠
أبو موسى الأشعري ٢٨١
أبو الوفاء بن سلمة ٣٨٠
أتاتورك ١٨٧
اجناتيس ١٤١
إحسان رشيد ٢٥٧ ، ٢٦٢
أحمد بن حنبل ١٠٤ ، ١١٨ ، ٢١٣ ، ٢٣٩ ، ٣٥٠ ، ٤١٢ ، ٥٠٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣١
أحمد بن عبد الأحد السرهندي ١٠٤ ، ١٦٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٤٥٠ ، ٥٧٦
أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي = ولي الله الدهلوي
أحمد بن عبد العزيز آل مبارك ٥٢٦ ، ٥٢٧
أحمد بن عبد الله بن إدريس الحسني ٥٧٨
أحمد بن عرفان الشهيد ٤٥٢ ، ٥٧٧

www.abulhasanalinadwi.org

أحمد خان ١٢٨
أدولف هولم ٣٢٨
أردشير ٣٢٤
أرسطو ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤
استفانوس ٤٣٨
أسد الله خان غالب ٤٩٨
أسفينوزا ١٢١
الإسكندر ١٢٤ ، ٦٥٢
إسماعيل سعد أمين ٢٥٧
إسماعيل عليه السلام ٩
إسماعيل اللاهوري ٤٥٢
الأسود العنسي ١٣٢
أشرف علي التهانوي ٥٤٦
أصغر كوندوي ٣١٣
أغابوس ١٣٩
أفلاطون ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤
إقبال = محمد إقبال
إقبال أحمد سهيل ٣١٣
أكبر ١٥٠ ، ٢٨٣ ، ٦٥٨
أكبر الإله آبادي ٣٩٢
أكبر حسين أكبر الإله آبادي ٣٠٩
البرت ايم تامسن ١٣٨ ، ٤٤٢
ألطاف حسين حالي ٤٩٨ ، ٥٠١
الفرد ويبر ٣٢٧
إلهم راما ٥٧٠
أمجد الحيدر آبادي ٣١٣
أنس ٣٩٩
أنس بن النضر ٣٩٩
أنطيوخوس (أبيقانس) ١٢٠
أورنك زيب التيموري عالمكير ١٠٤ ، ٢٢٧ ، ٤١٥ ، ٦٥٨
أوستا ١٢٤
أيتين دينيه ١٢٢
أيدون ناكسن متكل ١٤٠
أيوب عليه السلام ١٠ ، ٦٨

ـ ب ـ

بابر ٦٥٧ ، ٦٥٨
باريشوع ١٤٠
الباقلاني ٢٥٠
باكون ٢٥٠
بامر ١٢٨
البتاني ٣٦٧
البخاري ١١٠ ، ٢٨١ ، ٤١٢ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٥٢٢ ، ٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩
بختنصر ١٢٠
بختيار الكعكي ١٦٨
بدر الدين طيب جي ١٩٠
بدر الدين العيني ٥٥٤
براون ١٨٨
بشير الدين العثماني القنوجي ٥٣٦

www.abulhasanalinadwi.org

بشير الدين محمود ١٥٠
بطرس ٥٧٠
بلال ٥٨٩
بنت الشاطىء ١٩١
بنيامين التطيلي ٣٤٧ ، ٤٩٧
بوذا ٣٣٦ ، ٤٣٦
بول سلاس ٤٦٦
بولس الراهب ١٣٩ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٧٥ ، ٥٧٠
بيلا ٤٦٦
البيهقي ٥١١

- ت -

تقي الدين بن تيمية ٤١٢
تهيودونا ٣٣٣
توماس براون ٤٦١
توماس كارلائل ٤٦٤
تونبي ١٨٧
تيطس ١٢٠
تيمورلنك ٦٥٢ ، ٦٥٩

- ث -

ثناء الله الأمر تسري ٥٤٦

- ج -

جابر ٥٥٦
جابر بن عبد الله ٣١
الجاحظ ٥٩٦ ، ٥٩٨
جان وليم دريبر ٤٦٣
جيون ١٦٣ ، ٤٦٧
جبير بن مطعم ١٣١
جرجي زيدان ٣١٤ ، ٣٢٩
جستينين ٤٦٣
جلال الدين الرومي ٣١٤ ، ٤٠٧ ، ٦١٨ ، ٦٣١ ، ٦٦٥
الجلبي ٢٨٨ ، ٥٥٣
جمال الدين الأفغاني ٤١٧
جنكيز خان ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩
الجنيد البغدادي ٤١٢
جهانكير ٢٨٣
جواهر لال نهرو ٤٤٨
جود ٤٧٨
جون ديون بورت ٥٧٣

- ح -

حافظ إبراهيم ٦٦٩
حبيب الرحمن خان شرواني ١٨٦
حذام ٥٩٦
الحرير ٢٩١ ، ٢٩٢
الحسن البصري ١٩٨ ، ٤١٢
حسن بن محمد الصنعاني ٢٨٨
حسن البنا ٤١٧
حسن القنوجي البهوبالي ٢٩٢
الحسين ٤٧٢ ، ٥٠٠ ، ٦٥٤
حسين أحمد المدني ٤٥٢

www.abulhasanalinadwi.org

الحسين بن علي ١١٣
حسين علي الوافي ٥٧٨
الحطيئة ٢٣٢
حفيظ الجالندمري ٤٩٩
حفيظ جالندهري ٣١٣
الحكم الثاني ٤٩٧
حليمة السعدية ٦٠٣
حمزة ٣٩٩
حميد بن راشد النعيمي ٣٧٦

- خ -

الخاقان ٤٦٩
خالد بن الوليد ١٣٢ ، ٢٤٦ ، ٦٣٧
خالد الرومي ١٦٩
خديجة ٥٦٧
خسرو ٤٩٧
خليفة جلبي ٣٨١
خليق أحمد النظامي ٣١٣
الخليل بن أحمد ٤١٤
الخوارزمي ، محمد بن موسى ٣٦٧

- د -

داود الطائي ٤١٢
داود عليه السلام ١٠ ، ٨٨ ، ١٢٠ ، ٣٤٩
درابر ٢٦٤ ، ٦٥٠
دروين ٢٥٢
الدمياطي ٢٨٩
ديوك هينري ٤٦٦

- ذ -

الذهبي ٢٨٩
ذو النون ٤٥

- ر -

رابرت بريفارت ٣٦٥
الرازي ٥١ ، ٢٥٠ ، ٦٥٤
راشد الخيري ٣١٦
رامائن ٥٧٠
رانا سانجا ٦٥٧ ، ٦٥٨
ربعي بن عامر ٢٢٣
الربيع بن صبيح السعدي ٢٨٨
رستم ٢٢٣ ، ٢٢٤
الرقاشي ٦٠٠
رندافيست ٥٧٠
ريورند باسورت اسمت ٥٧٣

- ز -

زرائيلي ٤٧٨
الزهري ١٧١
زيد بن ثابت ١٢٦

- س -

سالم المحمود ٣٧٦
سر رأس مسعود ٥٩٢

www.abulhasanalinadwi.org

سر سيد أحمد خان ٥٩٢
سري كرشن ٥٧٠
سعد ٥٥٧
سعد بن أبي وقاص ٦٣٧
سعد بن معاذ ٣٩٩
سعدي الشيرازي ٤٩٧
سعيد أحمد الأكبر آبادي ٣١٣
سعيد حليم ٤١٧
سفيان الثوري ٤١٢
سقراط ٣٣٣ ، ٣٣٤
السكاكي ٤١٤
سلام الله بن شيخ الإسلام البخاري الدهلوي ٥٣٥
سلطان بن محمد القاسمي ٣٧٦
سلمان ٦٢٤ ، ٦٢٩
سليم الأول ٤٨٦

- س -

سليمان عليه السلام ١٠ ، ٤٥ ، ١٢٠
سليمان القانوني ٤١٥ ، ٦٤٠
سليمان الندوي ١٨٨ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٥٣٦ ، ٥٩٢
سنائي ٥٩٢
سي . وي . ويديا ٤٣٦
سيبويه ٤١٤
سيد علي سكندر جكر مراد آبادي ٣١٣
سيد فريد ٢٨٣
سيرتامس أرنولد ٥٨٧ ، ٥٨٨
سيمول ١٣٩
السيوطي ٢٨٩

- ش -

شارل الحكيم ٣٤٨ ، ٤٩٧
شارلس اندرسن ٤٨٢ ، ٥٧١
الشافعي ١٠٤، ٢١٣، ٤١٢، ٥٠٦، ٥١١، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٤
شبلي النعماني ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٣٠٥ ، ٣١٤
شرف الدين يحيى المنيري ١٠٤
شعيب عليه السلام ٤٠ ، ٤٢ ، ٦٨ ، ٦٩
شكسبير ٦٦٥
شوقي ٦٦٩
شوكت علي فاني بدايوني ٣١٣
شيرشاه السوري ١٠٤

- ص -

الصاحب بن عباد ٣٨٠
صالح ٤٢ ، ٥٤ ، ٦٩
صباح الدين عبد الرحمن ٣١٣
صبغة الله بن محمد غوث الشافعي المدراسي ٥٣٥
صدر الدين القونوي ٥٧٦

www.abulhasanalinadwi.org

صديق حسن القنوجي ٣٩٢
صلاح الدين الأيوبي ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ٤١٥ ، ٤٧٢ ، ٦٥٤

- ض -

ضرار بن ضمرة ٩٦

- ط -

طارق بن زياد ١٠٤ ، ٢٧٥ ، ٦٣٧
طاش كبرى زاده ٥٥٣
طلحة ٣٩٩
الطبري ٩٥

- ظ -

الظاهر بيبرس ٤١٥
ظفر أحمد العثماني ٥٤٦
ظفر علي خان ٣٠٩ ، ٣١٢
ظهير الدين بابر التيموري ٦٥٧

- ع -

عائشة ٣١ ، ٥٨ ، ٣١٥ ، ٤١٣ ، ٥٨٠ ، ٦٠٣
العباس ٤٨٧
عبد الباري الندوي ٣١٣
عبد الباقي ١٦٨
عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي ٥٧٧
عبد الحليم شرر اللكهنوي ٣١٦
عبد الحي الحسني ١٨٨ ، ٢٢٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣١٦ ، ٣٨١ ، ٥٣٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٤
عبد الحي اللكهنوي ٣٩٢
عبد الرحمن بن خلدون ٤٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٦٨
عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ٤١٢
عبد الرحمن الجامي ٤٩٨
عبد الرحمن رأفت باشا ٣١٨
عبد الرحيم البرعي ٣٠٨
عبد الرحيم الرامفوري ٣٥٣
عبد الرحيم اللاجوري ٥٤٦
عبد الرزاق الكاشي ٥٧٦
عبد السلام الندوي ٣١٣
عبد الشكور اللكهنوي ٥٤٦
عبد العزيز ٣١٩ ، ٤١٥ ، ٦٦١
عبد العزيز بن سعود ٤٠٩
عبد العزيز بن عبد الله بن باز ٥
عبد العزيز الدهلوي ٦٥٨
عبد العزيز الرفاعي ٣١٨
عبد العزيز الميمني ٢٩٢
عبد الغني ٢٩٢
عبد الفتاح أبو غدة ٥٤٥
عبد القاهر الجيلاني ١٠٤ ، ٤١٢ ، ٦٦٨
عبد القادر المحامي ٥٨٧

www.abulhasanalinadwi.org

عبد القاهر الجرجاني ٤١٤
عبد الله بن عباس ٤٨٧
عبد الله بن عبد الله بن أبي ٦٣
عبد الله بن عمر ١٥٤
عبد الله بن مسعود ٣١ ، ٩٧
عبد الله الحسني الندوي ١٥٩
عبد الله الغزنوي الأمر تسري ٥٧٨
عبد الله المحمود ٣٧٦ ، ٣٨١
عبد الله نصيف الأمين ٣٧٦
عبد الماجد الدريابادي ٣١٣
عبد الملك بن شهاب المسمعي ٢٨٨
عبد النبي الأحمد نكري ٢٩٠
عبد الوهاب المتقي ٤١٣
عتبة بن ربيعة ٦٢
عثمان بن عفان ١٢٧
عزيز الحسن مجذوب ٣١٣
عزيز الرحمن ٥٤٦
عقبة بن نافع ٢٧٥ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٦٣٧
علاء الدين الخلجي ٤٧٠
علي بن أبي طالب ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ٢١٥ ، ٣٧٨ ، ٦١٣ ، ٦٢٩ ، ٦٦٨
علي سكندر وجد الأورفك آبادي ٣١٣
علي عبد الله المحمود ٣٧٦
علي الهجويري ٤٥٢
علي الهمداني الكشميري ٤٥٢
عمر بن الخطاب (الفاروق) ٦٥ ، ٩٥ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٣١٤ ، ٤٤٣ ، ٤٧٢ ، ٥٠٠ ، ٦٥٤
عمر بن عبد العزيز ٤١٢
عمر الخيام ١٨٨
عيسى ابن مريم (المسيح عليه السلام) ٤٥ ، ٨٨ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٢٧٧ ، ٣٣٦ ، ٢٣٧ ، ٣٨٤ ، ٤٣٨ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٥٠٢ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٦٣٤

- غ -

غازي محمود دهرم بال ٢٨١
الغزالي ١٧ ، ٥٠ ، ١٠٤ ، ٢١٣ ، ٢٥٠ ، ٣١٤ ، ٣٢٨
غلام أحمد القادياني ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ٤٤٩
غلام رسول القلعوي ٥٧٨
غلام علي البلكرامي ٢٩٠
غلام علي النقشبندي ١٦٩

www.abulhasanalinadwi.org

غوستاف لوبون ٣٤٧ ، ٤٩٦
غياث الدين تغلق شاه ٤٧٠

- ف -

فاطمة بنت عبد الله ٥٨٩
الفردوسي ٣٢٥
فرعون ٣٤ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٤٨١ ، ٦٥٠
فريد الدين الأجودهني ٤٥٢
فريد الدين العطار ٦١٨
فضل الحسن حسرت موهاني ٣١٣
الفضيل بن عياض ٤١٢
فؤاد سزكين ٣٨١
فيروز تغلق ١٠٣
فيروز شاه الخلجي ١٠٤
فيصل بن حسين ٢٢٢

- ق -

قسطنطين ٤٣٥ ، ٤٧٥
قطب الدين النهروالي المكي ٦٥٧
قمر الدين خان ٦٥٨
قوبيلائي خان ٤٦٧
قيصر ٨٤ ، ٤١٥ ، ٤٩٩ ، ٦٥٢

- ك -

كاتاني ٣٤٢
كارل بروكلمان ٣٨١
كالي داس ٣٢٤
الكسائي ٤١٤
كسرى ٨٣ ، ٨٤ ، ٤٩٩ ، ٦٠٨ ، ٦٦٧
كعب بن مالك ٥٨٠ ، ٦٠٠
كلوويس قيصر ١٣٩
كمال أتاتورك ٤٤٨
كمال بن الهمام ٤١٢
كولميس ٦٣١
كومتي ٣٦
كيتا ٥٧٠

- ل -

لا مارتين ٤٦٢
لطف الله ١٨٦
لقمان ٢٢٩ ، ٣٢٥ ، ٣٤٠
لوثر ٥٧٤
لوط عليه السلام ٦٨
لويد جون ٤٨٣
ليث بن سعد المصري ٤١٢
ليكي ٣٣٣
لين بول ١٢٩ ، ١٨٦

- م -

مالك بن أنس ١٠٤ ، ٢١٣ ، ٣١٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٤١٢ ، ٥٠٦ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦
المأمون ٣١٤ ، ٦٥٦

www.abulhasanalinadwi.org

ماني ٣٣٧
ماهر القادري ٣١٣
مائكيل هـ. هارت ٤٦٤
المتوكل ٢٤٠
المثنى بن حارثة الشيباني ٦٣٧
مجد الدين الفيروز آبادي ٤١٤
محب الله البهاري ١٦٨
محسن بن يحيى الترهتي ٢٩٢
محمد ٥٣٤
محمد أسد ٥٥٧ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣
محمد إسماعيل الشهيد ٥٧٧
محمد إسماعيل الميرتهي ٣١٥
محمد أعظم الكابلي ٥٧٨
محمد أعلى التهانوي ٢٩٠
محمد إقبال ١٤٩ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٧ ، ٤٤٢ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٧٨ ، ٤٩٩ ، ٥١٦ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩
محمد أمين الولي اللاهي ٥٣٥
محمد بن إدريس الشافعي = الشافعي
محمد بن إسماعيل البخاري = البخاري
محمد بن إسماعيل الصنعاني ٥٧٨
محمد بن سعود ٣١٩
محمد بن عبد الوهاب ٥٧٨
محمد بن عبد الوهاب التيمي ١٠٤
محمد بن علي الشوكاني ٥٧٨
محمد بن القاسم ١٠٤ ، ٢٧٥ ، ٦٣٧
محمد بن محمد الإدريسي ٣٦٧
محمد بن محمد الغزالي ٤١٢
محمد حسن بريغش ٣١٨
محمد الحسني ٦٤١
محمد حليم آل عطا السلوني ٥٣٦

www.abulhasanalinadwi.org

محمد الرابع الحسني الندوي ٤٥٣
محمد زكريا الكاندهلوي ٥٣٦
محمد شاه ٦٥٨
محمد شريف ٦٥٨
محمد شفيع الديوبندي ٥٤٦
محمد طاهر الفتني ٢٨٩
محمد عاكف ٤١٧
محمد علي ١٥٧ ، ٣١٠ ، ٣١١
محمد علي اللاهوري ١٥٧
محمد علي المونكيري ٤٥١
محمد علي الهندي ٤١٧
محمد الفاتح ١٠٤
محمد قاسم البيجابوري ٦٥٧
محمد قاسم النانوتوي ٤٥١
محمد المحمود ٣٧٦
محمد المولوي عبد الحي بن عبد الحليم الأنصاري ٥٣٥
محمود أحمد ١٥٧
محمود الجونفوري ٢٩١
محمود حسن التوكي ٣٧٨
محمود الخجلي ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣
محمود الغزنوي ١٠٤ ، ٤١٥ ، ٥٩٢
محيي الدين بن عربي ٥٧٦
مرتضى بن محمد البلكرامي الزبيدي ٢٩٠ ، ٤١٤
مريم جميلة ١١٦
مزدك ٣٣٧
مسلم بن الحجاج القشيري ٤١٢
المسيح عليه السلام = عيسى ابن مريم
مسيلمة الكذاب ١٣٢
مصطفى السباعي ٥٦٠
مصطفى صادق الرافعي ٥٩٥
مصعب بن عمير ٣٩٩
مصلح الدين الشيرازي ٣١٦
مصلح الدين سعدي الشيرازي ٤٩٥ ، ٦٦٥
مظفر الحليم ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣
مظهر جان جانان ٢٢٧
معاذ بن جبل ٣٠ ، ٣١
معاوية بن أبي سفيان ٩٦
المعتصم بالله ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٦٥٧
معين الدين الجشتي ١٦٧ ، ٤٥٢
معين الدين الندوي ٣١٣
ملتن ٥٧٤
ملتون ٦٦٥
ملك شاه السلجوقي ٤١٥
مناظر أحسن الكيلاني ٣١٣
منّة الله الرحماني ٥٤٨
مها بهارت ٥٧٠
موسى ٥٩٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٣٤ ، ٦٦٣

www.abulhasanalinadwi.org

موسى بن نصير ١٠٤ ، ٢٧٥ ، ٦٣٧
موسى عليه السلام ١٠ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ١٢١ ، ٢٧٢ .
موسوليني ٥٩١
موفق الدين بن قدامة ٤١٢
ميرحسن ٥٨٧

- ن -

نادرخان ٥٩٢، ٦١٣، ٦٤٣، ٦٥٩
نادرشاه أفشار ٦٥٢
نذير أحمد الدهلوي ٣١٦
نذير حسين الدهلوي ٥٤٦
النسائي ٥١١
نشور واحدي ٣١٣
نظام الدين البدايوني ٤١٢
نظام الدين الدهلوي ١٠٤
نعمان ٥٥٧
نكلمسن ٥٩١ ، ٦٦٨
نوح عليه السلام ٤٠ ، ٤١ ، ٦٨ ، ٤٨٧
نور الدين ١٠٤
نوشيروان ٣٢٥
نيتادى انكلو ٣٣٣

- هـ -

هـ . ج . ولس ٤٥٦
هـ . ج . ويلز ٤٦٨
هارت فورد ١٤٠
هارون الرشيد ٣٥٢ ، ٤١٥ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٦٥٦
هاكنس ٣٥٣
هرش ٤٣٦
همايوت ٦٥٨
هنري فورد ٤٤٠
هود عليه السلام ٤٠ ، ٤١ ، ٦٩ ، ٦٤٩
هولاكو ٦٥٢ ، ٦٥٩
هيجل ٦٢٧
هيرالدليمب ٤٦٥ ، ٤٦٨
هيرالدهوفدنج ٣٤٤ ، ٣٦٤
هيرموباستر ١٤١

- و -

وحدي الزمان اللكهنوي ٥٣٦
ورقة بن نوفل ٢٦٧
ولي الله الدهلوي ، أحمد بن عبد الرحيم ٤٩ ، ٥٥ ، ٨٥ ، ١٠٤ ، ٢٩٢ ، ٤١٢ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٤٥١ ، ٥٧٧
الوليد بن عبد الملك ٤١٥ ، ٤٤٤
وليم داويد سن ٤٦١
وليم ميور ١٢٨

www.abulhasanalinadwi.org

وهيري ١٢٨
ويديار هرمهاجن ٣٣٤
ويلهم وينسل ٣٢٨

- ي -

يحيى بن يحيى المصمودي ٥٣٤
يعقوب بن أبي يوسف البياني ٥٣٥
يوحنا ٥٧٠
يوسف عليه السلام ٣٤ ، ٣٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦
يوسف القرضاوي ٥٤٩
يونس عليه السلام ٦٨

A. j. Hammerton ٣٥٢
A. Parth ١٢٤
A. Toymbee ٤٦٤
Cyril henry philips ٣٢٣
Don Adams ٢٠٠
Ernest de bunsen ٤٣٨
F. W. Gandford ٢٠١
j. H. Denison ٤٥٧
H. G. Vells ٣٦٥
L. S. S. 6.Malley ٣٣٠
Percymeinn ٢٦٠
Percy sykes ٣٢٥
Robert Briffault ٤٥٧
Robent. H. Pfeiffes ١٢٤
Storely tlonpool ١٠٠
Vaidya c.v ٣٣١
Vernon mallinson ٢٠٢
W. G. Deburgh ٣٢٣
W illiam L.yanges ٣٢٤

www.abulhasanalinadwi.org

فهرس الموضوعات

النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ٥

المحاضرة الأولى

النبوة حاجة الإنسانية إليها وفضلها على المدنية ٦

حديث من وحي المكان ٦

مهمة الجامعة الأساسية ٦

حاجة العصر إلى هذا الحديث ٧

النظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن ٨

حديث أثير حبيب ٨

صفوة الخلق والمثل الكامل للإنسانية ٩

تصوير النبوة والمثل الحكيم ١٠

الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة ١٥

ضلال الفلسفة اليونانية وسرُّ شقائها وخيبتها ١٦

عثرة الفلسفة التي بدأت في العصر الإسلامي ١٨

انفراد الأنبياء واختصاصهم بالعلم النافع المنجي ١٨

مصير الأمم المتمدنة الراقية التي استغنت عن علم الأنبياء ١٩

مثل العلم الذي يجيء به الأنبياء مع علوم البشر وصناعاتهم ١٩

لا استغفاء ولا استكبار بعد بعثة الرسول ٢١

الأقطار الإسلامية والعربية في خطر عظيم ٢١

طوائف العلماء والباحثين في مدينة جديدة ٢٢

www.abulhasanalinadwi.org

مهمة الأنبياء في هذه المدينة ٢٣
أهم الواجبات وأقدس المهمات ٢٣
العامل الأساسي الأكبر في صلاح البشرية وارتقاء المدنية ٢٤
بقايا النبوة وآثار دعوتها وجهادها ٢٥
المحاضرة الثانية
سمات النبوة وخصائص الأنبياء ٢٧
جناية الأساليب الصناعية والمصطلحات السياسية على فهم النبوة ... ٢٧
الحاجة إلى دراسة القرآن المجردة عن التأثيرات الخارجية ٢٨
الفارق الأساسي بين الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والمصلحين .. ٢٨
الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء وفي التشريع ٣٠
إخلاص الدين لله ، وإفراد العبادة له ٣٢
الجاهلية الخالدة العالمية وجنايتها على البشر ٣٤
فهم الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته ٣٥
ما يجب أن يكون الركن الأساسي في الدعوات الدينية وشعار الدعاة . ٣٦
وصية للشباب والدعاة والكتاب ٣٦
عقيدة الآخرة والاهتمام بها في سيرة الأنبياء ودعوتهم ٣٩
الحافز الحقيقي إلى الدعوة وبذل النصح ٤٠
سيطرة هذه العقيدة على أتباع الرسل ٤٠
مناط الأمر الثواب والجزاء في الآخرة ٤١
سيرة الأنبياء وأصحابهم في الزهد وإيثار الآخرة على الدنيا ٤١
الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية ٤٢
مطالبة بالإيمان بالغيب ٤٣
البعد عن الأساليب الصناعية والاعتماد على الفطرة السليمة ٤٨
المحاضرة الثالثة
أئمة الهدى وقادة الإنسانية ٥٢
عبث القادة والزعماء بالإنسانية ٥٢
الحاجة إلى الأنبياء المعصومين عن الخطأ ٥٣

www.abulhasanalinadwi.org

أمانة وإخلاص ٥٣
أمان وضمان للأتباع ٥٥
حقيقة العصمة وطرقها ٥٥
جديرون بالطاعة والاتباع ٥٦
محط العناية والرضا ٥٧
سر تفضيل عادات وأوضاع وحقيقة الشعائر ٥٧
مؤسسو حضارة وأسلوب خاص من الحياة ٥٩
حضارة إبراهيمية محمدية ٥٩
خصائص هذه الحضارة وسماتها ٥٩
دعوة القرآن إلى اتباع الأنبياء وحثّه على تقليدهم ٦١
الإجلال المنبعث من أعماق القلب والحب العاطفي ٦١
تأثير عاطفة الحب وسر تفاني الصحابة في طاعة الرسول ٦٢
نتيجة ضعف عاطفة الحب في العالم الإسلامي اليوم ٦٣
لا فلاح لأمة بعث فيها النبي إلا في اتباعه وإيثاره ٦٤
وضع العالم الإسلامي والعربي اليوم وسببه ٦٤
المحاضرة الرابعة
بين الإرادة الإلهية والأسباب المادية ٦٦
تفاوت ما بين الأنبياء وخصومهم في الأسباب المادية ٦٦
شيء مقصود ومطرد مستمر ٦٧
تشجيع على التجربة وإطماع في رحمة الله ٦٧
سنة الله مع جميع أنبيائه ٦٨
أعظم تحد للمادية المسرفة ، وأكبر ثورة على عبادة الأسباب ٦٩
تحدي قصة موسى للعقل المادي الضيق ٧١
مخالفة قصة يوسف للمألوف المعروف ٧٣
مماثلة بين قصة يوسف ومحمد صلى الله عليهما وسلم ٧٣
تبشير لرسول الله بالنصر الكريم والمستقبل العظيم ٧٤
انتصار مقرون بانتصار الأمة ٧٥

www.abulhasanalinadwi.org

مصدر القوة والثقة والأمل للدعاة والعاملين والمؤمنين ٧٥
إما الإيمان بدعوة الأنبياء وإما الهلاك والدمار ٧٦
لا قيمة للمصالح الفردية والقومية ٧٦
التفكير الخاطىء السائد ٧٧
سلاح المؤمن ومفتاح النجاح والإيمان والطاعة ٧٨
لا مستقبل للأمة الإسلامية إلا في طريق الأنبياء ٧٨
المحاضرة الخامسة
عظمة البعثة المحمدية ٨٠
نكبة العصر الجاهلي ٨٠
فقدان العلم الصحيح ٨٠
فقدان الإرادة الخيِّرة القويَّة ٨١
فقدان الجماعة التي تنصر للحق ٨١
الحاجة إلى طلوع شمس جديدة ٨١
تعاون الفلسفة والوثنية على إضعاف الإيمان وإضلال الإنسان ٨٢
لا يغيِّر الوضع الجاهلي إلا الإيمان النبوي القوي العالمي ٨٣
الحاجة إلى أمة تُبعث للإصلاح والكفاح الدائم ٨٤
تأثير البعثة المحمدية ٨٤
مولد عالم جديد ٨٥
تصوير للعصر الجاهلي ٨٥
اتجاه عالمي جديد ٨٦
الأمة المحمدية معجزة الرسول ٨٧
المحاضرة السادسة
مأثرة النبوة المحمدية ٩٠
أهمية الإنسان ٩٠
أسرار الفطرة الإنسانية وعجائبها ٩٠
الإنسان فوق كل مساومة وتقويم ٩١
مآثر النبوة المحمدية ٩٢

www.abulhasanalinadwi.org

واقع أجمل من الخيال والشعر ٩٢
الفرد الصالح في مختلف مظاهره ومجالات الحياة ٩٣
اللبنات التي قام عليها المجتمع الإسلامي ٩٣
نجاح هذا الفرد في المحن والتجارب ٩٤
زهد الولاة وتقشفهم في الحياة ٩٤
نموذج إنساني رائع ٩٦
الجيل الإسلامي الأول ٩٧
تأثير الرسالة المحمدية في الأجيال المتأخرة ٩٨
بعض تلاميذ المدرسة المحمدية العالمية الخالدة ٩٩
إنتاج هذه المدرسة المباركة الدائم في كل الأمم ١٠٣
المحاضرة السابعة
محمد رسول الله ﷺ آخر الرسل وخاتم النبيين ١٠٥
دين يبلغ نقطة الكمال ، وأمة تضطلع بأعباء خلافة النبوة ١٠٥
إعلان انتهاء سلسلة النبوة على محمد ﷺ وانقطاعها بعده ١٠٥
أساليب القرآن وطرقه في تقرير هذه الحقيقة وغرس هذه العقيدة .. ١٠٧
صفات لا تليق إلا بالنبي الخالد والرسول الخاتم ١٠٨
القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلها ، وكيف أمكن ذلك؟ ١٠٩
صلة الأمة الوثيقة الدائمة بمحمد ﷺ وما يتصل به ١١٢
وصف القرآن للرسالة المحمدية وما يقتضي ذلك ١١٤
عموم الرسالة المحمدية للأمم والشعوب والطبقات ١١٥
الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ ١١٩
سكوت القرآن عن بعثة نبي جديد ١٢٩
الأحاديث الصحيحة الصريحة المتواترة ١٣٠
إجماع الصحابة والأمة الإسلامية على انقطاع النبوة بعد محمد ﷺ . ١٣١
المحاضرة الثامنة
محمد رسول الله ﷺ آخر الرسل وخاتم النبيين ١٣٤
انقطاع النبوة تكريم للإنسانية ورأفة بها ١٣٤

www.abulhasanalinadwi.org

مشكلة كثرة المتنبئين في الديانات السابقة وخطرها ١٣٦
ختم النبوة نتيجة لوضع هذا الدين الكامل ١٤٢
حيوية هذا الدين ، وقوة توليده ، وإنتاجه للعارفين ١٤٢
اتصال تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، وسرُّه ١٤٥
جناية عقيدة استمرار النبوة أو «الإمام المنتظر» على الشعور بالمسؤولية ١٤٦
رحمة بالأمة الإسلامية ومنّةٌ عليها ١٤٧
الحارس من الفوضى الفكرية ١٤٨
فضل عقيدة ختم النبوة على المدنية ١٤٨
فتنة المتنبئين الكبرى ١٤٩
فتنة «المكالمات والمخاطبات الإلهية» ورؤية الباري تعالى ١٥١
الإلهام الجماعي لمصلحة الإسلام والمسلمين ١٥٣
التفريق بين المسلمين ١٥٦
ألدّ أعداء الإسلام ١٥٨
مطالبة القرآن الانقياد التام والاستسلام الكامل ١٥٩
أهمية الحضارة في تاريخ الديانات وحياة أصحابها ١٧٣
مصادر العلوم الإنسانية ١٨٣
مستوى الثقافات ١٨٥
السر في نمو الاستشراق ١٨٥
التفرغ ١٨٦
الشخصيات الأدبية المعاصرة ١٨٧
المعرفة من أجل المعرفة ١٨٨
الظمأ للمعرفة يجب ألا يكون حالة عابرة ١٨٩
منابع الدراسة الإسلامية تكمن في الإيمان ١٨٩
أهمية اللغة العربية ١٩٠
تجنبوا إحداث الفوضى ١٩١
نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية وأثره البعيد ١٩٣
حلّ المشكلة ٢٠٥

www.abulhasanalinadwi.org

العمل المطلوب ٢٠٦
الإسلام في عالم متغيّر ٢٠٨
التغيُّر قانون الحياة ٢٠٩
الدين هو حارس الحياة ٢١٠
بعض المحن في تاريخ الدين ٢١١
ندرة ذوي المواهب ٢١٣
سهلة مثلما هي معقدة ٢١٣
انطواء على الانتحار ٢١٤
سوء فهم ٢١٥
الدين والتمدن ٢١٦
مسؤولية العلماء نحو التحدي العصري الكبير ٢١٧
تحدي العصر الحديث ٢١٨
النقطة التي يلتقي عليها المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي ٢١٩
التحدي الأكبر ٢٢٠
الحقائق التي تضرب على جذور المادية ٢٢١
لدُوا للموت وابنوا للخراب ٢٢٢
إن الدنيا ليست موضع هيام وغرام ٢٢٢
أصبحت المادية اليوم راكباً بدل أن يكون مركباً ٢٢٥
روح القناعة ٢٢٦
المراد من الحكمة ٢٢٨
لا يتم تعليم الكتاب والحكمة بدون التزكية ٢٢٩
الحاجة إلى رجال متمردين على المادية متسامين على الأغراض ٢٣١
ليس هناك شيء يملأ هذا الفراغ ٢٣٢
إنما الشباب هم أولئك الذين يقتنصون النجوم ٢٣٤
الصراط المستقيم في دقّته وحدَّته كالصراط الذي يواجهه الجن ٢٣٥
إن التسهيلات تسبب العقبات في طريق الحياة ٢٣٦
ربكم يخاطبكم ٢٣٦

www.abulhasanalinadwi.org

كانت القضية قضية الربوبية ٢٣٧
طموح الشباب وفعاليتهم ٢٣٨
طريق مفروش بالأزهار وطريق مفروش بالأشواك ٢٣٩
وربطنا على قلوبهم ٢٤٠
مقاومة المادِّية المسلَّحة ٢٤٢
إن الإسلام هو وحده الحريُّ بالإرشاد والقيادة ٢٤٣
العناية بتربية السيرة ٢٤٤
العناية بنفسه قبل غيره ٢٤٤
حذار أن يكون نصيب السلب أكثر من الإيجاب ٢٤٤
وسِّعوا دراستكم ٢٤٥
إنكم موضع حبي واهتمامي ٢٤٥
الأرض الخصبة التي تنبت الزروع والثمار وتنجب العباقرة والرجال ٢٤٧
ترنحت جوانحي حينما زرت هذه الجامعة ٢٤٩
أنفقوا خير مواهبكم في تعمير هذه البلاد ٢٤٩
الفلسفات والنظريات والبحوث العلمية ٢٥٠
العلم لا يتوقف ركبه على مرحلة ٢٥١
يا ليته تم هذا العمل المشرف الجليل في الدول الإسلامية ٢٥٢
أحرزوا جائزة نوبل ٢٥٣
الأرض الخصبة في قلوب الأمة الإسلامية ٢٥٤
الأرض المخصبة المنتجة للزروع والمنجبة للرجال ٢٥٥
غاية التعليم والتربية في العالم الإسلامي ومنهاجه ٢٥٧
العلم حقيقة ٢٥٨
الغاية الأولى والأساسية من التعليم ٢٥٩
أمة محمد ﷺ أمة ممتازة في خصائصها ومزاياها ٢٦١
قضية البلاد الإسلامية أهم وأكبر خطراً ٢٦٢
المسؤولية الأولية لجامعة إسلامية في بلد إسلامي ٢٦٣
لا بد من اطمئنان القلب والعقل معاً ٢٦٣

www.abulhasanalinadwi.org

مصير العلم مرتبط بالقلم ٢٦٥
هذا الدين لن يفارق العلم ٢٦٧
عصارة كل علم وثقافة ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ٢٦٧
العناية بتربية السيرة ٢٦٩
الغرض الأصيل من العلم هو التوصل إلى الإيمان واليقين ٢٧١
واجب أصحاب الاختصاص وكبار المثقفين ٢٧٣
مأثرة العلماء في الدول الإسلامية ٢٧٤
الفاتحون للمسلمين يقعون مفتوحين للإسلام ٢٧٥
إن هذا الدين نابع من العلم ٢٧٦
المسيحية لا تحمل شريعة مستقلة ٢٧٧
الإسلام والعلم متلازمان ٢٧٩
الإسلام لا يساير الزمان فحسب بل يوجهه ٢٧٩
يجب أن نؤثر الإسلام على جميع المصالح والأغراض ٢٨٠
لا بد من الإيثار وتقديم التضحية ٢٨٢
مدرسة شبه القارة الهندية العربية والأدبية ٢٨٦
مكانة العلم ومسؤوليات العلماء ٢٩٥
لمحة عن المدرسة الأدبية الإسلامية الهندية ٣٠٥
دور الإسلام الثوري البنَّاء في مجال العلوم الإنسانية ٣٢٠
اعتذار وتوضيح ٣٢١
الحاجة إلى استعراض العالم القديم عقائدياً ، وعقلياً ، وخلقياً . . . ٣٢١
يونان القديمة ، ودورها القيادي الساحر في عالم العلم والعقل . . . ٣٢٢
الهند القديمة ومكانتها في الفلسفة والعلوم الرياضية ٣٢٣
إيران في سعة مملكتها وفي أوج حضارتها ٣٢٤
تناقضات عجيبة في حياة الشعوب الثلاثة القائدة للعالم ٣٢٦
مجموع أساطير (الميثالوجية) عند اليونان ٣٢٦
انتباه بعض كبار علماء الإسلام لهذه الحقيقة ٣٢٨
السرُّ في اضطراب اليونان العقلي والعقدي ٣٢٩

www.abulhasanalinadwi.org

علم الأصنام (الميثالوجية الهندية) وكثرة الآلهة ٣٣٠
التطرف الإيراني العقائدي ٣٣١
التفسخ الخلقي والانحلال الاجتماعي في مراكز العلوم والحكمة .. ٣٣٢
في يونان ٣٣٣
في الهند ٣٣٤
في إيران ٣٣٥
حيرة واضطراب وفلسفات سلبية متناقضة ٣٣٥
وحدات علمية متناثرة بعيدة عن واقع الحياة ٣٣٧
البعد عن النبوءات وتعاليمها هو السبب الرئيسي لشقاء هذه الشعوب ٣٣٧
فضل النبوة والأنبياء والحاجة إليهم ٣٣٨
أساس للعقائد والأعمال والأخلاق والمدنية ٣٣٩
النبوءة وتهذيب الأخلاق وتزكية النفوس ٣٤٠
لمحة عن الجيل الذي نشأ في أحضان النبوة المحمدية ٣٤١
الطريق الوحيد إلى الوحدة والتوحيد ٣٤٣
العثور على الوحدة في الظواهر الكونية ٣٤٤
أثر عقيدة التوحيد في الحياة وفهم الكون ٣٤٤
الدعوة إلى التفكر في الأنفس والآفاق وماضي الأمم ٣٤٥
الحركة العلمية العالمية الفريدة التي أنشأتها تعاليم الإسلام ٣٤٧
أكبر انحراف وقع في خط التقدم العلمي في أوربا ٣٤٨
تعليم الأسماء لآدم كخليفة ومعناه العميق البعيد ٣٤٨
أعظم غفلة وجهالة ظهرت على مسرح التاريخ ٣٤٩
خصائص الحركة العلمية الإسلامية الخمس ٣٥٠
١ ـ العالمية والإنسانية ٣٥٠
٢ ـ الشعبية ٣٥١
٣ ـ الحركية ٣٥٤
٤ ـ الفتوة والعمل بالعزيمة ٣٥٥
٥ ـ التركيز على العلم النافع ٣٥٦

www.abulhasanalinadwi.org

حين لا تنفع العلوم والآداب ، وينفع علم يستطيع به الإنسان ٣٥٦
التوجيه الإسلامي للعلوم ، مفهومه وأهدافه ٣٥٩
بداية لا تتوقع ٣٦١
الربط بين الوحدات العلمية المفرقة ٣٦٣
نهضة أوربا وإسهام الإسلام في عهد العلم ٣٦٥
تفوق المسلمين العلمي الماضي ودورهم الرائد ٣٦٦
أئمة العلوم وواضعو العلوم من المسلمين ٣٦٧
كارثة علمية تاريخية ٣٦٨
انقطاع صلة العلم بالإسلام مصدر الفساد في هذا العصر ٣٧٠
دور الأمة الإسلامية في الحركة العلمية والتأليفية العالمية ٣٧٦
علاقة العلم بالإسلام ٣٨٣
علاقة العلم الإنساني بالاسم الرباني ومسؤولية المسلمين ٣٨٩
في مهد الإسلام ٣٩٥
محمد إقبال في مدينة الرسول ﷺ ٤٠٠
وفود الأمة بين يدي نبيها ﷺ ٤١٠
من غار حراء ٤١٩
ميلاد عالم جديد ٤٢٦
النبي الخاتم ، والدين الكامل ، ومالهما من أهمية ٤٣٢
محمد رسول الله ﷺ ـ الرسول الأعظم وصاحب المنَّة الكبرى ٤٥٤
يقول الباحث ٤٦١
رسالة سيرة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين ٤٧٣
في ظلال البعثة المحمدية ٤٨٤
جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردوية ٤٩١
الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية ٥٠٣
الحيوية الكامنة في وضع الإسلام وجدارته لقيادة الركب البشري . . ٥٠٤
كيف استطاعت الأمة أن تساير الحياة ، وتقودها بالشريعة ٥٠٥
الاجتهاد والمجتهدون في القرنين الثاني والثالث ٥٠٦

www.abulhasanalinadwi.org

فضل الاجتهاد في حياة الأمة الإسلامية ٥٠٧
كيف كان حال الناس قبل القرن الرابع ٥٠٩
القول العادل الوسط في المقلد الذي يقصد اتباع الرسول ﷺ أصلاً . ٥١١
مزية المذاهب الأربعة ٥١٢
الحاجة إلى الاجتهاد الفقهي وتقصير الجيل الجديد ٥١٣
سبب تعطيل الاجتهاد في بعض المناطق والأدوار ٥١٥
حدود الاجتهاد ومجالها ٥١٥
الإسلام في عالم متغير ٥١٦
الدين هو حارس الحياة ٥١٧
الإسلام والعلم الحديث ٥١٩
الإمام مالك ، وكتابه الموطأ ٥٢٦
البحث العلمي والفقهي والتحقيق والاجتهاد ٥٣٧
مستوى الثقافات ٥٣٩
السرُّ في نموِّ الاستشراق ٥٣٩
التفرُّغ ٥٤٠
المعرفة من أجل المعرفة ٥٤٠
الظمأ للمعرفة يجب ألا يكون حالة عابرة ٥٤١
منابع الدراسة الإسلامية تكمن في الإيمان ٥٤١
تجنبوا إحداث الفوضى ٥٤٢
التغير والثبات للزمان ٥٤٣
الدين هو حارس الحياة ٥٤٤
عبقرية علماء الفقه في الجمع بين ما يقتضيه التطور العصري ٥٤٥
نظرة عجلى على الإنتاج الفقهي في شبه القارة الهندية ٥٤٥
لفت نظر إلى علم الحديث والعناية الزائدة به ٥٤٦
تنويه بمجمع الفقه الإسلامي الهند ٥٤٧
عمل مجمعي في تأليف كتاب في قانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين ٥٤٨

www.abulhasanalinadwi.org

الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وكتابه صحيح البخاري ٥٤٩
ميزة الرسول الأعظم ـ ﷺ ـ وقيمة الحديث ، ودوره ٥٥٠
حركة جمع الحديث وتدوينه التي لا نظير لها ٥٥٠
دور الحديث في تقويم الأمة وبقائها على المنهج المطلوب ٥٥١
مصدر قوة وميزان عدل ٥٥١
منزلة الإمام محمد بن إسماعيل البخاري في فن الحديث وعبقريته . ٥٥٢
مزية الجامع الصحيح للبخاري وفضله ، وعناية الأمة به ٥٥٣
مزية الأبواب والتراجم ودقائقها ٥٥٥
شأن الإمام البخاري مع الحديث النبوي ٥٥٦
حاجة الأمة إلى الحديث ودوره في حسبة الأمة ٥٥٧
دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي ٥٦٠
العناصر التي كونت المجتمع الجديد ٥٦٣
كيف عاش الصحابة الإسلام ، ذوقاً ومشاهدة وعملاً؟ ٥٦٤
كان خلقه القرآن ٥٦٥
لا بد من مناخ مناسب وبيئة متهيئة للأحكام ٥٦٧
الديانات القديمة ضيعت أخبار حياة أنبيائها وسيرهم ٥٦٩
مقارنة سريعة بين سير الأنبياء السابقين ومؤسسي الديانات ٥٧١
الحديث ميزان عادل لوزن حياة المسلمين وواقعهم ٥٧٤
الحديث وسيلة قوية للحسبة على المجتمع الإسلامي ٥٧٤
شهادة التاريخ لتأثير الحديث وكتب السنة في الإصلاح والتجديد .. ٥٧٥
الحديث سجَّل الجو الإيماني الأول وخلَّده للأجيال القادمة ٥٧٨
المجتمع الإسلامي بألوانه المختلفة والحياة بحقائقها المتنوعة ... ٥٧٩
عناية المسلمين بتدوين الحديث وخدمته ، تقدير العزيز العليم ... ٥٨٠
توارث الأمة للذوق الديني والمزاج الإسلامي ٥٨١
دافع جديد إلى إنكار الحديث والسنة ٥٨٢
التشكيك في حجية الحديث وإنكار السنة ٥٨٣
شاعر الإسلام : الدكتور محمد إقبال : حياته ، وثقافته ٥٨٦

www.abulhasanalinadwi.org

أدب الحديث النبوي الشريف ٥٩٤
العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال ٦٠٤
المدارس الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال ٦٠٥
المدرسة الثانية ٦٠٥
العامل الأول ٦٠٧
العامل الثاني ٦١١
العامل الثالث ٦١٣
العامل الرابع ٦١٧
العامل الخامس ٦١٨
نظرة محمد إقبال إلى نظام التعليم العصري ومراكزه ٦٢١
نقده لنظام التعليم ٦٢٢
جنايات المدرسة ٦٢٢
مآخذه على التعليم ٦٢٤
آراؤه في العلوم والآداب ٦٢٥
تصوير للشباب المسلم ٦٢٨
الإنسان الكامل في نظر محمد إقبال ٦٣٠
بحث عن إنسان ٦٣١
المسلم هو الإنسان الكامل ٦٣١
المسلم المثالي ٦٣٢
المسلم له وجودان ٦٣٣
المسلم حيّ خالد ٦٣٤
خلق العالم للمسلم ٦٣٤
مقام المسلم مقام الإمامة والتوجيه ٦٣٥
المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة ٦٣٦
قوة المؤمن مستمدة من رسالته ٦٣٦
المسلم لا ينحصر في الأوطان والشعوب ٦٣٧
المسلم متخلق بأخلاق الله ٦٣٨

www.abulhasanalinadwi.org

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقاً ٦٣٩
الحقائق التاريخية في شعر محمد إقبال ٦٤١
دور محمد إقبال في توجيه الأدب والشعر ٦٦١
فهرس الآيات الكريمة ٦٧١
فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٦٨٩
فهرس الأشعار ٦٩٤
فهرس الأعلام ٦٩٦
فهرس الموضوعات ٧٠٩

www.abulhasanalinadwi.org

من تُراث العلاَّمة النَّدوي

جمع وإعداد : سيد عبد الماجد الغوري

سلسلة رائعة من مجموعات محاضرات ومقالات العلاَّمة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي في موضوعات مختلفة ، صدر منها :

١ ـ دراسات في إعجاز القرآن .

٢ ـ مقالات حول السيرة النبوية .

٣ ـ محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٤ ـ مقالات إسلامية في الفكر والدعوة (٣ أجزاء) .

٥ ـ مقالات وبحوث حول التعليم والتربية الإسلامية .

٦ ـ مقالات حول أعلام المسلمين ومشاهيرهم .

٧ ـ أبحاث حول الاستشراق والمستشرقين .

دار ابن كثير

دمشق ـ بيروت

www.abulhasanalinadwi.org